

المحقق آية الله الشيخ محمّد السند

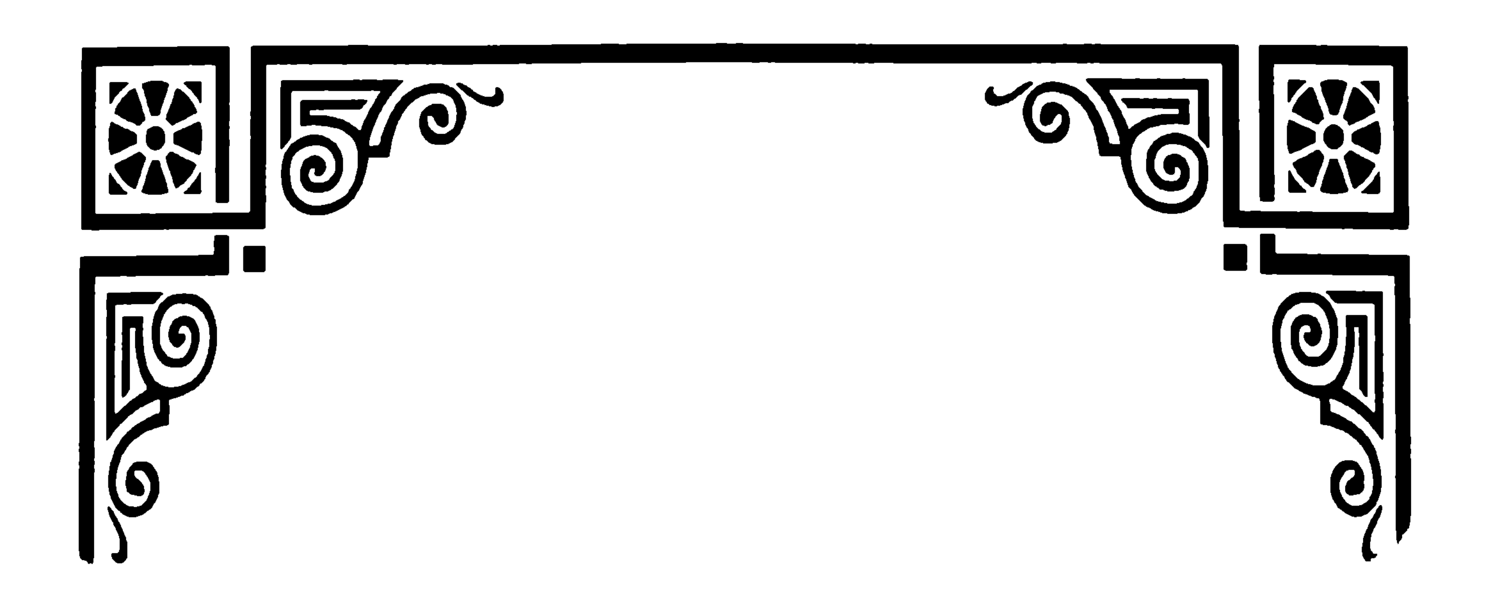
الموسوعة التفسيرية ١

تفسير
أمومة الولاية والمحكمات
للقرآن الكريم



الشيخ محسن الجصّاني





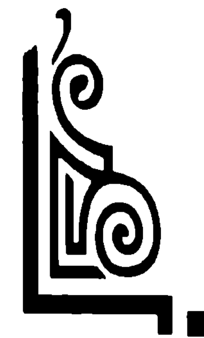
تفسير أمومة الولاية والمحكمات للقرآن الكريم

الولاية قطب القرآن عليها تستدير محكماته

بحوث سماحة الأستاذ آية الله الشيخ محمد السند



تأليف الشيخ محسن الجصاني












بسم الله الرحمن الرحيم

پدیدآورنده: سند، محمد، ۱۳۴۰
عنوان: تفسیر أمومة الولایه و المحکمات للقرآن الکریم، الولایة قطب القرآن علیها تستدیر محکماته
تکرار نام پدیدآور: تألیف محسن الجصانی
مشخصات نشر: تهران، صادق،۱۴۳۴هـ ۱۳۲۰ م، ۱۳۹۲.
مشخصات ظاهری: ۷۱۹ص.
بهاء: ۱۵۰۰۰۰ریال: ۲-۹۷-۵۶۰۴-۹۶۴-۹۷۸
وضعیت فهرست‌نویسی: فیپا
یادداشت: بصورت زیرنویس
یادداشت: عربی
موضوع: تفسیر ـ فن
موضوع: تفسیر ـ فن ـ روش‌شناسی
موضوع: قرآن ـ علوم قرآنی
شناسه افزوده: الجصانی، محسن، ـ نویسنده
رده کنگره: ۱۳۹۲و۷ت ۹س / ۵/ ۹۱ BP
رده دیویی: ۲۹۷/۱۷۱
شماره مدرک: ۲۹۹۱۶۸۳

الکتاب: تفسیر أمومة الولایة و المحکمات للقرآن الکریم.
المؤلف: شیخ محسن الجصانی.
الطبعة: الاولی ۱۴۳۴هـ ق.
المطعبة: شریعت
الکمیه: ۲۰۰۰ نسخة
ردمک: ۲-۹۷-۵۶۰۴-۹۶۴-۹۷۸
الناشر: موسسة الصادق للطباعة و النشر
ایران ـ طهران ،شارع ناصر خسرو رقاق حاج نایب، سوق المجیدی
(۰۰۹۸) ۲۱-۳۳۹۳۴۶۴۴

تقديم

باسمه تعالى

لا شكَّ ولا ريب أنَّ القرآن الكريم فيه علوم تواكب مع ما يحصل من تطوّرات في مختلف العلوم وعلى كافة الأصعدة من حين إنزاله إلى يوم الدين، إلّا أنَّ ذلك موقوف على الاستظهار الصحيح وفق القواعد والموازين العلميّة والتأمل وبذل المزيد من الجهد لاستخراج ما قدْ خفي على مِن قبلنا بما يوفق الله تعالى له، ولا يكون هذا بمقدور البشر لوحده وبمعزل عن أهل القرآن الناطق الذين أذهب الله عنهم الرجز وطهرهم تطهيراً؛ هم الرسول وآله الطاهرين، وكل مَن زاغ أو مال من الأولين والمعاصرين عن مدرسة الوحي مدرسة أئمة أهل البيتعليهم السلام كما هو واضح لمن تتبع التأريخ وجدناه قدْ ضَلَّ ودخل صحراء التيه، ولم يزدد إلّا بُعْداً عن جادة الحق، وهَلَك وأهلك.

ومن الواضح أنَّ الصفة العلمية السلبية في أي علم من العلوم وخاصة في فقه الفروع والعقائد والتفسير ... الخ هي أخطر من الصفات العملية السلبيّة.

التعريف بمنهجنا التفسيري:

ويقع في أمور عِدَّة:ـ

الأمر الأوَّل: إنَّ منهجنا التفسيري أمومة ولاية أهل البيتعليهم السلام على المحكمات فضلاً عن المتشابهات في القرآن لا يبحث مطلق الموضوعات

التي بحثها القرآن الكريم، وإنَّما يبحث ويتتبع ويقف على محكمات القرآن لأنَّ المحكمات هي العمود الفقري والهيكل الأساسي الذي تبتني عليه خارطة القرآن الكريم.

الأمر الثاني: أكَّد وحَثَّ القرآن الكريم والنبي الأكرمصلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيتعليهم السلام على إتقان المحكمات، فإنَّ المتقن لا يحصل لديه إتقان بكل تفاصيل القرآن تلقيائياً.

أمَّا القرآن الكريم فأكَّد على ذلك بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ . . . ﴾(١) ﴿كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾(٢).

ولا يفهم: من هذا الكلام أنَّ الآيات المتشابهة لا يُعْمل بها ويُعْرِض عنها، كلا، وإنَّما العمل بالمتشابهة جائز وحُجّة ويرتب عليه الأثر ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾(٣) ولكن بشرط إرجاع المتشابه إلى المحكم ورفع تشابهه بذلك، والروايات نهت عن العمل بالمتشابه بمعزل عن المحكم ومستقلاً عنه، بخلاف ما إذا أرجع العمل به إلى المحكم فإنَّه آنذاك المتشابه ـ حجة فهناك آيات كثيرة من قسم المتشابه منها: ـ قوله تعالى ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ﴾(٤) و ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾(٥) ﴿وَجَاء رَبُّكَ﴾(٦) و ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.
(٢) سورة هود: الآية ١.
(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.
(٤) سورة القيامة: الآية ٢٢.
(٥) سورة الفجر: الآية ٤.
(٦) سورة الفجر: الآية ٢٢.

أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ ...﴾[١] و ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[٢] و ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾[٣].

وغير ذلك من الآيات القرآنية المتشابهة بلْ سيأتي أنَّ المتشابه ليست ضابطته إثباتية فقط وهي إجمال الدلالة، بلْ العمدة هو كون مضمون الآية مسألة تفصيلية تفريعية ومن الرتب الدانية في منظومة ونظام قواعد الدين والشريعة، إذنْ المتشابه بالأصل بحث ثبوتي في نظام ومنظومة الدين، ولا يصح العمل به إلّا بالإرجاع إلى المحكمات القرآنية كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾[٤] و ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾[٥] و ﴿إِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾[٦]، وغيرها.

وذلك لأنَّ المحكم كما هو واضح لا يحتاج إلى تفسير ويَدُلّ على المعنى المقصود منه دلالة واضحة قطعية لا تحتمل تأويلاً ولا تخصيصاً ولا نسخاً، بلْ المحكم ليسَت ضابطته ـ كما سيأتي إنْ شاء الله خلال البحث ـ دلالية وإثباتية فقط، بلْ العمدة في دلالته هي ثبوتية بلحاظ رتبة المضمون في منظومة قواعد الدين والشريعة، فالمحكم ضابطته ثبوتية في نظام ومنظومة قواعد الدين، ولا نترك مجالاً للذين في قلوبهم مَرَضٌ أنْ يُضلِلوا

---

(١) سورة الرعد: الآية ١٧.

(٢) سورة الفتح: الآية ١٠.

(٣) سورة الروم: الآية ٢٧.

(٤) سورة الشورى: الآية ١١.

(٥) سورة النساء: الآية ٤٠.

(٦) سورة غافر: الآية ٥٩.

ويُفتنوا بالتأويل والتحريف.

وعليه فهذهِ حقيقة المنهج التفسيري المسمى بأمومة ولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام والمحكمات الذي دلّت عليه روايات أهل البيت عليهم السلام.

أولاً: ما رواه العياشي في تفسيره .. عن مسعدة بن صَدَقة، قال: قال أبو عبدالله عليه السلام: ـ إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب، عليها يستديرُ محكم القرآن وبها نوّهت الكتب ويستبين الأيمان[1].

ثانياً: مُحَمَّد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه، عن ابن سنان، أو عن غيره عمن ذكره، قال: ـ سألتُ أبا عبدالله عليه السلام عن القرآن والفرقان أهما شيئان أو شيء واحد؟ فقال عليه السلام: القرآن جملة الكتاب والفرقان المحكم الواجب العمل به[2].

ثالثاً: مُحَمَّد بن يعقوب عن علي بن مُحَمَّد عن بعض أصحابه، عن آدم بن إسحاق عن عبدالرزاق بن مهران، عن الحسين ابن ميمون، عن مُحَمَّد بن سالم عن أبي جعفر عليه السلام، قال: ـ إنَّ أُناساً تكلموا في القرآن العظيم بغير عِلمٍ وذلك أنَّ الله تبارك وتعالى يقول: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ...﴾ الآية، فالمنسوخات من المتشابهات، والمحكمات من الناسخات[3].

رابعاً: ... علي بن إبراهيم قال: ـ حدثنا مُحَمَّد بن أحمد بن ثابت، قال:

---

(١) تفسير العياشي، ج١، ص٧٨، ح٨ باب فضل القرآن.
(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج٢، ص٦، ح٣؛ الكافي، ج٢، ص٤٦١ ح١١.
(٣) البرهان في تفسير القرآن، ج٢، ص٧.

حدثنا الحسن بن مُحَمَّد بن سماعة عند وهيب بن حفص عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: ـ سمعته يقول: إنَّ القرآن زاجر وآخر يأمر بالجنة ويزجر عن النار، وفيه محكم ومتشابه، فأمّا المحكم فيؤمن به ويُعْمل به ويُعتبر به، وأمّا المتشابه فيُؤمن به ولا يُعمل به وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قلوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾، قال: آل مُحَمَّد الراسخون في العلم[1].

خامساً: عن أبي مُحَمَّد الهمداني عن رجل عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: سألتُه عن الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه، قال: الناسخ: الثابت، والمنسوخ ما مضى، والمحكم: ما يُعْمَلُ به والمشابه الذي يشبه بعضه بعضاً[2].

سادساً: عن أبي بصير، قال: سمعتُ أبا عبدالله عليه السلام، يقول: إنَّ القرآن فيه محكم ومتشابه، فأمّا المحكم فنؤمن به ونعمل به، وندين به، وأمّا المتشابه فنؤمن به ولا نعمل به[3].

سابعاً: عن مسعدة بن صَدَقة، قال: سألتُ أبا عبدالله عليه السلام عن الناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه؟ قال: الناسخ: الثابت المعمول به، والمنسوخ ما قدْ كان يُعْمل به ثُمَّ جاء ما نسخه، والمتشابه ما اشتبه على جاهله[4].

ثامناً: في احتجاج النبي صلى الله عليه وآله يوم الغدير وأنَّ علياً هو كتاب الله والداعي إليه: .. معاشر الناس تدبروا القرآن وافهموا آياته .. وانظروا محكماته وإلى

---

(١) تفسير البرهان، ج٢، ص٩، ح٧؛ تفسير القمي، ج٢، ص٤٥٥.
(٢) تفسير العياشي، ج١، ص٨٥، ح١؛ بحار الأنوار، ج٩٢، ص٣٨٢ ح١٩.
(٣) تفسير العياشي، ج١، ص٨٧، ح٦؛ بحار الأنوار، ج٩٢، ص٣٨٢، ح٢١.
(٤) تفسير العياشي، ج١، ص٨٧، ح٧؛ بحار الأنوار، ج٩٢، ص٣٨٢، ح٢٢

متشابه، فوالله لن يُبين لكم زواجره، ولا يوضح لكم عن تفسيره، إلّا الذي أنا آخِذٌ بيده[(١)].

الأمر الثالث: هناك أمرٌ هامّ ينبغي الالتفات إليه والتنبيه عليه من قِبَل أهلِ كل اختصاص وفي كل العلوم وبالأخص علوم فقه الفروع والأصول والتفسير والعقائد و ... الخ وحاصله:ـ

إنَّ الخوض في التفاصيل بعيداً وعميقاً بنحو مترامي الأطراف يعتبره القرآن الكريم زيغٌ، ما لم يُتمسك بالعمود الفقري للقرآن وهو أمومة ولاية الأئمة عليهم السلام على المحكمات فضلاً عن المتشابهات، وهذا هو التعمُّق المذموم في الروايات، مع أنَّ التعمق تحقيق في بادي النظرة الأولى كما يُفهم من الروايات إلّا أنَّ هناك روايات ذامَّة للتعمق والغورر في التفاصيل منها:ـ

أولاً: ما رواه الشيخ الكليني مُحمَّد بن يعقوب عن علي بن إبراهيم عن أبيه عن حمّاد بن عيسى عن إبراهيم بن عمر اليماني عن عُمرَ بن أذينة، عن أبان بن أبي عيّاش عن سليم بن قيس الهلالي عن أمير المؤمنين صلوات الله عليه: بُني الكفر على أربع دعائم: الفسق والغلو والشك والشبهة .. والغلو على أربع شُعَب: على التعمق بالرأي، والتنازع فيه، والزيغ والشقاق فمن تَعَمَّق لم يَنُب إلى الحق ولم يزدد إلّا غرقاً في الغَمَرات، ولم تنحسر عنه فتنةٌ إلّا غشيته أُخرى وانخرق دينه فهو يهوي في أمر مريج[(٢)].

ثانياً: ما رواه الشيخ الصدوق في الخصال بإسناده عن الأصبغ بن

---

(١) الاحتجاج للطبرسي، ص٦٠، الوسائل ج٢٧، ب١٣، ص١٩٣، ح٤٣.

(٢) أصول الكافي للكليني، ج٢، ص٣٧٣ ـ ٣٧٤ باب ١٩٧؛ دعائم الكفر وشعبه، تحف العقول، ص١٦٦؛ روضة الواعظين لابن فتّال ص٤٣.

نباتة عن أمير المؤمنين عليه السلام: والعتو على أربعة شعب ... الخ[١].

ثالثاً: من كلمات أمير المؤمنين عليه السلام القصار ... مَن تَعَمَّق بالباطل لم يُنَب[٢].

ومن مجموع هذهِ الروايات وغيرها يتبيَّن: أنَّ المحكم هو المحور العمود والحق، وأمَّا المتشابه الذي هو التفاصيل وتفاصيلها هي غَمَرات وفتنة ومريج إذا عكف عليها ـ التفاصيل ـ وسَبَّبَ الانشغال بها متاركة المحكمات المحورية.

إنْ قلت: إنَّ الآيات القرآنية وكذا الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام تأمر بالتدبر والتأمُّل، كقوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[٣] و ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾[٤].

قلتُ: صحيح إنَّ الآية المباركة في مقام بيان التحضيض في صورة الاستفهام، والتدبر بعد التدبر، والتأمُّل بعد التأمُّل بالآية عقيب الآية، ولكن السبب في ذم التعمق هو لأنَّ الاشتغال والانشداد إلى التفاصيل والخوض بها وفي تفاصيل التفاصيل وجزئيات الجزئيات وهلم جرا، فإنَّ مثل هذا فممّا لا ريب فيه ينتهي إلى الزيغ، وهذا معناه الخوض في المتاهات ولا تنتظم لديك الحقائق بالتفاصيل إلّا بالرجوع إلى الآيات المحكمة وهي

---

(١) الخصال للصدوق، ص٢٣٣.

(٢) عيون الحكم والمواعظ لليثي الواسطي، ص٤٥٧.

(٣) سورة مُحمَّد: الآية ٢٤.

(٤) سورة النساء: الآية ٨٢.

المحور والأم.

ومن الواضح أنَّ الزيغ مقابل الإِحكام ليسَ مختصاً بآيات القرآن أو الروايات أو علم معين أو ... الخ، وإنَّما هو منهج فكري عظيم في أي علم من العلوم ولا يمكن لأي باحث أنْ ينجو منه ـ الزيغ ـ إلّا بالحذر والتوقي من الانشغال بالتفاصيل وتفاصيلها عن المحاور الأصليّة التي هي أهم في بنيان العلم والركن الشديد الذي هو التمسُّك بآيات الأحكام والأمومة وهي العمدة، ولذا عَبَّرَ القرآن الكريم عن الدخول في التفاصيل وتفاصيلها هو اتّباع للمتشابه وللزيغ.

والخلاصة: إنَّ أحد أهم أسباب النهي عن الدخول بالتفاصيل هو لأنَّ كثرة الاشتغال بالتفاصيل وتفاصيل التفاصيل انغماراً يغفلك عن المحاور التي هي الأم والأعمدة البنيويّة سواء كان العمود البنيوي خيراً أو شرّاً، وعليه فإذا كان العمود البنيوي هو أساس النظام والمنظومة وعُمْدَة الحق والخير وأنت تركتها فإنَّك إذنْ دخلت في تفاصيل مترامية مما يوجب الشبه والاشتباهات في المسارات وسلوك مسير الباطل والشر ـ والعياذ بالله ـ وتوظيف تفاصيل المحاور للباطل من حيث لا يشعر، أو بالعكس لعله يكون العمود البنيوي عظامهُ نخرة ولكن الدخول في الجزئيات والتفاصيل وإنْ كان فيها إيجابيات إلّا أنَّه أين هذهِ التفاصيل والجزئيات الإيجابية إذا وُظِّفَت لتبيان الشرّ مما لو وُظِّفت لتبيان الخير، وبينهما بونٌ واسع وهنا سوف تضيع الموازنة عند الباحث الكريم.

ولأجل هذا لو رجعنا إلى القرآن الكريم فإنَّه لم يحمد الجزئيات سواء كانت خيراً أم شرّاً وإنَّما القرآن الكريم يريد منك أنْ تكون ذا قوة فكرية

متميزة وتملك نظام فكري خاص ومن أهل البصائر، فإنَّ طلب مطلق العلم أمرٌ غير ممدوح في الكتاب والسنة وإنَّما المهم هو العلم ومعرفة الأمومة والأهم فالأهم وليسَ هذا خاصاً بعلم الفروع أو الأصول أو التفسير أو الكلام أو ... الخ وإنَّما هو مطلوب في كل العلوم.

ولذا وَرَدَ عن الإمام الصادقعليه السلام .. إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يُحب معالي الأمور ويكره سفاسفها[1] ويروى (يبغض).

وإنْ كانت سفاسف الأمور حقائق إلّا أنها أين من أعالي الأمور.

وليست هذهِ دعوى لعدم الأكتراث بالجزئيات بحيث يلزم التفريط والتهاون بها ليسَ الأمر كذلك فلا يشتبه الأمر عليك؛ إذْ لا يتهاون بشيء في الدين ﴿كل مّنْ عِندِ رَبّنَا﴾[2].

إلّا أنَّه ينبغي التنبيه والالتفات إلى أنَّ مقدار الأهميّة التي توليها للشيء العظيم ليسَ بنفس درجة الأهمية للشيء الوضيع والأقل؛ لأنَّه إذا ساويت بينهما صار الأمر فيه خبط وخَلْط.

ولذا في ديننا الإسلامي الحنيف أنَّ التعظيم لله تعالى بدرجة والتعظيم للنبي الأكرمصلى الله عليه وآله بدرجة أُخرى، وبثالثة لتعظيم سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام وهكذا بدرجات متفاوتة لباقي ذوات المعصومين الطاهرةعليهم السلام.

---

(١) الوسائل، ج١٧، ص٧٣، ب٢٥ من أبواب مقدمات التجارة ح٣، ثم ذكر صاحب الوسائل: قال صاحب الصحاح: ـ السفساف: ـ الرديء من كل شيء والأمر الحقير.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

وعليه فلابدَّ من الالتفات والتمييز بين أصل الاكتراث وبين تساوي الاكتراث والموازنة بينها؛ ولذا مَن عَرَّف العدلَ بالمساواة فإنَّه ليسَ تعريفاً دقيقاً، وإنَّما التعريف الصحيح للعدل: ـ إعطاء كل ذي حق حقه. إذنْ الموازنة ضرورية ومهمة جداً لدى الباحث الكريم.

ولذا وَرَدَ في بعض قصار كلمات أمير المؤمنين عليه السلام **«كل علمٍ لا يؤيده عقل مضلة»**[(١)].

وقول الشاعر: **ولا خير في علمٍ يكون بلا عقلٍ.**

فإنَّ العلم بلا عقل يشكل خطراً على نتائج البحث العلمي فقد تخرج النتائج سلبيةً وغير منضبطة بقواعد وموازين العقل، فإنَّ العقل بلا علم أهونُ شراً وأقل خطراً من علم بلا عقل لأنَّ العقل يوازن بين الأمور المهمة وبين ما هو أهم كالأمومة ومعالي الأمور.

فليس المهم مطلق العلم وإنَّما المهم نوع خاص من العلم، وهكذا ليسَ كل بصيرة مهمة وإنَّما المهم الأهم نافذ البصيرة، وهكذا عندما يؤكِّد القرآن على التمسُّك بالعروة الوثقى ﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾[(٢)] فإنَّ هناك عُرَى كثيرة منها وثيقة وأُخرى وثقى أي الأَوثق والمهم منها هو الوثقى فإنَّ كل نبي من أنبياء الله تعالى وكل مُرسل هو عروة ولكن هناك عروة وثقى أكَّد القرآن الكريم على التمسُّك بها وهو الخاتم مُحمَّد رسول الله صلى الله عليه وآله فيجعل أمومة رسول الله صلى الله عليه وآله هي المهيمنة وباقي أنبياء الله تعالى ورسله تحت ظله.

---

(١) غرر الحكم للأمدي/ ٦٤٣١.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٥٦.

إذنْ القرآن الكريم والروايات تؤكِّد على ضرورة الإبصار بالدرجات والتمسك بالمحكمات لأنَّ الدخول في التفاصيل وتفاصيلها سوف لا يهتدي ولا يُبْصِر صاحبُها إلى إحكام القرآن وهدايته البالغة ولعلَّ بعض مَن يدخل في التفاصيل يشتبه عليه الحال ويجعل الفرع أصلاً، والأصل فرعاً، وهذا إنْ صَحَّ التعبير ظُلْمٌ للعلم والمعرفة وكارثة معرفية، والصحيح هو جعل الأصل أصلاً والفرع فرعاً فإذا أراد الباحث أنْ يُقوِّض كيان الأصل رعايةً للفرع فهذهِ موازنة مقلوبة.

ولا يفهم ممّا تقدَّم أنَّ الفرع والجزئيات لا يكترث بها، بلْ على العكس يُهتم بها إلّا أنَّه لا إلى درجة الاكتراث والرعاية لفرع بمستوى الأصل وإلّا لما جُعِل الأصل أصلاً والفرع فرعاً.

وفي الختام ويكملة أخيرة أقول: إنَّ منهج أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات هو البصيرة التي ما فتئنا أنْ نستلهمها من أهل البيت عليهم السلام وأنَّ المُفَسِّر لا يصير ذا بصيرة إلّا إذا اكتشف المحكمات في القرآن؛ لأنَّ ليسَ من العزيز أنْ تصبح مُفَسِّراً وإنَّما العزيز والمهم أنْ تُبْصر وتفهم محكمات الآيات، كما وَرَدَ «**اللَّهُمَّ إنّي أسألك بمعاقد العزّ من عرشك ومنتهى الرحمة من كتابك**» ولم يقل اللَّهُمَّ إنّي أسألك العز من عرشك وإنّما قال: ـ اللَّهُمَّ إنّي أسألك بمعاقد العز وليسَ أسألك مطلق العزّ وإنّما أسألك بمعاقد العز من عرشك وليسَ أسألك الرحمة من كتابك بلْ أسألك منتهى الرحمة أي العلو، وهكذا «**اللَّهُمَّ إني أسألك باسمك العظيم الأعظم**» وليسَ فقط أسألك باسمك العظيم وإنَّما أسألك باسمك الأعظم الأعظم الأعظم ـ الأعلى ـ وعليه فالمحكمات وامومة ولاية أهل البيت عليهم السلام هي

نُظْم الدين ولا تستتم معرفة نظم الدين إلّا بمعرفة الأمومة والمحكمات لا بمجرد معرفة جرد مجموعي متراكم للدين والقرآن فإنَّه لا يكفي في الوصول إلى الهداية المطلوبة في الدين، وهذا يكشف لنا أنَّه ليسَ المهم في القرآن وجود الدليل وإنَّما المهم نوعيّة وأهميّة وأقوائية الدليل وطبقته ودرجته في ضمن الطبقات في نظر القرآن فإنَّها أهم من أصل وجود الدليل، فالبصير مَن يستطع أنْ يَحْصي المحكمات في القرآن وطبقاتها لا مجرد معرفة إجمالية للمحكمات، فهذهِ مهمة صعبة جداً، ومن الله نستمد العون والتسديد.

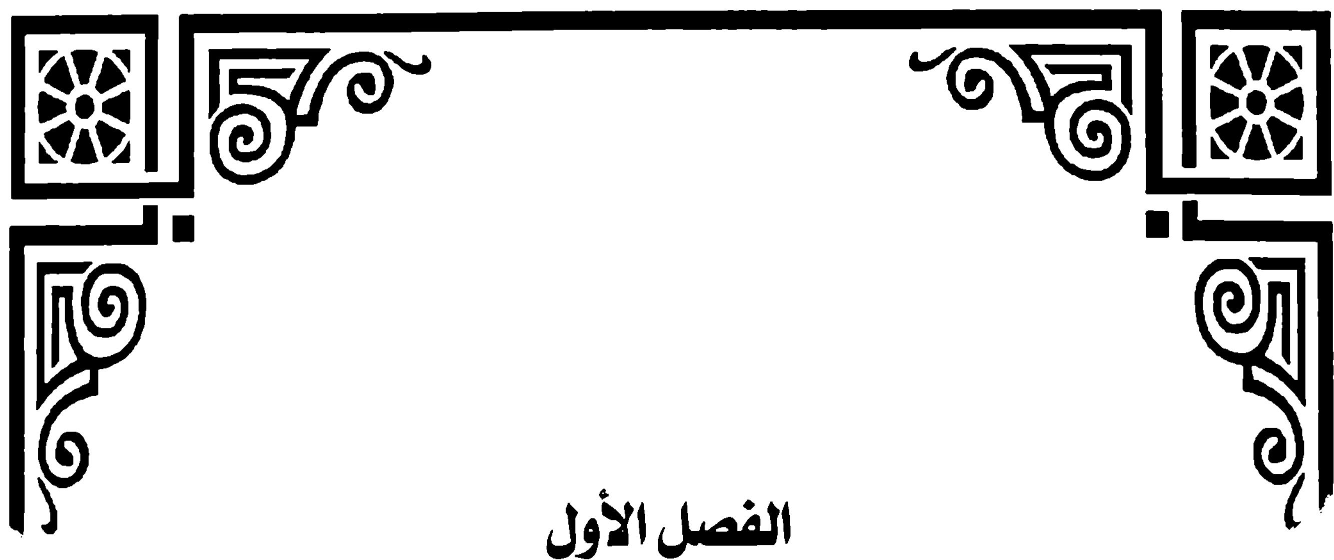
من جوار مولانا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام

النجف الأشرف

مُحمَّد السند

١٥/ ربيع ١/ ١٤٣٤هـ

٢٠١٣/١/٢٧م



الفصل الأول

منهجنا في التفسير

منهج أمومة وولاية أهل البيت عليهم السلام والمحكمات في القرآن

١ . تقديم بقلم سماحة الشيخ الأستاذ مُحمَّد سند حفظه الله.

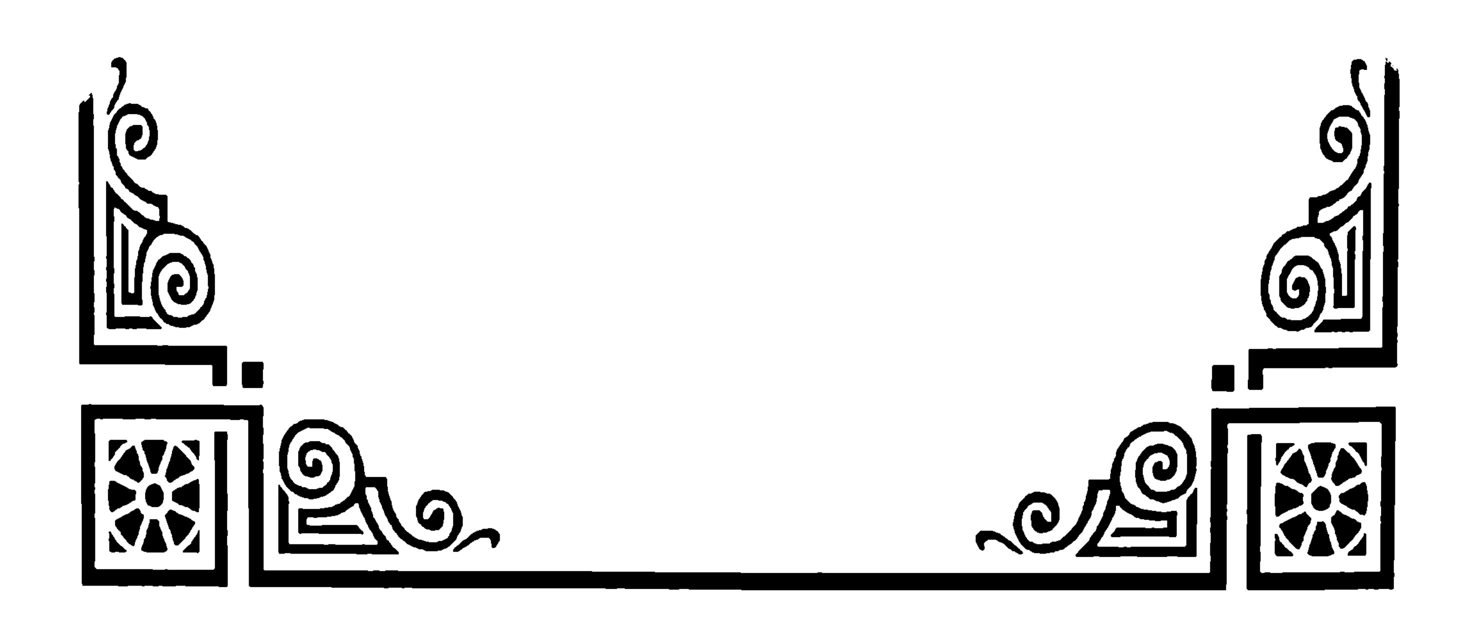
٢ . مقدمة.

٣ . توطئة عن تاريخ كل علم.

٤ . علم التفسير وصعوبته.

٥ . منهج أمومة ولاية أهل البيت ﷺ والمحكمات في القرآن الكريم.

٦ . التعريف بمنهج أمومة وولاية أهل البيت ﷺ والمحكمات في تفسير محكمات القرآن.



منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات

١ . مقدمة.

٢ . توطئة عن تاريخ كل علم.

٣ . علم التفسير وصعوبته.

٤ . منهج أمومة ولاية أهل البيت ﷺ على المحكمات في القرآن فضلاً عن الممتشابهات.

٥ . التعريف بمنهج أمومة ولاية أهل البيت ﷺ على المحكمات في القرآن الكريم فضلاً عن المتشابهات.

وفيه:

أولا : المقدمة:

لا يخفى على ذي البصيرة والتضلع في المعارف الحقّة ما للقرآن من أهمية عُظمى في تنظيم حياة البشر وغيره بما فيهم المسلم وغيره باعتباره دستور منظم لأمورهم المعيشية كاملة؛ ولذا يتكفل القرآن الكريم ـ إنْ اتبع البشر قانونه ـ الحياة الآمنة الخالية من الظلم والاضطهاد والعيش برغد وسلامة الدارين.

ولذا انبرى العلماء والباحثون والمختصون في كل مزق وطائفة من طوائف المسلمين البحث والتدقيق في كشف وإزالة الغموض عن كلمات القرآن وتيسرها واستخراج ما تتضمنه من معاني كثيرة، وكان من بين علماء ومفسري المسلمين، علماء ومفسرو الشيعة الإمامية لهم قصب السبق في فن

التفسير ودورهم المتميز منذ زمن متقدم أيام الأئمة المعصومين عليهم السلام في القرن الثاني والثالث والرابع والخامس ... الخ في تفسير القرآن والغوص في بحار مفاهيمه ومعانيه واستجلاء معاني النص القرآني بالسؤال من الإمام المعصوم عليه السلام ونتيجة هذا الاهتمام بتفسير القرآن والكشف عن غوامضه وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمه بزغت أسماء عالم التفسير، تفاسير كثيرة منها تفسير:ـ

١ ـ تفسير جابر بن يزيد الجعفي.

٢ ـ تفسير فرات الكوفي.

٣ ـ تفسير أبي الجارود.

٤ ـ تفسير علي بن إبراهيم المعروف بتفسير القمي.

٥ ـ تفسير الشريف المرتضى المعروف بنفائس التأويل.

٦ ـ التبيان للشيخ الطوسي.

٧ ـ مجمع البيان للشيخ الطبرسي.

٨ ـ جوامع الجامع للشيخ الطبرسي أيضاً.

٩ ـ آلاء الرحمن للشيخ محمد جواد البلاغي.

١٠ ـ الميزان في تفسير القرآن للسيد العلامة محمد حسين الطباطبائي، وكذا له البيان في تفسير القرآن، تفسير روائي.

١١ ـ مواهب الرحمن للسيد عبدالأعلى السبزواري.

١٢ ـ الأمثل للشيخ ناصر مكارم الشيرازي.

إلى عشرات التفاسير القيمة لمفسري الشيعة الإمامية فضلاً عن باقي تفاسير علماء ومفسري المسلمين بل وغير المسلمين.

والغرض الأساسي من اختيار منهج أمومة وولاية أهل البيت عليهم السلام وأمومة المحكمات في القرآن الكريم من بين المناهج التفسيرية الأُخرى المستفاد من آيات القرآن الكريم وأحاديث السُّنة الشريفة والروايات الواردة عن أئمة الهدى أئمة أهل البيت عليهم السلام هو لأجل التحقيق والكشف عن المعاني الحقيقة للكلمات، قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾[1]. أي بياناً وتفصيلاً.

وبذلنا غاية وسعنا وجهدنا واجتهادنا في بيان أكبر عدد ممكن استخدامه في التفسير من القواعد البلاغية والنحوية واللغوية والصرفية والحديثية والتفسيرية و ...الخ؛ لأنَّ من الواضح أنَّ التفسير وزنه [التفعيل] نظراً للمبالغة في محاولة استنباط المعنى كما في خرج واستخرج وكشف واكتشف، أمَّا في الثاني إفادة زيادة المحاولة في الاستخراج والكشف؛ ولذا كان الفعل المزيد أخصّ من الفعل المجرد انطلاقاً من زيادة المباني تدلُّ على زيادة المعاني.

وبعد بيان ما هو الحق في تلك الآية المباركة والكلمة من خلال استعمال القواعد والموازين الصحيحة المتبعة في ذلك الفن طبقناها على موارد استعمال تلك الكلمة في الآيات الكريمة ليظهر الحق ويزيل الباطل.

ولا يخفى على ذوي الحجى أهمية القواعد التفسيرية ومنصتها الخطيرة في تفسير القرآن الكريم وهي قواعد ممهدة لتحصيل الحجة على

---

(١) سورة الفرقان: الآية ٣٣.

استكشاف مراد الوحي من آياته النازلة لهداية البشر وكقانون إنْ طبقه البشر يُسلك بهم طريق الرشاد والكمال وبه يرتسم صراطه المستقيم، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾[1] مضافاً لما سنُبيِّنه في محله إنْ شاء الله تعالى من الفرق بين القواعد التفسيرية وبين علم التفسير، وكذلك سنتعرض بحوله وقوته إلى ذكر قواعد ومسائل مرتبطة بعلم التفسير ودخيلة فيه بصورة كُبريات وقواعد عامة.

وفي إثر هذهِ الدقة في التحقيق التي تميَّز بها سماحة شيخنا الأُستاذ آية الله محمد سند البحراني دامت فيوضاته، ببركة مجاورة سيد الأوصياء أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام اتضحت حقائق لامعة ومعارف حقّة ونكات ولطائف شريفة ونفيسة قدْ خفيت على أكثر المفسرين واشتبهت عليهم.

ولا يفهم من هذا أنَّ المراد تهميش باقي المناهج التفسيرية الأُخرى باختيارنا لمنهج أمومة الولاية والمحكمات، وإنَّما هم مشكورون ما توصلوا إليه وشكر الله مساعيهم إلّا أنَّ الذي نودُّ التنبيه عليه إلى أنَّ باقي المناهج التفسيرية لا تلبي أكبر قدر ممكن من حاجة الباحث والمطالع الكريم بخلاف المنهج المختار؛ منهج أمومة المحكمات إذا تدبرته بإمعان تجد صدق ما أقول لمَّا يتمتع به من مطالب علمية بحثية دقيقة.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ١٥٣.

خطة البحث

باسمه تعالى

لا يخفى على الباحث الكريم أنَّ هذا الكتاب هو مجموع البحوث التي ألقاها سماحة الأستاذ البارع والمحقق آية الله محمد السند ـ دام ظله العالي ـ على جمع من طلبة العلوم الدينية في النجف الأشرف عند تشرفه مجاورة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في النجف الأشرف وتشرفنا بحضور درسه المبارك، درس التفسير طيلة أيام التحصيل من السبت إلى الأربعاء فضلاً عن الجلسات الخاصة التي تفضل بها سماحته وأعطانا من وقته الثمين بقراءة التقرير والإضافة والتعديل، وقد تسلَّط الأضواء في هذهِ البحوث المعمَّقة وقبل الدخول في خضم بحر تفسير الآيات المباركة للقرآن الكريم وسوره على القواعد التي لا غنى عنها للباحث والمفسِّر الكريم الناجح ذو النَفَس التحقيقي والعلمي بإعمال القواعد التفسيرية المهمة والبلاغية واللغوية والنحوية و... وبيان ما انطوت عليها من نكات خفيّة قد خفيت على الكثير فنشكره تعالى التنبيه عليها والالتفات لمثلها والتي تعتبر بمثابة اللبنة الأساسية لمنهجنا المختار أمومة الولاية والمحكمات وغيره من المناهج التفسيرية الأُخرى.

ومن منن الله تعالى عليَّ أنْ وُفِقْتُ لتقرير هذهِ الأبحاث القيِّمة والمعمَّقة، وجاءت مرتبة على مقدمة وفصول ثمانية.

وكان الفصل الأوَّل قد بُيِّنَ فيه توطئة عن تاريخ كل علم مع بيان صعوبة علم التفسير ودور القرآن الكريم في حفظ اللغة العربية ، و... الخ.

والفصل الثاني: قيمومة أهل البيت عليهم السلام في تعليم القرآن، أدلة وبراهين.

والفصل الثالث: المنهجية والمناهج في التفسير: ـ فقد تركَّز فيه البحث بيان أهمية وضع المنهجية مع بيان العوامل الأساسية في بحوث علم التفسير وعدم استغناء المفسر عنها، مع بيان وحدة المعية بين الكتاب والعترة، وبيان العلاقة بين ولاية الله وولاية الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام وبين منهج أمومة الولاية والمحكمات، مع بيان امتياز منهج أمومة الولاية عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى، مع الوقوف على بيان أهمية البحث المقارن، وذكر المؤاخذات على المناهج التفسيرية الأُخرى، و...الخ.

الفصل الرابع: نظم قواعد التفسير ـ بحث نظري إجمالي ـ وتعرضنا فيه إلى بيان مقدمة ثم بيان إجمالي للأنظمة الثلاثة: ـ النظام اللفظي الاستعمالي، ونظام المعاني ونظام الحقائق مع بيان القواعد المرتبطة بكل نظام على حِدة.

الفصل الخامس: القاعدة الثانية، قاعدة الالتفات.

الفصل السادس: القاعدة الثالثة، قاعدة: إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

الفصل السابع: القاعدة الرابعة: ـ استعمال اللفظ في أكثر من معنى.

الفصل الثامن: ويشتمل على بيان ضوابط منهجية في أمور تسعة.

وفي هذا الكتاب تعرضنا إلى ذكر ضابط النظام الأوَّل اللفظي الاستعمالي مع أربعة قواعد مهمة. التعريض والالتفات وإياكِ أعني واسمعي يا جارة واستعمال اللفظ في أكثر من معنى.

وفي الختام أُقدِّم خالص شكري واحترامي لمقام شيخنا الأُستاذ محمد

سند البحراني حفظه الله لمَّا أولاه من عناية خاصة وبذله لوقته الثمين على مراجعة ومتابعة ما أقدمه له من فصول هذا الكتاب ولله دَرّه.

كما وأشكر كل مَنْ ساعدني ويسر لي إخراج هذا السِّفر المبارك.

نسأله تبارك وتعالى أنْ يتقبل هذا خالصاً لوجهه الكريم وأنْ ينفع به إخواننا طلبة العلوم الدينية آملين أنْ يتحفونا بنقودهم البنّاءة وأنْ يسامحونا فيما شطّ به القلم، وآخر دعوانا أنْ الحمد لله رب العالمين.

محسن الجصاني

١٩/ج/١/١٤٣٣هـ

٢٠١٢/٤/١١

النجف الأشرف

تفسير أمومة ولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام والمحكمات في الكتاب الكريم[1]

قواعد التفسير: القاعدة جمعها قواعِد، وهي لغة الأساس[2].

القاعدة اصطلاحاً: هو الضابطة أي الأمر الكلي المنطبق على جميع الجزئيات[3].

التفسير لغةً: الكشف عن معنى اللفظ وإظهاره، والفَسَر: البيان[4].

واصطلاحاً: ذكرت عدَّة تعريفات للتفسير:ـ

أولاً: ما ذكره الشيخ الطبرسي: كشف المراد من اللفظ المشكل.

ثانياً: علمٌ يُعْرَف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وآله وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحِكَمِهِ[5].

ثالثاً: هو إزاحة الإبهام عن اللفظ المشكل في إفادة المعنى المقصود.

رابعاً: علم يبحث فيه عن كلام الله تعالى المنزل للإعجاز من حيث الدلالة على مراده تعالى[6].

وهناك تعاريف أُخرى وردت في كلمات المفسرين والمحققين نتعرض لبعضها عند المقارنة بين علم التفسير وعلم التأويل في مبحث الدلالات الخفية وعدم الاقتصار على منصَّة سطح الظاهر في محله إنْ شاء الله تعالى.

---

(١) هذا العنوان مقتبس من بيانات القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[آل عمران:٧].

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس.

(٣) كما يقال: كل إنسان حيوان ناطق إنسان، مجمع البحرين ، مادة قعد.

(٤) المصدر السابق، مادة (فَسَرَ).

(٥) تفسير البرهان في علوم القرآن ج١ ص١٣.

(٦) مجمع البحرين.

٢ـ توطئة عن تاريخ كل علم

ما الفائدة في الخوض في تاريخ كل علم؟

الخوض فيه ليس بحثاً مُؤَرَّخاً محضاً، بل يعطي طابعاً صناعياً وفائدة علمية في كيفية بناءً معادلات وقواعد ومسائل ذلك العلم، ويعطي بصيرة لدى الباحث عن كيفية تطوِّر العلم من مرحلة إلى أُخرى، وما هي الحالات والظواهر التي قادت العلم إلى ذلك المسير.

فمثلاً لو طالعنا ديباجة التبيان بدقة وتأمل لاستطعنا معرفة المنهج التفسيري للشيخ الطوسي، وتتشكل لدينا صورة واضحة عن الجوّ العلمي الذي كان يعيشه الشيخ﵀ والانطلاقات التي ينطلق منها، وكان منهج الشيخ الطوسي في التفسير: بأنَّ ذكر مقومات تمهيدية نافعة في معرفة أساليب القرآن ومناهج بيانه وسائر شؤونه مما يرتبط بالتفسير والتأويل، والمحكم، والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، ومعرفة وجوه إعجاز القرآن وأحكام تلاوته ... الخ.

كذلك مما امتاز به هذا التفسير هو التعرُض لمسائل علم الكلام بصيغة أدبيّة رفيعة ولا يترك موضِعاً من الآيات الكريمة التي جاءت فيها الإشارة إلى جانب من مسائل العقيدة، إلّا وتعرَّض لها بتفصيل وبسط كلام.

وبعد الاطلاع يستطيع المُتَخصص أنَّ يُقيِّم هذا الجهد الكبير للشيخ الطوسي﵀ ومَدَى الإنجازات التي توصَّل إليها، وبيان الخطَّة التي وضعها الشيخ﵀ في منهجه هذا وكم أنجر منها وما هو الباقي منها.

وهكذا لو قرءنا واطلعنا على المنهج التفسيري الذي اعتمد عليه الشيخ الطبرسي صاحب مجمع البيان[١] وما هي انطلاقاته وما هي الفوارق في الرأى التي كانت عند الشيخ الطوسي والطبرسي‌ﷺ في كتابيهما وما يتميز به كتابيهما من جوانب القوة في المطالب العلميّة.

والكتابان هما الآن مصدران مهمان كبيران لعلوم اللغة العربية فضلاً عن التفسير عند المذاهب الإسلاميّة كافّة، ومُقّرران في المناهج الأكاديمية العصرية والحوزوية في جامعاتهم المختلفة العربية وغيرها، الإسلامية وغيرها.

والسِرُّ في ذلك هو أنَّ الشيخ الطوسي‌ﷺ حَفِظ على كل أهل السُّنة مصادر هي ليست بأيديهم الآن ولا طريق لهم إليها إلّا عن طريق كتابي التفسير المذكورين آنفاً.

ولو قارنا بين التفسيرين ومعرفة المنهجة التي اتبعها كل من الشيخ الطوسي في تبيانه، والشيخ الطبرسي في بيانه لصار لدينا بحثاً مقارناً بينهما.

الخلاصة:

إنَّ تاريخ كل عِلم يُعطي الإنسان نوع من البصيرة عن كيفية اختلاف المسارات في ذلك العلم، والالتفات إلى اختلاف المسارات، وأخيراً يحصل للإنسان البلوغ والنضوج الفكري، ونوع من البصيرة، كل ذلك يتحصل من خلال المقارَنة والالتفات إلى امتيازاته.

---

(١) الطبرسي: أبو علي الفضل بن الحسن، توفي سنة ٥٤٨هـ له تفسير مجمع البيان وهو تفسير حاشد بالأدب واللغة والقراءات أو حججها، ويختصّ بالإحاطة بآراء المفسرين السَلَف، وكان الشيخ الطبرسي قدْ جعل تفسير التبيان للشيخ الطوسي أسوة له في هذا المجال فجعله أصلاه بنى عليه زيادات المباني والفروع.

٣ـ صعوبة علم التفسير

جاء في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام الدالة على صعوبة علم التفسير ما رواه النعماني[1] بإسناده عن إسماعيل بن جابر الجعفي .. قال عليه السلام **«إنَّ الله بَعَثَ محمداً صلى الله عليه وآله فختم به الأنبياء فلا نبي بعده وأنزل عليه الكتاب فختم به الكتب فلا كتاب بعده»**.

يمكن أنْ يُقال أنَّ هذهِ الرواية الشريفة أشارت إلى مطلبين أساسيين:

المطلب الأوَّل: أنَّه من الأوصاف الفريدة من نوعها والظريفة التي بينها أئمة الهُدى أئمة أهل البيت عليهم السلام هي أنَّ النبي محمداً صلى الله عليه وآله خاتمُ الأنبياء والمرسلين فلا نبي بعده، وهذا ظاهره واضح وبَيِّن إلّا أنَّ الأئمة عليهم السلام يرمون إلى معنى أوسع من هذا الظاهر، وهو أنَّ هذا وصفٌ أساسي بنيوي ركني في بناءِ جانب الاعتقاد بنبوة الخاتم صلى الله عليه وآله.

المطلب الثاني: القرآن خاتم الكتب فلا كتاب بعده، أيضاً هو الآخر في كونه وصفاً أساسياً ركنياً في معرفة أصول وقواعد علم التفسير للقرآن الكريم.

وهذا توصيف علمي عميق جداً للكتاب الكريم يحمل في طياته بُنى

---

(١) قال النجاشي في ترجمة النعماني ص ٣٨٣ حديث ١٠٤٣، ما نصَّه «أبو عبدالله الكاتب النعماني المعروف بابن زينب شيخ من أصحابنا عظيم القدر شريف المنزلة صحيح العقيدة، كثير الحديث قدم بغداد وخرج من الشام ومات فيها»وهو من أجلة تلامذة الشيخ الكليني رحمه الله ت سنة ٣٣٣هـ وإنْ كان البعض ذكر أنَّه المعروف بابن أبي زينب خلاف ماذكره النجاشي من ابن زينب.

كبيرة جداً وهذا شبيه ما وَرَدَ في حق أمير المؤمنين عليه السلام وأنَّه القرآن الناطق، لَمَّا أشارت له بعض النصوص مِنْ أنَّ هناك قرآن ناطق وقرآن صامت

وعليه فما المراد بالنطق والصمت للقرآن؟

ما وَرَدَ عنهم عليهم السلام في بيان ذلك من أنَّ المراد من نفس الصمت في القرآن أنَّ أهل البيت عليهم السلام دائماً يُبينون بُنى خطيرة جدّاً بعجز الآخرون عن الالتفات إليها، وهذا يدلُّ على أنَّ علمَهم لَدُني وحياني وليس بشري.

وهكذا ما وَرَدَ عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام: **«لا جبر ولا تفويض بل أمرٌ بين أمرين»**[1] فهو شاهدٌ آخر على أنَّ الله تعالى أنزل كتاباً على النبي صلى الله عليه وآله فجعله النبي صلى الله عليه وآله بأمر الوحي علماً باقياً في القرآن في أوصيائه عليهم السلام العترة الطاهرة.

ولذا ما وَرَدَ عنه صلى الله عليه وآله: **«القرآن مع علي، وعلي مع القرآن»**[2] وأهل بيته، فإنَّ القرآن في الأوصياء له معنى آخر فما هو ذلك المعنى؟

إشارة إلى المقامات العُليا من القرآن الكريم التي هي أُسُّ عظمة القرآن وأساسه، وتلك الطبقات التي توجب الإحاطة بكل تفاصيل الطبقات النازلة هي مختصَّة بهم عليهم السلام كما في الآية المباركة من سورة الواقعة ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ٧٩﴾ وهو المكنون من كتابه، وإشارة الآية المباركة ﴿ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ﴾ لا إلى مطلق البشر وإنَّما إلى خصوص صدور ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ﴾ ﴿وَمَا

---

(١) الكافي ج١ ص١٦٠ ح١٣.

(٢) رواه الطبراني في الصغير والأوسط ـ مجمع الزوائد والمستدرك للحاكم ج٣، ص١٢٤ وابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة في الرد على أهل البيت عليهم السلام والزندقة ص١٩١ وغيرها.

يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ فتلك الطبقات لا تنطق إلّا بهم ولا يُفْصَح عنها إلّا بهم.

معنى القرآن في الأوصياء:

وليس هذا ـ كما يدعيه البعض ـ أنَّه يوجب التعطيل، كما لا يوجب التطويل وبالتالي لا تعطيل مطلق ولا تطويل مطلق، وإنَّما أمرهُ بين أمرين، وسوف نستقري معالم هذهِ المدرسة العظيمة حتَّى نسميه مسلك: لا تعطيل ولا تطويل بل أمرٌ بين أمرين. حسب قراءتنا المحدودة.

وعليه كان لزاماً علينا التحري عن أصول وقواعد التفسير في مدرسة أهل البيتعليهم السلام الذي يُعْتبر من أهم المواد الأساسيّة الركنية عند المُفَسِّر؛ لأنَّهمعليهم السلام يُبينون ما يَعْجز الآخرون عن بيانه؛ ولذا يجد المتتبع المُنصِف أنَّ هناك بوناً واسعاً بين أصول وقواعد التفسير عند أهل البيتعليهم السلام وبين الطرف الآخر.

إلّا أنَّه وللأسف الشديد إلى الآن لم تُبيَّن تلك القواعد والأصول التي بينوهاعليهم السلام من خلال ما وَرَدَ عنهمعليهم السلام في علم التفسير من قبل علماء الإماميّة أَنفُسِهم، وإنْ كان لا يُنكَر ما قدَّمه الماضون (رحمهم الله تعالى) من إنجازات علميّة وجهود مضنيّة في هذا المجال شكر الله مساعيهم، وبُذلت محاولات منهم لاقتناص منهج أهل البيتعليهم السلام وتعاليمهم وتوصياتهم في استكشاف أصول التفسير التي يُرشِدون ويُوصون الأئمةعليهم السلام بها ومع ذلك الأمر لم يُنجز إنجازاً حافلاً، بل ولعلَّ بعض مفسري الإماميّة بَنى الأمر على الخلط بين أصول التفسير لدى مدرسة الإماميّة وبين الطرف الآخر.

وبالتالي هذا ما يُثقِل المسؤوليّة علينا أكثر فأكثر، ويحتاج الأمر إلى جهد وجدٍّ واجتهاد، لعلَّ الله يعيننا على إنجاز خطوة تُضاف إلى خطى ما تَوصَّل إليه الماضون رحمهم الله من مُفَسِري الإماميّة، والأمرُ ليس بالسهل ومن الله نطلب العون والتسديد.

٤ـ منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام والمحكمات في القرآن

بيَّن القرآن الكريم أمومتين من خلال ما جاء في الآية السابعة من سورة آل عمران ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾.

وكذا في سورة هود/ ١ ﴿ ...كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾.

والأمومتان هما:

١ ـ أمومة المحكمات ـ أي أمومة الله تعالى.

٢ ـ أمومة الراسخون في العلم.

وما ذكره العياشي في تفسيره عن مَسعَدة بن صدقة، قال: ـ قال أبو عبدالله عليه السلام «إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب عليها يستدير محكم القرآن وبها نَوَّهت (يوهب) الكُتُب ويستبين الأيمان»[1].

وهكذا ما جاء في كلام أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في نهج البلاغة كفاية: ـ إذْ قال عليه السلام «أين الذين زعموا أنّهم الراسخون في العلم دوننا، كَذِباً وبغياً، علينا أمَّا رفعنا الله ووضعهم، وأعطانا وحرمهم، وأدخلنا وأخرجهم، بنا يُستعطى الهدى، ويُستجلى العمى إنَّ الأئمة من

---

(١) تفسير العياشي ج١، ص٧٨ ح٨.

قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم لا تصلح سواهم، ولا تصلح الولاة من غيرهم»[١].

وعليه فالحاكم والفيصل بين المحكمات والمتشابهات هو الله تعالى ثم الراسخون في العلم.

هناك أمومتان: ـ أمومة لله، وأمومة الراسخون في العلم الذين هم النبي صلى الله عليه وآله والعترة الطاهرة عليهم السلام وَبَيَّن القرآن الكريم أنَّ قطب القرآن والمحور المركزي الذي يستدير عليها محكم الكتاب هي ولاية وأمومة أهل البيت عليهم السلام.

وعليه فإنَّ تسميّة منهجنا التفسيري بهذا الاسم مستفادة ومقتبسة من مجموع الآيات والروايات الواردة في المقام في ترسيم نظام القرآن، وليس هذا الاقتباس مجرد عنوان إعلامي ومجاملي كلا ثم كلا،وإنَّما هو ضرورة منهجية علمية وصناعية سنبينها في أبحاث هذا الكتاب إنْ شاء الله تعالى.

وهذا المنهج يبحث فيه أمران:

الأمر الأوَّل: تأكيد القرآن على أهمية رجوع المتشابه إلى المحكم:

سنتعرض إنْ شاء الله في القاعدة الرابعة من قواعد استعمال النظام اللفظي في القرآن وهي: استعمال اللفظ في أكثر من معنى إنْ شاء الله تعالى إلّا أنَّه أحد شرائط هذهِ القاعدة هو مما يرتبط بمنهج الأمومة المركزية ومحورية المحكمات للآيات والسور، القرآنية المتشابهة وولاية أهل البيت على المحكمات، وأنَّ منهج أمومة المحكمات عبارة عن منهج منظومي

(١) نهج البلاغة، خطبة/ ١٤٤.

موحَّد وله محاور مركزية في دوائر تكبر وتتمركز شيئاً فشيئاً وبالتالي فهذا المنهج التفسير لأمومة المحكمات سوف يُضفي بظلاله على كل قاعدة قاعدة في التفسير وعلى كل أصل أصل في أي نظام من الأنظمة لثلاثة الآتية: سواء نظام الاستعمال اللفظي في القرآن وما فيه من قواعد كما سيأتي تفصيله من قاعدة التعريف أو الالتفات أو إياك أعني واسمعي يا جارة أو استعمال اللفظ في أكثر من معنى أو .....؟ أو في نظام المعاني في القرآن أو في نظام الحقائق فلو قارنا بين أي قاعدة عن قواعد علم التفسير في كتب علوم القرآن على المنهج التفسير الموضوعي أو التفسير التجزيئي أو أسباب النزول أو تفسير القرآن بالقرآن وكيف صياغتها وسبكها مع القواعد وصياغتها وسبكها في منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام لوجدنا طبيعة وهندسة تلك القواعد تختلف اختلافاً بنيوياً كبيراً.

فقاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى وإنْ كان الباب مفتوح على مصراعيه في منهج أمومة المحكمات إلّا أنَّه مشروط ولسنا كبقية التفاسير اللغوية والأدبية والنحوية للقرآن الكريم بأنْ يأخذ المفسر في تفسير آية البعد الأدبي أو بُعْد أحادي ويَنقُل فيه الآراء بلا أي قيد وضابطة إلّا ضوابط قواعد اللغة والأدب ويغفل عن ملاحظة قواعد العلوم الأُخرى ودخالتها في تفسير الآية وما هو مقدار التدخل ـ فالقرآن يؤكِّد على منهج المحكمات دائماً ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ ﴾[1].

إذنْ القرآن أكَّد على اتباع المحكمات ونهى عن اتباع المتشابهات ﴿ فَيَتَّبِعُونَ

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

مَا تَشَٰبَهَ ﴾[١].

أي ما تشتت وسَبَّبَ شتات، بخلاف الرجوع إلى المحكمات فإنَّه وقوف على الروابط الموصلة إلى بيان ارتباط الآيات فيما بينها والسور ومعانيها والدلالة الخفية ... الخ ولعله يتبادر إلى ذهن الباحث والمطالع الكريم سؤالٌ:

هل أنَّ الأمومة في الكتاب الكريم على الآيات المتشابهات هي فقط للآيات المحكمات أم يوجد معها غيرها؟

الجواب: تجيب الآية المباركة عن ذلك ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[٢].

ومعنى العلم بتأويله هو الذي يربط المتشابه بالمحكم، وهذا ليس بيد المحكم بمفرده، وإنَّما يوجد حاكم على المحكمات وولايةٌ عليها وهي ولاية الراسخون في العلم فالله تعالى يَرسِلُ علمه عبر القرآن والقرآن فيه آياتٌ محكمات وأُخرى متشابهات، ولأجل أنْ يرفع الله تعالى إجمال وإبهام المشتبه جعل آياتٌ محكمات، إلّا أنَّ المحكمات ليس لوحدها وبمفردها ترفع الاشتباه والمتشابه، بل بتعليم من الله وهذا التعليم الإلهي أوصله تعالى البشر عبر الراسخون في العلم يعني عبر الثقلين وهم النبي ﷺ وقرباه وعليه فالمحورية هي علم الله ثم علم الراسخون في العلم وهم الطريق المنتدب الذي يصل إلينا.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

كذلك التفسير الأدبي في القواعد الأدبية في استعمال اللفظ في أكثر من معنى فما دام على القواعد والموازين العلمية الصحيحة فحينئذٍ بالإمكان أنْ تُنْشأ عِدَّة صياغات للظهور في البُعد الصرفي والبُعد النحوي والبلاغي والاشتقاقي و ... الخ.

وهذا يمكن اعتباره كشرط أوَّل.

والشرط الثاني: لابدَّ من ملاحظة نسق الآية مع الآيات، بأنْ لا يُفيد هذا الاحتمال الذي نحتمله في الآية المباركة دالٌّ لفظي آخر؛ لأنَّ تعدد الاحتمال وإنْ كان على الموازين إلّا أنَّه يقطع الطريق ولا ينسجم مع مجموعة الدوال في الجملة الواحدة أو الآية الواحدة وعليه إذا حصل هكذا تهافت فحينئذٍ نرفع اليد عن هكذا احتمال مع بقاء الهيمنة والحاكمية لمحكمات القرآن وأنّ المحكمات لها طبقات، كما سيتضح ذلك في محله.

والقرآن الكريم يحذر من اتباع الآيات المتشابهات وإنْ كانت من القرآن الكريم ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ﴾[1]. أي يزيغون وينحرفون إذا اتبعوا المتشابهات، وكأنَّما القرآن الكريم يُنادي: ـ أيها المتَّبع للمتشابه لا تُدَلِّس ولا تكذب على الآخرين.

وإذا قال المستمسك بالآية المتشابهة لوحدها أني أتبع هذه الآية المتشابهة وأنها من القرآن الكريم.

قلنا له: التمسُّك بهذه الآية لوحدها وبمفردها يُسبب شتات للفكر وعدم التمسك بكل آيات الذكر الحكيم: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾(١). فأما الإيمان ببعض الكتاب دون بعض هذا ضلال وعماية؛ ولذا لابد من إيمان مجموعي منظومي.

ولذا نلاحظ أصحاب المذاهب الاعتقادية المنحرفة التي نشأت في فرق المسلمين وكذا أصحاب التفاسير الخاطئة سببها عدم مراعاة منهج امومة ولاية أهل البيت عليهم السلام والمحكمات وإلا لما وقع هذا التشابه والاشتباه وتعدد الفِرَق، ويعتبر هذا شرط أساسي في استعمال اللفظ في أكثر من معنى ولكن بشرط أنه لا يتصادم مع احتمالات أخرى في آيات وسور أخرى.

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٥.

الأمر الثاني

دور القرآن الكريم في حفظ اللغة العربية

من الواضح في علوم الأدب العربي أن الذي حافَظَ على اللغة العربية من بين لغات البشر الأخرى وقوتها وجزالتها وعظمتها هو نفس القرآن الكريم، وهو ليس بالأمر السهل.

بعد مرور أكثر من أربعة عشر قرناً نجد هذا الكتاب الكريم مُوَّحَدٌ في الإفهام والتفهيم بين أبناء لغة معينة سواء كان هذا الكلام علمياً أو لغوياً في العلوم، بخلاف ما لو قرأنا كتاباً ما في أنواع اللغة الأُخرى غير العربية قبل أربعة عشر قرناً، وبين أنْ نقرأه الآن بنفس اللغة نجد من الصعوبة بمكان أنْ تحافظ تلك اللغة على معانيها وقوتها وجزالتها ... بين تلك الفترة السابقة والمعاصرة، ولو كان أصحاب هذه اللغة أكبر قوة في العالم، بل حتى لو كانت الفترة ليست كالقرن والقرنين، بل وحتى مثل الخمسين سنة فنجد أن اللغة تفقد الكثير من خصائصها ومميزاتها ومعانيها عدا العكس ما هو عليه في دور القرآن الكريم في حفظ اللغة العربية وديمومتها واستمرارها في الحفاظ على حيويتها الى يومنا الحاضر.

علماً أن علوم الأدب مستقاة من القرآن الكريم والقرآن أرضاً خِصبة للاستفادة منه في النظم والقواعد، ولا زالت علوم اللغة في توسع أمثال: فقه اللغة ونحت اللغة ... الخ.

بالأخير القرآن له شأن ودور عظيم ترعرت وبُنيت عليه اللغة العربية وعلوم اللغة والأدب، وليس العكس لأنَّه ـ القرآن ـ بُنيان وحياني إلهي ...الخ.

٥ـ تعريف بمنهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام في تفسير محكمات القرآن

مقدمة:

من الضروري جداً التعريف بهوية المنهج المختار من بين المناهج التفسيرية المتعددة ألا وهو منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام في تفسير محكمات القرآن، ودور المحكمات في تفسير سائر آيات القرآن الكريم.

ونودُّ بيان فوائد هامّة اعتمدناها في خطة التفسير لعلَّها تلبي بعض الحاجة في الرد على بعض الأسئلة التي قد تُثار أو الإشكالات التي تُناقش، وهي:ـ

الفائدة الأولى: سنتعرض إنْ شاء الله تعالى إلى قواعد مختلفة كل بحسب بابه ونظامه المناسب لتلك القاعدة، وقبل ذكر الضوابط التطبيقية للقاعدة نعطي تعريفاً لها، وما هي الشروط التي اخترناها؟ والمناسبة؟ وليس بالضروري موافقة لَّما هو مشهور البلاغيين مثلاً أو النحويين أو اللغويين في تلك القاعدة.

وقواعد علوم التفسير بمثابة مباني تؤثر تلقائياً على مسيرة ومنهج المُفسر في يوميات التفسير؛ لأنَّها قواعد ترتبط بمناهج التفسير للآيات والسور.

الفائدة الثانية: لعلَّ أهم ما يميز المنهج التفسيري لأمومة الولاية والمحكمات هو أنَّ طبيعة هذا المنهج هي طبيعة قواعدية أكثر مما هو تفسير

موضوعي أكثر مما هو تفسير تفصيلي أو تجزيئي أو تفسير القرآن بالقرآن الذي هو تتبع القرائن القرآنية فقط.

وعليه المفسِّر الذي يختار منهج تفسير أمومة المحكمات والولاية كان عليه لزاماً مراعاة مجموعة قواعد منظومية كنظام واحد.

الفائدة الثالثة: لعلك بعد الاطلاع على منهج أمومة المحكمات والولاية يتبادر إلى ذهنك ـ بعد ما عرفت أنَّه منهج قواعدي ـ هل توجد نهاية في المكث في بحث القواعد التفسيرية أو لا؟.

الجواب: إنَّ البحث في القواعد التفسيرية هي روح منهجنا التفسيري وأنها مستمرة معه إلى آخر عمر التفسير وما يوفق الله تعالى الباحثين من التفاتات صناعية وعلمية وفنية تتلاءم وطبيعة المنهج التفسيري لأمومة المحكمات.

وفي منهج أمومة المحكمات والولاية في كل آية آية لا تتم المعالجة بالتفسير فحسب كباقي المناهج التفسيرية الأُخرى كل حسب منهجته، بل في هذا المنهج المختار تطعيم التفسير بالقواعد التفسيرية كما مَرَّ.

ولا يفهم من هذا أنَّ في المناهج التفسيرية الأُخرى تُلغى وتُشطَّب ويُقلل من أهميتها كلا وإنَّما هم مشكورون على ما بذلوه من جهد لما توصلوا إليه إلّا أنَّه لابدَّ وأنْ يؤخذ بنظر الاعتبار أنَّ تلك المناهج التفسيرية ليست هي نهاية المطاف وإنَّما هي بداية أو وسط المسير، وإنْ كان حتَّى منهج أمومة المحكمات ليسَ هو الخاتم كلا، وإنَّما يتميز هذا المنهج المختار عن غيره من المناهج بمقدار سعة البشر والاستفادة من كلام المعصوم عليه السلام ويُترك الباقي للأجيال اللاحقة بعدنا وربما يكتشف ما هو الاعظم محل كل ذلك من بيانات الوحي.

فمثلاً من جملة الأمور والمطالب التي استطعنا أنْ نستخلصها ونستفيدها من بيانات الوحي هو منهج أمومة المحكمات وأمومة الولاية للمحكمات وأنَّ المحكمات موصوفة بأنها أم الكتاب، وأنَّ أم الأم هي الولاية، وان هذا المنهج يُراعى فيه قواعد ومباني ترتبط بعضها مع البعض الآخر كمنظومة نظام واحد، وعليه فليس بوسع المفسر لمنهج أمومة المحكمات التخلي عن مجموع هذهِ المباني والقواعد في تفسير آيات أو آية، وهذا معناه أنَّ تفسير القرآن لأمومة محكمات الكتاب والولاية قائم على ملفات وأعمدة لا على أساس الوجوه الموضوعية كما في التفسير الموضوعي فإنَّه قائم على الوحدة الموضوعية وهذا بُعدٌ آخر.

الذي نريد أنْ نثبته في هذهِ الفائدة المهمة هو أنَّ منهج تفسير أمومة المحكمات والولاية هو منهج وحياني ولا ندعي أنَّه هو آخر وخاتمة منهاج أهل البيت عليهم السلام وإنَّما نقول هذا ما وصلت إليه مسيرة علماء التفسير عند الإمامية، وما استطعنا أنْ نلتفت إليه بتوفيق الله وعنايته، وليست هذهِ هي النهاية بل هي البداية إلى مسافات لاشك أنَّها أبعد وأعمق، إلّا أنَّ هذهِ الدرجة من المسيرة في علم التفسير لا تعتمد على الوحدة الموضوعية وإنَّما تعتمد على وحدة المنظومة أي وحدة تأثير أمور بعضها على البعض وترابط قواعد وبُنى وركائز بعضها مع البعض الآخر.

ولذا يأتي الإمام عليه السلام بآيات من سور عديدة ولا يوجد لها وحدة موضوعيّة، إنَّما وحدة أعظم من الوحدة الموضوعيّة والتي هي وحدة القواعد أو وحدة النظام فإنَّ لها أبعاد عديدة.

امتياز وحدة القواعد:

تتميز وحدة القواعد بأمور:

أولاً: تارة تكون القواعد في عرض واحد فتؤثر بعضها على الآخر، وإنْ لم يكن لها وحدة موضوعية عنوانية.

ثانياً: تكون القواعد بعضها في طول الآخر وتأثيرها تأثير طولي طبقاتي، كما سيتضح كل ذلك من خلال التطبيق لعملي للقواعد إنْ شاء الله تعالى.

القواعد المتبعة في تفسير منهج أمومة الولاية والمحكمات هذا هو نمطها وفي هذا العرض يكون جواباً للسائل عندما يسأل ويقول أنَّه كيف الإمامعليه السلام في رواية واحدة يجمع آيات عديدة من سور مختلفة، وإنْ كانت بالنظرة الأولى ليست لها وحدة موضوعية ولكن الإمامعليه السلام يكشف لدى السامع أو القارئ عن ماهية إذْ لعلَّ الآية الواحدة لا يوجد فيها ترادف موضوعي رغم العناوين المختلفة قام الإمامعليه السلام بجمعها في ضمن مجموعة واحدة، كما لا يلاحظ الإمامعليه السلام مورد النزول ولا وحدة السياق ولا وحدة السورة، بلْ ولا وحدة الآية ولا وحدة الترادف اللفظي ولا وحدة على صعيد التشاهد في الظهور اللفظي، بلا ولا وحدة التحليل العقلي وهو الترادف العقلي ولا غير ذلك من الوحدات التي تقوم عليها مناهج التفسير المختلفة كالتفسير الموضوعي ومنهج أسباب النزول والتفسير الإشاري الفعلي وغير ذلك من مناهج التفسير، قد يأتيعليه السلام من آيات مختلفة، وحدة النظام الوحدوي، وهذا ليس باليسير فإنَّه صعب ويحتاج إلى مؤونة وجهد كبير؛ لأنَّ هذا يحتاج إلى أنْ تطوي المناهج التفسيرية الأُخرى في الآية الواحدة وتراعيها لأنَّه كما ذكرنا سابقاً ليس منهج أمومة المحكمات

والولاية يُشَطِب ويهمل المناهج التفسيرية الأُخرى ولا يلغيها.

إذنْ صعوبة منهج أمومة المحكمات والولاية تكمن في تجميع المفسِّر للمناهج التفسيرية الأُخرى ويُضيفها إلى هذا المنهج المختار، وهذا يتحتم على مفسِّر منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيتعليهم السلام إلّا أنَّه تبقى العناية الإلهية وتوفيقه لكل مفسر بحسبه ونمو وتطور كل مفسر بحسبه.

ثالثاً: إنَّ منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيتعليهم السلام الذي يتميز بوحدة القواعد يعطي أفقاً واسعاً للمفسر وبحسب قدرته وهيمنته على المطالب ومن الطبيعي هذا يختلف من شخص إلى آخر.

سؤال: العنوان هو تفسير القرآن على منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيتعليهم السلام؟ إلّا أنَّ الولوج في خضم وقلب تفسير الآيات لم يأتِ، فلماذا هذا البحث المعمق في القواعد في الأنظمة الثلاثة الآتية ـ النظام اللفظي الاستعمالي، ونظام المعاني ونظام الحقائق ـ؟

الجواب: إنْ أحطت أيُّها الباحث أو المطالع الكريم بالقواعد التي لها دخالة في الغور في فهم المعنى، وعدم الاقتصار والحبس على ظواهر قوالب الألفاظ آنذاك صار عندك علم تفصيلي بموضوعات التفسير؛ لأنَّ التفاصيل مرتبطة بالأعمدة، فإنَّ القرآن الكريم له أركان، وأعمدة والمهم في تفسير القرآن الكريم اكتشاف تلك الأعمدة والقواعد في التفسير واكتشاف معاقد العِز من الكتاب ومحكمات المحكمات؛ لأنَّ هذهِ القواعد عبارة عن خارطة مهيمنة تمسح خارطة القرآن الكريم، ولقد أولى أهل البيتعليهم السلام عناية خاصة وفائقة في اكتشاف تلك الأعمدة والقواعد، ولولاهمعليهم السلام لتاه بنا الدرب وهذا بالتالي يكلفنا مسير طويل، والمهم هو

السيطرة على بداية التفسير ونهايته والالتفات إلى المحاور والمفاصل، فإذا انتهيت ودخلت بالتفاصيل من دون أنْ تستعين بروايات الأئمة المعصومين عليهم السلام في هذا المجال ضلَّ وتاه بك الطريق لا محالة فإنَّ أحد معاني الغور في الأعماق والتفاصيل من دون قواعد وضوابط وموازين صحيحة فإنَّه يُعرِّض المفسر والباحث الكريم للوقوع في التيه والضلال؛ لأنَّه وَرَدَ هكذا [من تَعمَّق ضلَّ] بعكس المفهوم الشائع أنَّ المفسر والباحث الذي يتعمق يصبح محققاً ويركز على التفاصيل وتفاصيل التفاصيل دون التركيز على الأعمدة والمحاور والإحاطة بهم مجموعاً منظومياً يكون هو المحقق، إلّا أنَّ الأمر ليس كما يُتوهم فإنَّه لا محالة يُبتلى بالتيه.

نعم إذا كان يولي التفاصيل أهمية تحت ظل المفاصل فإنَّه تستقر به تمامية الصغرى أي صغرى الحقيقة وحينئذٍ لا مانع من الغوص في تفاصيل التفاصيل إلّا ان عدسة التركيز الباصرة لديه حدِّقت وحَلِّقت نحو التفاصيل فحينئذٍ المفاصل والأعمدة تلقائياً يَخفُت عنها التركيز وحينئذٍ يُخاف عليه من الوقوع في صحراء التيه.

الفائدة الرابعة: لا يُتوهم أنَّ دورَ القواعد التي ستعرض لبحثها على ضوء منهج تفسير القرآن لأمومة المُحكمات وأمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات ـ دورُ مقدمة بيان أصول التفسير، وإذا عُبِّرَ عنها المقدمة فهو مسامحة؛ لأنَّ هذهِ القواعد التفسيرية هي عبارة عن أعمدة داخلية وأسس، وأحد عظائم القرآن الكريم هو التركيز على القواعد والأعمدة الأساسية والرئيسية لا بيان الفوائد التفصيلية المتناثرة الجزئية فأحد وأهم أدوار مسؤوليات المفسر في تفسير القرآن هو اكتشاف الأعمدة وأكبر تأثير هداية

لتفسير القرآن هو أنْ تكتشف قوائم وأعمدة القرآن وأسسه.

نعم على غير منهج أمومة المحكمات والولاية ـ أي بحسب باقي المناهج التفسيرية، لا مانع ولا بأس من أنْ توصف هذهِ القواعد بالمقدمة الخارجية أو بالمقدمة الإعدادية.

القرآن الكريم يُركِّز على ذكر القواعد والأعمدة الأساسية، فمثلاً الأسلوب القصصي في القرآن، فإنَّ القرآن لم يتعرض إلى كل كبيرة وصغيرة في حياة الأمم والأنبياء و ... الخ فمثلاً ركَّز القرآن على جانب من بعض القصص التي حدثت لبعض الأنبياء كما في قصة يوسف فإنَّه لم يتعرض إليها تفصيلاً فالأمور الهامشية يُسْقِط ذكرها القرآن لأنَّها ليست لها التأثير البالغ في بيان تلك القصة وإنَّما يكون التركيز على المفاصل والأعمدة الأساسية والقوائم فيها، والحال لا يختص بسورة دون أُخرى وإنَّما يشمل مجموع القرآن.

ولذا دائماً أئمة أهل البيت عليهم السلام يؤكدون على ضرورة أنَّ المفسِّر لابدَّ له من الالتفات إلى الأعمدة والمفاصل الرئيسية والمحورية دون التشاغل بالتفاصيل؛ لأنَّها الأكثر هداية وتأثير في حياة البشر من التفاصيل، وهذا لا يتنافى مع أنَّ القرآن هو تبيان لكل شيء إذا التفت وانتبه وركَّز على الأعمدة والمفاصل الأساسية في الهداية، وحتى في هذهِ الأسس فإنَّه فوق كل ذي أساس أساسٌ.

ويؤيد هذا ما ذكره الإمام الصادق في تنبيهه عليه السلام على أنَّ المحكمات التي وصفها القرآن بأنَّها أم الكتاب ومع ذلك يؤكِّد الإمام العسكري على عدم التسرع والمطلوب هو التمهل رويداً رويداً ولا نقول بأنَّ هذهِ الآية

محكمة وانتهى الأمر، وإنّماعليه السلام أراد التأكيد على أنَّ لهذهِ المحكمات أمٌ أيضاً **«إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن وقطع جميع الكتب عليها يستدير محكمات القرآن وبها نوهت الكتب ويستبين الإيمان»**(١) فالروايات الواردة عنهم بيَّنت العلاقة والارتباط بين القرآن وباقي الكتب السماوية الأُخرى من التوراة والإنجيل والزبور و .... الخ.

ولكن نتساءل هل خاض مُفسرٌ من المفسرين في بيان وجه العلاقة والارتباط بين القرآن والتوراة أو الإنجيل أو الزبور أو ... الخ، نعم يذكره المفسرون إلّا أنَّه كارتباط وبيان نوع العلاقة وتحليلها لم يتعرض لها المفسرون ولم يبحثوها، وإنْ كان أهل البيتعليهم السلام بَيَّنوا تلك العلاقة والارتباط، إلّا أنَّه لم نَخُض في مثل هكذا مبحث إلى حد الآن.

الإمام الصادقعليه السلام استعمل في تعبيره القطب والمحورية والاستدارة وربط هذهِ الأمور مع بعضها الآخر تحتاج إلى دقّة هندسية عالية لربط هذا المنهج؛ ولذا المُفسِّر الذي يستطيع أنْ يصل إلى أعماق سابحة عميقة في القرآن فبها ونِعْمَتْ وإلّا نلاحظ أنَّ ما فسرته المناهج التفسيرية الأُخرى لا يلبي الغرض المطلوب فمثلاً: ـ التفسير الموضوعي تقدم أنَّه لا يُفسِّر إلّا موضوعات مبعثرة ومشتتة، وهو وإنْ كان جيد إلّا أنَّه مرحلة ابتدائية أو متوسطة وبالتالي لا يعطيك صورة مجسَّمة واضحة المعالم وإنَّما يعطيك كل عمود على حِدة.

وهذا بخلاف منهج أمومة المحكمات الذي أشار إليه الإمام الصادقعليه السلام بتعبير **«قطب القرآن»** وهو أفضل المناهج التفسيرية واستعمال كلمة قطب

---

(١) تفسير العياشي، ج١/ ح٨.

معناه هناك وجود مُجسم ومهيكل.

وهكذا تفسير القرآن بالقرآن يعتمد كذلك على بيان تفسير الحقائق ومع ذلك لا يُبينها بشكل مرتبط ونظامي، بينما نفس آيات وسور القرآن هي عبارة عن منظومة ونظام.

وهكذا الحال في باقي المناهج التفسيرية سواء التفسير التجزيئي أو أسباب النزول أو التفسير اللغوي الذي هو تفسير قشر ولباس القرآن، فإنَّها تعالج زاوية ووجهة وطبقة معينة في القرآن.

إلّا أنَّ المنهج الذي لم يكتشفه البشر وإنَّما اكتشفه أهل البيت عليهم السلام ولم يلتفت إليه حتَّى مفسري الخاصة فضلاً عن العامة إلّا بعض مفسري الصوفية نتيجة بيانات الفرق الباطنية الشيعية المستمدة من بيانات أهل البيت عليهم السلام ألا وهو منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام.

وذكرنا سابقاً أنَّه باستطاعة المفسر على باقي المناهج الأُخرى يستطيع المفسر أنْ يوجد ربط وترابط عَرْضي حَلَقي دائري بين سور القرآن وآياته، إلّا أنَّ هذا ليس هو القرآن، وإنَّما المنهج التفسيري الصحيح مَن يستطيع أنْ يوجِد تفسير نظامي متكامل بين الآيات وبين السور وإنْ كان فيه نوع من التبعثر إلّا أنَّه يمكن التوصل إليه شيئاً فشيئاً وخطوة فخطوة إلى الأمام.

وعليه فالإمام الصادق عليه السلام أراد أنْ يبين في كلامه أنَّه حتَّى التوراة والإنجيل والزبور و ... الخ إذا أُريد لها تفسير عميق لا يستطيع أحدٌ أنْ يفسرها بعمق إلّا ولاية أهل البيت عليهم السلام، فإنَّ أهل البيت عليهم السلام أعلم بالتوراة من نبي الله موسى عليه السلام وأنَّ أهل البيت عليهم السلام أعلم بالإنجيل من عيسى عليه السلام، وأعلم بالزبور من نبي الله داود عليه السلام، وهكذا أعلم بصحف إبراهيم عليه السلام من

نفس إبراهيم.

إذنْ أهل البيت عليهم السلام أعلم من الأنبياء الذين أوحى إليهم وتلقوا الكتب، وهذا بحسب مقتضى بيانات أُخرى في القرآن الكريم يصف القرآن بأنه مهيمنٌ على الكتب الأُخرى.

ولاية أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن لاسيما الآيات المحكمات منه نقطة مركزية التي أشار إليها الإمام الصادق عليه السلام **«عليها يستدير محكمات القرآن»** أي على ولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام وعليه فمحكمات القرآن تدور حول محور وقطبية أُخرى أعظم منها ألا وهي ولاية أهل البيت عليهم السلام فالمحكمات التي وصفها القرآن بأنها أم الكتاب وأنَّ لهذهِ المحكمات أم فرع أم أصلٌ ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ... وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[1] فتدلُّ على أنَّ الراسخين في العلم بعد الله تعالى لهم مرجعيةٌ، فلو كانت مرجعية المحكمات كافية ويستقل بها البشر لَمَّا احتيج إلى الآية المباركة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ وهذه الآية المباركة تدلُّ على أنَّ المحكمات لا تستطيع البشر أنْ يستثمرها إلّا بتعليم الراسخون، وهذه تدلُّ على أمومة الراسخون في العلم بعد الله تعالى والمحكمات الكتاب، علماً أنَّ القرآن الكريم، قال ﴿هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ والمراد من الأم أي الأصل والمدار.

أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام لمحكمات القرآن أمر ضروري لا يمكن الاستغناء عنه بحال من الأحوال ولا يمكن استثمار المحكمات بلا ولاية لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّها القطب والمحور. هذا بالنسبة لمرجعية الولاية وأنها

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

أم وأصل للمحكمات.

وأمّا بالنسبة للمتشابهات فكذلك لا يمكن للبشر الاستقلال بنفسه ولوحده أنَّ يزيل المتشابه إلّا بالرجوع إلى أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام والتمسك بالمحكمات لرفع وحلّ وإزالة المتشابهات.

إذنْ هذهِ الآية المباركة من سورة البقرة ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ ....﴾ كما في تعبير أئمة أهل البيت عليهم السلام أنّها هي حديث الثقلين القرآني، وفيها معادلات كثيرة وتدل على أعظمية العترة الطاهرة.

الفائدة الخامسة: حديث الثقلين عن النبي صلى الله عليه وآله في بيان أحقية أهل بيته العترة الطاهرة وبيان عظمة منزلتهم وأنّهم حَبْلُ الله الممدود، وهذا التعبير كناية عن بيان أنَّ طريق النجاة والفوز في الدارين منحصر بالتمسك بهذا الحبل الذي بَيَّنَه رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعبَّر صلى الله عليه وآله بالحبل لا بحبلين يريد أنْ يبين صلى الله عليه وآله أنَّ الثقلين ـ كتاب الله وعترتي أهل بيتي ـ عندما يتصاعدان منهما يتصاعدان حقيقة واحدة، وهذا أشبه ما يكون بقاعدة الشكل المخروطي أو الهرمي عندما يبدأ من أسفل القاعدة عريضاً ثم يتضيق بالصعود شيئاً فشيئاً إلى أنْ يصل إلى قمة الهرم وهو شيء واحد.

إذنْ النبي صلى الله عليه وآله أراد أنْ يرسم لنا رسماً هندسياً رياضياً من خلال حديث الثقلين لمنهج أمومة المحكمات.

الرسم الهندسي الرياضي لمنهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام والمحكمات في حديث الثقلين:

النبي الأكرم صلى الله عليه وآله رسم لنا منهجاً من خلال حديث الثقلين لأمومة المحكمات والولاية فإنَّ هذا الحديث النبوي فيه زوايا فنية ورياضية وهندسية،

وهذا الرسم الرياضي الهندسي لهذا المنهج ليس أفقي أو عمودي مبعثر، وما نذكره في هذا المنهج ليس من باب التمثيل فقط، أو خيال شعري؛ لأنَّ التمثيل: ـ معناه أنَّ المعاني لها نظام محاذي رياضي هندسي في نفس عالَم المعاني، فإنَّ المعاني يمكن ضبطها في نظام رياضي هندسي.

ويتميز حديث الثقلين أنَّه يمكن أنَّ يُسْتَخْرَج منه كل علوم القرآن، ولم تمر قاعدة من قواعد الأنظمة الثلاثة الآتية ـ نظام الاستعمال اللفظي أو المعنوي أو الحقائقي ـ إلّا وفيها ترسيخ لهذا الحديث النبوي الشريف ـ إنِّي تارك فيكم الثقلين ـ والنبي صلى الله عليه وآله تميز عن سائر الأنبياء فضلاً عن البشر بأنه [أعطي جوامع الكلم] فبإمكانه صلى الله عليه وآله بكلمة واحدة قصيرة وبليغة أنْ يلخص ما بين الأرض إلى آخر عالم الخلقة برسم هندسي رياضي دقيق.

وجه اختلاف منهج أمومة المحكمات الولاية عن منهج السيد العلامة محمد حسين الطباطبائي قدس سره وغيره الذي هو تفسير القرآن بالقرآن:

ذكرنا سابقاً أنَّ المنهج الذي لم يكتشفه البشر وإنَّما بَيَّنه أهل البيت عليهم السلام هو منهج أمومة المحكمات والولاية، وأنه المنهج الذي لم يلتفت إليه مفسري الخاصة والعامة، إلّا من بعض مفسري الخاصة، من بيانات أهل البيت عليهم السلام.

وأيضاً تقدم أنَّ منهج أمومة أهل البيت لا يُشَطِّبُ ولا يُهَمِّشُ المناهج التفسيرية الأُخرى، نعم لم يجعلها هي الخاتمة والنهاية، كما لم يجعل نفسه هو الخاتمة.

إلّا أنَّ منهج الأمومة يُناقش باقي المناهج التفسيرية الأُخرى، فمثلاً

منهجية السيد العلامة الطباطبائي في تفسيره الميزان وغيره كان العلامة السيد الطباطبائي قدْ سلك فيها مسلكاً وهو «**أنَّ ولاية أهل البيت**عليهم السلام **مصداق تطبيقي للقرآن الكريم**».

جوابه: ما اعتمده العلامة الطباطبائي قدس سره بعيدٌ عن حقيقة واقعية القرآن؛ لأنَّ العلامة الطباطبائي قدس سره جعل تفسيره خارجاً عن المعنى الاستعمالي للقرآن، والحال أنَّ المعنى الاستعمالي للقرآن ليس تنظيراً كلياً وإنَّما أحد أهم مصاديق القرآن هم أهل البيت عليهم السلام أي أهل البيت عليهم السلام يأتون في الدرجة البَعْدية بَعْد ولاية الله وولاية الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله.

وفي العلوم العقلية يريدون من المعنى هو ظل الحقيقة، فكيف يصبح المعنى هو كلي وهو الأصل والحقيقة هي تطبيق.

والعجيب من العلامة الطباطبائي قدس سره رغم خوضه وممارسته وخبرته العالية في المباحث العقلية كيف جعل الحقيقة تطبيق للمعنى، والواقع عكسه ـ والعصمة لأهلها ـ ولعلَّ السيد العلامة الطباطبائي قدس سره يستدرك بشيء آخر والله العالم.

إذنْ ولاية الله وولاية الرسول صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام بهذا التسلسل الطولي ليست هي مصدقا وهامش، وإنَّما ولاية أهل البيت هي أصل وحقيقة القرآن وأصل المعنى، نعم في غير أمومة ولاية الله والرسول صلى الله عليه وآله والأئمة تستعمل ظلاً للحقيقة.

وعليه ما ذهب إليه السيد الطباطبائي قدس سره في ميزانه، والسيد الخوئي في البيان، والسيد عبدالأعلى السبزواري في مواهبه، والميرزا علي القاضي، ومحمد حسين الأصفهاني الكمباني في نهاية الدراية وغيرهم، جعلوا ما هو

عمودٌ هامشياً، وما هو هامش عموداً، وعليه فلا يستقيم لك المعنى في كل نسيج مَعْرفي، ولم ينتظم لك أبداً، وعليه فيكون المعنى الكلي هو المعنى الظلي المنعكس والمحقق للقرآن.

معنى الأمومة والولاية ـ بحسب منهج تفسير أمومة المحكمات والولاية ـ هي المعنى الأصلي ومعنى الكلية هي ظلٌ وفيٌ، وظل الظل أو انعكاس الانعكاس ما شئت فعبر وعليه فإنَّ السيد العلامة الطباطبائي وغيرها مرّ ذكرهم ـ يفسرون قوله تعالى: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾[1] بأنَّ أهل البيت عليهم السلام هم المصداق الأكمل والأهم والأول للآية المباركة، وليس هذا المراد ـ والله العالم ـ وإنّما بحسب تفسير منهج أمومة المحكمات والولاية ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ فإنَّ المعنى الأصلي لها هو النبي وأهل بيته لأنَّهم المصداق ـ فإنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهل بيته [ذِكراً رسولاً][2] أي النبي صلى الله عليه وآله وأهل الذكر أي أهل الرسول صلى الله عليه وآله وتلك المعاني البَعْدية معاني مخففة.

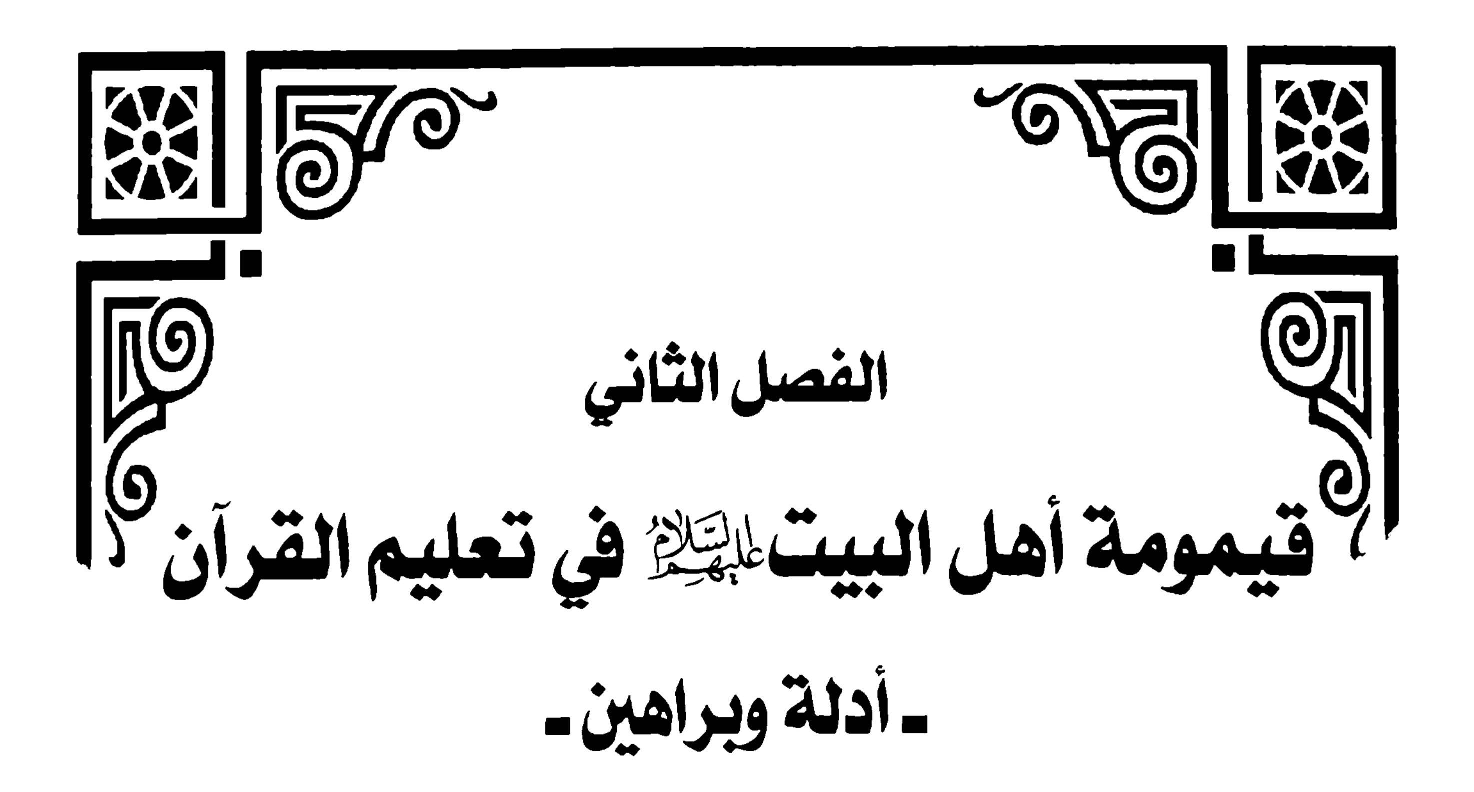
وعليه فإنَّ الروايات الواردة في ذيل الآيات القرآنية ـ كما يُنبه عليه أهل البيت ـ أنَّه يُستطاع استخراجها من سطح ظاهر القرآن، وهذا العمل الكبير يحتاج إلى جهود ضخمة ومسؤولية أجيال ـ وإنْ كنّا لم نجزم بأنَّ علمائنا الكبار لم يعملوا على طول القرون السابقة إلّا بقلة استخراج بيانات أهل البيت عليهم السلام من متن وسطح ظاهر القرآن ولو بترامي المعادلات اللغوية بأنَّ تترامى بشكل منتظم ودقيق وسديد فإنَّها توصلنا إلى لب

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧.

(٢) الطلاق/ ١٠ ـ ١١.

اللباب من المعاني وليس تأويلاً لأصله له بالظاهر، وهذا ما يُلقى على عاتق الجبل الجديد بتحمل مسؤوليته وكيفية استخراج بيانات أهل البيت عليهم السلام من متن وسطح ظاهر القرآن ولو بترامي المعادلات اللغوية بشكل منتظم كما ذكرنا قبل قليل.



الفصل الثاني

قيمومة أهل البيت عليهم السلام في تعليم القرآن

- أدلة وبراهين -

المبحث الأوَّل: باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه عند الشيعة الإمامية.

المبحث الثاني: لماذا المذاهب الإسلامية تخطر من فتح باب الاجتهاد.

المبحث الثالث: مقارنة بين فقه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وبين فقه المذاهب الأربعة في فقه الفروع وغيره.

المبحث الرابع: البرهان التأريخي الحضاري العلمي.

الدليل الأوَّل: البرهان التأريخي الحضاري العلمي.

الدليل الثاني: القرآن كتاب غيبي سماوي.

الدليل الثالث: مقامات ومنازل القرآن الكريم.

الدليل الرابع: حجية الظاهر حجية معيّة بين الكتاب والسنة.









المبحث الأول

باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه عند الشيعة الإمامية

إنَّ باب الاجتهاد في مدرسة أهل البيت عليهم السلام وباب التحقيق في فقه الفروع وفقه المعارف مفتوح على مصراعيه وعلى حاله على مَدَى أربعة عشر قَرْناً مضت، ولم يحصل التشرذم والانقسام وهو ليس بالأمر السهل والصدفوي أبداً، وإنَّما وليدُ وجودُ سرٍّ في البين، وهذا السِرُّ هو:

إنَّ الأصول العلمية التي بناها وجذّرها أئمة أهل البيت عليهم السلام هي أصول عاصمة واقية عن المروق عن الدين، ولم تأتِ هذهِ الأصول من صدفة فإنَّ الظواهر التكوينية ليست كالاعتبارية، فإنَّ الاعتبارية أمرها راجع إلى المعتبر بخلاف التكوينية فإنَّها ناشئة من علاقة السبب والمسبب وعليه فلا يمكن لأي فقيه أم مُفسِّر أو باحث في العلوم الدينية أنَّ يتخطى هذهِ الأصول ويتجاوزها ، فإنَّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام رسمت ووضعت المنهاج الصحيح والقواعد الترسانية الجحفلية بحيث ما استطاع بنو أميّة ولا بنو مروان ولا بنو العبّاس ولا من قبلهم ولا من بعدهم من دول شرقية أو غربية ولا نظام اشتراكي ولا رأسمالي ولا ... الخ. إلى اليوم أنْ يتخطوا هذهِ المعادلة سواء فقهيةً أو عقائديةً أو تفسيرية أو ... الخ فإنَّها رسمت للإنسان نوع العلاقة مع ربه ابتداءاً من كتاب التوحيد إذْ وضعوا فيه قاعدةً وهي:-

[أنَّ توحيده تعالى تمييز صفةٍ لا تمييز عُتْمةٍ]

هذهِ الضابطة لا يمكن للباحث أنْ يتخطاها ووقفت لها القمم العلميّة الشامخة من كلا الطرفين بإكبار واحترام.

وقاعدة أُخرى في التوحيد من صفاته تعالى:

[داخِلٌ في الأسماء لا بممازجة خارج عنها لا بالمزايدة قريبٌ في بُعْده بعيدٌ في قربه][(١)].

وهكذا رسمت لنا مدرسة أهل البيت عليهم السلام منهاجاً ووضعت القاعدة في كتاب الحُجة والنبوّة والإمامة في الأصول انتهاءاً بفقه الفروع من الصلاة والصوم والزكاة والحج ... الخ والمعارف والعقائد والتفسير.

وهكذا بيّنت لنا مدرسة أهل البيت عليهم السلام ميزانيّة العبد في الأفعال وقالت: [لا جبر ولا تفويض أمرٌ بين أمرين][(٢)].

فلا أحد يستطيع أنْ يتعدى هذهِ المعادلة ويوفق في عمله ومنهاجه أبداً ما لم يرجع إليها.

وكذا بيَّنت معنى: ـ مَنْ أحبَّ عَمَل قوم حُشِرَ معهم [(٣)].

وما يتداعن على هذا القول.

وكذلك أوضحت ما يتعلق بأصول التشريع في فقه الفروع من معنى الآية: ـ ﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ﴾[(٤)]. وأنَّها حَرَّمت الربا وما يترتب عليه من مضار ومفاسد وبيَّنت حرمة الحيل التمويهية وما يترتب عليها من مفاسد وحرمة الخمر والفواحش والمجون و ... الخ وما يترتب عليه نَخْرٍ في جسد الأمَّة والمجتمع، والتي أقَرَّ بها النظام الغربي مؤخراً في خضم الأزمة الاقتصادية.

---

(١) التوحيد للصدوق/ ص٣١٩، الأمالي للصدوق، ص٤٠٥.

(٢) الكافي ج١/ ص١٦٠ والتوحيد/ ٣٦٢.

(٣) الغدير ج٢ ص٢٩٢ (يبدل المصور بمصور أقوم).

(٤) البقرة/ ٢٧٥.

كُلُّ هذا وغيره بينته الشريعة المقدَّسة من خلال مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي وضعت الأعمدة والضوابط والثوابت التي لا يمكن لأي نظام من صنع البشر في الكون كله أنْ يتخطاها، ومَن تخطاها بحالة سلبية وعدم اعتراف كُتِبَ عليه الفشل في كل مشاريعه الاقتصادية والعمرانية والفكرية والعلميّة ... الخ بل من جميع العلوم سواء الفقهية منها أو العقائدية أو التفسيرية أو المَعْرفية أو ... الخ.

إذنْ هذهِ القواعد والأُسس التي جذّرتها مدرسة أهل البيت عليهم السلام وفتحوا أبوابها وأسرارها هي حصون منيعة لا تستطيع البشرية أنْ تتسلق وتقفز عليها من دون تطبيق ومُجازات لهذهِ الأصول العلمية والمعادلات، وهذا هو السِرُّ في بقاءها وديمومتها بعد مضي أكثر من أربعة عشر قَرْناً على تأسيسها.

وهذا نظير ما يقوله علماء الرياضيات مِن أنَّ الرياضيات كلها من علم الهندسة وعلم المثلثات والجبر والميكانيكا والقوى والهندسة الفضائية والفلكية و ... الخ.

تتشعب من معادلات تِسْع هي عملية الجمع والطرح والضرب والقسمة والجبر والهندسة والمثلثات و ... الخ.

وعليه فأيِّ عملية حسابيَّة في إنشاء مفاعل نووي، أو أسلحة ذرية كيميائية وأي تطور بيولوجي لا يمكن أنْ تتجاوز المعادلات التسع.

المبحث الثاني

لماذا المذاهب الإسلامية تخطر من فتح باب الاجتهاد؟

المذاهب الإسلاميَّة كافة عدا مذهب الشيعة الإماميَّة أتباع مدرسة أهل البيتعليهم السلام أغلقت باب الاجتهاد في فقه الفروع فضلاً عن باب المعارف وأصول العقائد لاسيّما علم التفسير وغيره؛ لأنَّهم استشعروا خطورة مُدَّمِرَة من فتح باب الاجتهاد في القرن الثالث والرابع والخامس ... الخ ورأوا في ذلك ـ أي في سد باب الاجتهاد ـ ضرورة ملحة والى يومنا هذا ونحن في القرن الخامس عشر الهجري لا زالت الجوامع الدينية عند أهل السُّنة تشعر بكل ثقة واطمئنان أن فتح باب الاجتهاد في فقه الفروع فضلاً عن غيره سوف يشرذم المسلمين من أهل السُّنة الى فرق متعددة وتصدع المذهب الواحد الى مذاهب متعددة، وبالتالي لم تبق لهم باقية.

وهذا المنع من فتح باب الاجتهاد مستمر على قدم وساق الى يومنا هذا وسبب ذلك كله هو: ـ

أنَّهم لم يكتشفوا الوحدة المُنسِقة الناظمة بين المعارف الدينية من فقه وعقائد وتفسير وحديث وتاريخ ... الخ.

واكتشاف الوحدة الناظمة المُنسِقة يحتاج إلى علم لَدُني، كما وَرَد ذلك في خطبة الزهراءعليها السلام **«وطاعتنا نظاماً للملة، وإمامتنا أماناً للفُرْقة و...الخ»**.[1]

---

(١) خطبة الزهراءعليها السلام في رواية عبدالله بن الحسن بإسناده عن آبائهعليهم السلام.

وأرادت الزهراء عليها السلام بذلك ـ أنَّ الإمامة هي العنصر الموحِّد والمُنسِق بين شتات الدين إذْ ليس بوسع البشر من المسلمين والفقهاء والمجتهدين لوحدهم أن يكتشفوا تلك العناصر المُنسِقة والموحِّدة في علم الفقه فضلاً عن العقائد والأخلاق والآداب والتفسير والسياسة والاقتصاد والتأريخ ... الخ.

وأمثلة ذلك كثيرة في مختلف مجالات الحياة، فما نلاحظه اليوم من التضخم الانتاجي عند البشر في جانب صناعي أو تكنولوجي أو ذري أو ... الخ.

فإن يستلزم تصحر الأرض الخضراء عند البشر، وعليه فلا يُعقل عدم وجود وحدة منسقة بينهما.

وهكذا التنسيق والتنظيم بين الزراعة والاقتصاد، بين علم البيئة وعلم الاقتصاد وكذلك الإفراط في الاستهلاك بكل ما في السوق من البضائع سَبَّبَ لهم اختراق طبقة الأوزون.

وهكذا وحدة نظام في التشريع والتقنين في فقه الفروع في القانون المدني، فإن الموزانة ووحدة النظام بين فقه التشريع ـ السلطة التشريعية ـ وبين السلطة التنفيذية ـ النظام السياسي، وبين النظام التشريعي مطلوبة، وهكذا في كل القوانين والمعادلات الكونية، إذا لم تُرْعَ فيها الكتاب والسنة ـ أي الثقلين ـ فإنه يقع فيها التصادم والتنافر بعضها مع البعض الآخر.

الزهراء البتول عليها السلام بنت النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عَبَّرَت في كلمتها **«إمامتنا نظاماً للملة»** إشارة الى أنَّ هذه الملة هي: ـ فطرة الله التي فطر الناس عليها جميعاً، وهذه الفطرة هي الوحدة المُنسِّقة بين أنظمة البشر الاجتماعية

والاقتصادية والسياسية والتأريخية والجيولوجية والبيئية ... الخ والمُنَظِم والمُنسَق لهم هو صاحب العلم اللدُني الذي لولاه لساخت الأرض بأهلها ـ أي تبعثرت وتشتت وتزلزت ـ

ولذا كانت تصرفات بعض البشر وإنْ كان عالِماً وعنده معادلات وقواعد رياضية وفيزيائية وكيميائية و ... دقيقة وعلمية، إلّا أنّه من دون أنْ يرجع إلى المُنظم والمُنسِّق لهذهِ العلوم وهو الإمام القائم المنتظر الحجة بن الحسن عجل الله فرجه حتّى يَعْرِف إلى ماذا تنتهي وما تكون النتائج، وإلّا ـ أي من دون الرجوع إلى الإمام عجل الله فرجه ـ يحصل ما يحصل من الفشل والتراجع في كل شيء كما يعيشه الآن الغرب وغيره في أنظمتهم الاقتصادية والسياسية والتربوية الاجتماعية والتكنولوجية والبيئية و ... الخ وسبب فشلهم أنّهم اعتمدوا على قدراتهم الشخصية والذاتيّة من دون الرجوع إلى المنظم والمُنسِق والمُنقِذ للبشرية من مستنقع الرذيلة والهاوية وهو إمامتنا نظاماً للملة؛ ولذا وقعوا في الهاوية أثبتت التجارب الكيميائية والفيزيائية أنّه كلما اكتُشِفت معادلات وحدوية في العلم كانت هي الأقرب إلى الحقيقة والواقع، وكلما جهلنا المعادلات الوحدوية بأن كانت هناك تَكَثّر وتبعثر كانت نتائج العلم عقيمة.

وعلى هذا قِس جميع العلوم والفنون على اختلاف معادلاتها وقوانينها من علم نفس فردي أو تعدد النفس البشرية ازدواجية ـ أي انفصام في الشخصية ـ وارتباط الروح بموجودات أثيرية .... الخ.

وفشل وتراجع كل تلك القوانين والأنظمة الوضعية بسبب ابتعادها عن ما شرعه الله تعالى ورسم للبشر نظاماً ومنهاجاً يسير عليه حتى يضمن

سلامة ونجاح الدارين.

لذا شرَّع الله الأحكام الشرعية ورسم لنا منهاجاً نسير عليه منذ أنْ كنا في بطون أمهاتنا إلى يوم الدين، جعل لنا الدين بما له من معنى واسع ينفتح ويتلائم مع كل ملفات الحياة بما للانفتاح من معنى واسع أيضاً، وهو ليس مختصاً بالبشر فحسب، بل كما عَبَّرَ القرآن الكريم ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾[1].

فالدين هو برنامج رسمه الله لكل المخلوقات كُلٌّ بحسب تكليفه وما يُناسبه، وهذا الدين عبارة عن آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم درجات، وليس مختصاً بالنبي صلى الله عليه وآله فحسب وإنَّما هو كذلك بالنسبة إلى أوصياء النبي صلى الله عليه وآله لأنَّ القرآن ذكر ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾[2] و ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[3].

ومن خلال هذا كُلِّه يُعْلم ضرورة وجود المُعَلِم الإلهي المتمثل ـ كما مَرَّ ـ بالنبي صلى الله عليه وآله وأوصياؤه عليهم السلام ـ في مدرسة الأئمة الأثني عشر عليهم السلام وأتباعهم، ولم يمرُّوا ـ وما مرّوا ـ بتشرذم وبقيت الفرقة الحقَّة الإماميّة الأثني عشرية هي الرائِدة بين المذاهب الأخرى التي انحرفت عن خط مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وسبب تشرذم هذهِ الفرق الإسلاميّة ـ غير الفرقة الإمامية الاثني عشرية ـ من خوارج ومُجبِّرة ومجسمة ومرجئة وقدرية و ... الخ بل وحتَّى

---

(١) الذاريات/ ٥٦.
(٢) آل عمران/ ٧.
(٣) الواقعة/ ٧٩.

الفرق التي انشقَّت عن مدرسة أهل البيت عليهم السلام هو أنَّهم نظروا إلى جانِب في الدين وجهلوا وغفلوا جوانب، بينما الدين في الواقع وحدة واحِدَة لا تتبعَّض، وهذا ما يؤكِّد عليه القرآن الكريم من أنَّ القرآن والدين وحدة نظام واحِدَة مَن لم يحافظ عليها سوف يؤول أمره إلى التبعثر والتشتت في أمر هذا الدين.

وحَذَّر القرآن من خطورة هذا التفكيك والتبعض في الدين ﴿ٱلَّذِينَ جَعَلُوا۟ ٱلْقُرْءَانَ عِضِينَ﴾[1].

ولربما تسأل وتقول: مَن الذي يستطيع أنْ يُتَسِقَ ويجعل القرآن والدين نظاماً واحداً؟

الجواب: هم أهل البيت عليهم السلام ويؤيده ما رواه العياشي في تفسيره عن مسعدة بن صدقة، قال: ـ قال أبو عبدالله عليه السلام **«إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب، عليها يستدير محكم القرآن وبها نَوَّهتُ الكتب ويستبين الإيمان»**[2].

والمراد بقطب القرآن يعني المحور المركزي إذْ لولا ولاية الأئمة عليهم السلام لساخت الأرض بأهلها لأنَّ غير أئمة أهل البيت عليهم السلام لا يمتلك القدرة على اكتشاف وحدة النظم والتنسيق لذا يكون عنده القرآن يضرب بعضه بعضاً؛ لذا تكثَّرت الفرق منها: ـ الجبرية والقدرية والمرجئة و ... الخ.

بعد وضوح أنَّ القرآن الكريم من أهم الكتب السماوية وخاتمها وقطبه المركزي هم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، بل حتَّى وحدة النظام في باقي الكتب

---

(١) الحجر: ٩١.

(٢) تفسير العياشي ج١، ص٧٨.

السماوية الأُخرى كالتوراة يكتشفها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله لا النبي موسى عليه السلام.

المعلم الأجدر للتوراة وباقي الكتب السماوية هو النبي صلى الله عليه وآله وأوصياؤه.

ويؤكِّد هذا المعنى ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام **«أمّا والله لو ثنيت لي الوسادة لعلمت وحكمت بين أهلِ التوراة بالتوراة و ... الخ»**[1]. وهكذا الإنجيل وباقي الكتب السماوية الأُخرى.

والخلاصة: أنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأهلَ بيته عليهم السلام هم أحفظ لكتب الله تعالى من غيرهم من أنبياء الله الذين بعثوا بتلك الكتب؛ لأنَّ القرآن مهيمن على تلك الكتب، ومن الطبيعي الذي يعلم بالمهيمن بعلم أكثر من صاحب المهيمَن عليه.

وهناك ثمرة تترتب على هذا: ـ وهي أنَّ التأكيد على أنَّ ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، إشارة إلى أمومة ولاية أهل البيت وأمومة المحكمات على غيرها من الآيات، هو أنَّ مَنْ لم يلتفت إلى ما عند أهل البيت من علوم وقواعد لا يستطيع أنْ يؤلِّف القرآن وحدة نظاميَّة واحدة، فلا محالة يقع في ورطة جعل القرآن عضين، كما وقع في ذلك اليهود ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[2].

مضافاً إلى ما ذكرته الزهراء عليها السلام في ذيل خطبتها **«إمامتنا نظاماً للملة عليها يستدير محكم القرآن»** الذي أشار له القرآن الكريم في سورة آل عمران ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ

---

(١) بحار الأنوار ج٤٠ ص١٣٥.
(٢) البقرة/ ٨٥.

تَأْوِيلَهُۥ﴾[١].

وهنا القرآن الكريم أسس قاعدة هامّة وهي «**إنَّ أصل قطب المتشابه يرجع إلى المحكمات**».

والذي يَعْلَمُ تأويله هو الله والراسخون في العلم، ويذكر المفسرون بعد الرجوع إلى أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته أنَّ الراسخون في العلم بعد الله عَزَّ وَجَلَّ هي ولاية وإمامة أهل البيت عليهم السلام التي يستدير عليها محكم القرآن.

ومن كل هذا يُعْلَم: ـ أنَّ محكم القرآن له أمومة ومرجعية للمتشابهات.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

المبحث الثالث

مقارنة بين فقه الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام وبين فقه المذاهب الأربعة في فقه الفروع وغيره

لو قارنا بين ما أسسه ومنهجه الإمام الصادق عليه السلام وآبائه وأبنائه ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ في فقه الفروع مثلاً وبين ما أسَّسته المذاهب الإسلامية الأربعة لتراءا لنا بالنظرة السطحية أنَّ هناك في معظم المواضيع، ولعلَّ المتتبع في هذا المجال يعطي نسبة الوفاق بينهما بحدود ٨٠٪ كنسبة تقريبية واختلاف بنسبة ٢٠٪ في تفاصيل فرعية في أصول القواعد وهذه مُبتنية على أسس غيبيّة وأُسس الكلام ليسَ في العدد الكمي وإنَّما أُسس مكاشفية؛ لذا لا تستلزم وجود أعداد ضخمة من الفوارق، والكلام في الأسس ليسَ من جهة العدد بقدر ما هو فارق كيفي عميق فإنَّ ٢٠٪ من الاختلاف، وإنْ كان من حيث العدد ٢٠٪ إلّا أنَّ هذهِ الكميّة حيث كانت في الأسس لا في مجرد التفاصيل، كان الاختلاف كبيراً جداً، إذْ الاختلاف في التفاصيل البعيدة هيِّن بالقياس إلى الاختلاف كبيرٌ كيفاً، بلْ وكثير كمّاً أيضاً بلحاظ ما يرتتب عليه من فروع كثيرة متخالفة.

إذنْ المدار ليسَ على عدد الاختلاف من جهة الكم بلْ المدار على النوعية الكيفية في ما هو أساس الموجب للاختلاف في المسار من البدايات. ليس في العدد الكمي وإنَّما أسس مكاشفية لذا لا تستلزم وجود أعداد ضخمة جداً من الفوارق.

فمثلاً هناك فرق شاسع وعميق بين ما تقوله المذاهب الإسلاميّة عن

أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ، قال: **«إذا مَرَرْتَ ببلدةٍ ليسَ فيها سلطان فلا تدخلها إنَّما السلطان ظل الله في الأرض»**[١].

وبين ما تقوله الإماميّة **«كلمة حق عند سلطان جائر»**[٢].

فالفرق بين المسيرين المسير السلطوي البلاطي وبين مسير معارضٍ مصحح للخطأ واضحٌ عميق بينهما.

فإنَّ مدرسة أهل البيت ونظامها الجعفري ـ نسبة إلى الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام ـ لا يمكن لأي نظام في الكون أنْ يخترقها لأنَّ إعجازها إعجاز وحياني إلهي يعجز الآخرون عن الإتيان بمثله في مختلف علوم المنظومة المعرفية من فقه وعقائد وتفسير وحديث و ... الخ ، فإذا استطعنا أنْ نشخِّصها عند أهل البيت نكون في وقاية وحماية.

وهذا ما يُميِّز ولاية وأمومة المحكمات من غيرها.

---

(١) السنن الكبرى للبيهقي ٨/ ١٦؛ أمالي الطوسي.

(٢) سنن الترمذي ج٨ ص٣٤٥.

المبحث الرابع
الأدلة والبراهين على قيمومة أهل البيت عليهم السلام في تعليم القرآن

وفيه:

تنبيه: الأدلة التي سنذكرها ليست فقط أدلة على ضرورة أخذ أصول التفسير ومنهاجه من أهل البيت عليهم السلام، بل هي بنفسها قواعد ومناهج التفسير عند أهل البيت عليهم السلام، كما وأنَّ هذهِ الأدلة مرتبطة بنظام الحجج وأنَّ القرآن حجةٌ من الله عَزَّ وَجَلَّ وأنَّ الرسول صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة هم حجج من الله على البرايا، وأيضاً الحجة هو العقل البشري، ومقصودنا من نظام الحجج هو التنسيق ووحدة التأليف بين هذهِ الأمور المتكثرة والمتشتتة.

الدليل الأوَّل: البرهان التأريخي الحضاري العلمي:

لا يخفى على الأخوة الباحثين في العلوم والمعارف الدينية بل وغيرها من الفنون الأُخرى ذات الصِلة أهمية علم التفسير ومتابعة نتائج المفسرين عند القدماء وعند متأخري المفسرين، بل والمعاصرين ـ رحم الله الماضين وحفظ الباقين ـ والأهم في الوقوف عليه والالتفات إلى ما أشار إليه أئمة أهل البيت عليهم السلام ونبَّهوا عليه في أصول وقواعد التفسير وغيره من العلوم الأُخرى، بسبب أنَّهم معصومون وأرادوا تأسيس قواعد فسوف تكون تلك القواعد وحيانية لا يرد عليها الإشكال بخلاف ما لو كان المؤسس للقاعدة الفقهاء والمجتهدين وبالتالي يكون إنتاج بشري يأتي عليه ما يأتي.

وربما يخوض الكثير من مفسري العامة والخاصة في قواعد علم التفسير ومنهاجه، ولكن وللأسف القليل منهم بل هذا من مفسري الخاصة مَنْ يغور عُمْقاً وبحثاً عن الأصول والقواعد التي يشير إليها أئمة أهل البيت عليهم السلام بنحو خاص وبطريقة معينة تختلف عن القواعد الثابتة والسائدة لدى عموم المفسرين كما سيتضح من خلال البحوث الآتية، مِن أنَّ الذي يُنبه عليه أهل البيت عليهم السلام له أدلته ومبرراته الكثيرة جداً.

وإذا غُرْنا في هذا البحث أكثر نجد عندما نقرأ سيرة الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام إنَّ الفترة التي عاشها عليه السلام فترةً علمية وليست سطحيةً وتأريخية.

فقد نقل الطبري[١] وكذا الكشي في رجاله[٢] عن أحد المخبرين السريين للخليفة هارون الرشيد الذي نقل له تقريراً معيناً عن وضع الشيعة آنذاك وأنَّ اتباع الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام هم ثمانٍ فِرق منها:ـ

١ ـ الزرارية: أتباع زرارة بن أعين[٣].

٢ ـ وعماريّة: إتباع عمار الساباطي[٤].

٣ـ بصيرية: أتباع أبو بصير[٥].

---

(١) تاريخ الطبري، تاريخ هارون الرشيد.

(٢) رجال الكشي.

(٣) وهو أحد أبرز فقهاء الإمامية في زمان الإمام الصادق عليه السلام وله مناظرات ومواقف علمية مُثبَّتة اعترف بها العامة ويذكرونه، وجابر بن يزيد الجعفي وغيرهما من أتباع أهل البيت عليهم السلام شموخ واحترام ووقار بغض النظر عما يوجه إليهما من الانتقادات من ناحية الانتماء العقيدي.

(٤) عمار الساباطي: من أصحاب الصادق عليه السلام والكاظم عليه السلام وهو ثقة.

(٥) يحيى بن القاسم أبو بصير الأسدي وهو من الثقاة، روى عن الباقر والصادق عليهما السلام.

٤ ـ وهشامية: أتباع هشام بن الحكم[١].

على عدد بيوت المرجعية والفقاهة والعلم، فكل واحد من هؤلاء كان مرجعاً في علم من العلوم، فهشام كان مرجعاً في العقيدة والكلام، وزرارة مرجعاً في الفقه وكذا محمد بن مسلم ... الخ.

وعليه إذا لاحظنا هذا الازدهار والنجومية لفقهاء ورواة ومتكلمي ومفكري ومفسري الشيعة في سماء العلم، وهذا التعدد لهؤلاء العلماء والمرجعيات التي خرّجها الإمام الصادق عليه السلام في جميع المجالات أتباع الإمام جعفر الصادق عليه السلام في جميع العلوم واختلاف المجالات ومع ذلك لم يحدث أي تشتت وتشرذم لمذهب أهل البيت عليهم السلام، ولم تَضَع ولم تندرس معالم وهوية المذهب والطائفة الحقة.

إلفات نظر:

حتَّى أنَّ كثير من علماء مفسري وفقها ومتكلمي العامة بمختلف مذاهبهم يستنجدون علمياً بعلماء وشخصيات علمية شيعية، فهذا ابن أبي ليلى تلميذ أبي حنيفة كان يستنجد علمياً بمحمد بن مسلم وهذا مُوَثَّقٌ.

وهكذا الحكم بن عتبة الذي كان أُستاذ زرارة بن أعين قبل استبصاره ـ زرارة ـ وبعد استبصار زرارة وأصبح من أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أُجريت مناظرات مسجلة بين زرارة وأُستاذه الحكم بن عتبة.

---

(١) هشام بن الحكم من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام وهذا صدر الإمام الكاظم عليه السلام ثقة وله مناظرات كثيرة مع المخالفين وكان من فتق الكلام في الإمامية.

وكانت علماء العامة تجلّ زرارة كثيراً وتوقّره لوطئته العلمية، رغم انتقادهم له بالانتماء العقيدي المخالف لهم، ومصادرهم زاخرة بذلك.

بينما إذا لاحظنا الطرف الآخر ـ المذاهب الأربعة ـ وقارناها بمذهب أهل البيت عليهم السلام فنجد أنَّ لكل من الأُستاذ والتلميذ مذهباً، كما في مالك وأبي حنيفة، وكذا ابن حنبل والشافعي أيضاً بينهما تمذهب، وإنَّ مالك وابن حنبل تتلمذا على يد الإمام جعفر بن محمد الصادق عليه السلام، فضلاً عن التمذهب بين الأقران، لاحظ النخعي الثوري له مذهب فقهي وسفيان بن عيينة له مذهب آخر، وسفيان الثوري له ثالث، والحكم بن عتبة رابع وهكذا.

لذا يذكر لنا التأريخ الموثوق به أنَّ مذاهب الفقه والفروع عند أهل السُّنة في القرن الثاني والثالث بلغت العشرات، وليس مذهباً واحداً حصر المذاهب الأربعة.

وهنا تأتي حاجة المذاهب الأُخرى لسد باب الاجتهاد لتنقذهم من التشرذم والتشتت المذهبي في فقه الفروع والعقائد والتفسير ... الخ.

علماً أنَّ هذا التشرذم والتمذهب حصل بين بعضهم البعض في زمن مُؤسسي هذهِ المذاهب وهم لا زالوا على قيد الحياة ولم تتمادَ بهم القرون.

سؤال علمي صناعيٌّ: لماذا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام مهما تفرعت وتكثرت قممه العلمية في مختلف العلوم ومع ذلك باب الاجتهاد مفتوح ولا تجد تمَرّداً ولا تشرذماً، وإنَّما تجد وحدة متماسكة؟

الجواب: إنَّ الأصول التي ثبتها أئمة أهل البيت عليهم السلام هي أصول لها

منظومة خاصة أصولٌ وحدوية بينها إلفة ووحدة، وهذه الوحدة ليست نفسية فقط، بل وحدة فكرية وعلمية ومنهجية، إذا سار عليها الإنسان الناشد للوحدة تخلص من التمزق والتبعثر والتشتت.

ومن الشواهد على ذلك:ـ

ما قالته الزهراء عليها السلام: **«... وجعل إمامتنا نظاماً للملة»** والمراد من النظام هو الوحدة والتطابق.

ولذا نجد بعض الفرق المرتبطة بالشيعة كالزيدية والإسماعيلية والفطحية ... الخ لمّا انقطعت سلسلة الأئمة عليهم السلام عندهم وقَدَّموا مَن ليس بإمام وليس بمعصوم ولم يسيروا على الأصول الحقّة التي أسسها وجذرها أهل البيت عليهم السلام نجد أنَّهم تشرذموا وضاعت هويتهم واختلفت وتغيّرت عقيدتهم ومذهبهم؛ ولذا أصبح بعضهم على المذهب الحنفي والآخر المالكي وثالث الشافعي ورابع الحنبلي ... الخ.

ومن الواضح لا يوجد توافق بين المذهب الحنفي ومدرسة أهل البيت عليهم السلام.

فمثلاً: الزيدية أحد الفرق المرتبطة بالشيعة والذين يقرون بإمامة أربعة من الأئمة عليهم السلام ١ ـ أمير المؤمنين عليه السلام. ٢ ـ الحسن بن علي عليه السلام. ٣ ـ الحسين بن علي عليه السلام. ٤ ـ علي بن الحسين عليه السلام. ثم ينعطفون إلى القول بإمامة زيد بن علي، ويحيى بن زيد ... الخ تجد فقههم الآن فقه حنفي، ومن المعلوم أنَّ الفقه الحنفي لا يتوافق مع الفقه الإمامي، وإنْ كان هناك تشابه بنسبة عالية واختلاف بنسبة قليلة، إلّا أنَّ هذهِ النسبة القليلة المختلف فيها

هي من الأصول، أي اختلاف في أصول الفروع، وعليه لا يتلاءم ولا يتفق الفقه الحنفي مع ما عند الشيعة الإمام الأثني عشر من نهج البلاغة والصحيفة السجادية ... الخ.

لذا نجد هؤلاء ـ الزيدية ـ أيضاً تشرذموا كالمذاهب الأربعة؛ لأنَّهم لم يسيروا على المنهج الذي جَذّره أئمة أهل البيت عليهم السلام.

بخلاف الذي سار على نهجهم عليهم السلام واتّبعهم فنجد كُلَّ إمام يزيدك ارتباطاً بالإمام السابق عليه واللاحق له، وهذا إنَّما يَدُلُّ على برهان علمي على إمامة وعِصْمة الأئمة عليهم السلام الذين نعتقد بإمامتهم عليهم أفضل الصلاة والسلام.

ونفس هذا المعنى في وَحْدة المنظومة يأتي عند الكلام عن الأنبياء والمرسلين، فأنَّهم وَحْدَةٌ واحِدة يُصَدِّقُ بعضُهم بعضاً ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾[١].

ويَقِرُّ بمن قبله؛ لأنَّ المنبع واحِدٌ والأساس الموحِي لهم واحد: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾[٢].

الدليل الثاني: القرآن كتاب غيبي سماوي:

بعدما تقدم في الدليل الأوَّل على قيمومة أهل البيت في بناءً ورسم أصول التفسير عبر التأريخ الحضاري والعلمي الذي أثبت أنَّ الأصول المعرفية ـ لا سيما التفسيرية ـ وضعت بيد أهل البيت عليهم السلام ولولا وضعهم لها بيدهم لاستلزم ذلك تمزق ونشوء فرق كما حدث في فقه الفروع وكذا في

---

(١) سورة الصف: ٦.

(٢) سورة البقرة: ٢٨٥.

فقه العقائد والتفسير ... الخ.

وسدُّ باب الاجتهاد عند المذاهب الإسلاميّة غير مدرسة أهل البيت عليهم السلام والسبب في ذلك واضحٌ.

هو أنَّ الأئمة عليهم السلام أسسوا لتلك العلوم جوامع وأسس تُدار عليها وحدة النظام.

ونذكر في هذا الدليل: أنَّ القرآن كتاب إلهي فيحتاج إلى مُعلِّم إلهي أيضاً.

وقدْ أشار أهل البيت عليهم السلام في الروايات الواردة عنهم بطريق معتبر أنَّه من الخطأ الذي وقع فيه المفسرون من الفقهاء والمجتهدين أنَّهم نظروا إلى كلام الله نظرة تشبيه ومماثلة إلى كلام البشر، علماً أنَّ أصول التفسير لكلام الله تعالى تختلف عن أصول استظهار كلام البشر، فإنَّ فعل الله وكلام الله لا يُقاس بفعل وكلام البشر ولا تشابه بينهما.

إنْ قلت: بناءاً على هذا ـ أي عدم مقايسة ومشابهة كلام الله بكلام البشر ـ يلزم أنْ تكون هناك قطيعة مطلقة بين كلام الله وكلام البشر، فكيف يفهم البشر كلام الله والحال أنَّه في جملة من الآيات القرآنية وصفت كلام الله بأنه بلسان عربي مبين وبيان للناس وعليه يلزم تعمية وإجمال وتلغيز القرآن الكريم، وهذا لا يتلاءم مع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أمر بين أمرين لا تعطيل للقرآن ولا تفويض.

قلتُ: صحيح الروايات ذكرتْ وركَّزتْ على هذا الاستدلال والبرهان ـ من أنَّ أصول تفسير كلام الله يختلف عن أصول تفسير كلام

البشر، إلّا أنَّه لا يلزم هذا المحذور ـ أي تعطيل القرآن وتجميده وحجبه عن العقول وإفادة واستفادة البشر ـ وإنَّما القرآن مُفعَل وحجة فعليّة في هذا الزمان وكل الأزمان على البشر، إلّا أنَّ هذهِ الحجة المفعلة ليست مفوضٌ سكان إدارتها إلى البشر بنحو مطلق.

الخلاصة من هذا: إنَّ البشر ليسوا محرومين من الاستفادة من هذهِ الحجة القاهرة وهو القرآن الكريم، وليسوا هم بمنأى عنه ولا توجد فجوة بينهما، ولكن في نفس الوقت قيادة هذا النظام وهذه الظاهرة الإلهيّة ليست بيد البشر تماماً، بل الأمر هو بين أمرين.

ونتعرض إلى ذكر أمور:

١ ـ هل المعتبر في حجيّة الرواية سندُها أم برهانيّة المضمون:

رُبَّ قائل يقول: إنَّ الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في المعارف والتفسير و ... الخ ليست صحيحةً سنداً ولا موثقة، رُبَّما تكون ضعيفة أو مرسلة، وبالتالي لا يمكن الركون إليها فماذا نصنع؟

الجواب: هناك نقطة أساسيّة نعتمدها في المقام هي: برهانية المضمون سواء صحَّ السند أو لا؛ لأنَّ التغذية التعليمية من أهل البيت عليهم السلام أرفع من التغذي بمعنى المتابعة ـ أي متابعة الطاعة ـ وإنْ كان هذا إتباع لهم شريفٌ ومقدس، خاصة إذا كان إتباعهم عن بصيرة وعلم فهذا مستوى أرفع في الإتباع.

وهذا ما يصطلح عليه بالحجية البيانيّة، وحجية العلم هي أرفع من الحجيّة التعبدية.

وعليه لأجل التعرف على منهج أهل البيت عليهم السلام في التفسير عن طريق الروايات الواردة عنهم:

أولاً: يجب أنْ لا يكون أسارى الحجية التعبدية بحيث يكون ضعف السند عائقاً أمامنا في التدبر في كلمات أهل البيت عليهم السلام فيما يتعلق بتفسير القرآن الكريم وتبيان آياته، فإنَّه مَرَّ أنَّ مضامين القرآن تختلف عن مضامين كلام البشر وتبيانها.

ثانياً: ينبغي أنْ يختلف في مسالك حجيته من حيث الأخذ به وعدمه عن مسالك التعامل البشري أو العقلائي فيما بينهم، فإنَّ حجية القرآن ذاتية، وهذا معناه إنَّه لم يكن خاضعاً لضعف السند وعدمه في لزوم التصديق به، وإنَّما كانت نفس مضامينه بما انطوت عليه من قدرات بيانيّة وعلوم عالية هي المُسوِّغ في الأخذ به والاعتقاد بصدقه وإعجازه.

ثالثاً: ينبغي أنْ يكون الحال في الأخذ بكلام أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين هم عِدْل القرآن، والالتفات إلى مضامين كلامهم عليهم السلام في هذا الجانب وما تنطوي عليه قدراتهم البيانية، وعلومهم التفسيرية العالية تكشف عن الإحاطة التامَّة بعلوم القرآن الكريم.

ومن خلال هذا كله يتضح أنَّه نأخذ بكلامهم عليهم السلام بغض النظر عن كون السند صحيحاً معتبراً أو كان ضعيفاً، وهذا ما يمكن أنْ نصطلح عليه: ـ بالحجية البيانية، التي هي أرفع من الحجية التعبدية فإنَّ مناط الأخذ بالقرآن الكريم والإذعان بإعجازه كان مُستنِداً إلى الحجية المذكورة دون الحجية التعبدية، كما لا يخفى.

وهذا بالتالي تكون له ثمرة مهمة جداً لنا في البحث التفسيري بل والبحث المعرفي العقائدي، ألا وهي النظرة إلى التراث النقلي للآيات والروايات نظرة استنطاق بياني علمي.

إنْ قلت: بناءاً على أنَّ القرآن كتاب سماوي ويحتاج إلى معلم إلهي أيضاً يدعي البعض من المدارس الإسلامية بل حتَّى من بعض المناهج المنتسبة لأهل البيت عليهم السلام بأنْ تكون النتيجة المتوخاة هي تعطيل القرآن وحجم العقول عنه عندما يُقال: ـ أهل البيت هم القيّمون على تعليم القرآن وبيانه.

قلت: كلا لا يلزم المحذور، فإنَّ الإيمان بالقرآن وحجيته ليس بمعطل بل مُفعَل وحجة في هذا الزمان وكل زمان على البشر، إلّا أنَّ هذهِ الحجة ليست مفوضة إدارتها إلى البشر بنحو مطلق، ولا يعني هذا أنَّ البشر محرومون من تلك الإدارة بالمرَّة، ولا مفوض إليهم إدارتها بيدهم تماماً، بل الأمر بين أمرين.

وسيأتي في محله ـ إنْ شاء الله تعالى ـ بيان المعية والعلاقة بين الثقلين كتاب الله والسُّنة الشريفة، أي سنة المعصومين المتمثلة بالنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته.

وعليه لا يفهم من القول: كتاب الله يختلف عن كتاب البشر ـ القطيعة بين البشر وبين كتاب الله، وهذا كما مَرَّ تعطيل للكتاب وعدم استفادة البشر منه.

مضافاً إلى أنَّ القرآن ليس كتاباً يستطيع فقيه أو مُفسِّر ينفرد ببيانه عن الرسول صلى الله عليه وآله والعترة الطاهرة أهل بيته، وهذه المعية ـ كما سيأتي ـ هي أحد الخرائط التي ترسم لنا العلاقة بين الثقلين، ولا يمكن الاكتفاء والاستغناء

بأحدهما دون الآخر، لا حسبنا كتاب الله فقط، ولا حسبنا السنة الشريفة، بل لابدَّ منهما معاً.

إذنْ القرآن كتاب الله يتناوله ويتعاطاه البشر ولكن بشرط أنْ يكون له معلم خاص مُعَلِم إلهي.

٢ ـ الروايات الدالة على احتياج القرآن إلى معلم إلهي:

هناك روايات دلَّت على المعلم الخاص في وصف الكتاب الكريم والمتواتر بين الفريقين كثيرة منها: ـ

أولاً: قوله صلى الله عليه وآله: **«إنِّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي لن يفترق حتَّى يردا عليَّ الحوض ... »**[١].

ثانياً: **«كتاب الله حَبْلٌ ممدود من السماء إلى الأرض طرفٌ منه عند الناس في الأرض وطرف عند الله»**[٢].

ثالثاً: قوله عليه السلام: **«إياك أنْ تُفسِّر القرآن برأيك حتَّى تفقهه عن العلماء»**[٣]. يعني بالعلم اللدني أي الربانيين.

رابعاً: قوله صلى الله عليه وآله: **«علي مع القرآن والقرآن مع علي، لن يفترقنا حتّى يردا عليَّ الحوض»** أو القرآن مع أهل البيت[٤].

---

(١) الطبري في ذخائر العقبى ص١٦/ والدارمي في سننه ج٢ ص٤٣٢ والنسائي في خصائصه ص٣٠.
(٢) مسند أحمد ج٢٢ ص٣٢٤.
(٣) غرر الحكم.
(٤) الحاكم في المستدرك ج٣/ ١٢٤، والحمويني في فرائد السمطين ج١/ ١٧٧ مع تفاوت

خامساً: أم سلمة قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وآله في مرضه الذي قُبض فيه وقد امتلأت الحجرة من أصحابه: **«أيُّها الناس يوشك أنْ أقبض قبضاً سريعاً فيُنطلق بي، وقد قَدَّمتُ إليكم القول معذرةً إليكم، ألا إني مخلفٌ فيكم كتاب ربي عَزَّ وَجَلَّ وعترتي أهل بيتي، ثم أخذ بيد علي فرفعها، فقال: هذا علي مع القرآن، والقرآن مع علي، لا يفترقنان حتّى يردا عليَّ الحوض، فأسلدهما ما خلّفتُ فيهما»**[(١)].

وعليه فالطرف الذي عند الله عَزَّ وَجَلَّ ليس عند الناس، ولهذا فلابدَّ أنْ يكون هناك مُعلِّمٌ إلهي يستطيع أنْ يَصْرف ما عند الله حتَّى يوصله إلينا؛ لأنَّ الحبل له طرفان وليس له طرف وحد، إذْ لو كان طرفاً واحِداً لكان هذا الجعل مقطوعٌ عن الطرف الآخر، أي لو كان عند الناس وهو أحادي الطرف لكان مقطوع الصلة بالله، وإذا كان عند الله فقط ولم يُنصِب تعالى عليه مُعلِماً يوصله ويبينه إلينا فإنَّه لا فائدة فيه والله تعالى مُنزه عن اللغوية والعبثية[(٢)].

والمعلم الذي نصبهُ الله تعالى من خلال ما وَرَدَ في الروايات المعارف :

يسير؛ والخوارزمي في المناقب، ص١١٠، ط الحيدرية؛ والكنجي الشافعي في كفاية الطالب، ص٢٥٣ ط الغربي؛ وابن حجر في الصواعق، ص٧٤؛ والذهبي في تلخيص المستدرك ح٣/ ١٢٤، بهامش المستدرك؛ والمتقي الهندي في منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد، ج٥/ ٣١.

(١) الصواعق المحرقة، ص٧٥، الميمنية الروداني في جمع الفوائد، ح٢/ ٣٣٢.

(٢) هناك حديث عن الإمام الرضا عليه السلام ينبه المأمون أو الهارون العباسي ما مضمونه: **«ما الدليل على أنَّ السماء لا زالت مرتبطة بالأرض بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ... الخ»**، وهكذا الروايات الدالة على أنَّ المؤمن ينظر بنور الله، فإذا ازداد المؤمن إيماناً يزداد نوراً وفهمه النور.

العقائد والتفسير و ... الخ هو النبي صلى الله عليه وآله وأهلُ بيته عليهم السلام.

فإذا كنّا نستقي ونأخذ أصول التفسير من المعلم الأوّل وهو النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام. فلم يُؤاخذ علينا وعلى هذا المعتقد الحق من تعطيل للكتاب، بل هو تفعيلٌ للكتاب بكل درجاته لطرفي الحبل الذي عند الله وعند الناس.

ومن هذا كله: يتضح أنَّ المعلم الثاني يعني الإحاطة بمعادلات الظاهر لذلك تكرر هذا المعنى كثيراً في بيانات أهل البيت عليهم السلام من أنّهم عليهم السلام عندهم علم خصوص وعموم القرآن، وتنزيل القرآن وأين نزل في ليل أم نهار، وفي أي واقعة وأي مشهد، وهم عليهم السلام الوحيدون الذين جمعوا تنزيل القرآن ولا يستطيع مُدَعٍ أنْ يدعي بأنه يحيط بتنزيل الكتاب كأهل البيت عليهم السلام على كافة الأصعدة والعلوم سواءاً النحوية أو البلاغية أو الصرفية أو اللغوية أو ... الخ.

إذْ لا يستطيع عالمٌ من علماء هذهِ الفنون والعلوم وغيرها بأنَّ يدعي أنَّه وقف واستقصى كل المعادلات اللفظية التي تتصل بمسألة أو قاعدة نحوية أو صرفية أو بلاغية أو لغوية أو ... الخ.

والشاهد على ذلك ما نراه من نقض بعض العلماء على البعض الآخر من هذهِ العلوم وغيرها والسجال مفتوح بالنقض بآيات الكتاب الأُخرى التي غفل عنها الآخر، وهذا معناه: أنَّ النظام القرآني يُشكّل مجموعة أنظمة من علوم شتى لها ارتباط وثيق فيما بينها كالنحو والصرف والبلاغة واللغة والتفسير ... الخ ولم تكتشف جميع قواعد كل فنٍ فن في القرآن وإنَّما لا زال

علماء النحو يوماً بعد يوم يكتشفون القاعدة تلو القاعدة والتركيبة تلو التركيبة وهكذا التراكيب البلاغية والقواعد الصرفية والتفسيرية ... الخ. لعدم التفاتهم إلى ما موجود من نكات في الآيات.

والشاهد على ذلك: ـ مثلاً الذكر الواردة في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾[1].

فما المراد من كلمة الذكر؟

الذكر له تفعيلة معينة في الصرف وله رسم مُعيَّن، إلّا أنَّه ليس بخطاب ولا شعر ولا مغالطة ولا برهان ولا بلغو؛ لأنَّ الحق يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ﴾[2]. ولا لهو؛ لأنَّ الحق يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[3].

ما المراد من الذكر؟

الجواب: إلى يومنا هذا لم تكتشف البشرية وبعد مرور أكثر من أربعة شعر قرناً ـ عرباً أو غيرهم ـ وبالأخص المتخصصين منهم بقواعد اللغة العربية المعنى المراد من كلمة الذكر في الآية المباركة، وكذا لم يكتشِف المتخصصون أنَّ نظام الذكر لحد الآن وأنَّه مندرج تحت أي نظام والذي أشار له القرآن الكريم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[4]. ولم يكتشفوا كُلَّ مدارجُ وزوايا القرآن الظاهرة، بل عجز البشر عن الهيمنة والإحاطة

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

(٢) سورة المؤمنون: الآية ٣.

(٣) سورة لقمان: الآية ٦.

(٤) سورة القمر: الآية ١٧.

بالقرآن، بعدما عكفت المؤسسات والدوائر التخصصية والكوادر العلمية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب في كل أرجاء المعمورة وبجهود مُضنية إلى أنْ يتوصلوا إلى معرفة كل ظاهرة لم يتمكنوا من ذلك.

نعم اكتشفوا الكثير من المناهج العلمية في القرآن مثلاً:

١ ـ أسلوب القرآن النفس.

٢ ـ أسلوب القرآن الأمني.

٣ ـ أسلوب القرآن الاقتصادي.

٤ ـ أسلوب القرآن السياسي.

٥ ـ أسلوب القرآن الاجتماعي.

٦ ـ أسلوب القرآن الأسري.

٧ ـ أسلوب القرآن التكنولوجي.

٨ ـ أسلوب القرآن التنموي ... الخ.

وإنْ لم يكن هؤلاء مصدقين ومعتقدين بالقرآن، إلّا أنَّهم ينظرون إلى القرآن كأنَّه بحرٌ يجنون ويستخرجون منه اللئالئ، ومع كل ذلك لم يستطيعوا الوصول إلى إدراك كل أبعاد القرآن.

وهذا الذي نريد أنْ نتوصل إليه من خلال كل ما تقدم: أنَّ القرآن كتابٌ إلهي يعجز البشر عن إدراك كل حقائقه.

ولذا مهما حاول الغربيون وغيرهم ممن لم يعتقد بالقرآن، رغم أنَّهم يعترفون بأنَّ القرآن فيه مناهج علمية غير متناهية وعلى كافة الأصعدة، نشر طبعات مُحرَّفة تُباع في المكتبات سواء في أفريقيا أو

أوروبا أو ... الخ.

كي يتلاعبوا بألفاظ القرآن بإضافة أو حذف بعض الكلمات، إلّا أنَّه لم يتمكنوا من ذلك؛ لأنَّه تعالى قال: **«إنَّا أنزلنا الذكر ونحن له حافظون»** أي حافظون له من كل ما يحاول إليه البعض من أصحاب النفوس المريضة والأقلام المأجورة من التلاعب والتحريف، علماً أنَّهم قاموا بطبع كميات كبيرة من نسخ القرآن المحرَّف والمتلاعب بآياته وطرحها في الأسواق وبأسعار زهيدة.

هذا أيضا من إعجازات القرآن الكريم لكي يتوافد عليه الناس ويطلعوا على ما فيه من حقائق أبدية خالدة.

هذا مضافاً إلى أنَّه مهما تطوَّرت البحوث الكمبيوترية والانترنت تعتمد على نظام مُعيَّن يرسمه البشر فهي عاجزة عن إدراك سِرِّ النظام الرياضي الذي اعتمده القرآن الكريم في المعادلات العددية لسور القرآن وآياته.

ولماذا هذا الترتيب في النزول؟ ولماذا كل سورة لها عدد مُعيَّن من الأرقام؟ وأنَّ هذا العدد يرمز إلى أي نحو من التأثير، وأنَّ هناك تأثيرات عجيبة وغريبة في ذلك فإنَّها تؤثر حتَّى على الظواهر الفيزيائية والكيمائية الكونية والأحياء فضلاً عن علوم جمة لم تكتشف إلى حد الآن.

ولذا وَرَدَ في رواية عن الإمام الباقر عليه السلام: أنَّه عليه السلام سألوه عن الصمد، فقال تفسيره فيه الصمد خمسة أحرف ... ثم قال عليه السلام لو وجدت لعلمي الذي آتاني الله عَزَّ وَجَلَّ حكمةً لنشرتُ التوحيد والإسلام والإيمان والدين والشرائع من الصمد، وكيف لي بذلك ولم يجد جدي أمير المؤمنين عليه السلام حملةً لعلمه حتّى كان يتنفس الصُعَداء، ويقول على المِنْبَر:

«سلوني قبل أنْ تفقدوني فإنَّ بين الجوانح منِّي علماً جمّاً ..»[١] إنَّ من هذهِ اللفظة الواحدة يستطيع المعصوم عليه السلام أنَّ يستخرج قواعد الدين كُلِّه ... الخ.

٣ـ ما هو السرُّ في عدم اندثار اللغة العربية:

السرُّ في بقاء وديمومة اللغة العربية وحفاظها على مفرداتها وثراءها العلمي دون باقي اللغات هو القرآن الكريم فهو الحافظ والمبقي لحيويتها دون العكس ـ أي ليست اللغة العربية هي الحافظة للقرآن ـ

ومن أجل هذا الفرق أنَّه إذا كانت هناك أسرار عجيبة وقواعد متينة في اللغة العربية ولا زال العلماء سواء النحو أو الصرف أو البلاغة أو اللغة أو ... الخ يكتشفون قواعد جديدة وأساليب وتراكيب متينة فضلاً عن عدم اكتشاف جملة من القواعد للبرهان وللمغالطة وللخطابة ذلك راجع إلى الاستمداد من النظام الأدبي في القرآن وإلى يومنا هذا.

إنْ قلت: إنَّ القرآن الكريم نزل بالأمثال والحكم والجدل ... الخ، وعليه فالقرآن مستوعِبٌ لأغلب قواعد اللغة والبلاغة والصرف والشعر والقصة ... الخ إذنْ أين القواعد التي لم يُشِر إليها القرآن ولو ضمناً؟ وإنَّما أشار إلى ذلك كلّه.

قلتُ: صحيح ما ذكرتموه، وأنَّ القرآن نزل بأبواب ثمانية ـ سلمنا بذلك ـ ولكن كلها تندرج تحت عنوان الذكر، مضافاً إلى أنَّ علماء اللغة والبلاغة ـ كما مَرَّ ـ يكتشفون في القرآن الكريم يوماً بعد يوم قاعدة نحوية أو بلاغية أو صرفية إذْ لو كان قد اكتُشِف ذلك كُلَّهُ من أوَّل يوم. لمَّا دام

---

(١) التوحيد للصدوق/ باب تفسير قل هو الله أحد إلى آخرها، ص٨٥ ـ ٩٠ ح٦.

واستمرَّ هذا السِرُّ العجيب الإعجازي إلى يومنا هذا، ولصار القرآن كأي كتاب آخر ليس فيه سرٌّ للخلود والبقاء إلى نهاية الدنيا، والى اليوم لم يكتشف كبار النحويين والبلاغيين واللغويين و ... الخ أمثال الخليل بن أحمد الفراهيدي أو الكسائي أو سيبويه أو الغرّاء أو ابن جنّي. قواعد الذكر في القرآن بحيث يضعون أيديهم ويقولون هذا الموضع فيه قاعدة للذكر ويُصرحون بذلك.

ومن أمثلة ذلك: ـ ما جاء في سورة الشعراء في القرآن الكريم ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ... ﴾[(١)].

بيَّنت الآية القرآنية أنَّ القرآن ليس شعراً؛ لأنَّه يوجد فارق جوهري بين الشعر من حيث الصوت والتفعيلة، بل وحتَّى في النبرة الموسيقية.

ومن هذا يتضح أنَّه توجد عِدَّة تساؤلات تحتاج إلى أجوبة شافية كافية:ـ

١ ـ ما هو الفرق بين الشعر والذكر؟

٢ ـ ما هو الفرق بين القصة والذكر؟

٣ ـ ما هو الفرق بين الخطابة والذكر؟

٤ ـ ما هو الفرق بين البرهان والحكمة والذكر؟

وإلى يومنا هذا هناك بحوث قدْ حارت فيها عقول النوابغ من البشر ولم يكتشفوا أسرار تأثير النبرة الموسيقية الصوتية للقرآن، فعند سماع القرآن

---

(١) سورة الشعراء: الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧.

تنبعث الطمأنينة في القلب، والهدوء وسكينة للروح ويحدث توازن في قوى الإنسان حتّى لو لم يفهم معناه، فإنَّ علم الطب الروحي والطب الفسلجي يؤكِّد أنَّ النبرة الصوتية الموسيقية المعينة لها تأثير في شفاء الإنسان وتخلصه من بعض الأمراض البدنية والفسيولوجية والروحية.

إذنْ إلى يومنا الحاضر لم يكتشف علماء اللغة والأصوات تأثير نظام الصوت في القرآن، وعليه فكيف يقول قائلهم:ـ

حسبّنا كتاب الله، وهو إلى الآن وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرناً على نزول القرآن لم تكتشف الكثير من أسراره، ومنها مسألة تأثير النظام الصوتي في القرآن على النفس والروح وتسبيب الهدوء والاطمئنان لهما.

٤ ـ اللغة العربية هي أتقن لغة علمية في العالم:

أثبتت جُلّ نتائج الدراسات والبحوث الغربية إنَّ أضبط لغة علمية لضبط العلوم التجريبية كالفيزياء والكيمياء والتكنولوجيا والفلك والهندسة الفضائية ... الخ هي اللغة العربية، وإنَّ أفشل لغة في هذا المجال هي اللغة الانكليزية.

والغرض من بيان هذا المطلب، هو أنَّ هناك قواعد مشتركة بين اللغات حتّى طغت تلك القواعد في بعض اللغات غير العربية وكأنها هي الأصل ومن مختصات تلك اللغة وليس الواقع كذلك.

فمثلاً: ـ انظر اللغة الفارسية فإنَّ علوم البلاغة واللغة و ... فيها مقتبسة بتمامها من علوم اللغة العربية، وكذا الحال في باقي اللغات الأُخرى كالهندية والأوروبية و ... .الخ.

والسبب في ذلك بحسب ما أثبتته تجاربهم على مختلف الأصعدة لاسيما العلمية، من أنَّ أجدر لغة هي اللغة العربية التي هي لغة معاجز القرآن الكريم، وليس معاجز العرب.

وعليه فاللغة العربية هي أثرى لغة وأم اللغات بحسب ما أثبتته نتائج دراساتهم وبحوثهم في مختلف مجالات العلوم العربية.

لم يكتشف في علم البلاغة معنى الذكر لأنَّ قواعد اللغة العربية والبلاغة وغيرها قواعد عامة تعم العربية وغيرها، فمثلاً علم البلاغة في كل اللغات غير العربية مسروق من اللغة العربية؛ ولذا كثير من علوم اللغة وإنْ أقيمت وشيدت وبنى صرحها الكبير.

الدليل الثالث: مقامات ومنازل القرآن الكريم:

من الأدلة المهمة على لزوم استكشاف منهج وقواعد أصول التفسير للقرآن الكريم عن طريق النبي صلى الله عليه وآله وعترته أهل بيته عليهم السلام الذين لم يقف غيرهم على تلك البواطن وأم الكتاب، فتحمل النبي صلى الله عليه وآله سنخ ونمط تبليغ الكتاب المجيد، وتحمّل أهل بيته عليهم السلام عنه وتبليغهم ليس سنخ نمط تحمل وتبليغ الرواة للأخبار الحسيّة المسموعة لفظاً التي تحملوها ليؤدوها إلى غيرهم، كي يكون الحال في هذا التبليغ **«رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه»** كلا وإنَّما ما تحمله النبي الأكرم صلى الله عليه وآله عن الله تعالى وتحمله أهل بيته عليهم السلام عنه صلى الله عليه وآله هو تحمل للحقائق المهيمنة والمحيطة بالمعاني(١).

وهناك حقيقة ثانية مُسلمة بين ذوي البصيرة من المسلمين، وهي

---

(١) الإمامة الإلهية ج٣ للشيخ محمد سند تقرير الشيخ صادق محمد رضا الساعدي.

حقيقة قرآنية من أنَّ القرآن ذو منازل ومقامات متعددة غائرة وغيبية خفيت على الكثير من علماء المسلمين بسبب ابتعادهم عن التعلم من مذهب أهل البيت عليهم السلام والنمير من عطائه، وهذا صادق حتَّى على جملة من العلماء والمتسبين لمدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّهم بشر والبشر محدود القابلية في الاغتراف والأخذ من منهل علوم أهل البيت عليهم السلام رغم أنَّ علماء الإمامية معتنقون لإمامة أئمة أهل البيت عليهم السلام وإتباعهم لهم عليهم السلام، إلّا أنَّه ـ كما مَرَّ ـ جهودهم محدودة القابلية، وهكذا الجيل الذي يأتي بعدهم من المتعلمين فإنَّه ينهل من مدرسة أهل البيت عليهم السلام أكثر فأكثر ...الخ.

وإجمالاً نذكر بعض مقامات ومنازل القرآن الكريم لا على سبيل الحصر والاستقراء التام، وإنَّما بما وفق الله تعالى الالتفات إليها وإنْ كان بعضها ذكره المفسرون في تفاسيرهم، ومن تلك المقامات والحقائق أنَّ القرآن المنزَّل ذو تأويل كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1]. وأنَّ للقرآن بطون لا تنفذ من بحور حقائق القرآن تترقى وتتصل بأصل حقيقة القرآن الغيبية التي يُطلق عليها الكتاب المكنون، والكتاب المبين، أو اللوح المحفوظ أو أم الكتاب أو تنزيل الكتاب أو لا يمسه إلّا المطهرون، أو قرآن كريم أو ... الخ.

وعليه فمنازل ومقامات القرآن كثيرة، وبعضها كالحروف المقطعة لها تشفيرات ورموز ومعاني مغلقة وتحتاج إلى جهد حثيث في تعلمها من البيانات العلمية لأهل البيت عليهم السلام، ثم أنَّه قبل استعراض تلك المقامات للقرآن الكريم لعلَّه يتبادر إلى ذهن البعض أنَّه ما الفائدة والثمرة من

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

ذكر هذهِ المقامات للقرآن، وأنَّها هل أوحيت إلى النبيﷺ أم لا؟

قطعاً أوحيت إليهﷺ فتنزلت في ذهنه الشريف ثم أنَّ النبيﷺ هل أعطاها لأحد من بعدها أم جَمَّدَها؟

قطعاً أنَّه ورَّثها لعترته الذين ورثوه بوراثة الاصطفاء، وتكون الثمرة هي بيان أنَّ هذهِ المقامات متصلة بأصل حقيقة القرآن الغيبية التي يطلق عليها: ـ أم الكتاب، واللوح المحفوظ وتنزيل الكتاب و ... الخ.

ومن خلال هذا كله يُعْلم ما لدى النبيﷺ من حقيقة الذات وحقيقة الروح المحيطة والمهيمنة على أم الكتاب وغيرها المدركة لها.

وتلك المقامات هي:

المقام الأوَّل: أم الكتاب:

إنَّ هذهِ المقامات والمنازل بل وحتى الأدلة السابقة والآتية نذكرها لا من باب الحصر في حين كونها أدلة هي في نفس الوقت وفي الحقيقة أيضاً هي بنفسها قواعد وأصول للمنهج التفسيري.

وهذا المقام العظيم للقرآن الكريم كما وَرَدَ في القرآن ﴿يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[1] ومن الواضح أنَّ لوح المحو والإثبات وما فوقه من أم الكتاب ليس في المصحف الورقي بل هو في نشأة الغيب[2] فقد ذكر الطبري وكذا الآلوسي و ... وهم من كبار أعلام مفسري إخواننا السنة[3] بأنَّ [أم الكتاب] أي أم البيان ولها مقام

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣٩.

(٢) الإمامة الإلهية للشيخ محمد السند ج٣ ص٣٦٧.

(٣) تفسير الطبري، روح المعاني للآلوسي ج١٣ / ٢١٤.

غيبي هو الأصل الذي انحدر منه القرآن الكريم وينحدر منه لوح القضاء والقدر ولها الهيمنة عليه.

وأنَّ المراد بـ (أم الكتاب) هو العلم؛ لأنَّ جميع ما في صحف الملائكة وغيرها لا يقع حيثما يقع إلّا موافقاً لَمّا ثبت فيه فهو أمٌ لذلك أي أصلٌ، وإنْ كان المشهور الذي ادّعاه الآلوسي هو أنَّ المراد من (أم الكتاب) أنَّها اللوح المحفوظ قالوا: ـ أصل الكتب إذْ ما من شيء من الذاهب والثابت إلّا وهو مكتوب فيه كما هو[1].

وكذلك ما ذكره الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان في تفسير الآية أنَّ المراد من [أم الكتاب] أي أصل الكتاب، لأنَّه يُكْتَب أولاً سيكون كذا وكذا، لكل ما يكون، فإذا وقع كتب أنَّه قدْ كان ما قيل أنَّه سيكون.

وقيل: ـ أصل الكتاب لأنَّ الكتب التي أنزلت على الأنبياء منه نُسِخَتْ، وهناك معانٍ أُخرى لـ [أم الكتاب] منها الذكر المذكور في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾[2][3].

وكذا ما ذكره السيد العلامة الطباطبائي قدس سره في تفسيره الميزان: ـ من أنَّ [أم الكتاب] أي أصله فإنَّ الأم هو الأصل الذي ينشأ منه الشيء ويرجع إليه[4].

وأودُّ التنبيه على أنَّ معنى [أم الكتاب] ليس نفس الحقيقة التكوينية لأم الكتاب التي تحيط بلوح القضاء والقدر لكل عالم الخلقة لأم الكتاب.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ١٠٥.

(٣) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ج٦ ص٢٦٣ و ٢٦٤.

(٤) الميزان في تفسير القرآن ج١٣ ص٣٧٨.

المقام الثاني: الكتاب المبين:

أحد النعوت المهولة والعظيمة التي وصف الله تعالى بها كتابه الكريم أنَّه ذو مقام: ـ الكتاب المبين وأنَّه فيه تباين لكل شيء، وهناك عِدّة آيات دلَّت على ذلك هي: ـ

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(١).

٢ ـ قوله تعالى: ﴿عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾(٢).

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾(٣).

٤ ـ قوله تعالى: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾(٤).

وهذه الآيات المباركة وغيرها دالةٌ على استطار كل شيء في الخلقة في الكتاب فكل غائبة وكل رطب وكل يابس لم يُفرط في تدوينه الكتاب، وكل ما يمحى ويثبت في عالم الخلقة في الكتاب.

وقدْ ذكر الشيخ الطوسي ﭬ في تفسير التبيان أنَّ المراد من الكتاب، فيه قولان: ـ

أحدهما: أنَّه أراد الكتاب المحفوظ عنده من آجال الحيوان

---

(١) سورة النمل: الآية ٧٥.

(٢) سورة سبأ: الآية ٣٤.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٦/ ٣٨.

(٤) سورة الرعد: الآية ١٣ / ٤٣.

وأرزاقه وآثاره ليعلم ابن آدم أنَّ عمله أولى بالإحصاء والاستقصاء.

والآخر: أَنَّه القرآن وقدْ بُيِّنَ فيه كل ما يحتاج إليه في أمور الدين والدنيا إمَّا مجملاً أو مُفصلاً، فما هو صريح يُفيد لفظاً، وما هو مجملٌ بيَّنه على لسان نبيه وأمر بإتباعه في قوله ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُواْ﴾[1] ودلَّ بالقرآن على صدق نبوته ووجوب إتباعه، فإذاً لا يبقى أمرٌ من أمور الدين والدنيا إلّا وهو في القرآن[2].

وذكر العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي في تفسيره للآية المباركة[3].

والمراد بالكتاب إنْ كان هو اللوح المحفوظ الذي يسميه الله سبحانه في موارد كلامه كتاباً مكتوباً فيه كل شيء مما كان وما يكون وما هو كائن، كان المعنى أنَّ هذهِ النظامات الأمميّة المماثلة لنظام الإنسانية كان من الواجب في عناية الله سبحانه أنْ يبني عليها خلقه الأنواع الحيوانية فلا يعود خلقها عبثاً ولا يذهب وجودُها سُدَىً، ولا تكون هذهِ الأنواع بمقدار ما لها من لياقة القبول ممنوعة من موهبة الكمال.

وإنْ كان هو القرآن الكريم وقدْ سماه الله كتاباً في مواضع من كلامه، كان المعنى أنَّ القرآن المجيد لَمَّا كان كتاب هداية يهدي إلى صراط مستقيم على أساس بيان حقائق المعارف التي لا غنى عن بيانها في الإرشاد إلى صريح الحق ومحض الحقيقة لم يُفرّط فيه بيان كل ما يتوقف على معرفته

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.

(٢) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ج٤ ص١٢٨ و ١٢٩.

(٣) الميزان في تفسير القرآن ج٧ ص٨٢و ٨٣.

سعادة الناس في دنياهم وآخرتهم كما قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾(١).

إذنْ إذا كان المراد من الكتاب: اللوح المحفوظ فإنَّه مشتمل على ما يجري في العالم من جليل ودقيق لم يُهمل فيه أمر حيوان ولا جماد.

وقدْ ذكر أمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة في ذم اختلاف العلماء في الفُتيا: ـ **«أمْ أنزل الله ـ سبحانه ـ ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له فلهم أنَّ يقولوا وعليه أنْ يرضى، أم أنزل ـ الله سبحانه ـ ديناً تاماً فقَصَّرَ الرسول عن تبليغه وأداءه، والله يقول: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وفيه تبيانٌ لكل شيء»**(٢).

وفي حديث وصف الإمامة عن الرضا عليه السلام : ـ في العيون (٣) وغيره: ـ **«جَهِل القوم وخُدعوا عن أديانهم إنَّ الله يم يُقبض نبيه صلى الله عليه وآله حتَّى أكمل له الدين وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كل شيء، بيَّن فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه كملاً ، فقال عزَّ وجلَّ ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾»**.

واشتمال القرآن الكريم على الكلمات الوجودية ـ والمراد بالكلمة: هي الشيء الدال بذاته تكويناً على أمر آخر ومِن ثمَّ يُطلق على وجودات الأشياء المخلوقة لاسيما الشريفة أنَّها كلمات الله؛ لدلالتها على صفات الباري تعالى كما أشارت عِدَّة آيات إلى ذلك منها قوله تعالى ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي

---

(١) سورة النحل: الآية ٨٩.

(٢) نهج البلاغة / ٦١ خطبة / ١٨.

(٣) العيون/ ٢١٦/ ح١، الكافي ١/ ١٩٩.

لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴾[١].

وكذا قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[٢]. وغيرها من الآيات الدالة على ذلك، وعليه فالكتاب المبين متكون من وجود جملي لكافة الكلمات الوجودية بالوجود الملكوتي ومن ثم نُعتَ الكتاب المبين بأنه مفاتيح الغيب للآية ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ ﴾[٣].

المقام الثالث: الكتاب المكنون:

أي مصون وهو اللوح.

ذُكِرَ هذا المقام في سورة الواقعة ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾[٤].

الباري جلَّ اسمه مَهَّد عِدَّة أمور لبيان أهمية المقسم عليه وهو القرآن الكريم وهي:ـ

١ ـ لا تدعوني أُقْسِم.

٢ ـ أنَّه لقسم لو تعلمون عظيم.

٣ ـ هل القسم بنجوم السماء أي الكواكب أم نجوم من شيء آخر من

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٧.

(٣) سورة الأنعام: الآية ٥٩.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٧٥ـ ٧٩.

عالم الخِلْقة؟

نعم القسم بهذهِ الأجرام السماوية باعتبار أنَّها آيات الله لا بأس به، ولكن المهم ﴿وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ أي الاهتداء بأصحابي من أهل بيتي الأوصياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم من أهل بيتي يعني من بني هاشم.

٤ ـ المُقسَم عليه هو قرآن كريم فِي كتاب مكنون: ـ والكن يعني الحفظ بمنأى عن البشر، والحفظ من أنَّ يصل إليه عادي البشر هو من أشد الكرامات التكوينية للقرآن هذا في دار الدنيا، وأمَّا في الآخرة فله ـ للقرآن ـ منزل غيبي لذلك ينعته القرآن في سورة الواقعة: ـ ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ أي لا يصل إليه أحدٌ من البشر إلّا ثلة خاصة، وهكذا قوله تعالى ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾[1] قال ابن عباس معنى مدهنون أي مكذبون[2] فالله تعالى يعبر عن كل القرآن بالحديث والمراد منه حديث الله مع البشر أي القرآن، ثم يستفهم الحق تعجباً من هؤلاء الذين يرتابون في آيات الله والقرآن.

إذنْ المكنون هو المصون وجاء في الآية المباركة وصفاً ثانٍ للقرآن بعد وصفه تعالى بالآية السابقة ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ﴾ والكريم في صفات الله من الصفات النفسية التي يجوز فيها لم يزل كريماً لأنَّ حقيقته تقتضي ذلك من جهة أنَّ الكريم الذي من شأنه أنْ يعطي الخير الكثير، ثم جاءت

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٨١.

(٢) تفسير البيان للشيخ الطوسي ج٩ ص٥١١ والمُدْهَن الذي يجري في الباطل على خلاف الظاهر كالدُهن في سهولة ذلك عليه والإسراع فيه، وكل مُدهن بصواب الحديث مذموم.

الآية التالية ﴿كِتَٰبٍ مَّكۡنُونٍ﴾ قيل: ـ هو اللوح المحفوظ أثبت الله تعالى فيه القرآن والمكنون المصون[(١)].

والكلام على أي حال: مسوق لتعظيم أمر القرآن وتجليله فمسّه هو العلم به وهو في الكتاب المكنون[(٢)].

المقام الرابع: تنزيل الكتاب:

هذا المقام يختلف عن المقامات السابقة، فإنّها تتصف بصفة العلو والإعلاء والتصعيد، أمّا هذا المقام فيتصف بصفة مضادة لتلك وهي صفة الإنزال والتنزيل، مضافاً إلى أنَّ المقامات السابقة فيها حفظ وإقصاء لبعض مقامات القرآن عن أعين البشر. وهذا نظير الحديث الشريف: **«إنِّي تراك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي ما أنْ تمسكتم بهما لن تضلوا بعدي»** فإنَّ الترك والتخليف كذلك فيه أطراف **«أهل بيتي حبل ممدود طرف منه عند الناس وطرف عند الله»**[(٣)].

فطرف عند الناس وهو الطرف الهابط والنازل، وطرفٌ مُغَيَّب عن الناس وهو عند الله لا يعلمه إلّا الله والراسخون في العلم، وهم النبي وعترته أهل بيته عليهم السلام ولو أمعنا النظر في هذا الحديث لو جدنا أنَّه أقرب معنى ومقتبس من قوله تعالى: ـ ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ﴾[(٤)] قال ابن

---

(١) المصدر السابق، ص٥١٠.

(٢) الميزان في تفسير القرآن: ج١٩ ص١٤٢.

(٣) صحيح مسلم، فضائل الصحابة الحديث ٥، ٤٤، ورواه الصدوق في إكمال الدين وتمام النعمة، ج١، ص٢٤١ ح٦٢؛ والبحار ج٢٣/ ١٣٦/ ح٧٧.

(٤) سورة الواقعة: الآية ٨١.

عباس معنى مدهنون مكذبون، أي ترتابون بأنَّ للقرآن منزل غيبي بمنأى عن البشر.

مقام ـ تنزيل الكتاب ـ أي تنزيل الكتاب من رب العالمين فإنَّه أنزله الله الذي خلق الخلائق ودبرهم على ما أراد(١).

ومقام تنزيل الكتاب ـ وصف آخر للقرآن، والمصدر ـ تنزيل ـ بمعنى اسم المفعول أي مُنْزَل من عند الله إليكم تفهمونه وتعقلونه بعدما كان في كتاب مكنون لا يمسه إلّا المطهرون، والمراد من المسّ هو العلم والإطلاع على تقدير كونها صفة للقرآن كما يصح على تقدير كونها صفة لكتاب مكنون(٢).

وتفسير العلامة الطباطبائي في الميزان للآية المباركة ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يتلاءم مع ما ذكرناه قبل قليل من أنَّ هذا المقام ـ تنزيل الكتاب ـ إليكم أيُّها البشر لأجل أنْ تفهمونه وتعقلونه وهو ظاهر ونازل وفي متناول أيديهم وهو الطرف النازل كما في الحديث السابق، بعدما كان الطرف الآخر منه مستتر ومخفي عن عقولكم ومتناولكم أيُّها البشر.

تنبيه: من خلال هذا كُلِّه يُعْلَم أنَّ الله تعالى لا يُطالب البشر بالاعتقاد فقط بالمصحف الشريف، فإنَّ الاعتقاد بهذِهِ الوحدة يدلُّ على عدم تمام الاعتقاد وأنَّ العقيدة ناقصة، وإنَّما لابدَّ أنْ تؤمن أيُّها البشر أيُّها المسلم بمرتبة ومقام آخر للقرآن غير مقام التنزيل وهي مرتبة ومقام الاعتقاد بأنه من عند الله وهو غيبي وبمنأى عن البشر.

---

(١) تفسير التباين للشيخ الطوسي ج٩ ص٥١٠.
(٢) الميزان في تفسير القرآن ج١٩ ص١٤٣.

المقام الخامس: لوحٌ محفوظ:

وهذا المقام صرحت به الآية المباركة من سورة البروج ﴿ بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾[١] ذكر الشيخ الطوسي قدس سره في تفسير الآية [لوح محفوظٌ] عن التغيير والتبديل والنقصان والزيادة، قال مجاهد: المحفوظ أم الكتاب، وقيل أنَّه اللوح المحفوظ الذي كتب الله جميع ما كان وما يكن فيه - ذكره أنس بن مالك - أي كأنه بما ضمن الله من حفظه في لوحٍ محفوظٍ ومَن رفعَ (محفوظ) جعله صفة القرآن، ومَن قرأه بالخفض جعله صفة للوح[٢].

وذكر الآلوسي في روح المعاني: - في تفسير الآية [لوح محفوظ] في لوح: - أي كائن في لوحٍ (محفوظٌ) أي ذلك اللوح من وصول الشياطين إليه[٣].

وذكر العلامة الطباطبائي في ميزانه صفة هذا اللوح وأنَّ اللوح المحفوظ له طرفان طرف على يمين العرش على جبين إسرافيل فإذا تكلم الرب جلَّ ذكره بالوحي ضرب اللوح جبين إسرافيل فنظر في اللوح فيوحى بما في اللوح إلى جبرائيل[٤].

من خلال المقامات المتقدمة وغيرها يعلم أنَّ مقام [لوح محفوظ هو نفس معنى مكنون ومجيدٌ وكريم و ... الخ ومنازل ومقامات القرآن كُلُّها مجيدة ولكن أمجدها وأعلاها هو أنْ يُحْفظ عن أيدي البشر وعقولهم

(١) سورة البروج: الآيتان ٢١ - ٢٢.
(٢) تفسير التبيان للشيخ الطوسي ج١٠ ص٣٢٢.
(٣) روح المعاني للآلوسي ج٣٠ ص٤٢٥.
(٤) الميزان في تفسير القرآن ج٣٠ ص٢٨٧.

وأرواحهم وأفكارهم و... الخ.

وعن جابر قال: ـ سألتُ أبا جعفر عليه السلام عن شيء في تفسير القرآن فأجابني ثم سألتُه ثانيةً فأجابني بجواب آخر، فقلت جعلتُ فداك، كنتَ أجبتَ في هذهِ المسألة بجواب آخر غير هذا قبل اليوم؟

فقال عليه السلام لي: يا جابر إنَّ للقرآن بطناً، وللبطن بطن وظهر، وللظهر ظهرٌ، يا جابر وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إنَّ الآية ليكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء، وهو كلامٌ متصلٌ يتصرف على وجوه[(١)].

وعليه لو كانت عقول وأوهام وأيدي البشر تدرك القرآن لَمّا كان مكنوناً ومحفوظاً ولما وصفه الحق تعالى بذلك.

ولعلَّ سائل يسأل لماذا هذا الاهتمام بمقامات القرآن ومنازله هل هناك سِرٌّ وراء ذلك؟ قطعاً هناك سرٌّ وحكمة بالغة من وراء ذلك الوصف المهاب العظيم كوصف القرآن بالمجيد وفي لوح محفوظ وتنزيل الكتاب وأم الكتاب و ... الخ إلّا أنَّه لا تدرك عقولنا ذلك السر إلّا الله والراسخون في العلم.

المقام السادس: لا يمسه إلا المطهرون.

عبَّرت الآية المباركة بلفظ المطهرون ولم تعبر بلفظ المتطهرون.

ـ الطهر ـ والطهور لغةً هو البليغ في الطهارة، والطهور هو صفة

---

(١) تفسر العياشي ج١ ص٨٧ من أبواب مقدمة التفسير من باب تفسير الناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والمحكم والمتشابه ح٨.

زائدة على الطهارة بمعنى الطاهر المطهَّر، والطهارة: ـ شرعاً حقيقة في رافع الحدث، والثناء والمحبة، ولها معانٍ أُخرى منها: ـ الطهارة من الذنوب[١].

والمتطهرون: ـ هو ما يشمل عموم الأمَّة إذا تطهروا وتابوا بشتى أنواع التوبة من الكف عن الأذى، والاستغفار، والإنابة أو الغُسْل أو الغَسْل أو ... الخ وسواء طهارة مادية أو معنوية أو ... الخ.

المطهرون: ـ هو وصفٌ لأشخاص مخصوصين مُصْطَفَين نَوَّه القرآن عن أسماءهم وبَيّن أوصافهم وأنّهم من قُرْبى النبي صلى الله عليه وآله ودلَّت الآية المباركة ﴿... إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[٢]

وأنهم مطهَّرون بإرادة إلهية وأنَّ القرآن لا يصل إليه إلّا مَن طهّرَه الله من الذنوب كما في قول ابن عباس ومجاهد والضحّاك: ـ لا يمس الكتاب الذي في السماء إلّا المطهرون من الذنوب[٣] والمراد بالمس هو العلم والإطلاع على تقدير كونها صفة للقرآن كما يصح على تقدير كونها صفة لكتاب مكنون.

والمراد بالطاهرة: ـ أي الطهارة من الحدث والخبث جميعاً وقُرِئ: ـ المطَّهِّرون بتشديد الطاء والهاء وكسر الهاء أي المتطهرون[٤] وإنَّ مطهّرون أصلها متطهرون فأدغمت التاء بالطاء فصارت مطّهِّرون ـ أي يَحْرُم مس كتابة القرآن على غير طهارة.

---

(١) مجمع البحرين، مادة طَهُر.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.
(٣) التبيان للشيخ الطوسي ج٩ ص٥١٠.
(٤) الميزان في تفسير القرآن ج١٩ ص١٤٧.

وقدْ فسّرها البعض بان [لا يمسه المطهرون] إشارة إلى الحقائق والمفاهيم العالية في القرآن الكريم لا يَدْركها إلّا المطهّرون، كما في قوله تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾(١) فإنَّ طهارة الروح في طلب الحقيقة تمثل حدّاً أدنى من مستلزمات إدراك الإنسان لحقائق القرآن، وكلما كانت الطهارة والقداسة أكثر كان الإدراك لمفاهيم القرآن محتوياته بصورة أفضل.

وقول الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله: **«لا يَمُسُّ القرآن إلّا الطاهر»**(٢).

وهو اللمس المعنوي نُقل عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله أنَّه قال: **«إنَّه لقرآن كريم في كتاب مكنون، قال عند الله في صحف مطهّرة ـ لا يسمه إلّا المطهرون ـ قال المقربون»**(٣).

وبعض فسَّر المطهرون إشارة إلى الملائكة المطهرين الذين لهم علم بالقرآن ونزلت بالوحي على قلب الرسول صلى الله عليه وآله في مقابل قول المشركين الذين كانوا يقولون: إنَّ هذهِ الكلمات قدْ نزلت بها الشياطين على محمد صلى الله عليه وآله(٤).

والقرآن الكريم قدْ أفصح وبَيّن العِدْل الثاني للقرآن وهم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ولا تُعقل أنْ تكون الوسيلة بين البشر وبين هذهِ المنازل والمقامات مُعَطَّلة؛ لأنَّها لو كان مُعَطَّلة فهي خلاف الحكمة الإلهية؛ لأنَّ الحكمة والغرض من تلك المقامات هي انتفاع البشر منها، وبما أنَّ هذهِ

---

(١) سورة البقرة: الآية ٢.

(٢) الدر المنثور ج٩ ص١٦٢؛ عن عبدالله بن عمر ومعاذ بن جبل، وابن حزم الانصاري عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

(٣) المصدر السابق، ج٦ ص١٦٢.

(٤) الأمثل في تفسير كلام الله المنزل/ الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، دام ظله ـ ج١٧ ـ ٣٢١.

المقامات غيبية وبمنأى عن البشر فصارت الحاجة إلى الواسطة قطعية وواجبة، وتلك الواسطة هي فقط النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيت النبي صلى الله عليه وآله من أصحاب الكساء والذرية التسعة الأئمة المعصومين عليهم السلام من ذرية الحسين ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام.

الخلاصة: إنَّه من الواضح عدم إرادة القرآن في وجوده في رسم المصحف الشريف، بل المراد من الوجود وجوداً أسمى مكنوناً، محفوظاً في لوح غيبي لا يناله ولا يصل إليه إلّا مَن كان على ارتباط بذلك الغيب واطّلاع بالمغيبات، وهذا الوجود للقرآن ليس فيه متشابه؛ لأنَّ المتشابه وصف للقرين المنزل أي في وجوده النازل على صورة آيات وسور ومنه محكم، وإلّا فهو في وجوده الغيبي كتابٌ علم مُبيَّن وهذا سبب كون القرآن بتمامه آياتٌ بينات في صدور الذين أوتوا العلم حيث أنَّهم مطهرون يطلعون على الوجود الأرفع للقرآن أي الغيبي وهو معنى مَسَّهم للكتاب المكنون[1].

المقام السابع: قرآنٌ كريمٌ:

وهذا المقام امتداد للمقامات السابقة للقرآن الكريم، وهذا المقام يُعْطى للمصحف مَنْزِل ومقام متميز، من أنَّ كل الذي تلونه عليكم في جميع سورة القرآن الكريم (١١٤) مئة وأربعة عشر سورة وما يَقرب من (٦٥٠٠) ستة آلاف آية وخمسمائة، من أنَّه قرآنٌ تفرقون به بين الحق والباطل و (كريم) فالكريم هو الذي من شأنه أنَّ يُعطي الخير الكثير بالأدلة التي تؤدي إلى الحق في الدين كان كريماً على حقيقة معنى الكريم، لا

---

(١) الإمامة الإلهية ج٢ ص٩١.

على التشبيه بطريق المجاز، والكريم في صفات الله من الصفات النفسية التي يجوز فيها لم يزل كريماً؛ لأنَّ حقيقته تقتضي ذلك من جهة أنَّ الكريم الذي من شأنه أنْ يُعطي الخير الكثير، فلما كان القادر على التكرم هو الذي لا يمنعه مانع من شأنه أنَّ يُعطي الخير الكثير صح أنْ يُقال : ـ أنَّه لم يزل كريماً[١].

وذكر الآلوسي في تفسيره أنَّ معنى كون القرآن كريماً: ـ أنَّه حسنٌ مَرْضيٌ في جنسه من الكتب أو نفاع جم المنافع وكيف لا وقدْ اشتمل على أصول العلوم المهمة في إصلاح المعاش والمعاد[٢].

ووصف القرآن بـ (الكريم) إشارة للجمال الظاهري للقرآن من حيث الفصاحة وبلاغة الألفاظ والجمل، وكذلك فإنَّها إشارة لمحتواه الرائع؛ لأنَّه نزل من قبل مبدأ ومنشأ كُلَّه كمال وجمال ولطف.

نعم، إنَّ القرآن كريم وقائله كريم ومَن جاء به كذلك، وأهدافه كريمة أيضاً[٣] وهذا المقام للقرآن مقامٌ متميز ويريد أنْ يكرمه بكرامة أعظم من المصحف الشريف وإنْ كان المصحف الشريف كريم وعظيم، إلّا أنَّ هناك الأعظم درجة وكرامة.

وهناك مقامات أُخرى كثيرة ستأتي إنْ شاء الله تعالى.

والمستفاد من ذكر هذهِ المقامات هو أنَّ القرآن أراد أنْ يُركِّز على قضية

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ج٩ ص٥٠٩ و ٥١٠.
(٢) روح المعاني ج٢٧ ص٢١٧.
(٣) تفسير الأمثل ج١٧ ص٣٢٠.

مهمة جداً وهي أنكم أيُّها البشر لا تتوهمون بأنه برحلة النبي صلى الله عليه وآله قدْ انقطعتم عن الغيب والسماء وأنَّ الحبل قدْ انقطع بين البشر وبين تلك المقامات الغيبية، كلا ثم كلا، وحَذّر القرآن من ذلك أشد تحذير.

وإنَّ الاتصال مع الغيب موجود بواسطة أناس (قدرهم وأمكنهم الله على مَسِّ القرآن بقوله تعالى: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴾ وهم النبي صلى الله عليه وآله والعترة المعصومين عليهم السلام.

تساؤلات في استخلا ص نتيجة البحث:

بعد استعراض بعض منازل ومقامات القرآن يوجد تساؤل وهو أنَّ القرآن إذا كان ذو منازل ومقامات مختلفة فكيف تكون حجيتها متساوية وكلها حجة، فمثلاً كيف تكون حجية المصحف النازل وهو تنزيل الكتاب بنفس نمط حجية الكتاب المكنون واللوح المحفوظ والكتاب المبين وأم الكتاب و ... الخ من منازل ومقامات للقرآن؟

وسيتضح الجواب من خلال عرض بعض الأدلة والمطالب التالية إنْ شاء الله تعالى.

الدليل الرابع (المعلم الرابع) حجية الظاهر حجية معيّة بين الكتاب والسنة:

أولاً: المقدمة وبيان مضمون الطيل الرابع:

الإحاطة بظاهر القرآن ليس من نصيب البشر ـ كما مَرَّ ـ إلّا بإعانة مَن نَصَّبَهم الله تعالى وهم معلمون للبشر: النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام وليس المراد

هنا أنْ ننفي مطلق درجات القدرة للإحاطة بالظاهر وإنَّما نريد أنْ ننفي القدرة المطلقة التي باستطاعة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام المنصوبون من قبل الله تعالى الهداية وتعليم البشر، ذلك المنهاج الذي يرسمه نفس القرآن الكريم وأنَّه لم طرفان: ـ

طرفٌ نازلٌ عند الناس، وطرف عند الله، ولا يمكن للبشر الوصول إلى الطرف الذي عند الله إلّا بوساطة مُعَلِّم إلهي؛ لأنَّه من الواضح اختلاف الطرفين فإنَّ الطرف الذي عند الله تعالى طرفٌ غيبي ملكوتي، وهذا ليس عند عامّة الناس وإنَّما عند الراسخون في العلم، ولا يعني هذا تعطيل الطرف الذي عند الناس، وإنَّما الطرف الذي عند الناس حجيته قائمة عند الناس وليس هذا معناه تعطيل الكتاب.

إذنْ حجية الظاهر بل حتَّى حجية القرآن لابدَّ أنْ تكون حجية معيّة مع ثقل العترة، وهذا هو المبنى الذي التزم به متكلمو الإمامية وعلماء أصول الفقه الإمامي من أنَّ القرآن حجة، كما أنَّ السُّنة المطهرة للمعصومين حجة أيضاً.

وهذا معناه أنَّه لا يصح أنْ نحتج بالكتاب وحده، بل لابدَّ من عدم افتراقه في الاستنباط والاستظهار عن حجيّة السُّنة.

إذنْ ذهبت الإمامية إلى أنَّ حجية الظاهر حجيّة معيّة بين الكتاب والسنة وليست حجية مستقلة كلٌّ عن الآخر.

ثانياً: البيان البرهاني للمعلم الرابع:

(الإحاطة بظاهر سور وآيات القرآن ليس بمقدور البشر)

الذي التزم به هؤلاء الأعلام أنَّ الظاهر بنفسه ليس من قُدْرة البشر

الإحاطة والاستحواذ عليه برمته، تَقدَّم أَنَّه ليس بمقدور البشر أنْ يحيط بسور الظاهر ـ إنْ صح التعبير ـ نعم الإحاطة ببعض الظاهر هو في متناول يد البشر، وليس مرادنا نفي درجات مطلق القدرة؛ لأَنَّه في الجملة يمكن الإحاطة ببعض الظاهر.

وإنَّما المراد نفي القدرة المطلقة أي الإحاطة التامة الشاملة للظاهر وحيث لا تكون الإحاطة التامَّة به (الظاهر) ـ كما مَرَّ ـ فإنَّه حينئذٍ لا يمكن للبشر أنَّ ينفردوا وينعزلوا بالأخذ من ظاهر القرآن والتمسُّك به من دون مُمْسِك وحافظ آخر لتمسكهم بالكتاب وهو العترة ـ أي الثقل الثاني.

إلفات نظر: لا تلازم بين أصل حجية الكتاب ـ أَنَّه غير معطل وبين استقلال الحجيّة.

إشكال على المدرسة الإماميّة: أحد إشكالات المدارس الإسلامية على مسلك المدرسة الإمامية، إنَّكم إذا قرنتم أو اشترطتم ـ أَيُّها الإمامية ـ العترة هنا فهذا معناه إنكم أفقدتم الكتاب الحجية ـ وهذا ـ والعياذ بالله محذور عظيم يؤول إلى تعطيل الكتاب لا إلى حجيته، وإنَّكم حصرتم حجية الكتاب بما ستبينه العترة وإلّا فلا.

الجواب: في هذا الإشكال أو المدعى خلطٌ بين أصل الحجية لشيء وبين كونه حجة مستقلة فهو شيء آخر.

وهناك أمثلة كثيرة تدلُّ على الحجية المعية لا المستقلة ـ نذكر بعضها:ـ

المثال الأَوَّل: كيف نتصور معيّة حجية أنبياء الله تعالى مِن آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى إلى سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، علماً أنَّ كل واحدٍ من

هؤلاء عليهم السلام حجة مستقلة، وكذا الأئمة الأثنى عشر عليهم السلام ليس حجية كل واحد منهم مستقلة وإنّما حجية معية، أي أنَّ النبي الأكرم صلى الله عليه وآله أو الإمام الأسبق حجة بمعية اللاحق وهكذا.

المثال الثاني: آيات القرآن التي تبلغ أكثر من ستة آلاف آية، وفضلاً عن سوره المائة وأربعة عشر سورة، أيضاً هي الأُخرى حجية كل آية وكل سورة حجية معيّة لا حجية مستقلة؛ لأنَّ القرآن فيه عام وخاص، ومطلق ومقيد، ومجمل ومُبين، ومحكم ومتشابه و ... الخ.

وهذا بعضه مرتبط مع البعض الآخر، وعليه فتكون حجيته حجية معية لا حجية مستقلة.

لذا نجد كثير من الفرق الإسلامية ـ كما تقدم ـ تولّدت ونشأت واختلفت وزاغت عن وحدة الصراط المستقيم بسبب أنّها أخذت بباب في الدين وتركت آخر، أو أخذت بمجموعة أبواب وتركت أُخرى؛ لأنّه مَرَّ في المعلم الأوّل ـ إنَّ الدين عبارة عن وحدة نظام أي رابطة مُنسِقَة بين مجموعة أجزاء ليست مبعثرة.

القرآن بكل آياته وسوره حجة مرتبطة بعضها مع البعض الآخر ولا يمكن أنْ تكون مشتتة وحجج مستقلة لا ترتبط بعضها مع البعض الآخر.

وهذا أيضاً يُعتبر أحد الأدلة على أمومة المحكمات وأنَّ الدين فيه وحدة نظام.

المثال الثالث: ما ذكره علماء الأصول في كتاب الحجج من أنَّ الكتاب والسنة والعقل والإجماع أو الثلاثة الأُول ورجوع الإجماع إلى الكتاب

والسنة، أيضاً توجد وحدة نظام وارتباط عضوي فيما بينها مرتبطة بالمركز.

وعليه فحجية كل واحدٍ ليست مستقلة وإنَّما حجيّة معيّة.

ثالثاً: بعض المؤاخذات التي تسجل على أصحاب منهج تفسير القرآن بالقرآن:

قبل ذكر بعض أهم المؤاخذات التي تُسجَل على أصحاب منهج تفسير القرآن بالقرآن وإنْ لم يكن هو محل كلامنا وبحثنا إلّا أنَّه تعرضنا له استطراداً من باب بيان بعض الفوارق بين ما نحن فيه ومحل كلامنا في المعلم الرابع وهو ـ حجية الظاهر حجية معيّة بين الكتاب والسنة ـ وبين باقي المناهج التفسيرية الأُخرى[1] وهي:

غرضنا التنبيه على هذهِ الزوايا المهمة الناتجة من اتباع منهج تفسير القرآن بالقرآن وليس الغرض الإخلال بمقام وجلالة أصحاب هذا المنهج وجهودهم العظيمة التي تفتخر الطائفة الحقة أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام بتلك الجهود ولولاها لاندثرت كثير من القواعد والأمور المهمة.

وإنَّما هذا بحث علمي وانطلاقاً من مضمون كلام أمير المؤمنين عليه السلام ووصيته: **«يا مؤمن إنَّ هذا العلم والأدب ثمن نفسك فاجتهد في تعلمها فما يزيد من علمك وأدبك يزيد في ثمنك وقدرك، فإنَّ بالعلم تهتدي إلى ربك،**

---

(١) **إلفات نظر:** ليس الفرض من ذكر هذهِ المؤاخذات سواء على منهج تفسير القرآن بالقرآن أم باقي المناهج التفسيرية الأُخرى، استقصاءً لمنهجهم وباقي المناهج التفسيرية الأُخرى، كلا، ولكن بما أنَّ البحث هو استعراض منهج أمومة المحكمات القائل بأنَّ صياغة المعية بين الكتاب والعترة الطاهرة المتمثلة بالسنة في كل خطوة خطوة ولبنة لبنة بأنَّ لا يفترق القرآن عن العترة ولا العترة عن القرآن انطلاقاً من حديث النبي صلى الله عليه وآله **«... إنِّي تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي أهل بيتي .. لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض ...».**

وبالأدب تُحسِن خدمة ربك، وبأدب الخدمة يستوجب العبد ولايته وقربه، فاقبل النصيحة كي تنجو من العذاب»[١] والمعروف عند أصحاب أهل الفن والتحقيق والتدقيق أنَّ حالة النقد لا تستلزم ـ و العياذ بالله ـ إساءة الأدب إلى مقام وجهود العلماء الأبرار مع شكرنا لمساعيهم الكبيرة والعظيمة التي أنجزوها، ولكن هذا لا يُنافي طبيعة تكامل البشر بحيث يلتفتوا إلى جوانب النقص وأنَّ الكمال لله عز اسمه ومن بعده لعباده المكرمين المعصومين عليهم أفضل الصلاة والسالم والعصمة لأهلها.

إلّا أنَّ طبيعة مدرسة أهل البيت عليهم السلام وأتباعهم ليس سد باب الاجتهاد ـ سواء على المصوِّبة ـ أو المخطئة أيضاً وإنَّما تفتح المجال للفكر الحر الموزون لأجل تطوير عملية التكامل فمثلاً: ـ الجهود التي يبذلها العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي رحمه الله أحد علمائنا الأبرار ومن مفخرة علماء أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام مشكورٌ عليها ولله درُّه في ذلك في تأليف وتفسير كتابه الموسوم بتفسير الميزان الذي طُبع بلغات عِدَّة منها فضلاً عن العربية والانكليزية والفرنسية والفارسية و ... الخ والذي يعتبر مصدر ومرجع في كثير من الأندية العلمية والأدبية والأكاديمية حتَّى من قبل أندية إخواننا أهل السنة في البلاد العربية وغيرها، بل حتَّى في حواضرهم العلمية قُرِّرَت بعض تفاسير أتباع مدرسة أهل البيت عليهم السلام أمثال التبيان للشيخ الطوسي، ومجمع البيان للشيخ الطبرسي (قدس سرهما) هذا من جهة.

---

(١) مشكاة الأنوار للشيخ علي الطبرسي، ص٢٣٩؛ بحار الأنوار للمجلسي، ج١، ص١٨٠، ح٦٤..

وعملية تطوير البحث وتعميقه للوصول والاقتراب أكثر من العترة والقرآن جهة أُخرى، ولا يعني هذا وجود تصادم وتنافي بين الأمرين والجهتين أبداً عند من يتعمق ويُحلل ويبحث في النكات العلمية ومَن كانت لديه المهنية العلمية والإنصاف في التحقيق.

أولاً: إنَّ أصحاب هذا المنهج ـ تفسير القرآن بالقرآن ـ لا يتمكن المفسر الإحاطة بكل شي، أو لا أقل الإحاطة بأوفر عدد ممكن من المعلومات في هذا المجال.

ثانياً: لا يستطيع أصحاب هذا المنهج أنْ يبلغوا كل غايات وغور أعماق آيات القرآن.

ثالثاً: خطورة هذا المنهج تكمن في أنَّ بعض أصحاب هذا المنهج في هذا اليوم وصل بهم الأمر في تصورهم أنَّ السنة الشريفة ـ النبي وأهل بيته عليهم السلام لا دور لها في تفسير القرآن ـ والعياذ بالله ـ وهذا تمادي وتترتب عليه نتائج خطيرة جداً، ومَن قال لك إنَّك أقدرت الإحاطة بالقرآن.

رابعاً: ـ مَرَّ في المعلم الأوَّل أنَّ المُعَلِّم الأوَّل للقرآن بعد الله عَزَّ وَجَلَّ هو النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته الذي صَرَّح به الباري عزَّ اسمه.

وبعض أصحاب هذا المنهج ـ أي منهج تفسير القرآن بالقرآن ـ صار في تدافع مع بيانات القرآن الكريم (﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾[1] وأنَّ تفسير القرآن بسنة النبي صلى الله عليه وآله تأتي بالدرجة الثانية والتحتانية بعد منهج تفسير القرآن بالقرآن، وهذا الامر في معرفة نظام خريطة الحجج له أبعاده

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

الخطيرة، فإنَّ معرفة نظام الحجج ومراتبه أمرٌ خطير في المعرفة الدينية، بل حتَّى في منهج تفسير أمومة المحكمات أو منهج ولاية أهل البيت في تفسير القرآن، والقرآن الكريم أكَّد على منهج أمومة المحكمات بشكل جذري ومصيري على طبقات نظام الحجج كما في الآية ﴿ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾[1] وهذا التأكيد من القرآن يبين أهمية جدوى الحذر من الوقوع في فتنة عقائدية مذهبية أو ديانيّة.

وهذا يكشف عن التطابق بين الحديث القرآني ﴿... مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ﴾ وبين الحديث النبوي حديث الثقلين، واللذان يدلان على شيء واحد وهو: ـ ألا تريدون عاصماً لكم من الفتنة ومن الزيغ، فعليكم بشيئين هما: ـ

١ ـ المحكمات من الآيات.

٢ ـ الراسخون في العلم الذين يتلقون من المعلِّم الأوَّل وهو الله تعالى والراسخون في العلم.

وعليه فيا أصحاب منهج تفسير القرآن بالقرآن أين حديث معيَّة الثقلين الذي نادى به رسول الله صلى الله عليه وآله في أعلى صوته «... **لن يفترقا حتَّى يردا عليَّ الحوض**» وما تعنيه كلمة (حتَّى) بلاغياً ونحوياً واشتقاقياً و ... الخ.

خامساً: بعض أصحاب هذا المنهج جعل تفسير الصحابة للقرآن في مقام وعَرض تفسير أهل البيت عليهم السلام، وهذا أمر تترتب عليه نتائج خطيرة جداً.

سادساً: ومن سلبيات منهج تفسر القرآن بالقرآن إنكار الجانب الإيجابي لمنهج تفسير أمومة المحكمات الذي أحد معالمه كما مَرَّ في المعلم

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

الثالث من أنَّ للقرآن عدَّة منازل ومقامات غيبيّة مثل: ـ مقام أم الكتاب، ومقام الكتاب المبين، ومقام الكتاب المكنون، وتنزيل الكتاب، ولوحٍ محفوظ، ولا يمسّه إلّا المطهرون، وقرآن كريم ... الخ. فإنَّ هذا المنهج ينكر تلك المنازل الغيبية للقرآن.

وعليه نسأل أصحاب منهج تفسير القرآن بالقرآن هل أنَّ كل المنازل الغيبية في القرآن هي في متداول يَدِّ الفهم أم أنَّها تحتاج إلى وسيط ومُعَلِّم؟

الجواب:

أولاً: بالنفي وإنه قطعاً ليس كل المنازل الغيبية في القرآن في متناول يد الفهم.

ثانياً: نقطع ونجزم بالاحتياج إلى المعلِّم والوسيط بيننا وبين الغيب حتَّى يعلمنا ويفهمنا بعض تلك المقامات والمنازل لصريح القرآن بأنَّه كتاب [عربي فُصِّلَتْ آياته] وبيَّنت بلسان قومه، وعليه فماذا تقولون يا أصحاب منهج تفسير القرآن بالقرآن في مثل هذهِ الآيات، ويجب علنيا أنْ نؤمن بكل الكتاب لا أنْ نؤمن ببعض ونكفر بالبعض الآخر، والعياذ بالله.

ومن الواضح أنَّ هذهِ المقامات والمنازل الغيبيّة هي مُؤثِرة في تفسير القرآن، كذلك يتعاض هذا المنهجِ مع المعلِّم الآخرِ من منهج أمومة المحكمات القائل: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ وعلى هذا فمن يستطيع غير النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أنْ يدَّعي أنَّه قد أحاط بتأويل الكتاب كُلَّهُ وليسَ الغرض التهويل في تفسير التنزيل والتأويل، وسيأتي في محله ـ إنْ شاء الله تعالى ـ بيان دور تأثير التأويل في منهج التفسير، ولكن للأسف

المفسرون في غفلة عن هذا الذي طالما أكَّدت روايات أهل البيت عليهم السلام عليه.

تنبيه: منهج تفسير القرآن بالقرآن من التفاسير المهمة ولابدَّ أنْ نقف عنده مليَّاً وكثيراً وإنَّما تعرضنا لذكر هذهِ المؤاخذة على هذا المنهج، والآن بمناسبة التعرض إلى المعلم الرابع ـ حجيّة الظاهر حجة معيّة ـ تعرضنا له، وإلّا بحثه يأتي إنْ شاء الله تعالى، وسنقف بها يتلاءم والمقام.

ثمرة المعلم الرابع:

أحد ثمرات هذا المعلم المهم هو التفرقة بين الحجية المستقلة والحجية المعيّة ودرجاتها:ـ

الحجية المستقلة:ـ وهي الحجية التي لا تتقدم عليها حجة ولا تنقض حجة أُخرى منها أي مقدار كما في حالة التقييد التخصيص، كما أنَّ الاعتماد عليها لا يقوم على حجة أُخرى، وقدْ تطلق الحجة المستقلة على الاستقلال النسبي للدليل وهي الحجة التي لولا وجود حجة أقوى منها سواء بنحو التخصيص أو التقييد أو غير ذلك من أقوائية الحجة الأُخرى لولا وجود حجة أقوى لعُمِل بها.

الحجية المعيّة: وهو الدليل الذي يعتمد عليه في نفسه ولكن تكون حجيته اقتضائية مشروطة بعدم حجة أُخرى لا مساوية ولا أقوى منها فإذا وجدت حجة مساوية لها كان المحصَّل من الحجية مجموع الدليلين بنحو توفيقي وتوليفي.

درجات المعيّة: وحيث إنَّ الحجج ذات مراتب طوليّة في القوّة والضعف وبالتالي في التقديم والتأخير فمنه يتولد درجات في المعيّة بين

الحجج بحسب العرضية والطولية بينها.

والنزاع في مدرسة الإمامية بين الأصوليّة والإخباريّة مضى عليه قرون وهو في حقيقته يرجع إلى تصدير الحجيّة المعيّة بين الكتاب والسنة، ولكن بأي مفاد؟

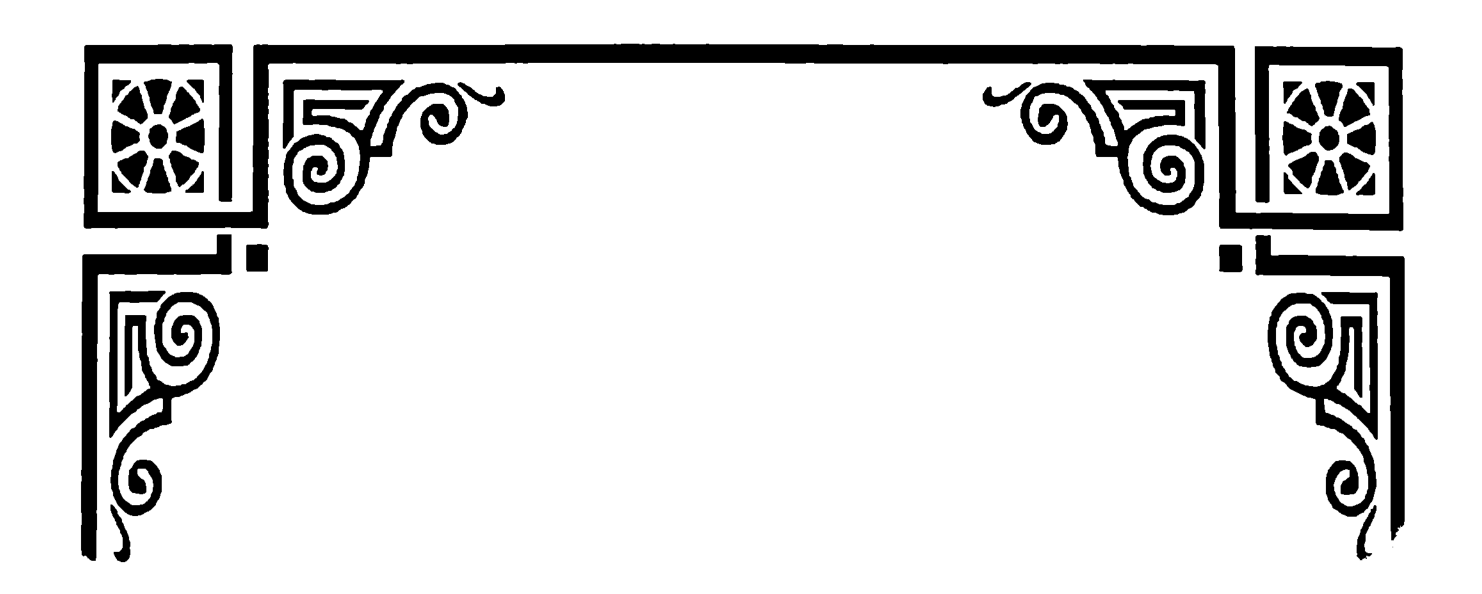
هل بمفاد أننا نتمسك فقط بسُنة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته ونستغني بها عن القرآن ـ والعياذ بالله ـ

وهذا أحد الإشكالات التي سُجِّلتْ على المدرسة الإخباريّة الذي نتيجته تؤدي إلى تعطيل الكتاب ولا نستفيد ولا نستهدي بالرجوع إلى بيانات وأنوار آيات الكتاب تحت ذريعة أنَّ القرآن مختص بمن خوطب به ولا يفهمه إلّا النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته هذا من جانب.

ومن جانب آخر يقول البعض: ـ إنَّ الكتاب حجة وهو الأصل وهذا معناه بالتالي أنَّ السُنّة لا دور لا تحت ذريعة أنَّ الأحاديث ضعيفة، وأنَّ المجاميع الحديثية كُلِّها أو أغلبها موضوعة ـ والعياذ بالله ـ وهؤلاء بمختلف ألوانهم سواء إسلاميون أو علمانيون أو مدارس مختلفة من الاتجاهات الفكرية ذات ألوان عديدة تحت شعارات ليست مُزيَّفة كما يدّعون وأنَّ لكل واحد منها مبرر فكري.

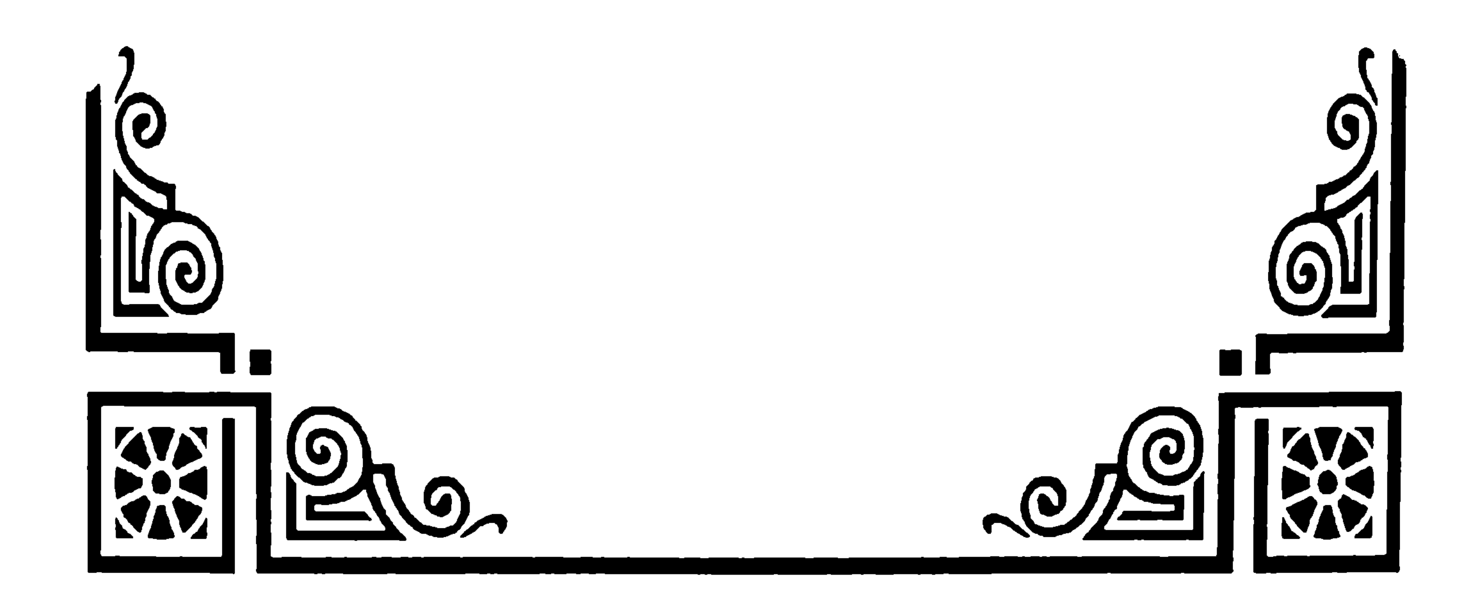
وهناك قسم ثالث يقول: ـ العقل هو المدار فما وافق العقل من الكتاب والسُنَّة نأخذ به، وعجباً لهؤلاء الذين يستذوقون ويستحلون ما وافق العقل البشري المحدود وما نفر منه العقل البشري تنفر منه، وعليه في هذهِ الموازنة بين عقل بشري محدود وبين مَن خالف العقل وهو الحق،

وهذه جدليّة ليست سهلة، وهذه عقول أكابر علماء عبر قرون ولم يجُل فكرهم في تسليط الأضواء على بيان كيفية تصوير النزاع في الحُجيّة المعيّة المتقدمة.



الفصل الثالث

المنهجية والمناهج في التفسير



المقام الأول
المنهجية في التفسير

- ❖ أهمية وضع المنهجة.
- ❖ ثلاثة عوامل أساسية في بحوث علم التفسير.
- ❖ بداية علم التفسير.
- ❖ بداية البحث التفسيري.
- ❖ توضيح للأمومة.
- ❖ ما هو نوع الصلة بين فقه الفروع والعقائد.
- ❖ هيمنة العقائد على فقه الفروع.
- ❖ تطبيق منهج الأمومة والهيمنة وطبقاتها على مثل بحث الولاية.

أهمية وضع المنهجة:

إنَّ البحث في وضع الأسس ورسم المنهجية من الأمور البالغة الأهمية في أي علم من العلوم؛ لأنَّ البحث في أيّ علم لا على ضوء المنهاج أو القواعد والأسس والأصول مهما كان سوف يسير على غير بصيرة في البحث في المنهجية. فكيف بك في علوم القرآن الذي يكون البحث فيها مُفَصَّلاً ومُعَمَّقاً، وهذا التفصيل يحتاج إلى وضع منهج وتشجير المعلومات قبل الولوج (الخوض في خضم ذلك العلم) لأنَّه حينئذٍ الساكن فيه ساكن في سفينة يعلم أنَّ البوصلة فيها إلى أين تتجه به والامواج ... الخ.

ليسَ هذا مختصاً بعلوم القرآن فحسب، كذلك في علم الرجال إذا

توقف في القواعد سوف تكون أكثر بصيرة في المباحث الرجاليّة من أنْ تخوض بها من غير تدقيق ومنهجة.

وهكذا علم الفقه والاصول، وقواعد علم التأريخ، والعلوم الأدبية ...

وعليه فالبحث في القواعد والمنهجية أمرٌ مثمرٌ يُعطي انضباط ميزان منهجية نظم وانتظام وتسلسل متواصل ومتوافق بشكل طبيعي وانسيابي منسق.

ولذا يمكن لأي طالب علم أو باحث أنْ يستعلم هذهِ الأهمية بطريقة أُخرى وهي أنَّه لو تَعَقَّد البحث لديك في مسألة من المسائل العلميّة حاول أنْ تلتفت وتنظر لعلَّ الصعوبة في المسألة وليدةٌ عن عدم وضوح قاعدة منهجية معينة هي توجب حل العقدة في تلك المسألة..

ولا ندعي أنَّ البحث في مسائل العلوم هو البحث المنهجي والقواعدي والأصولي هو كل شيء ... كلا

إنَّما جانب إلمام المواد وجمعها أيضاً هو شيء له أهميّة، وإلّا لا يمكن تحصيل اتقان صناعي منهجي قواعدي نظامي بلا مواد، مثله مثل الهندسة بلا مواد للبناء فإنَّه غير ممكن.

ثلاثة عوامل أساسية في بحوث علم التفسير

إنَّ بحوث علم التفسير من أصول وقواعد يمتزج فيها عاملان مؤثران وهما:

العامل الأوّل: البحوث الأصولية:

يعتبر علم الأصول من العلوم ذات المرتبة العالية والمتقدمة، وله دخالة

في كل العلوم الدينية المترامية الأطراف، والذي يتكفَّل بتأصيل أصول متينة وقوية الثبات والمنهجية هو علم الأصول.

وإنْ كان من الخطأ، أو المسامحة في التعبير حصر الأصول بفقه الفروع، كلا، بلْ إنَّ علم الأصول علم مهني يُهندِس المنهجة في العلوم الإسلامية والدينية كافة؛ لذا أجرينا هذا التعديل في بحث الأصول، وقلنا هناك: ـ

إنَّ علم أصول فقه الدين بأكمله لا فقه الفروع فقط، بلْ فقه التفسير، وفقه العقائد والسيرة والتاريخ الديني، وفقه الرجال، وفقه الآداب، والحديث والأخلاق ... الخ.

وعليه يكون من الغفلة بمكان إذا أجرينا على ما جرى عليه الأوائل من حصر علم أصول الفقه في خصوص علم الفروع.

ولذا لأجل البصيرة عند الخوض في قواعد علم التفسير وأصوله، إذا أردتَ أنَّ تُقَلِّدَ مُفَسِّراً ما فلابدَّ أنْ تتحرى عن كم ومَدَى الثبات المنهجي عند ذلك المُفسِّر، وكم هو الصواب المنهجي عنده، فإذا كنت مُتَضَلِّعاً في بحوث منهج التفسير وقواعدِهِ وأصوله فتكون بصيرتُك نافِذَة.

وهذا شبيه ما قاله الأصوليون: ـ كُلَّما تُبصِر وتتقوى وتتطور وتتضلع في علم الأصول ـ أصول الفقه ـ كلما تَقْوَى على هندستك وصناعتك في علم الفقه.

ومن خلال هذهِ المقدمة يتضح أنَّ علم الأصول له اليد الطولى وله الدخالة في كل علم من العلوم الدينية.

والشاهد على ذلك: إنَّ قواعد علم التفسير، وكذا قواعد علم السيرة

والأخلاق، وكذا قواعد علم السير والسلوك والعرفان، وقواعد بقية العلوم الدينية الأُخرى، لا يمكن أنْ تُهذب وتؤطر، وتُقَعِدَ قواعد بقية تلك العلوم إلّا بموازين بُحثت في علم الأصول.

وهذهِ ليست مجرد دعوى، بلْ مشفوعة بالدليل، باعتبار أنَّ العلوم الدينية هي المعرفة الدينية والفهم الديني، كما دلَّت على ذلك الآية المباركة ﴿فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1].

بتقريب: أنَّ الآية قالت (ليتفقوا) أي ليفهموا وهي مطلقة، ولم تُقيد بفهم الفروع فحسب، وإنَّما بإطلاقها تشمل كل العلوم والمعارف الدينية.

والسبب في هذهِ التوسعة: هو أنَّ المعرفة الدينية تستند على الحجيّة الشرعية والعقليّة معاً لا على أحدهما دون الآخر، بلْ تعتمد على الحجية الفطرية، بلْ على الحجية الوحيانيّة، والذي يضبط وُيصحِح ويُسدد معرفة الحجية الشرعيّة عن غير الشرعية هو علم الأصول.

لذا نجد أصحاب التخصصات في العلوم الدينية المختلفة عندما يُدونون قواعد تلك العلوم فإنَّهم مضطرون لإقحام مباحث أصولية في تلك القواعد.

فلو لاحظنا مثلاً كتب المتكلمين وما فيها من القواعد الكلامية المُمَهدَة للاستنباط في علم الكلام أمثال ما صنعه جملة من أعلام الشيعة وفضلاؤها كالشيخ الصدوقؒ في اعتقاداته، والشيخ المفيد والسيد

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

المرتضى و ... الخ من المتقدمين، وكذا ما صنعه العلامة الحلي في نهاية المرام في علم الكلام و ... انتهاءاً بما ردَّ به الشيخ محمد حسن المظفر في دلائل الصدق لنهج الحق في الرد على الفضل ابن روزبهان وغيره من الذين أثروا المكتبة الكلامية الشيعية بالمصنفات والشروحات العالية المضامين.

فنلاحظ هذهِ الكتب أنَّها مملوءة بمباحث من علم الأصول، كمباحث الحجة، والشك في الحجيّة، وبيان مراتب الحجية ... ونظام الحجية ما هو ... الخ كذلك إذا لاحظنا قواعد علم التفسير في جملة من مصادرها حتّى في العلوم القرآنية، كما في كتاب الاتقان للسيوطي في علم التفسير، أو كتاب العلوم القرآنية للرزكشي أو غيرها.

فنلاحظ كل مُفَسِّر في بداية تفسيره يكتب قواعد علم التفسير في المجلد الأوَّل، فتلك القواعد لا يمكن أنْ تتجاوز وتتخطى المباحث الأصولية حتّى توظفها في مواد ذلك العلم، فإنْ كانت موادّ في علم الكلام، فكلامية وإنْ كانت من التفسير فتفسيرية، وإنْ كانت في العرفان فعرفانية، وإنْ كانت في علم الرجال فرجالية تحتاج إلى بحث التوثيق، وما هو ضابطه، وهل التوثيق حجة أو لا؟ وكذا بيان مراتب حجية التوثيق، وما هي دلالة كل أمارة، وكم عدد الأمارات، كل هذا يبحث في علم الأصول.

وعليه فالباحث في علم الرجال مثلاً ليست كل مباحثه رجالية محضة، ولا أصولية محضة وإنَّما هو مزج بين الطرفين، فلا يكون الإنسان رجالياً نحريراً بلحاظ إلمامه بمواد رجالية غزيرة، إلّا أنَّه لا بصيرة له في علم الأصول، فحينئذٍ تكون النتائج خاطئة جداً لأنَّه لا يوازن بين المواد،

وكيف يخرج بنتيجة التوثيق أو بنتيجة الجرح، بخلاف ما إذا كانت له إلمامة أصولية قوية، فإنَّه يكون ذو بصيرة رجالية نفّاذة ثاقبة، ولكن الجانب الأصولي لوحده من دون تبحر في المواد الرجالية لا ينفع ويصير كالهندسة في أرض جرداء قاحلة.

وعليه فلابدَّ من ممارسة الإلمام بالمواد الرجالية شيئاً فشيء ويوماً بعد يوم إلى أنْ يتضلع ويتبحر فيها.

وكذا في بحوث السيرة النبوية، أو سيرة المعصومين عليهم السلام وكذا في كتابة وتدوين السيرة، وهذهِ الظواهر العلمية في العلوم لا تأتي صدفة، كذلك الحاجة بالنسبة إلى علم التفسير، فالكلام هو الكلام، ومتى يكون المُفسِّر أقدر وأجدر وأكفأ؟

يكون كذلك عندما ينهض له جناحان قويان، قد ينهض فيه جناحٌ قويٌ، والآخر ضعيفٌ.

النتيجة: تكون مجموع نسبي متأثرة فكلما اشتد المُفسِّر جدارة وقوة في علم الأصول، كلما صار أدق منهجة في علم التفسير.

العامل الثاني: وفرة إطلاع المُفسّر على مواد التفسير:

كإلمامه بتأريخ جمع القرآن وبالسور والآيات وأحكام الناسخ والمنسوخ ...الخ.

وعليه:

كلما كان إلمام المُفسِّر بالمواد التفسيرية أكبر كان تنظيره وقولبته وتفعيله لقواعد علم التفسير أضلع، ولا يكون ذلك إلّا بضم هذين

العاملين ـ البحث الأصولي مضافاً إلى الإلمام بالمواد التفسيرية.

فمثلاً عند ملاحظة كتاب البيان للسيد الخوئي‌ﰅ في تفسير القرآن نجده‌ﰅ كتب قواعد علم التفسير كمدخل إلى قواعد أصول التفسير وإنْ لم يستوفها كلها وأعطى نبذة يسيرة عن تلك القواعِد، وأقحم‌ﰅ المباحث الأصولية علماً أنَّ البحوث التي اضطر إلى تنقيحها وتحريرها هل هي تفسيرية محضة أم أصولية محضة؟

بالتالي لابدَّ أنْ تمتزج المواد التفسيرية المترامية الأطراف بالمباحث الأصولية.

الخلاصة: الذي ذكرناه من العاملين يجب أنْ يَطَّلع عليها الإنسان إذا أراد أنْ يكون مُفَسِّراً ناجحاً والخوض في مباحث علم التفسير، والمفسر الناجح هو الذي يجعل موازنةً بين العاملين السابقين لا أنَّه يُراعي أحدهما دون الآخر.

العامل الثالث: القرآن ذو منازل:

من أمهات الطبقة الأولى لأصول التفسير التي يرسمها القرآن الكريم وأهل البيت‌ﰈ هو وضع المُفُسِّر نصب عينيه هذهِ الحقيقة من أنَّ القرآن الكريم ذو منازل ومقامات صرحت به آيات القرآن ـ كما مرَّ تفصيله بالفصل الثاني.

بداية علم التفسير

مَرَّ علم التفسير بمراحل شبيهة بالمراحل التي مرَّ بها الفقه ـ فقه الفروع ـ فمثلما لم يكن في بداية علم الفقه شيءٌ اسمه علم الأصول ـ أصول الفقه ـ وإنَّما الأئمة أشاروا إليه ـ عن أحمد بن أبي نصر، عن الرضا‌ﰉ،

قال: «علينا إلقاء الأصول إليكم وعليكم التفريع»[١].

وكون هذا أصل وباب ينفتح من ألف باب، هذهِ التعبيرات وغيرها عنهم عليهم السلام منذ زمن أمير المؤمنين عليه السلام مؤسس كل العلوم الإسلامية باعتبار أنَّه عليه السلام أوتي جوامع العلم، إلى أنْ أتى حفيده الإمام الباقر عليه السلام والإمام الصادق عليه السلام ثم كتب في ذلك زرارة وهشام بن الحكم قبل الشافعي في علم الأصولن فأخذت البحوث الأصولية تنتزع من بحوث فقهية وتُميز وتُبين.

كذلك: ـ علم التفسير في بدايته وترعرعه ونموه وتوسّعه واشتداده وتطوره وازدهاره مرَّ بنفس المراحل التي مرَّ بها علم الفقه.

بداية البحث التفسيري

بدأ البحث التفسيري بعلم القراءات[٢] وكانت من المتميزين في مدرسة الإمامية أبان بن تغلِب، وحمران بن أعْيَن، وحمزة الكوفي وغيرهم من جملة القرّاء العشر، هم من أتباع أهل البيت عليهم السلام ومن الشيعة الإمامية الذين بدأوا في الميول والبروز مثل زياد بن المنذر والهمداني من اليمن فإنَّه كان من تلامذة الإمام الباقر عليه السلام رغم أنَّه انتهج المذهب الزيدي، وكذا بُرير

---

(١) الوسائل، ب٦، من أبواب صفات القاضي/ ح٥١.

(٢) علم القراءة: تعني القراءة لغةً التلاوة، واصطلاحاً: كيفية قراءة ألفاظ آيات القرآن الكريم وقد ظهرت القراءة كعلم مستقل في جملة علوم القرآن، وألَّف العلماء والباحثون في القرآن عشرات الكتب بشأنها، تناولت بعضها بيان القراءات المختلفة لبعض الآيات:

منها: معجم القراءات القرآنية لمؤلفه أحمد مختار عمر، وعبدالعال سالم مُكرَّم.

منها: (علل القراءات السبع) لأبي علي حسن بن أحمد الفارسي، وذكر فيه الدليل على كل قراءة.

ـ القراءات للشيخ محمد تقي مصباح اليزدي.

بن خُضير الشهيد في كربلاء مع الإمام الحسينعليه السلام سيد الشهداء، فكان بارعاً ومُتضلعاً في علم القراءات؛ ولذا لما استُشهد وقُتِل أصبحت ندامة خاصة عليه من الطرف الآخر.

وهكذا من قبله: ـ عبدالله بن عباس تتلمذ على يد الإمام أمير المؤمنينعليه السلام والحسن والحسينعليهما السلام، وكان يملك مدرسة تفسيرية معينة وإنْ كان عى مدرسته مؤاخذات من قبل الأئمةعليهم السلام اللاحقين كالباقر والصادقعليهما السلام.

وإنْ كان عبدالله بن عباسرضي الله عنه هو تلميذ مدرسة الأئمة، لكن حيث لم يحصل لديه متابعة للاستقاء من مدرسة أهل البيت أصبحت هناك فجوة فاصلة بين مدرسته رغم أنَّها قريبة جداً من مدرسة أهل البيتعليهم السلام في التفسير، وبين المدرسة التفسيرية للإمام الباقرعليه السلام والصادقعليه السلام وباقي المعصومينعليهم السلام إذْ أخذت تسجل المؤاخذات على مدرسة التفسير لعبدالله بن عباس، وهكذا حال كل من حاول الابتعاد عن مدرسة أهل البيت التفسيرية أو ابتعد عنها أمثال:

عبدالله بن مسعود، وأُبي بن كعب وغيرهم من الصحابة الذين تضلعوا واختصوا في التفسير على يد الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله في علوم القرآن، حيث ابتعدوا عن مدرسة أئمة أهل البيتعليهم السلام بدأ يَدُبُّ فيهم جرس المؤاخذات والملحوظات الخطيرة على منهجية التفسير بسبب هذا الابتعاد شيئاً فشيئاً إلى أنْ انفصلوا عن مدرسة أهل البيت وصارت لهم استقلاليات وحينئذٍ بدأت هشاشتهم واضحة، كما سنبين هذا مفصلاً إنْ شاء الله تعالى في الملحوظات على المنهج التفسيري عند الصحابة وعند التابعين وعند تابعي التابعين ... الخ.

توضيح للأمومة

الصلة بين فقه الفروع وبين العقائد:

جرت عادة الفقهاء قديماً وحديثاً إلى التفصيل في باب الفقه ـ أي فقه الفروع ـ بين العبادات والمعاملات وما يتضمنه كل واحد منهما من فروع ومسائل ... الخ.

وكان بعض الفقهاء القدماء يذكر مُقدِّمةً ترتبط بعلم العقائد فيذكر شيئاً يرتبط مثلاً بباب التوحيد ثم باب النبوة ثم العدل ثم الإمامة ثم ...الخ.

أمَّا عند المتأخرين فليس الأمر كذلك إلّا ما ندر.

إلّا أنَّه وللأسف هناك أمراً مهماً غفلوا عنه ولم يهتموا به وهو مهم جداً وهو عدم بيان الصلة بين كل باب فقهي في الفروع بالعقائد أو بالعكس، وعليه فماذا ينجم من أبواب العقائد في أعمال الفروع، فمثلاً ما وَرَدَ في الروايات عن ابن مسكان عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: **«نحن أصل كل خير ومن فروعنا كلُّ برٍّ فمن البر التوحيد والصلاة والصيام وكضم الغيظ ... وعدونا أصل كل شرّ ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة فمنهم الكذب والبخل والنميمة والقطيعة .. فكذب من زعم أنَّه معنا وهو متعلّق بفروع غيرنا»**[1].

فكيف يكون ذلك وما هي العلاقة بين أنْ يكون أئمة الشرّ أصلٌ وبين الفجور والفسوق، بخلاف أئمة الهُدى عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ فإنَّه ما وَرَدَ أنَّهم **«أصل كل خير»**[2]. وأنَّ كل خيرٍ نتمسَّك به هو تولي لأئمة

---

(١) الكافي، ج٨، ص٣٣٦؛ الوسائل ب٧، من أبواب صفات القاضي، ح٢٤.
(٢) المصدر السابق.

الهُدى عليهم السلام.

وهكذا الأمر في مباحث كثيرة منها:

أولاً: ما هي العلاقة والصلة بين بحث الشورى والإمامة والسياسية وما هي صلتها بالفقه العقائدي، فإنَّ الإمامة السياسية بحثٌ فقهي فرعي وليسَ عقائدي، فإنَّه حتّى عند أهل السنة والجماعة لم يُبينوا نوع وظيفة الصلة بينهما.

ثانياً: أيضاً لابدَّ من معرفة العلاقة بين الإسلام وبين الصلاة والصوم والحج والزكاة والخمس والولاية، ليسَ فقط هذهِ الفروع الفقهية الست أو الأكثر نريد معرفتها، وما هي علاقتها بالإسلام من الناحية العقائدية والتأكيد على الولاية وكيف أنَّ الولاية مرتبطة بالصلاة والحج ...

وهذ الولاية فيها جانب فقهي أم كُلُّها جنبة عقيدة؟

هكذا ذكر الفقهاء أنَّ من الفروع هو مسألة التولي والتبري، وما هي علاقتها بالعقيدة.

ما هو نوع الصلة بين فقه الفروع والعقائد في مبحث الولاية

من جملة فروع الدين التي ذكرها الفقهاء مسألة التولي والتبري، بعد ذكر الصلاة والصوم والزكاة والحج والخمس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ... الخ.

وعليه فهل الولاية من فروع الفقه والدين أم أنها تصلح أنْ تكون من

أصول العقائد؟[١].

وكان ديدن الفقهاء القدماء يذكرون صلة المطلب الفقهي الفرعي بالمطلب العقائدي ضمناً، وهكذا الأئمة عليهم السلام من قبل، فقد وردت روايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام كما ذكر صاحب الوسائل الحر العاملي ذلك، فيبينون مضافاً للمطلب الفقهي بيان جوانب ومطالب أُخرى لا علاقة بالمطلب سواء كان مطلباً أخلاقياً أو عقائدياً أو ...الخ.

وهذا ليسَ خلطاً بين المطالب وإنَّما هو مزج وخلط صورة صحيحة تبين الارتباط بين المبادئ الوجودية الظاهرية مع واجب الوجود.

وعليه فمن الضروري ربط المطالب العلمية ببعد روحي، بخلاف أهل الاختصاص فإنَّهم لا يذكرون إلّا المطالب الخاصة باختصاصهم ولم يربطوا ذلك بالبعد الروحي.

وهذا ما يعبر عنه بجامعية العلوم؛ ولذا شاهدنا في ستينيات وسبعينيات القرن المنصرم ـ القرن العشرين ـ ودَعَت الدراسات الأكاديمية إلى التخصص ولكن سرعان ما غيرت هذهِ الدراسات نغمتها في الثمانينات

---

(١) الولاية تأتي بفتح الواو (وَلاية) فتكون مصدراً للفعل الثلاثي المجرد (وَلِي) وهو فعل مُعتل مثال واوي على وزن فَعَلَ نقول: ـ وَلِيَ ولايةً.
وأُخرى تأتي بكسر الواو (وِلاية) فتكون اسم مصدر.
وذكر الراغب الأصفهاني في مفرداته: ـ الولاء والتَّوالي : ـ أنْ يحصل شيئان فصاعدِاً حصولاً ليسَ بينهما ما ليسَ منهما، والوَلاية بالفتح: النُصْرَة والوِلاية (بالكسر) تولي الأمر [الراغب الأصفهاني في مفرداته].
وقال الجوهري في صحاحه: ـ الوَلي: القُرْب والدَّنو، يُقال: ـ تباعدنا بَعْدَ وَلْين وكل مما يليك أي مما يُقاربك ... الخ.

من نفس القرن إلى دعوى الجامعية بين التخصص وغيره حتّى يكون لدى المتخصص بُعْد أعمق.

ومن الشواهد على ذلك أنّه توجد مقولة للشيخ البهائي﴿ﺭﺣﻪ﴾ أحد علمائنا الأبرار «**ما جلست مع متخصص إلّا غلبني، وما جلست مع جامعي إلّا وغلبته**».

وإنْ كان كلامنا في التفسير والفروع إلّا أنّه يمكن أنْ يكون له ارتباط وثيق بأصول العقائد.

وذلك لأنَّ القرآن بَيّن في موارد عديدة الآيات الدالة على الولاية ومادة ـ و ـ ل ـ ي ، بألفاظ دالة على الطاعة والطهارة والمباهلة و ... الخ. ومن تلك الآيات:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا . . . ﴾[1].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾[2].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[3].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾[4].

٥ ـ قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾[1]. وغيرها.

---

(١) سورة المائدة: ٥٥.
(٢) سورة الأحزاب: الآية ٦.
(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٦.
(٤) سورة النساء: الآية ٥٩.

وعليه: إذا لاحظنا الآيات القرآنية وكذا الروايات الواردة في الولاية وبيان معناها والتأكيد عليها كثيرة جداً.

وأمَّا الآيات الواردة في بيان حق وأهمية الصلاة لم تصل إلى أجزاء العشرة بالمائة ١٠٪ من مجموع آيات القرآن، وعليه فتقدم ما هو وارد في الولاية.

هيمنة العقائد على فقه الفروع

بعدما تقدم أنَّ الولاية ذُكِرت في فقه الفروع، علماً أنَّها أيضاً أخذت مساحة واسعة جداً في العقائد، بلْ وأكَّد عليها القرآن أكثر مما أكَّد على باقي فقه الفروع من الصلاة والصوم والزكاة ... الخ.

والسؤال: هو أنَّه كيف العقيدة ـ كالولاية ـ تهيمن ، ما هو وجه الهيمنة فيها؟.

الجواب: كل العبادات التي تصح فيها النيابة عن المنوب عنه، سواء كان المنوب عنه ميتاً كما في الصوم والصلاة و ... الخ أو حيّاً كما في مسألة الإجازة للنيابة عن الحي العاجز في الحج و ... الخ.

يُشترط فيها كون النائب مؤمناً وأمَّا غير المؤمن فعبادته غير صحيحة.

وأمَّا أنَّه لماذا عبادته باطلة؟

فإنَّ الفقهاء لم يقفوا عنده ملياً ويحللونه ويوضحونه بالمستوى المطلوب، وإنَّما وكلوا ذلك إلى بحث العقائد.

وعندما نأتي إلى العقائد فإنَّ المتكلمين وللأسف، وكذا الفلاسفة لم

---

(١) سورة النور: الآية ٦٣.

يبينوا ذلك بالبيان المطلوب مع أمثلته، وإنَّما استعرضوا بعض جوانبه وذكروا بعض الأمثلة.

إلّا أنَّه نقول هنا:ـ

لو نظرنا إلى تراث أئمة أهل البيت عليهم السلام ابتداءاً بأحاديث النبي صلى الله عليه وآله إلى نهج البلاغة إلى الصحيفة السجادية إلى الروايات التي نقلها أصحاب المجامع الحديثية أمثال الشيخ الكليني في الكافي والصدوق في فقيهه والطوسي في تهذيبه، والمجلسي في بحاره والكاشاني في وافيّه والحر العاملي في وسائله والمحدث النوري ـ خاتمة المحدثين ـ في مستدركه ... الخ.

لوجدنا في كل المصادر المذكورة مثلاً في نهج البلاغة: ـ لو أخذنا مقطعاً من خطبة معينة نجد فيها إشارة إلى عِدَّة مطالب مثلاً فيه بيان للبُعد العقائدي في نهج البلاغة، أو البُعد الأخلاقي أو الآداب أو الفقه السياسي أو الاقتصادي أو العسكري أو الاجتماعي أو ... الخ وهذهِ ليست خلطاً بين الأبحاث بعضها مع البعض الآخر كلا.

كما أشكل بعض الحضور في بعض المؤتمرات على بعض علمائنا وقالوا هذا خلطاً بين المباحث فأجابهم:ـ

للأسف أنكم لم تَّعون نظام نهج البلاغة الذي هو انعكاس لنظام القرآن.

وهكذا مثل الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في أي فرع من الفروع الصلاة أو الصوم أو الزكاة أو الحج، أو الوصية أو الميراث أو ... الخ.

فنلاحظ أنَّ الإمام عليه السلام يتكلم في هذا الفرع المعين كالصلاة مثلاً نجد فجأةً يُحوِّل مسار الحديث وَيردُ على شبهة عقائدية أو يشير إلى مطلب عقائدي

معين، وهذا المطلب له صلة يعيه من يعي ويغفل أو غفل عنه مَن غفل.

اعتراض: إنَّ القرآن وكذا الأحاديث النبوية والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام يأتي بمبحث في العقائد وفي نفس الوقت والمناسبة يشير إلى مبحث ذي صلة بالفروع أو بالأخلاق أو ... الخ فبناءاً على التفسير الموضوعي والمنهجة الموضوعية وتباين موضوعات العلوم فيما بينها بناءاً على تمايز العلوم بتمايز موضوعاتها، فإنَّ هذا خلطٌ.

الجواب: لو استقرأنا جميع الروايات الواردة في المجاميع الحديثية في مثل الوسائل وفي كل الأبواب من كتاب الصلاة إلى كتاب الديّات، بلْ في جميع أبواب الصلاة من أوائل باب الركوع أو السجود أو ... الخ نجدها مشحونة بأمور عقائدية، وليسَ ذكرها من باب الاستطراد وطرداً للباب وأنَّه من باب الشيء بالشيء يذكر، كلا، وإنَّما هذا نظام يذكر في جميع الأبواب في أوائلها وأواسطها وأواخرها فيها وحدة النظام أي نظام القرآن والدين يُعَرَّج فيه على المبحث العقائدي.

فمثلاً: وَرد في وصية رسول الله صلى الله عليه وآله [... ألا إنَّ لعنة الله ولعنة ملائكته المقربين وأنبيائه المرسلين ولعنتي على مَن انتمى إلى غير أبيه، أو ادّى إلى غير موالية، أو ظلم أجيراً أجره][1].

وفعلاً ارتقى أمير المؤمنين عليه السلام المنبر وأوصل وصية رسول الله إلى المسلمين وظنَّ بعضهم بأنَّ هناك وصية خطيرة، نجد هل أنَّ كتاب الإجارة في الفقه محتاجة إلى بيان، أنَّ مَن يمنع إجارة أجير فهو ملعون من قبل الله تعالى، وهذا شيء واضح، وكذا مسألة عقوق الوالدين أو إباق

---

(١) أمالي الطوسي، ص٩١.

العبد عن مواليه فهذهِ أمور واضحة لا تحتاج إلى تأكيد.

والأمة الآن تحتاج إلى تحديد مصير بعد رسول الله ﷺ في أواخر أيّامه من هذهِ الدنيا.

أَوَتظُن أنَّ النبي ﷺ أراد بهذهِ الوصية ظاهر هذهِ الأمور الثلاثة الواضحة كالشمس في رابعة النهار؟! والأمة بحاجة إلى تحديد المصير والعقيدة وتنظيم شؤونهم بعد رحيله ﷺ، ولكن بعد أنَّ خفَّ عن رسول الله المرض جاء إلى المسجد وخطب بالناس وفَسَّرَ الوصية التي نقلها عنه وصية بالحق علي بن أبي طالب عليه السلام.

حيث نلاحظ هذهِ البنود الثلاثة في الوصية مرتبطة بفقه الفروع، فانظر كيف ربط رسول الله ﷺ بينها وبين المبحث العقائدي الذي نريد بيانه في مقامنا وهو:ـ

أولاً: مَن منع أُجرة أجير فعليه لعنة الله، هذا ما يرتبط بالفروع وأمّا ما يرتبط بالعقائد فأنا وعلي أجيرا هذهِ الأمة ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا إِلَّا ٱلۡمَوَدَّةَ فِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾[1].

فانتقل ﷺ من الإجارة التي هي عقدٌ في الفروع إلى عقد في العقائد وهذا غورٌ في بيان الصلة بين الفروع والعقائد.

ثانياً: مَن عَقَّ والديه فعليه لعنة الله؛ لأنَّ العقوق من الكبائر التي توعد الله مرتكبيها النار، وما يرتبط بالعقائد: ـ أنا وعلي أبوا هذهِ الأمة فمن عقّنا فعليه لعنة الله.

وكثير من الروايات دلَّت على هذا المعنى «**أبٌ أولدك وأبٌ زوجك،**

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

وأبٌ علمك» فإنَّ والدك أعظم حقاً عليك من ولدك وزوجتك.

ثالثاً: لعن الله عبداً أبق عن مواليه.

يقول الرسول صلى الله عليه وآله: الناس مأمورون بطاعتنا ونحن أولياؤهم فمن أَبَق من ولايتنا فعليه لعنة الله.

الشارع عبدنا بولاية النبي صلى الله عليه وآله ووصيه بالحق وأهل البيت عليهم السلام فمن أبق عن طاعتنا وولايتنا فعليه لعنة الله.

وعلى أي حال فهناك الكثير من البحوث التي قد يتوهم فيها البعض بلْ حتّى عند العرفاء والمتكلمين والمفسرين ويشتبه عليهم الأمر كما في مبحث التمييز بين معرفة التوحيد وبين معرفة ولاية الله، فإنَّ ثمرة معرفة التوحيد هو ولاية الله أو المعرفة بولاية الله هي الإيمان بالتوحيد أو بذات الله والمقام الأعظم كمالاً منه الإيمان بولاية الله.

تطبيق منهج الأمومة والهيمنة وطبقاتها على مثل بحث الولاية

لعلَّه هناك سؤال أو إشكال يدور في الأذهان من خلال ما تقدم وهو:

أَنَّه إذا كانت الآيات الواردة في القرآن في حق الولاية وأهميتها أكثر بكثير من الآيات الواردة في الصلاة والصوم والزكاة و ... الخ فلِمَ هذا الاختلاف بين المسلمين، ولِمَ عدم التسالم على الولاية ومعناها بخلافه في الصلاة والصوم والزكاة و ... الخ فإنَّهم تسالموا على ذلك.

الجواب: هناك مستويان من الجواب:ـ

المستوى الأوَّل: هو محل اتفاق وتسالُم باعتبار أنَّ المراد من الولاية هي ولاية الله ورسوله والأئمة عليهم السلام، إذْ لا أحد يستطيع أنْ يُنكر الولاية لله ورسوله والأئمة وبالأخص مودَة الرسول صلى الله عليه وآله ومحبة أهل البيت عليهم السلام. فقد تسالم المسلمون عليها، وأنَّها ضرورة قرآنية بديهية والمنكِر لها منكر لأصل الدين وأصوله لدى كل المسلمين.

المستوى الثاني: لا أحد من المسلمين يستطيع أنْ يُنكر أنَّ أهل البيت عليهم السلام لا يستقى العلم منهم كلا وإنَّما هم من أهل بيت زقوا العلم زَقّاً، إذْ لا يختلف اثنان من المسلمين في علم أمير المؤمنين عليه السلام سيد الأوصياء وأنَّه يمير العلم ميراً ـ أي يقسم العلم بين العباد ـ وهكذا فاطمة الزهراء عليها السلام سيدة نساء العالمين والحسن والحسين والتسعة المعصومين من ذرية الحسين، وأنَّهم حجج الله على الخلق، ومَن يُنكر هذا يُردَّ عليه ويمرق من

الدين، وهذا المقدار إلى هنا أيضاً متسالم عليه.

أمَّا أنَّه كل المسلمين يعملون ويعتقدون بتلك الولاية فذاك بحث آخر علماً أنَّ الولاية على درجات عديدة:ـ

منها: كما تقدم في المستوى الأوَّل ـ المحبة والمودة للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام ـ إذنْ على مستوى التنظير والإقرار لا يستطيع أحد أنْ يُنكر ذلك وأنَّ أهل البيت عليهم السلام هم بُناة الدين الأوائل الذين بفضلهم استقام وبقي الدين إلى يومنا هذا، إذْ لا يستطيع أحد أنْ يُنكر ما قام به أمير المؤمنين عليه السلام بنفسه وماله وأولاده وبسيفه، وأنَّ الحق مع علي وعلي مع الحق وحديث المباهلة وباقي فضائلهم في خدمة وديمومة بقاء الإسلام.

وإنْ كان هناك خلاف لا يُنكر ـ أيضاً ـ بين المذاهب الإسلامية في الفروع الفقهية من الصلاة والصوم والزكاة والحج.

وعليه فإنَّ المقدار الضروري لولاية أهل البيت عليهم السلام أوسع من المقدار الضروري للصلاة والصوم والحج ... الخ باعتبار أنَّ أهل البيت هم المصدر لعلم الدين وهو مقوم على الصلاة باعتبار أحكام الصلاة تستقى من القرآن والسنة وأهل البيت عليهم السلام، لذا لم يُنادَ بشيء أعظم مما نودي بالولاية إلّا أنَّه وللأسف المسلمون لم يُفعِلوا نظام اليقظة لهذا الأمر وأنَّه متروك ومغفولٌ عنه.

المقام الثاني

❖ **وحدة معية الثقلين.**

❖ **الهيمنة والفوقية.**

❖ **مَن الذي جمع القرآن كما أنزل؟.**

❖ **إلفات نظر.**

❖ **النتائج السلبية المترتبة على عدم التمسُّك بالقرآن.**

❖ **العلاقة بين ولاية الله وولاية الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة وبين منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات في القرآن.**

وحدة معية الثقلين

ما المراد بالمعية وعدم الافتراق بين الكتاب والعترة الوارد في الروايات؟

لربَّ سائل يسأل ما هي السُبُل الصحيحة التي يتبعها الإنسان لأجل التمسُّك السديد والتام بالقرآن الكريم؟ لأنَّه حتّى الذين وصفهم القرآن بأنهم عضين كما في الآية المباركة ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾[1] ليسوا رافعي اليد عن القرآن الكريم بالمرَّة وأنَّهم تمسكوا ببعض القرآن دون بعضه الآخر، وهو ليسَ بتام ولا سديد[2].

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩١.

(٢) عضين: جمع عضة أي التفريق وأصلها عضوٌ منقوصة الواو مثل عِزَة وعزين، عضه عضين، والمراد بـ (عضين) على ما جاء في الرواية في تفسير العياشي ج٢ ص٢٧١ ح٤٣ هم قريش، فإنَّهم قسموا الآيات القرآنية فما كان ينفعهم أخذوه وما لا ينسجم ومشتهياتهم تركوه فبدل أنْ يتخذوا كتاب الله هادياً وقائداً لهم

والجواب: إنَّه لا يخفى على ذوي الألباب أنَّ نظام القرآن واحد لا يتبعض فإنَّه ذو وجوه منظومية واحدة، ولذا بعض الفرق الإسلامية التي أخذت ببعض القرآن ظنَّنت أنها مستمسكة ومتمسكة بالقرآن الكريم وهو غير صحيح[١] والصحيح كما هو عليه الواقع والحقيقة هو ما تعتقده الإمامية: ـ بأنَّ التمسُّك بأحد الثقلين الذي هو تعبير قرآني الأصل نبوي الحديث «**إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ وعترتي** ـ كتاب الله حبل ممدود بين السماء والأرض وعترتي أهل بيتي، وأنَّ اللطيف الخبير أخبرني أنَّهما لن يفترقا حتّى يردا عليَّ الحوض فانظروا بماذا تخلفوني فيهما»[٢]. والضمان لعدم الضلال هو التمسُّك بهما معاً لا بأحدهما، وسبب تسميتهما بالثقلين كما قالت به الرواية؛ لأنَّ التمسُّك بهما ثقيل[٣].

ومعنى المعيّة للثقلين ـ الكتاب والعترة ـ هو أنَّ العترة الطاهرة للنبيﷺ هم عين حقيقة القرآن وهذا هو معنى عدم افتراق القرآن عن العترة أي يوم عدم افتراق حقيقة القرآن التكوينية وهو الكتاب المكنون وهو الروح الأعظم عن ذوات الفترة المطهّرة، بلْ هو أحد أرواحهم الذي يسدّدهم[٤].

جعلوه كآلة بأيديهم ووسيلة للوصول إلى أهدافهم الشريرة، كما ذكره صاحب تفسير الأمثل ج٨ ص٧٣ بتصرف.

(١) الرواية عن الإمام الصادقعليه السلام قال أبيعليه السلام «**ما افترق رجل القرآن بعضه ببعض إلّا كفر**» العياشي ج١ ص٩٧.

(٢) إكمال الدين وإتمام النعمة للشيخ الصدوق ج١ باب اتصال الوصية ص٢٢٥ ح٤٤.

(٣) المصدر السابق: ج٤٩ ص٢٢٦.

(٤) الإمامة الإلهية ج٢ للشيخ السند.

وهذا المعنى هو أحد الخرائط التي ترسم لنا العلاقة بين الثقلين، فهي لا تقول بمنطق: ـ حسبنا كتاب الله فقط، ولا حسبنا السنة الشريفة للنبيﷺ وأهل بيته، بلْ لابدَّ منهما معاً نحن مفوضون بالانفراد به، ولا مقطوعون عنه، وإنَّما هما ـ الكتاب والسنة ـ مقترنان اقتران معيّ، وبالتالي لا نستطيع أنْ ننفرد بأحدهما دون الآخر، بلْ لابدَّ منهما معاً.

حديث الثقلين كلام الله في القرآن:

وبمناسبة التعرض لذكر حديث النبيﷺ المعروف بحديث الثقلين ناسب التكلم عن عدَّة أمور:

الأمر الأوَّل: الوحي وأقسامه.

الأمر الثاني: حديث الله في القرآن.

الأمر الثالث: الحديث القدسي.

الأمر الرابع: الحديث النبوي.

أمَّا الأمر الأوَّل/ الوحي لغةً: مصدر من ـ وحى يحي وحياً ـ بمعنى الكتاب والبعث والإلهام والتفهيم بإخفاء وإيماء.

هو الإفهام بالرمز والإشارة الخفيّة، ومن هذا يُعرف أنَّ الوحي في الأصل عبارة عن الإعلام في خفاء، أو الكشف عن أمر مجهول، أو إعلام بسرعة.

وقد يُطلق الوحي ويُراد به اسم المفعول (المُوحَى) وهو ما ينكشف لك بالفعل.

وعليه فالوحي الإلهي: ـ هو الفعل أو الإفهام الذي يكشف به الله

للإنسان عن الحقائق التي تتجاوز نطاق عقله.

وأمّا الوحي في اصطلاح الشريعة هو كلام الله المُنَزَّل على نبي من أنبيائه.

وذكرنا في مبحث الإمامة الإلهية أقسام الوحي تحت عنوان منابع علومهم هي مصادر ومتون الشريعة[1] وأنَّ الوحي على أقسام:ـ

أ) الوحي التشريعي والإنبائي.

ب) الوحي التأبيدي والتسديدي.

ج) الوحي الإلهامي والتوفيقي.

د) الوحي الإيتائي والملذاني والبسط في العلم والإلقائي وغيرها من العناوين الواردة في السور والآيات القرآنية الشارحة لأنواع الوحي.

وقد دلَّت النصوص القرآنية على مختلف أقسام الوحي:ـ

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللّهَ رَمَى﴾[2].

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾[3].

٣ ـ وقدْ أشير إلى الوحي التسديدي وغيره في مواطن عديدة من القرآن كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ

---

(١) المصدر السابق: ص٢٥٧.

(٢) سورة الأنفال: الآية ١٧.

(٣) سورة النجم: من الآية ١ ـ ٥.

الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ﴾[١].

حيث إنَّ الوحي في الآية ليسَ هو الوحي التشريعي الذي هو عبارة عن الأمر والنهي الإنشائي؛ لأنَّ متعلق الوحي جُعل نفس فعل الخيرات أي أنَّها كانت تصدر عنهم بوحي مقارن بصدور الفعل، كما أشار إلى ذلك العلامة السيد الطباطبائي في الميزان، فالآية تشير إلى أنَّ الموصوفين بجعلهم أئمة من قبله تعالى مؤيدون بحقيقة أمرية من عالم الأمر، وهو روح القدس الطاهرة ومسدّدون بقوة ربانية ينبعث منهم بتوسطها فعل الخيرات.

وسيأتي الكلام مفصلاً في قاعدة الوحي مستقلاً مفصلاً بحول منه تعالى وقوة.

الأمر الثاني: حديث الله في القرآن: فإنَّ كلام الله هو الوحي المنزل على نبينا محمد صلى الله عليه وآله بصورة الكلام أو الكلمة سواء التكويني الملكوتي أو الكلام المتموّج في الهواء من الأصوات المتموّجة منه تعالى، والكلام الإلهي على أقسام، يأتي بيانها في قاعدة الوحي.

الأمر الثالث: الحديث القدسي: وهو ما يحكي كلامه تعالى غير متحد بشيء وهو غير القرآن أي الكلام المنزل بألفاظ بعينها في ترتيبها لا لغرض الإعجاز.

وهذا الكلام يُوحى معناه إلى النبي صلى الله عليه وآله فيجري الله على لسانه صلى الله عليه وآله في العبارة عنه ألفاظاً مخصوصة في ترتيب مخصوص، ليسَ للنبي صلى الله عليه وآله أنْ يُبدلها ألفاظاً غيرها أو ترتيباً غيره[٢].

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٣.

(٢) المعجم الشامل.

الأمر الرابع: الحديث النبوي: للحديث في اللغة معنيان:

الأوَّل: الجديد ضد القديم.

الثاني: الخبر والكلام[١] وهو الموافق للمعنى الاصطلاحي والمعنى الأصلي للحديث هو الجديد، وإنَّما أُطلق على الكلام، بلحاظ أنَّه يحدُث ويتجدد.

وأمَّا الحديث في اصطلاح المتشرعة: فقدْ اتفق المسلمون على أنَّه ما روي عن النبيﷺ من قول أو فعل أو تقرير. والمراد من التقرير: ـ ارتضاء النبيﷺ لما يُمارس بحضرته من سلوك فردي أو اجتماعي، وعدم إنكاره له.

وعليه فنسبة الحديث إلى النبيﷺ من باب النسبة أي الأحاديث التي تحدّث بها النبيﷺ.

---

(١) لسان العرب ابن منظور، مادة (حدث).

الهيمنة والفوقية

هناك عِدَّة مستويات لمعنى الهيمنة والفوقية:ـ

المستوى الأوَّل: هيمنة وأمومة بعض آيات القرآن المحكمة والمتشابهة على بعضها الآخر ـ سواء أمومة المحكمات على المتشابهات أم أمومة المحكمات بعضها على بعض أو ... فإنَّه لا يمكن بيانها بالمناهج التفسيرية الأُخرى ـ غير منهج أمومة المحكمات ـ كالمنهج التفسير الموضوعي، ولا التجزيئي الترتبي ولا في أسباب النزول، ولا في تفسير الأثر السطحي ولا تفسير القرآن بالقرآن ولا ... الخ.

وهذهِ الهيمنة لا ضوابط وقواعد، فإذا اكتشفت هذهِ القواعد من خلال نظام الثقلين في تفسير القرآن الكريم سنكون ألمّ بمباني القرآن من المناهج التفسيرية تواجه مشكلة هي أنَّها ليست في صدد استخراج هذهِ القواعد من معارفها والمنهج الوحيد الذي يتكفل استخراجها ويُعرفنا القرآن بمعرفة غير مشتقة هو منهج أمومة المحكمات.

فمثلاً: ما هو الارتباط والعلاقة بين قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[1] وقوله تعالى ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ﴾[2].

فهنا المنهج الوحيد الذي يُبين لنا نوع الارتباط بين هذين الآيتين وغيرهما من موارد أُخرى من القرآن هو منهج أمومة المحكمات وولاية

---

(١) سورة يوسف: الآية ٨٧.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

أهل البيت عليهم السلام الذي يؤكِّد عليه القرآن الكريم، وهو المنهج الوحيد والأجدر الذي يكشف اللحمة والارتباط بين جميع الآيات بعضها مع البعض الآخر.

أيضاً تقدم أنَّ منهج أمومة المحكمات يتميز بنظام وحدة وألفة وتناسق نسيجي على أصعدة ومستويات مختلفة.

فمثلاً عندما يكنْ الإيمان بغنى الله تعالى هو عدم اليأس من الله، فهناك آيات عديدة تدلُّ على أنَّ الله تعالى أمر بالكرم ونهى عن البخل الآية: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾[(١)].

وأنَّ البخل ينشأ من اليأس من معرفة هذا النشوء وهيمنة المُنْشَأ على المَنْشأ وقبض اليد عن العطاء ناشيء من البخل، وهذا معناه هيمنة المُنْشأ على المُنْشأ.

فمثلاً أُشيع بين المفسرين بالآونة الأخيرة أمثال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره الذي يتوخى منهج تفسير القرآن بالقرآن ذكر الله تعالى في ذيل كُلّ آية أو مجموعة آيات مثل: ـ ﴿إِنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَلِيم﴾[(٢)] أو ﴿إِنَّ اللهَ وَاسِعٌ عَلِيم﴾[(٣)] أو ﴿فَإِنَّ اللهِ سَرِيعُ الحِسَاب﴾[(٤)] وغيرها وهنا حاول السيد العلامة الطباطبائي أنْ يوجِد الصلة بينها من بعض الجوانب.

أمَا المنهج الذي اعتمدناه، فإنَّ الأسماء الإلهية التي أشار لها القرآن الكريم لها هيمنة وبيان أمور كثيرة وما هي نوع الصلة بين صدر الآية

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٢٩.

(٢) سورة البقرة: الآية ١٨١.

(٣) سورة البقرة: الآية ١١٥.

(٤) سورة آل عمران: الآية ١٩.

وذيلها، فمثلاً: ـ الآية التي تنهى عن الحسد والغيبة وجميع المعاصي ثم بعد ذلك يَذكر القرآن: ـ إنَّ الله واسع عليم، فما هي الصلة بينهما؟.

الجواب: سعة الله تعالى لها معنى واسع، والذي يتكفل ببيان معنى هذهِ السعة هو منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام فإنَّ الواسع صفة من الصفات الإلهية الدالة على اللا تناهي لرحمة الله تعالى وقدرته والإفاضة منها على المتناهي المحدود ... الخ.

للآية ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[1].

المستوى الثاني: الهيمنة والأمومة على مستوى العلوم الإنسانية إذا أرادوا أنْ يكتشفوا ظاهرة مجتمعية إنسانية، ولا يستطيعون دراستها وتحليلها بدقّة وعمق إلّا بالرجوع إلى الرؤية العقائدية فإنَّهم يشاهدون ويُدركون أنَّ هذهِ الظاهرة الإنسانية أو الأخلاقية منبثقة من رؤية فكرية وعقائدية.

المستوى الثالث: الهيمنة والأمومة من مستوى العلوم الأكاديمية فمثلاً الذي يريد أنْ يَدرس طب بدن الإنسان ـ كطب الأعصاب ـ لا يمكن أنْ يصل إلى العلاج الناجع والناجح إلّا بدراسة أمور عقائدية مرتبطة بالمدارس الأخلاقية؛ وذلك لأنَّ حركة بدن الإنسان وأفعاله ذات صلة بالصفات وعلوم الأخلاق ذات صلة بعلوم العقيدة والملل والنِحل.

وهكذا الارتباط بين كَرَم الله تعالى وبين صفة السخاء عند الشاب العاصي على ما وَرَدَ «**الشاب السخي المقترف للذنوب أحبّ إلى الله من**

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

الشيخ العابد البخيل»[1].

فغن صفتي البخل والسخاء من الصفات العملية، فإنَّ السخاء كفعل وليد من صفة السخاوة، وقبض اليد كفعل وليد صفة البخل، ومرجع هذا إلى أنَّ مَن يحمل صفة البخل يكون أبعد عن الله ممن يحمل صفة السخاء؛ لأنَّ السخاء صفة تنطوي على الإيمان بوجود منبع لا ينضب وفطرته ـ أي فطرة السخي ـ هادية له إلى نفق المعرفة بالحضرة الإلهية فطرياً تلقائياً، كما أنَّ البخيل ـ والعياذ بالله ـ منطوي على جحود خفي وهو جحود بوجود قدرةٍ وكرمٍ لا ينضب.

والسؤال: أيُّهما أفضل معرفياً؟ السخي العاصي أم البخيل العابد؟ فإنَّ البخيل عابدٌ ببدنه ولكنه متمردٌ بقلبه، فمثلاً إبليس كان ساجداً لله ببدنه، وأمَّا قلبه فهو متمرد، فهو يأبى طاعة الله تعالى في الوسيلة التي نصبها الله له، بخلاف السخي فإنَّه متمرد على الله تعالى ببدنه ولكن عابدٌ بقلبه فأيُّهما أفضل؟

الجواب: إن عبادة القلب أعظم من عبادة البدن، فإنَّ عبادة البدن تضرُّ عبادة السطحيين من البشر الذين يُساقون إلى عبادة البدن التي عندهم أعظم خطباً من عبادة القلب، وهذا معنى أنَّ الإيمان أعظم من العمل؛ لأنَّ الإيمان عبادة القلب بخلاف عبادة البدن فإنَّها عملٌ ولا فائدة في طوعانية البدن مع تمرد الروح والقلب والعياذ بالله.

لذا دلَّت الأخبارُ على أنَّه ما نودي بشيء أعظم مما نودي بالولاية، فإنَّ الولاية أعظم من العمل؛ لأنَّ الولاية عبارة عن عمل قلبي وهو أعظم من

---

(١) فقه الرضا لابن بابويه القمي، ص٣٢٦؛ المفيد في الاختصاص، ص٢٥٣؛ ومستدرك الوسائل للمحدث النوري/ ج٧ ص١٥.

العمل البدني، وهكذا الدين هو الحبُّ والبغض، فإنَّه يوالي ويحب بقلبه، فإنَّه يلي الجانب الإلهي بقلبه ويُسلِّم ويعمل كل ذلك بقلبه، ولذا ما ورد في الأخبار من التأكيد عليها ـ الولاية ـ وأنها أعظم من الصلاة؛ لأنَّ الصلاة فيها جنبة خضوع بدني أو جسمي، وهكذا الحج فيه جنبة وفود على الله بالبدن وهكذا السخي فإنَّه يَسْخي بماله.

بينما الولاية هي وفود على الله بالقلب وهو أعظم من الوفود عليه بالبدن وهكذا السخي فإنَّه يسخي بذات نفسه إلى الله تعالى ولا يتوجه إلى أنانية ذاته كما توجه بها إبليس ـ خلقتني من نار وخلقته من طين ـ فإنَّ جبت الإنانية في إبليس لم يتدكدك ولم يصغ إلى الحضرة الإلهية وهكذا جهاد النفس هو تسليم لما قضى به الله ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾[(١)]. فَإنَّه أعظم من جهاد العدو بالبد، وعليه فجهاد النفس جهادٌ جهادٌ حقيقي وهو الصلاة الحقيقية وهو الزكاة الحقيقية وهو ... الخ.

ولذا صار التريكز والإصرار على حذف فقرة «حَيَّ على خير العلم» من الأذان والإقامة للصلاة، وهل الأعمال الخيرية فيها أخير وأفعل تفضيل؟

نعم ألا وهو نور الولاية التي هي خير الأعمال.

المستوى الرابع: إنَّ هيمنة الصفة على الفعل، والذات على الصفة أي نشوء شاكلة الفعل من الصفة، ونشوء شاكلة الصفة من نمط الذات أو العقيدة أو الرؤية باعتبار العقيدة؛ لذلك الصلة بين العقيدة والذات هي أنَّ

---

(١) سورة النساء: الآية ٦٥.

العقيدة تخلِق وتوجد الذات، وبما أنَّ العقيدة موطنها القلب فهي من شؤون القلب والذات والروح، وهذهِ هي الفصل الأخير من ذات الإنسان وذات المخلوق متقومة بالعقيدة باعتبار أنَّ موطنها ـ العقيدة ـ أعالي وجود المخلوق وفصله الأخير وعليه تكون العقيدة جوهراً لا عرضاً، باعتبار أنَّ العقيدة والذات تعبيران متقابلان متلازمات يكشف أحدهما عن الآخر.

من الذي جمع القرآن كما أنزل؟

لمْ يجمع القرآن كما أُنْزِل غير علي بن أبي طالب عليه السلام.

ولا تعني هذهِ الإجابة قطع الصلة بين البشر وبين تنزيل الكتاب العزيز.

وكذلك لا تعني تجميد تنزيل الكتاب، وظاهر الكتاب.

وإنَّما المراد هنا نفي القدرة المطلقة لا نفي مطلق القدرة، ومطلق درجات القدرة، كلا، فإنَّ بعض درجات القدرة موجودة، ولذلك بعض الأفهام السقيمة التي لا تفهم إلّا فهماً سطحياً وتجمد على ظاهر اللفظ والعبارة، وليسَ عندها نظرة تأمل وعمق وغور في الأعماق عندما يسمع هؤلاء: أنَّ القرآن لا يقدر عليه البشر، فيفهم: أنَّ البشر لا يستطيعون ولا يقدرون عليه بقدرة مطلقة، كلا وإنَّما يقدرون عليه ولكنْ بقدرة ما متبعة.

إلفات نظر:

لا يكفي للباحث العلمي أو المُفسِّر للقرآن أنْ يستنتج نتائج كيف ما اتفق، وإنَّما المهم هو أنَّه كيف يؤلِّف بين هذهِ النتائج وكيفية الموازنة بينها وفرز الأهم من المهم والمقدَّم من المؤخر، وما هو مكيال المُقدَّم وهل يُكال به المؤخر أم بمكيال آخر، هذا هو المهم.

وعدم مراعاته كما وقعت به المدارس الإسلامية تنتج نتائج سلبية ويحاسبون ويحاكمون عليها علمياً.

النتائج السلبية المترتبة على عدم التمسُّك بالقرآن

هناك بعض الفِرق التي ضلَّت وانحرفت عن منهج أهل البيت عليهم السلام بادّعاء أنها من فِرق الشيعة، بسبب أنَّها تركت التمسُّك الصحيح بالقرآن الكريم، المترتب عن هذا الترك ترك منهج أهل البيت عليهم السلام والابتعاد عنهم، وكذلك الذين تركوا التمسُّك بأهل البيت عليهم السلام ويدعون أنَّهم متمسكون بالقرآن كلا بلْ هم مبتعدون كل البعد عن القرآن من حيث يشعرون أو لا.

وبعد هذهِ المقدمة يأتي السؤال: ما المقصود من التفرقة بين القرآن وأهل البيت عليهم السلام إذْ هؤلاء الذين فرَّقوا وتمسكوا بأحدهما دون الآخر ظنوا أنَّهم متمسكون بالقرآن وهذا توهمٌ؛ لأنَّ التمسُّك بأحدهما دون الآخر معناه تركهما معاً من حيث لا تشعر، وإنْ كانت النفس تظن ولو صورةً أنَّها متمسكة بأحدهما.

كلا، هما معاً لن يفترقا وإنْ ظننت أنك فرّقت بينهما، إلّا أنَّه بالواقع أنت افترقت وابتعدت عنهما بالتمسك ولو ظناً منك بأحدهما.

وهذا يستلزم نتيجة خطرة جداً ذات عاقبة وخيمة وسيئة وهي التفرقة بين الله ورسوله، وبالتالي هم فارقوا الله ورسوله.

وهكذا فيما لو أرادوا التفرقة بين الرسل فكذلك هم بالواقع فارقوا الرسل، نظير ما فعل أتباع موسى والمسيح عليهما السلام، فاليهود والذي استمسكوا بموسى عليه السلام وتركوا التمسُّك بعيسى عليه السلام بالواقع هم تاركوا كلا النبيين.

وهكذا اتباع نبي الله عيسى بن مريم عليه السلام عندما نُصِروا بتوسط بورص

الذي أغوى النصارى بالواقع لا أنَّهم تمسكوا بالنبي عيسى عليه السلام أكثر وتركوا سيد الرسل محمد صلى الله عليه وآله وإنَّما تركوا الاثنين معاً ويحسبون أنَّهم متمسكون بهما والواقع ليسَ كذلك.

والسبب في ذلك؛ لأنَّ أنبياء الله تعالى سلسلة واحدة لا تنفصل ولا تنفك، نظير الابتعاد عن حلقة سلسلة متصلة هو ابتعاد عن كل الحلقات.

كذلك الإيمان بأئمة أهل البيت عليهم السلام الاثني عشر هو إيمان على نحو الكلي المجموعي فإذا أنكرت إمامة واحدٍ منهم تركتهم كلهم لا أنك ترك أحدهم وتمسكت بالآخر، كما فعلت بعض الفرق التي تدّعي أنَّها من الشيعة كالزيدية والإسماعيلية والفطحية .. الخ. وكذلك صلة أئمة أهل البيت عليهم السلام بنبي الإسلام بحسب الإيمان وستتضح الحقيقة في الآخرة.

ومن خلال هذا كُلَّهُ يتضح أنَّ معية الثقلين لا تتفكك ولا تنفصل بعضها عن بعض بأي حال من الأحوال، وعليه فالمنهاج الذي يضعه أهل البيت عليهم السلام ليسَ معناه قطيعة وتجميد للقرآن وتمسك بأهل البيت عليهم السلام.

ولذا عندما نلتجئ إلى المُعَلِّم الإلهي وهم أهل البيت عليهم السلام لا يعني أننا نترك الكتاب، كلا، وإنَّما ذهبنا إلى مُعَلِّم ذلك الكتاب بغية التمسُّك والوقوف والتركيز والتدبر والتعلم أكثر فأكثر من ذلك الكتاب، لا أننا نأخذ بكلام المُعلم ولا نوازي ولا نركز ولا ندقق فيما يقول في ذلك الكتاب وإنَّما بالعكس، وهذهِ الموازاة تفك لنا الكثير من الإجمالات والإبهامات؛ لأنَّ هذا الكتاب يحتوي على أمر عظيم.

العلاقة بين ولاية الله تعالى وولاية الرسول صلى الله عليه وآله والأئمة وبين منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات من القرآن

لا يخفى على ذوي البصيرة وذوي العقول السليمة أنَّ ولاية أهل البيت عليهم السلام هي ولاية الله تعالى وولاية للرسول ومتفرعة عنهما ـ أعني عن ولاية الله وولاية الرسول ـ وعليه فولاية الرسول صلى الله عليه وآله وعترته بهذهِ المراتب المتسلسلة ليست نِدّاً لولاية الله ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾[1] فطاعة الرسول هي مثال لتجلي ونوع من التمثل لطاعة الله تعالى.

وهكذا طاعة أولي الأمر من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله أيضاً تمثل لطاعة الرسولة صلى الله عليه وآله وولاية الرسول صلى الله عليه وآله التي هو تمثل لطاعة الله، وولاية الله في الأرض أعطائها لخلفائه في الأرض.

ولو فرضنا أنَّه لم نلتزم بهذهِ المراتب المتسلسلة هل تقوم للدين قائمة من دون أنْ نجعل محور الدين هو ولاية الله؟

كلا، لا يمكن، وهل يمكن أنْ تقوم للدين قائمة من دون أنْ نجعل التوحيد هو المحور الأساسي والمركزي؟ كلا لا يمكن.

وهل يمكن أنْ تستقي أبواب الأصول والفروع بشكل غير موصول ولا مرتبط بتوحيد الله تعالى؟ كلا لا يمكن.

وعليه الحلقات الثلاث المتسلسلة والمترابطة ولاية الله ثم ولاية الرسول

---

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

ثم ولاية الأئمة عليهم السلام هي الأصل الذي يرجع إليه، وأنَّ هذهِ الأسلاك النوريةِ التي تربط السماء بالأرضِ لا يستطيع أحدٌ أنْ يبينها إلّا المعصوم ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾[١]. والمعصوم عليه السلام يبين لنا كيفية الانطلاق من النقطة المركزية وهو التوحيد إلى الرسالة (النبوة) ثم الإمامة ثم بقية دوائر وأبواب الدين.

ثم أنَّه هل لفروع الدين قطيعة عن أصول الدين؟ كلا لا يمكن لأنَّ فروع الدين متفرعة ومتولدة ونامية ونموّها من أصول الدين.

هذا مضافاً إلى وجود برهان وحياني أعظم من البرهان الفلسفي وهو الحديث النبوي، قال النبي صلى الله عليه وآله: **«إنَّما العلم ثلاثة: آية محكمة أو فريضة عادلة أو سنة قائمة وما خلاهن فهو فضل»**[٢].

فقدَّم النبي صلى الله عليه وآله الآية المحكمة وأراد بها العقائد والأصول، ثم السنة القائمة وقصد بها علم الأخلاق والنفس والآداب والسنن، ثم الفريضة العادلة أي الفرائض التي فُرضت على البدن.

إذنْ هذهِ الحلقات المتعاقبة هي دوائر تتبع بعضها البعض؛ لأنَّ نسيج الدين قائمٌ على مركزية التوحيد، فإنَّ النبوَّة هي توحيد الله في التشريع، والإمامة هي أيضاً توحيد الله في الطاعة والولاية، والمعاد هو توحيد الله في المنتهى ولقاء الله، والآخرة هي مظهرٌ لتوحيد الله هو الأوَّل وهو الآخر.

كل أصول الدين هي مجرى لتوحيد الله تعالى وهكذا الفروع من الفقه وغيره من المعارف الدينية هي توحيد الله تعالى.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٢.

(٢) الكافي ج١ ص٧٩ ب٢ باب صفة العلم وفضله ح١.

ولكن تمتاز مدرسة أهل البيت عليهم السلام في التوحيد عن غيرها من المدارس الإسلامية الأُخرى، والتوحيد الذي عندها ليسَ عند غيرها من المدارس الأُخرى وهو توحيد الطاعة؛ لأنَّ الله تعالى عنده برنامج نظري وبرنامج تطبيقي للبشر وأنَّ الحاكم هو الله تعالى والحاكم السياسي دائماً هو الله تعالى، هذا على منهاج مدرسة أهل البيت عليهم السلام بينما لا نشاهد هذا في المذاهب الإسلامية للأسف عندهم فقط البرنامج النظري دون التطبيقي وليسَ عندهم توحيد وحاكم سياسي.

وحدة القرآن ليست وحدة سياق الآيات وليست وحدة المعنى والموضوع، وإنَّما وحدة القرآن هي وحدة الدين ووحدة الدين هي وحدة نظام، كما سيأتي مفصلاً في محله ـ إنْ شاء الله تعالى ـ

ولذا ولايتنا وإمامتنا نظاماً للملة وتنسيق للقلوب والأفكار فهي ترتبط وتتناسق فيما بينها وكل هذهِ البيانات تشير إلى منهج أمومة المحكمات.

المقام الثالث

وفيه:

- بحث امتياز منهج أمومة الولاية عن غيره.
- العلاقة بين الظاهر والباطن.
- العلاقة بين الفتق والرتق.
- أهمية البحث المقارن.
- الفوارق بين منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات في القرآن فضلا عن المتشابهات وبين التفاسير الأُخرى. بحث مقارن. .
- القيمومة في التعليم والبيان.
- حجية آيات وسور القرآن حجية معية لا حجية مستقلة.
- المؤاخذات على المناهج الأُخرى.
- العلاقة بين الظهور والتأويل. قاعدة التعريض. وبين منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام.

بحث مقارن بين منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام

على المحكمات في القرآن فضلا عن المتشابهات والمناهج الأخرى

وفيه:

١ . بحث امتياز منهجِ أمومة ولاية أئمة أهل البيت عليهم السلام على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات، عن غيره:

يُعلم مما تقدم يمكن القول: أنَّ أصول التفسير لابدَّ وأنْ يكون الواضع الأوَّل هو الله تعالى ثم النبي صلى الله عليه وآله ثم أئمة أهل البيت عليهم السلام، وليسَ المفسرون والمجتهدون والفقهاء، وإلّا لكان في تفسير هذا القرآن تمزق وتشتت وذلك لأنَّ القرآن له وَحْدَة منظومية لا يمكن كشفها إلّا من قبل المعصومين عليهم السلام.

ثم بعد ذلك إذا حافظنا على الأصول التي هم أسسوها يمكن أنْ تنبثق أصول اجتهادية تفسيرية لا توجب تشتتات وتمزّقات، بلْ توجب وحدة منهاج.

ولابدَّ من تحقيق الحال في العنوان التالي:

أم الكتاب

قبل الخوض في معنى الأمومة والهيمنة للآيات المحكمة المحكمة يمكن طرح هذا التساؤل وهو:

هل أنَّ الآيات المحكمة هي أم الكتاب، أم لا؟

وهل أنَّ أمَّ الأمِ هو أصل الأصل أم أنَّ الأُمَّ هو أصل ولاية أهل البيت؟.

والجواب: أنَّ القرآن الكريم في بداية سورة آل عمران[1] بيَّن أنَّ معنى أمومة وهيمنة ومركزية المحكمات هو يرد المتشابهات إليها، وهذهِ قاعدة معرفية مهمة جداً في ردِّ المتشابه إلى المحكم.

وبيَّن القرآن الكريم أنَّ البشر لو أُعطوا فقط الآيات المحكمات والمتشابهات فإنَّه ليسَ لهم القدرة على ردّ ومآل وسير مرجع المتشابهات إلى المحكمات، وكذا ليسَ باستطاعة المحكمات لوحدها برفع نقاط الشبه والتشابه عن المتشابهات، وإنَّما الذي يمتلك القدرة الكافية لردِّ ذلك فقط هو الله تعالى وهو المعلم الأوَّل والراسخون في العلم هم المهيمنون على هذهِ المحكمات والمتشابهات.

ومن الواضح أنَّ العالم بالشيء محيطٌ به، وبما أنَّ الله تعالى والراسخون في العلم هم فقط الذين يعلمون بالمحكمات ومصداقها الأوَّل وإليه ينتهي ما عداه، بعد الله تعالى هم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته العالمون بذلك.

النتيجة: ـ إنَّ المحكمات أعظم من المتشابهات، وبما أنَّ العالِم والمحيط بالمحكمات أعظم من المتشابهات فننتهي إلى أنَّ أهل البيت عليهم السلام أمومتهم وولايتهم عليهم السلام ـ التي أكَّدِ عليها القرآن في مواضع مختلفة من سوره المباركة منها ما نحن بصدده ﴿إلا اللهُ وَالرَّاسِخونَ فِي العِلمِ﴾ والواو هنا في الآية المباركة للعطف والعطف يقتضي التشريك في الحكم بين المعطوف والمعطوف عليه، وإنْ كان للقوم آراء أُخرى في أنَّ الواو استئنافية أو غير ذلك.

وأمومة النبي صلى الله عليه وآله هي أعظم من أمومة المحكمات على المتشابهات، ولا يكون إحكام المحكم إلّا بعلوم وببيان أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧، {هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ ...}.

أيضاً ذكر القرآن أم الكتاب وأنَّ لها أماً في مورد آخر ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾[١] وهناك شواهد قرآنية كثيرة على ذلك كما سيتضح في بحث المحكم والمتشابه.

أيضاً من مميزات منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام عن غيره، هو أنَّ هذا المنهج يتميز بأنَّ له ظاهر وباطن وأنَّ الظاهر عند الناس والباطن ليسَ عندهم.

وأنَّ الذي عند الله تعالى ليسَ خفياً وإنَّما جلياً وإلّا لمْ تستفد البشرية منه.

نعم، يحتاج إلى مُعَلِّم يعلمهم بذلك ووساطة.

ويعتمد هذا المنهج على عدم تسطيح القرآن، ولا يفهم أنَّ القرآن سطح ليسَ له عمق كما فهمه البعض.

وذكر القرآن مثلاً في سورة آل عمران ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[٢].

ولم يقل القرآن [هن وحدة موضوعيّة أو لغوية أو فلسفية أو عقلية ... الخ] بلْ قال [هن أم الكتاب].

والقرآن المجيد يحذر من جحود حقائق لأنَّ القرآن يفصح بأنَّ للسور والآيات القرآنية تنزيل ولها تأويل، كما أنَّ لها ظاهر له باطن، للآية المباركة ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٣] فالآخرة باطن الدنيا، فإنَّ الآخرة باطن هذا الظاهر.

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣٩.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٣) سورة الروم: ٧.

العلاقة بين الظاهر والباطن

المعلم الثاني: لمنهج تفسير أمومة المحكمات:

ويسمى هذا المعلم بالخفاء والجلاء، أو إجلاء الخفاء، ومعنى تجلية الخفي أي إظهار باطنه بنزعة باطنية، بلْ ينزعة قرآنيّة.

وهذا المبحث يُعدُّ من المباحث المهمة جداً والذي مُلِئتْ كتب الحديث عند الفريقين ببيان رسول الله ﷺ من أنَّ للقرآن ظهو وبطن ولظهره بطن إلى سبعين بطناً.

والتفاسير الأُخرى ـ التي مَرَّ ذكرها ـ الأدبية منها والنحوية والعقلية و ... الخ. لها درجات ومساحات معينة لا لكل الآفاق وإنَّما بسعة قدرة البشر، ومن الجلي أنَّ الحقيقة الإلهية أوسع من الطاقة البشرية وأوسع من القدرات العقلية؛ لذا القدرات والنتاج العقلي البشري هو بقدر الطاقة البشرية، وهي قاصرة عن آفاق وسعة بحور الحقيقة الإلهية.

والنبي ﷺ كما مرَّ، بَيَّن في حديث الثقلين بياناً معرفياً في وصف القرآن وأنه حبل له طرفان طرف عند الله وطرف عند الناس، وهذا إشارة إلى أمومة المحكمات.

مميزات المنهج الثاني. العلاقة بين الظاهر والباطن:

يتميز المعلم الثاني بعدّة مميزات:

أولاً: إنَّ للقرآن ظاهر وهو عند الناس، وله باطن وهو ليسَ عند

الناس، وكيف ما عند الله جلي ظاهر للناس لا خفي باطن.

ثانياً: يعتمد موازنة عدم تسطيح القرآن الكريم، ولا يفهم منه أنَّ القرآن سطح ليسَ له عمقٌ ـ كما فهمه البعض ـ .

ثالثاً: أكَّد القرآن الكريم في مواضع مختلفة على أهمية وجود حقائق قرآنية، وحذّر من جحودها، فمثلاً قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[١] عبَّرت الآية بـ (أم الكتاب) ولم تعبر [هُنَّ وحدة موضوعية أو لغوية أو فلسفية أو عقلية أو ... الخ].

وهذا يدلُّ على أنَّ آيات القرآن لا تنزيلٍ ولا تأويل، كما أنَّ لها ظاهر ولها باطن للآية المباركة: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾[٢].

والقرآن الكريم بعد أنَّ سجل دعامة معرفية أساسية حذَّر البشر من أنَّ يَسجن معرفته بالظاهر من القرآن الكريم فقط، أو بالباطن فقط أو بالتنزيل فقط أو بالتأويل فقط، وإنَّما أكَّد القرآن على أنَّه إذا آمنت بالقرآن الكريم فلابدَّ أنْ يكون إيمانك بالظاهر على حد سواء إيمانك بالباطن، ومثلما تؤمن بالتنزيل كذلك بالتأويل على حدٍّ سواء وهكذا.

وهذا مما أكَّد عليه قرناء وعِدْل القرآن الكريم وهم الأئمة المعصومون عليهم السلام وهو أهمية وجود التأويل.

بينما لو لاحظنا المناهج الأُخرى من المدارس الإسلامية، بلْ حتَّى من

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة الروم: الآية ٧.

مفسري الإمامية نراهم يؤكِّدون كُلّ التأكيد على جانب التنزيل ولم يعتنوا بجانب التأويل، وسِرُّ ذلك واضح باعتبار ـ كما مرَّ ـ أنَّ تنزيل القرآن له طرفان طرف ممدود من السماء بالأرض وهذا الطرف مقدور لعموم الناس، وأمَّا الطرف الآخر الذي هو في السماء وعند الله غير مقدور لهم وهم في عجز عن تناوله إلّا أنَّه غير خفي عنهم بواسطة معلموه ألا وهم النبي والأئمة المعصومون عليهم السلام حتَّى لا يحرموه؛ ولذا ترى العكوف من قبل العلماء والمفسرين و ... على التنزيل.

وهذا مما لا كلام لنا فيه ولا مشكلة، إنَّما المشكلة تكمن فيما لو حَصَر المُفسِّر نظام حقيقة القرآن والنظام القرآني فقط وفقط في التنزيل، وهنا نواجه مشكلة وهي أنَّ القرآن الكريم نفسه بُيِّنَ بلسان عربي مُبين ونورٌ وهُدَى، فكيف يصير فيه غموض وخفاء وبطون.

وعليه فالمشكلة التي تواجهها المناهج التفسيرية الأُخرى غير منهج أمومة المحكمات هي مشكلة العكوف على جانب التنزيل في القرآن الكريم ورسم نظام تفسيري للقرآن محدود بحدود التنزيل.

إلّا أنَّه وللأسف إذا رجعنا إلى قواعد وأصول التفسير عند المفسرين نجدهم غالباً حتَّى عند علماء الإمامية فإنَّهم يُغفلون أو لمْ يُفَعِلوا الطرف الغيبي والطرف التأويلي في القرآن الكريم.

ومن أهم فوارق المعلم الثاني الذي نحن الآن في صدد بيانه هو أنَّ الجانب الغيبي في القرآن أوسع من الجانب التنزيلي بنسبة لا متناهية، كما سيأتي تفصيله في محله إنْ شاء الله تعالى.

العلاقة بين الفتق والرتق

من الفوارق المهمة والفارقة بين منهج تفسير أمومة المحكمات عن المناهج الأُخرى هو أنَّه في تفسير أمومة المحكمات يتمُّ فيه التعرف على عملية الفتق بعد الرتق أو التبين بعد الاندماج أو التفصيل بعد الإحكام.

والفتق في اللغة هو الشق والفتح(١).

والرتق في اللغة: ضد الفتق وهو الإلتئام(٢).

وقد ورد في وصف النبيﷺ أنَّه الفاتق الراتق يعني فاتق الجور وممزقه وراتق الخلل الذي وقع في الدين والكلام استعارة(٣).

وهذهِ القاعدة من القواعد المهمة التي أكَّد عليها القرآن الكريم وأئمة أهل البيتعليهم السلام إلّا أنها وللأسف أصبحت نسياً منسياً في مناهج تفسير المفسرين، وهذا المَعْلَم نخوض به الآن على نحو الإجمال، وسيأتي بسط الكلام فيه وتفصيله كأصل تفسيري مهم إنْ شاء الله تعالى.

سؤال: ما المراد بالبيان أو الفتق أو التفصيل؟ أي التفصيل بعد إجمال.

الجواب: سيأتي في نظام قواعد المعاني ونظام قواعد الحقائق الوجودية للقرآن أنَّ التفصيل والإحكام والفتق والرتق قد تكون على صعيد المعنى وذلك باستخراج معانٍ عديدة من معنى واحد مدمج، فالمعاني المستخرجة

---

(١) مجمع البحرين ج٢ ص٢٢٣ مادة فتق.

(٢) المصدر السابق ص١٦٦ مادة رتق.

(٣) المصدر السابق، ص٢٢٤.

فتق لوحدة إجمالية للمعنى الوحداني بوحدة رتقية وهو ما يعبر عنه بالعقليات بطباعه التحليل والتركيب وهذا في الترادف العقلي والجزئية وتفكيك المعنى الواحد إلى معانٍ عديدة، وقد يكون الاستخراج لا من بطن وذات معنى معين، بلْ استخراج المعاني من الترابط والتأثير الوجودي بين معاني مختلفة. فالتفكيك والتفصيل للمعاني والدمج لها في معنى واحد أحكام التفكيك للمعاني والدمج لها أحكام.

في كل علم من العلوم هناك مراتب وطبقات متسلسلة مترتبة فيه، وسسلسلة مراجع مبتنية أنَّ المرجع الأعلى حاكم على الأسفل كما هو المعروف في قوانين البشر الوضعية، فضلاً عن قانون ونظام القرآن الذي أكَّد عليه قبل أكثر من أربعة عشر قرناً.

مثال: علم القانون فيه مراتب وطبقات.

الطبقة الأولى: التقنين الدستوري، والذي يعبر عنه أحياناً بالفقه الدستوري.

الطبقة الثانية: تقنين الفقه النيابي في المجالات النيابية، والمعبر عنه اليوم بالبرلمان ـ مجلس النواب ـ.

الطبقة الثالثة: التقنين الوزاري الذي تقوم به الوزارات والمجالس الوزارية.

الطبقة الرابعة: التقنين البلدي تقوم به المحافظات والأقضية والبلديات وغيرها.

وسير عمل هذهِ الطبقات أنَّ الطبقة الأعلى تفصيل أُجمِل في الطبقة

الأقل، وهكذا مع تفاصيل أكثر في الطبقة اللاحقة، فمثلاً الطبقة الثانية ـ التقنين النيابي ـ عبارة عن تفصيل للتقنين الدستوري أُجمِلَ في التقنين الوزاري، والتقنين الوزاري عبارة عن تفصيل أكثر بسطاً وشمولية وسبقه من التقنين النيابي، وهكذا التقنين البلدي الذي هو تفصيل أكثر وأكثر من التقنين الوزاري.

وبعد اتضاح هذا نقول: العلاقة بين الطبقة الأولى (التقنين الدستوري) والطبقة الثانية (الفقه النيابي) علاقة أمومة فهذهِ أحد معاني الأمومة التي بيّنها القرآن في سورة آل عمران ﴿هُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ﴾[1].

وكذا أهل البيت عليهم السلام بيّنوها لنا وأكّدوا عليها.

الخلاصة: إنَّ الطبقة العليا تعتبر أمّاً ومرجعاً وأصل يحتكم إليه بالنسبة للطبقة الأقل وهكذا.

وعليه فالمراد بالفتق بعد الرتق هو التفصيل بعد الإجمال وعليه يقوم نظم المجتمع أو دولة المجتمع فإنَّه قائم عدا أساس وجود دستور وأمومة فوقية لما تحتها وأنَّ كل طبقة من طبقات القانون لها معالم معينة والطبقة الأعلى مهيمنة على الطبقة الأدنى وهكذا الأدنى هي أعلى لما دونها ولها الهيمنة، وهكذا، بلْ حتّى ديباجة الدستور ـ أي الطبقة الأولى التي فيها تقنين دستوري ـ فبها هيمنة على فصول وأبواب الدستور كُلّها ـ أي أنَّ ديباجة الدستور هي أم للدستور ـ بأنَّ كل طبقات الدستور وتفريعاته

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

ترجع وتحتكم إلى الأم وهي الديباجة.

أيضاً ديباجة الدستور لها مرجع وأم وهو ما ترفعه الدول من سفارات مثلاً: جمهورية مستقلة ديمقراطية حُرَّة فهذهِ الكلمات الأربعة تحدد أمومة مرجعية ديباجة الدستور.

مثال الثاني: علم الرياضيات ـ تقدم سابقاً ـ أيضاً له أمومة وهيمنة على جملة من العلوم التجريبية كعلم الهندسة الفراغيَّة، والهندسة الميكانيكية الفضائية، والهندسة الفيزيائية، والكيمائية، حساب الجبر، حساب الأجسام، حساب علم الإحصاء، وحساب الاحتمالات، واللوغارتم ... الخ وهذا معناه أنَّ هذهِ العلوم لا يقوم لها أمر وينفرط أمرها ولا يستثمر من دون الرياضيات.

الذي بات اليوم واضحاً ومعترفاً به علمياً وعالمياً ودولياً أنَّ الرياضيات قائداً وسيداً ومرجعاً وأُمّاً للعلوم التجريبية، بلْ حتّى القواعد والمعادلات التسعة في الرياضيات لها أمومة على كل تخصصات علوم الرياضيات.

أمومة علم الرياضيات هي ما تسمى فتق وتفصيل وبيان بعد رتق وإجمال وإحكام. وهكذا باقي العلوم، وليسَ المقصود عدم أهمية أو إجحاف في العلوم الما دون القمة والمرجع كلا، بلْ حتّى فكرة التشجير ترجع إلى فكرة الأمومة.

والمتحصل من كل هذا: ـ تبين أنَّ المنهج الوحيد من بين المناهج التفسيرية للقرآن الذي يُراعي هذهِ الأمومة والهيمنة هو منهج أمومة المحكمات وأمومة أهل البيت عليهم السلام.

مثال ثالث: المعروف لدى كل العلوم أنَّ المسائل النظرية تستولد وتستنتج من المسائل البديهية ـ أي المبادئ التصورية والتصديقية في ذلك المعلم ـ والفكر والعقل الإنساني إنَّما يتنامى ويتسع وتترامى استنتاجاته واستنباطاته انطلاقاً من البديهيات، وعليه فالمعلومات بينها ترابط توالدي في اصطلاح المنطق الأرسطي المعروف وكل تفاصيل العلوم من صغرى وكبرى ومبادي تصورية وتصديقية بات مفروغاً عنها بأنَّها تتوالد تلك الحقائق من نظريات أو فرضيات وهكذا.

وعليه حالة توالد العلوم هو توالد وانطلاق من البديهيات إلى النظريات، وكلما توغلت النتيجة والبحث العلمي في النظريات كلما زاد غموضاً أكثر ويَقِل فيه نور الاطمئنان واليقين والجزم.

إذنْ عملية التوالد هذهِ هي أيضاً عملية أُمومة، فالأم والدائرة المركزية والقطب هي البديهيات التي تنطلق منها دوائر متعددة أوسع فأوسع.

أهمية البحث المقارن

من الواضح أنَّ الفطنة والتدبر في أصول وقواعد ومناهج التفسير تعطي بصيرة ناقِدَة للمُفسِّر ومنهجية رائعة ومضبوطة وعميقة، وتقدم أنَّ المُفَسِّر كلما يستقصي ويتوافر على معلومات ومواد تفسيرية عديدة كلما كانت اليقظة لديه في المنهج التفسيري أكثر ويكون سيره ومنحاه التفسيري أكثر صواباً وسداداً وعمقاً.

ويترتب على هذا الاطلاع على آراء المفسرين ومناهجهم سواءً من مفسري الإمامية ومقارنة بعض المناهج التفسيرية مع البعض الآخر، أو من مفسري العامة مع إجراء المقارنة مع مناهجهم التفسيرية أيضاً.

وهذا ما يعبر عنه بالبحث المقارن.

ما المراد بالبحث المقارن؟

ويرادُ به جمع الآراء المختلفة وتقييمها والموازنة بيها بالتماس أدلتها وترجيح بعضها على بعض، وهو بهذا المعنى أقرب اليما كان يسميه الباحثون من القدامى بعلم الخلاف أو الخلافيات[1].

والبحث المقارن يُركز فيه البحث على عِدَّة أمور منها: ـ

أولاً: التعرف على الهوية العلمية الشخصية للمُفسِّر، والتاريخ العملي له.

ثانياً: معرفة الأسس التي أراد أنْ يبني عليها تفسيره، ويتم ذلك من

---

(١) الفقه المقارن للسيد محمد تقي الحكيم، ص١٥ ـ ١٦.

خلال الاطلاع على مقدمة أو ديباجة التفسير، وأحياناً هذا لوحده غير كافٍ بأنَّ يستحوذ الباحث على معرفة المنهج التفسيري من البداية لاحتمال أنْ يُبين المُفسِّر بعض آراءه من خلال تفسير بعض الآيات في وسط أو آخر التفسير، وهذا أيضاً يختلف بحسب المستوى العلمي والعملي وتطوره من خلال معرفة ذلك.

هذهِ الأمور وغيرها تعطي الباحث المتأمِل والمطالع الكريم صورة واضحة عن اختلاف المنهجية أو تقاربها، وكذا تعطيه نكات كثيرة عن جهة الامتياز الإيجابي وجهات الإخفاق السلبي التي قد تعتور المُفَسِّر.

والخلاصة: إنَّ البحث المقارن لا يمكن الاستغناء عنه؛ لأنَّه يُعطي الباحث إلمامة واسعة بأصول التفسير وبموارد الاختلاف، كما عبَّر عن ذلك أمير المؤمنين عليه السلام: **«عند مقارنة الأقوال يُعلم الخطأ من الصواب»**.

الفوارق بين منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات

وبين التفاسير الأخرى ـ بحث مقارن

إنَّ مِن أتمِّ وأبلغ مناهج وأصول التفسير لتفسير القرآن الكريم هو أمومة المحكمات لتفسير تمام آيات القرآن الكريم، وكذلك أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام لتفسير المحكمات.

إذنْ مثلما المحكمات لها أمومة على المتشابهات، كذلك ولاية أهل البيت عليهم السلام لها أمومة على المتشابهات في تفسير المحكمات.

فلو قارنا بين نظام الثقلين الذي هو بمثابة نظام هِرَمي مخروطي كبير يسمى بنظام القرآن ونظام ولاية أهل البيت عليهم السلام، لمنهج التفسير القرآني هو من أشد وأمتن، بلْ وأصوب من باقي التفاسير الأُخرى كالتفسير الموضوعي والتفسير التجزيئي المعروف والمتبع عند المفسرين، والتفسير الأثري والإشاري أو اللطائفي ... الخ.

وللتعرف على هذا المنهج ـ أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام يستدعي الخوض في أصول التفسير المتعددة الأُخرى والمقارنة بينها كالتالي:

المنهج الأوَّل: أمومة المحكمات والمتشابهات وأمومة أهل البيت عليهم السلام للمحكمات وهو الحق المتبع.

المنهج الثاني: التفسير الموضوعي.

المنهج الثالث: التفسير التجزيئي.

المنهج الرابع: التفسير الأثري الحديثي.

المنهج الخامس: التفسير الاجتهادي.

المنهج السادس: التفسير الإشاري أو ما يعبر عنه بالإشارة.

المنهج السابع: التفسير اللطائفي.

المنهج الثامن: التفسير الأَنْفُسِي بلغت أنفُسية.

المنهج التاسع: التفسير المادي أو الطبيعي بقراءة العلوم الطبيعية التجريبية من فيزياء وكيمياء وفسيولوجي ... الخ.

المنهج العاشر: التفسير بالحروف والعلوم الغريبة.

المنهج الحادي عشر: التفسير العقلي المنطقي الفلسفي الرياضي الأدبي ... الخ.

وستأتي المقارنة خلاف مباحث الكتاب، وبيان خواص كل منهج من هذهِ المناهج التفسيرية إنْ شاء الله تعالى.

أهم مميزات منهج تفسير أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات في القرآن الكريم فضلاً عن المتشابهات:

أولاً: يتميز هذا المنهج المبارك عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى بأَنَّه منهج قواعدي أكثر مما هو تفسير موضوعي أو تفصيلي أو تجزيئي أو تفسير القرآن بالقرآن الذي هو تتبع القرائن القرآنية فقط.

ومنهجنا هذا يُلزِم المُفَسِّر بمراعاة مجموعة قواعدية منظومية كنظام

واحد؛ وذلك بسبب أنَّ القواعد التفسيرية هي أعمدة داخلية وأُسس، ولذا أحد عظائم القرآن أنَّه جَمَعَ القواعد والأركان في مراكز ومحاور رئيسية مُحكمة هي المرجع، وأحد أدوار ومسؤوليات المُفَسِّر أنْ يكتشف من خلال تفسير تلك الأعمدة والأسس في القرآن، ومن الواضح أنَّ أسلوب القرآن الكريم لا يتناول السرد القصصي والتعرض إلى سرد الوقائع والأحداث في حياة الأمم والأنبياء، كلا، وإنَّما يركِّز على ذكر الوقائع والأحداث الرئيسية والمفصلية الهامة في ذلك الزمان من دون التعرض لذكر التفاصيل والجزئيات، فمثلاً في قصة نبي الله يعقوب عليه السلام ذكر الأحداث الهامة فقط ولم يتعرض القرآن إلى ذكر الجزئيات كذكر باقي أولاد يعقوب أخوة يوسف واقتصر على ذكر قصة يوسف عليه السلام والأحداث البارزة فيها ومن الواضح لو تتبعنا الروايات الواردة في التفسير للاحظنا أنَّ الإمام عليه السلام يأتي من سور متعددة ولا يوجد لها وحدة موضوعية، وإنَّما لها وحدة أعظم من الوحدة الموضوعية ألا وهي وحدة القواعد ولما لها من أبعاد عديدة. علماً أنَّ وحدة القواعد على نحوين:

النحو الأوَّل: إنَّ هذهِ القواعد في عرض واحد ويؤثر بعضها على البعض الآخر وإنْ لم يكن لها وحدة موضوعية عندائية.

النحو الثاني: وحدة موضوعية لها تأثير وتأثر طولي طبقاتي.

ولذا أئمة أهل البيت عليهم السلام دائماً يؤكِّدون على المُفَسِّر الالتفات إلى هذهِ الأعمدة والمفاصل الرئيسية؛ لأنَّها هي الأكثر هداية وتأثير على حياة البشر ولا يُفهم من هذا أننا نهمل التفاصيل، وأنَّ القرآن فيه تبيان لكل شيء، كلا فإنَّ هذا لا يتنافى مع تركيز الأضواء على الأعمدة والمفاصل الرئيسية.

ولذا نجد الإمام الصادقعليه السلام ينبهنا على أنَّ المحكمات التي وصفها القرآن بأنَّها أُمّ الكتاب أيضاً هذهِ المحكمات لها أمٌّ لقول الصادقعليه السلام: **«إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكُتُب، عليها يستديرُ محكم القرآن، وبها نوّهت الكتب ويستبين الإيمان»**[١].

ثانياً: يتميز هذا المنهج عن سائر المناهج التفسيرية الأُخرى؛ لأنَّه المنهج الذي يحرص أهل البيتعليهم السلام تعليمه الآخرين، وإنْ كانوا يواكبون الأمة على مناهج تفسيرية متعددة أُخرى، إلّا أنَّ التفسير الأكمل هو الذي اخترنا ـ أمومة ولاية أهل البيت على المحكما في القرآن.

ثالثاً: اختيار منهج أمومة ولاية أهل البيت والمحكمات في القرآن، ليسَ معناه تخطئة باقي المناهج التفسيرية الأُخرى، وإنَّما هي أيضاً حافلة بإيجابيات وبإنجازات منهمة ومُعَذِّرة إلّا أنها ليست هي المنهج المهيمن.

وتكامل منهج أمومة ولاية أهل البيت والمحكمات في القرآن مبتنٍ على تكامل قواعد المناهج التفسيرية الأُخرى، إذْ لو جُعِلت تلك المناهج الأُخرى ـ غير منهج أمومة ولاية أهل البيتعليهم السلام والمحكمات هي المحور والمركز بدل المحكمات لوقعت المحاكمات والمحاسبات إلى ما شاء الله بخلاف العكس؛ لأنَّ مدد منهج تفسير القرآن وأمومة ولاية أهل البيتعليهم السلام والمحكمات وحياني.

رابعاً: منهجنا يستوعب المناهج التفسيرية الأُخرى ويحفظ وجودها وجهودها ومقدراتها ويحتفي بها ويرى ضرورتها ولا يُفندها، إلّا أنَّه يقول

---

(١) تفسير العياشي ج١ ص٧٨ ح٨.

تحتاج إلى مزيد كمال لكي تكون منهج جمع الجمع وهو الأكمل.

وعليه فمنهج أمومة الولاية والمحكمات يُفعِّل بقية المناهج التفسيرية ولكن لا يكتفي بها ولا يقصر عليها وإنَّما يواصل المسيرة إلى قمم وأبعاد وغور الأعماق أكثر فأكثر كل ذلك ينطلق به من مَنصَّة الظاهر إلى عالم الباطن والدلالات الخفية، كما ستضح ذلك كُلَّهُ في مبحث الظاهر والباطن.

خامساً: منهجنا ليسَ بصدد بيان تقييم المناهج الأُخرى، وإنَّما بصدد بيان نِعَم هذا الفهم وكيف هيمنة هذا المنهج على باقي المناهج التفسيرية الأُخرى، بلْ وحتّى المنهج التفسيري الذي رسمه العلامة السيد محمد حسين الطباطبائيﷺ وجعله المهيمن في القرآن، الكريم على بقية مناهج التفسير وهو تفسير القرآن بالقرآن، وسيتضح من خلال البحث أنَّه فعلاً هو تفسير القرآن بالقرآن أم بشيء آخر إنْ شاء الله تعالى، ولا نريد أنْ نقول: إنَّ المنهج الذي اتبعه العلامة الطباطبائيﷺ ليسَ له ثمار وفوائد، ولكن ليسَ هو المنهج الأكمل والمهيمن والأم.

وما عدا منهج أمومة المحكمات ليسَ هو المرجع والمنتهى والمهيمن على باقي المناهج التفسيرية الأُخرى؛ لأنَّ لو جُعل غير منهج أمومة المحكمات هو المرجع ينبغي وضع ضوابط رقابية عليه ولا يَفْلُت زمام الأمور منه، وهذا معناه أنَّه ليسَ هو المنهج المهيمن، وإذا لم يكن مهيمناً معناه أنَّه يوجد فوقه منهج آخر مهيمن ألا وهو منهج تفسير أمومة المحكمات وولاية أهل البيتعليهم السلام.

سادساً: يمتاز هذا المنهج التفسيري بقاعدة النظم والنظام والذي معناه وجود القواعد المنسِقة بين أمور متعددة ـ كما سيتضح الحال خلال

البحث إنْ شاء الله تعالى ـ فهناك تنسيق بين المناهج وإنَّ لكل منهج حدوده فإنَّ تعداها يقع في أخطاء وإخفاق بدلاً من أنْ تكون له ثمار.

منهج أمومة المحكمات وأهل البيت يمتاز بأنَّه منهج يبني ويؤسس قواعد الاتصال والتنسيق بين المناهج، ولا يجعل الأمر فوضى بين مناهج تفاسير القرآن الكريم.

سابعاً: منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام الذي نروم استنباطه وفهمه بحدود قدرتنا القاصرة ـ أنَّ القرآن الكريم يُشير إليه في موارد عديدة وكذا العترة الطاهرة أشارت إلى ذلك، ونستظهر من بيانات الوحي ـ بحدود قدرتنا القاصرة ـ إنَّ هذا المنهج هو المنهج والنظام الوحياني على بقية الأنظمة أي هيمنة القراءة الوحيانية للقرآن على القراءة الفَعّلية والقراءة اللغوية والموضوعية والتجزيئية ... الخ.

وتلك القراءات عدا ـ أمومة المحكمات ـ ليست أُفقها وآفاقها وحيانية، فهي إمَّا عقلية أو قلبية، أو جسمانية أو مادية أو أزلية وهي في حدود الصوت.

ثامناً: يتميز هذا المنهج بالهيمنة أي السيطرة والاحتواء ليسَ على مَن قبله فقط، الهيمنة بلحاظ وحدة الموضوع، وإنَّما المراد من الهيمنة يعني شمولية نظام الهيمنة على نظم أُخرى، وهذا فارق علمي صناعي وجوهري بين الوحدة الموضوعية وبين وحدة النظام، وهي فوارق كثيرة وخطيرة.

فهناك فرق كبير بين المنهج التفسيري للقرآن الكريم الذي يبتني على قراءة الوحدة العقلية في القراءة الفلسفية للتفسير الفلسفي وبين وحدة

النظام أي أمومة المحكمات الذي يتميز بوحدة نظام أكثر شمولية وهيمنة وسِعَة حتّى من قراءة الوحدة العقلية للتفسير الفلسفي أو العقلي أو القلبي أو الروحي أو الأنفسي أو ... الخ.

تاسعاً: قد لا توجد وحدة موضوعية في أمومة المحكمات بين الآية المحكمة والآية المتشابهة، ولكن توجد صلة حقيقية بينهما كصلة المنبع والولادة والمرجعية فإنَّ المتشابه مرجعه ومنبعه المحكمات.

وهناك تساؤل يُطرح: ـ هل عدم وجود الوحدة الموضوعية بين الأشياء يكشف عن عدم حقيقة الصلة بينها، ولابدَّ من حصر الصلاة والارتباط بالوحدة الموضوعية؟.

الجواب: كلا، حَصْر الصِّلاة والارتباطات بالوحدة الموضوعية لا يكشف عن الحقيقة وذلك ببيان: ـ

لو لاحظنا التفسير الموضوعي مهما بلغ شأوه وتحليقه لا يصل إلى كشف كل أطراف الحقيقة، فقط هو محبوس ومتقوقع بها إذا كانت هناك وحدة موضوعية فقط، وهو أشبه ما يكون بالترادف اللغوي، بينما الترادف العقلي لا يتسع أُفق التفسير الموضوعي له، فإنَّ الترادف العقلي أكثر سِعة من الترادف الموضوعي.

نذكر الفوارق باختصار بينها: ـ

الترادف لغة: التتابع[١].

اصطلاحاً: هو اشتراك لفظين متغايرين في معنى واحد.

---

(١) مجمع البحرين، مادة «رَدَفَ».

المترادِف: ما يكون فيه المعنى قد وُضِع له أكثر من لفظ لغرض الدلالة عليه، مثل: ـ الحيوان المفترس، فإنَّ له مجموعة من الألفاظ قد وضعت للدلالة عليه، مثل لفظ: الأسد، والليث والهزبر[(١)].

فائدة الترادف: ـ أنَّ يثبت غناء اللغة وسِعَة إمكانيتها، ونظراً لوقوع الترادف وكثرته في اللغات، نستطيع بواسطته ترجيح غناء لغة على أُخرى. وهذا هو الترادف اللغوي.

الترادف العقلي: هو التنسيق والتأليف بين الأشياء المختلفة والتي تتفق في جنس من الأجناس المؤلفة لذواتها كلها من جنس واحد.

إلّا أنَّ الوحدة العقلية بين الأشياء لا تُغطّي تمام ذوات هذهِ الأشياء وإنَّما بعضها.

الترادف الموضوعي: أي التلازم في عين الوجود الخارجية، نظير تلازم المعلول والعلة فأنهما لا ينفكان.

الترادف التكويني الوجودي: وهو الذي لا ينحصر بالمتماثلين والمتشابهين والذي تكون فيه الصِّلاة أوسع من الترادف العقلي والفلسفي، كالصِّلاة الموجودة في نظام العلل والمعلولات.

وهكذا ربما الحال بين العلة والمعلول، بين الخالق والمخلوق فإنَّه لا توجد وحدة جنس بين الباري تعالى وبين مخلوقاته، فإنَّ ذاته تعالى أجل من أنْ تتركب من أشياء، أو تفتقر ذاته إلى أجزاء فليس يجمعه مع مخلوقاته وحدة مادة ليسَ كمثله شيء وهو السميع البصير.

---

(١) المعجم الشامل، ج١ ص٣٤٢ الترادف.

الله تعالى لا يتجانس مع خلقه بشيء ـ داخل في الأشياء بلا ممازجة خار عنها ... الخ.

وعليه فما هي العلاقة بين الخالق والمخلوق هل توجد علاقة أم لا؟

توجد علاقة بينهما، بلْ من أقوى العلاقات والارتباطات واستقاءها منه تعالى، وهذهِ العلاقة لا تندرج تحت أفق أوسع وأرحم من غير امومة مَنْ هو الأوَّل والآخر وإليه منتهى الخلق وهو الله تعالى.

الخلاصة من كل هذا: إنَّ أمومة ولاية المحكمات للمتشابهات وأمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام للمحكمات أمومة هيمنة وقدرة وسلطنة أوسعُ من الترادف اللغوي والوحدة العقلية والتفسير الموضوعي ... الخ.

فكل ماعدا ولاية المحكمات لها مساحة معينة ومحدودة.

والترادف التكويني هو الأقرب لأمومة المحكمات.

عاشراً: يؤكِّد القرآن الكريم من خلال منهج أمومة المحكمات على أنَّ للقرآن طرفان طرف تنزيل، وطرف تأويل، بينما المناهج التفسيرية الأُخرى من المدارس الإسلامية فضلاً حتّى عن بعض المناهج التفسيرية عند علماء الإمامية، تَصُب اهتمامها على الطرف النازل من القرآن الذي هو عند عامة الناس وهو التنزيل دون التأويل.

بينما الصحيح في منهج أمومة المحكمات التأكيد على كلا الطرفين التنزيل والتأويل.

أحد عشر: امتياز منهج أمومة المحكمات على غيره، فإنَّه يتمُّ التعرف فيه على عملية الفتق بعد الرتق، أو التبين بعد الاندماج، أو التفصيل بعد

الإحكام.

اثنى عشر: هذا المنهج يُفَعِّل الطبقات الظاهِرَة والغريبة منه في كل طبقات القرآن الطرف الذي عند الله، والطرف الذي عند الناس.

ثلاثة عشر: يمتاز هذا المنهج بأنَّه ليسَ فيه تعطيل وتجميد لحجية القرآن، وإنَّما فيه إعمار وإحياء له، عكس ما عند المناهج الأُخرى.

أربعة عشر: يركِّز هذا المنج على كلا الحجتين الظاهرة والباطنة، والمراد من حجية الظاهر حجية مَعية بين الكتاب والسنة.

خمسة عشر: يتميز منهج أمومة المحكمات بأنَّه يُبحث فيه ثلاثة أنظمة:

١ ـ النظام الاستعمالي اللفظي للقرآن الكريم.

٢ ـ النظام المعنوي والمعاني للقرآن الكريم.

٣ ـ نظام حقائق القرآن.

وفي كل واحد من هذهِ الأقسام الثلاثة يُبحث فيه أيضاً ثلاثة مباحث:

١ ـ نظام الأفعال ـ الأفعال الإلهية ـ.

٢ ـ نظام الصفات الإلهية.

٣ ـ نظام الأسماء.

بينما المناهج الأُخرى يبحث فيها نظام واحد.

ستة عشر: يتميز منهج أمومة المحكمات في القرآن وقطبية أهل البيت في القرآن: ـ بالتركيز على نظام الحقائق في تفسير القرآن، أي الجانب الغيبي الذي لم تركز عليه المناهج التفسيرية الأُخرى.

سبعة عشر: يرعى منهج أمومة المحكمات ويصب اهتمامه على نظام الصفات والأسماء فضلاً عن نظام الأفعال الإلهية، بخلاف المناهج التفسيرية الأُخرى، لم تَرْعَ كثيراً لهذه البحوث، وإنَّما ركَّزت وأكَّدت على نظام الأفعال، بدعوى أنَّ البحث الصفاتي أيضاً مطلب بعيد المنال، كما أنَّ البحث في الأسماء كذلك بعيد المنال، علماً أنَّ نظام الأفعال الذي ركَّزت عليه منهاهجهم ـ غير أمومة المحكمات ـ لا يُفهم إلّا بنظام الصفات، كما أنَّ نظام الصفات لا يُفهم إلّا بنظام الأسماء لتوحيد الذات، كما سيتضح في محله إنْ شاء الله تعالى.

ثمانية عشر: يمتاز هذا المنهج عن باقي المناهج التفسيرية، أنَّه بصدد استخراج القواعد والجزئيات من معارفها، ويتكفل ببيان هذهِ القواعِد والنكات المعرفية ببيان غير مشتت.

تسعة عشر: كل منهج من مناهج التفسير له إيجابياته ودوره وإيفاداته ولكن له نواقصه وإخفاقاته وقصوراته، فمنهاج أمومة المحكمات يؤمن تلافي وتفادي القصورات التي تُشاهد في المناهج التفسيرية الأُخرى لتُدارك الإخفاقات في تلك المناهج التفسيرية الأُخرى، كل ذلك يتمُّ عبر منهج تفسير أمومة المحكمات.

عشرون: من المعلوم أنَّ القرآن الكريم ذو طبقات متعددة وهذا يستلزم تعدد الخطاب القرآني وتعدد الخطاب هذا لا يعني تجميد القرآن في البيانات العلمية لأهل البيت عليهم السلام، والإتيان بالحروف المقطعة في بدايات السور مثل [يس، حم، الم، الر، ق، ن، كهيعص ...] فإنَّه لا يُفرق معناها ومَن المخاطب بها وهذا يدلل على أنَّ القرآن ذو طبقات مختلفة وليسَ على

نسق واحد، وهذهِ المعاني ليست واضحة لعموم الناس، وإنَّما القرآن بكلِ طبقاته هو بيان لبعض ولِثُلّة مِن البشرِ وهم النبيﷺ وعترته الطاهرة ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[1]. ومن هذا نعرف الترابط بين ولاية أهل البيت وولاية الله ورسوله وإلقاء كُلّاً منهما بظلاله وتُكلل بوارث ظلها على قواعد وأصول تفسير القرآن وهذا يدلل على محورية وقطبية ومركزية منهج أمومة ولاية أهل البيتعليهم السلام للمحكمات والذي يؤكِّد عليه الإمام الصادقعليه السلام **«إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب عليها يستدير محكم القرآن وبها نَوَّهت ـ يوهب (ن) ـ الكتب ويستبين الإيمان»**[2].

فالتوراة لا تفهم من دون مركزية أهل البيتعليهم السلام، وعليه فالتوراة كمنظومة للشريعة وتنظم حياة المجتمع المتشرع لا يمكن أنْ تُفْهم تلك الشريعة والمنظومة في التوراة إلّا من خلال القرآن، وبما هو موجود في تراث النبيﷺ وأهل بيته.

وهذا هو معنى الأمومة للمحكمات وولاية أهل البيتعليهم السلام للمحكمات في القرآن ولجميع الكتب السماوية كما تقدم في الرواية عن الصادقعليه السلام.

وعليه إذا أراد أهل التوراة من الأحبار وعلماء اليهود أنْ يفهموا التوراة على ما هي عليه بالنسق المنظومي فيجب أنْ يفهموا ولاية أهل البيتعليهم السلام وأنَّ هندسة التوراة قائمة على نظام مركزي والنقطة المركزية فيه هي ولاية محمد وآل محمد ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

(٢) تفسر العياشي، ج١ ص٧٨ ح٨.

واحد وعشرون: يتميز منهج أمومة ولاية أئمة أهل البيتعليهم السلام عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى، بأنَّه لا يقف الأمر في تفسير القرآن عند حدٍّ معين بخلاف غيره من المناهج التفسيرية فإنَّها تقف عند حدٍّ معين في تفسير القرآن.

ولذا يذكر أحد العلماء في الحوزة العلمية في النجف الأشرف أنَّه حضر درس تفسير لأحد العلماء، وأنَّه ذكر لآية واحدة خمسةً وعشرين أو ثلاثين وجهاً وكلّ هذهِ الوجوه منطبقة مع موازين اللغة وقواعد البيان لتفسير الآية المباركة وتَحمُّل الكلام الواحد لمعاني كثيرة وعديدة متباينة ومتخالفة بموازين واحدة يُدلِّل على غَنَاء تلك اللغة وعلى عمق وتحليل المُفسِّر والغور في الأعماق، واستخراج تلك المعاني المتطابقة مع قواعد وموازين اللغة المنضبطة بنجاح.

هذا ما نريد التأكيد عليه في اختيار منهج تفسر أمومة المحكمات.

ما دامت تستبق قواعد العلوم اللغوية والموازين في الاستظهار بلغ ما بلغ من استكثار وتعداد المعاني كلُّها حجة.

اثنان وعشرون: يُركِّز ويؤكِّد منهجنا على أنَّ نظام اللغة والبيان نظامٌ عظيم ولا يمكن أبداً أنْ نحبس علم اللغة في مقولة محدودة كما اشتهر في لسانهم أنَّ اللغة والبيان تدور مدار العرف، فإنَّ هذا يرفضه منهجنا التفسيري المختار، والذي يؤكِّد عليه أهل البيتعليهم السلام وهو منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيتعليهم السلام الذي يرى إنَّ علم اللغة علمٌ منفتح وليسَ محبوس بحسب ادراكات العرف المحدودة.

ثلاث وعشرون: منهجنا التفسيري ـ أمومة المحكمات وأمومة ولاية

أهل البيت عليهم السلام يتعاطى مع بيانات القرآن الكريم ليسَ بحجة تعبدية وإنّما يتعاطى مع بيانات القرآن الكريم وبيانات أهل البيت عليهم السلام كبيانات علميّة لا أنّها حجة ظنية.

أربع والعشرون: التأويل ومبحث الدلالات الخفية على منهجنا التأويل له أقسام وأنواع مختلفة تختلف بحسب الأنظمة الثلاثة:

١ ـ نظام الاستعمال اللفظي.

٢ ـ نظام المعاني.

٣ ـ نظام الحقائق.

وأمَّا ما يُترائى من المنهج التفسيري الذي سلكه العلامة الطباطبائي في الميزان في تفسير القرآن حصر منى التأويل في النظام الثالث إلّا الحقائق وأمَّا التأويل من سنخ الحقائق وأنَّ عاقبة حقائق الأمور هو في الحقيقة نمطٌ من التأويل في نظر السيد العلامة الطباطبائي صاحب تفسير الميزان قدس سره.

خمس وعشرون: المناهج التفسيرية الأُخرى لا ترى نظام الحقائق له صلة بالقرآن وإنَّما هي بحوث كشف عنها القرآن وإنّما هي كعقائد نبّة عليها القرآن وليست جزء من متن القرآن، وهذا بالتالي يؤثر كثيراً على منهجية المفسر في تفسير القرآن ويكون للمفسر نظامان فقط؛ نظام الاستعمال اللفظي، ونظام المعاني، بخلاف منهج أمومة المحكمات فإنَّ في منهجها لتفسير الأنظمة الثلاثة: ـ

١ ـ نظام الاستعمال اللفظي. ٢ ـ نظام المعاني. ٣ ـ نظام الحقائق. وأنَّ نظام الحقائق له تأثيره الكبير والعميق على منهجية تفسير المفسر للقرآن،

فإنَّ المعنى إذا كان يحمل رؤية واضحة عن نظام الحقائق يختلف عن المعنى الذي لا يحمل هذهِ الرؤية المهمة والعميقة فإنَّه يؤثر عليه حتَّى في كيفية أداؤه وبيانه لتفسير آيات القرآن الكريم ويختلف عنه تماماً. فمثلاً المُفَسِّر الذي لا يعرف مدى ارتباط شجرة ليلة القدر بنظام القرآن ككل أحد المباحث التي ستأتي في نظام حقائق القرآن لا يمكنه أنْ يُفسِّر جملة من الآيات والسور لماذا؟.

لأَنَّه لا يمكنه أنْ يُفُسِّر بشكل دقيق إلّا مع معرفة نظام الحقائق، وإنْ كان المفسرون الأوائل من المسلمين يقتصرون على نظام الاستعمال اللفظي فقط من دون إقحام نظام المعاني في التفسير إلّا أنَّ هذا النمط من التفسير يعتبر ابتدائياً.

ست وعشرون: من الامور التي تُمَيِّز منهج امومة المحكمات التركيز على الأنظمة الثلاثة كما بينا والنظام الاستعمالي اللفظي فيها التركيز على عدَّة قواعد منها التعريض ومنها الالتفات، ومعنى قاعدة الالتفات هو تعدد الخطاب القرآني، والروائي في مقطع أو آية واحد قدْ يتبدل المخاطب أو المتكلم أو كلاهما معاً أو غير ذلك، وفي قاعدة الالتفات يركز على المعلومات الخطيرة والمهمة التي يترتب عليها الأثر والنتيجة وهو ما يعبر عنه باللب اللباب، وهذا يتماشى مع ثورة إنجاز المعلومات المعاصرة فإنَّها تركز على المعلومات الخطيرة والدقيقة التي لها الأثر البالغ ولها المحورية المركزية في باقي العلوم الأُخرى، وهذا مرتبط كذلك بمنهج أمومة المحكمات مما يعني وجود معلومات مركزية عليها تدور سائر المعلومات الأُخرى وهي عمدتها، فإنَّها لا تكترث بنقل كُلّ ما هَبَّ ودَبَّ، وهذا ما

يسمى بمصطلح العلوم الحديثة بعلم (نظم المعلومات) وهو علم يلازم كُلّ العلوم التي يراد بها أنْ تنتهي إلى نتائج صحيحة ومثمرة وعليها يرتب الأثر لابدَّ أنْ يكون فيها نظم معلوماتي وفق قواعد وموازين وحسابات خاصة ومرتبة لا مبعثرة.

سبع وعشرون: منهج أمومة المحكمات يُحذر المسلمين من اتباع المتشابهات ذروا المتشابهات وإياكم من الانخراط فيها وابعدوا المحكمات وحوموا حولها؛ لأنَّ اتباع المتشابهات فيها فتنة عقائدية وسياسية وفكرية لذا حَذَّر القرآن والنبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من اتباع المتشابه، وبالتالي فإنَّ في منظومة الدين لا يُقام لها وهج وهُدَى إلّا بمحورية المحكمات وإلّا سوف تلتبس علينا اللوابس سواء في القرآن أو السنة، وأنَّ معنى الأمومة هو لا تساوي ولا توازن أبداً بين المحكم والمتشابه.

عليك أنَّ لا تجعل من المتشابه محور تضِل به نفسك والآخرين، اجعل من المحكمات محوراً تهتدي به والآخرين.

ثمان وعشرون: أحد المعاني التي تميز منهج أمومة المحكمات وولاية المحكمات وأهل البيت عليهم السلام هو أنَّ معنى الأمومة يعني يجب أنْ تنظر إلى الأمور كمنظومة مجموعية يعني مجموع العاقبة من الصدر والذيل لا تنظر إليها مبعثرة الشتات أي لابدَّ أنْ تكون هناك نقطة مركزية في المعرفة الدينية في معرفة تفسير القرآن الكريم وتلك النقطة المركزية وهي المحكمات ومحكم المحكمات هي ولاية أهل البيت عليهم السلام [أطيعوا الله وأطيعوا الرسول][1] يعني الولاية ثم المحكمات في سائر بنود القرآن الكريم والدين هو النقطة المركزية

(١) سورة النساء: الآية ٥٩.

لمحكمات القرآن وبالتال يتنتظم صحة حقائق التفسير حتَّى في قضاء الله وقدره وبالتالي تنتظم المعرفة ... فانظر إلى ما قالته العقيلة زينب عليها السلام ليزيد الفجور: ـ **«أحسبت يا يزيد أنْ أخذت علينا أقطار الأرض واستوسق لك ملكنا و... أنَّ بك على الله كرامة وبنا على الله هواناً ما ملكك إلّا بدد وما جمعك إلّا عدد ...»** فلاحظ عاقبة الأمور ولا تلاحظ صورة القضاء والقدر وانظر إلى باب المراد الجدي أين يكمن؟.

فإنَّ رضا الله وسخطه لا يكمن في صورة القضاء والقدر إنَّما يكمن في عاقبة الأمور لذا يقول الإمام الحسين عليه السلام سيد الشهداء في دعائه نفس الأمر ما مضمونه: [إلهي إنْ أعطيتني لمْ يضرني شيء هو ركتبه وأعني وإنْ أعنتني لمْ يضرني شيء ...][1].

الضابط في العاقبة ما قالته الآية المباركة ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[2].

تسع وعشرون: لا يكفي في منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام صحة ميزان الظهور كموازين في علوم اللغة فقط ـ وإنْ كان هذا لابدَّ منه ـ ولا يكفي انسجام الآية في فقراتها المتعددة فقط أو السور الواحدة في آياتها بلْ ينبغي أنَّ لا يخالف النقطة المركزية التي هي أكبر من المحكمات وهي ولاية الله وولاية الرسول وولاية أهل البيت عليهم السلام.

واحد وثلاثون: يتميز منهجنا المختار عن باقي المناهج التفسيرية اللغوية والأدبية والنحوية للقرآن الكريم، بأنَّ تلك المناهج تأخذ تفسير الآية بلون أدبي فقط أي أحادي البُعد، وينقل به المُفَسِّر بلا قيد أو ضابطة

---

(١) دعاء الإمام الحسين يوم عرفة الرابعة ... .

(٢) سورة آل عمران: ١٨٥.

إلّا الضابطة الأولى والأخيرة هو أنّه من قواعد الادب اللغوي مثلاً أو النحوي أو البلاغي أو ... الخ .

أمّا في منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام والمحكمات فليس الأمر كذلك فليس البُعد أحادياً يجب أنْ يصبح الاستعمال وفق موازين قواعد علوم اللغة مع الانسجام مع معنى الآية المباركة.

اثنان وثلاثون: من الأمور التي يتميز بها منهج أمومة المحكمات وأمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى هو أنَّ منهج الأمومة من مواليد مدرسة أهل البيت عليهم السلام ومن مدرسة الوحي، وإنْ كان قد اعتمدته بعض الفرق الإسلامية كالصوفية والعرفانية وما شابه ذلك، أمّا أنّه مَدَى تطبيقهم لهذا المنهج هل طُبِّق بالصورة الصحيحة أو لا؟ فذاك بحث آخر.

والذي يهمنا أنَّ أصل فكرة هذا المنهج المختار وهو منهج الأمومة من مواليد مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

ثلاث وثلاثون: يتميز منهج أمومة المحكمات بأنّه المنهج الذي أكّدت عليه روايات أهل البيت عليهم السلام وتأكيد القرآن على اتباع المحكمات والنهي عن اتباعِ المتشابهات؛ لأنَّ اتباع المتشابه يؤدي إلى التشتت والانحراف، والتمسك والإيمان ببعض دون بعض ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1]. فإنَّ الإيمان بالبعض المفعل عن الإيمانَ بالبَقية هذا ضلال وليسَ هداية.

ولذا نلاحظ التفاسير الأُخرى الخاطئة والمنحرفة، بلْ حتّى المذاهب

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٥.

الاعتقادية الخاطئة التي نشأت في فرق المسلمين سببها عدم مراعاة منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيتعليهم السلام.

أمّا المناهج التفسيرية الأُخرى من التفسير الموضوعي الذي أقصى ما يلاحظه ويرعاه هو تكرر هذا العنوان كموضوعة واحدة في سائر الآيات والسور، أو التفسير التجزيئي، والأمر أعظم إذْ يَقْتَصِر المفسر فيه على ملاحظة المقطع الذي هو فيه، وهكذا صاحب تفسير أساب النزول يلاحظ سبب النزول فقط، وهكذا صاحب التفسير الأدبي فإنَّه يلحظ الأمور الأدبية التي تخصه دون ملاحظة غيرها، وهكذا صاحب التفسير النحوي أو الصرفي أو بالبلاغي أو تفسير القرآن بالقرآن، بلْ حتَّى التفسير العقلي والعرفاني والأشاري ... الخ.

فإنَّ هذهِ المناهج التفسيرية وغيرها الكثير ـ إنَّما ذكرت هذهِ على نحو المثال لا الحصر ـ للأسف لمْ تُقِم وزناً ولم تلحظ خطورة الآيات المحكمة وأهميتها، ولم يُرْعَ التناسب العملي في الرتبة والتسلسل.

والشيء المهم الذي تتميز به منهجة أمومة المحكمات أنَّها ذات وحدة مركزية لها الهيمنة المركزية هي أعظم من يتذرع به بعض الباحثين من أنَّ عدم التمسُّك أو الاهتمام ببحث المحكمات على اعتبار أنَّها لا تتميز بوحدة الموضوع، وهذا ليسَ بالمهم بقدر أهمية الوحدة المركزية المهيمنة على ما هو دونها في الرتبة.

أربعة وثلاثون: يتميز منهج أمومة المحكمات أنَّ الآثار المترتبة على مباحثه وأنظمته خاصة في مبحث الاستعمال اللفظي ـ في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى ـ هو حجية كُلّ الدلالات ـ من الدلالة التصورية والدلالة الاستعمالية والتفهيمية والجدية ـ.

وأساس البحث في هذهِ القاعدة الشريفة وهي قاعدة استعمال الدال اللفظي في أكثر من معنى قائمة على عدم امتناع إرادة المتعدد في عرض واحد بدءاً من المعنى أو المدلول المحوري إلى الاستعمالي إلى التفهيمي في لسان واحد، والبناء على هذهِ القاعدة ليسَ يحدث فجوة بين المسار الموجود عليه المفسرين وهذا المنهج التفسيري لأمومة المحكمات فحسب، بلْ يوجد فجوة بين البناء والمسار والمنهج الذي عليه كافة العلوم الإسلامية الذين يبنون فيه على لغة وحدانية المعنى وأحدية المراد في لسان واحد بينما تجد على العكس تماماً في منهج أمومة المحكمات من أنَّ الباب مفتوح على مصراعيه ولكنْ بشرائط وهو أنْ يكون احتمال تعدد المعنى للدالة اللفظية الواحدة هو حسب ضوابط وقواعد منضبطة في كُلّ علم.

وأمَّا باقي المناهج الأُخرى جميعها عدا بعض المناهج التفسيرية كالتفسير التأويلي أو التفسير الإشاري أو التفسير اللطائفي أو ... الخ فإنَّها لا ترى حجية كُلّ الدلالات التصورية والاستعماليّة والتفهيميّة والجدّية، وإنَّما ترى حُجيّة بعضها كالدلالة الجديّة والتفهيمية فالمناهج التفسيرية الأُخرى غير منهج أمومة المحكمات دائماً تفترض أنَّ الظهور على صعيد التصوُّر وحداني على صعيد الاستعمال والتفهيمي والجدي، والمراد من الوحداني هو واحد على صعيد الاستعمال من بين المعاني الاستعماليّة المتعددة وعلى صعيد التفهيم أي يريد معنى واحد من بين المعاني التفهيميّة المتعددة، وهكذا المعنى الجدي يُراد منه معنى جدي واحد.

وإنْ كان في بعض الحالات قدْ يبنون على تعدد المراد الاستعمالي عن المراد التفهيمي وتعدد التفهيمي عن الجدي، مع الالتفات إلى أنَّ هناك طبقات من المعاني بحسب الظهور الاستعمالي اللغوي بأنَّ يوجد مراد

استعمالي وتفهيمي وجدي قدْ يُطابق وقدْ لا يُطابق.

وهم بهذا المقدار يقبلوه ولا نريد أنْ نقول باقي المذاهب التفسيرية الأُخرى غير منهج أمومة الولاية على المحكمات لا دور لها ومنشطبة بالمرّة كلا، فهناك مناهج عديدة يُشْهد لها بالصحة كالتفسير الأدبي والموضوعي والإشاري و ... الخ فلها دورٌ معين ولكنْ ليسَ لها دور الهيمنة وإنْ كانت تختلف تمام الاختلاف مع منهج أمومة المحكمات.

ومن الجدير ذكره: ـ أنَّ الدور المهيمن في أمومة ولاية أهل البيت وأمومة المحكمات هو دورٌ مرسومٌ لهذا المنهج في تفسير القرآن ولا ندعي أنَّ هذا هو المنهج النهائي الذي نستطيع أنْ نستكشفه من الآيات والروايات، ربما والله العالم بحقائق الأمور ـ يأتي جيل في المستقبل ويستكشف منهج مهيمن أكبر وأعظم من هذا المنهاج، وإلّا فعلم أهل البيت عليهم السلام وتراث أهل البيت عليهم السلام محيطٌ لا ينفد، ﴿قل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾[1]. ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾[2].

نستطيع أنْ نقول أنَّ منهج أمومة الولاية والمحكمات في تفسير القرآن هو المهيمن، بلْ مهيمن حتَّى على تفسير المقدار الباقي من الإنجيل غير المحرف، وكذا التوراة ونتسطيع الهداية لأتباع التوراة والإنجيل العهد القديم، أو بعبارة أُخرى ببركة منهاج أهل البيت الشريف نستطيع إحياء المقدار السليم والسديد من الإنجيل ونبذ زيفهم.

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٢) سورة لقمان: الآية ٢٧.

وهكذا نستطيع إحياء التوراة وننقذ المقدار الباقي منها الصحيح والسليم عن التحريف والتلاعب الصهيوني والماسوني أو التحريفات الأُخرى الجديدة، فإنَّ كثيراً من أتباع الهيود تراهم مستضعفين اليوم حتَّى كبير رجال الحاخامات اليهود ولهم مشكلة مع الحركة الصهيونية.

ومن الواضح أنَّ الحركة الصهيونية تُعدّ تحريفٌ جديد في اليهودية فضلاً عن التحريفات السابقة من تلاعب في نصوص التوراة وتلاعب في نصوص الإنجيل، إلّا أنَّ منهج أمومة المحكمات هذا المنهج العظِيم الذي نحن بِصدده يستطيع الحماية من الانحراف لكتاب الله العزيز ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. فإنَّه بحسب بيانات أهل البيت عليهم السلام إنَّ هَذا المنهج يمَتاز بإعطاء الأمان والحفاظ على القرآن بلْ وكتب السماء أجمع.

الخلاصة: إذا أردنا أنْ نُطلِق مناشدة لإحياء البقية الباقية من التوراة والإنجيل، وإنقاذ البقية الباقية من صحف الأنبياء السابقين والمطبوعة مع العهد القديم والكتب التي نزلت من السماء، علينا الاعتماد على منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام، بلْ ربما نأنس حتَّى في التراث النبوي الموجود عند المدارس الإسلامية الأُخرى نستطيع أنْ ننقذه عن التلاعب والطمس وعن الحذف؛ لأنَّ عملية التلاعب في تراث السماء تحدث جيلاً بعد جيل، والحافظ لها والمنقذ لها بتوصية القرآن وأهل البيت عليهم السلام الأكيدة هو هذا المنهج أي منهج أمومة الولاية والمحكمات.

وهناك قاعدة ما فتئ الفقهاء والمفسرون عن ذكرها اعرضوا الحديث على كتاب الله [فإنَّ خالف كتاب الله والسنة فهو ردٌّ وما وافق فهو هدى

---

(١) سورة الحجر: الآية ٩.

وفوز ..]، والروايات المستفيضة بين الفريقين التي تدلُّ على أنَّ المدار في الموافقة والمخالفة في الصواب والغواية هو ما وافق كتاب الله والسنة فهو مُحكمٌ وهداية ونور وما خالفهما فهو غواية.

وعليه فالثمار الأديانية المترتبة على منهج أمومة المحكمات ليسَ فقط على صعيد تفسير القرآن وإنَّما على صعيد حفظ القرآن بلْ وحفظ كتب الأديان عن النماذج في التحريف أكثر وأكثر بلْ وإبداء حركة التصحيح والتسديد وإنّا لا ننكر الجهود التي بذلت ولا تزال من قبل المسلمين لدراسة العهدين وتقويم المعوَّج منها وانطلاقاً من منهج أهل البيت ورؤية أهل البيتعليهم السلام للقرآن الكريم في تصحيح حتَّى المذهبيّة الإسلامية والأديان السماوية وهذا يعني محورية الولاية والمحكمات ولا نحتاج إلى أكثر من التفاتة تعليمية من ولاية أهل البيت ولمحكمات الالتفات إلى المحكمات الصحيحة الموجودة في الإنجيل والتورة أو في تراث النبيصلى الله عليه وآله لسائر مدارس المسلمين.

الخامس والثلاثون: يمتاز منهج أمومة المحكمات في تفسير معنى الوحدة والتوحيد في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى من باقي المناهج التفسيرية الأُخرى، بأنَّ الوحدة والتوحيد في منهج أهل البيت ليست المقصود منها الوحدة في المعنى أو وحدة الموضوع، كلا وإنَّما المراد من وحدة الاستعمال هو وحدة النظام والمنظومة. ووحدة النظام تتكفلها قواعد صحيحة في العلوم وعدم التناقض والتضارب بين القواعد بخلاف المناهج التفسيرية الأُخرى فإنَّها تقصد من الوحدة في الاستعمال أي وحدة المعنى ووحدة الموضوع، وهذا معنى ضيّق تترتب عليه آثار سلبية نتيجتها

تضارب القواعد فيما بينها.

ووحدة النظام أيضاً تحتاج إلى النظام يوحدها وينظمها وإنْ كانت وحدة النظام تختلف عن وحدة المعنى وعن وحدة الموضوع والنظام الذي يوجد وحدة النظام هو المركز ومن ثم الولاية ـ أي ولاية الله تعالى وولاية الرسول الأكرمﷺ، وولاية الله هي الناظمة لولاية الرسولﷺ والناظم لولاية الأئمة الثلاثة عشر ـ أمير المؤمنين عليه السلام وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام والتسعة المعصومين من ذرية الحسين عليهم السلام ـ هو ولاية الله وولاية الرسولﷺ، وكذا ولاية الله والرسول والأئمة من أهل البيت عليهم السلام هي المحور والناظم للمحكمات والمحكمات هي أيضاً على طبقات كُلّ طبقة هي ناظمة لما تحتها وهكذا.

وعليه فإنَّ منهج أمومة الولاية والمحكمات يفترق عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى هو أنَّ منهج الأمومة يرى الشتات والتدافع ليسَ في تكثر المعاني وتعددها في جملة واحدة وآية واحدة، بلْ يري منهم الأمومة أنَّ الشتات ومزقة الأمة والبشرية بلْ فِرقة الخلائق هي بسبب عدم تمسكهم بالولاية فإنَّ الخلائق تتشتت إذا لمْ تتمسك بالولاية والمحكمات، وعليه فإنَّ الرجوع إلى المتشابهات والتمسك بها يوقع بالهلكة.

السادسة والثلاثون: منهج الأمومة لولاية أهل البيت والمحكمات يُطَمئن المُفسِّرَ الذي ينتهجه من عدم الخوف من تكثر المعاني للآية الواحدة، وأنه ليسَ تلاعب من القرآن وإنَّما التلاعب بالقرآن يحصل إذا ترك نظام الوحدة المركزية والمحورية لأمومة ولاية الأئمة عليهم السلام والمحكمات في القرآن الكريم فآنذاك تذهب الفروع وتشتت.

مضافاً إلى أنَّ تعدد المعاني من اللفظة الواحدة لا يستلزم تهافت وتضارب المعاني على منهج أمومة الولاية؛ لأنَّ السير فيه على الموازين والقواعد بخلاف باقي المناهج التفسيرية الأُخرى التي حَصَرَتْ وفَسَّرَت معنى الوحدة بوحدة المعنى والموضوع.

السابعة والثلاثون: يتميز منهج أمومة اولاية والمحكمات بأنَّ الآيات المحكمات وكذا المتشابهات هي على طبقات، والواقع أنَّ الآية الواحدة فيها طبقات من الدلالات المحكمة والآية المتشابهة فيها كذلك طبقات من الدلالة المتشابهة، وأنَّ الآية الواحدة فيها محورية للمحكمات ومحورية للمتشابهات، وأنَّ الآية الواحدة أيضاً: يتصور لها مصداق محوري ولولاية الله وولاية الرسول صلى الله عليه وآله ثم ولاية أهل البيت عليهم السلام.

إذنْ المحكمات على طبقات إلى أنْ تصل إلى المتشابهات في الآية الواحدة وهي غير متناهية وعليه فهذا النظام لا ترسمه مجموع آيات القرآن الكريم وسورة ، بلْ يُرْسم بلحاظ الآية الواحدة، بلْ ويُرسم بلحاظ الجملة الواحدة من جُمَل الآية الواحدة بلْ ويُرسم بلحاظ الكلمة الواحدة من أبعاض الجملة الواحدة.

وعلى أي حال فإنَّ مثل هذا التوسع لا يكون إلّا بقدرة المعصوم عليه السلام.

وهناك فرقٌ أنْ نقول: توجد قدرة من هذا الشيء، وبين أنْ نقول: هذهِ القدرة موجودة أو لا ، ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾[1].

ومن الجدير ذكره: ـ إنَّ المحكمات هي نظام رياضي مُعقَّد مهم في

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٩.

جميع آيات القرآن الكريم، بلْ وفي مفرداته المباركة، حتّى على مستوى تطبيق القاعدة الأدبية ومواردها، وكذا المتشابهات.

ومن أبرز مصاديق تطبيق المحكمات ـ كما مرَّ بالآية ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾(١). وهكذا التطبيق على المتشابهات كقوله تعالى ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ أو ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾(٢). ﴿لاَّ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾(٣).

وعليه: فإنَّ نظام المحكمات وكذا المتشابهات يجري في كل مفردة مفردة من القرآن وفي كل قاعدة تُطَبَّق فيه.

---

(١) سورة النساء: الآية ١٧١.

(٢) سورة القيامة: الآية ٢٢ ـ ٢٣.

(٣) سورة الأنعام: الآية ١٠٣.

القيمومة في التعليم والتبيان

من الوظائف الملقاة على النبي صلى الله عليه وآله أنَّه معلم الكتاب، وقد دلَّت على ذلك آيات في سور متعددة أقر الباري تعالى نبيه الكريم صلى الله عليه وآله بتبيان وتعليم القرآن وأنَّه صلى الله عليه وآله معلم الكتاب، كما في سورة الجمعة مثلاً: ﴿هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1].

وهذهِ الآية المباركة بيَّنت أنَّ للنبي صلى الله عليه وآله وظائف ومقدمات عديدة منها:ـ

١ ـ يتلو عليهم آياته يعني يبلغهم ـ وبلّغهم ـ آيات القرآن وأوصل صلى الله عليه وآله للناس آيات القرآن.

وينبغي الالتفات إلى أنَّه لا يُحبس معنى التلاوة بالاقتضاء عدا قراءة ألفاظ القرآن، علماً أنَّ التلاوة لها معاني عظيمة وكثيرة أُخرى غير قراءة ألفاظ القرآن، وإلّا فمن غير الحكمة أنَّ الله تعالى يبعث نبياً لأجل أنَّ يُبَلِّغ ويوصل إلى الناس ألفاظ آيات القرآن فقط وفقط ـ حاشا لله تعالى ـ هذا مضافاً إلى ما وَرَدَ في زيارة أئمة أهل البيت عليهم السلام وما نعتقد بهم عليهم السلام **«أشهد أنَّك تلوت القرآن حق تلاوته»** إذا لا يُعقل أنَّ المعصوم عليه السلام وظيفته يجوِّد القرآن فقط، وإنْ كانت مسألة تجويد ألفاظ مفردات القرآن أمر مهم إلّا أنَّه لا يُقتصر أمر التلاوة على هذا المعنى فحسب.

٢ ـ ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة من منازل ومقامات النبي صلى الله عليه وآله أنَّه يُزَكي قومه ويصفيهم من درن المعاصي ويُنمي الطاعة عندهم.

ومن الواضح أنَّه صلى الله عليه وآله ليست وظيفته فقط يعلمهم الكتاب والحكمة

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

بأنْ يقرأ عليهم ألفاظ الآيات المباركة من القرآن، وإنّما يُعلمهم بأنّه معلم الكتاب، وتقدم ـ وسيأتي أيضاً إنْ شاء الله تعالى ـ إنَّ حجية الرسولة صلى الله عليه وآله وأهل بيته كمعلمين من قبل السماء وهذا مقام يختلف عن مقام أنهم أولياء.

٣ ـ ما جاء في سورة البقرة ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1].

وهذهِ الآية المباركة يحكيها الله تعالى على لسان النبي إبراهيم عليه السلام وهي عكس ترتيب ما جاء في سورة الجمعة.

٤ ـ ما جاء في سورة النحل: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[2].

بينت من وظائف سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله البيان والتبيان، وإنْ كان بعضهم يفهم من التبيان هو قراءة ألفاظ القرآن فقط وهو غريب.

٥ ـ ما جاء في سورة القيامة: ﴿لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَه فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه﴾[3].

ومن الواضح أنَّ الآية المباركة فرقت بين البيان والقرآن وأنَّ لكل واحدٍ منهما دورٌ فالقراءة لها دور، والبيان له دورٌ آخر.

فلكل مقام فمثلاً مقام إنّما وليكم الله يختلف عن مقام أطيعوا الله والرسول وأولى الأمر منكم التي حجيتها حجية تعليمية؛ لأنّه من الخطأ أنْ

---

(١) سورة البقرة: ١٢٩.

(٢) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٣) سورة القيامة: الآية ١٦ ـ ١٩.

نتعامل مع القرآن كحجية تعبدية فقط، بلْ يجب أنْ نتعاطاه كمصدر علمي وتعليمي أعظم من الحجية التعبدية؛ لأنَّ أعلى مراتب العبادة والتعبد عن معرفة وعلم.

ومن الواضح والبيِّن أنَّ القرآن فيه آيات محكمات وهي أم الكتاب وأُخر متشابهاً ومطلق ومقيد وعام وخاص وناسخ ومنسوخ و ... الخ.

وليسَ بوسع البشر أنْ يتعلمه ونفسه من دون أنْ يُنصب الباري تعالى معلماً؛ لأنَّ للقرآن مقامات غيبية نأى الباري تعالى آية من أنَّ تصيبه مطلق عقول البشر وإنَّما خَصَّ أناس معينين لذلك ونصب معلماً أولاً وهو:ـ

والمعلم الأوَّل:ـ رسول الله صلى الله عليه وآله خصمه بهذا المقام من دون باقي أنبياء الله تعالى ورسله وأوصياؤه صلى الله عليه وآله من بعده أولهم أمير المؤمنين عليه السلام سيد الأوصياء.

والآيات الدالة على ذلك:ـ

منها: قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1].

يعني مع سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله بعده هناك راسخون في العلم ومعلمون تعلموا منهم.

منها: قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[2].

أي أوتوا العلم وهم معلمون وهؤلاء الذين عندهم عيبة خزينة علم القرآن.

منها: في سورة الواقعة: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

الْمُطَهَّرُونَ ﴾[١].

ومن توهم وقال: حسبنا كتاب الله ولا نحتاج إلى مُعَلِّم غيره تعالى؛ لأنَّ الكتاب من الله تعالى وأنَّ معلم الكتاب هو صاحب الكتاب وهو الله تعالى.

الجواب: نُسَلِّم أنَّ صاحب الكتاب وهو الله تعالى هو المعلِّم الأوَّل، وأننا محتاجون إلى تعليم الله تعالى لكتابه وبيان مقاماته ومنازله الغيبية، وتفسير آياته من محكم ومتشابه ومجمل ومبين و ... الخ.

وكذلك القرآن يؤكِّد على هذا المعنى وأنَّ المعلم الأوَّل هو الله تعالى كما في سورة القيامة ﴿ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه ﴾،وبما أنَّ البشر بما هم لا يستطيعون مهما بلغوا أنْ يصلوا إلى تلك المقامات الغيبية العالية من دون تنصيب معلم إلهي يبين لنا ذلك بعد المعلم الأوَّل وهو الله تعالى هم النبي ﷺ وقُربى النبي ﷺ وليسَ في ذلك انقطاع عن السماء؛ لأنَّ علاقة الله تعالى مع البشر هي دائماً تنطلق من علاقة «**لا جبر ولا تفويض أمرٌ بين أمرين**»، وإنْ كان الله تعالى أودع في البشر تلك القدرات التكوينية العالية إلّا أنَّها ليست مسندة ومفوضة إلى البشر تمام التفويض ولا تمام الجبر، بلْ أمرٌ بين أمرين كذلك علم الله تعالى الذي يعطيه للبشر من معصوم وغيره ينطلق من هذهِ القاعدة «**لا جبر ولا تفويض أمرٌ بين أمرين**»[٢].

وهذهِ الآيات المباركة وغيرها يصرِّح القرآن بمَن يتأهل لتعليم البشرية وخصهم بآيات كثيرة، ولكنْ وللأسف بعضهم يستغرب ويستبعد بلْ

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٧ ـ ٧٩.

(٢) الكافي، ج١/ ١٦٠، والتوحيد/ ٣٦٢.

ويستنكر من أنْ يرصد القرآن لنفسه معلم أوّل خاص وبعده معلمون خاصون، بينما كُلّ كتب البشر الأُخرى ذات التخصص لا يستنكر ولا يستغرب البعض من وجود أكفاء وأخصاء وأدلاء عليه، وهذا شيء غريب.

القرآن يُنادي بأعلى صوته أنَّ له معلم ومعلمون إلهيون سماويون لدنيون بإذن الله تعالى. وهل يوجد محذور في نصب معلم سماوي إلهي للقرآن أم لا؟ وبعد هذا هل بإمكان أحد أنْ يقول القرآن معطلاً؟ كيف يكون معطلاً وقدْ رصد القرآن له مُعلِم ومُفَعِل وهم النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام.

ونصب المعلم والقيم من قبل الله تعالى لكتابه تعالى لا يعني ـ والعياذ بالله إزواء البشر عن القرآن أو العكس ـ أزواء القرآن عن البشر ـ كلا بلْ نَصبُ المعلم هو مُدُّ جسر للبشر لكي يصلوا إلى منازل الكتاب التي هي في منأى عن عقول البشر وإلّا كيف يصل البشر إلى تلك المقامات الغيبية ويستفيد منها أنَّه لا يتمُّ ذلك إلّا عن طريق نصب المعلم والمبين.

إذنْ بعد نصب القيم والمعلم الإلهي وبإذن من الله تعالى فإنَّ هذا ليسَ تعطيل وتجميد وإزواء للبشر بلْ هو تفعيل وتنشيط للاستفادة من المقامات العليا للقرآن، إذْ لو اقتُصر على الطرف النازل ـ الذي فيه طبقات ـ لكان هذا نوع من إضاعة لحقائق القرآن؛ لأنَّه سوف لمْ نصل إلى المقامات الغيبية الأُخرى وسوف يكون هذا تجميد لتلك المنازل الغيبية للقرآن.

وهناك تساؤل: ما هي النتيجة المترتبة على التمسُّك والعكوف على تنزيل الكتاب على ظاهر الكتاب؟.

الجواب: هذا يؤدي إلى نتيجة خطرة جداً لا يمكن التمسُّك بها على مبنى مدرسة أهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّه لو تمسكنا بذلك فقط فإنَّه يؤدي إلى أنْ

نرفع أيدينا عن أم الكتاب وعن الكتاب المكنون وعن اللوح المحفوظ وعن الكتاب المبين وعن باقي المقامات الغيبية للقرآن، وهذا يلزم منه محذور خطير جداً وهو تجميد، بلْ تضييع الكتاب وإقصاء للبشر عن بقية منازل ومقامات القرآن الكريم.

وسيأتي إنْ شاء الله تعالى في نفس أدلَّة الظهور والتأويل أنْ نفس ظاهر الكتاب وتنزيل الكتاب هي من أدنى منازل ومقامات القرآن، وأنه لا يمكن للبشر اقتناص تلك المنازل بشكل إحاطي تفصيلي دقيق إلّا من خصَّهم ونصبهم القرآن كمعلمين للبشر كما سيأتي توضيحه إنْ شاء الله تعالى.

حجية آيات وسور القرآن حجية معية لا حجية مستقلة

سيأتي إنْ شاء الله تعالى في المعلم الرابع: ـ حجية الظاهر حجية معية بين الكتاب والسنة تفصيل ذلك، وسنشير إليه إجمالاً.

وهو أنَّ الإحاطة بظاهر القرآن بتمامه ليسَ بمقدور البشر إلّا بإعانة مَن اصطفاهم الله تعالى وهم المُعَلِّم الأوَّل بعد الله تعالى النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم أفضل الصلاة والسلام.

والبرهان الذي ينتهي إليه البيان في المعلم الرابع هو: ـ أنَّ حجية الظاهر القرآني حجية معيَّة.

وهذهِ النتيجة هي إحدى المؤاخذات التي تُسجَّل نقداً على منهج تفسير القرآن بالقرآن الذي تبناه العلامة محمد حسين الطباطبائي قدس سره من علماء الإمامية الأبرار، وكذا صاحب تفسير المنار من أهل السنة وغيره.

فكرة منهج تفسير القرآن بالقرآن: .

هي أنْ يَتَفَرَّد المجتهد أو المُفسِّر بأنْ يستظهر من الظهور القرآني بقدرة نفسه هذا المعنى الذي يستظهره، سواءً كان هذا المعنى الذي يحيط بكل ظاهر القرآن نحوياً أو بلاغياً أو لغوياً أو صرفياً أو فلسفياً أو عرفانياً أو طبّياً أو فيزياوياً أو كيمياوياً أو فسيولوجياً أو ... الخ فإنَّ كُلَّ العلوم لها حقائق موجودة في القرآن الكريم.

وعليه إذا لمْ تكن مواد الإحاطة بالظاهر متوفرة تحت يد المُفَسِّر

فكيف يقال: أنَّ حجية القرآن منفردة وليست حجية معيّة تحت شعار أنَّ القرآن نورٌ مبين وبيانٌ وهُدى للناس، فهذا صحيح إذا كان الآخرون بمفردهم ـ غير النبي وأهل بيته عليهم السلام قادرين على استيعاب تلك الهداية والإرشاد.

إلّا أنَّ الواقع ليسَ كذلك فهم محتاجون إلى معلم ومُربٍّ وقيّم عليهم في كيفية الاغتراف والأخذ الصحيح من القرآن الكريم.

وإنْ كان السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره استدل لمنهجه الذي يراه بحسب رؤيته وقناعته وأنَّ هذا هو المنهج الذي ترسمه لنا الروايات الواردة عن أئمة الهدى عليهم أفضل الصلاة والسلام، بوجوه عديدة لهذا المنهج القرآني الذي يستنبطه العلّامة من روايات أهل البيت عليهم السلام.

ولا نريد من عرض هذا أننا ننكر ما في هذا المنهج الذي اختاره السيد الطباطبائي قدس سره من إيجابيات كثيرة، وكذا لا ننكر أنّه المنهج الذي تشير إليه روايات أهل البيت عليهم السلام إلّا أنّه في نفس الوقت ليسَ هو المنهج الأكمل وعديم النواقص.

وعلى هذا تكون نتيجة هذا المنهج عدم تمكن انفراد المجتهد والمُفَسِّر في تبيان القرآن الكريم.

وإنْ كان منهج تفسير القرآن بالقرآن له زوايا عديدة ستعرض لها في ما بعد إنْ شاء الله تعالى.

والذي نريد أنْ نسلط الأضواء عليه في هذا المطلب هو: ـ

أنَّ المراد من تفسير القرآن بالقرآن معناه استقلال وانفراد حجية

ظواهر القرآن عن البشر وحسب البشر كتاب الله كما قاله قائلهم.

النتيجة: القرآن قائمٌ بنفسه لوحده وفيه كُلّ شيء، فلا يحتاج إلى المعية وهي الثقل الآخر العترة الطاهرة.

وأمَّا بالنسبة إلى دراسة إيجابيات وسلبيات منهج تفسير القرآن بالقرآن ومدى أهميته وقيمته وما هو المقدار الذي يجب إصلاحه منه ويتم فيه ببركة منهج أمومة المحكمات، علماً أنَّ منهج تفسير القرآن بالقرآن بمعنى الاستقلالية عن السُنة والعترة ليسَ فقط عند علماء ومفسري الإمامية، وإنَّما حتَّى عند المذاهب الإسلامية الأُخرى أمثال صاحب تفسير المنار.

وسيأتي إنْ شاء الله تعالى تحقيق أنَّ هذا المنهج هو الذي يؤكِّده الكتاب والعترة أم الصحيح هو منهج الأمومة، وسيأتي الصحيح إنَّ منهج تفسير القرآن بالقرآن مندرج تحت منهج أمومة المحكمات.

المؤاخذات على المناهج الأخرى

مؤاخذات على منهج تفسير القرآن بالقرآن(1):

---

(1) الغرض من بيان هذا المنهج ليسَ لأجل استقصائه وإنَّما نحن بصدد المقارنة بين منهجنا ـ أمومة المحكمات ـ الذي يقول بصياغة المعية في كل خطوة خطوة ولبنة لبنة من مباني الكتاب العزيز بأنَّه لا القرآن يفترق عن العترة ولا العترة تفترق عنه، وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله : **«لن يفترقا ـ الكتاب والعترة ـ حتّى يردا عليَّ الحوض»**، وبين المناهج الأُخرى غير منهج أمومة المحكمات.

وعليه يجب أنْ تكون كل الأنظمة تحمل وجهين ـ كتاب وعترة ـ لحقيقة واحدة، ومن خلال هذا يتضح أنَّ الغرض من إجراء المقارنة بين منهجنا والمناهج التفسيرية الأُخرى هو لأجل الوصول إلى رسم منهج تفسيري للقرآن متكامل لا ترد عليه ـ مهما أمكن وبحسب ما يوفق الله له ـ نقوضات أكثر كما ترد على المناهج الأُخرى.

كل ذلك بفضل الرجوع إلى الروايات الواردة عن أئمة العترة الطاهرة عليهم السلام وبعَرْض الجوانب السلبية لا يظنن ظان بأننا نريد تهميش واستقصاء المناهج الأُخرى وتضييع جهود وعلماء عمالقة أتعبوا أنفسهم الشريفة في ذلك ـ رضوان الله عليهم ـ والعياذ بالله أمثال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره صاحب الجهد العظيم الذي يعجز القلم واللسان عن تثمينه ومواجهته العظيمة للفكر الشيوعي والنازي والفكر الغربي، وتربيته لجيل من تلامذته الجهابذة ـ حفظهم الله تعالى ـ وهذا كُلُّهُ من إنجازاته العظيمة التي لا كفران لسعي العلامة الطباطبائي قدس سره.

ولكن من باب هو أنَّ نفس العلامة الطباطبائي قدس سره تعلمنا منه عملية النقد والبحث أخذاً بأمر أخذاً بوصية النبي صلى الله عليه وآله والأئمة الهداة المهديين عليهم السلام وهي:

أولاً: علي بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير، عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام، قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ يقول تذاكر العلم بين عبادي ممّا تحيي عليه القلوب الميتة إذا هم انتهوا فيه إلى أمري» *الكافي/ ج1، كتاب*

يدَّعي أصحاب هذا المنهج[١] الاستقلالية للقرآن بمعزل عن العترة الطاهرة التي هي العِدْل الآخر للقرآن، والتفكيك بينهما في معرفة الأحكام والمناهج القرآنية، وأنَّ هذا التفسير هو العاصم للفكر عن الوقوع في الخطأ وأنه يوصل إلى الحقيقة وليسَ فيه تخطئة، والحال نرى أنَّ أصحاب هذا المنهج يُخطيء بعضهم بعضاً وهم مختلفون فيما بينهم في تفسير الآية الواحدة، وحتَّى لو بنينا أنَّ اختلافهم ليسَ تناقضياً فهل أنَّ اختلافهم توافق وكمال أكمل أم لا؟

وعلى هذا فتُرصَد عِدَّة مؤاخذات على هذا المنهج ـ تفسير القرآن بالقرآن: ـ

أولاً: إنَّ الظاهر الذي نحن فيه جميعاً لا نحيط به، فكيف يستطيع مَن يدعي أنَّ هذا المنهج التفسيري ـ القرآن بالقرآن ـ هو المهيمن وهو الموصل إلى الحقيقة وهو ... الخ، وأنه يتمكن ويُمكِن الآخرين على تفسير القرآن بكل ما في القرآن بحيث يستطيع أنْ يقول:

فضل العلم، ب٩، ح٦.

ثانياً: مُحَمَّد بن يحيى عن أحمد بن مُحَمَّد عن عبدالله بن مُحَمَّد الحجّال عن بعض أصحابه رفعه، قال: قال رسول الله ﷺ: **«تذاكروا وتلاقوا وتحدّثوا فإنَّ الحديث جلاءٌ للقلوب، إنَّ القلوب لترين كما يرين السيف جلاؤها»** *الكافي/ ج١، كتاب فضل العلم، ب٩، ح٨.*

وعندما نكون بصدد نقل التأويل لا لأجل جحود وإنكار جهود العلامة والعياذ بالله إلّا أنَّه وبحمد الله تعالى فإنَّ طبيعة مدرسة أهل البيت عليهم السلام ليست سد باب الاجتهاد وإنَّما نحن المخطئة وفي هذهِ المدرسة يُفسح المجال للفكر الحُرّ الموزون حرصاً على تطوير عملية التكامل العلمي.

(١) كالسيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره من علماء الإمامية وتلامذته بلْ لعلّه حتّى السيد الخوئي في تفسيره البيان، وكذا صاحب تفسر المنار من علماء ومفسري إخواننا السنة.

تفسير هذهِ الآية المباركة يتمُّ بوساطة الآية الفلانية، إلّا أنَّ هذهِ دعوى كبيرة وأنّى لمدعيها إثباتها ـ وقدْ مَرَّ ـ إننا لا نحيط بالقرآن، وهذا لا يتمُّ إلّا من خلال مَن اصطفاهم وعلّمهم الله تعالى وهم أهل البيت عليهم السلام.

مضافاً إلى أنَّه تقدم أنَّ النحوي والصرفي والبلاغي واللغوي و ... الخ لمْ يستطع كُلّ واحد منهم أنْ يدعي أخذ بُعْدَ علمه من القرآن، فالنحوي لمْ يَدَّع ولا يستطيع أنْ يدعي أنَّه يُفسر البُعد النحوي بالنظام النحوي في القرآن بنفسه، ولا يدعي البلاغي كذلك ولا الصرفي ولا اللغوي ولا ... الخ.

فمثلاً الشيخ الطوسي في تفسيره التبيان والشيخ الطبرسي في تفسير البيان والزمخشري في تفسيره و ... الخ لا يجرأ أحد من هؤلاء الأعلام ولا غيرهم القولَ بأنَّ النظام الأدبي والبلاغي و ... في القرآن نحن نفسره بأنْ نفسر الآية ببيانها البلاغي الموجود بالقرآن مثلما هو عليه.

علماً أنَّ علمء البلاغة لا زالوا يكتشفون نكات بلاغية في القرآن لمْ تكتشف طيلة أكثر من أربعة عشر قرناً من قبل الأوائل، وإنْ كان لا يُنكر ما اكتشفوه من نكات بلاغية وغيرها بمقدار ما أُوتوا من قدرات عقلية جزاهم الله خيراً.

الخلاصة: إنَّ الذي يدعي أنَّه يُفسر القرآن بالقرآن ليسَ كُلّ القرآن بيده، وعليه فكيف يرفع مثل هذا الشعار: بأنَّ هذا التفسير هو لا غير، علماً أنَّ كُلّ مُفسر التزم على نفسه في هذا المنهج أنَّه لمْ يُحِط بكل حقائق القرآن.

وعليه فإنَّ هذا المنهج التفسيري ـ القرآن بالقرآن ـ لمْ يؤمِن لكم بحسب ما رفعتم من شعار؛ لأنَّ الاختلاف والتناقض بين المفسرين في هذا المنهج لمْ يؤمن الوصول إلى المنتهى الأفضل والأحسن.

ثانياً: لا يستطيع المُفَسِّر في هذا المنهج أنْ يبلغ كُلّ الغايات التي يهدف إليها القرآن، وإنَّما غاية ما يستطيع الوصول إليه هو اكتشاف بعض النكات العلمية وهذا لا مانع منه.

إلّا أنَّه يُقال له كما قيل: ـ حُفِظتَ شيئاً وغابت عنك أشياء.

ثالثاً: بعض أصحاب هذا المنهج يدعي أنَّ سُنة النبيﷺ وأهل البيتعليهم السلام لا دور لهم في تفسير القرآن علماً أنَّه مَرَّ في المُعلِّم الأوَّل بعد الله تعالى هو النبيﷺ ومن بعده أهل بيتهعليهم السلام، كما مرَّ من الآيات القرآنية الدالة على ذلك.

رابعاً: تقدم حديث معية الثقلين ـ كتاب الله والعترة الطاهرة ـ من قول الرسول الأكرمﷺ «**إني تاركٌ فيكم الثقلين ...**» فضلاً عن عشرات الآيات الدالى على عدم استقلالية أحدهما عن الآخر.

خامساً: بعضهم جعل تفسير الصحابة للقرآن في مقام تفسير أهل البيتعليهم السلام والعياذ بالله.

سادساً: تقدم أنَّ القرآن له منازل غيبية وهي قطعاً مؤثرة في تفسير القرآن، فيقال لمفسر هذا المنهج: ـ هل كُلّ المنازل الغيبية في القرآن في متناول يدك وفهَمك؟.

الجواب: كلا، القرآن يُجيب ﴿فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ﴾[1].

وإنَّ القرآن له منازل ومقامات غيبية خارج طوق البشر ـ وعنده أم

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٨ و ٧٩.

الكتاب ـ فأم الكتاب هي عند الله لا عند الناس، وكذا كتابٌ مسطور في رقت منشور ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ﴾[(١)] فهذهِ المنازل والمقامات الغيبية هي عند الله وليست عند البشر.

لا أحد يستطيع أنْ يدعي ويقول: أنْ أُفسر القرآن بالقرآن، ولا أحد يستطيع أنْ يعلم تأويله إلّا الله والراسخون في العلم وهم النبي صلى الله عليه وآله وعترته الطاهرة عليهم السلام، هم فقط أحاطوا بتأويل الكتاب كُلَّهُ.

سابعاً: هناك حديث منسوب للنبي صلى الله عليه وآله يشير فيه صلى الله عليه وآله إلى النظام الاستعمالي في القرآن وأنَّ القرآن فيه طبقات ما مضمونه سند الحديث روي عن الإمام علي عليه السلام من بيان المراحل المعرفية الأربع للقرآن أنّه قال: ـ **«كتاب الله على أربعة أشياء: ـ على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعَوامّ، والإشارةُ للخواصّ واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»**[(٢)] والمأخذ الذي يُسجل على هذا المسلك ـ تفسر القرآن بالقرآن ـ هو أنّه هل بإمكان كل طبقة من الطبقات تفسر بقية الطبقات؟ ومَن له القدرة اللامتناهية للوصول لكل طبقات القرآن كي يُفسر بها بقية الطبقات؟ وهذهِ ليست قدرة مُفسر أو مجتهد أو فقيه أو كلامي أو ... الخ وإنّما هي قدرة معصوم، نعم، المُفَسِّر والمجتهد يبذل جهوده ويتوصل بحسب ما يبذله من وسع الطاقة والجهد وبالتالي تكون سعة دائرته محدودة بخلاف المعصوم فإنَّ دائرته لا تتحدد.

---

(١) سورة الطور: الآية ٢، ٣.

(٢)عوالي اللآلي ج٤ ص١٠٥ ح١٥٥؛ جامع الأخبار: ص١١٦؛ بحار الأنوار ج٩٢، ص١٠٣ ح٨١.

العلاقة بين الظهور والتأويل (قاعدة التعريض) وبين منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام

بناءً على ما ذكره العياشي في أوائل تفسيره من قول الإمام الصادق عليه السلام **«إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكُتب، عليها يستدير محكم القرآن وبها نوَّهت الكتب ويستبين الإيمان»**[1].

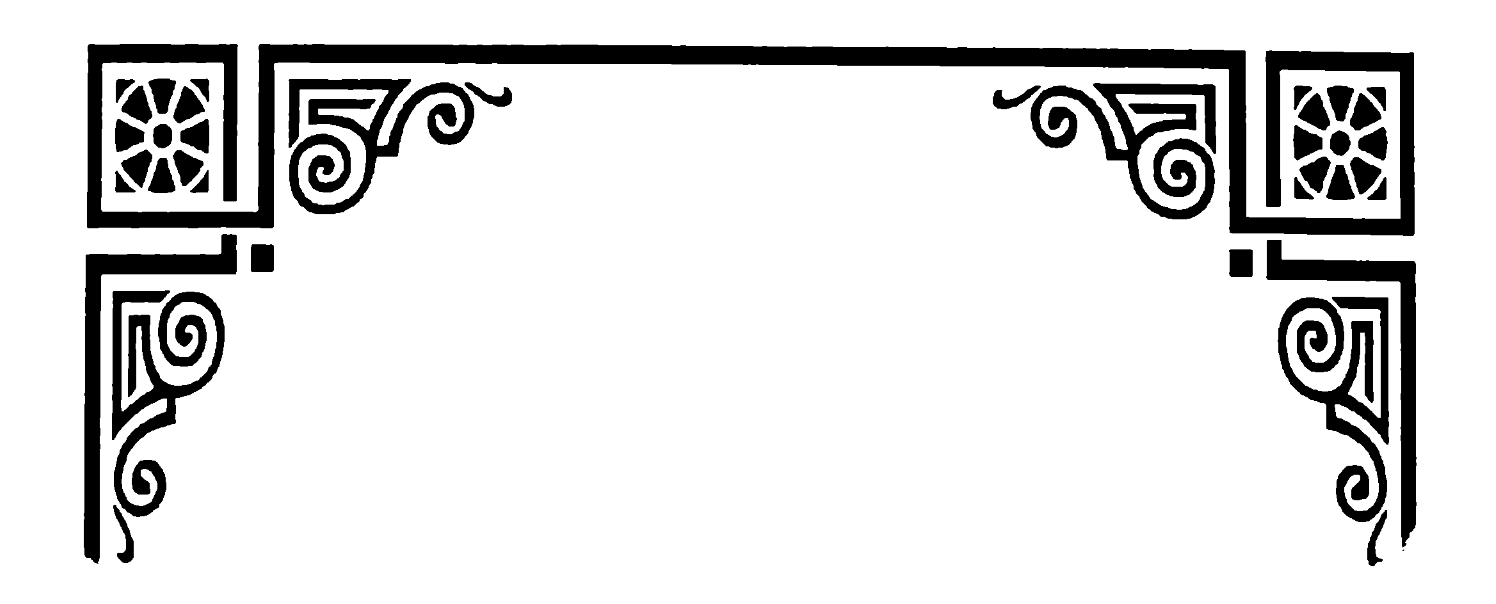
تدل الرواية على أنَّ النقطة المركزية لمحكمات القرآن تدور على ولايتنا وعليها يدور مُحكم القرآن بلْ على ولايتنا يدور كل كتاب أنزل من السماء من صحف آدم وإبراهيم وإدريس وجميع صحف الأنبياء، والتوراة والزبور والإنجيل.

فإنَّ هؤلاء الأنبياء بعثوا بهذِهِ الشرائع السماوية وأنها قائمة على نظام التصريح لا على نظام التعريض، ومع ذلك فإنَّ القطب المركزي التأويلي لتلك الكتب هي ولاية أهل البيت عليهم السلام.

وستتعرض لذلك في محله مفصلاً إنْ شاء الله تعالى

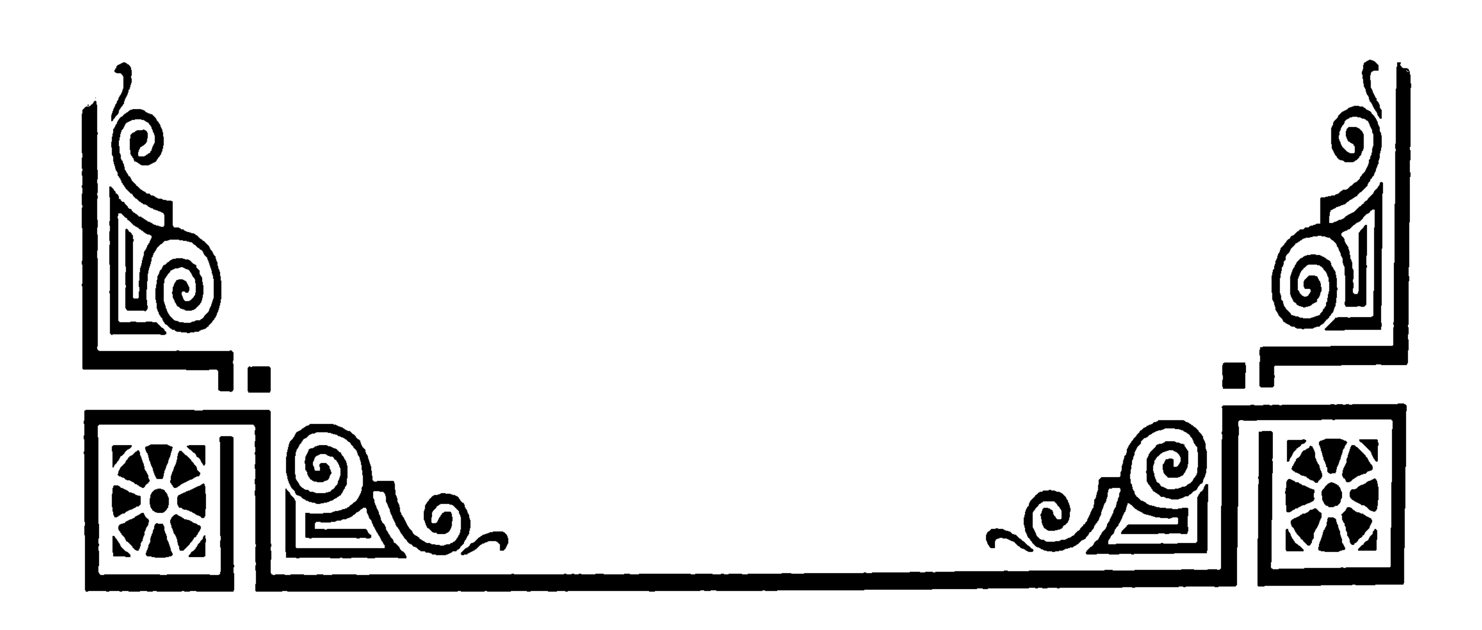
---

(١) تفسر العياشي ج١ / ص٧٨ ح٨.



الفصل الرابع

نظم وقواعد التفسير ومميزات وخصائص منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات فضلاً عن المتشابهات



الفصل الرابع

وفيه عدة مقامات:

المقام الأوَّل:

- ❖ المقدمة.
- ❖ ما هي الشروط التي ينبغي توفرها بالمفسر؟
- ❖ أصول وقواعد التفسير لمنهج أمومة الولاية على المحكمات.
- ❖ مميزات وخصائص منهج أمومة الولاية على المحكمات.
- ❖ الفرق بين الأنظمة الثلاثة.
- ❖ العلاقة بين الأنظمة الثلاثة.
- ❖ نظرية تجسم الأعمال.
- ❖ أفعال الإنسان اختيارية أو لا .
- ❖ النظام اللفظي في القرآن الكريم.

المقام الأول

المقدمة:

توسعت البحوث حول قواعد التفسير وأصوله إلى بحوث حول مناهج التفسير شيئاً فشيئاً، فلو لاحظنا كتب التفسير القديمة فأنَّها توسعت إلى مناهج التفسير وأُخِذَ بالتوسع أكثر فأكثر إلى أنْ وصلت إلى علوم التفسير أو العلوم القرآنية كما يُعَبَّر عنها اليوم وهي بحق كذلك؛ لأنَّ كل أصل تفسيري أو منهج تفسيري كي يطّلع الباحث على أسسه ومنهجه ونظامه توسع فيه؛ لأنَّه أصبح علماً قائماً بذاته.

ومن الواضح أنَّ البحث القرآني فيه هذهِ القابلية، كيف لا والقرآن أعظم كتاب تشهده البشرية، وهو كتاب الخالق وليسَ كتاب المخلوقين، وهو من أعظم كتب الخالق التي أُنزلت على الخلائق.

ومن ثَمَّ قد وُصِف القرآن بأوصاف شبيهةٍ بالأوصاف التي هي ذات طابع سماوي إلهي كأوصاف اللاتناهي ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾[1].

وعلى هذا فإنَّ كُلّ قاعدة في القرآن وكلّ منهجة فيه توسعت وأصبحت علماً قائماً برأسه.

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

ألفات نظر:

إنَّ كُلّ ما تقدم وما سيأتي بيانه هو بالحقيقة بيان لجملة من معالم المنهج التفسيري الجديد ـ منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام والمحكمات في القرآن الكريم ـ هو ليسَ جديداً وإنَّما هو موجودٌ في بيانات أهل البيت ومتأصل وعميق، ومقصودنا من الجديد هو من جهة بلورته في الساحة التفسيرية، وهذا المنهج لا يعتمد على آية محكمة واحدة، بلْ يعتمد على مجموع المحكمات كمنظومة، وهذا الأمر ليسَ بالسهل على مستوى التطبيق العملي، وإنْ كان سهلاً بلحاظ التنظير الكلامي.

هذا وقدْ حاول علماؤنا الأعلام رضوان الله عليهم بمحاولات عديدة وشمَّروا عن ساعد الجدِّ في البحث واستكشاف تلك القواعد والأصول التي بَيَّن أهلُ البيت عليهم السلام أهميته وأهمية مراعاتها في القرآن الكريم.

ومن بين تلك المحاولات:

أولاً: محاولة الفيض الكاشاني قدس سره[1] في تفسيره الصافي الذي اعتمد فيه الفيض على ما ذكره صاحب تفسير البيضاني، ثم على نصوص الأحاديث المرويّة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وذكر الفيض الكاشاني قدس سره في مقدمة تفسيره مقدمات مهمّة منها:ـ

أ) نقل الروايات المبيّنة لفضل القرآن.

---

(١) محمد بن مرتضى المدعو بـ (محسن) المُلقَّب بالفيض كان مُحدِّثاً وفقيهاً وفيلسوفاً فاضلاً حكيماً عارفاً ولد بـ (كاشان) عام ١٠٠٧هج، والمتوفى سنة ١٠٩١ههج وله تفسير مزج فيه بين الرواية والدراية المسمى بـ (الصافي) المطبوع بخمسة أجزاء شاملاً لجميع سور وآيات القرآن الكريم.

ب) إنَّ علم القرآن كُلَّهُ عند أهل البيت عليهم السلام يعلمون ظاهر القرآن وباطنه علماً شاملاً لجميع آي القرآن.

جـ) إنَّ جل القرآن واردٌ بشأن أولياء الله تعالى ومعاداة أعداء الله ... الخ[١].

بيان قواعد وأصول التفسير واستنباطها من بيانات أهل البيت عليهم السلام في هذا المجال لتقاوِم قواعد التفسير في الكتب الأُخرى المستفادة من غير بيانات أهل البيت عليهم السلام.

وذكر الفيض الكاشاني قدس سره الفوارق بين تفسيره ـ الصافي ـ ومن اعتمده وبين تفاسير أُخرى من الشيعة أو السنة فمن الشيعة مثل تفسير التبيان للشيخ الطوسي، ومجمع البيان للشيخ الطبرسي قدس سره، ومن السنة (العامة) كتفسير الكشاف للزمخشري، وإتقان العلوم للسيوطي أو الزركشي، ... الخ.

ثانياً: محاولة السيد هاشم البحراني في كتابه تفسير البرهان[٢] حاول قدس سره أنْ يستنبط قواعد منهجية معينة لتفسير القرآن من خلال نصوص أهل البيت عليهم السلام، والآيات التي نبّه عليها أهل البيت عليهم السلام، مما يؤشر إلى أنَّ تلك القواعد كانت ضرورية ومرعيّة تفسير القرآن.

ثالثاً: محاولة الشيخ الحويزي في تفسير نور الثقلين[٣] إلى حدٍّ ما نقل

---

(١) مقدمة تفسير الصافي للفيض الكاشاني.

(٢) السيد هاشم بن سليمان بن إسماعيل البحراني من أحفاد السيد المرتضى ـ علم الهدى ـ كان من علماء القرن الحادي عشر ومعاصري الشيخ الحر العاملي صاحب الوسائل.

(٣) هو الشيخ العلامة المحدث الخبير عبد علي بن جمعة العروسي الحويزي، وأنّه

أحاديث النبي صلى الله عليه وآله والأئمة في تفسير الآيات أكثر مما فعله صاحب تفسير البرهان وإنْ كان الأخير أسبق منه.

رابعاً: محاولة العلامة ملا شريف الفتوني في مرآة الأنوار، وقدْ ذكر العلامة الفتوني عِدَّة مقدمات لعلم التفسير على ضوء ما استنبطه من بيانات منهجية وحاول أنْ يستكشفها ويؤلف قواعد في علم التفسير(١).

خامساً: محاولة السيد العلامة محمد حسين الطباطبائي قدس سره في تفسيره البيان في تفسير القرآن(٢) ولا شك أنَّ القيام بمثل هذهِ المهمة الصعبة التي تحتاج إلى الإحاطة الشاملة والعميقة في المعارف القرآنية، وكذا المعرِفة الكاملة باللسان المُفَسِّر لتلك الآيات أي الروايات الواردة عنهم عليهم السلام والقدرة على تطبيق ما يوصل أحدهما من الآخر بالتوفيق بين الآيات بظواهرها وحسب ما يعطيه مفادها، وبين الروايات الواردة في تفسيرها عدا كثرتها وما يترائى من الاختلاف الشاسع في مضامينها(٣).

وهذهِ المحاولة من السيد العلامة الطباطبائي قدس سره لاستكشاف المنهج الذي يُرشِد إليه أهل البيت عليهم السلام في تفسير القرآن.

حويزي المولد شيرازي المسكن واختلف في سنة وفاته بين ١١١٢هج وبين ما ذكر الشيخ أقغا بزرك الطهراني أنها سنة ١٠٩٧هج، عاصر العلامة المجلسي قدس سره، والحر العاملي قدس سره.

(١) مراجعة ترجمة العلامة الملا شريف الفتوني قدس سره ولعل الشيخ كاشف الغطاء من تلامذته.

(٢) تفسير البيان في الموافقة بين الحديث والقرآن للسيد محمد حسين الطباطبائي يقع في ستة أجزاء في الطبعة الأولى ١٤٢٥.

(٣) تفسير البيان للسيد محمد حسين الطباطبائي قدس سره.

ـ علماً إنَّ تفسير الميزان للسيد محمد حسين الطباطبائي هو وليد تفسير البيان.

الخلاصة: إنَّ السيد العلامة الطباطبائي وسواه من الذين سبقوه من أعلام المفسرين من علماء الإمامية قدْ طرحوا نظرية خاصة في استنباط منهج وقواعد خاصة في علم التفسير الذي في رؤيته هو منهج أهل البيت الذين حملوه لإنَّهم عِدْل القرآن وهم الثقل الثاني الذي أُمِرَ بالتمسك بهما.

ثانياً: ما هي الشروط التي ينبغي توفرها في المُفَسِّر؟.

يُعلم مما سبق أنَّ هناك شروطاً ينبغي توفرها في المُفَسِّر: ـ

١ ـ توفر الملكة التفسيرية في المُفَسِّر نفسه التي هي عبارة عن الإحاطة والتضلع في أصول التفسير وقواعده وعلوم القرآن.

٢ ـ أنْ تكون لديه ممارسة ومطالسة وقوة في النقض والإبرام.

٣ ـ أنْ يكون ذا بصيرة نافذة تفسيرية ينضم إليها المقاربة بين كتب التفسير وغزارة التفسير.

إلى غير ذلك من الشروط التي ستتضح من طيّات البحث؛ لأنَّ المفسير يقِف أمام كتاب إلهي فيه كلام الله لا يأتيه الباطل فالذي يريد الولوج في هذا المضمار لابدَّ أنْ تتوفر عنده المؤهلات لذلك من مؤن علمية وإعداده الإعداد المناس بالذي يتناسب وحجم موضوع علم التفسير.

علماً أنَّ علم التفسير كما لا يخفى، فيه آراء متضاربة أشد التضارب فهناك من يُحرر علم التفسير من الكلاسيكية التقليدية القديمة والتقيد بالمصطلح، ويفرض افتراضات هي أقرب للخيال، وبالتالي يفتح المجال في

علم التفسير بلا ضوابط وبلا مناهج.

وهناك: ـ من هو عكس الأوَّل، بأنْ يتقيد بالمصطلح والكلاسيكية القديمة.

وثالث سار سيراً وسطاً.

لأجل هذا الاختلاف أو سواه نشأت مناهج وأصول وقواعد التفسير المختلفة المشارب فيما بين بعضها البعض.

وعلم التفسير ليسَ كباقي العلوم يقف أمام ظاهرة كونية ويعالجها وإنَّما علم التفسير يقف أمام كلام الله تعالى، وهذا الموقف فيه من الصعوبة ما لا يقوم بعبء ثقلها علم آخر.

أصول وقواعد تفسير منهج أمومة ولاية أهل البيت على المحكمات

تنقسم أصول وقواعد منهج أمومة المحكمات إلى:

القسم الأوَّل: النظام الاستعمالي اللفظي في القرآن الكريم أي نظام تنزيل الكتاب الشريف، وقدْ يسمى هذا النظام لألفاظ الكتاب الكريم كما في الحديث ـ العبارة للعوام أو للعامّة ـ.

القسم الثاني: النظام المعنوي والمعاني في القرآن الكريم، وليسَ المراد به المعنى الأوَّل من المعاني التي تقدّمت بالألفاظ، وإنَّما المراد به جملة طبقات المعاني في القرآن.

ومن الواضح إنَّ لمعاني تأثيراً على الجانب العقلي في الإنسان وبالتالي يؤثر على الروح ـ أي التأثير الروحي لمعاني القرآن ـ وتوازن العَقِل في ذلك بسبب معاني القرآن.

فلو قرأنا كتب المعقول للقدماء والجُدد من فلسفية وعقلية وحكمية و... الخ، لوجدنا الطبع يَمُج منها وتأثيرها جزئي على شريحة معينة من العقول البشرية بخلاف قراءة القرآن فإنَّه يهيمن على كُلّ مَن يقرأه، فليس قراءة آيات القرآن هي صناعة البرهان ولا فن الخطابة ولا الجدل ولا ... الخ.

فمثلاً المناطقة حصروا الصناعات بالخمس، وإنْ كان هذا الحصر ليسَ في محله وإنَّما هي أكثر من ذلك، فصناعة منها ترتبط باللغة العقلية، وصناعة ترتبط بلغة الخيال وثالثة بالوهم، ورابعة بالجدل وخامسة بالجانب

العاطفي النفساني الغريزي من الغضب أو المحبة. وهي الخطابة، وسادسة ترتبط بفنون الأدب كاللفظ و ... الخ.

وعليه فالسؤال فالسؤال الذي يُطرح: ـ هل تأثير معاني ألفاظ القرآن على الروح هو من قبيل هذهِ الصناعات التي ذكرها المناطقة، أو من قبيل المعاني البلاغية في علم المعاني والبيان والبديع، أو هل هو من قبيل المعاني اللغوي والنحوية أو الصرفية أو الكلامية أو ... الخ.

وعليه فالسؤال الذي يُطرح: ـ هل تأثير معاني ألفاظ القرآن على الروح هو من قبيل هذهِ الصناعات التي ذكرها المناطقة، أو من قبيل المعاني البلاغية في علم المعاني والبيان والبديع، أو هل هو من قبيل المعاني اللغوي والنحوية أو الصرفية أو الكلامية أو ... الخ.

الجواب: ليسَ الأمر كذلك؛ لأنَّ القرآن الكريم فيه قدرة عالية لا تضاهيه قدرة في باقي العلوم، وتلك القدرة العلميّة التي يمتلكها القرآن متميزة عن غيرها بمهارة وخلابة عظيمة في تحوير المعاني، والانتقالات المرتبة في عالم المعاني بانسيابيّة ليسَ لها نظير بحيث وصلت إلى حدِّ الإعجاز.

ونظام المعاني ينقسم إلى نظامين: ـ

النظام الأوَّل: نظام الإشارة وكما وَرَدَ في بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام[1] [الإشارة للخواص] ويسمى بالتفسير الإشاري وفيه يُجهد المُفَسِّر نفسه بالالتفات إلى الإشارات في الآيات، لا إلى السطح الظاهر كما

---

(١) روي عن الإمام عليّ عليه السلام في بيان المراحل المعرفية الأربع للقرين أنّه قال: كتاب الله على أربعة أشياء: على العبارة، والإشارة، واللطائف، والحقائق، فالعبارة للعَوام، والإشارة للخواصِّ، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء، بحار الأنوار ج٩٢ ص١٠٣ ح٨١.

في الصعيد الأوَّل: نظام الألفاظ وهو المنهج والتفسير الموجود في كلمات أهل البيت عليهم السلام وهو غير منهج أمومة المحكمات الذي نتبناه في تفسيرنا للقرآن.

النظام الثاني: نظام اللطائف وكما وَرَدَ في بعض كلمات أمير المؤمنين عليه السلام **«اللطائف للأولياء»**.

واللطائف: هي الطبقات العميقة التي هي أبطن البطون وتحتاج إلى لطف وشفافيّة خاصة فتكون أكثر لطافة، أي معاني باطنية خفيّة، ومعاني أبطن وتوغل في الباطن والعمق أكثر فأكثر.

القسم الثالث: نظام حقائق القرآن وهو ما يُعبَّر عنه بالحديث النبوي والحقائق للأنبياء كما وَرَدَ[1].

وكل قسم من هذهِ الأقسام الثلاثة له قواعده ومنهاجه، فغير المُطّلِع على هذهِ المناهج والقواعد رُبَّما يهاجمها ويقول هذا تلاعِبٌ في التفسير وما شابه ذلك.

وكُلُّ قسم من هذهِ الأقسام الثلاثة يبحث فيها هذهِ الأنظمة الثلاثة أيضاً:ـ

---

(١) يمكن أنْ يكون هذا التقسيم مستفاد مما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في وصف القرآن وأنَّه على طبقات أربعة وليست نظم ثلاثة وهي:
أ) العبارة للعوام أو العامة.
ب) الإشارة للخواص.
جـ) اللطائف للأولياء.
د) الحقائق للأنبياء.
والألفاظ تعود إلى نظام الاستعمال، واللطائف والإشارات مرتبطة بعالم المعاني، والحقائق للأنبياء، وهكذا الإشارة للخواص مِن عالم اللطائف للأولياء أيضاً من عالم المعنى، ولكن بشكل أعمق وأخفى.

النظام الأوَّل: نظام الأفعال أي الأفعال الإلهية.

النظام الثاني: نظام الصفات الإلهية.

النظام الثالث: نظام الأسماء - أي إثبات الربوبية.

مميزات وخصائص منهج أمومة الولاية على المحكمات

يتميز منهج أمومة المحكمات بعدَّة خصائص، وهي: ـ

أولاً: بسط وتفصيل الكلام في الأقسام الثلاثة ـ الاستعمال اللفظي، والمعنوي وحقائق القرآن ـ بما في كُلّ واحد منها البحث عن نظام الأفعال والصفات الإلهية.

بينما المناهج الأُخرى أكَّدت وركَّزت في أصول قواعد التفسير بلحاظ النظام الاستعمالي، وشيئاً ما في النظام المعنوي، ونادراً ما في نظام الحقائق.

وسبب ندرة استعمال المناهج الأُخرى لنظام الحقائق وتأكيدها في المعارف على طرف الحبل الممدود إلى الناس وهو النظام الاستعمالي؛ لأنَّ المعارف استعمالية، وأمَّا الحقائق فندرة استعمالها هو بسبب أنَّها غيبيّة، وعليه فهي بعيدة المنال عن المناهج الأُخرى غير منهج أمومة المحكمات.

ثانياً: مضافاً إلى أنَّ المناهج التفسيرية الأُخرى غير منهج أمومة المحكمات، لمْ يُتعب أصحاب تلك المناهج أنفسهم في البحث عن الجانب الحقائقي حتَّى يتوصلوا ولو إلى شيء معين، بحجة أنَّها غيبيات وحقائق القرآن وهي بعيدة المنال، علماً أنَّها مؤثَّرة في التفسير، لذا صارت مناهجهم التفسيرية بسبب غياب هذا الجانب ليست هي الأكمل، والأمثل.

ولذا امتاز منهج أمومة المحكمات عن باقي المناهج التفسيرية بسبب تركيزه على جانب نظام الحقائق ـ الغيبي ـ في القرآن.

إذنْ امتياز منهجنا وكونه أصلاً أو له أصولية وقطبية مستمدة من روايات أهل البيت عليهم السلام في القرآن ميَّزته عن باقي المناهج التفسيرية بحق ولهذه القطبية مركز وأصل.

ثالثاً: يتميز هذا التقسيم للأصول والقواعد التفسيرية، بصب اهتمام منهج أمومة المحكمات على نظام الصفات، ونظام الأسماء، فضلاً عن نظام الأفعال الإلهية، بخلاف المناهج التفسيرية الأُخرى، لمْ ترعَ كثيراً لهذه البحوث، وإنَّما ركَّزت وأكَّدت على نظام الأفعال.

بدعوى أنَّ البحث الصفاتي أيضاً مطلب بعيد المنال، كما أنَّ البحث في الأسماء كذلك بعيد المنال.

علماً أنَّ نظام الأفعال الذي ركَّزت عليه مناهجهم ـ غير منهج أمومة المحكمات ـ لا يُفهم إلّا بنظام الصفات، كما أنَّ نظام الصفات لا يفهم إلّا بنظام الأسماء لتوحيد الذات، كما سيتضح ذلك كُلَّهُ من خلال البحث إنْ شاء الله تعالى.

رابعاً: كيف يؤثر منهج أمومة المحكمات في النظام الاستعمالي الذي هو العبارة والألفاظ.

علماً أنَّ نفس أمومة المحكمات لها أمومة للمتشابهات على شكل طبقات محورية، وهكذا كيفيّة تأثير أمومة المحكمات في النظام الثاني أي نظام المعاني أو الإشارات؛ لانه كما أنَّ منهاج الثقلين وأمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام عاصم في النظام الأوَّل من الضلال في التفسير الإشاري أو نظام معاني القرآن.

خامساً: القرآن الكريم فيه أنظمة بيانية تؤثر على المنهاج التفسيري للمفسر فمثلاً: نظام الاستعمال اللفظي هو نظام تحته أنظمة هو ناظم لها وهكذا الفرع تحت الفرع ويتشعب إلى شعب ... فإنَّه حتَّى الأنظمة لها نظام مهيمن.

وأنَّ نظام عالم المعاني له نظم معينة وقواعد ترسم نظام المعاني وليسَ عبارة عن ركام من المعاني مكدس.

والنظام الثالث أي نظام الحقائق الذي أيضاً له بُعده العميق في منهجية تفسير المُفَسِّر ولولاه لما استطاع المُفَسِّر الغور إلى الأعماق.

وسنبين في جملة الصلة الوطيدة بين هذهِ الأنظمة الثلاثة.

الفرق بين الأنظمة الثلاثة

الأفعال ـ الصفات ـ الأسماء

مقدمة/ المشهور بين المتكلمين بلْ والحكماء والعرفاء أنهم فرَّقوا بين الأنظمة الثلاثة.

الفعل: ما يَلْحَظ الحدث بما هو أي يدلُّ على معنى مستقل مقترن بزمان.

الاسم: هو اللفظ المأخوذ إمَّا من الذات بما هي هي كلفظ الجلالة له سبحانه وتعالى، والرجل والإنسان و ... الخ أو بكونها ـ الذات ـ موصوفاً بوصف كالعالِم والقادر أو مبدأ الفعل: كالرازق والخالق.

الصفة: فهو الدال على المبدأ مجرداً عن الذات كالعلم والقدرة والرزق والخلقة، وعلى هذا ـ رأي المشهور ـ يصح أنْ يقال: ـ

الاسم: ما يصح حمله كما يقال: الله عالِمٌ وخالقٌ، ورحمنٌ، ورحيمٌ و ... الخ.

والصفة: لا يصح كملها كالعلم، والخلق والرحمة و ... الخ.

إذنْ على رأي المشهور الصفات مندكة في الأسماء من غير عكس[1].

وذكر السيد العلامة محمد حسين الطباطبائي ﷺ لا فرق بين الاسم والصفة، غير أنَّ الصفة تدلُّ على معنى من المعاني تلبس به الذات، أعمُّ من العينية والغيرية.

والأسم: ـ هو الدال على الذات مأخوذةٌ بوصف، فالحياة والعلم

---

(١) مفاهيم قرآنية للشيخ جعفر السبحاني ج٦، ص٣٣.

صفتان، والجماد والعالِم أسمان[١].

هذا كُلَّهُ على ما هو المشهور ويوافقه ظاهر الكتاب من أنَّ أسماء الله سبحانه وتعاليمن قبيل الألفاظ والمعاني فيكون لفظ الجلالة وسائر الأسماء كالرحمن والرحيم والعالِم والقادر أسماء الله الحسنى الحقيقية، ولها معانٍ ومفاهيم فينتقل إليها الذهن عند السماع.

وأمَّا عند أهل المعرفة: فالأسماء والصفات ليست من قبيل الألفاظ والمفاهيم بلْ حقيقة الصفة ترجع إلى كمال وجودي قائمٌ بالذات، والاسم عبارة عن تعيُّن الذات بنفس ذلك الكمال، والأسماء والصفات الملفوظة أسماء وصفات لتلك الأسماء والصفات الحقيقية التي سنخها سنخ الوجود والكمال والتحقق والتعين، فلفظ الجلالة ليسَ أسماً بلْ أسماً للأسم، ومثله العلم والقدرة والحياة و .. فهي ليست صفات بالحقيقة، وإنَّما مرأة تعكس أوصافهُ الحقيقية[٢].

وأقول: الفعل: يلحظ الحدث كحدثٍ، أمَّا إذا لوحظ حالة أو هيئةً عارضة فيكون صفة.

وإذا صيغ من الهيئة ما يكون قالباً مشيراً إلى الذات الموصوفة يكون اسماً.

وليسَ المراد من الفعل في مباحث المعارف الإلهية ما يكون عرضٌ في مقابل الجوهر، بلْ أعم من ذلك ـ حتَّى لو تعلَّق الفعل بجوهر مخلوق، كما أنَّه ليسَ المراد من الصفة ما يكون هيئة وجودية عارضة بلْ ما يشمل الجواهر المخلوقة، إذا لوحظت ناعتة بنحو الصفات الفعلية لخالقها.

---

(١) تفسير الميزان ج٨ ص٣٦٩.

(٢) مفاهيم قرآنية: ج٦ ص٣٣ ـ ٣٤.

كما أنَّ الأسماء ليسَ المراد بها الإشارة الذهنية أو الصوتية، بلْ ما يشمل الآيات المخلوقة وإنْ كانت جواهر مخلوقة عالية.

والصفة في كُنهها لا توصِل إلّا إذا لوحظت مشيرة إلى الذات أي لوحظت فيها حيثية الاسم لأنَّ في الصفات لحاظٌ وحجابٌ ذاتي بخلاف الأسماء.

وهناك أصلٌ مهم جداً مؤلف من مراحل ثلاث: ـ

المرحلة الأُولى: أنَّ كُلّ فعل له ارتباط بالصفة، هو فعل الإنسان.

المرحلة الثانية: والفعل مرتبط بالصفة لا محالة له ارتباط بصفة الإنسان.

المرحلة الثالثة: إنَّ الصفة لا محالة لها ارتباط بعقيدة الإنسان، والعقيدة والمعتقد هو جوهر الإنسان.

وهذهِ المراحل الثلاث يُعبر عنها كثير من علماء الأخلاق والفلسفة بأنَّ كُلّ رؤية معرفية أو عقائدية تولد صفات مناسبة لها، كما أنَّ كُلّ صفة معينة تولد أفعال متناسبة معها.

وتوضيح ذلك: مثلاً صفة البُخل تؤثر في الإنسان عملاً فيكون بخيلاً فتولد الصفات المتلائمة مع شخصية الإنسان البخيل من الجبن والخِسَّة ... الخ.

وهكذا صفة الكرم تؤثر في الإنسان فتجعله مبسوط اليد، وهكذا الجبن يُولِّد عند الإنسان صفة الانهزام والفرار في ميدان الحرب وغيره.

إلفات نظر:

من خلال عرض الأنظمة الثلاثة وما يتفرع عنها سنجد قاعدة واحدة قدْ تتكرر في الأنظمة الثلاثة أو الأربعة، إلّا أنَّه لا تتكرر بنفس

هويتها، وإنَّما تتكرر بهوية أُخرى بمضمون آخر.

الخلاصة: إنَّ كُلّ من الأسماء والصفات تنقسم إلى ذاتية وفعلية، فللّه أسماءٌ وصفات ذاتية هي عين ذاته غير زائدة عليها، وله عز وجل أسماء وصفات فعلية هي عين فعله.

فالقدرة والعلم والحياة صفاتٌ ذاتية يُشتق منها القادر والعالم والحي، وهي أسماء ذاتية غير زائدة على الذات الإلهية المقدسة.

والخلق والرزق والتدبير والربوبية والحكم والعدل وغيرها من الصفات الفعلية يُشتق منها أسماء فعلية، هي الخالق والرازق والمدبر والرب والحكم والعَدْل، ولا ريب أنَّ الأسماء الفعلية غير الذات وليست عينها مخلوقة لها مُشتقةٌ من أفعاله عز وجل.

ولا ريب أيضاً أنَّ جملة وافرة من الأسماء الإلهية هي أسماء فعلية مشتقة من أفعاله ومخلوقاته تعالى.

والمخلوق يكون اسماً لله عز وجل بملاحظة صدوره من خالقه وأنه فقيرٌ له مُتقوِّم به ليسَ له من نفسه شيء، دالٌّ بسبب افتقاره بما فيه من كمال على كمال خالقه وبارئه.

وعليه فالاسم هو سِمَةٌ وعلامة على صانعه، وما فيه من عظمة وحكمة دالة على عظمة وحكمة الخالق؛ إذْ ليسَ له من ذاته إلّا الفقر والاحتياج[١].

---

(١) الإمامة الإلهية، ج٤ ص٢٤٣ للشيخ محمد السند.

العلاقة بين الأنظمة الثلاثة
الأفعال ـ الصفات ـ الأسماء

توجد صلة وطيدة بين هذهِ الأنظمة الثلاثة: ـ

١ ـ نظام إسناد الأفعال.

٢ ـ نظام إسناد الصفات.

٣ ـ نظام إسناد الأسماء والذات.

وبأيِّ شيء يرتبط سواءاً على الصعيد الربوبي أو البشري.

أمّا على الصعيد الربوبي: هناك حاكمية وهيمنة بين الأنظمة الثلاثة يمكن تصورها بما يلي: ـ

أولاً: إنَّ النظام الذاتي الربوبي حافظ ومهمين على نظام الأسماء والصفات.

ثانياً: نظام الأسماء والصفات حاكم على نظام الأفعال الإلهية.

فهذه المخلوقات هي آيات الله وشأنه تعالى وهي تمثل صفات الله وذاته وأسمائه، ولهذا يُذكر هذا المبحث في البحوث العقلية والفلسفية.

وعليه فالنظام الذاتي الربوبي يَظهر في نظام الصفات والأسماء، ونظام الأسماء والصفات يَظهر في نظام الأفعال.

إذنْ توجد صِلة وارتباط تكويني بين هذهِ الأنظمة الثلاثة، وليسَ غرضنا بيان وجود الصلة بينها فقط، وإنّما نحن بصدد بيان: ـ أنَّ الفعل

لوحده لا يصل إلّا بالصفة، والصفة في كنهها وحقيقتها لا تصل إلّا بالأسماء.

وعليه فالصفات المحمودة أو المذمومة هي عبارة عن رؤى عقائدية فكرية وإيمان يكون في جوهر الإنسان، ثم ينزل إلى هذا الإيمان إلى صفات الأفعال التي تصدر من الإنسان كصفة: ـ الكرم، والشجاعة والكرامة والإباء و ...الخ كما في كلمات الإمام الحسين عليه السلام: **«وأنوفٌ حميّة ونفوس أبيّة لا تؤثر مصار اللئام على مصارع الكرام»**.

وهكذا التوكُّل كمعرفة اعتقادية: وهو الاعتقاد بغنى الله تعالى وهذا معناه أنَّه يُسلِّم ويذعِن أنَّ الله ذو القوة المتين، فإنَّه يعتقد بغنى الله تعالى، ولذا يؤثر بالكرم ـ ومن الواضح أنَّ الكرم يؤثِّر على شخصية المُكرِم.

ولذا وَرَدَ في بعض الروايات ـ كشاهد على ذلك ـ إنَّ الله يُحب الشاب العاصي السخي من الشيخ الزاد الناسك البخيل ـ وذلك باعتبار أنَّ السخاء كصفة وفعل وليد معرفة نظرية بغنى الامتناهي ولا محدود لله عز وجل، عكس البخيل ليسَ على معرفة ويقين من غنى الله اللامحدود، وإنْ كان بدن البخيل يتعب بالعبادة ولسانه يتعبد، إلّا أنَّ قلبه ليسَ على معرفة ويقين والعياذ بالله من غنءا الله اللامحدود.

ومن الواضح أنَّ عبادة القلب أعظم من عبادة البدن.

إذنْ هذا الشاب عاصٍ ببدنه ولكنْ بقلبه وبفطرته مطيع عابد، ويؤيده ما جاء في الحديث الشريف: وَرَدَ في الحديث الشريف عن رسول الله صلى الله عليه وآله : ـ **«يا أبا ذر إنَّ الله تبارك وتعالى لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم، ولكنْ ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»** [1].

---

(١) أمالي الطوسي/ ٥٣٦؛ مكارم الأخلاق للطبرسي/ ٤٦٩؛ البحار للمجلسي/

وعليه فهذه الصفات وغيرها رؤى عقائدية فكرية نابعة من أعماق جوهر الإنسانية الذي ينزل إلى الصفات الخارجية سواء صفة مدح أو ذم، وهذهِ الصفات ترجع إلى تجلي الإيمان واليقين في الذات الإلهية والقدرة الإلهية.

وعليه فهناك علاقة وطيدة وترابط بين الأنظمة الثلاثة: ـ إسناد الأفعال، وإسناد الصفات وإسناد الأسماء والذات على الصعيد الربوي والبشر صعوداً ونزولاً.

فعلى مستوى الصعيد الربوي: فنلاحظ هذهِ المخلوقات التي هي آيات الله تعالى وشأن من شؤونه تعالى فهذه المخلوقات تمثل صفات الله وأسماء الله وذاته تعالى، ولذا تعرّض أهل المعقول والفلسفة إلى هذا المطلب وقالوا: ـ

بإنَّ النظام الذاتي الربوبي يظهر في نظام الصفات والأسماء ونظام الصفات والأسماء يظهر في نظام الأفعال.

وكذلك يتميز النظام الذاتي الربوبي بصفة أُخرى وهي: ـ صفة الهيمنة والمحافظية على نظام الأسماء والصفات، وأيضاً نظام الأسماء والصفات بدوره حاكم على نظام الأفعال الإلهية.

وأمّا على الصعيد البشري: فإنَّ هوية أي فعل يفعله الإنسان ـ سواء خير أو شر ـ لا يمكن أنْ تحدد بالدقة؛ لأنَّ هناك سلوكيات معينة في الإنسان لا يمكن تحديدها إلّا عن طريق الصفات للحديث النبوي: ـ «**إنّما الأعمال بالنيات**»[1]، لأنَّ جوهر الفعل وروحه هو النيّة للصفة التي توقع

---

(١) تهذيب الأحكام للشيخ الطوسي، ج٤، ص٥١٩ ح١٨٦؛ دعائم الإسلام للقاضي ج٦٧، ص٢٤٨، ح٢٣.

الفِعل على أثرها، وهذهِ النيّة ترجع إلى فعل قلبي مرتبطة بالصيغة.

والحصيلة من كُلّ هذا هو أننا لأجل أنْ نبني ونرسم منهج تفسيري متكامل لابدَّ من الالتفات إلى الأنظمة الثلاثة؛ لأنَّها تشكل هرمية مترابطة ومنتشرة وسارية في علوم كثيرة تذعن لها، أمَّا أنَّه يلتفت إلى أحد هذهِ الأنظمة الثلاثة دون الآخرَين، فإنَّ ذلك يكون تفسيراً ناقصاً.

وعليه فهذا هو أحد أسباب اختيارنا لمنهج أمومة ولاية أهل البيت على المحكمات فضلاً عن المتشابهات، ورفض المناهج الأُخرى بسبب الإخفاقات والسلبيات والنواقص الموجودة فيها.

النعمان المغربي ج١، ص٢.

نظرية تجسم الأعمال

إنَّ قاعدة إسناد الأسماء والصفات والأفعال في القرآن الكريم سيأتي بسط البحث فيها في مجموعة النظام الثالث، والغرض في المقام للإشارة إلى نبذة حول أطراف هذهِ القاعدة:

أولاً: مضمون النظرية:

هناك عدَّة حقائق كشف عنها القرآن الكريم والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام منها:

١ ـ تجسم الأعمال.

٢ ـ تجسم الملكات.

٣ ـ تجسم النيّات.

وكلّ واحد من هذهِ الأقسام الثلاثة له تجسم، فالأعمال تتجسم وهي محل البحث وسيأتي عنها الكلام بعد قليل، وأمَّا الملكات كذلك لها تجسم فالملكات التي يكتسبها الإنسان في هذهِ الدنيا تارة يكتسب ملكة الطاعة والعدل، وأُخرى يكتسب ملكة التمرد والعصيان فلكل من الملكتين ظهور دنيوي وظهور أخروي يتنعم الإنسان بواحدة منهما ويُعذب بالأخرى، وهكذا الحال في النيّات[1].

ومحل الكلام هو تجسم الأعمال: ـ وهذهِ النظرية من النظريات المهمة

---

(١) مفاهيم القرآن ج٨ ص٣٣٠.

التي نقّحها بوضوح فائق فلاسفة الإمامية مسترشدين بالآيات والروايات عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ومؤداها: ـ أنَّ كُلّ عمل من الأعمال التي يكررها الإنسان فهي تؤكّد ملكات.

١ ـ إمَّا ملكات حَسَنَة نورانية: وهذا ما يُعبر عنه بجنبة الصعود والدرجات وهو يمثل الجنبة الإيجابية في عمل الإنسان[1] وعليه فيكون هذا ظهور للعمل بوجوده الدنيوي وحينئذٍ ما يكتسبه الإنسان من الأعمال الحسنة كالصلاة والصوم والحج و ... الخ.

أوما يحققه من أعمال الخير كالزكاة والصدقة، وما يقوم به من البر والإحسان كلّها أعمال دنيوية، ولا ظهور لها بحسب هذهِ النشأة سوى ما نشاهده منها.

وكذلك للأعمال ظهوراً في النشأة الأخروية بوجود يُناسبها كالجنة ونعيمها وصورها وغلمانها وما تشتهيه الأنفس وتلتذ به، فليس لها حقيقة وراء تلك الأعمال التي اكتسبها أو حققها في حياته، فالأعمال الدنيوية تظهر بهذا النحو من الجزاء[2].

٢ ـ أو ملكات رديئة أو ما يُعبر عنه بجنبة النزول والدركات، وهو يمثل الجنبة السلبية في عمل الإنسان، فما يقترفه الإنسان من الأعمال السيئة كالشرك بالله سبحانه وظلم العباد وهتك الأعراض وسفك الدماء في هذهِ النشأة تظهر في يوم القيامة بوجودها المناسب لها، فتظهر بصورة الجحيم ونارها وما يواجهه من أنواع العذاب.

---

(١) الإمامة الإلهية ج١ ص٧٥ للشيخ محمد السند.
(٢) مناهج القرآن ج٨ ص٣٣٠.

وكلتا الملكتين ـ الملكة الحسنة النورانية، والملكة الرديئة ـ كلما ازدادت ترسَّخت في النفس أكثر حتَّى تصبح جوهرية، ومن هنا قالوا إنَّ الإنسان ليسَ هو النوع الأخير، بلْ يتلبس بعد الصورة الإنسانية بصورة وفعل إمَّا ملائكي أو شيطاني بهيمي سبُعي.

والله تعالى يُزد الذين آمنوا وعملو الصالحت قُرباً منه وهداية عقائدية بسبب فعلهم الأعمال المُقربة إليه تعالى والمحببة له فزادهم قُرباً وهداية، هذا بلحاظ قوس الصعود، بخلاف قوس النزول فإنَّه مَن يَفسِق ـ والعياذ بالله ـ فإنَّ عقيدته تنهدم ويوقِع نفسه في الهاوية بنفسه ﴿وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1]. فإنَّ الفعل السيء الذي يرتكبه الإنسان بسبب سوء اختيَاره في قوس النزول يورث صفة سيئة، والصفة السيئة تورث جحود عقائدي كما أشارت إلى ذلك الآية المباركة ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ﴾[2].

والإنسان في سعيه نحو الكمال إنَّما يبتغي أنْ يحصل على حالة الثبات، وهذا ما يُسمى بالكمال العَرَضي الذي سوف يكون في معرض الزوال فتعود حاله إلى ما كانت عليه قبل تحصيله. فهو يسعى لأنْ يحصل على كمال ذاتي بنحو جوهري لا يكون معرضاً للزوال، وبهذا يتكامل ويصعد في سُلَّم الكمالات ويثبت عند كُلّ درجة، ويحصل هذا التغيير الجوهري عن طريق الأفعال المؤدية للكمال حيث يحدث الفعل ـ عند تكراره والمواظبة عليه ـ حالات في النفس تنتقل إلى هيئات ثم تنتقل إلى ملكات فتشتد حتَّى

---

(١) سورة النساء: الآية ٧٩.

(٢) سورة الروم: ١٠.

تصل وتصبح فصولاً جوهرية.

بالإضافة إلى ذلك فإنَّ البدن يكون بشكل يتناسب مع القوّة التي يمتلكها الإنسان وغيره، فمثلاً في الأسد الهيئة الجسمانية له تناسب القوة التي يمتلكها ودلَّت الآيات والروايات على أنَّ الأجسام الأخروية هيأتها تابعة للفصول الجوهرية التي يتكامل بها الإنسان أو يتناقص.

كذلك في محل كلامنا إنَّ موارد الحكم بالحُسن هي نفسها في موارد الفضائل والكمالات، حيث يتبين أنَّها توجب تجسم الأعمال بصورة نورانية، وموارد القبح هي بنفسها موارد النقص التي تتجسم بصورة رديئة ظلمانية، فيظهر أنَّ الحكم بالقبح والحسن ليسَ اعتبارياً بلْ أمر عقلي له مناشيء تكوينية[1].

ثانياً: مدرك النظرية:

دلَّت الآيات القرآنية والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام على ذلك:

أمَّا الآيات هي:-

١ ـ قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوَءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾[2].

بتقريب: إنَّ الآية المباركة تصرِّح بحضور عمل الإنسان من خيرٍ وشرٍّ في النشأة الأُخرى.

---

(١) الإمامة الإلهية، ج١ الشيخ محمد السند.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٣٠.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَت﴾[1].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾[2].

بتقريب: إنَّ هاتين الآيتين الأخيرتين يستفاد منها التصريح في كيفية التجسم للأعمال، إنْ خيراً فخير، وإما شرّاً فشرٌ، فمثلاً عمل السوء في كتمان الحقيقة والواقعية في مقابل ثمن بخس، أو أكل مال اليتيم ظلماً فإنَّه سوف يتجسم ذلك العمل في الأخيرة بصورة النار، وعليه فكأنما لكل عمل يعمله الإنسان ظهورين: ـ ظهور في الدنيا وهو ما يشاهده كُلّ إنسان خلال سني عمره التي يعيشها، وظهوراً في الآخرة هو تجليه بصورة النار المحرقة، ويؤيد ذلك أنَّه سبحانه وتعالى تصِف الآخرة بأنَّها يوم تُبلى السرائر، ويقول: ﴿يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾[3].

وكأنما الحقيقة اختفت تحت اللثام فأضحت سرَّاً مستوراً، وفي ذلك اليوم تزول كافة الحجب وتظهر الحقيقة في أنصع صورها.

والمحصل من هذا كُلِّهُ: كأنَّ هذهِ الآيات الثلاث وإنْ كان يوجد غيرها ـ أوضح ما في الباب للدلالة على تجسيم الأعمال، وهي تثبت أنَّ نفس الأعمال التي اكتسبها واقترفها الإنسان يجدها أمامه يوم القيامة بأعيانها وتحضر بواقعها، ولو كان هناك اختلافاً فإنَّما هو في كيفية الظهور، وإلّا فالعمل نفس العمل والواقعية محفوظة ولكنْ ظهورها مختلف[4].

---

(١) سورة الطارق: الآية ٩.

(٢) مفاهيم القرآن ح٨ بتصرف.

(٣) سورة مريم: الآية ٧٦.

(٤) الكافي ج٢/ ٣٣٢ باب الظلم من كتاب الكفر والإيمان ح١١.

٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى . . . ﴾[١].

وأمَّا الروايات: فهناك عَّدة طوائف من الروايات دلَّت على تجسيم الأعمال نذكر منها:

أولاً: قال رسول الله ﷺ **«اتقوا الظلم فإنَّها ظلمات يوم القيامة»**[٢].

بتقريب: ـ كأنَّ الظلم يتجلى في الآخرة بصورة الظلمة، وعليه يكون للظلم ظهورين: ـ دنيوي وأخروي.

ثانياً: وقال رسول الله ﷺ في ضمن وصاياه لقيس بن عاصم: ـ **«إنَّه لابدَّ لك يا قيس من قرينٍ يُدفن معك وهو حيٌّ وتدفن معه وأنت ميت، فإنْ كان كريماً أكرمك، وإنْ كان لئيماً أسلمك، ثم لا يُحْشر إلّا معك، ولا تبعث إلّا معه ولا تُسأل إلّا عنه فلا تجعله إلّا صالحاً»**[٣].

ثالثاً: عن رسول الله ﷺ، قال: **«مَن تَقَرَّب إليَّ شبراً تقربتُ إليه ذراعاً، ومَن تَقَرَّبَ مني ذراعاً تقربتُ منه باعاً، ومَن أتاني مشياً أتيته هرولةً»**[٤].

هذهِ بعض الأحاديث عن تجسم الأعمال ومَن أراد الاستقصاء فعليه الرجوع إلى الجوامع الحديثية.

---

(١) تفسير البرهان هاشم البحراني ج٤ ص٨٧ في تفسير قوله (ونفخ في الصور) من سورة الزمر.

(٢) باب أحوال المتقين والمجرمين في القيامة من كتاب العدل والمعاد ح٦٩؛ والمحاسن للبرقي، ج١/ ٢٨٨، ح٤٣٢.

(٣) راجع: ـ أمالي الصدوق المجلسي الأوَّل ح٤، نهج البلاغة قسم الحِكَم ، الحكمة السادسة، بحار الأنوار، ج٧/ ص١٩٧

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج٢، ص٤٨٢؛ عوالي اللئالي لابن جمهور الأحسائي، ج١، ص٥٦، ح٨١.

أفعال الإنسان اختيارية أو لا؟

هناك نزاعٌ بين الفقهاء وغيرهم أنَّ بعض الأفعال القبيحة والمذمومة التي تصدر من الإنسان مثل الحسد والبخل وشرب الخمر والكذب والسرقة والعصبية و ... الخ.

هل هذهِ الأفعال وغيرها اختيارية للإنسان أو لا؟.

الجواب: إنْ قلتَ أنَّها ليست اختيارية فكيف نطالب بأنْ لا نحسِد وأنَّ الحسد حرامٌ ومن الكبائر التي توعَّد الله مرتكبيها النار، فحينها يصبح الإنسان مُجبراً، وهذا ليسَ صحيحاً ولا تقول به مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

وإنْ قلت: أنَّها اختيارية فمن الصعوبة بمكان أنْ نقول بسهولة أنَّ هذا الفعل الذي يصدر من الإنسان كالبخل أو الجبن أو إدمان المخدرات أو ... الخ، هو اختياري.

نعم، في بداية حصول هذهِ الأفعال والعادات المَرَضية الخفيفة القاتلة والهدّامة هي خطوات اختيارية.

أمَّا بعد مرور فترة طويلة على ممارستها وإدمانها وبعد أنْ تسيطر وتستفحل على مرتكبها ففي مثل هذهِ الحالة يَفلت زمام السيطرة على النفس، وعليه يمكن أنْ نقول: ـ أنها في هذا الظرف والوقت الراهن أنها ليست اختيارية، وليسَ معنى هذا أنَّه يبقى ويستمر عليها، وإنَّما لابدَّ من معالجتها والحدِّ منها ثم القضاء عليها.

وإنْ كان سدُّ الباب من أوَّل الأمر أمام إبليس والشياطين إحصانٌ

وعملٌ وقائي من أنْ يدخل الشيطان وأعوانه إلى النفس حتّى لا يتعود الخبيث من أنفسكم والسيطرة عليها، كما قال الإمام الصادقعليه السلام:ـ **«لا تعودوا الخبيث من أنفسكم بنقض الصلاة فتطمعوه، فإنَّ الشيطان خبيث يعتاد لما عُوِّدَ ..الخ»**[1].

ولو تنزلنا وقلنا أنَّ الشيطان نفث ودخل في النفس الإنسانية فإنَّ هذا ليسَ معناه هو أنْ نُسَلِّم للأمر الواقع وأنَّ ما نحن فيه هو للشيطان وأتباه، كلا ثم كلا، إنَّما هنا يأتي دور الرؤية العقائدية السليمة من الإنحراف التي بدورها تولِّد الصفة والصفة تولد فعل اختياري في النفس وقوّة إرادة، فإذا جعل الإنسان هذا في أعماق نفسه وتوكل على الله فإنَّ المصروع يصبح صارعاً بإذنه تعالى: ﴿إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾[2].

الخلاصة: فليحذر الإنسان من الاعتقاد برؤىً فاسدة وخاطئة؛ لأنَّ تولد في النفس آثار سلبية وتمرُّد وعصيان وعدم انقياد لله تعالى؛ لأنَّ الرؤية العقائدية الحسنة تولِّد صفة حسنة وتولد فعل حسن.

ولذلك يُلحظ أصحاب الرؤى الفاسدة والعياذ بالله ـ أنَّهم يعتقدون بأنَّهم أصبحوا أُسارى للشيطان ولهذه الهيئات المعينة ويوسوس لهم الشيطان أنَّه لن يستطيع التخلص منها، ولذا حَذَّر الإمام الصادقعليه السلام من تعويد الشيطان؛ لأنَّه أنْ عودتموه الخبيث تعوَّد ـ والعياذ بالله ـ والتخلص من حبائل الشيطان وشراكه عندما توقِع الرؤى الفاسدة نفس الإنسان فيها

---

(١) الكافي ـ للكليني، ج٣، ص٣٥٨/ ح٢؛ الطوسي في الاستبصار، ج١، ص٣٧٥ / ١٤٢٢.

(٢) سورة يوسف: الآية ٨٧.

فمن الصعوبة بمكان التخلص منها خاصة ذو النفوس الضعيفة والمريضة، الذين دائماً يصابون ويسحرون بمسٍّ بسبب تفاقم الرؤى العقائدية الفاسدة التي يقع فيها بخلاف ما إذا كانت نفس الإنسان مؤمنة مطمئنة بعقائد نورية وحيانية محمديّة صحيحة فإنَّ الشيطان وأتباعه لا يقرُب منها؛ لأنَّها لمْ تنقاد إليها بخلاف ما إذا كان الإنسان ضعيف النفس، فهؤلاء الذين يُسحرون أو يصابون بمسٍّ ذلك بسبب تفاقم الرؤى العقائدية الفاسدة التي يعتقدون بها.

وهذا النظام الثلاثي الذي اخترناه، ليسَ فقط بالنسبة إلى العلوم والمعارف الدينية بشتى أنواعها، وإنَّما حتَّى في باقي العلوم الجامعية والأكاديمية الأُخرى، فمثلاً في علم القانون والعلوم الإنسانية وغيرها أيضاً يعتمدون هذا النظام الثلاثي للتفسير ـ فعل صفة رؤية.

فالعلوم الإسلامية عندهم مثلاً الرؤية الكونية والأيديولوجية هي أساس الفلسفة الأخلاقية، وهذهِ الفلسفة هي صفات الرؤية الكونية يعني عقيدة وفكر وفلسفة، وهكذا الفلسفة الأخلاقية هي أساس للفلسفة الحقوقية والدستورية والقانونية.

النتيجة: من كُلّ هذا يُعلم أنَّ النظام الثلاثي ـ ألفاظ، معاني ـ حقائق ـ نظام حاكم ومهيمن على العلوم الباحثة عن حتَّى مثل أحوال الطب الإنساني، بلْ وحتَّى ما يرتبط بعالم المادة والظواهر الطبيعية.

إذنْ هناك سلسلة مراتب علوم عقائدية أو رؤوية ـ أي من العقيدة والفكر ـ ثم علوم إنسانية ثم علوم بدنية تربط بالبدن بعضها مهيمن على البعض الآخر.

وهو ما يُعبَّر عنه بعلم الاشتقاق والوصول إلى جذر وأساس الكلمة المعروف بـ (علم الصرف).

فإذا قرأت القرآن تلاحظ أنَّ البشر يعجز من أنْ يمارس نظام الاشتقاقات في القرآن، فالخبير المتخصص في هذا المجال يُلاحظ أنَّ القرآن يأتي بتفعيلة للفعل، وثانية للاسم، وثالثة للجملة الأسمية ورابعة جملة مُؤكدة و ...الخ.

ويلاحظ المُتخصص كيف يتجول القرآن بانسيابية فائقة في المواد اللفظية في الآية الواحدة فضلاً عن السورة الواحدة.

علماً أنَّ هذهِ الممارسة الاشتقاقية ـ كما مَرَّ ـ وكما سيتضح كذلك من خلال البحوث الآتية في المواد القرآنية، يعجز عنها متكلمو وبلاغيو وصرفيو ونحويو ومفكرو البشر، فمثلاً النحويون لمْ يحيطوا باشتقاقاته وتعدد المصارد والصفة المشبهة والفعل ...، وأحياناً يأتي القرآن بالمعنى في موضع وباللفظ في موضعٍ آخر وهكذا مسألة التقديم والتأخير والقواعد المرتبطة بها فإنَّ لها انسيابيةً ونسق واحد من القرآن ولا يلزم منها التافت.

وهكذا الشاعر لمْ يستطع أنْ يأتي في قصيدته بسبك نفس السبك القرآني ويحافظ عليه وهكذا باقي التخصصات الأُخرى، بلْ البشر بكافة عقولهم وباختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية والتخصصية يعجزوا من أنْ يأتوا بآية واحدة يمارسُ فيها سبك كالسبك القرآني.

هذا كُلَّهُ في الطرف الذي عند الناس، وإنْ كان حاق بعض اللغات

غير مكتشف في القرآن الكريم، علماً أنَّ أهل البيت عليهم السلام أشاروا من خلال بياناتهم إلى قِمم هذهِ العلوم، وأنَّ أُسسها مبثوثة ومشروحة على مختلف العلوم.

هذا من جانب الألفاظ والاشتقاقات، وهو بالطبع غير جانب صياغة فك المعنى.

المقام الثاني

النظام الاستعمالي اللفظي في القرآن الكريم

وفيه بيان:

القاعدة الأُولى: . التعريض، وفيها بيان عدةً أمور:

- ❖ أولاً: ما معنى التعريض؟
- ❖ ثانيا: تنبيه.
- ❖ ثالثا: الكناية أبلغ من التصريح.
- ❖ رابعاً: كلام أمير المؤمنين عليه السلام حول التعريض.
- ❖ خامساً: أهمية دلالة التعريض وفائدتها.
- ❖ سادساً: التعريض ليسَ مختصاً بعلم التفسير.
- ❖ سابعاً: بيان إعجاز القرآن الكريم هو أحد أدلّة إمامة أهل البيت عليهم السلام.
- ❖ ثامنا: برهان علمي حديث على إعجاز القرآن وحقانيته على إمامة أهل البيت عليهم السلام.

القاعدة الأولى: التعريض

المقدمة:

إنَّ الخوض في قواعد نظام الاستعمال اللفظي في القرآن سيكون معمَّقاً لا سطحياً ضمن سلسلة أنظمة، وكما ستتعرض خلال البحوث الآتية ـ إنْ شاء الله تعالى ـ وفق منهج أمومة المحكمات وأمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام في القرآن ـ ولا نريد أنْ ندعي أنَّ البحوث التي تَعَرَّضنا إليها هي خاتمة البحث والتحقيق، وإنْ كنَّا بحثناها بحثاً معمَّقاً وكان البحث مشتملاً على بيان دقائق النكات العلمية والفنية والصناعية، إلّا أننا نوصي الأخوة الباحثين والمتتبعين وأنفسنا جميعاً في التبحر والتأمل في إجراء هذهِ القواعد البلاغية المختلفة فإنَّه يزيد الباحث والمتتبع مهارة ومراس لمْ يصل إلى درجته جملة من كبّار علماء الادب والبلاغة السابقين أمثال الزمخشري الذي عكف على دراسة التركيب في الجانب الأدبي والدلالات الأدبية الخفية في آيات القرآن وقال عنها نفس الزمخشري أنَّها نكات لطيفة وإنْ كان المعروف عنه ـ الزمخشري ـ استفاد هذهِ النكات من تفسير التبيان للشيخ الطوسي رحمه الله.

وعليه فهذا الزمخشري البلاغي العملاق رغم عقود بهذا المراس واكتشاف النكات البلاغية الأدبية إلّا أنَّه هناك نكات فنية وعلمية وصناعية لمْ يكتشفها ولم يشم رائحة اكتشافها إلّا أنَّها اكتشفت بعده، وهذا أمر طبيعي عند أصحاب كُلّ فن.

وهكذا علماء النحو والصرف أمثال رضي الدين الاسترابادي[1].

---

(١) المعروف بنجم الأئمة من علمائنا الأبرار الإمامية ـ ألَّف كتاب الكافية في الصرف

وهذهِ القواعد التي بحثناها ولا زال البحث فيها قائماً هي أوسع شأواً وأُفقاً من أني يستوعبها جيلٌ من البشر، بلْ هي بتعاطي جهود الأجيال تتسع تطبيقاً ومساحةً ومداراً لتراكم جهود الأجيال البشرية وعليه فمن الخطأ جداً، بلْ من غير المنطقي ولا المعرفي التعديل والاعتماد على أفق درجة جيل سابق والاعتماد على نتاج أفكار الأجيال السابقة فقط من دون أنْ نطورها ويُضاف إليها نتاج الجيل اللاحق وإبداعاته وأفكاره الناتجة عن نضوج تلك القواعد لدى الجيل اللاحق مع ضمان كامل الاحترام والتقدير للجهود العلمية التي بُذلت فهم مشكورون وجزاهم الله خيراً على سعيهم في هذا المجال.

ولكنْ بنفس الوقت على الجيل اللاحق أنَّ يواصل الدرب، ومثل هذا ليسَ فقط عند أصحاب فن معين كالبلاغة أو النحو أو الصرف، بلْ حتَّى الناقد الأدبي الذي يرفع التقاضي لمحكمة التنافس والسياق الأدبي سواء كان هذا الأدب قبل الإسلام وفي الجاهلية وسواء في لغة العرب وبعد الإسلام أو لغات أُخرى، فإنَّ الناقد الأديب دائماً يصل إلى مساحات من تطبيق علم الأدب لا يصل إليها غيره مما يعني أنَّ مساحة اكتشاف تطبيق القواعد أو اكتشاف قواعد جديدة ليسَ يقف عند حدٍّ معين في علوم اللغة الإنسانية لاسيما اللغة العربية.

وغرضنا الأساسي الذي نريد تسليط الأضواء عليه هو أننا لا نريد أنْ نشبع أو نستفظع على الآخرين الذين تقدمونا أو قبلنا بقليل من الأجيال التي سبقتنا بأنَّ هناك ظهورات في كينونة القالب اللفظي للمفردة القرآنية

تحت قبة أمير المؤمنين عليه السلام.

ولم يكتشفوها وأنَّ هناك قواعد وشواهد موجودة وقدْ أشارت إليها الروايات، ولكنْ وللأسف لمْ يعتنِ بها حتَّى مفسرو الخاصة ـ كما سيتضح كُلّ ذلك من خلال البحث عن كُلّ قاعدة في محلها ـ

إلّا أنَّه نريد التنبيه على خطأ أدبي كان يرتكبه المفسرون والقرّاء والمجودون للقرآن وعلماء القراءات بحسب نفس منصّة أصل الوضع اللغوي، والكل غافل، وعلينا أنْ لا نستعظم اكتشاف مثل هذهِ القاعدة الموجودة في كيان القالب اللفظي للمفردة القرآنية، وهذا يمكن العثور عليه من خلال المداولة لروايات أهل البيت عليهم السلام التي أشارت إلى خطأ لغوي ارتكبه المفسرون والمجودون في كيفية الوصول إلى ما يريده أهل البيت عليهم السلام أي ما يوصلهم إلى أصل وحاق الدلالة التصورية أي بحث في أصل وضع اللغة ثم يتفرع البحث إلى الدلالة الاستعمالية التفهيمية ثم المراد الجدي والكل على طبقات كما سوف يتضح كُلّ ذلك إنْ شاء الله تعالى.

وعلى أي حال فإنَّ الأئمة عليهم السلام بيّنوا وجود خطأ في أصل الالتفات إلى الوضع اللغوي في الآية عند المفسرين أو القرّاء.

إذنْ تطبيق القواعد المعروفة لمْ ينته بَعْدُ، ولا زال هناك قواعد غير مكتشفة فضلاً عن تطبيقها في القرآن الكريم ورغم وجودها في كينونة حاق اللفظ والمسيرة لا زالت طويلة.

وبعد هذهِ المقدمة نقول:ـ

تباينت آراء البيانيين واختلفت كلمتُهم، فمنهم مَن ذهب إلى أنْ الكناية والتعريض شيء واحدٌ.

ومنهم مَن جعل التعريض قسماً من الكناية، وثال ذهب إلى أنَّ الكناية تختلف عن التعريض ولكُلٍّ وجهٌ.

ولا غرو أنْ نقول: إنَّ نظام الاستعمال اللفظي ونظام التعريض هو نظام الدلالات الخفية.

الكناية لغةً: ما يتكلم به الإنسان ويُريد به غيره، وهي مصدر كالرماية والعناية والهداية، فيقال: ـ هدى هداية، وعنى عناية، ورمى رماية، وكنّى كنايةً.

اصطلاحاً: لفظ أُريد به غير معناه الذي وضع له مع جواز إرادة المعنى الأصلي لعدم وجود قرينة مانعة من إرادته.

إذنْ الكناية اصطلاحاً: ما يُراد بها المعنى ويُعبر عنه بغير لفظة الموضوع له.

فمثلاً: فلان كثيرُ الرمادِ، كأنَّ تريد إثبات الكرم لإنسانٍ ما، ولكنك تعبر عنه بغير اللفظ الموضوع له، فتقول مثلاً: كثير الرماد ولا شك أنَّ كثرة الرماد لمْ توضع لمعنى الكرم ـ وهو الذي اختاره عبدالقاهر الجرجاني ، وعليه يكون معنى الكناية هو: ـ

أنَّ تُطلِق اللفظ وتريد به لازم معناه مع قرينة لا تمنع من إرادة المعنى الحقيقي.

التعريض:

التعريض لغةً: خلاف التصريح، وهو إمالة الكلام إلى عُرْض ـ بضم العين ـ وهو الجانب والناصية.

اصطلاحاً: فقدْ عُبِّرَ بعدَّة تعبيرات.

أولاً: ما ذكره السبكي في عروس الأفراح: ـ وهو الدلالة بالمفهوم

بقصد المتكلم[١].

ثانياً: قال السكاكي: ـ إبراز غير الحاصل في معرض الحاصل إمَّا لقوة الأسباب وكون ما هو للوقوع كالواقع، والتفاؤل وإظهار الرغبة.

وأمَّا تعريضاً: ـ بأنْ ينسب الفعل إلى واحد والمراد غيره كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[٢].

قال ابن عباس هذا أدب من الله تعالى لنبيه ﷺ وتهديد لغيره؛ لأنَّ الله تعالى قدْ عصمه من الشرك.

والشاهد فيه: قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ فالمخاطب هو النبي ﷺ مقطوع به، حيث استعملت هنا كلمة إنْ مع لفظ الماضي تعريضاً على مَن صدر منه الشرك، إذنْ الإتيان بلفظ الماضي (أشركت) للإشارة إلى أنَّ المعنى على الاستقبال ـ وإبرازاً للإشراك الغير الحاصل في معرض الحاصل أي إبرازاً للإشراك (الشرك) الذي هو غير حاصل من النبي ﷺ في أحد الأزمنة في معرض الحاصل، كل ذلك على سبيل الفرض والتقدير تعريضاً بمن صدر عنهم الإشراك بأنْ قد حبطت أعمالهم، كما إذا شتمك أحدٌ فتقول: ـ والله إنْ شتمني الأمير لأضربنه وهذا تعريضٌ بأنَّ إذا شتمك يستحق العقوبة وإنك تضربه وإنْ كان أميراً، فتميل الكلام إلى جانب أي ضربك الأمير على تقدير صدور الشتم منه ينتقل إلى الذهن بالقرينة منه إلى

---

(١) عروس الأفراح ج٤ ص٤٠٨.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

ما هو المقصود وهو المقصود وهو ضربك المخاطب الذي صدر منه الشتم[١].

ثالثاً: ما ذكره ابن معصوم في أنوار الربيع: ـ التعريض: هو الإتيان بكلام مشار به إلى جانب هو مطلوب وإيهام أنَّ الغرض جانب آخر، وسُميَ تعريضاً لما فيه من الميل إلى المطلوب إلى عُرضٍ بالضم أي الجانب ويُقال: ـ نظر إليه بعُرض وجهه أي بجانبه.

ومنه المعاريض في الكلام وهي التورية بالشيء عن الشيء، وفي المثل: إنَّ المعاريض لمندوحة عن الكذب أي سعة وفسحة، وهو إمَّا لتنويه جانب الموصوف كما يُقال: ـ أمْرُ المجلس السامي نَفَذَ، والستر الرفيع قاصِدٌ لكذا تعريضاً بأنَّ المعبر عنه أرفع قدراً وشأناً من أنْ يَسَعَ الذاكر له التصريح باسمه وترك تعظيمه بالسكينة[٢].

رابعاً: ما ذهبنا إليه التعريض: هو أنَّ يُطلق الكلام ويُشار به إلى معنى آخر يُفهم من السياق فتقول: ـ عرَّضتُ بفلان، إذا قلت قولاً لغيره وأنت تعنيه هو: ـ إياك أعني واسمعي يا جاره، أو مثل قولك للمؤذي: ـ المسلم مَن سلَّم المسلمون من لسانه ويده، تعريضاً ينفي صفة الإسلام عن المؤذي.

وعليه فالتعريض: هو أنْ يُذكر المتكلم جملةً من القول يريد بها شيئاً آخر.

الخلاصة: هذهِ توصيةٌ وشقشقة لابدَّ من دق جرس الإنذار مَرَّات فيها؛ لأنَّ المُفَسِّر دائماً في حالة سُبات ويظن بأنَّ هذهِ المنظومة الأدبية والرسم الأدبي الذي رسمه للآية هو منتهى ما في الآية من ظهور، وهذا

---

(١) دروس في علم البلاغة للبامباني ج٢ ص١٤٣.

(٢) أنوار الربيع لابن معصوم/ ج٦ ص٦٠.

أوّل الكلام وأوّل غفلة سيقع فيها المُفَسِّر إذا كان يدور في خلده هذا المعنى.

وليكن نصب أعيننا روّاد البلاغة الإلهيين وهم النبيﷺ وعترته الطاهرة من قولهم العلمي في المعجز في علم البلاغة حيث يقولونعليهم السلام: **«... ولا يكون الرجل منكم فقيهاً حتَّى يعرف معاريض كلامنا وإنْ الكلمة من كلامنا لتنصرف على سبعين وجهاً لنا من جميعها المخرج»**(١).

وعليه فالقرآن الكريم كتاب الله ومِن خالق الكلام هو منظومة نظام جحفلي لا انتهائي انشطاري وإنَّما اكتشاف القواعد والنكات العلمية والبلاغية والنحوية والأدبية واللغوية و ... الخ. إلى اللامحدود وأنَّ في كل آية كما هو مضمون تعبير الإمام زين العابدينعليه السلام ـ كنوز وجواهر ـ إلّا أنَّ المشكلة التي تواجه المفسرين يدعي أنَّ ما أتى به في مختلف المناهج التفسيرية هو بضاعة ليسَ فوقها بضاعة وهي السهم المُعَلَى وهي ... الخ ومن الواضح هذا خطأ، وربما يقول البعض إنَّ هذا بيان أو قاعدة إجمالية وهي بدورها تعطي ضابطة لمنهجية المُفَسِّر الانفتاح على آفاق غير محدودة، فهذا صحيح بخلاف ما إذا جزموا وقالوا إنَّ هذا هو المراد وقطعاً ونجزم به فإنَّ مثل هذا غير صحيح؛ لأنَّ البحوث الحديثة في الفلسفات الحديثة والألسنيات تقول:ـ

إنَّ الحقيقة لا يمكن أنَّ يمتلكها شخص إلّا إذا كان بعون وبمدد من المعصومعليه السلام باعتبار أفقه واسع ووحياني ولهم القدرة على ذلك ـ كما أشرنا إليه ـ فإنَّه لمْ يستطع جهابذة وأكابر أهل العلم الوصول إليها لا بالمطالب البلاغية ولا النحوية ولا الصرفية ولا ... الخ بخلاف بقية الباحثين غير

---

(١) معاني الأخبار للصدوق، الكافي ج٨ الروضة.

المعصوم من علماء ومحققين ومفسرين دائماً يجب أنْ يقولوا «**لا علم لنا إلّا بمقدار يسير**»؛ لأنَّ الباحث والمُفَسِّر لمْ يدرس الآفاق اللامتناهية حتَّى تقول تفسيري لهذه الآية هو المطابق للواقع وهو ... كلا إنَّما فيه من الجهالة الشيء العظيم.

فائدة: المعاريض: جَمع لِمِعْرَاض، يُقال: عرفتُ ذلك في معراض كلامه أي في فحواه. حتَّى ضُرب مثلاً هكذا وَرَدَ من كلام عمران بن حُصين ابن عبيد أبو نجيد خزاعي (٥٣هج ـ ٦٧٢م) والأجود من هذا أنْ يُقال التعريض ضد التصريح وهو أنْ يُلْغِزَ كلامه عن الظاهر فكلامه مُعَرَّض[١].

سؤال: ما هو الفرق بين الكناية والتعريض؟

الجواب: ذكر البلاغيون في كلماتهم ـ من خلال ما تقدم بيانه ـ هو: ـ إنَّ الكناية ما يتكلم الإنسان بجملة ويريد بها غيره، وهذا يُفهم من خلال اللزوم.

والتعريض: هو نفس ما في الكناية ويفهم من خلال السياق لا اللّزوم كما مَرَّ.

تنبيه: تعتبر هذهِ القاعدة ـ التعريض ـ الأس الأساس في النظام الاستعمالي في ألفاظ القرآن، إلّا أنَّ المفسرين وللأسف لمْ يولوه العناية القصوى ولم يُعتَنَ بالظاهر الأولي لألفاظ القرآن الكريم التي تعتبر منطلقاً ومبدءَ الحلقات أُخرى ومع ذلك لا يصح الاقتصار على مبحث الظهور

---

(١) مجمع الأمثال للميداني، ج١/ ٨٤.

والظاهر، بلْ لابدَّ من التوسع والتبحر في علم التعريض.

وعلم التعريض كما سيأتي تفصيل ذلك ـ ومَرَّ بعضه ـ له أقسام عديدة: ـ

منها ـ الكناية ، ومنها الاستعارة، ومنها الالتفات، ومنها التلويح، ومنها التنبيه، ومنها الإيحاء والإشارة ... الخ من أقسام الدلالة الالتزامية، إلّا أنَّه توجد ثغرات في هذهِ الأقسام وهي عدم بيان موازين هذهِ الأبواب والأقسام، صحيح علم البلاغة اعتمد على هذهِ الأبواب إلّا أنَّه لمْ يعطها حقها من العناية، إذْ لمْ يتوسع في علم البلاغة في باب التعريض وأقسامه بشكل مبسوط وواسع، نعم، في كتب الأصول لعلَّه شيئاً ما تُوسِّع في هذهِ المباحث عند القدماء، أمَّا عند متأخري محققي الأصوليين والمعاصرين للأسف هجرت بالمرَّة، فمثلاً كتاب القوانين للميرزا القمي تعرض لمثل هذهِ المباحث ولعلَّه توسع فيها شيئاً ما، علماً أنَّ هذهِ المباحث من صميم بحوث الاستظهار التي تُعدُّ من أهم أدوات الاستنباط هو كون استظهاره سليماً من الآيات القرآنية والروايات الشريفة.

نعم، مبادرات بُذلت من بعض العلماء المتأخرين أمثال: ـ الميرزا مهدي الأصفهاني رحمه الله[١] له كتاب المعاريض من نفس حاقة التعريض، وكذا الشيخ أبو المجد الأصفهاني[٢] له كتاب في علم الأصول في مباحث الألفاظ توسع توسعاً لطيفاً في بمحث التعريض.

---

(١) من سُلالة آل كاشف الغطاء، اشتهر بلقب (آغا نجف).

(٢) الميرزا مهدي الأصفهاني من تلامذة الشيخ النائيني قدس سره والسيد اليزدي من خريجي حوزة النجف الأشرف ثم انتقل إلى مشهد الإمام الرضا عليه السلام وأسس مدرسة كلامية تقريباً في ضمن منهاج أهل البيت عليهم السلام تسمى بمدرسة التفكيك.

الخلاصة: الغرض من هذا التأكيد والتشديد على أهمية مبحث قاعدة التعريض؛ لأنَّ هذهِ القاعدة هي أس أساس النظام الاستعمالي في القرآن الكريم والوحي الشريف وبالتعريض بُعث سيد الأنبياء محمدﷺ، وبُعث سائر الأنبياء والمرسلين بالتصريح وإذا كان الأمر كذلك فلابدَّ للأدباء والمفسرين والأصوليين ومن اتقان هذهِ القاعدة المهمة والتوسع والتضلع فيها كي يكون المسير في الدلالات التعريضية سيراً وفق منهج منضبط.

وعدم توسع العلماء من فنون مختلفة في هذا الباب ـ التعريض ـ؛ لأنَّه باب وعلمٌ صعبٌ وتمام مقاليد وأزمّة هذا العلم عند المعصومعليه السلام.

ما معنى التعريض؟

التعريض لغة: هو الإشارة إلى جانب وإرادة غيره، هو الحجيّة العظيمة ولكنْ بشكل مخفف وفي إعطاء المهلة وقطع العذر تُستمهِل أكثر بياناً وأعظم منه؛ لأنَّ رسول اللهﷺ بُعِثَ بالكتاب المهيمن على من قبله من الكتب، ورغم كون هذا الكتاب مهيمن وقاطع للعذر ولكنَّه بشكل مخفف المعلومة عظيمة العلم، والقرآن الكريم يوصل هذهِ المعلومة العظيمة العلم إلى البشر بشكل رقيق وبأسلوب ليِّن وفيه مهلة وإمهال ورويّة وتروي وتدبر أكثر فأكثر، ولذا كان بعث النبيﷺ أرأف وأرحم للبشر، ولكنْ كُلّ هذا يحتاج إلى صبر وسِعَة صدر وتحمل من سيد الأنبياء ولأنّه كان ذو صبر أكثر كان ذو سعة صور وشرح صدر ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[1]؛ لأنَّهﷺ في مقام تحمل مسؤولية عظمى ألا وهي مسؤولية التربية والتزكية والتعليم للبشرية أكثر من سائر الأنبياءعليهم السلام، فمثلاً على لسان موسىعليه السلام يخاطب ربّه

---

(١) سورة الشرح: الآية ١.

﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي﴾[1].

بينما خاتم الأنبياء يقول له الحق جل وعلا ابتداءاً منه تعالى ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾[2].

إذنْ أسلوب التعريض أبلغ بكثير من أسلوب التصريح، ولذا قال علماء البلاغة، (الكناية أبلغ من التصريح) في البلوغ والوصول لهدف لهداية من التصريح، وهذا جواب عمن يقول لماذا لا يوجد تصريح في القرآن الكريم؟ فإنَّ التصريح في بعض حالاته يولِّد حالة تشنج وتمرد وعصيان لدى المخاطب، وربما تُولِّد له ردَّة فعل معاكسة.

بخلاف التعريض والتعبير الهادي الذي فيه توصية من النبي صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام في عموم أبواب الدين، فمثلاً: ـ باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه التوصية بأسلوب الرفق دون الحِدَّة؛ لأنَّ الرفع أبلغ وهو أسلوب الإحسان ونهج أئمتنا عليهم السلام في كافة مجالات الحياة الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية و ... بما في ذلك مجال الحرب والجانب العسكري فإنَّهم يتمتعون بأخلاق عسكرية عالية وشعارهم الرفق واللين والإحسان حتّى في ساحة الحرب، ولذا جسَّد هذا المعنى الإمام الحسين عليه السلام عندما قال يوم عاشوراء: أكره أنْ أبدأهم بقتال ... وكانت كلماته عليه السلام أمهلوني أنْ أخاطبكم بكلام الله فيه رضاً لكم وموعظة وهداية ... وكل ما قال الحسين يوم كربلاء هو دائماً فيه أسلوب الرفق وهو أبلغ.

الخلاصة: إن التعريض كما ذكره أمير المؤمنين عليه السلام أبلغ من التصريح

---

(١) سورة طه: الآيات من ٢٥ ـ ٢٧.

(٢) سورة الشرح: الآية ١.

في جوانب عديدة:

منها: الجانب التربوي والاجتماعي والثقافي والسياسي والحربي ... الخ؛ لأنَّ التعريض تخفيف وهو لينٌ فيُعطيك فرصة واختيار وخيار وإرادة للطرف المقابل للهداية لذا بُعِثَ صلى الله عليه وآله بالتعريض بينما باقي أنبياء الله تعالى بالتصريح.

كما ويؤكِّد أمير المؤمنين عليه السلام في هذا الحديث الشريف على أنَّ أحد المفاتيح الكبرى للتمكن من تفسير القرآن ومعرفة ظاهر القرآن هو معرفة نظام التعريض في الأسلوب والكلام وأنَّه أسلوبٌ اعتمد عليه القرآن الكريم، بلْ يعم الأحاديث القدسية من الله تعالى على لسان النبي أو العترة، وكذلك يعم حديث النبي صلى الله عليه وآله نفسه الذي أوتي صلى الله عليه وآله جوامع الكلم، وكذلك يعم كلامه العترة الطاهرة الحافظة للقرآن بكل ما للحفظ من معنى أيضاً قائمة على نظام التعريض لا التصريح بخلافه في الكتب السماوية الأُخرى من التوراة والزبور والإنجيل وصحف آدم وإبراهيم فإنَّ نظام الاستعمال فبها قائم على التصريح، وهذا لا يتنافى مع وجود تأويل في تلك الشرائع والكتب السماوية.

أيضاً هناك بيان يصلح كشاهد على ما نحن فيه وباقي المقامات الأُخرى ما جاء في كلام الإمام الصادق عليه السلام ما مضمونه: **«إنَّ لكلامنا هذا أبطن تحت بطن ... إلى سبعين بطناً»** أو **«إنَّ في كلامنا متشابه ومحكم»** ورَدّ المتشابه إلى المحكم وهذا معناه تطبيق أمومة المحكمات.

كما للقرآن باطن وظاهر ومحكم ومتشابه كذلك لكلامنا (كلام المعصوم) باطن وظاهر ومحكم ومتشابه؛ لأنَّهم عليهم السلام نقلة الوحي، كما أنَّ

القرآن ينقل الوحي الإلهي.

فائدة: قال السكاكي: تتفاوت الكناية إلى: تعريضٍ وتلويحٍ ورمزٍ وإيماء وإشارة وذكر التفتازاني: إنَّ السكاكي قال: تتفاوت ولم يقل تنقسم؛ وذلك لأنَّ التعريض وأمثاله مما ذكر ليسَ من أقسام الكناية فقط بلْ هو أعم كذا في شرح المفتاح(١).

وأمَّا ما هو المختار حسب منهجتنا الخاصة من أنَّ الكناية من ضمن أقسام التعريض ويعبر عنها بالكناية العرضية أو التعريض بالكناية: ـ وهي إمالة الكلام إلى عارضٍ دال على المقصود، والمراد من عارض أي جانب مائل عرضي وليسَ بشكل مستقل.

التلويح لغةً: ما تُشير إلى غيرك من بُعْدٍ.

واصطلاحاً: هو اقتضاب بالدلالة على الشيء بنظيره وإقامته مقامه.

أو: ما يُقتبس من الآية أو يكتفى بمعناها تلويحاً.

أو: هو الكلام الذي كَثُرت وسائِطُه بلا تعريض أي كثرة الوسائط بين اللازم والملزوم وتشير إلى المعنى المقصود ومن بعيد.

كما قول الشاعر: ـ

وما يَكُ فيَّ من عيبٍ فإنِّي جبان الكلب مهزولُ الفصيل

وهنا كنّى الشاعر عن كرم الممدوح بكونه جبان الكلب مهزول الفصيل فإنَّ الفكر ينتقل إلى جملة وسائط.

---

(١) مختصر المعاني أقسام الكناية.

الرمز لغةً: أنْ تشير إلى قريب منك خِفيةً بنحو شِفَةٍ أو حاجب.

واصطلاحاً: هو الذي قَلَّتْ وسائطه مع خفاءٍ في اللزوم بلا تعريض نحو: فلانٌ عريض القفا، أو عريض الوسادة، كناية عن بلادته وبلاهته، وكذا: هو مكتنز اللحم كناية عن شجاعته، ومتناسب الأعضاء كناية عن ذكائه وغليظ الكبد كناية عن القسوة.

الإيماء أو الإشارة: هو الكلام الذي قلَّت وسائِطُهُ مع وضوح اللزوم بلا تعريض وبلا خفاء دلالة بوسائط. وغيرها الكثير من أقسام الدلالة الالتزاميّة كما أشار إلى ذلك الشيخ محمد رضا المظفر‍ﮓ[1] إلى دلالة الإيماء والإشارة والتنبيه و ... الخ.

فهذه نموذج من نماذج الدلالة الالتزامية الخفيّة وليسَ على سبيل الحصر وإلّا فأنواع الدلالات الالتزامية كثيرة جداً.

---

(١) أحد علماء ومفكري الإماميّة صاحب كتاب أصول الفقه وله كتاب المنطق، وعقائد الإمامية وكُلّها تدرَّس كمنهج في الحوزات العلمية الشيعية.

تنبيه

أولاً: قدْ تستعمل القاعدة الواحدة في أكثر من نظام من الأنظمة السابقة ـ نظام الاستعمال للألفاظ، ونظام المعاني الإشارات أو اللطائف، ونظام الحقائق، كما سيتضح خلال البحوث الآتية إنْ شاء الله تعالى، ولكنْ تكررها ليسَ بنفس هويتها، وإنَّما تتكرر بهوية أُخرى وبمضمون وببيان آخر.

ثانياً: إنَّ النظام الاستعمالي بألفاظ القرآن الكريم قائمٌ على نظام التعريض، وينبغي الالتفات إلى أنَّ مبحث التعريض كما مَرَّ ليسَ قائماً بالكناية فقط، وإنَّما هناك أقسام تشمل التلويح الكناية والاستعارة والإشارة والإيماء والتنبيه ... الخ.

ثالثاً: [الكناية أبلغ من الحقيقة والتصريح]

ذكر البلاغيون أنَّ المجاز والكناية أبلغ من الحقيقة ومن التصريح أي معناه أنَّ كُلّ من المجاز والكناية أبلغ في إيصال المطلوب، وهذا لأوَّل وهلة قدْ يستغرب منه حتَّى مَن عنده شيء من الفضل والتحصيل فضلاً عن الجاهل بأنَّه: كيف الكناية والتي هي عبارة عن نوع من الخفاء والستر والتعريض والتفاف ودوران ومع ذلك هي أبلغ في الإيصال إلى المعنى من التصريح أو قل أنَّ الكناية: كُلّ دلالة خفية مشتملة على الدلالة على الشيء المدعى بالبينة والبرهان فهو يفيد زيادة تأكيد للإثبات.

من الواضح إنَّ المتكلم يأتي ببيان وبدليل فيشير إلى النتيجة بالدليل

بدلاً أنْ يُصرِّح بها.

كما قال أمير المؤمنينعليه السلام لأصحابه في حرب صفين عندما رأوا معسكر معاوية يسبون ويلعنون فقالعليه السلام: **«لا أحب أنَّ تكونوا لعانين ولكنْ اذكرو أعمالهم»**[١].

بتقريب: إنَّك إذا ذكرت أعمالهم وبينت هذهِ الحقائق ولعموم المسلمين فإنَّه سوف يغنيك عن ذكر النتيجة؛ لأنَّه في ذكر مثل هذهِ الحقائق هو نوع من ذكر النتيجة مع البرهان.

مضافاً إلى أنَّه قدْ في بعض الأحيان قدْ تذكر النتيجة من دون ذكر برهانها فإنَّ الكثير منهم يشمئز من ذلك ولكنْ لو ذُكر البرهان ولم يذكر النتيجة فإنَّ الطرف إذا كان داعياً يلتفت إلى أنَّ هذا البرهان وهذهِ الأعمال التي ذكرها أمير المؤمنينعليه السلام وأصحابه لمعسكر معاوية ماذا تؤدي إلى من نتيجة.

وعليه فإنَّ علماء البلاغة يعللون أنَّ الحجية في الدلالة في التعريض أبلغ من التصريح؛ لأنَّ الحجية التعريضية فيها تضمن الدلالة للبيان والدليل والبرهان. ومعنى أبلغ أي أثبت وضوحاً للسامع؛ لأنَّه من باب التدليل على الشيء ببينة فهو يفيد زيادة تأكيد للإثبات.

رابعاً: وخيرُ شاهد على استعمال التعريض ما جاء في كلام أمير المؤمنين عليٌّ بن أبي طالبعليه السلام حول التعريض.

وَرَدَ في احتجاج أمير المؤمنينعليه السلام على زنديق جاء مُستدلاً عليه بآي

---

(١) الاحتجاج للطبرسي، ج١، ص٣٠٩.

من القرآن، متشابه: ـ

«... وأمّا قوله ـ تعالى ـ للنبي ﷺ ـ وما أرسلناك إلّا رحمة للعالمين ... » أشار عليه السلام في هذا التفسير البديع إلى أنَّ بعثة النبي ﷺ هو أحد مصاديق مظاهر الرحمة الإلهية، وهذا ما يرتبط بكون الخطاب الوحياني في القرآن وفي أحاديث النبي ﷺ قائمٌ على نظام التعريض.

ثم يقول عليه السلام في الرد على الزنديق **«وإنك ترى أهل الملل المخالفة للإيمان ومَن يجري مجراهم من الكفار مقيمين على كفرهم إلى هذهِ الغاية»** اي إلى الساعة التي كان يُحدِّث فيها أمير المؤمنين عليه السلام.

«وإنه لو كان رحمةً عليهم لاهتدوا جميعاً ونجوا من عذاب السعير، فإنَّ الله تبارك وتعالى إنَّما عنى بذلك: إنَّه جعله سبباً لأنظار أهل هذهِ الدار؛ لأنَّ الأنبياء قبله بعثوا بالتصريح لا بالتعريض».

والإمام عليه السلام أجاب عن اعتراض السائل: بأنَّ الله تعالى جعل النبي ﷺ سبباً لإنذار أهل هذهِ الدار، وهذهِ المهلة التي فيها رحمة وتوسعة ورفق بالعباد سببها خاتم الأنبياء ﷺ الذي هو حجة على الخلائق أجمعين بُعث بالتعريض لا بالتصريح بخلاف ما لو كان خطاب بعثة النبي ﷺ سواء من القرآن الكريم أو من الأحاديث النبوية هي بالتصريح لما كانت هناك مهلة، وإنَّ أحد الآثار المترتبة على التصريح ذكر أمير المؤمنين ﷺ **«... وكان النبي منهم إذا صدع[1] بأمر الله وأجابه قومه سلموا وسَلِمَ أهل دارهم من سائر الخليقة، وإنْ خالفوه هلكوا وهلك أهل دارهم بالآفة التي كان نبيهم**

---

(١) صدع: ـ أي بيّن الأمر أبانةً وأظهره وفرَّق بينهم الحق والباطل، مجمع البحرين مادة (صَدَعَ).

يتوعدهم بها ويخوفهم حلولها ونزولها بساحتهم من: ـ خسفٍ أو قذفٍ أو رجفٍ أو ريح أو زلزلة أو غير ذلك من أصناف العذاب التي هلكت بها الأمم الخالية»[١].

إذنْ بيّنَ صلى الله عليه وآله أنَّ أنبياء الأمم السابقة لأنهم بعثوا بالتصريح فلا يكون لأممهم مهلة فإنّهم: إمَّا أنْ يستجيبوا أو يُهلكوا في العذاب وأنَّ الله تعالى عَلِمَ من نبينا صلى الله عليه وآله ومن الحجج في الأرض أي الأئمة عليهم السلام أوصياء النبي صلى الله عليه وآله الصبر على ما لمْ يُطِق من تقدمهم من الأنبياء الصبر على مثله ... فبعثه الله تعالى بالتعريض لا بالتصريح وأثبت حجة الله تعريضاً لا تصريحاً ومن هذا يُعلم الرد على أولئك الذين يريدون أنْ يفهموا الحقيقة من القرآن فقط عن طريق الصراحة والنص، أنهم سيخفقون في الوصول إلى الحقيقة القرآنية والحقيقة الدينية؛ لأنَّ الله تعالى أوصل الحقيقة إلى العباد من طُرُقٍ شتى ولم يحصرها بالصراحة والنص الصريح، بلْ أغلب الحقيقة أوصلها عن طريق التعريض أو الظهور الخفي ... الخ.

ما هي الصلة بين الصبر والتعريض:

لقائل أنْ يقول: ما هو نوع الصلة بين الصبر وبين شاكله وقالب نمط الحجية التي كُلِّفَ بها سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله باتباعها في إبلاغ معارف الشريعة والدين وهو التعريض فبعثه الله تعالى بالتعريض ـ أي أثبت حجة الله تعريضاً لا بالتصريح، وعليه فنظام بيانات الحديث النبوي والمولوي والأئمة عليهم السلام قائم على معرفةِ نظام الدلالة في باب التعريض.

وتقدم الكلام أنَّه حتَّى البلاغيين لمْ يوفوا البحث في علم المعاني

---

(١) الاحتجاج للطبرسي، ج١، ص٢٠٩.

وعلم البيان في نظام الدلالة التعريضية أو الخفيّة وإنَّما أشاروا إلى رؤوس نقاط ومطالب ولم يفيضوا فيها البحث بسطاً لوعورة البحث باعتراف جملة من كبّار البلاغيين منهم الزمخشري وأنَّ البلاغيين لمْ يخوضوا في هذا البحر الطمطام إلّا يسيراً رغم جهودهم المتكاثرة والمتكدسة لذلك كانت قراءة الشريعة قراءة النصوص الوحيانيّة فيها المسافات الكبيرة لطي الطريق إليها؛ لذلك كانت أحد مميزات الدلالة التعريضية أو التأويل عن الدلالة التصريحية هو أنَّ الدلالة التعريضية والدلالة الخفية أوفر معلومات ودلائل من الدلالة التطبيقية، ولذا أحد أسرار سيّد الأنبياءصلى الله عليه وآله أنَّه بُعثَ بالتعريض، بينما سائر الأنبياء بعثوا بالتصريح؛ لأنَّ علمهصلى الله عليه وآله أوفر ومهيمن على علم سائر الأنبياء، وكذا ما نزل عليه من الكتاب ـ القرآن ـ كذلك هو المهيمن على سائر الكتب، وعليه بالتالي لابدَّ أنْ ما ينشرهصلى الله عليه وآله ويوصله إلى البشر من علوم يفوق ما قام به الأنبياء من قبله ومن ثَمَّ بُعث بالتعريض.

كذلك أثبت وبالحجة تعريضاً لا تصريحاً لقولهصلى الله عليه وآله: من كنت مولاه فهذا عليٌ مولاه وهو بمنزلة هارون من موسى إلّا أنَّه لا نبي بعدي.

فلزم النبيصلى الله عليه وآله الأمة: إنَّه لما كانت النبوة والأخوة موجودتين في خِلْقَة هارون معد ومتين فيمن جعله النبيصلى الله عليه وآله من ذريته، وليسَ هو نبيٌ من الأنبياء وهو علي بن أبي طالبعليه السلام، وهذا التشبيه والتنزيل بـ (هارون) يشير بهصلى الله عليه وآله إلى أنَّه قدْ استخلف علياًعليه السلام على أمته كما استخلف موسى هارون حيث قال، وأخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين.

وبيّن أمير المؤمنينعليه السلام في جوابه لهذا السائل: [الموصوف بالزنديق وإنْ كان من خلال كلماته وبالنتيجة هو لي بزنديق وإنَّما هو باحث وفاحص

عن الحقيقة] كيفية التلويح والتعريض في آيات القرآن بإمامته عليه السلام وبما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وأمر به كسد الأبواب إلّا باب علي عليه السلام وقال صلى الله عليه وآله: **«وما تركتُ ولكني أُمرتُ فأطعتُ»** فقال: سددتَ بابنا وتركتَ لأحدثنا سِناً[(١)].

وهذا الكلام من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فيه إشارة إلى جامع يستعمل الأنظمة الثلاثة أعني نظام الاستعمال اللفظي، ونظام المعاني، ونظام الحقائق في القرآن.

وبعد هذهِ المقدمة، نبين العلقة بين الصبر وبين التعريض، فنقول:

تقدم في بيان أمير المؤمنين عليه السلام من أنَّ السبب في بعث النبي صلى الله عليه وآله بالتعريض لا بالتصريح هو لأنَّ الله تبارك وتعالى اسمه لما علم من صبر وقوّة تحمل النبي صلى الله عليه وآله وقدرته على ذلك وكذا عترته وآله الطاهرين الأوصياء صبرهم في هداية البشر وتعليمهم، بينما في سائر الأنبياء بُعثوا بالتصريح لقِلَّة صبرهم، فهم بالقياس إلى النبي صلى الله عليه وآله صبورين وكذا بالقياس إلى سائر البشر فإنَّ أنبياء الله تعالى ورسله من أصبر البشر وأشد الناس ابتلاءاً الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، فالقرآن الكريم امتدح صبر بعض أنبياء الله تعالى مثل: نبي الله أيوب عليه السلام وأولوا العزم ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ﴾[(٢)]، إلّا أنَّ قياس صبر سائر الأنبياء إلى صبر سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله كقطرة في بحر باعتبار أنَّ علم رسول الله صلى الله عليه وآله ومعرفته وكمالاته أكبر من بقيّة الأنبياء فمن ثمَّ صار صبره أكثر.

وهكذا لو لاحظنا الفرق بين القرآن وبين الكتب السماوية الأُخرى

---

(١) الاحتجاج للطبرسي، ج١، ص٣٠٩.
(٢) سورة الأحقاف: الآية ٣٥.

كالتوراة والإنجيل بغض النظر عن تحريفها فإنهما الكثير من القضايا الملكوتية المصرَّح بها والمكشوف عنها، ولذا البعض يُفضل أسلوب التصريح؛ لأنَّه جاهزوبارز ولا يحتاج إلى تأمل في عالم المعاني والدلالات الخفية؛ وذلك لأنَّ المقطع الزمني الذي بُعث به موسىعليه السلام وعيسىعليه السلام مثلاً يحتوي على درجة من الملكوت لا كل الدرجات بخلاف أسلوب التعريض في القرآن الكريم فإنَّ قضايا الملكوت غير مُصرَّح بها ويشتمل على درجات الشهادة ودرجات الغيب و ... الخ.

ومن الواضح أنَّ سعة التعريض والدلالة الخفية تختلف عن التصريح ولو صُرِّحَ بالملكوت، فمثلاً وصايا وعظات الإنجيل ملكوتية صارخة وواضحة لكنَّها بالحقيقة هي محدودة، وفيه قليل من المباحث التي يتعرض فيها إلى الحضرة الإلهية، بخلاف القرآن الكريم لا يُقتصر فيه على الملكوت الأوَّل ولا الثاني ولا الثالث ولا ... الخ إلى أنْ يصل إلى الحضرة الربوبية وفيه شمول وهيمنة على الكتب التي قبله.

وعليه فالباري عزَّ اسمه لم يعتمد في إيصال الحجة والهداية والنور إلى البشر بأسلوب التصريح، والسبب في ذلك ـ والله العالم ـ هو أنَّ أسلوب التصريح، يُنجز الحجية وإذا نجزت الحجية وتمَّ نصاب حجيتها فإنَّه لا يُعذر البشر ولا يمهلون ومن الواضح هذا أشد ثقلاً على البشر.

بخلاف أسلوب التعريض الذي بيِّن حكمته وفلسفته أمير المؤمنينعليه السلام وما هي ثمرة وعناية هذهِ القاعدة التي هي أنجح وأرق أسلوب في التربية، ولها غايات كمالية هي أكمل في أسلوب التعريض منه في أسلوب التصريح، ولذا بيَّن أمير المؤمنينعليه السلام أنَّ الله تعالى عجَّل بالعذاب لأقوام

سائر الأنبياء ولم يُمهلوا بسبب أنَّ أسلوبهم الذي بعثوا فيه هو التصريح لا التعريض فلم يُمهَلوا ولم يُرفق بأممهم.

بينما سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله الذي بُعثَ بالتعريض وُصِفَ بأنَّه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾[1].

ويعتبر أسلوب التعريض من أرفق الأساليب بالبشر.

(١) سورة الأنبياء: الآية ١٠٧.

أهمية دلالة التعريض وفائدتها

هناك عدَّة فوائد للتعريض منها:

الفائدة الأُولى: ما أفيد من كلام أمير المؤمنين عليه السلام: من أنَّ السنة النبوية المطهرة فضلاً عن القرآن المجيد قائمة على التعريض لا على التصريح، فإنَّ السنة مثل القرآن ليست قائمة ومنحصرة بالتصريح فقط، كلا وإنَّما التصريح فيهما مساحته قليلة جداً.

ولذا تعتبر مساحة المعلومات والحقائق في التصريح أقل بكثير من المساحة الأكبر من الحقائق والمعرفة الدينية المتقررة والموجودة في التعريض.

إذنْ أحد مميزات الدلالة التعريضية أو الباطنية في دلالات القرآن والسنة أنَّها أوفر معلومات ودلائل من الدلالة التصريحية، وهذا هو أحد أسباب أنَّ سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله أنَّه بُعث بالتعريض بينما سائر الأنبياء بعثوا بالتصريح لوفرة علمه بالكتاب الذي نزل عليه صلى الله عليه وآله مهيمن على سائر الكتب السماوية الأُخرى التي نزلت على الأنبياء والمرسلين.

بالتالي أنَّ ما ينشره صلى الله عليه وآله ويوصله إلى البشر من علوم لابدَّ أنْ يفوق ما قام به الأنبياء والمرسلين من قبله ولذا بُعث بالتعريض.

الفائدة الثانية: إنَّ حجية التعريض أوسع زماناً وأداؤها التربوي للنفس والمجتمع أنفع وأفقه أرحب من التصريح؛ لأنَّه دائماً التصريح معلوماته تكون ضيّقة بخلاف التعريض الذي تكون معلوماته أوسع وفيه طيّات وبطون تترامى إلى ما لا نهاية.

ولذا بيَّن أمير المؤمنينعليه السلام: أنَّ أحد الأسباب والحِكَم في بعثة النبيصلى الله عليه وآله بالتعريض هو لأنَّهصلى الله عليه وآله وعترته أهل بيته أصبر على أداء الرسالة والقيام بمسؤولية الدين؛ لأنَّه أفضل من الأنبياء السابقين لعلم الله تعالى المسبق بقوة صبرهم لذا جعلهم الله تعالى يُبلغون رسالاته بالتعريض بخلاف من سبقهم من الأنبياء لمْ يكونوا بقوّة ذلك السطح، ومن ثَمَّ بُعثوا بالتصريح، وفي التصريح كما هو معلوم تشديد الحجية ومع المخالفة إنزال العقاب مباشرة، بخلاف التعريض فإنَّ فيه رخاء وسِعَة وفسحة في الحجية.

الفائدة الثالثة: الكتب السماوية الأُخرى غير القرآن كالتوراة والإنجيل والزبور و ... الخ مقتصر فيه على التصريح، بينما القرآن الكريم حتَّى في الشريعة لا يقتصر على التصريح، ولذا شريعة سيد الأنبياء خالدة إلى الأبد ولا تنسخ إلى يوم القيامة.

وهذا يُدلِّلُ على أنَّ التعريض ليسَ فقط فنٌّ في البيان بلْ يرجع إلى كيان معنوي مترامي غير محدود والوصول إلى كيان معانٍ غير محدود لا يمكن أنْ تؤدى إلّا بالتعريض؛ لأنَّها إنْ أُديت عبر اللسان والبيان لا محالة تكون حبيسة درجة أو درجات معينة ولا يمكنه أنْ يكون مُتسعاً إلى ما لا نهاية وبالتالي هذا الطعن الذي كان يوجه ويُسجل على مدرسة أهل البيتعليهم السلام عادَ برهاناً إعجازياً علمياً لريادة وجدارة مذهب أهل البيتعليهم السلام وهذا مما أدركته العقول الناضجة والمفكرين من البشر.

الفائدة الرابعة: من حِكَم التعريض وفوائده هو أنَّ التعريض حَسَنٌ لإسماع المتكلمين المخاطبين الحق على وجه لا يُثيرهم ولا يغضبهم، وهذا أدخل في لحاظ النص ومتابعته واستكشاف نكته العلمية والفنية الخفية،

وبهذا يكون التعريض أسلوباً تربوي ناجحٌ، ويعتبر من الخطأ في الأسلوب التربوي معالجة المشكلة بجهالة مُكَشِرَة وصريحة، وحتَّى في أسلوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فإنَّ الطريقة المثلى لذلك هو أنْ تعالج الخطأ وتنهى عن المنكر وتأمر بالمعروف دائماً بأسلوب فيه نوع من الإيماء والخفاء واللين ممزوج بتلويح، فإنَّ مثل هكذا أسلوب أنجح وأنجع؛ لأنَّه أحد الثمرات المترتبة على هذا الأسلوب هو المحافظة على هيبة وشخصية الطرف المقابل الذي تريد إرشاده وهَدْيه إلى الطريق الصحيح وتعالج الداء فيه بأسلوب هادئ غير متشنج، وبخلافه ينتج نتيجة معاكسة ونقض المطلوب؛ لأنَّ الخطأ في بعض الأحيان يمارسه المُخطئ بشكل جهري وعلني مع عناد، وهذا يتطلب فطنة والتفات من الطرف الآخر في اختيار الأسلوب المناسب لردعه وهذا بحث آخر.

إلّا أنَّه في أغلب الموارد التي ليسَ فيها جهارٌ وعنادٌ وإنَّما لابدَّ من مداراة الطرف الآخر بأسلوب هادئ تربوي فيه لينٌ ولأنَّه يعطيه فرصة لمراجعة الطرف المقابل نفسه وقراره وإرادته ولا يُعاجل به، لذا كان هذا أحد الأسباب التي بُعث النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وكذا أسلوب القرآن قائمٌ على نظام التعريض والدلالة الخفية أو الدلالة الترويحية، وهذا أسلوب تربوي ناجح يجذب المخاطب بطريقة معسولة وذكية وهادئة لا بطريقة مُنفِّرة ، ولذا وَرَدَ التأكيدعلى إتباع مثل هذا الأسلوب من قبل أهل البيت عَلَيْهِمُ السَّلَامُ: «**عن أبي عبدالله عَلَيْهِ السَّلَامُ ... أوصيكم بتقوى الله العظيم (ن) والعمل بطاعته واجتناب معاصيه، وأداء الأمانة لمن أئتمنكم، وحُسن الصحبة لمن صحبتموه وأنْ تكونوا لنا دعاةً صامتين، فقالوا يا بن رسول الله وكيف ندعوا إليكم ونحن صموت (صامتون) قال تعلمون ما أمرناكم به من العمل بطاعة الله**

وتتناهون عمّا نهيناكم منه من ارتكاب محارم الله وتعاملون الناس بالصدق والعدل وتردون الأمانة وتأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ... الخ»[١].

أي بأعمالكم فإنَّ الطريقة المثلى دائماً لردع الطرف الآخر هو أنْ نلتزم عملاً بالشيء الذي تريد أنَّ تُثقف وتدعو الطرف الآخر إليه من دون كلام فإنَّه تلقائياً سوف يؤثر به عملاً، ولا يُفهم من هذا أنَّ الكلام واللسان ليسَ له أي دور وتأثير، كلا، وإنَّما المقصود هو أنَّ التأثير بالطرف المقابل من جهة الالتزام بالعمل أكثر تأثيراً من جهة الكلام، ولأنَّ الأسلوب العملي دائماً هو أسلوب مثمر وليّن ولذلك اتّبعه الأنبياء والمرسلين لما فيه من اللطافة في كيفية التربية، وليسَ فيه غِلظة وحِدَّة وخَرْق؛ لأنَّ ما وَرَدَ عن أئمة الهدى عليهم السلام في كلماتهم الحِكْمِيَّة حول اللين: عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: **«بأنَّ الرفق لمْ يوضع على شيء إلّا زانه، ولا نُزِع من شيء إلّا شانه»**[٢].

ولذلك من دقائق قناعة التعليم وسياسة الأسلوب التربوي في القرآن هو ﴿لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ﴾[٣].

وعلى المعلم أنْ لا يتعرض بسوء إلى طريقة التعريض مهما أمكن، وما أمكنه أنْ لا يُصرِّح فليفعل فإنَّ التصريح والجهر والتشهير أسلوبٌ ليسَ بتربوي وليسَ بناجح إلّا في بعض الموارد الاستثنائية، وإلّا فإنَّ الأصل الأولي يقتضي الستر والخفاء لأنَّ الله تعالى ستّار وستور؛ لأنَّ في سياسة الستر والخفاء ـ كما مَرَّ ـ المحافظة على هيبة وشخصية الطرف المقابل

---

(١) دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي، الكافي للكليني، ج٢.

(٢) الكافي ـ للكليني، ج٢، ص١١٩ ح٦؛ الوسائل، ب٩، من أبواب غسل الميّت، ح٣.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤٨.

ويمكن هَدْيه إلى الطريق الصحيح والقويم ويراجع ويصحح أعماله التي ارتكبها لأنَّ التصريح يهتك حجاب الهيبة ويورِّث الجرأة ومن المعلوم أنَّ الجهر بالسوء فيه إعانة لجانب الشر ويعبر عنه باللغة الحديثة دعاية للشرور وإعانة ومعاضدة دعائية لجانب الشر عكس ما في الخفاء من إعانة وتعقيم دائماً لسطح الظاهر وإنْ كان فيه تحت الستار شيءٌ من السوء إلّا أنَّه لا يطفو إلى سطح الظاهر.

ولذا نلاحظ الدين الحنيف دائماً يوكِّد ويحرص على نقاء الظاهر لذلك لا يُقال الظاهر من دون الواقع فإنَّ الظاهر من دون الواقع زيف، وأنَّ الظاهر درجة من درجات الواقع غاية الأمر إنَّ هذا الظاهر تارة يتواصل من خلاله إلى الأعماق وهذا هو المطلوب وأُخرى: ـ يقف عند هذا السطح أيضاً درجة من درجات الإصلاح، ولذلك بدأت الآيات والروايات باللسان والاكتفاء بالظاهر؛ لأنَّ في هذهِ الدرجة نوع من السداد والصراحة، وعليه فالمحافظة على الظاهر أمرٌ هام.

وحجية التعريض تتفادى تلويث الظاهر وهو أسلوب تربوي عظيم جداً، ودائماً أهل التقوى والصلاح وأهل المعنى يتوخون التعريض لما فيه من التربية القرآنية كمنهاج سياسي، ويحمل بين طيّاته أسلوب اللين والرحمة والستر.

الفائدة الخامسة: إنَّ التعريض فيه تفادي من إثارة الحرص لأنَّ التعريض فيه علاج لغرائز الإنسان من دون إثارة، فمثلاً القرآن الكريم يذكر معالجات لقضايا كثيرة ولكنَّه لمْ يصرح بها وإنَّما استعمل التعريض والكناية والتلويح والإشارة والتلميح و ... الخ.

فمن تلك المعالجات مثلاً يريد القرآن معالجة الأمور الجنسية والشهوية في الإنسان فإنَّه لا يأتي بألفاظ صريحة مثيرة، وإنَّما يستعمل ألفاظ تعريضية يُعالج فيها الداء من دون إثارة للغريزة الجنسية ويعالجها بطرق ترويضية وتربوية وبطريقة ذكية، كما في سورة يوسف عليه السلام.

ولذا يلاحظ أنَّ من أخطاء المجتمع الغربي أنهم يثقفون الأجيال على ثقافة جنسية صارخة ورديئة وهابطة بخلاف القرآن والروايات التي تبين فيها ذلك بنوع من التعريض، وبيان الروايات مثلاً لآداب ليلة الزفاف وآداب الجُماع واختيار الأوقات المناسبة والطعام المناسب و ... الخ.

أو يعالج القرآن الكريم مثلاً قوة الغضب باعتبارها قوة مستنفذة في الإنسان أيضاً يعالجها القرآن بطريقة التعريض، وهنا يكمن الفرق بين عدسة تعريض القرآن وبين غيره، فإنَّ عدسة التعريض ف يالقرآن حتَّى فيسورة يوسف عليه السلام لا توجه إلّا أماكن صارخة ومثيرة وإنَّما يوجهها إلى الظل فإذا شاهدت الظل عرفته من الظل، وهذا أسلوب عظيم استعمله القرآن الكريم.

بخلاف عدسة غير القرآن فإنَّ الجانب العملي يعكس الجانب التربوي وبيئة وأسرة الشخص، فمثلاً نلاحظ مصوِّر أو مخرج سينمائي ملتزم أخلاقياً كيف يوجه عدسته فإنَّه لا يوجهها إلى أماكن الإثارة الشهوية الجنسية أو الغضبية أو ... الخ بخلاف غير المتلزم أخلاقياً لا يهمه كيف يوجه عدسته سواء إلى مواضع الإثارة أو غيرها.

تنبيه: ليسَ الأصل في علم التفسير بكل إضافة ـ التفسير الموضوعي، التفسير الروائي التفسير اللغوي أو أمومة الولاية على المحكمات في القرآن،

أو التجزيئي أو اللطائفي أو ... الخ. قائم على الحصر في الظهور البدوي الأوّلي ـ كما ادّعاه البعض ـ بلْ علم التفسير حسب منهج تفسير أهل البيت عليهم السلام ذو أفق وسيع ورحب قائم على التأويل.

التعريض ليسَ مختصا بعلم تفسير القرآن:

قاعدة التعريض ليسَ مختصاً بعلم التفسير بلْ في بقية علوم الدين الأُخرى من الفقه والعقائد والحديث والكلام و ... الخ أيضاً كذلك قائمة على التعريض وأنماط وألوان الدلالات الخفية كما هو واضح.

فمثلاً في علم الفقه قالت الآية ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾[١].

بتقريب: إنَّ الغرض من النفرة والمهاجرة لطلب العلم ليسَ فقط يروي رواية أو ينقل حكماً معيناً أو ... الخ وإنَّما لأجل أنْ يتفقهوا أي يفهموا، ومن الواضح أنَّ الفهم لا ينحصر فقط بالظاهر وإنَّما هناك مجال واسع جداً لفهم الآيات والروايات من خلال ما تدلّ عليه من المفهوم والدلالات الخفية.

إذنْ بحسب علوم اللغة وبحسب العلوم الدينية المختلفة من أنَّ علم النص الديني وعلم التفسير كعلم بارز، وكذا بقية العلوم الأُخرى القائمة على النص الديني هي علوم قائمةعلى ترامي الدلالات إلى حدٍّ لا يقف عند حدٍّ معين.

وهذا هو المستفاد من بيان أمير المؤمنين عليه السلام من أنَّ «**سيد الأنبياء بعث**

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٢٢.

بالتعريض لا بالتصريح». والاكتشاف التدريجي لعلماء كُلّ علم من العلوم خاصة العلوم الدينية القائمة على النص الديني من القواعد والحقائق التي لمْ يكتشفها العلماء السابقون فإنَّ مثل هذا لا يدعو إلى عدم حقيقة القواعد المكتشفة والنكات العلمية والفنية والصناعية غير المكتشفة عند السابقين، فهي حقيقة ما دام تحفظ الموازين والضوابط والقواعد في جملة العلوم، ومجرد خفاءها وعدم اكتشاف السابقين لها لا يخرجها عن حجية الظهور في كُلّ العلوم وبالأخص الدينية منها القائمة على النص الديني، فإنَّ الغور في النصوص الدينية والتأمل والتدبر فيها أكثر لأجل أنْ يستخرج منها كنوز أكثر فأكثر على وفق قواعد وموازين منضبطة.

ومن خلال عرض هذا يُفرَق الفرق بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام وباقي المدارس الأُخرى من فلسفات غربية حديثة ألسنيّة والمدارس التعددية:

الفرق الأوَّل: هو أنَّ مدرسة أهل البيت عليهم السلام القائمة على قاعدة التعريض والتي لا تناهي فيها وتمادي مسيرة استنطاق قراءة النص الديني وتفسير القرآن تدعو إلى التوسعة في كُلّ الاتجاهات ولكنْ بموازين وقواعد حتَّى تبقى حجة وتوسعها منضبط ومع الشواهد لا الكلام التخرصي الاستذواقي.

بينما المدارس الأُخرى سواء الفلسفية الغربية أو غيرها أيضاً يدعون إلى التوسعة والتعددية ولكنْ وللأسف بلا انضباط وهذا مما يؤدي إلى الفوضى والجهالة واللاعلم.

الفرق الثاني: البرمجة العصبية في قراءة النص الديني، فالحداثيون يدعون إلى تعدد القراءات لكنْ بلا حساب ولا ميزان وإنَّما يفتح الباب على

مصراعيه، ولكنْ وللأسف بشكل فوضوي وهذا بحسب منطق العقل والعقلانية ليسَ فتحاً للباب وإنَّما سفسطة وسدٌّ للباب.

أمَّا مدرسة أهل البيت عليهم السلام تدعو إلى فتح الباب على مصراعيه أيضاً أي فتح باب التأويل والدلالات الخفيّة إلّا أنَّها تشترط أنْ يكون ذلك على وفق قواعد وموازين منضبطة تنطلق من سطح الظاهر الأوّلي ومنطقة بديهية واضحة، ثم شيئاً فشيء إلى مناطق نظرية أبعد مبهمة مظلمة متوغلة في الإبهام ينقشع الظلام عنها ببركة نور المناطق النيرة، لكنَّ طبق قواعد وموازين متعاقبة ومتلاحقة ومتسلسلة ومنتظمة حتَّى تصل إلى نتائج يقينية لا موهومة ومتزلزلة في كافة أنواع العلوم الدينية وغيرها كالرياضيات والهندسة بأصنافها وأنواعها.

فالتطور والنضوح العلمي واكتشاف نظريات جديدة في الرياضيات الحديثة وما توصل إليه علم الرياضيات الآن ودخالته في العلوم الأُخرى الحديثة لمْ يأتِ قفزة واحدة ووصول عشوائي، وإنَّما حصل ذلك شيئاً فشيئاً، وبُذل جهدٌ دؤوب من قبل علماء متخصصين بعدما كانت مسائل علم الرياضيات مثلاً مبهمة ومتوغلة في النظرية ثم سُهِّلت، فهل يعني هذا أنَّه سوف تقف مسيرة قافلة علم الرياضيات إلى حدّ وتنتهي؟

كلا لا تنتهي ما دامت المسيرة الفكرية للبشر مستمرة في كُلّ العلوم وليسَ الرياضيات فقط بلْ تتعداه إلى كُلّ العلوم الأُخرى من الفيزياء والكيمياء والأحياء والهندسة والفسلوجيا والبيلوجيا وعلم الإدارة والسياسة والاقتصاد و ... الخ.

وهذا كُلَّهُ يجري في علم التفسير وإنْ حاله حال أي علم آخر تجري

عليه التوسعات والتطورات العلمية وتوسيع دائرة المعلومات والمباحث الجديدة التي كانت متوغلة في عالم النظرية والإبهام فتتبده شيئاً فشيء.

وهذا ما يجري في تفسير القرآن الكريم في شأن التأويل والظهور في مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ويُفاد أنَّ التأويل أمرٌ خفي ومجهول لدى الباحثين، وإنْ كان سبب ذلك الخفاء هو بسبب عدم فطنة وتفطن الباحث الكريم بالطريق الموصل لهذا المعنى التأويلي من منطقة ومنصة الظاهر في القرآن.

النتيجة: التي نريد أنْ نصل إليها وهي مهمة جداً هو أنَّ حجية الظهور في تفسير القرآن أو بقية النصوص الدينية لا تخضع لمقولة التقابل بين الوضوح والخفاء وإنَّما تخضع تحت ضابطة الموازين والقواعد وإنْ خفيت.

كما تقدم سابقاً، مثال بعض المسائل في علم الرياضيات المعقدة، أو في علوم الفيزياء، والعلوم التجريبية ففيها بعض المسائل المعقدة والمُحَيِّرَة ولكنْ بالتأمل في المعادلات والمسائل الرياضية والفيزيائية و ... الخ وملاحظة مراحل الحلول السليمة الموصلة إلى النتيجة، إذا اكتشفت فإنَّ ذلك الإبهام والخفاء يتبدد ويتبده وينقلب الخفاء إلى وضوح.

بيان إعجاز القرآن الكريم
هو أحد أدلة إمامة أهل البيت عليهم السلام

أحد براهين ودلالات أئمة أهل البيت عليهم السلام كما أنّه أحد إعجازات القرآن الكريم هو:ـ

إنَّ هناك نكات ونتف من الآداب القرآني لمْ يتفطن إليه الأوّلون ولا الآخرون إلّا في كلمات أهل البيت عليهم السلام الإشارة إليه وهي دلالات منتزعة من ظاهر ألفاظ القرآن الكريم، ومع ذلك لمْ يلتفت ولم يتفطن إليها مراجع علماء النحو والبلاغة والأدب والتفسير والفقه والكلام و...الخ ولذلك البعض يقول:

بأنَّ أهل البيت عليهم السلام في تفسيرهم لجُل آيات القرآن أنهم تأويليون وهذا صحيح لأنَّ الأمور التي ينتزعها الإمام المعصوم عليه السلام من ظاهر لفظ الآية هي أمور خفية خفيت على غير الإمام عليه السلام علماً أنَّ الإمام عليه السلام عندما يبين هذا المعنى التأويلي يُشفع هذا البيان ببيان معه ضميمي يبين فيه كيفية الوصول لهذا المعنى التأويلي من حاق ظواهر ألفاظ القرآن الكريم.

وقدْ غفل المفسرون والفقهاء والأدباء و ... الخ عن بيان مثل هذهِ التأويلات والأمور الخفية حتَّى فقهاء ومفسرو و ... مدرسة أهل البيت عليهم السلام إلّا لعله عند البعض أمثال:ـ الملا شريف الفتوني صاحب مرآة الأنوار، وربما صاحب كنز الدقائق الملا شريف الفتوني الجبعي العاملي لهم باع في بيان هكذا نكات باستعمال القواعد والموازين.

والنكتة والسر في ذلك واضح من أنَّ جل روايات أهل البيت عليهم السلام للآيات متضمنة لنكات الدلالة اللفظية في فتح ظاهر القرآن الموصلة إلى ذلك المعنى التأويلي، إلّا أنَّه وللأسف كثير من مفسرينا فضلاً عن مفسري المدارس الإسلامية الأُخرى يتلقون هذهِ المعاني التي أدّاها وبيّنها أهل البيت بأنَّها تعبدية هذا لمن يؤمن ويُذعن بعصمة أهل البيت عليهم السلام وإلّا لا يستطيع أنْ يتقبلها؛ لأنَّ الإمام عليه السلام يبين أمور من ظاهر لفظ الآية التي لا يلتفت إليها حتَّى الأوحدي من المفسرين والفقهاء والأدباء وليسَ بمقدوره الإحاطة بذلك إلّا من بيده تمام الإحاطة وزمام مقاليد الأمور الذي هو فقط الإمام المعصوم عليه السلام علماً أنَّ الأئمة ـ عليهم أفضل الصلاة والسلام ـ لمْ يبينوا تلك النكات والتأويلات كمصادرة أو ادعاء، بلْ رغم عصمتهم وحجيتها يبينوها مشفوعة بالأدلة والبيانات القرآنية من سطح ألفاظ القرآن الكريم وهنا يكمن سِرُّ عظمة المعصوم عليه السلام.

برهان علمي حديث على إعجاز القرآن الكريم وحقانيته وعلى إمامة أهل البيت عليهم السلام

كان الغربيون والمستشرقون في القرن السابع عشر، والثامن عشر والتاسع عشر يوسمون مذهب أهل البيت بأنَّه مذهب ذو نزعة باطنية وإغراق في عالم الدلالة الخفية و ... الخ إلّا أنَّ كلاً من الغربيين وكذا المستشرقين تراجع عن طعنه السابق وهذا الطعن أصبح بالواقع تفوقاً عظيماً لمدرسة أهل البيت على غيرهم، وأقرَّ واعترف جميع هؤلاء وأصحاب النظريات والمدارس الفكرية لا أقل في المساحة الصحيحة منها والبديهية - سواء في شرق الأرض وغربها، والمسلم وغير المسلم - أنَّ المدرسة التي منهجها التعريض منذ أكثر من أربعة عشر قرناً هي بحق تستحق أنْ تكون رائدة البشر وهي مدرسة أهل البيت عليهم السلام، وإذا لاحظنا اليوم الساحة الدولية والعالمية نجد أنَّ أي إثارة فكرية بشرية وبلغتها الحديثة أنَّ الجانب المشرق فيها هو مقتبس ومطابق لمدرسة أهل البيت قبل أكثر من أربعة عشر قرناً، والكل يلهج ويعترف بأنَّ منهاج أهل البيت اليوم هو رائد فائق لعقول الملل والنحل المختلفة من البشر.

وبهذه الإطلالة التأريخية اليسيرة على نفس قاعدة التعريض أو الدلالات الخفية أو التأويل نلاحظ وبوضوح مدى خطورة وأهمية هذهِ القاعدة لأهم منهج من المناهج التفسيرية وغيرها هو منهج أهل البيت عليهم السلام، وأصبحت هذهِ القاعدة كبرهان ودلالة على منهج هذهِ المدرسة الحقة التي تعتمد على قواعد وموازين منظمة لا مبعثرة.

ولا يخفى على ذوي البصيرة والتأمل الدقيق في الآيات والروايات أنَّ هناك جملة من حقائق القرآن أودعت في التأويل والتعريض والدلالة الخفية لا في عالم الظهور والتصريح.

وعليه لو لاحظنا بين كُلّ آونة من الآونات يتجلى برهان وإعجاز وبيان لحقانية القرآن والدين الإسلامي ومنهاج الإيمان لأهل البيت عليهم السلام.

فمثلاً: كان الغربيون وكذا المستشرقون يعيبون على تشدد الإسلام في قوانين حفظ الأسرة ابتداءاً بالعلاقة الزوجية الشرعية الصحيحة والمثالية ثم إلى تربية الأولاد ثم رسم النظام المعيشي للأسرة ومسألة الحجاب والمحافظة على الدين و ...، وكان الغرب يردد مقولته: ـ اجعلوا الأسرة منفتحة إباحية ولا مانع من ذلك وأطلقوا الحريات لأفراد الأسرة لهم حق ممارسة أشيء يرغبون فيه من الربا والزنى والقمار و ... الخ.

الآن أفاق الغرب من نومته ووجد أنَّ زعزعة الأسرة تُشكل كوارث هدامة للمجتمع وهكذا حرمة الربا وصل إلى حدٍّ أنَّ بعض الفضلاء أراد أنَّ يرتاجع عن حرمة الربا نتيجة عدم اليقين بتشريعات الدين وفلسفة تشريعاته.

المقام الثالث

ونتعرض فيه: .

- ❖ الظهور والتأويل.
- ❖ البداهة والنظر أمران إطلاقيان أم نسبيان.
- ❖ الحشوية وخفاء القرآن.
- ❖ إشكالات على مبحث قاعدة التعريض وأجوبتها.
- ❖ كيف يفرق الباطن بالظاهر.
- ❖ هل الولوج في باب التأويل حكراً على فئة من الناس.
- ❖ إثارة: . التأويل لا يمكن ضبطه بقواعد اللغة العربية.
- ❖ بيان مشرب فكري آخر.
- ❖ التأويل يندرج تحت الظهور بلْ جزءٌ منه.
- ❖ روايات تأويلية تعبدية.
- ❖ نظرية أُخرى في معنى دلالة الظهور.
- ❖ ارتباط نظام التأويل والدلالة الخفية بنظام عالم الظهور.
- ❖ علم اللغة في الأداء الإعجازي اللغوي القرآني.
- ❖ التبيان الروائي في التفسير المأثور.
- ❖ المقارنة في التأويل بين مدرسة أهل البيتعليهم السلام، وبين مدرسة فلسفة الألسنيات.
- ❖ نظرية السيد المرتضى رضى الله عنه.
- ❖ هل الظهور صفة ثابتة للألفاظ أو صفة لإدراك الإنسان.
- ❖ حجية الدلالة في اللغة العربية.
- ❖ ❖ الوضوح والخفاء أمران نسبيان.
- ❖ التورية.
- ❖ البيان تعليم إلهي فطري للبشر.
- ❖ تلخيص لنتائج القاعدة الأُولى. أعني التعريض. من قواعد النظام الاستعمالي اللفظي.

الظهور والتأويل

الظهور لغةً: ما لا يخفى، والبروز بعد الخفاء، فيقال: ظهر لي رأيٌ إذا علمت ما لم تكن تعلمه[1].

ويقال: بَدْوّ الشيء الخفي[2].

اصطلاحاً: هو البيان الذي نستطيع به إيراد المعنى الواحد بصور مختلفة.

أو: هوما برز وانسبق إلى ذهن السامع من الكلام سواءً كان مُفاداً ومدلولاً مطابقياً أو التزامياً، أو ما يهتدي السامع إليه بحسب موازين المحاورة والكلام والأدب.

التأويل لغةً: تفسير الكلام الذي تختلف معانيه ولا يصح إلّا ببيان غير لفظه[3].

أوْلُ: مبتدأ الشيء ... ومن هذا الباب تأويل الكلام وهو عاقبته وما يؤول إليه، وذلك قوله تعالى: ـ ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ﴾[4].

اصطلاحاً: ما كان خفياً ولا ينسبق إليه الذهن، أو ما لا يهتدي إليه السامع بحسب موازين وقواعد اللغة والأدب والتفاهم المحاوري.

ويعتبر الظهور والتأويل من قواعد نظام الاستعمال اللفظي في القرآن،

---

(١) مجمع البحرين، مادة (ظَهَرَ).

(٢) كتاب العين للفراهيدي.

(٣) المصدر السابق، مادة (أوَل).

(٤) معجم مقاييس اللغة لابن فارس مادة (اول).

وهذهِ القاعدة بدورها تتشعب إلى قواعد عديدة أُخرى أيضاً، نتعرض إليها لاحقاً ضمن بعض المباحث التالية إنْ شاء الله تعالى.

وهذهِ القاعدة وإنْ كنّا لمْ نسلط الأضواء عليها كثيراً في مبحث نظام الاستعمال اللفظي في القرآن؛ لانه سوف نبحثها أيضاً في القسمين الآخرين في نظام المعاني في القرآن، ونظام الحقائق القرآنية ـ ونسلط عليها الأضواء أكثر هناك. فانتظر.

ودراسة وبحث هذهِ القاعدة له أهمية وفائدة تظهر في جملة من المقامات:

منها: مقام قراءة تفسير القرآن الكريم والسنة المطهرة للنبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أي قراءة النصوص الدينية بأكملها.

فالمُفَسِّر أو الفقيه إذا توصل إلى تفسير غامض او ظهور غير واضح وخفي يصعب إدراكه على الآخرين فحينئذٍ ربما لا يكون هناك ظهور ولا يوجد تفسير بلْ يكون تأويلاً ... الخ.

وعليه فيكون البحث عن مثل هذهِ القاعدة بحثاً مهماً يُعَيِّن مصير قيمة التفسير أَنَّه استظهار من الآيات والسور أو تأويلٌ، سيما أنَّ التأويل يحتاج إلى شاهد وميزان وإلّا لمْ يُعَوَّل عليه، فإذا لمْ يكنْ للشيء ظهور فهو تأويلٌ ومن الصعوبة بمكان الوقوف على دليله أو قدْ لا يتمكن في بعض الأحيان من الوقوف على دليله.

البداهة والنظر أمران إطلاقيان أم نسبيان؟

هل المراد بالبديهي ما يشمل مطلق الأفراد والذي يُعبَر عنه إطلاقي أي يسري إلى كُلّ الأفراد أم نسبي؟.

توضيح ذلك: ـ البديهي سواء كان في الأمور التكوينية وعالم المعاني أو عالم الألفاظ فإنَّ الأمر بديهي وكذا النظر كُلّ منهما يمكن أنْ يوجد في الإنسان ويمكنه أنْ يزيله.

وبناءاً على ما تقدم من ذكر بعض الأمثلة ثبتت في الآونة الأخيرة أنَّ البداهة والنظرية أمران نسبيان، ومن الواضح أَنَّه ليسَ المقصود من ذلك أَنَّه كُلّ بديهي ليسَ له وصف ذاتي ثابت، بلْ نسبي قدْ يتحقق وقدْ يزول وكذلك ليسَ مقصودنا أنَّ كُلّ نظري يمكن أنْ يتبده، وإنَّما المراد في دائرة مركزية أولية للبديهيات فإنَّ هذهِ الأمور البديهية ثابتة كالتناقض فهو بديهي البطلان وبداهته ثابتة في دائرة مركزية أولية، وكذا التضاد كالوجود والعدم لا يقع فمثلاً معرفة كنه الباري لا تتبده فإنَّها تبقى غيب خفي، فإنَّ مثل هذا لا يقع لأنَّها مفاهيم واضحة وبديهية وبداهتها ليست نسبية، بلْ إطلاقية وعامة.

والإحاطة بكل هذهِ الأمور يكون أمراً نظرياً غيبياً وعليه فيبقى الغيب المطلق غيباً مُطلقاً ولا يتبده، وكذا الشهادة المطلقة تبقى مطلقة أي لا تتبدل في حصة من الظاهر إلى الباطن وإنَّما تبقى ظاهراً، والباطن يبقى باطناً.

وكذلك الغيب النسبي: ـ ليسَ المراد منه ذلك الغيب النسبي في مناطق متوسطة بين طرفين ـ الغيب المطلق والشهادة المطلقة ـ أي ما بينهما

يكونْ نسبي بين البديهي المطلق الذي هو في الدائرة المركزية الأولية، والبديهي المطلق هو ما بين هاتين الدائرتين فإنَّ هذا المعنى المغيب النسبي والبديهي المطلق ليسَ هو المراد، وإنَّما المراد هو بونٌ نسبي وسيع لا يتناهى يصبح نسبياً.

وعليه فليس المدعى: ـ إنَّ كُلّ ظهور هو ظهور نسبي، وإنَّ كُلّ بطون وخفاء هو بطون وخفاء نسبي، وإنَّما بعضه ظهور مطلق، ويكون أقصى الطرفين ظهورٌ مطلق والآخر بطونٌ مطلق وما بينهما يكون نسبياً، وهذا لا يُفرَّق فيه بين عالم المعاني في القرآن وبين عالم دلالة الألفاظ فيه.

وهذا مطلبٌ مهم جداً بمعرفة دقائقه تندفع كثير من التساؤلات والشبهات، وإنْ لمْ نكن الآن في صدد استعراض تلك الشبهات والتساؤلات وإنَّما موكول إلى محله ونُقصر الكلام على ما نحن بصدد بيانه: ـ من أنَّ الظهور للألفاظ ومنه ظهور ألفاظ القرآن الكريم هل ظهور نسبي أم ظهورٌ مطلق، وكذا البطون والخفاء نسبيٌ أم مطلق، وأين منطقة النسبية فيهما ـ الظهور وبطون ـ وأين منطقة الإطلاق.

وعلى معرفة هذا المبحث المهم تتعدد المسالك وما يتبناه أصحاب ذلك المسلك من ثبوت الظهور النسبي أم المطلق عندهم، وما هي سعة حدود دائرة كُلّ منهما، وهكذا الخفاء والبطون هل المراد الخفاء المطلق أم النسبي وما هي سعة حدود دائرة كُلّ منهما؟.

فمثلاً أصحاب مسلك الظهور يَدَّعون أنَّ القرآن كُلَّهُ ظاهر وبَيِّن وبإمكان قدرة نفس البشر بعد ترويض النفس والعقل بالعلوم من دون حاجة إلى تعليم مُعلم بأنْ يستكشف ويستجلي دلالات القرآن الكريم،

وهذا المسلك يتبناه كثير من المفسرين من العامة، بلْ ربما حتَّى من الخاصة أمثال العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي ﷺ.

إلّا أنَّه مسلك منقوض ومخدوش بنفس ما جاء في بيانات القرآن الكريم والروايات الواردة عن أئمة الهُدى بأنَّ دلالات القرآن الكريم بعضها غيبٌ وخفاء وبطون مطلق لا يقدر عليه إلّا الراسخون في العلم ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[١]. ولا يُفهم من هذا أنَّه يستوجب تعطيل القرآن ـ والعياذ بالله ـ وإنَّما الذي يُفهم هو أنَّ الانتفاع بتلك المنطقة التي هي غيب مطلق في القرآن لا يتمُّ إلّا عبر أصحاب قناة ونافذة الراسخون في العلم، ولا يمسَّه إلّا المطهرون، ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فقط الذين اختارهم الله واصطفاهم يمسوّن ويغترفون من الغيب المطلق في القرآن ويرفدون البشرية.

إنْ قلتَ: ما جاء في أوائل سورة النحل: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ﴾[٢] إنَّها غير مختصة لا بنبي ولا رسول ولا ...،إنَّما ما يشاء من عباده.

قلتُ: معنى ـ من يشاء من عباده ـ أي الذين تتعلق بهم مشيئة الاصطفاء الإلهي ـ هم أصحاب سورة القدر التي بينت هويتهم ﴿تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ وكذا ﴿حم وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾[٣].

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة النحل: الآية ٢.

(٣) سورة الدخان: الآية ١.

وعليه فمنطقة الغيب ليست مُفعَّلة ولكنْ تفعيلها بتوسط الراسخين في العلم والذين تعلقت بهم مشيئة الاصطفاء وهم محمد وآل محمد صلى الله عليه وآله فقط ومن هذا يتبين أنَّه ليسَ بمقدور البشر وحده استجلاء واستكشاف ظاهر دلالات ألفاظ وبيان القرآن الكريم من دون معلم إلهي.

الحشوية وخفاء القرآن

نذكر دعويين ادعتهما الحشوية وبعض من أيدهم بذلك.

الدعوى الأُولى: إنَّ القرآن الكريم كُلَّهُ خفاء.

وفيها: هذهِ الدعوة غير صحيحة وذلك لأنَّ بعض دلالة بيان ألفاظ القرآن الكريم بديهي وظاهر للكل لما دَلَّت على ذلك الآيات القرآنية بصراحة مثل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾(1).

فالقرآن الكريم في هذهِ الآية وجّه خطابه لمن كان إدراكه متواضعاً في عقله وفهمه وروحه فالقرآن يخاطبه بلحاظ تلك المنفعة البينة والظاهرة ظهوراً مطلقاً.

ونفس الكلام يُقال بالنسبة للروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام بعضها ظاهر وبيِّن ومُطلق يفهمه حتَّى ذو المدركات المتواضعة، ولا ينكر أنَّ بعضها الآخر فيه إجمال وغموض فيحتاج إلى فهمها ذوي فضل في العلم.

الدعوة الثانية: إنَّ بعض فهم من بعض روايات أهل البيت عليهم السلام: ـ أنَّ عامة الناس الذين ليسو لهم فضل في العلم ومدركاتهم متواضعة يجب أنْ لا يقرأوا بعض الروايات كالروايات التي تخص باب العقائد مثلاً أو التي تخص باب التفسير أو الفقه أو الحديث أو ... الخ؛ لأنَّ قراءة مثل هكذا روايات تسبب لهم إرباك وتشويش لهم في المعرفة؛ لأنَّ فيها روايات متشابهة مثل آيات القرآن: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ

---

(1) سورة النساء: الآية ٨٢.

الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾[1].

وقراءة هكذا روايات متشابهة قدْ تؤدي إلى ذوي الإدراكات العقلية المتواضعة إلى ما لا يحمد عقباها.

وفيها: قراءة ومطالعة الروايات الموجودة في الموسوعات الحديثية أمثال الكافي والغنية أو التهذيب والاستبصار أو الوسائل أو البحار أو الوافي أو ... الخ هو ليسَ حكر على أحد بلْ هي مأدبة ألهية مفتوحة للكل ـ إنْ صحَّ التعبير ـ فليس من حق أحد أنْ يمنع الآخرين من الجلوس على هذهِ المائدة الإلهية العظيمة وخُذْ بمقدار ما تستطيع بحسب حجم وسعة معلوماتك، إلّا أنَّه في نفس الوقت أحذر الاقتحام في بحار المتشابهات ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ﴾[2]؛ لأنَّك سوف تُغرَق قطعاً ما لم تستعن وتستغث بسفن النجاة الذي وصفهم القرآن الكريم بأوصاف خاصة.

١ ـ الراسخون في العلم.

٢ ـ لا يسمُّه إلّا المطهرون.

٣ ـ إنَّما يريد الله ليُذهب عنكم الرجس أهل البيت.

ومن الواضح أنَّ التمسُّك بسفن النجاة حتماً سوف ينجو من الغرق.

ولذا كان أحد مميزات دلالة التعريض والدلالة الخفية أو التأويل عن المسلك الظاهري أو المسلك الحشوي أو القشري الذي يجمد على حرفية

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

سطح الدلالة والألفاظ والنص هو إمَّا مسلك دلالة التعريض الذي يعتبر أحد مميزات وأسرار سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله الذي بعث بالتعريض دون سائر الأنبياء الذين بعثوا بالتصريح هو لوفرة علمه صلى الله عليه وآله على سائر الأنبياء، والكتاب الذي نزل عليه صلى الله عليه وآله المهيمن على سائر الكتب السماوية التي نزلت على باقي الأنبياء والمرسلين فلابدَّ أنْ يتميز ما ينشره صلى الله عليه وآله ويوصله إلى البشر من علوم يفوق ما قام به الأنبياء من قبله ومن ثم بُعث بالتعريض وبالمقابل فإنَّ المسلك الظاهري أو الحشوي يُباين ويُباعد عن مسلك دلالة التعريض بدرجة (١٨٠) درجة، فإنَّ هذا المسلك يجمد على حرفية سطح الدلالة والألفاظ والنص فإنَّ مثل هذا المسلك وكذا مسلك مدرسة الألسنيات أو الحداثويات والفلسفات الحديثة الغربية المسماة بالهرمونطيقيا ـ أو باللاتينية تسمى بالهرمونتك ـ أو منهج التعددية التي تسمى باللاتينية ـ كواليراليس ـ وغيرها ويعبر عن جميع هذهِ المدارس الغربية الحديثة العلمانية بالحداثويات في قراءة النص الديني أو غيره، أيضاً هم يؤمنون بشيء من الغيب إلّا أنّهم لا يتقيدون بقواعد وشواهد ودلائل عكس مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي تعتمد في منهجتها على الدلائل والموازين والتحاكم إلى قواعد وانضباط.

وإنْ كانت هناك بعض المسالك الظاهرية يقبل السطح الظاهري وشيء من الباطن والخفاء ويقف أيضاً عند حدٍّ معين إلّا أنّه بالتالي لا ينطبق ولا يوافق مدرسة أهل البيت عليهم السلام لا يقف عند حدٍّ يتعاقب ويترامى لكن شريطة أنْ يكون وفق موازين، وكلّ إنسانٍ حسب قدرته في بيان الدلالة الخفية واستنطاقها وهنا تتميز قدرة المعصوم التي لا تقف عند حدٍّ معين؛ لأنّها بتسديد وحياني ولديه علم لدُني وبين القدرة المحدودة لغير المعصوم، فإنَّ المعصوم يتميز بسعة آفاق العلم الذي عنده وبقابلية

الاختزان الذي وَرَدَ وصف المعصوم بذلك في أحد بنود زيارة أمير المؤمنين: **«السلام عليك يا خازن وحي الله وهذا الوحي الذي بُعث به سيد الأنبياء على طبقات غيبية عديدة، والناس تختلف قابليتهم في استيعاب هذهِ العلوم والحيانية على درجات»**.

الحقيقة لا تُحْجم:

لابدَّ من الالتفات إلى الفرق بين لا يُكلف الله نفساً إلّا وسعها وبيّن ما آتاها وأودع فيها من قدرة وقوّة، ولكنْ على المُكلَّف الذي تتسع قدرته وسعته إلى حدٍّ معين عليه أنْ لا يقول أنَّ الحقيقة كُلّ الحقيقة هي منحصرة بهذا الحدِّ الذي توصلتُ إليه وبمقدار سعتي وقدرتي، وسواء كان الفقيه المجتهد أو عالم الذرّة أو الفيزياء أو الكيمياء أو الطب أو ... الخ وِسْعُه مُعيَّن ومحدد بهذا المقدار، ولكنْ عليه أنْ لا يقول أنَّ الحقيقة هي بهذا الوسع وإنَّما يقول: ـ توصلتُ إلى مقدار من الحقيقة بحسب وسعي وقدرتي المعينة؛ لأنَّ وسع الحقيقة ووعاؤها سعته عظيمة، بخلاف ما يدركه المعصومعليه السلام من الحقيقة التي أعظم وأعظم بكثير مما يُدركه ويكتشفه غير المعصوم.

لأنَّ من أخطأ الأخطاء الفادحة أنْ يُحدد الإنسان حجم الحقيقة بجد حجم سعة نفسه وقابليتها، ومن الخطأ كذلك أنْ يحدد الإنسان غير المعصوم سعة قابلية وحقيقة نبي الله المعصوم بحسب نفس وقدرات تلك النفس المحدودة الضعيفة، ويقول: ـ أنا أستطيع أنْ أحدد وأنهي مَعرفة حقيقة سيد الأنبياءصلى الله عليه وآله مثلاً بحسب حد نفسي، وإنَّما لابدَّ أنْ يقول: ـ إنَّ

هذا ما استطعتُ إدراكه بحسب قابليتي الذهنية وقدراتي، وهذا ما استطيع إدراكه وما غاب عني فأكثر.

ولذا يقول القرآن ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا﴾[1] و ﴿لاَ تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلاَّ وُسْعَهَا﴾[2] وإذا تكلَّف الإنسان بما وراء سعته تصير محل مؤاخذة وعتاب على الإنسان.

إذنْ درجات وطبقات حقيقة نظام الدلالة في القرآن لا يقف عند حدٍّ وإنَّما يقف عند قدراتنا وهذا أمرٌ آخر،ولذا من أحد المؤاخذات التي تؤاخذ على المناهج الفلسفية سواء منهج مدرسة المشاء أو الإشراق أو الحكمة المتعالية، أو المدارس الفلسفية الغربية الحديثة وإنْ كُنّا لا ننكر أنَّه يوجد فيها جانب سليم ونحترم ذلك إلّا أنَّه من الخطأ فيها أنَّها نتاج عقلي بشري أنْ نجعل نتاجها تمام الحقيقة، أو أنَّه وحيٌ منزل وهذا خطأٌ؛ لأنهم يعرفون الفلسفة: بأنَّها معرفة الحقيقة وحقائق الأشياء بقدر الوسع البشري وهذا يلازمه أنَّ الحقيقة وبحسب سعة الإنسان على عكس ما تذهب إليه مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي تقول:

إنَّ حقيقة الأشياء أوسع من أنَّ تُدرِك بعقل بشري محدود ويقف عند حدٍّ معين عند غير المعصوم عليه السلام وعليه فليس كُلّ ما في الحقيقة أنحصر بالفلسفة، وليسَ كُلّ الفلسفة قدْ استوعبت أو أدركت كُلّ الحقيقة.

وبالتالي كيف يسوغ لك أنْ تجعل المنهج الفلسفي هو المنهج الوحيد

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٨٦.

الحصري لإدراك تمام الحقيقة بحسب تعريفهم للفلسفة وأنه بها تُدرك تمام حقائق الأشياء وأنَّ الفيلسوف يعتمد في كُلّ نتاجه على ملاكات وإدراكات العقل البشري، من دون الاعتراف من قبل الفيلسوف بجانب الوحي، فهذا غيرُ صحيح فإنَّ أمر الوحي شيء آخر وسعةٌ أُخرى.

إشكالات على مبحث التعريض

من الواضح إنَّ تحليل النص الديني وتداعياته والإشكالات التي توجه إليه لا تقتصر على علم التفسير فقط، وإنَّما تتعدى إلى علم الفقه والعقائد والرجال والكلام فإنَّ كُلّ هؤلاء كما سيتضح يتجنبون الغور في تحليل النص الديني، ولذا قال الزمخشري صاحب تفسير الكشّاف ـ ويعتبر الزمخشري من الذين يُتابعون الدلالات الخفية في تراكيب استعمالات القرآن الكريم في تفسير كُلّ مجمل ـ [إنَّ أسرار التنزيل ورموزه في كُلّ باب بالغة من اللطف والخفاء حدّاً تدق عنك حظك العالي] وهذا معناه أنَّ المُفَسِّر يحتاج إلى بذل مزيد تركيز ومع ذلك تزِّلَ عنه عيناه.

وبعضهم ذهب إلى أنَّ الخفاء يتوقف على أعمال التأمل والرويّة والانتقال من سطح الظاهر إلى الأعماق والغور بها وليسَ الخفاء لكثرة الوسائط والانتقالات وإنَّما المهم الوصول إلى النتيجة وفق قواعد وموازين وإنْ كانت الوسائط لها دور ولا تُنكر إلّا أنَّ الوسائط سواء كثُرت أو قلَّت ليسَ هي كُلّ شيء وإنَّما دورها كعامل مساعد.

وهذهِ الإشكالات للحشوية أو الظاهرية[1] أو مسلك السلفية والأخبارية بلْ حتَّى من بعض الأصوليين:ـ

الإشكال الأوَّل: إنَّ الإغراء بالتعريض والتأويل يستلزم استنتاجات ذوقية مزاجيّة ـ أي حسب مزاج الشخص ـ بحسب الصيغة الفكرية

---

(١) المراد من الظاهرية هم شبيه بالإخبارية الذي لا يعتمد على تحليل صناعي.

للمُفَسِّر فإنَّها تنعكس على استنباطه لاسيما في باب التعريض والتأويل والدلالات الخفية، وبالتالي لا يُعدَّل على الدلالة الخفية المستنبطة ولا حجية لها ؛ لأنَّ مفاد الآية إذا كان خفياً فهو ليسَ بحجة؛ لأنَّه مفادٌ تخرصي وتهجسي إلّا أنْ يثبت بنص شرعي تعبدي فيؤخذ به.

أمَّا استنطاق الآيات والسور للوصول إلى المعاني والمداليل المستنطقة الخفية فإنَّ مثل هكذا استنطاق خاطئٌ وكافر؛ لأنَّه لا يستند إلى قواعد علوم اللغة العربية وتمسكوا لدعوتهم وإشكالهم هذا بعدَة أدلَّة: ـ

الدليل الأوَّل: إن خطاب الدين الوحياني يُخاطب به عموم الناس، وإذا كان كذلك فلابدَّ أنْ يكون الميزان والمعيار هو قدرة وقابلية تحمل عموم عقلية الناس وأهل اللغة العربية بأنْ يستطيعوا أنْ يتحملوا فَهْمَ واستخراج هكذا خطاب فيه معانٍ ومضامين غير ظاهرة ومستبطنة وخفيّة؛ لأنَّ الخطاب إذا كان خفياً ومستبطناً لا يصل إليه إلّا آحاد الناس ـ أي الأوحدي منهم ـ وعليه فهم هكذا خطاب يكون فيه دلالات خفيّة لمْ يكنْ فهماً متعارفاً للحوار الكلامي والخطاب الإلهي، وإنَّما هو تهجسات ذوقية فلا يُعوَل عليها.

الدليل الثاني: إنَّ الظهور العرفي أمرٌ ظاهرٌ وبيِّنٌ يتعارف عليه أبناء اللغة، أمَّا إذا كان خارجاً عن فهم أبناء اللغة والعرف فهو ليسَ بظهور عرفي وإنَّما هي تكلفات يُحَمَّل بها النص الديني.

الدليل الثالث: وهو قريب من الدليل الثاني ـ أنَّ الدلالة المُستنِدة إلى قواعد اللغة العربية المفروض أنها دلالة دليل مُرشد وموصِل، فكيف يوصَف بالخفاء؛ لأنَّه معنى دلالة الظهور الحجة هو ما يوصلك ويدلك

على المطلوب؛ لأنَّ كل ما يُخفى ويحجب عنك فهو ليسَ بحجة.

الدليل الرابع: إنْ القرآن الكريم نزل ببيانٍ مُبين واضحٍ ونور وهُدى فكيف يكون فيه خفاء وإبطان؟.

الدليل الخامس: إنَّ مبحث التأويل والدلالات الخفيّة يوجب التلاعب في نصوص الدين ونصوص القرآن الكريم والأحاديث والروايات وبالتالي يكون الاستنتاج كُلَّهُ ذوقي ومزاجي.

الجواب عن الإشكال الأوَّل: يجاب عن الإشكال الأوَّل بأدلته الخمسة بعدَّة أجوبة.

الجواب الأوَّل: لو سَلَّمنا ذلك فإنَّه لا يستلزم سدّ باب التعريض أو التأويل، بلْ غاية ما يلزم أنَّه يجب أنْ ينضبط باب التعريض والتأويل وفَهْم باب الدلالات الخفية للنص الديني بأسس وموازين ذلك العلم، وهذا لا مانع منه إذا كانت هناك ضوابط يسير عليها الذي يدخل ويستعمل باب التعريض والتأويل حتّى لا يقع في محذور المزاجية والهلوسة وما شاكل ذلك.

لا أنَّه لأجل أنْ نتفادى هذا المحذور نقوم بغلق أصل باب التعريض أو التأويل أو التلميح أو التنبيه أو الإشارة أو باب الدلالة الالتزامية.

الجواب الثاني: لو كان باب التأويل ليسَ باباً علمياً وأنَّه بابٌ عاطلٍ ومتروكٌ فلماذا شَيَّدَ القرآن الكريم أركانه في الآية المباركة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ﴾[1]، ولماذا استحباب التأويل في سور متعددة وجعل

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

القرآن الكريم جزء مهم وكبير من حقائق القرآن واقعة في منطقة التأويل لا في منطقة الظهور البدوي وإنْ كانت هناك مساحة مهمة من القرآن واقعة في ساحة الظهور والبيان إلّا أنَّه من الإجحاف بحق القرآن حصره في منطقة الظهور فقط، بلْ القرآن الكريم يعمل على كلا المنطقتين وما وقع في منطقة التأويل أجل وأعظم، وعليه ما فائدة الظهور إذا كانت منطقة أضيق وأقلّ من الخفاء.

والقرآن الكريم يشدد ويُصرُّ على أنْ جزءاً وافراً من حقائق الكتاب العزيز مودعة في التأويل، كما في الآية المباركة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلمِ﴾ أو قوله تعالى ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾[1] وغير ذلك من الآيات، وليسَ هذا فقط في تفسير القرآن، بلْ حتَّى في فقه الفروع نفسه يأتي.

ويؤكِّد هذا ما قاله الإمام الصادق عليه السلام **«حديث تدريه خيرٌ من ألف حديث ترويه، لا يكون الرجلُ منكم فقيهاً حتَّى يَفرِّق معارض كلامنا، وإنَّ الكلمة من كلامنا لتنصرف على سبعين وجهاً لنا من جميعها المخرج»**[2].

الفقيه هو الذي يَفْهَم لَحْنَ المعاني أي معاني الألفاظ بنظرة هندسة معاني لا بصروة مزاجية خلطية.

هذا ولا يزال إلى يومنا هذا بعض الفرق المنحرفة فكرياً في الإسلام وأصحاب السَيْر المعنوي القلبي تشابهت عليهم الأمور وأُبهمت بعدما أغلقوا باب التأويل ويتصورون أنَّ رواة الحديث هم الذين يروون نفثات وشغفات القلب والنفس الثاقبة، وإذا سألت مفسرهم من أين لك هذا

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٥٣.

(٢) الكافي ج٨، للكليني؛ معاني الأخبار للصدوق؛ خاتمة المستدرك، ج١.

التفسير، يُجيب: هذا ما أفاضه سيرُ القلب، ولا يزال بعض الناس وللأسف يعتقدون بهكذا صنف من البشر من أنهم عندهم استرسال فكري ويتخذونه وحيٌّ منبري عن رب العالمين، وأنهم أصحاب مقامات معنوية ويُنذرون عمّا في الغيب، وهو وإنْ كان بوابة إلى بحور عظيمة من الغيب، إلّا أنّه قدْ يؤدي بغير أهله إلى الانزلاقات والغرق في بحر الجهالة والعماية.

ولا يُفهم من هذا الكلام أنّنا نغلق الأبواب أمام أصحاب هكذا ادّعاء، ولكنْ في نفس الوقت عليهم بالوسطية والمعادلة والتوازن أي لا إفراط ولا تفريط، ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾[(١)].

الجواب الثالث: وهو جواب عن الدليل الأوّل ـ من قال بأنَّ الدين برمته مخاطب به عموم الناس، نعم نُسلِّم أنَّ الفصول الضرورية للدين يخاطب بها عموم الناس، أمَّا الفصول المترامية الأطراف والواسعة من الدين لا نُسلِّم مخاطبتها لعموم الناس؛ لأنّه ليسَ كُلّ فصول الدين برمتها مبتذلة وجاهزة تحت متناول أيدي وعقول عامّة الناس، وهناك من قال [حسبنا كتاب الله] هل عنده قناعة تامة أنَّ الكتاب كُلَّهُ ظاهره ومنسوخة ... كُلّ ذلك تحت متناول يده وأنّه قدْ أحاط به كُلَّهُ؟.

الجواب: عن ذلك يتضح مما سبق وأنَّ هذا الأمر منحصر بالنبيﷺ وعترته أهل بيته عليهم السلام والذي يدعي ويقول [حسبنا كتاب الله] أنَّ يُجيبنا ما معنى الآيات القرآنية التالية:ـ

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[(٢)].

---

(١) سورة المائدة: الآية ٨.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿لاَّ يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُون﴾[(١)].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[(٢)].

٤ ـ قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَه ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَه﴾[(٣)]، فالباري عز اسمه بواسطة أوليائه يبين ويفسر لنا القرآن وليس البشر.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾[(٤)].

٦ ـ قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾[(٥)].

٧ ـ قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[(٦)].

٨ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[(٧)].

٩ ـ قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[(٨)].

١٠ ـ قوله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيم﴾[(٩)].

١١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلا﴾[(١٠)].

---

(١) سورة الواقعة: الآية ٧٩.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٩..

(٣) سورة القيامة: الآية ١٨.

(٤) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٥) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٦) سورة مُحمَّد الآية ٢٤.

(٧) سورة القمر: الآية ٣٢..

(٨) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٩) سورة يوسف: الآية ٧٦.

(١٠) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

١٢ قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾[(١)].

إلى عشرات الآيات الكريمة التي تبين أنَّ طبقات العلم وطبقات الخطاب القرآني منه طبقات علوية مكنونة في كتاب مكنون، محفوظة في اللوح المحفوظ لا يمسُّه ويتناوله إلّا ثلة خاصة وهم المطهرون، نعم بعض درجات وطبقات تنزيل الكتاب يخاطب به العموم.

وهذا أمر مهم وأصل أصيل قدْ غَفَلَ عنه كبار المحققين.

وهكذا الروايات الواردة عن أئمة الهدى عليهم السلام: **«إنَّما يعرف القرآن مَن خُوطِب به»**[(٢)] وهذا معناه أنَّه بعض طبقات الخطاب القرآني ليسَ خطاباً موجّه للكل وإنَّما هو للقلة الرائدة البارزة من البشر الذين اصطفاهم وهم بدورهم بعد ذلك يُوَّصلون المعلومات بشكل مخفف إلى بقية البشر.

أي أنَّ التوراة لا تفهم من دون مركزية ولاية أهل البيت عليهم السلام فإذا أراد أهل التوراة من الأحبار وعلماء اليهود أنْ يفهموا التوراة على حقيقتها وما هي عليه بنسق منظومي يجب أنْ يفهموا ولاية أهل البيت وأنَّ هندسة التوراة قائمة على نظام مركزي والنقطة المركزية فيه ولاية محمد وآل محمد ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ

وعليه فلا ينتظم النظام اللفظي الاستعمالي حتّى في التوراة ـ والتوراة بالعبرية أي الشريعة ـ فضلاً عن نظام المعاني ونظام الحقائق، وكذا في الإنجيل ـ والذي يعني بالعبرية هدية الملكوت ـ لأجل أنْ يفهم النصارى الإنجيل فهماً معمقاً فعليهم بمراجعة الصحيفة السجادية وسيعرفون حلّ

---

(١) سورة الزمر: الآية ٩.

(٢) الوافي للفيض الكاشاني، ج٢٦، والكافي للكليني، ج٨.

كثير من العقد في الإنجيل لم يستطيعوا فك طلسمها ورموزها إلّا من خلال الرجوع إلى الصحيفة السجادية.

وهذا الكلام ليسَ مجرد ادعاءات ومصادرات، بلْ قارن علماء الأخلاق وعلماء الروح والفلسفة و ... الخ بين الإنجيل الصحيح لا المُحرَّف وبين الصحيفة السجادية، فماذا يجدون؟

مَن وصل إلى أوج الملكوت وسبَحَ في بحر الملكوت سوف يُفرِّق بين قواعد نظام الإنجيل وما أودع فيه وبين ما هو موجود في القرآن الكريم والصحيفة السجادية.

الجواب السادس: ترامي دلالات الألفاظ إلى طبقات ومراحل من الدلالة لا يُخرِج مداليل الدلالات المتعاقبة المترامية والمتلاحقة عن الظهور، ومن الواضح أنَّ ترامي العدول يعطي نفس أهل تلك اللغة ـ أي لغة كانت من لغات العالم ـ إمكانية ألفاظ الكلام ويدل على أنَّ هذهِ اللغة تشتمل على حلقات من المعاني وطبقات لا تخرج عن موازين قواعد علم اللغة، بلْ يمكن أنَّ يُقال أكثر من ذلك في عملية النقد الأدبي إذْ يحاول الأدباء ـ اليوم ـ أنْ يقرؤا شخصية المتكلم، وفي العلوم الإنسانية يحاول العلماء أنْ يقرأوا شخصية المتكلم من خلال كلامه ويعرفون أخلاقه ويعرفون الكثير عن ملامح شخصيته الروحية والنفسية وقدراته العقلية ويعرفون ذلك من خلال قراءة كلماته أو سماع كلامه، وهذا ما أشارت إليه روايات أهل البيت عليهم السلام **«المرءُ مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه»**[1] أي المرء مخبوء تحت طيات وفلتات لسانه لا تحت طيلسانه ـ أي ثيابه ـ ولا يتوهم

---

(١) الأمالي للصدوق، ص٥٣١، وله عيون أخبار الرضا/ ج٢، ص٧٨.

أحدٌ ويقول: ـ هذا مختص بعلوم القرآن والتفسير أو الفقه أو الحديث أو العقائد ... الخ وإنَّما يشمل كل العلوم بما في ذلك التجريبية منها الرياضيات والفيزياء والكيمياء والأحياء و ... الخ.

فمثلاً: علم الرياضيات كل طبقات البشر حتّى المتواضعة منها يدركون أهمية وضرورة علم الرياضيات والحساب ولا يستغنون عنه من عدٍّ وحساب الأرقام في مختلف شؤون الحياة لا أقل في محاسبة وتدبير إدارة معيشته وأسرته و ... فحينئذٍ لابدَّ من إعمال موازنة كل بحسب مقدارها حاجته، فالذي يعلم موازنة مالية لتدبير دخله اليومي أو لأسرته أو لدائرة معينة أو حساب شهري أو سنوي أو .. فإنَّه يأخذ من الرياضيات العمليات السطحية الواضحة غير ما ياخذه العالم الفيزيائي أو الكيميائي أو المهندس لهندسة فضائية الذي يحتاج إلى أنْ يغور في أعماق المعادلات الرياضية الصعبة والمعقدة ويستخرج منها الذي ينفعه ويؤدي مطلوبه، وعليه فاخذ مثل هذا الإنسان من الرياضيات يختلف عن أخذ الإنسان البسيط أو تلميذ الابتدائية أو المتوسطة.

وبالتالي كُلٌّ يأخذ بحسب مستواه فإنَّ هناك قواعد ومعادلات رياضية لا يدركها كل أحدٍ.

وهكذا النقد الأدبي أوليس النقد الأدبي كان عريقاً في اللغة العربية وحتّى في باقي اللغات الأُخرى غير العربية كالانكليزية والفارسية و ... الخ وما كان قبل الإسلام تُعقد في سوق عكاظ من مباريات وسجالات شعرية ونقد أدبي لأصحاب المعلقات السبع وغيرهم، ومن الواضح أنَّ هذهِ المعلقات السبع لم يخترها عموم الناس وإنَّما اختارها عموم أهل اللغة

والمتخصصين في هذا المجال.

فالناقد الأدبي كان يعيش في الجاهلية ما قبل الإسلام وكان مُؤهلاً لأنَّ يعرف عظمة القصيدة الشعرية وتفوقها على قصائد عظام أُخرى، وكان الشعراء والأدباء وأهل اللغة ينتخبون كل سنة ناقدٌ وحَكَمٌ في سوق عكاظ في مِنى في موسم الحج غير الناقد الذي كان في العام الماضي وهكذا، وهذا يدلل على أنَّ بين النقاد في الأدب العربي هناك تسابق بين النقاد ومباريات ومهارة في الحذاقة للوصول إلى المعاني التي لا يصل إليها الناقد الآخر، مع أنَّ هؤلاء النقاد هم في طبقة واحدة التي تعتبر هي المرجع وقتها.

إذنْ مجالس النقد الأدبي التي تنعقد وقائمة على قدم وساق في اللغة العربية وبقية لغات العالم إلى يومنا هذا منهي بين ثُلَّة خاصة وهم النقاد الأدبيون تجد بينهم مباريات، فالناقد الأدبي عندما يُحلل الكلام ويستخرج من الكلام معانٍ كثيرة إلى ما شاء الله فهل يعتبر التفطن والالتفات إلى مثل هذهِ المعاني الدقيقة التي يستكشفها جليّاً ثم يدلل على ما توصل إليه بشواهد لا أنَّه يدعي مدعيات بدلائل خفيت على غيره وهو تفطن إليها فقط، وهذا نظير بعض المسائل المعقدة والمشكلة في بعض العلوم كالمسائل والمعادلات الرياضية فإذا حلَّها والتفت إليها النابغة والفطِن ويدلل عليها بشواهد تصبح سهلةً وواضحة بعدما كانت متوغلة في ظلمة النظرية.

وعليه فماذا نسمي مثل هكذا خفاء ثم ظهر لذلك قال البعض:ـ

«إنَّ الخفاء والظهرو والبطون صفة إدراكية للعقل لا لنفس المُدرك»

الجواب الرابع: نظام التعريض مقابل نظام التصريح، ونظام التعريض فيه أقسام عدَّة:

منها: الكناية في الاستعمال القرآني.

ومنها: المجاز في الاستعمال القرآني.

ومنها: الإيماء والإشارة والتنبيه و... الخ، وبعض كتب التفسير بعبورن عن دلالة الإشارة بالتفسير الإشاري أي الذي يتتبع ويتصيد ويُتابع ويجمع الإشارات الموجودة في القرآن الكريم.

وبناءاً على ما وَرَدَ في الحديث المنسوب لأمير المؤمنين عليه السلام.

«العبارة للعوام، والإشارة للخواص، واللطائف للأولياء، والحقائق للأنبياء»[1].

وعليه فلطائف القرآن إشاراته كلها تندرج تحت بحث ما وراء سطح العبارة في ألفاظ القرآن وليسَ نصاً ظاهِراً جلياً، وليسَ من الصحيح حصر فهم معاني القرآن بالعبائر فقط، إلّا أنَّ الوصول إلى هذهِ الطبقات للأقسام من العبارة إلى الإشارة إلى اللطائف إلى الحقائق ليسَ بسهل وبصورة مباشرة وإنَّما هناك سلالم وحلقات مستلسلة ومترابطة وليسَ الأمر مزاجي أو جزافي، وإنَّما هناك نظام وميزان للوصول إلى تلك الأقسام وهذهِ الطبقات الأربعة موجودة، فوجود العبارة للعوام من الناس ليسَ معناه أنْ طبقة الإشارة معدومة أو طبقة اللطائف معدومة أو الحقائق كلا وإنَّما هذهِ الطبقات موجودة وكل طبقة منها تعمل بمستوى معين من الناس.

الجواب الخامس: يمكن أنْ يكون هذا الجواب عبارة عن قاعدة تعدد الخطاب القرآني هي أيضاً من قواعد نظام المعاني وسنبيِّنها في محلها مفصلاً،

---

(١) بحار الأنوار/ ج٩٢ ص١٠٣ ح٨١.

ولكن بما أنها مرتبطة بقاعدة التعريض في الحدود والنتيجة.

ومفاد القاعدة: أي قاعدة تعدد الخطاب القرآني: ـ كون القرآن نظام خطابة لعموم الناس نُسَلِّم به، وأمَّا بالنسبة للبعض الآخر من الخطابات القرآنية فهي للخواص أو للأولياء أو للأنبياء وعلى أثر هذا الكلام لأمير المؤمنين عليه السلام يُبيِّن بكلام أمير المؤمنين عليه السلام.

ومن هذا يُعلَم أنَّ مستوى الخطاب القرآني للبشر ليسَ على وتيرة واحدَة بلْ مختلفة كما بينتها الرواية الشريفة.

وعليه فتعدد الخطاب القرآني ليسَ معناه تجميد للقرآن الكريم في بيانات أهل البيت عليهم السلام العلمية، فمثلاً: ـ لماذا أتى القرآن الكريم في عديد من السور بالحروف المقطعة في مثل سورة: يس، الم ، المر، كهيعص، حم، طه، ن، ق و...الخ؟ ولعلّه ـ والله العالم ـ أهم فائدة من وجود الحروف المقطعة في السور القرآنية هي للتدليل على أنَّ الخطاب القرآني ليسَ على نسق وطبقة واحدة بلْ هو متعدد، وعليه فأدل دليل على أنَّ طبقات القرآن متعددة هي خطابات القرآن المتعددة.

وليسَ الغرض من تعدد الخطابات القرآنية الألغاز والإجمال، وإنَّما القرآن كتبا هُدى ونور في كل طبقاته ولكل مَن خوطب به كلٌّ بحسب طبقته، فمثلاً في قوله تعالى (يس) من هو المخاطب أو (كهيعص) أو (حم) أو (ألم) ... الخ.

نعم، مجموع القرآن كُلَّهُ بطبقاته آياتٌ بينات وبيانٌ للبعض وهم

النبي ﷺ وعترته الطاهرة ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾[(١)].

وهذا ترابط واضح بين ولاية أهل البيت عليهم السلام وبين ولاية الله ورسوله، وإلقاء كُلّ منهما بظلاله على قواعد وأصول تفسير القرآن وأنّها لا تقوم لها قائمة سديدة وصحيحة إلّا بالالتفات إلى محورية وقطبية ومركزية ولاية أهل البيت عليهم السلام للمحكمات ومركزية المحكمات للمتشابهات وإلّا سوف تضيع من بين أيدينا حتَّى أبسط القواعد في الاستعمال اللفظي للقرآن الكريم.

وهذا ما أكَّد عليه الإمام الصادق عليه السلام في تفسير العياشي «**ولايتنا قطب القرآن وعليها تدور محكمات القرآن وعليها تدور جميع الكتب المنزلة على الأنبياء**»[(٢)].

وكذلك القرآن أشار إلى ذلك ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ﴾[(٣)].

ونفس معرفة لحن قول المتكلم هي عملية استظهار منضبطة وصحيحة وعلى وفق قواعد وشروط مُثبتة في كُلّ فنٍّ.

بلْ يمكن أنْ يقال أنَّ علماء العلوم الحديثة توصلوا إلى أنَّ كثير من علوم النفس تبتني مباحثها وقواعدها على نبرة كلام المتكلم أي على الألفاظ التي ينتخبها في الكلام فهي وسيلة حديثة.

بلْ حتَّى في التحقيقات الجنائية والتحرّيات الأمنية فإنَّه من خلال

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

(٢) تفسير العياشي، ج١ ح٨.

(٣) سورة مُحمَّد: الآية ٣٠.

ألحان مداليل خفيّة للكلام يستطيعون أنْ يستجوبوا ويستنطقوا ويستخرجوا اعترافات من شخص من دون أنْ يقصدها ... الخ.

وبالتالي كُلّ هذهِ الأمور تشكل ظهورات في الكلام يتوصل إليها بموازين وقواعد لا على تهجسات وتخرصات.

فمجرد وجود خفاء ودلالة تعريض وتأويل لا يدعو ولا يستلزم عدم حجيّة تلك الدلالة الخفية.

فلو لاحظنا نفس علماء البلاغة ـ علم معاني وعلم بيان وبديع ـ نلاحظ وجود سجالات في اكتشاف تلك القواعد الصحيحة وكيفية تطبيقها علماً أنَّها كلها فيها درجات من الخفاء والظهور ومع ذلك لمْ يستلزم خروجها عن الظهور.

جواب بالدليل الخامس عن الإشكال الأوَّل: تقدم الدليل الخامس وهو أنَّ مبحث التأويل والدلالات الخفية يوجب التلاعب في نصوص الدين ونصوص القرآن الكريم والأحاديث والروايات وبالتالي يكون الاستنتاج كُلَّهُ ذوقي ـ

والجواب: ـ هذا المحذور مُبرر له بمعنى أنَّ أسسه وقناعاته لا يمكن أنْ يكون الاستناج فيها عفوي قريحي، وإنَّما لابدَّ أنْ يكون مُنضبطاً ضمن موازين وقواعد ولا يعني انضباطه ضمن الموازين والقواعد دليل على أنَّها جليّة للكل؛ إذْ لو كان معنى سلامة النتائج وسدادها لكان النتائج واضحة للكل وبالتالي تكون كُلّ بحوث العلم ونتائجه كلّها جهالات ومدعيات ومصادرات.

فنلاحظ انقشاع وتبدي الخفاء في مختلف المسائل العلمية في مختلف العلوم جيلاً بعد جيل إلى جلاء ووضوح ضمن قواعد وموازين ومع ذلك لا يؤثر ولا يضر في عملية النتائج والاستنتاجات حتَّى لو كانت خفية.

فمثلاً لو سمع أحدٌ من البشر قبل قرنين من الزمان ـ قبل اكتشاف الطائرة ـ أنَّ معدن الحديد يطير ويمتطي الهواء وهو يحمل المئات من البشر وآلاف الأطنان من المواد ألم يُسَّفهوا عقله؟!

نعم يُسفّه لأنَّ الأمر كان خفياً، وكونه خفياً لا ينافي حقيقته وحقّانيته ولم يَصُّد الخفاءُ البحث العلمي عن البحث والاكتشاف وتجليته وما أكثر هذهِ البحوث العلمية.

وعليه مهما توغلت النتائج في النظرية والخفاء وغيابها عن ذهن عامة البشر فلا يستلزم خفاء تلك النتائج أو الحقائق شريطة استنادها ـ النتائج ـ إلى الموازين والقواعد العلمية ولنعم ما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام **«لا تَستوحشنَّ من طريق الحق لقلَّة سالكيه»**[1].

وعليه فلا تستوحش أيُّها الباحث الكريم من بعض المسائل النظرية المتوغلة في الإبهام إلّا أنَّه بعد البحث سرعان ما تنقشع تلك الظلمة وتصبح نيّرة بنور البحث والعلم على أفق قواعد وموازين منضبطة وسليمة.

وكذا ما قاله الإمام موسى الكاظم عليه السلام لهشام **«يا هشام لو كان في يدك جوزة، وقال الناس (في يدك) لؤلؤة ما كان ينفعك وأنت تعلم أنَّها جوزة، ولو كان في يدك لؤلؤة وقال الناس: أنَّها جوزة ما ضَرَّك وأنت تعلم أنَّها**

---

(١) رجال الفكر/ ج٢، للسيد مرتضى الرضوي.

لؤلؤة»[١].

وإنْ كان الإمام الكاظمعليه السلام ليسَ بصدد بيان الآية المباركة ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ﴾[٢].

وإنَّما الإمام بصدد بيان أنَّه لا تُقام حقيقة الأشياء وعلميتها بالخفاء والظهور؛ لأنَّ هذا خفي على الناس فلا يعرفون ما في يدك من جوهرة أو حجارة وعدم معرفتهم؛ لأنَّه أمر خفي عليهم وهو لا يزلزل الواقع عمّا هم عليه من حقيقة علمك بالشي، بأنَّك تعلم ما في يدك إنْ كان جوهرة أو حجارة، فعدم معرفتهم لا يزعزع يقينك بأنَّ ما في يدك هو أحدهما.

الخلاصة: ليكن عملك مُسْتَقى من دلائل وقواعد وموازين علمية متسلسلة وسليمة ومنتظمة، لا أنَّ ميزان علمك على قبول الناس وعدمه وجلاء أو خفاء الشيء لدى الناس، وإنَّما ليكن انطلاقك من منطق علمي رائد وشامخ وهو ما قاله أهل البيتعليهم السلام قبل أربعة عشر قرناً ما مضمونه «**إنَّ العلم لا يعرف وحشةً ولا أُلفةً**» وإنَّما يعرف العلم التنقيب والفحص طبق آليات وموازين وقواعد.

إذنْ: ـ إذا أردت العلم فاخلص له فإنَّ العلم صديقه الدليل والقواعد الصحيحة لا الظهور والخفاء.

الإشكال الثاني: لو فرضنا أنَّ المتكلم غير ملتفت لهذه الدلالات والمعاني الخفية التي يستبطنها كلامه وعليه فكيف يُخرِّج في حقه مبنى أنَّ

---

(١) ابن شعبة الحرّاني، تحف العقول، ص٣٨٦.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١٧.

الكلام له سبعين وجهاً وله سبعين بطناً وأنه حجة في حقه ـ غير الملتفت ـ فهناك بعض الكلمات التي تُرصَد على المتكلم يمكن استخراج ملفات كثيرة جداً إلى ما شاء الله لمْ يكنْ يقصدها تفصيلاً، إلّا أنّه يمكن أنَّ يُقال أنَّها مقصودة له إجمالاً وارتكازاً ومن الواضح كما تقدم وننبه عليه الآن إلى أنَّ هذا الكلام لا يختص بعلم التفسير فقط، بلْ يتعدى إلى علم الفقه فإنَّ الفقهاء يذكرون استنتاجات واستظهارات من دلالات خفية بناءاً منهم على مبنى أنَّ المتكلم خاصة إذا كان معصوماً فإنَّ كلامه يتحمل ويقصد هذهِ التفاصيل والمعاني الخفية.

في كلام الله تعالى وكذا فيمن استخلفهم الله جل وعلا على البشر فلا يتطرق إليهم الجهل فإنَّ الله تعالى يزودهم بالعلم اللدني وهذا لا كلام لنا فيه.

وهناك مسلك آخر: ـ حصر فيه البعض حجية الظهور فيما لو قصد المتكلم تفصيلاً وهذا المسلك فيه ما فيه.

أيضاً يوجد مسلك ثالث وهو مسلك صحيح ومعتمد ومتين وحاصله: ـ

الجواب: إنَّ الارتكاز الإجمالي للمعلومات والمعاني والدلالات الخفية يكفي للاعتماد عليها وإنْ لمْ يلتفت إليها المتكلم ويتدبرها ملياً وإنَّما يكفي أنْ تكون مرتكزة في خلده وهذا له أمثلة عديدة منها: ـ

مثال: قراءة علماء التأريخ لقطعة تأريخية مأثورة لأجل معرفة تأريخ أقوام شعوب البشر فيستنتجون عدَّة أمور منها:ـ

١ ـ معرفة اقتصاد تلك الحقبة وما هي حالة الاقتصاد آنذاك.

٢ ـ معرفة النظام الأخلاقي في تلك الحقبة.

٣ ـ معرفة الوضع القانوني في المجتمع من خلال قراءة تلك الحقبة وكيف كانت في تلك القرون الغابرة؟

فبعض البارعين في علم القانون مثلاً استعرض جزءاً من مقطع تأريخي لقريش قبل الإسلام واستنتج أموراً منها:

١ ـ أنهم كانت لديهم بنود قانونية تحترم كرامة الإنسان أكثر مما يمارسه البعض في زماننا.

٢ ـ إنَّ المرأة محترمة لا يدخل عليها ما يدخلها الآن من الابتذال والهوان والحط من كرامتها وشخصيتها.

مثال٢: بعض العلماء البارعين والماهرين في الجانب الأمني والاستخباراتي لو قرآ الآيات القرآنية الخاصة بالجانب الأمني، نلاحظ كيف يستنطق الوصايا الأمنية في القرآن غير ما يستظهر المُفَسِّر أو الفقيه، والسبب في ذلك ـ هو أنَّ التفات ذلك العالم البارع في العلوم الأمنية لبنود معينة في القرآن لمْ يلتفت إليها الفقيه أو المُفَسِّر.

فاستنطاق الجانب الأمني والبنود الأمنية من خلال لقاء موسى عليه السلام بالخضر عليه السلام ويلاحظ البرنامج الأمني الذي يراعيه الخضر عليه السلام ويشرحه لنا القرآن الكريم ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيد﴾[1]. عن اليمين وعن الشمال.

---

(١) سورة ق: الآية ١٨.

ويستنتج منها دلالات ومعاني خفية.

الإشكال الثالث: بعض المذاهب الإسلامية حاولت ـ ولكنْ لمْ تفلح ـ في أنْ تجعل مصدر طعن على مدرسة أهل البيت عليهم السلام في أنَّها تنتهج المنهج التأويلي وأنَّها مدرسة باطنية وفيها جانب خفاء وأنَّها تتوسع في منهجها الدلالي في قراءة النص الديني، وحاول كثير من علماء الجمهور عندما ترجموا شخصية الإمام الرضا عليه السلام مثلاً ترجموها بإجلال وإكبار وإعظام وكانوا يثنون على شخصيته بالمدح والثناء وأنْ سيد النبي صلى الله عليه وآله في زمانه ويعترفون بسلالته وأنه وافر العلم وأنه ... الخ.

إلّا أنهم حاولوا أنْ يسجلوا مؤاخذة على الإمام الرضا عليه السلام هم بسحب فهمهم يتصورون أنَّ الإمام عليه السلام يأتي بالغرائب عن أبيه الكاظم بتفسيرات وأمور خفية ومن الواضح أنَّ الإمام الرضا عليه السلام من الأئمة الذين سنحت لهم الفرصة أنْ يعقد مؤتمرات لعلماء ومفسري وفقهاء وفلاسفة وعرفاء ومتكلمي و .. المذاهب الإسلامية الأُخرى تحت إشراف ورعاية وتدبير الدول العظمى في زمانها ألا وهي الدولة العباسية التي كانت تضم خمسة وخمسين دولة من شرق الأرض وغربها وشمالها وجنوبها ـ لكي يبين حقائق كنوز علوم أهل البيت عليهم السلام وهذهِ الأمور التي بيَّنها الإمام عليه السلام كانت خفية عليهم وأظهرها لهم الإمام الرضا عليه السلام لذا استغرب وجعلها غريبة الجانب الآخر.

الجواب عن الإشكال الثالث: يصلح الجواب لهذا الإشكال ما رواه الصدوق بسنده عن الحسن بن الجهم، قال: ـ حضرتُ مجلس المأمون يوماً وعنده علي بن موسى الرضا عليه السلام، وقدْ اجتمع الفقهاء وأهل الكلام من

الفرق المختلفة فسأله بعضهم، فقال له: يا بن رسول الله بأي شيء تصحّ الإمامة لمدعيها؟ قال بالنص والدليل، قال له: ـ فدلالة الإمام فيما هي؟ قال في العلم واستجابة الدعوة، قال فما وجه أخباركم بما يكون؟ قال: ذلك بعهد معهود إلينا من رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: فما وجه أخباركم بما في قلوب الناس؟ قال عليه السلام له: أَمَا بَلَغَكَ قولُ الرسول صلى الله عليه وآله اتقوا فراسة المؤمن فإنَّه ينظر بنور الله، قال: بلى، قال: وما من مؤمن إلّا وله فراسة ينظر بنور الله على قدر إيمانه ومبلغ استبصاره وعلمه وقدْ جمع الله الأئمة منّا فرقة في جميع المؤمنين، وقال عز وجل في محكم كتابه ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ ـ الحجر/ ٧٥ـ فأوّل المتوسمين رسول الله صلى الله عليه وآله ثم أمير المؤمنين عليه السلام مَن بعده ثم الحسن والحسين والأئمة من ولد الحسين عليهم السلام إلى يوم القيامة، قال فنظر إليه المأمون، فقال له: يا أبا الحسن زدنا مما جعل الله لكم أهل البيت، فقال الرضا عليه السلام: إنَّ الله عز وجل قدْ أيدنا بروح منه مقدسةً مطهَرةً ليست بملك لمْ تكن مع أحد ممن مضى إلّا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهي مع الأئمة منّا تسددهم وتوفقهم وهو عمود من نور بيننا وبين الله عز وجل ..

بتقريب: إنَّ الإمام الرضا عليه السلام نلاحظه كيف يغور في حديث نبوي أصيل في بيان دلالات خفية لهذا الحديث الشريف ويثبت هذا الحديث الشريف: ـ أنَّ هناك نور أعظم من العرش الرحماني يرتبط ببعض الصلحاء من البشر وأنهم حبل الله الممدود وسفراء الله في خلقه.

فنلاحظ بوضوح كيف يُفسِر الإمام عليه السلام الحديث بالتعريض والتلويح في مسألة نور [الإيمان للمؤمن وفراسة المؤمن، فهذه أمورٌ ودلالات خفية يستظهر منها المؤمن أموراً يمكن له ترتيب الأثر عليها إذا كان قدْ استعمل

آليات استظهار واستنباط الإشارات الخفية بصورة منضبطة وتحت قواعد وموازين صحيحة.

ولكنْ سبحان الله سرعان ما تبدل ذلك الطعن إلى مدح وصفه إيجابية تدل على الغور في الأعماق وعالم التحليل بعدما انتشرت لدى البشر تعدد القرارات للنص الواحد ما يسمى بالمصطلح (الهرمونطيقيا) أي فلسفة الألسنيات والحداثويات، وأصبح من البديهي لدى عقول البشر أنَّ النص الواحد له أعماق وطبقات وياستطاعة العقول البشرية الغور والوصول إلى الحقيقة في النص الوحياني تختلف درجة الوصول باختلاف قدرات البشر.

وعليه أصبح من الواضح لدى المثقفين من إخواننا أهل السنة هذهِ الأمور التي هي أساس منهج مدرسة أهل البيتعليهم السلام التي هي مهد الحضارة والعلم والتحليل والتدقيق والعمق بحق، بعد أنْ راجت وللأسف بعضهم روَّج لها ثم انخدع بها ـ في الغرب فلسفة الألسنيات التي هي موجودة لدينا قبل أنْ تترعرع عندهم قبل العقود الأخيرة من القرن العشرين الميلادي، إذْ لا تجد مدرسة تحتفي وتهتم بمباحث الألفاظ في قراءة متن النص اللفظي أي أسس وأصول الفقه والفهم مثلما هو موجود في مدرسة أهل البيتعليهم السلام والباب مفتوح أمام علماء القانون وغيرهم في شرق الأرض وغربها في كيفية منهجة قراءة القانون ليدلوا بدلوهم وفي المقابل لتدلي الحوزات الشيعية بعلمائها ومفكريها وفضلائها من مذهب أهل البيتعليهم السلام الأثني عشرية ليرى من هو الأوفر دلواً وصدقاً.

الإشكال الرابع: إذا كان بحث الظهور والتأويل والدلالات الخفية من المباحث المهمة جداً في مصادر الوحي كالقرآن والسنة المطهرة

للمعصومين عليهم السلام فكيف يكون للدلالة الخفية أعلام وإيصال وكشف عن الخفي أو عمّا هو أخفى منها، فإنَّ البعض يستصعب تصور إنَّ الدلالة إذا كانت خفيّة فهي إذنْ ليست ظاهرة وإنْ لمْ تكن الدلالة ظاهرة وكانت خفية فكيف تكون كاشفة عن الخفي أو ما هو أخفى منها، وبالتالي كيف يكشف الكاشف الخفي عن المُنكشف الأخفى، والحال أنَّ المشهور كيف يجمعون على أنَّ الدلالة بين كونها دلالة كاشفة مُجلية وهي خفية تحتاج لمن يُجَّليها والمعروف أنَّ الجلي والظاهر يكشف عن الخفي لا العكس، إذنْ كيف هي دلالة وهي خفيّة لأنَّ نفس الدلالة مأخوذة فيها الظهور الوضوح.

الجواب على الإشكال الرابع: من الواضح أنَّه لا يوصل إلى الباطن إلّا من خلال الظاهر، وهذهِ الدلالات الخفية تترامى في الخفاء وتتسلسل إلّا أنَّ المنطلق الأساس الثابت والرصين لهذه الدلالات لابدَّ أنْ يبتدأ من منصة الظاهر وبخطوات موزونة وبقواعد وحلقات توصل إلى الطبقات الخفية.

وبعد هذا نقول: إنَّ الخفاء على طبقات وهذهِ الطبقات فيها الخفي وفيها ما هو أخفى وأخفى، فإنَّ القليل في الخفاء إذا وصل إليه العقل والإدراك فهو بدوره يكشف عما هو أخفى منه وهذا أشبه ما يكون بطبقات الأرض فكلما نصل إلى طبقة فهي بدورها سطحٌ ساتر للطبقة التي هو تحتها إلى الباطن، وعليه فلا تنافي بين القول بأنَّها دلالات وبين كونها خفية، وعليه يتضح أهمية وضرورة الطبقة الأُولى الظاهرة في الدلالات كذلك أهمية علم التجويد في علم قراءات القرآن ونظام العلوم القرآنية وأهمية التجويد؛ لأنَّه يتعامل مع ألفاظ المصحف الشريف فبعدأنء نثبت

ألفاظ المصحف ثم نبدأ بمحاسبات العلوم الأُخرى للألفاظ كعلم النحو والصرف والبلاغة وعلوم فقه اللغة ونحت اللغة وعلم الاشتقاق ...الخ.

وكذلك أهمية علم الحديث وعلم الدراية فإنَّه يضبط ألفاظ الحديث ثم علم النحو والصرف وعلم اللغة العربية.

وعليه فالعلوم تتناول ظاهر القرآن وهي علوم ضرورية ولا يمكن الاستغناء عنها في حين أنَّ منهج تفسر أمومة المحكمات وولاية أهل البيتعليهم السلام يؤكِّد على خطورة المحكمات وأهمية طبقات المعاني وحقائق القرآن ووجود الطبقات الخفية وما لها من الأهمية الكبيرة ومع ذلك فإنَّ منصة الظاهر الأُولى للألفاظ لا يُستغفل في منهج أمومة المحكمات؛ لأنَّ وراءها منطلق لما وراءه وهكذا.

كيف يفرق الباطن بالظاهر:

لا إشكال في أنَّ لكل ظاهر باطن لأنَّ نفس معنى كلمة الظاهر مأخوذٌ بها معنى البطون فلا يُقال ظاهر إلّا ويتبعه وجود باطن، فمثلاً في اصطلاحات علوم القرآن يوجد مثل مصطلح علم المصحف والتصحيف ومعناه تثبيت رسم الألفاظ القرآنية وحركاتها وكيفية أداءها وتلحظ من جوانب عدَّة أُخر، فمثلاً ضبط رسم الكلمة والتثبيت منه هو ظاهر يؤثرعلى المعنى والدلالة الخفية لهذه المفردة، ونحن نريد الوصول إلى الباطن والمعنى الخفي من خلال سلوك الطرق العلمية واستعمال القواعد والموازين العلمية في الوصول إلى صحراء الباطن والخوض في عالم الدلالات الخفية واستخراج المعاني التي يمكن ترتيب الآثار عليها والوصول إلى الحقائق، ولا نريد الوصول إلى تلك الحقائق من خلال

العرفان العملي، والفرق بين المسلكين ـ أي مسلك القواعد العلمية للوصول إلى الدلالات الخفية والمعنى الخفي وبين مسلك العرفان العلمي للوصول إلى عالم الدلالات الخفية والمعنى ـ واضحٌ إنَّه على الثاني ـ مسلك العرفان العملي ـ لا يريد سالكه أنْ يصل إلى الحقائق عن طريق تعلم علوم الحديث والتفسير والمعارف الموجودة في الآية أو الحديث، والشخص الذي يريد الوصول إلى الحقائق عن طريق مسلك العرفان العملي مهما زاول من رياضات فإنَّه لمْ يصل إلى الحقائق بمثل ما وصل إليه سيد الأنبياء صلى الله عليه وآله وكذا سيد الأوصياء والأئمة عليهم السلام وهم قدْ جُعلوا السبب في الوصول إلى تلك المراتب العالية، وجُعلوا عليهم السلام حبل الله والثقلين، ومَن أراد الوصول إلى الحقائق عن غير هذا الطريق الذي جعله الله تعالى وهو طريق القرآن وطريق تعلم علوم آل النبي صلى الله عليه وآله بهجر علومهم عليهم السلام وأحاديثهم الموجودة في المصادر، واعتمد فقط على الرياضيات الروحية والعقلية الفكرية الفلسفية ويحاول أنْ يطير الإنسان بهذين الجناحين الضعيفين أي جناح العقل المحدود وجناح القلب الضعيف فإنَّه لا يتمكن الوصول إليهما إلى كُلّ الملكوت بهذا العقل الجزئي وبالقلب الوضيع الوسطي، وعليه فيستحيل ولا يتمكن أنْ يطير الإنسان من دون أنْ يستمسك بالحبل الذي أتى به الأنبياء عليهم السلام وعليه فبداية الحبل جعل الله تعالى أطراف منه عند الناس بواسطة النبي صلى الله عليه وآله الذي قال: «**إني تارك فيكم الثقلين**».

الخلاصة: إنَّ المنطلق الأساسي الثابت والرصين للوصول إلى عالم الدلالات الخفية هو لابدِّية الانطلاق من منصة الظاهر والسير بخطوات موزونة مُقعدة بقواعد وحلقات توصل إلى المعاني الخفية والأخفى.

وبعد هذا يتبين الجواب عن أنَّها كيف دلالات وهي خفية؟

فيقال في الجواب: هي خفية بالقياس إلى ما هو أجلى منها؛ لأنَّه كما تقدم إنَّ الجلاء فيه درجات والخفاء فيه درجات وكلّ من الجلاء والخفاء نسبي باعتبار أنَّ الظهور والخفاء ـ كما مَرَّ ـ صفتان لإدراك الإنسان قبل أنْ تكونان صفتان واقعيتان للمعلومة بما هي حقيقة عينية ترتبط بإدراك الإنسان، بانه كلما فُعِّل إدراك الإنسان أكثر فأكثر كلما استوضح الطريقة لدية أكثر فأكثر فإنَّه يُستوضح لديه الطريق بقدر ما أُبهم وأُظلم الطريق على غيره، ومن الواضح أنَّ ظلمة الطريق على غيره لا يُنافي إنارة وظهور الطريق لديه.

هل الولوج في باب التأويل حكرا على فئة من الناس

لعلَّ البعض يتصور أنَّ الولوج في باب التأويل والتعريض والدلالة الخفية حكراً على فئة من الناس، وهذا تصورٌ خاطئي، ولكنْ في نفس الوقت هناك بعض الناس يقتحمون باب التأويل بأراجيف وتهجسات وأهواء وهذا أيضاً ليسَ صحيح، ولا يعني التأويل باطل وأنَّه ليسَ هناك ميزان للتأويل الحق كلا، غاية الأمر على الإنسان أني يتفحص عن قواعد وموازين بأنْ يأخذ كُلّ شيء عن دليل وبيّنة لا عن شبهة وإبهام، ولذا نلاحظ القرآن الكريم يذم من يتبع ويسترسل مع الشبهات بقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ. . . ﴾[1]. وتكون نتيجة إتباع المتشابه هي الوقوع في الفتنة، كذلك الولوج في باب التعريض فإنَّه باب كبير وفيه أقسام عديدة من التلويح والإيماء والإشارة والكناية، والكناية أيضاً على أقسام استقصاها البلاغيون: ـ كناية حسية، وكناية تخيلية، وكناية عن الصفة المعنوية، وكناية عن الموصوف وكناية نسبة الصفة إلى الموصوف، وهكذا باب المجاز والدلالة الالتزامية فإنَّها أيضاً ذو أقسام كثيرة.

وعليه فالوقوع في الخطأ في باب التأويل والتعريض ليسَ معناه سدّ الباب وأنَّ هذا الباب لا يدخله إلّا فئة معينة من الناس، وإنَّما لابدَّ من تقويم وتصحيح الفكرة بإقامة الموازين وتطبيق القواعد الصحيحة الخاصة بباب التعريض والتأويل والالتزام بها.

ومَن أراد الدخول في هذا الباب الطويل العريض الذيل فعليه أنْ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

يسير على طبق القواعد والأدلة الصحيحة حتّى يخرج بنتائج طيبة ونافعة وعملية، حتّى إذا طلب منه دليل على صحة ما يدعيه فعليه أنْ يقدمه إذا كان.

فالباري تعالى فقط الذي لا يُطالب بدليل ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (١).

ومع ذلك يخاطب البشر بالدليل وأنه على البشر لا يقبل شيء إلّا عن علم ودليل ومعرفة ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢) فالله تعالى يحث على العلم والعقل والتعقل ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ . .﴾ (٣).

الخلاصة: إنَّ الدخول والغور في باب التأويل والتعريض يحتاج إلى قواعد وموازين حاله حال باقي الأبواب الأُخرى خاصة التي فيها جنبة خفاء وبطون وغيب.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (٤) ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾ (٥).

إذنْ لا بدَّ من ميزان.

هذا ولكنْ من الغريب جداً أنَّ من يريد اقتحام باب التأويل والتعريض في تفسير القرآن الكريم، ويريد اقتناص واصطياد مفاد الآيات والسور القرآنية عبر منهج التأويل والتعريض وهو لا يعي ولا يُلم وغير محيط بقواعد علم البلاغة أو قواعد اللغة أو النحو أو الصرف أو العلوم الشهيرة والتي لها دخالة في علم التفسير، نعم لا نقول الإحاطة بمثل هذهِ القواعد هو كُلّ شيء إلّا أنّها أساسية في ضبط عملية التفسير.

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٢٣.

(٢) سورة الزمر: الآية ٩.

(٣) سورة هود: الآية ١٧.

(٤) سورة القمر: الآية ٤٩.

(٥) سورة الرحمن: الآية ٩.

إثارة: التأويل لا يمكن ضبطه بقواعد اللغة العربية:

أثار البعض[1] هذهِ الدعوى وحاصلها:

إنَّ التأويل والدلالة الخفية لمْ يمكن أنْ ينضبط بقواعد العلوم العربية باعتبار عدم انسباق أذهان عموم المخاطبين إليها، وأنَّ هذهِ الدلالات لا تستند إلى أصل لغوي، وبالتالي لا يندرج في حجية مداليل الدلالات الحوارية واللغوية.

ولعلَّ البعض يتحفظ في التعبير عن التعريض أو التأويل وأنه يندرج في حجية الظهور ويقول: ـ التعريض أو التأويل لا يندرج تحت حجية الظهور؛ وذلك باعتبار أنَّ التأويل مقابل الظهور وعليه فكيف التأويل يرجع إلى الظهور؟

إلّا أننا نقول باندراجه تحت حجية الظهور، ببيان: ـ

تقدم في مبحث التعريض أنَّ السيد المرتضى في دفع بعض الإشكالات وأطلق على التفسير التأويلي أو التفسير للدلالات الخفية أطلق عليه الظهور الخفي، علماً أنَّ هناك دعوى من بعضهم: ـ أنَّ التأويل لا ينضبط بقواعد وعلوم اللغة العربية وعلوم القرآن، وهذا مبحث خطر وحسّاس؛ لأنَّ ما وَرَدَ في كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: ـ أنَّ جُلَّ دلالات القرآن الكريم والنظام الاستعمالي لها قائم على أساس قاعدة التعريض وعليه فكيف تدفع هكذا دعوى عن مثل هذهِ القاعدة؟ وللأسف يركِّز أصحاب الفكر السلفي المنحرف على هذهِ الدعوى الخطيرة الدعوى

---

(١) إشارة إلى بعض أقوال الفقهاء والمتكلمين والمفسرين من الفريقين، بلْ حتّى لدى بعض الأصوليين وبعض الأخباريين من الفريقين.

الخطيرة والجدل والحوار العقائدي من السلفية قائم على إنكار الدلالات الخفية في الآيات وإنْ كانت هي موجودة على إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، إلّا أنَّهم يتمسكون بشيء وهو أنَّه ما دامت هناك دلالات خفية بمعنى لا ينسبق ولا يتبادر إليها ذهن عموم الناس في الوهلة الأُولى، وإنَّما يحتاج إلى تروي وتدبر وعليه فيدعون أنَّ مثل هذهِ القواعد ليست دلالتها حجة وغير صالحة لإثبات شيء في الدين، بلْ رُبَّما حتَّى في الوسط الداخلي يخشى البعض أو يتحاشا الخروج والتوسع عن دائرة الصريح ويُريد أنْ يقوقع ويحبس الذهنية الإسلامية أو الإيمانية فقط في ضمن دائرة الدلالة الصريحة والنصيّة.

ومع ذلك فإنَّ السلفية يُعطون لمثل هذا المنهج طابعاً علمياً مع أنَّه بالواقع حشوي ظاهري، ويريدون العكوف على سطح الظاهر فقط، ويتركون الغور والخوض إلى الأعماق؛ لأنَّ في ذلك مخاطر عليهم من الغرق لو جازفوا وغاروا إلى الأعماق، ولذلك فضلوا الحياة العلمية والمعرفية السطحية.

الخلاصة: تبين أنَّ مراد الحشوية والظاهرية الذين يعتقدون بان كُلَّ ما وراء الدلالة الصريحة والظاهرة هو إيهام وفوضى واستنتاج مزاجي، ومن الواضح المقطوع به هو بطلان هذا كُلّه وخطأه كما مَرَّ توضيحه.

بيان مشرب فكري آخر

هناك مشرب فكري لدى فئات من المشتغلين بالعلوم الإسلامية والتيارات الفكرية المختلفة يقول:ـ

إنَّ الدلالة الصريحة ليسَ لها أي دور وإنَّما عليك الاكتراث بالدلالة الخفية المبتنية على الاستخراج والاستذواق من دون انضباط قواعد.

إلّا أنَّ هذا فيه إفراط كثير لما يقوله الإمام الصادقعليه السلام مضمون الرواية: **«من طلب باطناً بلا ظاهر ضلَّ، ومن طلب ظاهراً بلا باطن ضلَّ»**.

والإمام الصادقعليه السلام يشير إلى أنَّه يجب الإيمان بظاهر الشريعة كما يجب الإيمان بباطن الشريعة ويجب الإيمان بظاهر الدين كما يجب الإيمان بباطن الدين ﴿وَمَا أُوتِيتُم مِّن الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾[1].

وليسَ كُلّ ما علمته فهو الدين كُلَّهُ، وعليه فيجب الإيمان بباطن الدين الخفي، ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾[2].

وعليه فكيف لا أكذب بما لمْ أُحط به علماً ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾[3].

وفي الرواية أنَّ الإمام الصادقعليه السلام يبين أنَّ الآية فيها وصيتان:ـ

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٥.

(٢) سورة طه: الآية ١١٤.

(٣) سورة يونس: ٣٩.

الوصية الأولى: قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِمَا لَمْ يُحِيطُواْ بِعِلْمِهِ﴾[١].

بتقريب: أنَّ الذي خفي عليك لم تُحِط به فلما تُنكِرْه؟ فعليك أنْ تؤمن بوجوده ولا تنكره والذي ينكره ظالمٌ.

الوصية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[٢].

أي لا تُثبت ولا تنفي شيء من دون دليل ومستند كالإثبات أو النفي بالادعاءات أو المصادرات ... الخ.

إذنْ الدعوى عامّة من الباري جل ذكره إلى البشر بأنْ لا يغوينك ولا يخادعنك قول القائل أنَّ هذا الأمر من أسرار الدين ولا تسئل عن الدليل، فإنَّ القرآن يدعو كما تقدم إلى التعقل والإدراك.

وعليه فيجب أنْ يكون عندك علم ودليل لما تتبعه وتثبته سواء أمراً باطناً وخفياً في الدين أو الشريعة أو التفسير أو الثقة أو ... الخ ولا تسمح لعقلك أنَّ يُسلِّم ويُذعن بشىء لا علم وبلا دليل عليه تتبعه.

الخلاصة: إنَّ التمسُّك بالظاهر دون الباطن أو بالعكس يصبح التمسُّك بالمسيرة العلمية عرجاء وعوجاء، بلْ لابدَّ أنْ يكون للظاهر الذي هو منطلق لما خفي من جناح آخر ألا وهو الباطن والجانب الخفي، وبنفس الوقت لا يظننَّ ظان أنَّ التمسُّك بالظاهر فقط أمرٌ نستخف أو نزدري به، كلا، بلْ التمسُّك بالظاهر أساس القرآن، وأساس الدين، والظاهر هو

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٩.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٣٦.

منطلق الشروع بالشريعة إلّا أنَّه له جناح آخر له من دونه يَضِل المستمسك بالظاهر فقط وكذا العكس ألا وهو الباطن والدلالات الخفية، ولابدَّ أنْ يكون التمسُّك بالباطن وفق قواعد وموازين وضوابط علمية.

وبهذا ولله الحمد وصلنا إلى رسم المعادلة العلمية الدقيقة بين دور الظاهر ودور الباطن ولابدَّ من الاعتناء وبكلا الطرفين حتَّى نصل إلى نتيجة علمية متعادلة.

وأمَّا ما يبني عليه جملةمن الفقهاء والمفسرين من الاقتصار على الظاهر وأنه قول رائج فيجب علينا أنْ نعالجه بدقة.

التأويل يندرج تحت الظهور بل جزء منه

جرت سيرة العقلاء وديدنهم في أي علم من العلوم وفن من الفنون على ضبط منهاج ذلك العلم والفن بقواعد وأسس وموازين سليمة كي يكون سير خطوات تقدم ورقي ذلك العلم والفن علميةً، والانتقال من المسائل المتوغلة في النظرية وصحراء التأويل إلى نور عالم البيان والوضوح والبداهة، وهذا سيرٌ علمي موزون ضمن ثوابت لا يختلف فيه العلماء والمثقفون والعقلاء، لا سيراً تخبطياً استذواقياً، وهذان السيران متعاكسان.

وهنا يكمن سر اختلاف منهاج مدرسة أهل البيتعليهم السلام مع المنهج الفكري الحداثوي والفلسفات الألسنية الجديدة، والفرق الفارق والأساسي بينهما هو ما يُقال: البرمجة العصبية في قراءة النص الديني، وهم ـ الحداثويون ـ يدعون إلى تعدد القراءات ولكنْ بلا حساب للوصول إلى النتيجة النهائية العلمية المبتنية على قواعد وموازين، انطلاقاً من شعار: افتح الباب على مصراعيه، لكنَّ وللأسف كان فتحهم للباب عشوائياً وهوجاوياً، وهذا يُعتبر بحسب منطق العقل والعلم سدٌّ للباب وسفسطةٌ. وهذا على العكس تماماًمع منهاج مدرسة أهل البيتعليهم السلام الذي فُتِح فيه باب التأويل والدلالات الخفية على مصراعيه بشرط أنْ تكون النتائج وفق قواعد وموازين تنطلِق منها شيئاً فشيئاً إلى مناطق نظرية مبهمة سرعان ما ينقشع عنها ظلام الجهل والتوغل في النظرية ببركة نور المناطق المبدهة والمبينة والنيرة على طبق قواعد وموازين متعاقبة ومُتسلسلة.

وأمثلة ذلك كثيرة منها: ـ ما في علوم الرياضيات: ـ كعلم الجبر وعلم

الهندسة، الميكانيكية والفضائية، والفراغية، والسطحية، والفيزيائية والكيمائية وعلم الأحياء الهندسي ونظرية اللوغارتم ونظرية الاحتمالات و ...الخ. ومن الواضح أنَّ تشعب وتكثر أقسام علم الرياضيات ـ الذي يدخل في كُلّ أو أغلب العلوم إنْ لمْ تكن مبالغين لأهميته العملية والنظرية ـ لمْ تكتشف هذهِ العلوم الحديثة للرياضيات سابقاً، وعلم الرياضيات ابتدأ بمرحلة ابتدائية ثم أخذ بالتطور شيئاً فشيئاً وقَرْناً بعد قَرْن بعد بذل العلماء والمتخصصين الجهود الضخمة في حلِّ المسائل المعقدة والمتوغلة في عالم النظرية وانقاذها إلى مرافأ شاطيء العلم والبيان والنورانية، وهل بعد هذا التطور والنضوج الحاصل في علم الرياضيات معناه أنَّه سيقف إلى حدٍّ وينتهي؟ كلا سيستمر إلى ما لا نهاية ما دام مسيرة الفكر البشري مستمرة، هكذا شأن علم الرياضيات.

ومن الواضح أنَّ هذا التطور والنضوج في المسائل المبهمة ونقلها إلى عالم البيان والوضوح ليسَ من مختصات علم الرياضيات وإنَّما يشمل باقي العلوم الأُخرى كالفيزياء والكيمياء وعلم الأحياء والبيلوجيا والفسلوجيا، وعلم الإدارة،، وعلم السياسية وعلم الاجتماع ... الخ. وكلّ هذهِ العلوم ابتدأت ـ كما هو المعلوم ـ بمساحة ابتدائية في العمران ثم اتسعت بلاد العلوم شيئاً فشيئاً.

وعلم تفسير القرآن شأنه شأن العلوم الأُخرى فإنَّه يجري فيه عين ما جرى بتلك العلوم كما في مثل مبحث التأويل والظهور في مدرسة أهل البيت عليهم السلام الذي فتحت فيه الباب على مصراعيه شريطة أنْ تكون النتائج مبتنية على قواعد وموازين علمية، نعم ـ لا يُنكر ـ أنَّ مبحث التأويل من

المباحث التي قلما يلتفت ويتفطن إليها الباحث المتجر في علوم القرآن بالطريق الموصل لهذا المعنى التأويلي من منطقة ومنصة الظاهر، إذْ لو استطاع الباحث أنْ يهتدي إلى الطريق الموصل له من منطقة الظاهر إلى منطقة صحراء التأويل الموصِل إلى بيوت وغمرها بعدما كانت خاوية، ولكنْ هذا الأمر لا يتمكن منه إلّا النزر اليسير من الذين زوّدهم الله تعالى بالعلم الغفير، فمثلاً لو كانت هناك مسألة معقدة ومجهولة وقدْ حارت فيها الألباب وتبلبلت فيها الأفكار وأعيت فيها المذاهب، في أي علم كانت هذهِ المسألة من العلوم كعلوم الرياضيات أو الطب أو الفيزياء أو ... الخ، ثم يأتي عالم متخصص وباحث مُدقق وفطن يكتشف الطريق لحل هذهِ المسألة المعقدة بخطوات موزونة وطريق علمي ومتسلسل وفق قواعد وموازين وصل إلى حلها بعدما كانت نظرية ومتوغلة في ظلمة عالم الإبهام والإجمال والنظر فتدخل بعد أنْ زال عنها الغموض في منطقة الظهور فحينئذٍ سوف يندرج التأويل في منطقة الظهور وهذا يُعتبر تعريفاً آخر للتأويل غير ما تقدم ذكره ـ ومنه يظهر أنَّ التأويل لا يأبى الاندراج تحت منطقة الظهور، بلْ التأويل جزء الظهور.

إلّا أنَّه وللأسف أكثر الباحثين وأغلبهم لمْ يلتفتوا ويتفطنوا إلى كيفية اندراج التأويل في الظهور علماً أنَّ هناك حلقات مُوصلة ـ إلى عالم التأويل من خلال منصة الظاهر.

وما ذهب إليه كثير من المفسرين وعلماء العلوم القرآنية وأصول الفقه من أنَّ التأويل هو ما ليسَ بظاهر وما لا يدلُّ عليه الكلام فليس صحيحاً؛ وذلك لأنَّ ظاهر الكلام له دلالته على التأويل، وله حلقاته التي توصل إليه.

ولذلك الظهور والخفاء يكونان حالةً ونعتاً للقوّة الإدراكية في الإنسان وليسا ـ الظهور والخفاء ـ صفة للمعلومة نفسها وبذاتها.

ومن هذا يُعلم أنَّ الظهور والتأويل أمران نسبيان وليسَا إطلاقيين أي هما ثابتان للشخص بحسب قدراته الذهنية وفهمه لا أنَّه صفة ثابتة للشيء بحسب عين الشيء في الواقع.

والظهور والبداهة حاله حال أي مسألة من مسائل أي علم تصبح واضحة ومُبيّنة بعدما كانت متوغلة في عالم الإجمال والنظرية والإبهام، كذلك الظهور والبداهة قدْ تكون مسألة في زمن نظرية تأويلية وفي آخر ظاهرة بديهية، أو قدْ يكون الأمر بالعكس والعياذ بالله ـ وقدْ تكون دلالة ومدلولها واضحة وبديهية في زمان ولكنْ في زمان لاحق تصبح هذهِ الدلالة المجهولة ونظرية نتيجة لتباعد الأجيال عن عصر النص والرسالة، كما في حكم الفقهاء من أنَّ الضروري والبديهي قدْ يكون لفئة من خواص الناس كالفقهاء مثلاً ونظرية بالنسبة لغيرهم من عامة الناس.

الخلاصة: إنَّ الظهور والخفاء والتأويل أمورٌ إضافية نسبية تُضاف إلى شخص ولا تضاف إلى آخر، وما يُعْرَف به بين الظهور والدلالة الخفية من أنَّ مفاد الظاهر يوصل إليه من خلال قواعد وموازين، والخفي لا يوصل إليه من خلال ذلك فهو غير صحيح، فإنَّ كلا المفادين لهما موازين وقواعد توصل إليهما غاية الأمر الخطوات الموصلة إلى الظاهر جلية عند الباحث بخلافها في الأمر الخفي فهي خفيَّة لديه.

وما اشتهر من أنَّ التأويل مفادٌ قريحي ورجماً بالغيب وعفوي فهو خطأ لأنَّ التأويل بالنتيجة يجب أنْ يوصل إليها وفق قواعد وموازين تخفى على كثير وتظهر للقلّة، وهنا يتجلى الفرق بوضوح بين المعصوم وغيره.

روايات تأويلية تعبدية

هناك جملة من روايات أهل البيت عليهم السلام الواردة في تفسر القرآن الكريم يتعاطى معها فقهاء ومفسرو وفلاسفة وعرفاء الفريقين ـ من العامة والخاصة، أنَّها روايات تأويلية تعبدية، أي روايات لا يهتدى بها إلى كيفية الوصول إلى المعنى التأويلي من ظاهر القرآن الكريم.

والواقع ليسَ الأمر فإنَّ أئمة أهل البيت عليهم السلام بينوا لنا الآيات التأويلية ووضحوها ولكنْ بشكل مطوي يغفل غالباً عنه المفسرون أو العرفاء أو الفلاسفة أو غيرهم. وسبب غفلة هؤلاء المفسرون والعرفاء ـ هي بسبب عدم ترويهم وعدم تأملهم العميق في استنطاق واستخراج الذي بينه أهل البيت لهذا التأويل، فإنَّ دأب أهل البيت دائماً وأبداً عندما يبينون المعنى التأويلي البيِّن عندهم عليهم السلام يحتاج في المقابل من المُفَسِّر أو الفقيه أنْ يتدبر ويتأمل فإذا فعل ذلك سيجد كيف الأئمة بينوا ذلك المعنى التأويلي إلّا أنَّه وبسبب عدم التروي والتأمل والاستعجال حُرِم علم التفسير من بيان هذهِ الكنوز العلمية الضخمة التي خلَّفها لنا الأئمة عليهم السلام من خلال الروايات في باب علم التفسير، ولكنْ وللأسف أنَّ الكثير من مفسري الفريقين يتعاملون مع روايات أهل البيت بأنَّها تأويل تعبدي محض، صحيح أنَّها تأويلية ولكنها لو تعاملوا معها من أوَّل القرآن إلى آخره بالتأمل والتدبر والالتفات بدقة إلى النكات العلمية والفنية التي بينها المعصوم عليه السلام في معالجة هذا التأويل وكشف القناع عن ألفاظ تحتها معاني عميقة لأوصلتنا إلى طبقات وطبقات ومعاني غزيرة لو تعاملنا معها أوصلتنا إلى كشف مناهج كثيرة وغير متناهية وجديدة.

نظرية أخرى في معنى دلالة الظهور

هناك نظرية يتبناها جيلٌ من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والأدباء ومن أصحاب علوم مختلفة عند الفريقين، وهؤلاء ذهبوا إلى عدم حجية الدلالات الخفية؛ لأنَّها متوغلة في الإبهام وعدم الوضوح، وأنَّ الغرض من ألفاظ مفردات اللغة هو عن طريق الحوار الذي يوصل المتكلم إلى مقصوده ولا حاجة إلى عالم ما وراء الألفاظ أي عالم المعنى والدلالة الخفية والتعريض والتأويل.

وحاصل النظرية: **«إنَّ دلالة الظهور للفظ الغرض منها هو أنْ تُدِل السامع وتوصله إلى المعنى»**.

واستدلوا أصحاب هذهِ النظرية بعدَّة أدلَّة على صحتها وخروج الدلالات والمدلولات الخفيّة عن نطاق عالم الألفاظ وحجية الظهور، وهي:-

الدليل الأوَّل: إنَّ عالم الدلالة قائم على الظهور العام والوضوح لدى عموم الأذهان، وما كان وراء الوضوح لدى عامة الأذهان ولم تتبادر إليه أذهانهم فهو ليسَ بظهور وليسَ بدلالة ظهور وإنَّما هو تحميل وتكلف للفظ.

إذنْ معنى الظهور هو أنْ يدلُّ على إيصال المعنى والوضوح والظهور إلى عموم أذهان الناس.

الدليل الثاني: إنَّ الغرض من الخطاب القرآني هو خطاب وبيان لعموم الناس، وإذا كان كذلك فكيف يقوم أسلوب القرآن الكريم أو السنة الشريفة للنبي ﷺ وعترته المطهرة على أحجيات الألغاز والتعمية،

وهذا نقضٌ للفرض وخلاف الحكمة ولا يفهمه إلّا البعض النخبوي التخصصي لا عموم أذهان الناس، ومن الواضح أنَّ التكلم والحوار اللفظي هو جسرٌ ووسيلة لانتقال المتكلم إلى المخاطبين.

الدليل الثالث: إنَّ علوم اللغة والأدب هي عبارة عن نظام اللغة في بيئة أهل تلك اللغة وأهل اللسان، وإذا كان المعنى المقصود من هذا اللفظ ليسَ واضحاً وكان خفياً ويقصيهم إلى مسافات بعيدة ولا يعلمون بها وليست في حضيرة بيئتهم وتوظف وتستخدم الألفاظ بآليات بعيدة عن عالمهم خارجة عن عالم حوار أبناء اللغة.

ومن الواضح أنَّ علوم اللغة هي مأخوذة من أبناء اللغة فكيف تتجاوز ما هو المعروف عند أبناء اللغة.

وعليه فأصحاب هذهِ النظرية يذهبون إلى عدم حجية دلالة التعريض ودلالة الخفاء وأنَّ المقصود من الإعراب في اللغة العربية يعني الإبانة والظهور، وأنَّ العرب بناءاً على ما وصفهم الإمام محمد بن علي الباقر عليه السلام: ـ يُظهرون ويُقربون مقتضيات الفطرة الإلهية وهو ولاية الله ورسوله وأهل بيته عليهم السلام.

والجواب: يمكن الإجابة عن هذهِ النظرية واستدلالاتهم باختصار:

هل أنَّ علوم اللغة من وضع أبناء اللغة أم هي ظاهرة كونية فطر الله الناس عليها سواء اللغة العربية أو غيرها، ﴿الرَّحْمَن عَلَّمَ الْقُرْآن خَلَقَ الإِنسَان عَلَّمَهُ الْبَيَان﴾[1]، فهذا جواب من القرآن الكريم بأنَّ اللغة والبيان هي من تعليم الله تعالى وما أودعه تعالى في الفطرة المبرمجة في خُلْد البشر كالفطرة

(١) سورة الرحمن: الآيات من ١ ـ ٤.

المودعة في النحل، وفي هذا ردٌّ على مَن قال: ـ كيف تكون اللغة هي من التأسيس الرباني والحال نلاحظ أنَّ علوم اللغة والنحو والبلاغة والصرف والأدب و ... الخ تتوسع جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن، والجيل اللاحق يكتشف أموراً لم يكتشفها السابقون ـ وإنْ كان البعض يستبعد أنْ تكون اللغة من التأسيس الرباني لأنَّ علم اللغة يتصل مع كل البشر وهذا يعني عندهم اتصال الوحي بكل البشر.

والجواب عنه: ليسَ المقصود من الوحي المتعارف المركوز في الأذهان وإنَّما المراد بشكل آخر كما سيتضح بعد قليل.

وهذا دليل على أنَّ علوم اللغة ليست من صنع البشر إذْ لو كانت كذلك لكانت محدودة ومقصورة على ما بنوه وأنجزوه، بينما نلاحظ الآن علوم اللغة أشبه بالترسانة المنظومية اللامتناهية.

إذنْ اللغة هي ليست من صنع البشر وإنَّما من إعجازات ربِّ العالمين، كما في الآية السابقة من أول سورة الرحمن.

ألفات نظر: هناك فرق ينبغي الالتفات إليه بين علوم اللغة، وأبناء اللغة حملةٌ لها وبين هم مؤسسون لها.

ومن الواضح أنَّ مقصودنا من أنَّهم حَمَلَةٌ وليسوا بمؤسسين لها وهي من ربِّ العالمين لا نقصد من ذلك أنَّهم نَزَلَ عليهم وحيٌ نبوي وعلَّمهم ذلك، وإنَّما المراد أنَّ الله تعالى خلق الفطرة وأودع في عقول البشر ما يحتاجون إليه، كما أودع في عقل غير البشر ـ حسب ما يحتاج إليه في حياته ـ كالفطرة المودعة عند النحل ﴿وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾[١].

كُلّ ذلك بشهادة أنَّ القرآن الكريم هو استثمار لعلوم اللغة العربية بدرجة خارجة عن قدرة البشر ولذلك يُقال: ـ الإعجاز البلاغي في القرآن، وهذا مؤشر على أنَّ اللغة وعلومها آلية ومنظومية مترامية القدرات والقواعد والمعادلات، خارج بناءها عن قدرة البشر وإنَّما هي من إيجاد ووضع رب العزة خالق الخلائق أجمعين.

مضافاً إلى أنَّ أبناء اللغة في سنّهم اليافع لا يحيطون بدقائق أسرار اللغة تماماً وإنَّما كلما كبر سنهم فإنَّه سوف يتصل بسطح منظومة اللغة أكثر فأكثر.

وسيأتي توضيحه أكثر بعد قليل.

والخلاصة: إنَّ دور أبناء اللغة كحملة لعلوم اللغة فعليهم استثمار ذلك البيان بما فيهم علماء البيان واللغة و .. بما منحهم الله تعالى وأودع فيهم من قدرة عظيمة من رب العالمين.

---

(١) سورة النحل: الآية ٦٨.

ارتباط نظام التأويل والدلالة الخفية بنظام عالم الظهور

إنَّ نظام التأويل والدلالة الخفية وعلاقته بعالم الظهور وتعدده وترامي أطرافه فيتعرض له ضمن مبحث التعريض والتأويل وعالم الظهور باعتباره نظام وفق أسس وقواعد لا فوضى ركامية،، وتعدد سلسلة القراءات للنص الديني ولمعاني الآيات القرآنية التي هيأيضاً وفق موازين وقواعد علوم الأدب واللغة هي أمر واقعي وذو طبقات غير متناهية يقف عليها ويعلمها من علم وعرف القواعد الصحيحة لعلوم اللغة والنحو والصرف و .. أنَّ تعدد الطبقات إلى ما شاء الله لا يعني أنَّها غير موصولة وسوف نقع في متاهات وأمور غامضة ومجملة وأنَّها غير متصلة بوصال رابط مع المعنى الظاهر الأولي، بلْ هي مرتبطة مع المعنى الظاهر الأولي بحلقات وروابط وفق قواعد وعلوم اللغة.

هذا مضافاً إلى أنَّ هذهِ القاعدة ـ أعني الارتباط بعالم الدلالات الخفية والتعريض والتأويل عن طريق منصة الظاهر وحجية الظهور ـ لا تقتصر على الظهور عند عامة السامعين أو الظهور عند النخب أو ما شابه ذلك، إنَّما حجية الظهور فقط تتقيد بتسلسل الدلالات ومدلولاتها وفق قواعد علوم اللغة والعلوم الأُخرى، فإذا تمَّ ربط الدلالة وتعاقبها وفق هذهِ القواعد تكون الدلالة موزونة صحيحة وسديدة فتتبّع عرفها من عرف وجهلها من جهل، نظير الناقد الأدبي في أي لغة من لغات العالم إذا توصل أو تفطن إلى نكتة أو قاعدة أو نظام خفي قبل أنْ يلتفت إليه غيره يعتبر هذا سبقٌ أدبي لذلك الناقد علماً أنَّه نفس هذا الناقد لمْ يكنْ ملتفتاً إلى هذهِ القاعدة الخفيّة

وهذهِ النكتة لا تخرج المعنى المستفاد عن حجية الدلالة أبداً.

ولذلك نلاحظ علماء أي لغة من اللغات المعبر عنهم بعلماء الألسنيات لديهم اكتشافات مُذهلة من أنَّ البيان عند الكائن الإنساني أمر إعجازي من رب العالمين؛ لأنَّ هذا البيان نظام قنواتي لإيصال المعلومات بشكل غريب تعجز عنه عقول البشر، وهنا يكمن سر الإعجاز في الاكتشافات المتلاحقة لتلك القواعد الخفية والأسرار العظيمة في عالم التعريض والدلالات الخفية وكيفية ارتباطها بعالم الظهور؛ ولذا الباري تعالى شأنه يتباهى في أفعاله العظيمة ﴿الرَّحْمَن عَلَّمَ الْقُرْآن خَلَقَ الإِنسَان عَلَّمَهُ البَيَان﴾[1]. مما يدلل على أنَّ في البيان وحدة إعجاز إلهي يمُن الله تعالى به على خلقه الإنساني.

إذنْ البيان ونظام الدلالة ليسَ بمقدور العُرف أنْ يوجده ويخلقه وإنَّما العرف هو حاملٌ له ـ للبيان ـ وخالقه هو الله تعالى، وكم فرق بين الخالق للبيان والحامل له إذْ لو كان البيان من صنع البشر لما كانت البشرية جيلاً بعد جيل وفي أي لغة من لغات العالم يكتشف العلماء فيه علوم جديدة تلو العلوم ولا زال العلماء يكتشفون أسرار هذهِ اللغات شيئاً فشيءً، وهذا يدلل على أنَّ الخالق والموجد للبيان هو الله تعالى علماً أنَّ علم اللغات وعلم الألسنيات أصبح علماً مشتركاً بين سائر اللغات وهذا يدلُّ على وجود

---

(١) هناك فرق بين براعة الاختراع وبين براعة الاكتشاف ذكره سماحة الشيخ في بحث العقائد وهو: **الاختراع**: أنَّ تخلق شيئاً لا بالاعتماد على شيء آخر مثله أو من صنفه أو نوعه أو ...

الاكتشاف: هو أنْ تزيل الغموض والإبهام والإجمال عن شيء غير واضح وظاهر فهو موجود إلّا أنَّه يكتنفه الغموض والإبهام. وعليه بالدقة [كل اختراعات البشر ليست اختراعاً وإنَّما اقتباساً من شيء آخر موجود].

ثوابت وقواعد وضوابط مشتركة بين سائر اللغات وهذا يدلُّ على وجود ثوابت وقواعد وضوابط مشتركة بين لغات كُلّ البشر في العالم.

وعلى كُلّ حال فإنَّ نظام البيان نظامٌ موحدٌ وقائمٌ ومستقلٌ ولا تُسجِّل براعة اكتشاف لمكتشف قواعده ونكته إنَّما هي موجودة، وإنَّما يحتاج الكشف عنها إلى تفطن والتفات وقوّة تركيز وتأمل، وما توهمهُ بعضٌ من أنَّ نظام اللغة والدلالة والبيان بأنَّه مرهونٌ وضيِّق النطاق بحسب إدراك العرف وما شابه ذلك فهو غير سليم.

وتوضيحه: إنَّ ابن اللغة واللسان في سنِّهِ اليافع لا يحيط باللغة تماماً وإنَّما كلما يكبر يتصل بسطح منظومة اللغة أكثر فأكثر، وحتَّى إذا ما كبر سنَّه واشتدَّ ربما لا يحيط بكل درجات علم اللغة الذي هو من أبنائها، وإنَّما الذي يحيط بها النخب العلمية، ومن الواضح يوجد تفاوت بين النخب العلمية في درجات الإحاطة باللغة.

الخلاصة: الذي يزيد التوصل إليه كشواهد على أنَّ علم اللغة والبيان هو نظام مفهومي حقيقي موجود عَلِمَ به مَنْ عَلِمَ وجَهِلَه من جهل ولا يتقيد بالانكشاف والوضوح لدى أبناء اللغة أنفسهم، وإنَّما هو نظام في نفسه موجود، حاله حال سائر العلوم والأنظمة الأُخرى كالفيزياء والكيمياء والأحياء والرياضيات و ... الخ وعليه فعلم اللغة علم عامٌ وقدْ دلَّت النظرية القديمة التي كانت تتعاطاها الجامعات الأكاديمية في مختلف علوم اللغة، وإنْ كانت بعضها لا زالت تسير بسيرها هو تعليم البشر لغة مشتركة بين أبنائه وأنَّ اللغة حبيسة بحدود ما ينطبق لدى أبناء اللغة وحوارياتهم عن أنفسهم لا أنَّ علم اللغة علم عام.

«المرء مخبوءٌ تحت طيِّ لسانه لا طيلسانه»[١].

من هول عظمة علم البيان وعلم اللغة ما يشير إليه أمير المؤمنين عليه السلام قبل أكثر من أربعة عشر قرناً **«المرء مخبوءٌ تحت طيِّ لسانه لا طيلسانه»**.

بتقريب: إنَّ قيمة المرء بعلمه ومنطقه وأنَّ المرء لا زال مُهاباً حتَّى يتكلم فإذا تكلم عُرفت قدرته الكلامية والبيانية ومكانته العلمية، ومن العلوم النفسانية والعلوم الأمنية والاستراتيجية أنَّه من خلال مقطوعة كلامية من كلام المتكلم تُدرس فيه شخصية هذا المتكلم بكل أبعاده، ولا يختص هذا بالمتكلم الذي على قيد الحياة، وإنَّما يشمل المقطوعات الكلامية قبل أجيال.

ومن خلال استنطاق تلك المقطوعة الكلامية التي تعتبر كنز ثرٌّ لاستخراج معارف ومعلومات عديدة منها:

١ ـ كيف كانت بيئتهم التي يعيشون فيها.

٢ ـ كيف كانت قوانينهم.

٣ ـ كيف كانت حياتهم الاقتصادية والاجتماعية وأعرافهم و ...الخ.

---

(١) الأمالي للشيخ الصدوق، ص٥٣١، عيون أخبار الرضا له أيضاً، ج٢، ص٧٨.

علم اللغة في الأداء اللغوي للقرآن

هناك سؤالٌ يتبادر إلى الذهن وهو: لماذا البيان القرآني وصل إلى حدِّ الإعجاز؟

وجوابه: تميّزت عظمة القرآن الكريم وأنَّ فيه بيان إعجازي؛ لأنَّ القرآن فيه بيان لحقائق معلومات، وتلك لمْ تكن مقتصرة على البشر في القرون السابقة، وإنَّما استطاع القرآن أنْ يكشف لنا مقطوعات كلاميّة عن كائنات خلقية أُخرى، كعالم الملائكة، ومن خلال هذا يستطيع المتأمل والملتفت تقييم بحوث كونية وفلسفية ومعلوماتية حول عالم الملائكة وطبيعة خلقتهم.

وكذلك أخبرنا القرآن الكريم من خلال مقطوعات كلامية ـ أعني الآيات الكريمة ـ عن عالم الجن وعالم الروح وعالم البرزخ وما شابه ذلك.

إذنْ تميّز القرآن الكريم من خلال نقل هذهِ المقطوعات الكلامية عن عوالم مختلفة فإنَّها تكشف وتُبرز لنا حقائق ذلك العالم وما يجري من حوار بين كائنات من عالم آخر.

وعليه لمْ يَعُد البيان منجمداً ومنحبساً على تلك المقولة [ما يستفاده العرف ظاهراً من هذا الكلام هو الحجة] ومن الواضح أنَّ العرف ليسَ هو الحاكم مع وجود ظهور ومؤدى أقوى وهو علوم البيان، وإنَّما دور العرف وأبناء اللغة هو دور الحامل الناقل لهذا النظام والخازن والحافظ له لا أنَّ دور العرف دور الميزان وكلمة الفصل.

ومن هذا يُعرَف: أنَّ المدار ليسَ على العرف ولا أبناء العرف واللغة وإنَّما الحاكم هو علوم البيان وأبناء اللغة عليهم استثمار ذلك البيان بما فيهم علماء البيان واللغة بما منحهم الله تعالى وأودع في البشر من قدرة عظيمة من رب العالمين، وسيأتي إنْ شاء الله تفسير جديد في مباحث لاحقة وفق منهجنا التفسيري، أمومة ولاية أهل البيتعليهم السلام على المحكمات فضلاً عن المتشابهات لمعنى الإعجاز اللغوي أو الأدبي في القرآن بما يتناسب ويتصل بهذا البيان.

علم اللغة في الأداء والإعجاز اللغوي القرآني

بلغ القرآن الكريم مرتبة الإعجاز في كثير من العلوم منها البلاغة والبيان والنحو والأدب والاشتقاق و ... الخ ومنها الإعجاز اللغوي للقرآن أي أنَّ القواعد التي استثمرها وفعّلها ونشطها القرآن الكريم في علم اللغة هو الأداء اللغوي القرآني الذي باعتراف البشر وإلى يومنا لمْ يكتشف سرُّ عجز البشر عن اكتشاف سرّ إعجاز القرآن، وكذا لمْ يكتشفوا سر إعجاز كلام رسول الله ﷺ الذي أحد سؤدده ﷺ أنَّه أُوتي جوامع الكلم منها **«إنَّما الأعمالُ بالنيات»**[1] و **«خير الكلام ما قلَّ ودلَّ»** **«أغنى الناس من لمْ يكنْ للحرص أسيراً»**[2]. **«الحمية أس الدواء والمعدةُ بيتُ الداء وعود بدناً ما تعوَّد»**[3]. **«إنَّ المرأة ريحانة وليست بقهرمانة»**[4].

هذهِ التفاسير النبوية القصيرة تصلح أنْ تكون جامع تشريعي يُصطلح عليه بتعبير العلوم الحديثة بديباجة الدستور، فمثلاً التعبير النبوية الوارد في حق المرأة: ـ **«أنَّ المرأة لا تُحمَّل مسؤوليات فبها بطشي وقوة وسبعية وحرّب وقهر وشدة و ...»** الخ وإنَّما يصل دور المرأة في كُلّ التشريع هو دورٌ أمومي ودور عاطفي ودور أُلفة وريحانة، نظير ما جرى في واقعة كربلاء فإنَّ فيها

---

(١) دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي، ج١، ص٢.

(٢) الأمالي للصدوق، ص٢١؛ معاني الأخبار/ ١٩٦.

(٣) الصدوق في الخصال، ص١٢، ح٣؛ الطبرسي في مكارم الأخلاق، ص٣٦٢؛ المجلسي في البحار، ج٥٨.، ص٣٠٧، ح١٧.

(٤) الكافي للكليني، ج٥، ص٥١٠ ح٣؛ والوسائل ب٨٧، من أبواب مقدمات النكاح وآدابه ح١.

دور علم ومعرفة ومشهد عسكري لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام والمشهد الآخر في كربلاء وهو المشهد العاطفي والروحي والقلبي ألا وهو صوت العقيلة زينب عليها السلام تخطب وتقول: **«إنَّ الله قدْ شاء أنْ يراهنَّ سبايا»**[١] فنلاحظ كلا زاويتي الحديث في كربلاء موجوداً جابن القهرمانة والحرب والقتال لسيد الشهداء الإمام الحسين عليه السلام، وجانب الريحانية للعقيلة زينب عليها السلام.

وهكذا كلام أمير المؤمنين عليه السلام: **«إظهار الحرص يورث الفقر»**[٢].

فإنَّهم عجزوا عن اكتشاف سرِّ إعجازه، فكيف بكلام الله تعالى أنْ يدرك البشر سر إعجازه ومن الواضح: ـ أنَّه لا يُفهم من كلامنا هذا أنَّه يستحيل اكتشاف ذلك، وإنَّما يمكن ذلك ولكنَّه بالتدريج مع الالتفات والفطنة؛ ولذلك نلاحظ أنَّ علماء البيان واللغة والأدب و ... الخ يكتشفون القواعد شيئاً فشيئاً لا دفعة واحدة، ولذا أحد أبعاد الإعجاز البلاغي في القرآن هي القدرة الفنية فيه على ممارسة هذهِ الفنون بدرجة لا يصل البشر إلى إدراكها فضلاً عن ممارستها فأتوا بسورةٍ من مثله بلْ فأتوا بآية من مثله لذلك نرى جملة من العلماء والمفسرين من الفريقين يحسبون كثيراً من بيانات أهل البيت عليهم السلام الواردة في تفسير الآيات أنَّها تأويلات خفية باطنية، والحال أنَّ هذهِ البيانات من أهل البيت عليهم السلام معالجة لنفس ظاهر القرآن، لذا يكون ظاهر القرآن مستعصياً التدقيق فيه على المفسرين، كما ستأتي أمثلة ذلك مفصلة في مبحث الالتفات إنْ شاء الله تعالى.

والخلاصة: إنَّ القواعد الإعجازية الموجودة والمخبئة في علم اللغة والتي فُعِّلت ونُشِّطت في القرآن أكبر تنشيط واستثمار، وإعمال تلك القواعد

---

(١) ابن طاووس/ اللهوف في قتلى الطفوف، ص٦٥؛ المجلسي في البحار، ج٤٤ ص٣٦٤.

(٢) الخصال للصدوق، ج٢ ص٥٠٤.

في كلام الله تعالى أعظم مما هو في كلام النبي صلى الله عليه وآله وإعمالها في كلام النبي صلى الله عليه وآله أعظم مما هو في كلام سيد الأوصياء علي بن أبي طالب عليه السلام، وفي كلامه عليه السلام أعظم مما هو في كلام بقية المعصومين، وفي كلامهم عليهم السلام إعمالها أعظم لتلك القواعد وأكبر من بقية الناس غير المعصومين عليهم السلام من العلماء وغيرهم.

وبعد هذا العرض يتضح معنى قوله عليه السلام **«المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه»** بأنْ يستطيع الإنسان الباحث أنْ يعرف أقدار المتكلم أنَّه معصوم أو غير معصوم من خلال كلامه.

فمثلاً لو قارنّا بين مقطوعة كلاميّة لأمير المؤمنين عليه السلام في نهج البلاغة وبين أي مقطوعة كلامية عربية قديمة أو حديثة أو مقطوعة لأحد الصحابة فيها قطرات علمية مقارنةً علميةً، لوجدنا بونٌ شاسع واسع بينهما إذْ نجد اللطافة والشفافية والسبك العلمي وإعمال القواعد بصورة متوازنة من قواعد بلاغية ولغوية ونحوية و ... أدلُّ على المطلوب في كلمات المعصوم عليه السلام منها في غير كلام المعصوم.

ألم يقل أمير المؤمنين عليه السلام **«المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه»** يا لها من كلمة مختصرة تنطوي تحتها مطالب وعناوين علمية ضخمة، وهكذا قوله عليه السلام **«والله لا تسألوني عن شيء إلّا وأبيِّن لكم أين هو في كتاب الله»**[1].

وهذا يبين أنهم عليهم السلام يمتلكون القدرة على البيان والاستبيان على استشكاف الدلالات الخفية.

وهكذا لو أجرينا مقارنة علمية بين زبور داود عليه السلام وبين زبور آل محمد صلى الله عليه وآله وهو الصحيفة السجادية للإمام زين العابدين علي بن الحسين

---

(١) الوسائل أبواب صفاة القاضي.

السجادعليهما السلام وبميزان علمي سواء كان ذلك الميزان العلمي عقلياً أو فلسفياً، فالكلمات التي أبرزها الإمام زين العابدين علي بن الحسينعليهما السلام في مناجات ربه مع تلك الكلمات التي ناجى داودُ ربَّه فسوف نلاحظ أنَّ كلمات الإمام السجادعليه السلام أكثر لطفاً وشفافية، وهذا هو برهاننا على أنَّ أهل البيتعليهم السلام قدْ فضلهم الله وزوَّدهم بعلم وكرامة ومقامٌ أكثر من بقيّة الأنبياء وهذا الكلام ليسَ دعوى وعاطفة، بلْ هو برهانٌ وبيان.

والمتحصل من كُلّ هذا: إنَّ نظام اللغة والبيان نظام عظيم ولا يمكن أبداً أنْ نحبس علم اللغة في مقولة محدودة كما اشتهر أنَّ اللغة والبيان تدور مدار العرف وإنْ كُنّا نرفض هذا المشهور حسب منهجنا التفسيري ـ أمومة الولاية على المحكمات في القرآن ـ الذي يرى هذا المنهج أنَّ علم اللغة علم منفتح وليسَ محبوساً بحسب قدرات وإدراكات العرف وهذا أحد الفوارق الفاصلة بين منهجنا وباقي المناهج التفسيرية الأُخرى.

وأحد أهم الثمرات المترتبة التي تقع مسؤولية علمية على عاتق الباحثين من علماء الإمامية خاصة في الحوزات العلمية هو أنَّ مبنى عالم الدلالة في اللغة وأنه غير محبوس ومقصور بحدود قدرة ما يدركه العرف، وإنَّما هو على طبق معادلات وقواعد وموازين تترامى وتتعاقب بعضها تلو البعض الآخر ويصل إليها مَن يصل ويعجز عنها مَن عجز، ومن ثمراته هو ـ التبيان الروائي في التفسير المأثور ـ الذي ما سنبحثه تحت العنواني الآتي.

التبيان الروائي في التفسير المأثور

لو نظرنا نظرة أوليّة إلى ما يوجد من بيانات تفسيرية في الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لوجدنا أنَّ كُلّ أو أغلب هذهِ البيانات تأويلية، ثم إذا دققنا النظر لوجدنا هذهِ التأويلات ترجع في الحقيقة إلى كشف أنحاء من الظهور خفيت على الآخرين وأراد أئمة أهل البيت عليهم السلام أنْ يُجْلوها ويوضحوها للآخرين، كيف أنَّها ظاهرة وكيف أنَّ فيها دلالة على ما هو أخفى؟

وهذهِ المباحث البالغة الأهمية للأسف لمْ يَخُض فيها الأخوةُ الباحثين كثيراً من مفسري الإمامية فضلاً عن مفسير العامة، ولم تُبذل الجهود الكبيرة ما عدا محاولات يسيرة من بعضهم ولم يتعاملوا مع روايات أهل البيت عليهم السلام بأنَّها روايات تأويلية تعبدية.

ولا يخفى أنَّ التعبدي على قسمين:

١ ـ تعبدي فيه تبيان علمي برهاني.

٢ ـ تعبدي محض أي ليسَ فيه تبيان علمي وهو تعبدي نازل.

القسم الأوَّل أعظم من الثاني بقدر ما هو إفادة واستفادة وإيقاظ إلى وجود هذهِ المحاولات في منصة الظهور ولكنْ بتدبر وإمعان نظر.

وبعد هذا نقول: ـ أنَّ نقوم بتبيان الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام في ذيل الآيات القرآنية المعروف مثلاً بالتفسير المأثور بأنْ يُبين الأخوة الباحثين في هذا المجال الروايات ذات الصلة بظاهر القرآن الكريم

عبر سلسلة من القواعد اللغوية والأدبية والدلالات المنضدة والمنظمة والمؤلفة اللفظية ولو بضميمة جملة من قواعد العلوم الأُخرى المبدهة، وتُبين تأويلات أهل البيتعليهم السلام التي يُنظر إليها كتأويلات أنّها تفسيرات تعالج طبقات الظهور وليسَ صرف تأويل، يعني لها صلة متسلسلة تُستنبط من ظاهر الآيات ومن الظهور الأوّلي من الآيات علماً أنَّه لا توجد رواية عن أهل البيتعليهم السلام إلّا ويُشارُ فيها إلى كيفية الوصول إلى هذا المعنى التأويلي من منصة سطح الظاهر.

وعليه فروايات أهل البيتعليهم السلام ليسَ فيها بيان للنتيجة فقط والمفاد الخفي التأويلي، بلْ فيها إشارة خفية إلى الطريق الموصل إلى هذهِ النتيجة الخفية من منصة سطح ظاهر ألفاظ الآيات القرآنية، ومن الطبيعي أنْ قدرة الالتفات والوقوف على ذلك عند الأشخاص مختلفة، بينما السيرة الدارجة عند بعض مفسري الإمامية فضلاً عن مفسري غير الإمامية أنَّ النظرة عندهم إلى تلك الروايات أنّها تأويلات تعبدية توقيفية بلا بيان الوجه الاستدلالي وهو ما يعرف عندهم بالاصطلاح تعبدي محض، والحال أنَّ في روايات أهل البيتعليهم السلام التركيز بالدرجة الأُولى على التعليم والبيان وبالدرجة الثانية التركيز على التعبد الظني والآمرية، ومن الواضح أنَّ التعليم هو نوع ولاية أعظم من آمرية الولاية والطاعة والحجيّة.

وبيَّن القرآن الكريم وبالدرجة الأُولى أنَّ أحد الأدوار الأساسية الرئيسية لسيد الأنبياءصلى الله عليه وآله دور ومقام التعليم ﴿هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ﴾[1].

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

بأنْ يتلو عليهم ألفاظ القرآن وإنْ كان لمعنى (يتلو) معاني أُخرى ـ يأتي التعرض إليها في محلها إنْ شاء الله تعالى ـ وتعليم النبي ﷺ للبشر ليسَ ناشئاً مِن نتاجِ فكرٍ بشري أوِ علومِ البشرِ وإنَّما تعليم الوحي السماوي ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

وعليه فيتجلى ويتجسد المعلم والمُبيِّن الإلهي في المعلم البشري ألا وهو الرسول الأكرم محمد ﷺ، وهذا البحث يعتبر من المباحث المهمة في بيان مقامات النبي ﷺ وأحد تلك المقامات أنَّه معلِّم إلهي للبشر، إذْ لمْ يُبحث هذا المقام وماذا يُراد بالمعلم بالشكل المناسب له لا في علم الأصول ولا علم الكلام ولا التفسير ولا العرفان، نعم بُحث في علم الأصول إنَّ هذا المقام كعلم من العلوم الدينية أشير فيه إلى أنَّ حجية اليقين أو القطع أعظم من الحجية التعبدية ومقدمات القطع مقدمة على مقدمات الظن ... الخ، وذكر علماء الأصول أنَّ المراد من معلم يعني يوجد لديك القطع أو اليقين ليسَ عبر الظنون أو الصدفة وإنَّما اليقين يحصل طبق دلائل مُبدّهة.

إذنْ لابدَّ من بيان حقيقة هذا المقام للنبي ﷺ وأنّه معلم إلهي وبيان أنَّ النبي ﷺ في جانب يعني إنَّه وليٌّ مفترض الطاعة ـ اطيعوا الله وأطيعوا رسول الله ـ ومن جانب آخر يجب التصديق برسالته وكذلك أهل بيته عليهم السلام يجب التصديق بهم لأنّهم ورثوا منه ﷺ هذهِ المقامات العلميّة، والقرآن الكريم أشار إلى هذا الجانب في عدَّة مقامات:ـ

١ ـ قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[2].

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلا قَلِيلا﴾[(١)].

٣ ـ قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلا الظَّالِمُونَ﴾[(٢)].

وغيرها من الآيات القرآنية التي ذكرت وأكّدت على أنَّ هؤلاءعليهم السلام لهم صفة علمية ومقام علمي شبيه ما نعت به القرآن الكريم الخضر: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾[(٣)] وهذا الإتباع والانقياد هو عن علم ودرجة الإنقياد عن علم أعلى درجة من الآمرية والإنقياد التعبدي ومن الواضح أنَّ الحجية اليقينية حجية قطع وإتباعها أعظم من حجية الظن، وإنْ كان اتّباع موسىعليه السلام للخضر ليسَ اتباع ظني أو على عماية ـ والعياذ بالله ـ وإنّما اتباعٌ فيه نور ولكن إجمالي وإبهامي.

الخلاصة: إذا تعاطينا مع بيانات القرآن الكريم تعاطي التعليم والاستعلام والبيان سيكون تعاطي للآيات القرآنية علمياً وعن دليل لا تعاطي ظني أو جة تعبدية ظنية.

وهكذا تعاملنا مع الروايات الواردة عن طريق أئمة أهل البيتعليهم السلام تعاملاً علمياً وبالتالي سوف ينتج أنّه ليسَ تعاملنا مع الروايات أنها تأويلية بمعنى تعبدية بلا معرفة، نعم نُسلِّم التعبدية الظنية إلّا أنّها ليسَ تعاطياً

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.

(٢) سورة العنكبوت: ٤٩.

(٣) سورة الكهف: الآية ٦٥.

بمستوى عالٍ من الاتّباع، نظير عبادة الأحرار أعظم من عبادة التجار، وعبادة التجار أعظم من عبادة العبيد، وغير خفي أنَّ العبادة هي انقياد وطاعةن فالعبادة عن معرفة يعني عبادة علمية، وهي أعظم من العبادة عن سطوةٍ وخوف أو طمع ومغنم، والعبادة العلمية حجيتها أعظم من حجية العبادة الظنية التي تعني خوفٌ وتنجيز وتعذير وعقوبة ومثوبة.

تنبيه: إنَّ منهجنا التفسيري ـ منهج أمومة الولاية على محكمات القرآن فضلاً عن المتشابهات ـ يتعاطى مع بيانات القرآن الكريم ليسَ كحجيّة ظنية تعبدية وإنَّما يتعاطى مع بيانات القرآن الكريم وكذا بيانات أهل البيتعليهم السلام كبيانات علميّة لا أنَّه نتعاطى معها كحجية ظنية.

فنستكشف من دلالة الروايات الواردة عن أئمة أهل البيتعليهم السلام في علم التفسير أنَّ مناشئ الدلالة في ظهور القرآن التي توصل لهذا المفاد الخاص المُصرَّح به في الرواية، فإذا تمسَّكنا بهذا بلا معرفة الطريق للوصول إليه من الظاهر الأولي في القرآن صارت الحجية حجيةً ظنية وتعبدية، بخلاف ما لو كان الخبر مستفيضاً فإنَّ الحجية سوف ترقى إلى درجة القطع أي حجية قطعية إجمالية والإجمال بسبب الإبهام. أمَّا لو تعاطينا وتداولنا ونظرنا إلى مفاد الروايات الواردة في ذيل الآيات وأنها ملفتة لنا ومنبهة إلى كيفية دلالة ظاهر القرآن للوصول إلى هذا المعنى والنتيجة الخفيّة.

إذنْ الذي تريد الوصول إليه هو البحث والتنقيب عن الطريق الذي تشير إليه الرواية في كيفية الوصول من منصة الظاهر إلى هذا المعنى الباطن، وسيكون البحث عن مثلِ هذا الأمر علمياً، ولن تكون حينئذٍ هذهِ الروايات تأويلية محضة، بلْ سيكون مآلها تفسيرية للظاهر، وبعد هذا

سوف يصير ذلك المعنى الخفي ظاهراً وبيِّناً، نظير الوصول للنتيجة في المسألة الرياضية المجهولة عبر مراحل في الاستنتاج الرياضي المتلاحق.

وثمرة هذا المنهج التفسيري ـ أمومة ولاية أهل البيت على محكمات القرآن فضلاً عن متشابهاته ـ ليسَ فقط أنَّه حجية علمية وأنَّه أرقى من الحجية الظنية فحسب بلْ هذا المنهج ـ الذي يعتمد على علم اللغة والبيان ـ هو القيام بمسؤولية يوصي بها القرآن الكريم ألا وهي ﴿ ... لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللهِ شَهِيدًا ﴾[1].

وأحد معاني الظهور هو الغلبة والانتشار بعد الخفاء والحبس الذي هو نوع من الخفاء.

وبعد هذا البيان ينبغي تصحيح النظرة إلى الروايات الوارد فيها تفسير للآيات وأنَّها ليست فقط تأويلية تعبدية محضة، وإنَّما تأويلية مبتنية على التعبدية العلمية وعلى نهج التعليم فحينئذٍ قدْ قمنا بخدمة علمية عظيمة لعلم أهل البيت عليهم السلام بأنْ نوقف الآخرين على مدى علمية تراث أهل البيت عليهم السلام ونهج أهل البيت عليهم السلام في القرآن الكريم.

ومن خلال البحث في التأويل والدلالات الخفية والظهور والدلالات الجلية: أنَّ نُبَدِّه وتظهر بيانات أهل البيت عليهم السلام التأويلية التي يحتملها الآخرون بأنَّها تأويلية خفية من خلال الطريق للوصول إليها من سطح ظاهر دلالة الآيات شريطة أمور يأتي ذكرها في محلها إنْ شاء الله تعالى.

فمثلاً كثير من المفسرين يغفلون عن ملاحظة قاعدة الالتفات

---

(١) سورة التوبة: الآية ٣٣.

وتشعباتها وهي من الموارد الصعبة بحق؛ لأنَّ المُفَسِّر يغفل عن ملاحظة حالات التغير والتبدل التي تحدث في أجواء الآية القرآنية المباركة أو الجملة أو حتَّى المفردة، فيحسب أو يظن أنَّ كثيراً من الآيات أنَّها تأويلية وخفيّة باطنة إلّا أنَّه إذا دقَّقَ النظر سيرى أنَّ هذهِ الآيات سوف تعالج سطح الظاهر لألفاظ القرآن الكريم من منشأ خفي على الآخرين ومن ثم تلقّاه الآخرين بأنَّه تأويل وباطن، فإنَّ مثل هكذا منهج من التعاطي مع التفسير بالمأثور لن يفتح بابه الآن بشكل وسيع ومُفعَّل وإنْ خاض فيه جملةٌ من المحققين إلّا أنَّه بشكل بسيط.

إذنْ عمدة التعاطي مع التفسير بالمأثور دائماً التعامل معه على أنَّه حجيته تعبدية تأويلية يُقتصر فيها على المصداق، ومن باب الجري والتطبيق الذي هو أحد ضوابط باب الالتفات الذي تعامل معه بعض مفسري الإمامية كالسيد العلامة محمد حسين الطباطبائي ﷺ صاحب تفسير الميزان الذي كان أكثر تعاطيه وتعامله مع التفسير الروائي المأثور كما في تفسيره الروائي [البيان] إنَّه تأويل ومن باب الجري والتطبيق في منطقة محدودة قدْ يكون تعبدياً تأويلياً.

المقارنة في التأويل بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام وبين مدرسة فلسفة الألسنيات

مقدمة:

قبل الخوض في ذكر الفوارق في التأويل بين مدرسة أهل البيت عليهم السلام وبين مدرسة فلسفة الألسنيات المعبر عنها بالهرمونطيقيا والحداثويات في معرفة قراءة النص الديني، لابدَّ من إلفات نظر إلى نقطة مهمة وهي:

أولاً: أنَّ التأويل يختلف بحسب الأنظمة الثلاثة ـ النظام الاستعمالي اللفظي، ونظام المعاني، ونظام الحقائق ـ وإنْ كان السيد العلامة محمد حسين الطباطبائي قدْ يُترائى في جملة من أبحاثه أنَّ التأويل حصري، بالنظام الثالث أعني نظام الحقائق، ويعتبر السيد العلامة التأويل من سنخ الحقائق والحقيقة العينية وإنْ لمْ يكنْ نظام الحقائق هو كُلّ التأويل، فإنَّ التأويل له أقسام وأنواع عديدة كما سوف يتضح كُلّ ذلك في محله.

ثانياً: هناك نقطة أُخرى مهمة في بحث التأويل والظهور في النظام الاستعمالي اللفظي في القرآن الكريم، وهي: ـ وجود فوارق مهمة بين تعدد القراءات في منهج أهل البيت عليهم السلام للنص الديني وبين تعدد القراءات والتأويل الذي يسلكه أصحاب مدرسة الحداثة في عصرنا الراهن.

ولو أجرينا مقارنةً بين المدرستين لوجدنا نقطة اشتراك ونقاط اختلاف بينهما: ـ

أمَّا نقطة الاشتراك: إنَّ كلا المدرستين يقرُّ بتحمل النص الديني وفيه

قابلية لدلالات ومدلولات متكثرة وليست حصرياً بدلالة واحدة وبمدلول واحد.

وإنْ كان هذا الجانب المشترك بينهما ما فتئ الكثير من المذاهب الإسلامية يطعنون ب حتَّى إلى الآونة الأخيرة بلْ العقود الأخيرة قبل ما يزيدعلى ثلاثة عقود كان هذا مصدر طعن على مدرسة أهل البيت عليهم السلام ولكنْ سرعان ما انقلب إلى مدح وإعجاز عظيم بعد رواج فلسفة الحداثويات والهرمونطيقيا والألسنيات التعددية وتبيَّن عندهم أنَّ هذا ليسَ مصدر طعن، بلْ مدح وعظمة وإجلال وهذا ما تقدم بيانه.

نقاط الافتراق:

الفرق الأوَّل: إنَّ خفاء القرائن والغفلة وعدم الالتفات إليها عند الكثير أو عند الكل لا يخدش في دليلية الدليل.

وذلك ببيان: ـ إنَّ في منهج مدرسة أهل البيت عليهم السلام لابدَّ من تتابع الدلالات والمداليل الخفية وفق قرائن وموازين وقواعد وأدلة غاية الأمر هذهِ الشواهد والموازين قدْ تكون غير ملتفت إليها ومغفولاً عنها عند الكثير أو الكل فإنَّ مثل هذا الخفاء لا يؤثر على دليلية الدليل كما تقدم تفصيله في المباحث السابقة، وأنَّ هذا المنهج لا يتقيد بمعرفية الشواهد بحسب قدرة الأغلب أو الكل أو لدى العرف إلّا أنَّه لابدَّ من وجودها.

إنَّ مدرسة الحداثويين: ـ ليسَ الأمر عندهم كذلك، وعندهم الأمر مجرد صرف إبداء الاحتمال ويُرتب عليه الأثر ويتبنونه إلى درجة الجزم في كثير من الأحيان عكس مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

الفرق الثاني: في منهج مدرسة الحداثيون يرفضون وللأسف التحاكم إلى ميزان وقواعد وشواهد مشتركة توصلهم إلى المعاني المتلاحقة والمتعاقبة، ورفضهم هذا يدلُّ على عدم عدم اعترافهم بوجود قواعد وموازين يترافعون إليها عند الاختلاف إلّا بمقدار إبداء الاحتمال والمفاد، كذلك يرفضون فتح باب محاسبة الأفكار إذا كانت المحاسبة بالسلاح والقوة، ونحن نُسلِّم معهم بذلك وهذا المقدار من المحاسبة مرفوض، إلّا أننا نقول لهم:ـ

ما المانع من محاسبة الفكر بالفكر مثلما يحاسب العمل بالعمل، علماً أنهم يدّعون حرية إطلاق الفكر ولكنهم وللأسف لا يعملون بها وإنَّما هذا مجرد رفع شعار وواقعه سدٌّ لباب الفكر بلون آخر، وهذا بالأخير يترتب عليه حبس الأفق الفكر، ومن الواضح أنَّ فتح باب المحاسبة الفكرية يؤدي إلى توسعة الأفكار، أليس يدعون ويرفعون شعار الانفتاح على الأفكار الأُخرى، وهذا الانفتاح على الأفكار الأُخرى يصير تلقائياً مقارنة وهذهِ المقارنة كذلك تلقائياً تؤدي إلى الموازنة بميزان المحاسبة والمحاكمة الفكرية وترك وسد مثل هكذا باب ينتج نتيجة وخيمة ويولِّد الانهزام النفسي والفكري لدى الباحثين في هذا المجال وعدم تحمُّل مسؤولية فتح هذا الباب تحت ذرائع مختلفة.

أمَّا مدرسة أهل البيت عليهم السلام: ـ فعلى العكس من مدرسة الألسنيات والحداثويين، فتطلق الحرية للفكر ولا تحاكم الفكرة في نفسها فكرياً، وإنَّما على الأقل تحاسب الفكرة بآداب فكرية وبنمط فكري، مضافاً إلى أنَّ تحمُل المسؤولية أمرٌ لابدَّ منه ولا يمكن التخلي عنه ورفع اليد عنها فإنَّ الكلَّ

يُسأَلُ في مدرسة أهل البيت(عليهم السلام) ويُحاسب لا أقل بمحاسبة الفكر بالفكرة فإنَّ النقد كما قالوا لا يُفسِد في الود قضية، وأنَّ حياة العلم بالنقد والبحث كما وَرَدَ في كلمات أئمة أهل البيت(عليهم السلام).

الفرق الثالث: منهج الحداثويين يدَّعي أنَّ الحقيقة لا يمتلكها الإنسان وما عرف الإنسان من الحقيقة فهو جزء الحقيقة ولدى الآخرين أجزاء أُخرى، وأنَّ هذا الجزء لا يعتمد عليه بتاتاً وعليه فلا تحاكم مع الطرف الآخر.

إذنْ آراء الحداثويين بالحقيقة متعددة: ـ

١ـ منه: ـ من يقول الحقيقة لا يمتلكها أحد.

٢ ـ ومنهم: ـ من يقول الحقيقة موزعة بين الأطراف المختلفة.

٣ ـ ومنهم: ـ وهو الأكثر ربما يقول: ـ بأنَّ الحقيقة لا يتناوشها أحدٌ وإنَّما كُلّ ما يكون لدى الأطراف قدْ يكون زبدٌ سرابٌ بقيعة يحسبه الظمآن ماءاً.

وعليه فمنهج الحداثويين منهجٌ سفسطيٌ ـ ومعنى السفسطة أي التشكيك والتشكيك عبارة عن الرفض بلا دليل لكل شيء ـ وهذا شيء مذموم فإنَّ الرفض والإنكار لا يستند إلى دليل علمي وهذا بالتالي أمرٌ غير علمي، وإنْ كانوا يرفعون شعار التنقيب في كُلّ شيء والسؤال عن كُلّ شيء فهذا محمودٌ، إلّا أنَّ هذا يرفعونه مجرد شعار ثم يشككون به وعليه فهم ـ الحداثيون ـ يقولون بتعدد الآراء ولا مانع من تعدد القراءات وتعدد الفهم يدلُّ على أنَّ كُلّ واحد ما بحوزته هو سراب بقيعة.

وهكذا النظرية النسبية التي ترفعها مدرسة الألسنيات هي بالحقيقة يطرحونها وللأسف بشكل نسبيّة سفسطية تشكيكية، وأنَّ الحقيقة لا يمتلكها الإنسان ـ كما مَرَّ ـ ولا تتحاكم مع الطرف الآخر، بحجة أَنَّك لديك جزءٌ من الحقيقة والآخرين لديهم أجزاء من الحقيق فأنت ماذا تُريد أنْ تداينه وتحاكمه بأي شيء؟

ومن هنا يعلم أنَّ الحداثويين يريدون أنْ يجنّدوا هذا المنهج للامسؤولية واللاتعهد واللاالتزام واللاتدين؛ لأنَّ الالتزام والتعهد هو التدين وهم لا يريدون ذلك وإنَّما يريدون التوظيف للمنهج اللاديني، وهذا نمطٌ من أنماط العلمانية، وهذا مما يؤدي إلى أنْ يكون الجانب التربوي عندهم منفتحاً على اللاثوابت، وهذا بلحاظ وآخر يستلزم تضييع الهوية على مسلك الحداثويات الحديثة أو الاستخفاف بالهوية بنمط وبلونٍ آخر.

إذنْ النسبيّة لديهم سفسطيةٌ لا يعتمد عليها فهم عندهم رؤية الكل صحيحة وعليه لا تُداين الطرف الآخر برأيه؛ لأَنَّه لا أحد يقبل بأنْ تصدر رأيك على رأيه إلّا أنَّ الواقع ليسَ المسألة مسألة رأي، وهذا له رأيه، وأنت لك رأيك و ... الخ.

انظر أَيُّها المتأمل المدقق المنصف كيف يلبسون تعتيماً في هذا البحث وكأنما يجعلون هوية الفكرة هو الشخص لا هوية الشخص الفكرة، وبالتالي صار عندهم الرأي ملك هذا وذاك، وأنه يتلون بفكر هذا وبفكر ذاك في نفسه ولا يتلون الرأي بلون العلم في حد نفسه وهكذا لا يتصورون من أنَّ العلم مجرد في حدِّ نفسه.

بخلاف مدرسة أهل البيت عليهم السلام من أنَّ الحقيقة والنسبية تعني أنَّ

السائر على الصراط المستقين يصل إلى درجات وغيره يصل إلى درجات أعلى أو أدون، إذنْ هناك درجات في طي الصراط واحتواء الحقيقة تصل إليها من وصل ويغفل عنها من يغفل وعند الله العلم الكامل ويطّلع عليه تعالى ويظهره لمن يشاء وما شاء من عباده المصطفين المعصومين عليهم السلام النبي صلى الله عليه وآله وآله صلوات الله عليهم أجمعين.

نظرية السيد المرتضى رحمه الله[1]

تقدَّم أنَّ السيد المرتضى رحمه الله ذكر في كتابه الشافي في الإمامة نظرية مفادها [أنَّ الحجية لا يُقتصر فيها على الصريح بلْ تعم غيره].

وكأنما هذهِ النظرية جاءت ردّاً على من كان عنده انحراف معرفي يظن أنَّ الحجية منحصرة فقط في الدلالة الصريحة، وأنَّ الدين يُؤخذ من الكتاب والسنة من الدلالات الصريحة فقط، وما عداه فليس بحجة.

ولازم رأي هؤلاء المنحرفون فكرياً أمثال: ـ السلفية والوهابية وغيرهما أنَّ غير الصريح ليسَ بحجة وإذا لمْ يكنْ حجة فهو ليسَ من الدين وهذا مما تترتب عليه لوازم وأمور خطيرة جدّاً.

بينما القرآن الكريم يؤكِّد على أنَّه يجب أنْ يؤمن المسلم والمؤمن بظاهر القرآن كما يؤمن بتأويله ويؤمن بمحكمه كما يؤمن بمتشابهه وأنْ لا يقتصر أمر الدين على التمسُّك بالظاهر فقط والشاهد على ذلك ما جاء في سورة آل عمران ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ﴾[2] ، و ﴿يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ﴾[3] إلى غير ذلك من الآيات، التي تثبت أنْ القرآن له تأويل كما له تنزيل، ومن الواضح أنَّ التأويل أخفى من الظهور الخفي وكلٌ منهما ـ التأويل والظهور الخفي ـ حجة حسب نظرية السيد المرتضى، وعليه فكيف يحبسون أصحاب الفكر

---

(١) في كتابه الشافي في الإمامة.

(٢) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٣) سورة الأعراف: الآية ٥٣.

المعرفي المنحرف والمعوّج الحجية على خصوص الظهور الصريح للنص.

إشكال: قدْ يشكل البعض على أنَّ الخوض في غير النص الصريح والظاهر يوجب التلاعب بالدين والتخرُّص و ....

الجواب: نُسلِّم أنَّ هذا محذور في حدِّ نفسه، ولا يقبل أحدٌ منّا أنْ يُبنى الدين على أمور استحسانيّة وحدسية وذوقية التلاعب وقياس ظني على أهواء وآراء متكلفة متصنّعة، هذا كُلُّهُ نُسلِّم أنَّه غير صحيح، إلّا أنَّ هذا المحذور محذوراً يلجئنا إلى حصر الحجية فقط بالظهور فما هو الدليل عليه؟.

الطريق لا ينحصر بهذا فإنَّ هناك بعض الطرق خاطئة وأُخرى صحيحة فإنَّ المعروف من إنَّ إثبات الشيء لا يستلزم نفي ما عداه.

وبعضهم وللأسف يُسَّري هذا إلى المنهج الفقهي فضلاً عن المنهج التفسيري للقرآن بأنْ يعتمد فقط على دلالة الآيات والروايات الصريحة على المطلب بأنَّها الدالة على الحكم الفقهي وغيرها التي فيها خفاء فهي ليست بدليل لأنَّها تحتاج إلى كلفة ومؤونة زائدة ...

وخير شاهد على ذلك ما قاله صاحب الجواهر محمد حسن الجواهري ﵀ [لو بُني الفقه على الصريح فقط ما قامت للفقه قائمة].

إذنْ علينا أنْ لا نجمد على القراءة السطحية للنص فإنَّه يوجد فرق بين لا نتكلف ولا نتخرص ولا نتصنع وهذهِ من صفات سيد الأنبياء ﷺ أنَّه ﷺ كان من المتكلفين ولا يبدأ بشيء من نفسه وإنَّما يُوحى إليه من ربه، وبين أنْ نجمد على ظاهر النص ويكون مظهراً ظاهرياً فقط، فإنَّ مثل هذا غير صحيح كما تقدم من أنَّه لا عمومية في الإثبات إلّا بموجب دليل، كما

لا تعميم في النفي إلّا بموجب دليل وإثبات.

الخلاصة: إنَّ نظرية السيد المرتضى‌ﷺ تنقسم إلى قسمين: ـ

القسم الأوّل: حجية مضيّقة أي الظهور الجلي والواضح والأمر منجز وليسَ فيه تروي واستمهال، والمراد من الحجية هنا العقاب الصارم وانضباطٌ حدّي يخرس الألسن ... الخ.

القسم الثاني: حجية موسعة أي الظهور الخفي أي الحجية موسعة السعة وهي حجة عند السيد المرتضى بخلاف غيره الذي نفى الحجية عن الظهور الخفي وحصرها بالقسم الأوّل فقط.

ومعنى الحجية الموسّعة: هي التي فيها تروّي واستمهال وتدبر وتأمل كما في الظهور الخفي.

وهذا السر الذي شرحه أمير المؤمنين‌عليه السلام في اعتماد القرآن الكريم وشريعة سيد المرسلين للتعريض من أنَّ التعريض: ـ حجية معها مُهلة وتروي ورأفة بالعباد لئلا يُعاجلوا بالعقاب.

ولا يوجد تنافي بين وجود المهلة وبين كونها حجة ودليل فإنَّ الكثير وللأسف يظن وجود تنافي بينهما ـ أي بين دليل الحجية وبين وجود المهلة والتروي وأنّه مع وجود المهلة في الدليل لا يصلح الدليل للحجية.

وعليه فلا توجد ملازمة بين كون هذا دليلاً وكونه صارماً أي لو كان هناك دليلاً لكان هناك قطعاً ـ لا كما توهمه البعض من وجود الملازمة بينهما وهو غير صحيح، والصحيح ما أشار إليه أمير المؤمنين‌عليه السلام في كلماته إلى فلسفة الحجية وأنَّ القطع والحجية على قسمين: ـ قطعٌ موسع، وقطع مضيق.

وأنَّ الحجية الموسعة: ـ هي نظام تعليمي تربوي ناجحٌ ونافعٌ وفيه مهلة وتروي ورفق وأنَّ الله تعالى رفيق بالعباد ويحب الرفق في الأمور كلها.

والشاهد على ذلك ما قاله الإمامعليه السلام: ـ ما وضع اللين على شيء إلّا زانه وما وضعت الشدة والحدة على شيء إلّا شانه.

هل الظهور صفة ثابتة للألفاظ
أو صفة لإدراك الإنسان؟

وقبل الخوض عن الظهور وأقسامه، يُثار هذا التساؤل هو أنَّ الظهور ظهورٌ نسبي بأنْ يكون الظهور ظهوراً عند شخص وواضح وجلي، وعند شخص آخر ليسَ بظاهر وغير واضح، أو أنَّ الظهور صفة إطلاقية؟

وتتجلى مسألة الظهورات النسبية عند الفقهاء والمفسرين و ... الخ فإنَّ الفقهاء خاصة لديهم دائرة ظهورات تختلف عن دائرة ظهورات غيرهم، فمثلاً لو قرأ الفقيه نصاً فقهياً معيناً فإنَّه سوف يلتفت إلى مفادات هذا النص الديني ما لا يلتفت إليها غيره من الفقهاء وغيرهم، وهذا معناه أنَّ الظهور ظهورٌ نسبي يختلف من شخص إلى شخص آخر وهو ظهور خفيٌّ ويكون حجةً ويستطيع الفقيه أنْ يستنبط من هذا الظهور الخفي حكماً شرعياً قدْ يُفتي أو يحتاط على أثره إذا ولَّد له هذا الظهور الخفي اطمئناناً لهذا الحكم فإنَّه سوف يكون حجة عليه وعلى من اتبعه فيما بينه وبين ربه.

ولذا ترى بعض الفقهاء يستغرب ويتعجب من حكم بعض الفقهاء وأنه كيف استظهر هذا المعنى الخفي غير الظاهر وأنه لا يلتفت إليه إلّا الأوحدي منهم وأنه يحتاج إلى التفات وانتباه شديدين.

ومن خلال هذا يتبين أنَّ الظهور نسبيٌّ وليسَ صفة اطلاقية.

هناك إشكال أو تساؤل أثارته بعض المدارس الإسلامية على مدرسة

أهل البيت عليهم السلام وحاصله: ـ

إنكم تعتقدون بأنَّ الإمامة من أهم أركان الفروع فهي أهم من الصلاة و الصوم والحج والزكاة و ... الخ فكيف لا تكون بيّنة وواضحة كوضوح وبيّنة بقية أركان فروع الدين الأُخرى.

الجواب: أجاب السيد المرتضى علم الهدى رحمه الله وهو أحد علمائنا الأبرار أنَّ الظهور ظهوران: ظهور جلي وظهور خفي، وأدلة إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وأئمة أهل البيت عليهم السلام من قسم الظهور الخفي وإنَّ هناك أدلَّة يقينية قطعية على إمامة علي عليه السلام ووصايته، فهو حجة ولا يستلزم تكفير بعض المذاهب الإسلامية(١)؛ لأنَّ ضابط الكفر عندنا هو إنكار وجحود ما كان ظهوره جليّاً في الآيات القرآنية، وكذا السنة النبوية.

أمّا إذا كان ظهوره من قسم الظهور الخفي فلا يوجب ولا يستلزم تكفير كافة المسلمين وإخراجهم عن ظاهر الإسلام، وإنّما ذلك يوجب سلب الإيمان عنهم لا سلب الإسلام وإنّما بقاؤهم على نعت الإسلام ولو بحسب ظاهر الإسلام باعتبار أنَّ المسلمين فاتحون للبلاد الأُخرى غير الإسلامية وجعلها بلاد مسلمة واتساع رقعة الإسلام، وعليه فلهم حرمة من تشهد الشهادتين حرم دمه وماله وعرضه وأهله على حاله.

إلّا أنَّ الإيمان مطلب آخر وحقيقة أُخرى ﴿قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾(٢). غير ظاهر وحقيقة

---

(١) كتاب الأمالي للسيد المرتضى.

(٢) سورة الحجرات: الآية ١٤.

الإسلام.

إشكال: لماذا لمْ تحكموا بكفر أو ارتداد من ينكر إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ووصايته إذا كان عندكم أدلّة يقينية قطعية على إمامته عليه السلام؟

الجواب: ليسَ كُلّ ما هو يقيني وقطعي وأنكره الطرف الآخر نُحكم بكفره وارتداده ومروقه عن الدين، بلْ هناك شرط آخر كون المنكر والجاحد بأمر يقيني وقطعي وجلي مصرَّح به آنذاك يحكم بكفره، وعليه يكون الحكم بالكفر والارتداد فرع كون الدليل قطعياً ويقينياً مصرح به وإلّا بأنْ كان المنكر منكر لأمر خفي وإنْ كان قطعياً ويقينياً فإنَّه لا يترتب على ذلك جحوده وإنكاره لا يترتب عليه الكفر هذا هو منهاج أهل البيت عليهم السلام سواء على صعيد تفسير القرآن أو سواء على صعيد الفقه السياسي أو الاجتماعي أو ... الخ.

وهذا للأسف ما لا يستطيع أنْ يفهمه أصحاب المذاهب الإسلامية الأُخرى في نظام التعايش الإسلامي على صعيد فكري أو على صعيد حقوقي أو مدين وحرمة الأموال والدماء والنفوس و ... الخ.

وعليه يكون الفرق بين التصريح أي الظهور الجلي وبين التعريض أي الظهور الخفي أنَّه في التعريض لا يكون الجاحد والمنكر مارقاً بحسب الظاهر فإنَّه يُمهل ويُعطى فرصة أكثر بخلاف التصريح.

إذنْ دلائل إمامة أهل البيت عليهم السلام هي من قسم الظهور وهي حجةٌ وإنْ كان هذا الظهور خفياً، فإنَّه يتراكم من القطع واليقين وينجلي هذا الظهور الخفي بذوي البصيرة، ويُعذر فيه من ضعف عن الأبصار والبصيرة

ولا يُعدُّ جحوداً حينئذٍ.

وعليه فالسيد المرتضى﵀ حلَّ هذهِ المشكلة العويصة من خلال قسم الظهور الخفي وليسَ من قسم تأويل وأنه حجةٌ وإنْ غفل عنها فئام الناس، وكون الظهور خفياً لا ينافي أنَّه يقيني وقطعي.

إذنْ الحجة عند السيد المرتضى لا تقتصر على الصريح بلْ تعم غير الصريح.

ونذكر بعض المؤيدات لما ذكره السيد المرتضى من أنَّ الظهور الخفي حجة وليسَ من قسم التأويل، وهي: ـ

أولاً: ما اعتاده الناقد الأدبي ـ كاتب أو شاعر ـ من زمن الجاهلية وأيام سوق عكاظ وما كان يجري بين الشعراء والأدباء في المسابقات الأدبية ويتبارون ويتسابقون ويقف الشاعر أو الكاتب ويتفطن نكاتاً لا يلتفت إليها زميله ومسابقه ويصل إلى نتائج نثرية أو شعرية تعتبر أبلغ وأفصح من بقية المقطوعات، إلى زمن الإسلام إلى يومنا الحاضر، فإنَّ كُلّ ما يستظهره الناقد الأدبي يُدرج في قسم الظهورات وإنْ كان لمْ يلتفت إليها إلّا الأوحدي من الناس ورُتبت عليها الآثار.

ومن خلال هذا كُلِّهُ يفرق ويظهر أنَّ ميزان حجية الظهور ليسَ تحكيم العرف اللغوي أو بروز هذا المعنى لدى جل أو نصف أو أقل أهل اللغة بلْ الميزان شيء آخر سيتضح خلال البحوث الآتية إنْ شاء الله تعالى.

ثانياً: ـ ما يذكره جملة من محققي علم الأصول: بأنَّ أدلَّة الاستصحاب شاملة لاستصحاب العدم الأزلي إلّا أنهم يذكرون أنَّ العرف لا يفهمها

ولا يستطيع أنَّ يدرك أنَّ عموم الاستصحاب شامل لاستصحاب العدم الأزلي، فعدم الجزم بشمول أدلَّة الاستصحاب لاستصحاب العدم الأزلي لا إشكالية في ماهية الاستصحاب، بلْ هو على وتيرة باقي الاستصحابات الأُخرى، ولكنْ شمول أدلَّة الاستصحاب لمثل هذا الاستصحاب الخفي صعب على البعض وخفي عنهم.

ولذلك يتصور بعضهم أنَّ روايات أهل البيت عليهم السلام وكلامهم يجب أنْ يفهمه عامة الناس، أمَّا إذا فُسِّر بمعاني قواعدية تحليلية صناعية غامضة غائرة فإنَّ مثل هذا ليسَ بظهور حجة.

وهكذا نلاحظ بعض حالات الظهور جلية المعنى في زمانٍ معين من آيات وروايات ولكنْ يأتي بعد ذلك الزمان المعين جيلٌ يكون عندهم هذا الظهور الجلي خفياً.

وبالتالي يُشكل غموض المعنى المُستظهرعلامة عند هؤلاء على خطأ هذا الاستظهار.

إشكال: إذا كانت أدلَّة إمامة أهل البيت عليهم السلام أو أدلَّة الحقائق في القرآن بنحو التعريض لا التصريح، ومن المعلوم أنَّ التعريض فيه خفاء، وعليه يلزم محذور أنَّه أيُّ حجية في التعريض والخفاء وعدم التصريح؟

وهذا أمرٌ بالغ الخطورة فلابدَّ من الالتفات إلى رفعه وجوابه.

الجواب: لابدَّ أنْ نلتفت جميعاً ـ العامة والخاصة ـ من الفرق الإسلامية إلى أنَّ الحجية ليست مقصورة على التصريح والنص الصريح،كلا، وإنَّما الحجية عامة وشاملة لكل درجات الظهور وإنْ لمْ تكن

صريحة، ومن الخطورة بمكان في منهج المعرفة أنْ نحصر معرفة الدين والتفسير والحجية بالصريح فقط أو النصوصية فإنَّ هذا منهج خطرٌ جداً.

وهذا يشبه إلى حدٍّ ما حبس بعض الفقهاء مسالكهم الرجالية، وكذا المفسرين بالتفسير المأثور بالاعتماد على الخبر الصحيح وطرح الخبر الموثق والخبر الحسن والمستفيض و ... وقدْ يتشكل من الضعيف خبر مستفيض أو متواتر ويمكن بالتالي ترتيب الأثر عليه، بخلاف ما لو حبسنا وضيقنا دائرة الاعتبار والحجية على الخبر الصحيح فسوف نقع في ضيق.

كذلك في المقام فإنَّ حبس وقصر الجية على دلالة الظهور فقط أيضاً فيه من اللوازم والتداعيات الخاطئة والخطيرة.

ولذا وللأسف نجد الكثير من الماديين أو العلمانيين أو المتفعين أو المتعلمين أو الحداثويين أو السلفية أو الوهابية أو ما شابه ذلك من المدارس الفكرية رفعوا شعاراً:

[عدم الاستجابة للغير إلّا إذا كان عند الطرف الآخر دليل قطعي يقيني فأنَّ ذاك تناقشه إنْ كان هناك مجال للمناقشة وإلّا فلا].

إلّا أنَّه سوف يتسجل عليهم إشكال لا يستطيعون دفعه والتخلص منه، وحاصله: كيف تستحلون وتعذرون أنفسكم في بناء منهاجكم ومساركم على الظن بينما تطالبون الآخرين بأنَّه لابدَّ أنْ يكون عنده دليل قطعي يقيني، علماً أنَّ الذي يرفع مثل هكذا شعار المفروض أوَّل من يلتزم به ويطبقه هم حملته ورافعوه.

نعم، نُسلِّم أنَّ اليقين هو أصلٌ ومن الأساسيات ولابدَّ منه أمَّا أنْ

نطالب بأنْ يكون هذا اليقين هو أصلٌ في كُلّ صغيرة وكبيرة فإنَّ هذا غير صحيح.

الجواب: ما رفعوه ليسَ صحيحاً بلْ هو متعذر في الحياة الأرضية وحياة البشر وأوَّل من تخلى عنه هم حملته والذين رفعوه، ذكرنا أنَّ اليقين نُسلِّم به كأصل أمَّا أنَّه أصل في كُلّ التفاصيل فليس بصحيح، بلْ هم أنفسهم الذين رفعوه شعاراً غير قادرين على ذلك، وإنَّما يكفي الظن في التفاصيل والعمل بالظن بمواصفاته وشروطه الصحيحة والتامة المستندة إلى اليقين.

حجية الدلالة في اللغة العربية

قبل الخوض في مبحث نظام الاستعمال اللفظي في القرآن والسنة، وأنه قائمٌ على التعريض لابدَّ من الخوض مفصلاً في أنَّ حجية الدلالة في اللغة العربية وفي القرآن ومن السنة هل تقتصر على درجة الظهور الجلي أم الظهور الخفي أم على ما هو الأعم من ذلك؟

ولتحرير البحث لابدَّ من الالتفات إلى أمور أهمها:

الوضوح والخفاء أمران نسبيان:

هناك سؤالاً يدور في الأذهان أنَّه: لماذا يُقال: هناك أمور نسبية وأمور مطلقة عامة؟

توضيحه: لابدَّ من إلفات نظر الباحث المتتبع الكريم أنَّه ليسَ المدعى في المقام أنَّ كُلّ ظهور هو ظهور نسبي، وأنَّ كُلّ خفاء وبطون هو خفاء وبطون نسبي وإنَّما بعض الظهور نسبي وبعضه ظهور مطلق، وكذا الخفاء.

وهذا الأمر ليسَ مختصاً بنظام استعمال دلالة الألفاظ في القرآن، وإنَّما حتَّى في نظام استعمال المعاني في القرآن الذي هو معاني عقلية بحتة أو غير عقلية وأمثلة ذلك كثيرة.

منها: مسألة اشتغال الإنسان كثيراً بعلم من العلوم فإنَّه سوف تصبح كثير من الأمور المجهولة لديه سابقاً معلومة وبديهية بالنسبة إليه، ونظرية في نفس الوقت لشخص آخر لمْ يشتغل بهذا العلم ... وعلى مثل هذا قس

البواقي[١].

وبالتالي: حصيلة البديهيات كلما ازدادت رقعتها ازدادت قوة حدس الإنسان وفهمه للأمور النظرية يصبح أكثر فأكثر.

الخلاصة: إنَّ الظهور والخفاء أمورٌ نسبية وصفات بلحاظ الإدراك لقوى إدراكية، وليست حقائق علمية.

وأنَّ المنضبط في الحقائق العينية في استنطاق الدلالات الدينية هو أنها يجب أنَّ ترسو ويوصل منها إلى نتيجة وحجة يمكن ترتيب الأثر عليها ضمن قواعد وضوابط معينة:

المهم هو الوصول إلى هكذا نتيجة مهمة وحجة حتَّى على ضوئها يمكن حل وجواب كثير من الشبهات والإشكالات الموجهة على منهج التأويل والخفاء وأنه ليسَ بحجة وأنه لمْ يكنْ موجَّهاً إلى عموم أذهان الناس وأنه منهج مُبطن لا تُراعى فيه الحقيقة، وحل مثل هكذا إشكالات والإجابة عنها ذلك بسبب أنَّ الخفاء والوضوح ليسَ ميزان الصحة في الدلالة والانضباط ما لمْ يكنْ منضبطاً تحت ضابطة وميزان مُعين.

---

(١) توجد أمثلة ذكرها الأستاذ وأكتفينا بذكر واحد منها.

التوريـة

من أقسام التعريض التورية: هو أنَّ يذكر المتكلم لفظاً مُفرداً له معنيان أحدهما قريب غير مقصود ودلالة اللفظ عليه ظاهرة، والآخر بعيد مقصود، ودلالة اللفظ عليه خفيّة، فيتوهم السامع أنَّ المتكلم يريد المعنى القريب، وإنَّما هو يريد المعنى البعيد بقرينة نشير إليه لا يكشفها إلّا الفطن[1].

إذنْ التورية عن الشيء بالشيء هو أحد أقسام الدلالة وللأسف إلى الآن علماء البلاغة لم يبسطوا ويفتقوا هذهِ المباحث وكيف تستثمر وإنَّما باقية على طبيعتها الأولية، وإنَّما يذكرها علماء البلاغة والبيان بشكل وصورة خاطفة وسريعة.

وعليه إذا كان المتخصص من النخب وهم علماء البلاغة والأدب واللغة لمْ يستوعبوها ولم يقفوا على تفاصيلها فكيف بباقي النخب الأُخرى أنَّ يعلموها ويستثمروا من آلياتها وهي سلسلة مترامية الأطراف والدلالات.

ويعبارة أُخرى: إلى الآن علماء البلاغة المتخصصين تنظيراً لمْ يقفوا على كُلّ التفاصيل فضلاً عن التمثيل والإجراء على صعيد الدلالة القرآنية.

---

(١) المعجم الشامل، ج٢، ص١١٦.

البيان تعليم إلهي فطري للبشر

وردت كلمة البيان في سورة الرحمن ﴿الرَّحْمَن عَلَّمَ الْقُرْآن خَلَقَ الإِنسَان عَلَّمَهُ الْبَيَان﴾[1]. أحد الأمور التي يفتخر الله عز وجل بها كمعجزة قرآنية هو سورة الرحمن التي تسمى بعروس القرآن[2] ولامناسب لها أنْ تكشف عن الحقيقة التكوينية؛ ولذا ابتدأ باسم من أسماء الله تعالى الجمالية وهو الرحمن وأوّل النعم التي يَمُنَّ الله تعالى به على خلقه هي نعمة البيان وأنها تعليم فطري لدُني إلهي، وهذا البيان يُعبِّر عن الإنسان بأنَّه حيوان ناطق أي أنَّ النطق والبيان معلم خاص ومميز لإنسان عن غيره.

ولا زال علماء اللغة ـ في أي لغة من لغات العالم ـ إلى يومنا هذا لاسيما العربية التي هي معجزة اللغات بحسب البحوث الغربية الاستراتيجية الحديثة الدولية أنَّ اللغة العربية تشكل أعظم لغة علمية تناسب دقة العلوم وتطورها وفي المقابل أثبتت هذهِ الدراسة والتقرير فشل اللغة الانكليزية وأنها لغة لا توافق الانضباط في البحث العلمي على قدم وساق يبتكر كل من البحوث اللغوية علماً تخصصياً جديداً في علم اللغة إلى أنَّ توسعت إلى ما شاء الله من العلوم في اللغة.

إذنْ عالم اللغة عالمٌ عظيم له تأثير على خلق الإنسان الذي علّمه الباري البيان، ومن الواضح أنَّ هذهِ القواعد التي تستكشف في علوم اللغة

---

(١) سورة الرحمن: الآيات من ١ ـ ٤.

(٢) والتعبير عنها بعروس القرآن معناه أنَّ هذهِ السورة المباركة مزدانة بزينة آلاء الرحمن وآلاء الخلقة الإلهية والفعل الإلهي فكلّها مباهات بأنواع أشعة عظمة الجمال الإلهي.

ليست وليدة الساعة وإنَّما هي قواعد كانت موجودة ولكنَّها مجهولة عند البشر ومغفول عنها، ولا يعني جهل البشر الذين زُوِّدوا من قبل الرب تعالى بالبيان واللغة أنَّ هذا الأمر التكويني نظام مهول وفق قواعد ومعادلات معقدة جداً، وإنَّما هذا بنفسه برهانٌ على أنَّ علم الدلالات الخفية والنظام الصوتي من علوم اللغة وأنَّ علم الدلالات هو بحث واستنتاج وفق أسس علمية متعاقبة ومترامية علمها من علم وجهلها من جهل لا أنها تكلف واصطناع بلْ هو اكتشافٌ لحقائق موجودة تنكشف للبعض وتُحجب عن البعض الآخر لا أنها غير موجودة.

وعليه فباب التعريض بابٌ واسعٌ، وأنَّ ما أنجزه علماء اللغة العربية من علماء لغة ونحو وصرف واشتقاق وبلاغة وباقي العلوم الأُخرى كعلم الفقه والأصول والتفسير والمنطق في مباحث الألفاظ، هم جميعاً مشكورون على ما بذلوه من جهود مضنية وجزاؤهم على الله تعالى إذا كان الهدف هو الله تعالى، ويكفينا في ذلك قوله تعالى ﴿الرَّحْمَن عَلَمَ الْقُرْآن خَلَقَ الإِنسَان عَلَمَهُ الْبَيَان﴾[1].

ومعنى تعليم البيان: ـ إنَّ البيان من المعاجز أو النعم الإلهية العظيمة التي يردُفها الله تعالى في سباق منه تعالى على الإنسان بأصل خلقته بمنّة عظيمة وهي تعليم القرآن للإنسان علّمه البيان.

إذنْ علم البيان واللغة علم بمعنى إبداعٌ إلهي، فالله تعالى علَّم الإنسان البيان، والبيان عبارة عن منظومة عظيمة التي عجز البشر وإلى يومنا هذا من أنْ يكشف سِرَّ إعجازها؛ ولذا البشرية الآن حتَّى الغرب في صدد أنَّه ـ البيان ـ ظاهرة تكوينية إعجازية فلسفية لذا يعبرون عنها بفلسفة الألسنيات أي الجانب التكويني والغيبي وأسرار وقضايا وهو الصحيح.

---

(١) سورة الرحمن: الآيات من ١ ـ ٤.

تلخيص لنتائج القاعدة الأولى
من قواعد نظام الاستعمال اللفظي

هناك عدَّة نتائج انتهينا إليها في القاعدة الأُولى ـ التأويل والظاهر ـ من قواعد نظام الاستعمال اللفظي، ونلخصها بنقاط: ـ

النقطة الأُولى: خلصنا إلى تعريف جديد للظهور يشمل التأويل.

بيانه: من خلال البحوث المتقدمة يمكن أنْ نستفيد هذهِ النتيجة وهي أنَّ الظهور على قسمين: ـ

ظهور بالمعنى الخاص: وهو الظهور المتعارف لدى عموم الأذهان وما يتبادر من دلالة الدليل ومدلوله وما شابه.

ظهور بالمعنى الأعم: وهو أوسع من الأوَّل ويراد منه أي مدلول يصل إليه القارئ الكريم المتدبر في النصوص الدينية ـ القرآنية والروائية وغيرهما ـ ولو بعد التروي والتأمل والمهم أنْ يصل إلى هذا المعنى العام من خلال نظام موازين قواعد الأدب وعلوم اللغة مع الاستعانة بقرائن أُخرى ولو كانت خفية وسواء وصل من خلال تلك القرائن إلى طبقة من المعاني أم طبقات، وكلما ازداد خفاءاً كلما ازداد توغلاً أكثر في التأويل ومع كُلّ ذلك فهو يندرج في الظهور وذلك لأجل أنَّه وصل إلى رفع ذلك الخفاء والإبهام والإجمال بسبب وعن طريق استعمال قواعد وموازين منضبطة في علوم اللغة والأدب والبلاغة ... الخ فتوصل إلى تلك النتيجة الخفية واستظهرها وإنْ خفيت على الجميع.

النقطة الثانية: منهجنا في حجية التأويل وأنه جزء من حجية الظهور هو أنَّ التأويل الخاضع لموازين وقواعد علوم اللغة والبلاغة والأدب و .. فمثل هذا التأويل حجة لأنَّ طبق موازين ودلالات لا أنَّه تأويل على طبق الهوى أو ما يعبر عنه التفسير بالرأي فإنَّ مثل هذا التأويل ليسَ بحجة فإنَّه منهج عبثي فالإشكالات والطعون إنْ كانت فهي على الثاني لا الأوَّل.

تنبيه: التأويل الحجة يوصل إليه بالموازين في جملة علوم كالبلاغة والأدب والصرف و... الخ إلّا أنَّه القدرة على استكشاف معاني خفية لدلالات مترامية الأطراف والغور إلى الأعمال والخروج بنتائج منضبطة هنا تختلف قدرة المعصوم عن قدرة علماء الاختصاص عن المجتهدين والفقهاء، فالمعصوم يستطيع أنْ يصل بترامي موازين الدلالة وقواعد علوم الأدب إلى كافة تفاصيل الدين والشريعة ويحيط ويُلم بها بما زوّده الله تعالى من العلم اللدني فيصل إلى كُلّ تلك التفاصيل من خلال موازين الدلالة، لما نصَّ على ذلك القرآن ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[1]. أي تأويل آيات القرآن هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم أي في صدور الذين أوتوا العلم اللدني من الله.

بخلاف غير المعصوم فإنَّه لا يصل إلّا إلى حد محدود تتظافر عليه جهود علماء الأمة جيلاً بعد جيل لتصل إلى منازل لمْ تكن علماء الأمة قدْ وصلوا إليها هذا بالنسبة إلى سائر العلماء والمجتهدين أو الفقهاء ذوي الاختصاص في العلوم الدينية.

هذا مضافاً إلى أنَّ المعصوم ليسَ عنده آيات متشابهات وإنَّما كُلّ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

الآيات بينات وهي محكمة عند المعصوم متشابهة عند غيره.

فالمعصوم ليست فقط المعاني الخفية ظاهرة لديه وبعمقها العميق والإحاطة بها، بلْ هي بيّنة لديه ولذلك وَرَدَ في زيارة أمير المؤمنين عليه السلام وباقي المعصومين عليهم السلام **«أشهد أنّك كنت على بينة من ربك»**.

بتقريب: إنَّ الأمور بينة لديه لا أنَّها ظهرت أو لاحت وتوضحت بدرجة متبدهة بلْ أنَّ الأمور بينة لديه من أوَّل الأمر، والمعصوم عنده الأمر بيّن وبديهي وليسَ فقط يعلمه بلْ يعلمه ويعلم أصله ومآله ومنشأهُ ومرجعه وباطنه بخلاف غير المعصوم الذي يعلم بالشيء من خلال القواعد ولكنْ لا يعلم منشا أصله ومآله ومرجعه فحيئنذ لا يكون لديه الأمرُ بيّناً وإنَّما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا.

وأحد معاني البيِّن هو مايُجمع فيه بين ما يغيب وما يظهر أي الجمع بين عالم الشهادة والغيب، يعني الشهادة للآخرين، والغيب غيب عن الآخرين، فالمعصوم عالم بعالم الشهادة الذي استبان له، بلْ المعصوم بيِّن له كُلّ طبقات القرآن النازلة هي آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم.

إذنْ المعصوم له اقدرةن العالية على التنقل من طبقة الدلالة إلى طبقة أُخرى والوقوف على حلقات الوصل بين الشبكات المترامية واللامتناهية.

كما في الرواية عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير سورة التوحيد: [... لو شئتُ لاستخرجت الدين كُلَّهُ من لفظ الصمد][1].

بتقريب: ـ إنَّ المعصوم له القدرة على استخراج واستنباط أحكام

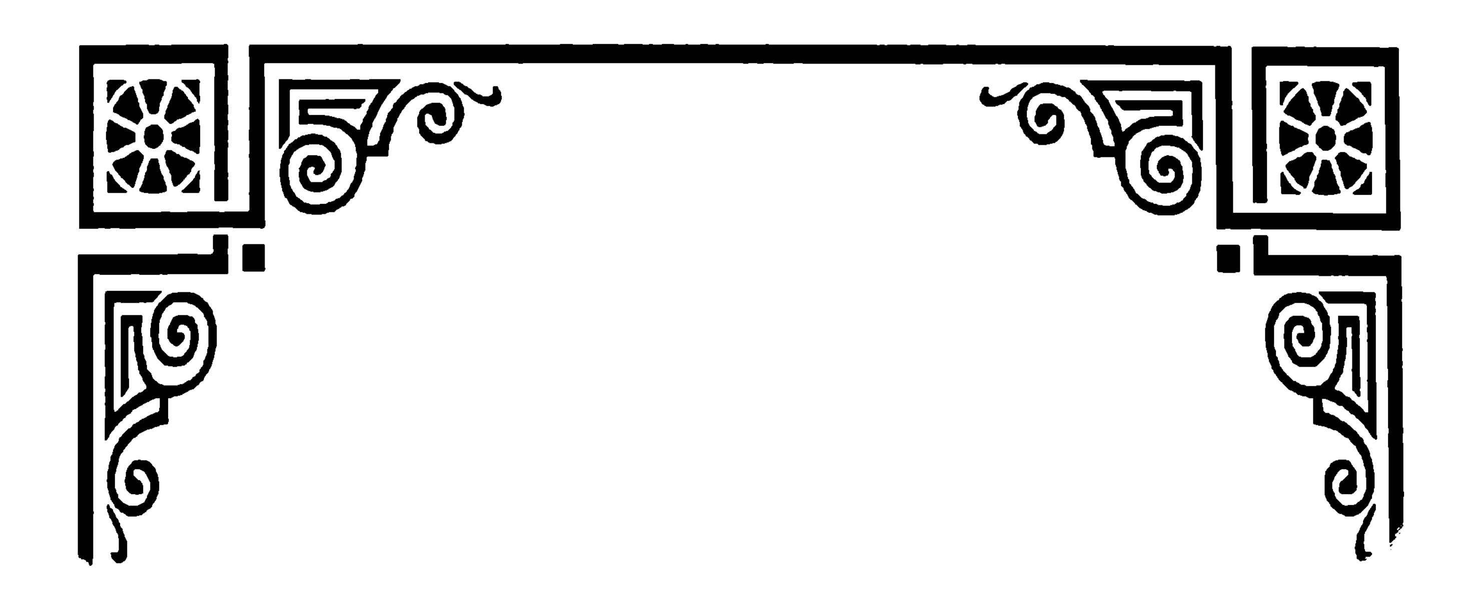
---

(١) الرواية في تفسير البرهان / هاشم البحراني ـ وتفسير نور الثقلين للحويزي.

الدين والشريعة من لفظة واحدة ومن الواضح أنَّ قدرة المعصوم لمْ تنحصر بالاستنباط للآية [ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولي الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطون منهم][1] يعني الراسخون في العلم أي الذين في قلوبهم القرآن آيات بينات.

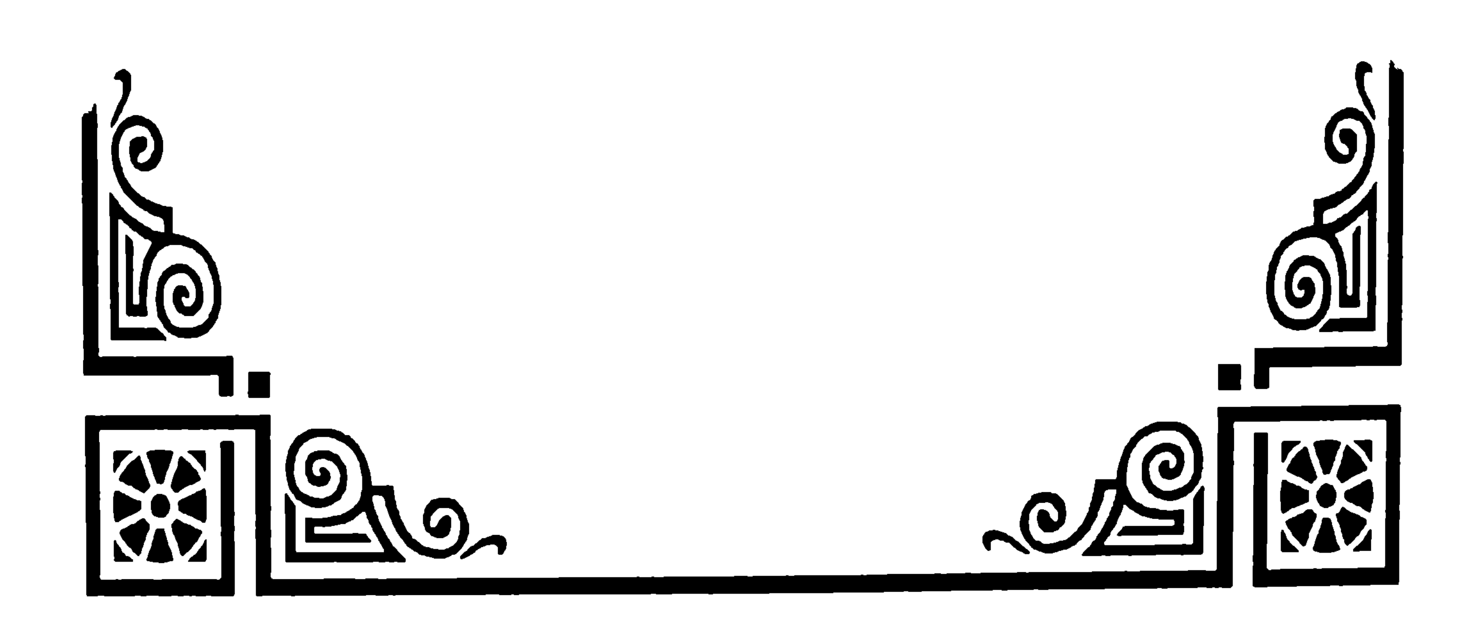
---

(١) سورة النساء: الآية ٨٣.



الفصل الخامس

القاعدة الثانية - قاعدة الالتفات



قاعد الالتفات

١ . مقدمة وتشتمل على:

❖ تعريف الالتفات لغة.

❖ تعريف الالتفات اصطلاحاً.

❖ تعريف الالتفات عند الجمور.

بيان أقسام الالتفات.

٢ . سبب عدم تركيز أغلب المفسرين على قاعدة الالتفات.

٣ . الضوابط التطبيقية لقاعدة الالتفات:

❖ الفصل والوصل.

❖ التقديم والتأخير.

❖ التجريد.

❖ الابتداء والانتهاء.

❖ السؤال والجواب.

❖ منه آيات بعضها في سورة وتمام الآية في آية أو سورة أُخرى.

٤ . الهجرة والنصرة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

. السرد القصصي القرآني.

. فائدة حول علم نظم المعلومات.

. الجري والتطبيق وضابطه.

٥ . الآيات والروايات لا يقتصر فيها على الجانب التطبيقي.

٦ . وحدة السياق وما يترتب عليها من آثار سلبية.

٧ . النسبية في القرآن وعند الحداثيين.

٨ . الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

٩ . رواية الإمام الباقر عليه السلام كمدرك لقاعدة الالتفات.

١٠ . قاعدة الالتفات ومعرفة تكثر بطون القرآن وظهوره.

١١ . المعالجات البيانية في روايات أهل البيت عليهم السلام لسطح ظاهر ألفاظ القرآن الكريم.

١٢ . الفرق بين المعلم الإلهي ومقام الآمرية والأولوية.

قاعدة الالتفات

مقدمة:

القاعدة الثانية من قواعد الاستعمال اللفظي والتي ترتبط بنظام التعريض، ولا نريد الدخول في تفاصيل هذهِ القاعدة البلاغية المهمة ألا وهي قاعدة الالتفات من أجلّ علوم البلاغة وهو أميرُ جنودها والواسطة في قلائدها وعقودها، وإنَّما نذكرها لأجل التأكيدعلى أنَّ نظام التعريض هو الأساس في النظام الاستعمالي في القرآن ولا شك إنَّ الالتفات مخصوص بهذه اللغة ـ أي العربية ـ دون غيرها.

الالتفات لغةً: مأخوذ من التفات الإنسان يميناً وشمالاً، فتارة يُقبلُ بوجهه وتارة كذا، وثالثة كذا، أو هو الانصراف والتفت إليَّ التفاتاً أي انصرف بوجهه نحوي[1].

واصطلاحاً: والالتفات في علم المعاني من علوم البلاغة، ذكر البلاغيون له معنيين:

المعنى الأوَّل: أنْ يلتفت وينتقل المتكلم ـ سواء كان شاعراً أو راوياً أو أديباً أو ... الخ من معنى إلى آخر حين يُعرض له ثم يعدل إلى الأوَّل.

المعنى الثاني: أنْ ينتقل المتكلم من ضمير إلى ضمير كقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[2]. فانتقل الباري عز اسمه من

---

(١) مجمع البحرين، مادة (لفت).

(٢) سورة يونس: الآية ٢٢.

ضمير الخطاب كنتم ـ خطاب المتكلمين إلى الغائبين ـ

وعند الجمهور: الالتفات هو التعبير عن معنى بطريق من الطرق الثلاثة ـ أعني التكلم والخطاب والغيبة ـ بعد التعبير عنه بطريق آخر منها، بشرط أنْ يكون التعبير الثاني على خلاف مقتضى الظاهر، ويكون مقتضى الظاهر سوق الكلام أنْ يُعبَّر عنه بغير هذا الطريق، وهذا واضح؛ لأنَّ الالتفات هو انتقال الكلام من أسلوب التكلم والخطاب والغيبة إلى أسلوب آخر غير ما يترقبه المخاطب ليفيده تطرأةً لنشاطه وإيقاظاً في إصغائه، فلو لم يعتبر هذا القيد لدخل في هذا التفسير أشياء ليست من الالتفات:

منها: أنا زيدٌ، وأنت عمر، ونحن رجال وأنتم رجال، ويا زيد قم ويا رجلاً له بصر، خذ بيدي ... الخ مما عُبِّر به عن معنى واحد تارة بضمير المتكلم أو المخاطب وتارة بالاسم الظاهر أو ضمير الغائب(١).

وقال السكاكي: الالتفات هو إمَّا ذلك الذي التقدم ، أو أنْ يكون مقتضى الظاهر التعبير عنه بطريق منها فعدل الآخر. فالالتفات عند السكاكي أعم، فكل التفات عند الجمهور التفات عنده من غير عكس.

وقال في المفتاح: والعرب يستكثرون من الالتفات إلى الكلام وإنْ انتقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في القلوب عند السامع وأحسن تطريةً لنشاطه وأملأ باستدرار إصغائه وهم أحرياء بذلك، أليس قري الأضياف سجيتهم، ونحر العشار للضيف دبأهم وهجيراهم؟ لا مزقت أيدي الأدوار لهم أديماً ولا أباحت لهم حريماً، أفتراهم يحسنون قري

---

(١) المطول في شرح تلخيص المفتاح ص٢٨٦.

الأشباح فيخالفون فيه بين أسلوب وأسلوب وإيراد وإيراد، فإنَّ الكلام المفيد عند الإنسان ـ لكن بالمعنى لا بالصورة ـ أشهى غذاءً لروحه وأطيب قرى لها.

وأقسام الالتفات ستةٌ، حاصل ضرب ثلاثة (التكلم والخطاب والغيبة) في اثنين لأنَّ كلاً من الطرق الثلاثة ينقل إلى الآخرين:

القسم الأوَّل: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ـ كقوله تعالى: ﴿وَالْحَمْدُ لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[1] إلى قوله ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[2] فالتفت من الغيبة إلى الخطَاب ـ وإنْ كان التعبير العدول من أسلوب في الكلام إلى أسلوب آخر مخالف للأوَّل أفضل وأولى الأسلوب من الأوَّل ـ الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ـ فالأوَّل خاص والثاني يعم سائر الالتفات كلّها[3].

النكتة فيه: ـ إنَّ العبد إذا ذكر الحقيقة بالحمد عن قلب حاضر، ثم ذكر صفاته التي كل صفة منها تبعث على شدة الإقبال.

القسم الثاني: الالتفات من الخطاب إلى الغَيبة وهو عكس الأوَّل، ومثاله قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾[4]. والأصل (بكم) ونكتة العدول عن خطابهم إلى حكاية حالهم لغيرهم هو التعجب من كفرهم وفعلهم، واستدعاء الإنكار منهم عليهم، فلو استمر تعالى على خطابهم لفاتت هذهِ الفائدة، وقيل فيها غير ذلك.

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ١.
(٢) سورة الفاتحة: الآية ٥.
(٣) الطراز للسيد يحيى العلوي اليمني ص٢٦٥.
(٤) سورة يونس: الآية ٢٢.

القسم الثالث: الالتفات من الغيبة إلى التكلم، كقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ﴾(١). والأصل فساقه، وقال الزمخشري، وفائدته (الالتفات) في هذه الآية وأمثالها: ـ التنبيه على التخصيص بالقدرة وأنَّ أمر الرياح لا يدخل تحت قدرة أحد.

القسم الرابع: الالتفات من التكلم إلى الغيبة ـ وهو عكس ما قبله ـ ومثاله قوله تعالى: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾(٢). إلى قوله تعالى ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾. والأصل (بي) فعدل الحق تعالى عنه لنكتتين: ـ

الأولى: دفع التهمة عن نفسه بالمعصية.

الثانية: تنبيههم على استحقاقه الاتّباع بما اتصف به الصفات المذكورة والخصائص المتلوّة.

القسم الخامس: الالتفات من الخطاب إلى التكلم ولم يقع في القرآن، وإنْ قال السيوطي في الاتقان مثَّل له بعضهم بقوله تعالى: ﴿فاقضِ مَا أَنتَ قَاضٍ﴾(٣). إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا﴾(٤). إلّا أنَّ هذا لا يصح كمثال للالتفات لأنَّ شرطه الالتفات أنْ يكون المراد به واحداً.

القسم السادس: الالتفات من التكلم إلى الخطاب وهو عكس الذي قبله ـ كقوله تعالى: ﴿وَمَا لِيَ لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٥). والأصل (إليه أرجع) فالعدول من التكلم إلى الخطاب، نكتته أنَّه أخرج الكلام في

---

(١) سورة فاطر: الآية ٩.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٥٨.

(٣) سورة طه: الآية ٧٢.

(٤) سورة طه: الآية ٧٣.

(٥) سورة يس: الآية ٢٢.

معرض منا صحته لنفسه، وهو يريد نصح قومه تلطُفاً وإعلاماً أنَّه يريد لهم ما يريد لنفسه، ثم التفت إليهم لكونه في مقام تخويفهم ودعوتهم إلى الله[١].

وأقول: بعد عرض كلمات الأعلام وبيان أقسام الالتفات، فإنَّ المتحصل منها:

إنَّ الالتفات هو انتقال المتكلم بتوجيه خطابه مع أكثر من مخاطب، فيتكلم مع المخاطب الأوَّل ولم يستتم كلامه بعدُ فيحوِّل كلامه وخطابه إلى طرف ثاني، وقبل أنْ يستمم كلامه مع الثاني يرجع إلى الأوَّل أو ينتقل إلى ثالث وهكذا.

وقدْ وَرَدَ التأكيد والاهتمام بهذه القاعدة البلاغية الصعبة والمهمة ـ الالتفات ـ في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام وباقي الأئمة عليهم السلام إلّا أنَّ هذهِ القاعدة يغفل عنها أغلب المفسرين وللأسف، وهذا هو أحد أسباب إخفاقهم من الوصول إلى مراد الآيات والسور، فالالتفات معناه كما تقدم أنَّه في سياق آية واحدة بدايتها المتكلم طرف والمخاطب طرف آخر ثم يتبدل إلى متكلم ثانٍ وربما مخاطب ثالث أو رابع أو المتكلم نفسه يتبدل وكذا المخاطب أو أحدهما يختلف أو كلاهما في وسط الآية أو في ذيلها كذلك ولربما هناك أكثر من ثلاث مقاطع في الآية الواحدة.

ويحسب المُفَسِّر وحدة السياق في الآية فضلاً عمّا بين الآيات أمراً متبعاً وغالباً عند أكثر المفسرين وهذا هو موطن الإخفاق في تفسير كلام الله، كما يبين ذلك أئمة أهل البيت عليهم السلام أنَّ آيات القرآن الكريم فيها سبكٌ بنمط وشاكله خاصة وفي الحقيقة سبك القرآن بهذه الشاكلة خاصة وفي

---

(١) أنوار الربيع لابن معصوم، ج١، ص٣٦٢.

الحقيقة سبك القرآن بهذه الشاكلة فيه حكم ومغزى وقواعد عظيمة:ـ

منها: ما تعرضت لبيان سورة يوسف عليه السلام من قصة يوسف وما جرى عليه مع أخوته فإنَّها لمْ تتعرض إلى بيان دقائق مقاطع حياة يعقوب والنبي يوسف وأخوته، وإنَّما اقتصر القرآن الكريم على بيان لقطات مصيرية انعطافية خطيرة وحساسة في مسلسل حياة النبي يوسف عليه السلام والنبي يعقوب والأنبياء عموماً والأمم السابقة بشكل منسبك وببلاغة إعجازية.

وهذا هو فرق تاريخ القرآن الكريم عن تاريخ كتب التأريخ للشعوب والأمم والحضارات فإنَّ الفرق بينها شاسع.

فإنَّ المؤرخ في كتب التأريخ يتعرض إلى ذكر الهامش والمتن والأشياء التي قدْ لا يكترث بها والتي يكترث بها وسواء بشكل مبعثر أم منتظم و... الخ.

أمَّا القرآن الكريم فحاشاه من أنْ يكون كتاباً تأريخياً قصصياً يدغدغ المخيلة وحس الشاعرية أو حس الثمر في الإنسان و ... كلا، وإنَّما القرآن كتاب الذكر وإنماء لتنمية الإنسان فإنَّه يتعرض فقط إلى اللقطات الحساسة في تأريخ الأمم، فمثلاً لا يتعرض القرآن الكريم إلى كُلّ أهل الفساد، وإنَّما يقتصر على ذكر أهل المخاطب الخطيرة من أهل الفساد.

وهكذا عندما كتب التأريخ عن الفراعنة وأقسامهم وما يتعلق بشؤونهم فإنَّهم بسطوا الكلام حول ذلك بشكل تفصيلي مُمِلٍّ و ... بينما القرآن اقتصر على بيان بنود معينة مفصلية حساسة وخطرة في حياتهم تشكل خطراً على المجتمع عالجها وذكرها وسلَّط عليها الأضواء.

لذا يتميز القرآن الكريم في قصِّ قصصه بأنَّه يتتبع الآثار الخطيرة التي لها انعطافات مهمة في الوصول إلى الغاية، ولذا نلاحظ فجأة انتقال العدسة

القرآنية من لقطة إلى أُخرى متسلسلة لكنَّ لا يعني هذا أنَّ المشهد واحدٌ في هذهِ الآية الواحدة المباركة وإنْ كان نسق اتصال الآية أو الآيات واحداً، وإنَّما القرآن ينقل لنا في الآية الواحدة مشاهدُ لقطات متعددة وهم يحسبون أنهم لا زالوا في المشهد الأوَّل.

إلّا أنَّه وللأسف أنَّ المفسرين من كلا الطرفين غفلوا عن ملاحظة ارتباط بعض القواعد مع بعضها الآخر، كُلّ ذلك نتيجة الابتعاد عن ملاحظة البيانات العلميّة الموجودة في روايات أهل البيتعليهم السلام.

فمثلاً هناك ارتباط وثيق بين قاعدة الالتفات وقاعدة أسباب النزول، وإنْ كان البحث عن قاعدة أسباب النزول يأتي مفصلاً في محله إنْ شاء الله، إلّا أنَّه نشير إلى ذلك من باب بيان ارتباط بعض القواعد مع بعضها الآخر مع بيان نوع العلاقة والصلة فمثلاً بعضهم وللأسف لا يتبنى مسألة تعدد أسباب النزول وأنَّ الآية الواحدة لها أسباب مُتعددة، بلْ حتَّى جُمل تلك الآية أو بحسب كلماتها فإنَّهم لا يبنون على وجود أكثر من سبب، والحال قدْ يظن بعض المفسرين أو قرّاء القرآن أنَّ سبب نزول هذهِ الآية هو الواقعة أو الحادثة الفلانية أو الشخص الفلاني والحال في بعض الآيات قدْ يكون سبب نزول صور الآية شخص، ووسطها شخص آخر أو حادثة أُخرى، وذيلها في ثالث، بلْ يمكن أنْ نقول أكثر من هذا بأنْ تكون فقرات الآية الواحدة صدرها في شخص أو واقعة أو حادثة معينة، ووسطها في آخر، وذيلها في ثالث و ... الخ.

وعليه فغفلة المفسرين عن الالتفات والتنبيه لمثل هذهِ المطالب العلميّة المهمة يوقعهم في أخطاء تفسيرية خطيرة.

توضيح ذلك: ما جاء في سورة الأحزاب ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ

النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا ... إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1].

فنلاحظ أنَّ صدر الآية كان الكلام فيه موجهاً إلى نساء النبي صلى الله عليه وآله ـ أي يا نساء النبي لا تخرجن من بيوتكن لا لحرب ـ كحرب الجمل مثلاً التي خرجت فيها زوج النبي صلى الله عليه وآله عائشة على إمام الأصل ووصي رسول الله صلى الله عليه وآله ـ علي بن أبي طالب عليه السلام ولا لما شابهها، ثم يحوِّل القرآن الكريم خطابه من نساء النبي صلى الله عليه وآله إلى خطاب أهل البيت عليهم السلام: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ ولم يقل القرآن الكريم يطهركن، فنلاحظ الالتفات والانتقال من ضمير المخاطب وهو جماعة الأناث (كُنَّ) و (بيوتكن) إلى خطاب (لِيُذهب عنكم) فإنَّ مثل هذا نحو التفات.

مورد آخر للالتفات في القرآن الكريم في بعض الآيات يخاطب القرآن شخص ذو أوصافٍ متعددة عكس ما يظنه المفسرون كما في قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾[2].

وهاتان آيتان محكمتان من محكمات القرآن الكريم، وما بينته فاطمة الزهراء عليها السلام في خطبتها وجدالها مع الخليفة الأوَّل ـ أبي بكر ـ والثاني ـ عمر بن الخطاب ـ أليس الخمس للمهاجرين والأنصار؟[3].

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٢ ـ ٣٣.

(٢) سورة الحشر: الآيتان ٨ ـ ٩.

(٣) خطبة الزهراء عليها السلام مع المهاجرين والأنصار.

قالت: «إنّما المهاجرين من هاجر إلى الله تعالى ولنا عترة النبيﷺ والنصرة التي عُقِدت في بيعة العقبة والتي هي نفس نصرة النبيﷺ لرب العالمين وبالتالي نصرة الله ولرسوله وعترة النبيﷺ، لا من قاطعنا وأدبر عنّا».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ﴾[1]. شاهدٌ على أنَّ المخاطب بها هو علي بن أبي طالبعليه السلام بناءً على ما وَردَ في بيانات وروايات أهل البيتعليهم السلام بأنّهعليه السلام أوّل من هاجر مع النبيﷺ وليسَ المراد من الهجرة هي الهجرة الجغرافية التي قد تكون أحد آليات الهجرة هو الهجرة الجغرافية والانتقال بالبدن والمال، وإنّما المراد بالهجرة في محل الكلام هي هجرة عقيدة فاسدة إلى عقيدة حقّة وصالحة وهجرة نفسانيّة أي هجرة نفس رذيلية وجاهلية إلى نفس فضيلية وأعراف وتقاليد وحيانية سماوية نبويّة مطهّرة نورية سهلة وسمحةٌ.

وهناك منطق آخر للهجرة في القرآن: ـ وهي النصرة والأنصار وليسَ المراد منها النصرة العكسرية وإلّا لو كان المراد ذلك فقط لكانت في وقتها قبائل مشركة أو يهودية تحالفوا مع الرسولﷺ ونصروه عسكرياً إلّا أنّهم لم يُسموا بالأنصار.

وعليه فيكون المراد من الأنصار هي ديمومة العهود والتعهد والالتزام والثبات لنصرة الدين وأهل الدين من النبيﷺ وعترته الطاهرة، بخلاف من خذل الله ـ والعياذ بالله ـ وخذل الرسولﷺ والعترة الطاهرة، فهو لا يستحق وصف النصرة والانتصار.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

الخلاصة: آيتان من سورة الحشر كان سبب نزولهما والمخاطب بهما واحد.

تلخيص ما تقدَّم: القاعدة الثانية من قواعد نظام الاستعمال اللفظي هي قاعدة ـ الالتفات ـ وهي من القواعد المهمة التي تجب أنْ تولى عناية وأهمّيّة خاصة؛ لأنَّها من القواعد البلاغية الصعبة، ولابدَّ أنْ نعترف:ـ

أولاً: بعجزنا عن الإحاطة بقواعد ومتشعبات قاعدة الالتفات؛ لأنَّها من القواعد المتشعبة والمتوسعة دائرتها والمترامية إلى أطراف بعيدة وأفرع وسبل غريبة بالنسبة إلينا وقدرة ممارستها إنَّما تكون للحق تعالى رب الكلام الذي عندما يمارسه بممارسةٍ سليمة تعجز قدرة البشر عن السيطرة أو التركيز أو الإحاطة بها.

ثانياً: إنَّ ما ورد في بيانات أهل البيت عليهم السلام إنَّ الالتفات له أقسام عديدة في القرآن غالباً ما يتغير إسناد الجمل باستمرار فقد يتغير الإسناد من مخاطب إلى آخر، ومن متكلم إلى آخر أو يتغير أحدهما أو كلاهما، وقد يختلف في الآية الواحدة بلْ في الجملة الواحدة إذا كان فيها أوصاف وإسنادات متعددة، فضلاً عن السورة والسور بأنْ يكون صدرها في شيء ووسطها في شيء آخر، وذيلها في شيء ثالث.

ثالثاً: إنَّ استعمال مثل هكذا قاعدة ونظام في اللغة العربية قليل لصعوبة القدرة في السيطرة على استعماله فمن الصعوبة بمكان أنْ تذكر جملة مبتدأ مثلاً ثم تذكر خبر أوَّل وخبر ثانٍ وخبر ثالث، والحال إنَّك تريد مبتدأً غير المبتدأ في الخبر الثاني، وفي الثالث مبتدأً غير الأوَّل والثاني وهكذا.

رابعاً: لعلَّ أحد أسباب صعوبة قاعدة الالتفات في القرآن باعتبار أنَّ خطاب القرآن الكريم يتعدد ويتبدل بشكل خفي غير متنبه إليه، ولعل هذا

أحد أهم أسباب إخفاق المفسرين من الوصول إلى مراد الآيات والسور وليعلم المفسِّر إنَّ من أوليات تفسير القرآن الكريم أنَّ يُراعي المُفَسِّر هذهِ القاعدة ـ الالتفات ـ وإلّا سوف يُشق به مسار التفسير بعيداً جداً عن حقيقة تفسير القرآن.

إذنْ إذا لم نمكث مليّاً في قاعدة الالتفات ولم نراعها حفياً سوف نخفق عن الوصول إلى المطالب العلمية والنكات والآيات القرآنية، وكذا في الروايات بحسب توصيات أئمة أهل البيت عليهم السلام في الاهتمام بهذهِ القاعدة في تفسير القرآن؛ لأنَّ تفسير القرآن هو تفسير لكلام الله وليسَ على حد كلام البشر، وإنْ لم يكن ورد لفظ الالتفات بنفسه في الآيات والروايات وإنَّما ورد معناه.

إذنْ الالتفات: هو أنْ يتكلم المتكلم بكلام يخاطب به مخاطباً ثم يلتفت ويوجه خطابه إلى مخاطب آخر ثم إلى ثالث ثم ... الخ وهذا معناه أنَّ خطاب المتكلم يكون متوجهاً إلى أكثر من مخاطب فيتكلم مع الطرف الأوَّل ولم يستتم كلامه بَعْدُ فيحوِّل كلامه وطابه إلى طرف ثانٍ وقبل أنَّ يستمم كلامه مع الثاني يرجع إلى الأوَّل أو ينتقل إلى ثالث وهكذا، علماً أنَّ المتكلم والحال هذهِ لم يجعل فواصل ومنبهات للانتقال من طرف إلى آخر وإنَّما مسترسلاً بكلامه بنسق واحد، فمن لم يكن له دربة وخبرة في ذلك يحسبه كلاماً واحداً ومتكلماً واحداً ومخاطباً واحد ولعل الحال ليسَ كذلك، فلعلَّ المتكلم يُحرِّك خطابه إلى متعددين، فقد يتبدل المخاطَب دون المخاطِب والمتكلم أو بتبديل المخاطِب دون المخاطب (السامع) أو بتبديلها معاً.

ولذا حذَّر أهل البيت عليهم السلام من أنْ يعيش القارئ للقرآن فضلاً عن المُفَسِّر

حالة الغفلة وعدم الالتفات إلى تبدل المخاطَب أو المخاطِب أو كليهما . وعدم الالتفات إلى هذهِ التلاوين المتنوعة والعيش حالة العفوية وعدم الالتفات إلى مثل هذهِ النكات فإنَّ لها تأثيرها البالغ الأهمية على معنى الآيات والسور القرآنية المباركة.

إذنْ قاعدة الالتفات فنٌّ بديع وعظيم تُمارَس في تراكيب القرآن الكريم كثيراً حسب كلام أمير المؤمنين عليه السلام مثلاً في أسباب النزول فإنَّها مختلفة بلحاظ الآية الواحدة كما تقدم، وسيأتي تفصيل كل ذلك في قاعدة أسباب النزول، وإنَّما ذكرت قاعدة أسباب النزول كشاهد على قاعدة الالتفات.

فقاعدة الالتفات تؤثر كثيراً على كثير من الاستظهارات التفسيرية، سواء في علم الفقه ـ أي في مجال الاستنباط ـ أو في أي علم آخر من العلوم الدينية كالعقائد والفقه والتفسير و ... الخ بلْ وغير العلوم الدينية.

سبب عدم تركيز أغلب المفسرين على قاعدة الالتفات

أكَّدت بعض الروايات وبيَّنت أنَّ من الأسباب الكبيرة الخطأ المفسرين حيث أنَّهم لا يصلون إلى معرفة كنه كلام الله تعالى؛ ذلك بسبب ابتعادهم عن رعاية المعصوم، ولا يصلون إلى الالتفات إلى ذلك إلّا بالرعاية التعليمية من أئمة أهل البيت عليهم السلام إذْ لم يسترشدوا بتعاليمهم عليهم السلام ووصاياهم العلمية فإنَّهم سوف يخفقوا في التنبأ إلى نكات قاعدة الالتفات وتلاوينها وتنوعها في التفاتات القرآن بشكل متكثر إلى ما شاء الله.

ولعلَّ سائل يسأل: لِمَ هذهِ الصعوبة؟

فإنَّه ليسَ من السهل خَلق المُفَسِّر للأحجية واللغز من القرآن الكريم، وإنَّما هذهِ الشبكية في تنويع خطاب القرآن بمثابة سدود فلعلَّ المُفَسِّر المتدبر يصل إلى منطقة السد الأوَّل وحدودها من مخارج الآيات والسور، إلّا أنَّ وصوله إلى منطقة أعمق يحتاج إلى الالتفات إلى وجود سدود أُخرى أعمق، فكيف يتجاوزها إلى ما وراءها.

إذنْ المعنى الأوّلي الذي هو رَحِبٌ وفيه سِعَةٌ فإنَّ بإمكان كل مُفَسِّر الوصول إليه وإنَّما الكلام فيما بعد المعنى الأولي من المعاني العميقة، فهنا يحتاج المُفَسِّر إلى الالتفات ورعاية تعليمية خاصة من قبل المعصوم عليه السلام للمنظومة الشبكية في الخطاب القرآني فمثلاً الرواية التي رواها السيد المرتضى رضي الله عنه في كتابه المحكم والمتشابه عن أبي زينب النعماني في تفسيره عن الإمام الصادق عليه السلام عن أمير المؤمنين عليه السلام وهو يمزج بين حديثه وحديث

جده أمير المؤمنين عليه السلام: **«واعلموا رحمكم الله أنَّ من لم يعرف من كتاب الله الناسخ والمنسوخ والخاص والعام والمحكم والمتشابه والمبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤتلفة»**[١].

وحيث اشتملت هذهِ الروايةعلى بنود علمية ضخمة لسنا الآن بصدد بيانها ـ ستأتي في بحث المحكم والمتشابه ـ حفاظاً على وحدة سياق الكلام وأخذ محل الشاهد منها. إذْ لو قارنا بين الروايات الصادرة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام المتضمنة لبيان المنهج التفسيري بحسب مدرسة أهل البيت عليهم السلام التي صدرت في القرن الأوَّل والثاني الهجري وما أودع فيها من قواعد أصيلة في منهج التفسير تعتبر أسس بنيوية شامخة لدى علماء التفسير عند كافة المسلمين، وهذهِ القواعد التي بيّنتها روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام ليست مختصة بالتفسير فقط بلْ تتعدى لمثل الفقه والأصول والحديث والرجال والعقائد وباقي فنون المعرفة، في ذكره أمير المؤمنين عليه السلام في علم الرجال وفي اختلاف الحديث.

ما رواه الشيخ الكليني عن علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه،، عن حمّاد بن عيسى عن إبراهيم ابن عمر اليماني عن أبان بن أبي يعيش عن سليم بن قيس الهلالي، قال: قلت لأمير المؤمنين عليه السلام إني سمعتُ من سلمان والمقدار وأبي ذر شيئاً من تفسير القرآن وأحاديث عن نبي الله صلى الله عليه وآله غير ما في

---

(١) السيد علي بن الحسين المعروف بالسيد المرتضى في كتبا المتشابه والمحكم في القرآن يروي عن ابن أبي زينب النعماني ـ تلميذ الكليني ـ صاحب كتاب الغيبة وللأسف لم يبق من هذا التفسير إلّا رسالة يسيرة رواها السيد المرتضى باسم رسالة في المحكم والمتشابه وفيها روايات محدودة إلّا أنها تشتمل على أصول وقواعد تفسيرية هامة.

أيدي الناس، ثم سمعت منك تصديق ما سمعت منهم، ورأيت في أيدي الناس أشياء كثيرة من تفسير القرآن ومن الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وآله أنتم تخالفونهم فيها وتزعمون أنَّ ذلك كُلَّهُ باطل، أفترى الناس يكذبون على رسول الله صلى الله عليه وآله متعمدين ويفسرون القرآن بآرائهم؟ قال: فأقبل عليَّ فقال: ـ قد سألت فافهم الجواب: إنَّ في أيدي الناس حقاً وباطلاً، وصدقاً وكذباً وناسخاً ومنسوخاً، وعامّاً وخاصّاً، ومحكماً ومتشابهاً وحفظاً ووهماً و ... وإنَّما أتاكم الحديث من أربعة ليسَ لهم خامس رجلٌ منافقٌ يظهر الإمان مُتصنع بالإسلام لا يتأثم ولا يتحرج أنْ يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله ... الخ ورجل ثالث سمع من رسو لالله صلى الله عليه وآله شيئاً أمر به ثمَّ نهى عنه وهو لا يعلم أو سمعه ينهى ... الخ وآخر رابع لم يكذب على رسول الله صلى الله عليه وآله مبغضٌ للكذب خوفاً من الله وتعظيماً لرسول الله صلى الله عليه وآله ... الخ.

فذكر أمير المؤمنين عليه السلام أسساً بنيوية متشعبة عن بنود قرآنية من الآية المباركة ﴿إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾[1].

وهكذا في أسباب النزلو كعلم مستقل وأنَّ أحد أبحاثه التي ستأتي في محلّها هو الآيات والسور المكيّة، والمدنية فإنَّ أساس تفصيله هو من أمير المؤمنين عليه السلام حتّى قال عبدالله ابن عباس «**إنَّما أغرف من نمير أمير المؤمنين عليه السلام**».

إذنْ الأسس التي أسسها أئمة أهل البيت عليهم السلام هي أسس ثابتة وعظيمة وأساسية عند كافة علماء المسلمين في كافة العلوم ولا يُنكرها إلّا من لا ينصف نفسه ولا يحترم البحث العلمي وعقله.

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٦.

وعليه فلو قارنّا بين ما ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام وبين باقي المدارس الإسلامية الأُخرى في علم الفقه والأصول والعقائد والرجال و ... الخ لوجدنا المُفَسِّر يحتاج فقط ما ورد عن أهل البيت عليهم السلام؛ لأنَّها مدرسة وحيانية متصلة بالسماء والوحي بخلاف غيرها فإنَّها من صنع البشر فهي تقرُّ بعجزها وضعفها.

الضوابط التطبيقية لقاعدة الالتفات

هناك عدَّة ضوابط وموارد تطبيقية لقاعدة الالتفات نذكر بعضها على سبيل الاختصار منها: ـ

أولاً: الفصل والأصل ـ المنقطع والمؤلف ـ في كلام القرآن، ولهما محلٌّ عظيم في علم المعاني وواقعان منه في الرتبة العليا، ونحن نشير إلى زبدٍ منهما مما يتعلّق بغرضنا أمَّا الفصل ـ أو الانقطاع ـ فهو عبارة عن ترك الواو العاطفة بين الجملتين ـ وربما أطلق الفصل على توسط الواو بين الجملتين، والأمر في ذلك قريبٌ بعد الوقوف على حقيقة المعاني.

وهناك مواضع في القرآن تنقطع وتنتهي عندها سلسلة الحوار وتبدأ بحوار وسياق جديد قد يتبدل فيه المتكلم أو المخاطب أو الموضوع أو ... الخ.

فمثلاً في قصة موسى عليه السلام مع فرعون ـ فإنَّ الجملة واردة على تقدير سؤال يقتضيه الحال ـ ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾[1]. فإنها جاءت من غير واو على تقدير سؤال تقديره: فماذا قال فرعون لما دعاه موسى إلى الله تعالى قال فرعون لمّا دعاه موسى إلى الله تعالى قال فرعون ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ ثم قال موسى ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾[2].

أمَّا الوصل: ـ قدْ ياتي اتصال الجملة مع ما بعدها بالواو وقدْ لا يأتي،

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢٣.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٤.

أمّا الاتصال بالواو كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلاَ يَنظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ﴾[1].

وأمّا الاتصال من دون الواو كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[2]. ثم قال ﴿يُخَادِعُونَ اللهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُم﴾[3]. فجرد قوله (يخادعون الله) عن الواو إرادة الإيضاح ما سلف من قوله: ﴿آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾.

فمثل هكذا مورد لا يمكن الحكم بوحدة السياق التي قد اتخذها بعض المفسرين من الفريقين شعاراً وفي حالة عدم فرز المطالب وتداخلها، ولأجل الخروج من أزمة ومشكلة التشخيص بين عناوين الموضوعات بدقة يلجأ المفسرون إلى مسألة وحدة السياق وهذا بالتالي مؤشر العجز عن فهم المنقطع والمؤلف والمنفصل والمتصل في تراكيب ألفاظ القرآن الكريم .. الخ.

ولذا كان الغرض من ذكر أمير المؤمنين عليه السلام «**... المبهم من القرآن في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة**» عن أبي جعفر عليه السلام «**إنَّ رجلاً قال له أنت تقول ليسَ شيء من كتاب الله إلّا معروف ... إنَّ للقرآن ظاهراً وباطناً، ومعايناً، وناسخاً ومنسوخاً، ومحكماً ومتشابهاً، وسُنناً وأمثالاً وفَصْلاً، ووصلاً، وأحرفاً وتصريفاً، فمن زعم أنَّ الكتاب مبهم فقد هَلَك وأَهْلَكَ**»[4] يعني أنَّ

(١) سورة الغاشية: الآية ١٧ و١٨.
(٢) سورة البقرة: الآية ٨.
(٣) سورة البقرة: الآية ٩.
(٤) الوسائل، ج٢٧، ص١٨٣ ب١٣، من أبواب صفات القاضي، ح٢٢.

هناك مواضع قطع ومواضع وصل في القرآن الكريم، ويبين علماء التجويد أنَّ هذهِ الآية المباركة فيها موضع للوصل مثلاً أو للقطع، فيُسال ذلك العالم بالتجويد من أين عرفت أنَّ هذا الموضع موضعُ فصل أو وصل أو موضع قطع أو ... الخ؟

فسوف يجيب أنَّه لا يعلمه بالدقة والمتانة إلّا من يُحيط ببحور معاني وحقائق القرآن الكريم، ورباط التجويد اللفظي بالتجويد التركيبي،وكيفية فرز الجملة الموصولة بالمؤلفة كل ذلك أشار له المعصوم عليه السلام، وما هذا إلّا مشهد من مشاهد الالتفات، وبهذا تبين أنَّ القطع والوصل قاعدة تندرج تحت نظام الالتفات في القرآن الكريم، وتسمى هذهِ القاعدة في ألفاظه المنقطعة والمؤلفة، أو تسمى في بعض الروايات بقاعدة **«المؤتلف والمختلف في ألفاظ القرآن»**.

ثانياً: التقديم والتأخير: بأنْ يكون حق الكلام أنْ تقدم هذهِ العبارة وتؤخر تلك لدواعٍ وأغراض أكثر تأثيراً في نفس السامع قدْ تكون الدواعي بلاغية أو نحوية أو أدبية أو لغوية أو ... الخ أو لغرض أنَّ المُفَسِّر مثلاً إذا بدأ بوحدة السياق ظن أنَّ المتأخر ذكراً هو متأخر معنى والحال أنَّه غير متأخر مثلاً قدّمه لنكتة تعدد اللفظ ومتأخر معنى أو بالعكس.

والتقديم والتأخير وإنْ كان قاعدة مستقلة إلّا أنَّه يمكن جعلها مورداً من موارد قاعدة الالتفات.

فالمُفَسِّر إذا حسب أنَّ آيات القرآن في ترتيب استرسالي صرحي وانسيابي واحد فهذه بادرة خطأ يقع فيها المُفَسِّر وعلى المُفَسِّر أنْ يعيش اليقظة التامة لمراعات هذهِ الآلية والتلاوين في خطاب القرآن الكريم وكذا

الحديث والروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام.

وخير شاهد على التقديم والتأخير: الآية الناسخة والآية المنسوخة، فنلاحظ أنَّ عند مفسر علماء الإمامية في موارد عديدة يرون: ـ أنَّ الآية الناسخة متقدمة على الآية المنسخوة ذكراً، مع أنَّ العكس لوكنا نراعي الترتيب الزمني فالعكس هو الصحيح بأنَّ تكون الآية الناسخة متأخرة زماناً عن الآية المنسوخة.

إذنْ لعلَّ القرآن الكريم يقدم ذكر الناسخ الذي لعله متأخر زماناً والمنسوخ أُخر ذكره مع أنَّه متقدم زماناً.

وعليه فالمُفَسِّر إذا لمْ يكنْ مستفيقاً من غفلة عدم الانتباه والتنبه، وأنَّ هناك قاعدة مهمة وهي قاعدة التقديم والتأخير في القرآن، بغض النظر عن مسألة وحدة السياق وما يتشبث به المُفَسِّر غير الملتفت والتي تمثل مؤشر العجز عنده، وأنَّ هناك ناسخ متقدم ومنسوخ متأخر لمْ يكنْ عنده توالد استرسالي وامتيازي وإنَّما يصبح العكس، بغض النظر عن مسألة لماذا قُدِّم الناسخ وأخر المنسوخ وإنْ كان الناسخ متأخر عن المنسوخ واقعاً، ولكنْ في القرآن ترى عكس هذا الترتيب إمَّا بسبب أنَّ طريقة جمع آيات القرآن هي كما عليه الآن أو لدواعٍ أُخر.

إذنْ المُفَسِّر الذي لمْ تكن عنده يقظة عالية إلى وجود قاعدة التأخير والتقديم في القرآن فسوف تضيع عليه حقيقة المراد في الآيات، ولذا وَرَدَ في بعض تعبيراتهم عليهم السلام أنَّ المُفَسِّر إذا لمْ يلتفت إلى وجود مثل هذهِ النكات في القرآن فكيف يدعي التفسير؟

وهكذا أمثلة آخرى للتقديم والتأخير نحو:

١ ـ التقدم بالزمان: ـ كتقدم الشيخ على الشاب، والأب على الأبن فإنَّ الوالد وحدة زمان لمْ يوجد فيه الابن، فهذه المعاني كلها عقلية، فما كان منهما متقدماً على غيره سواء كان التقدم بالعلة على المعلول كتقدم الكون على الكائنية، والعلم عن العالمية أو التقدم بالذات كتقدم الواحد على الاثنين على معنى أنَّ الوحدة لا يمكن تحقق الأثنينية إلّا بعد سبقها أو التقدم بالشرف كتقدم الأنبياء على الاتباع، والعلماء على الجهال فإنَّه تقدم معقول أو تقدم بالمكان كتقدم الإمام عن المأموم، ونحو من تقدم من يَقرُب إلى الحائط دون من تأخر عنه، فمن يلي الحائط فإنَّه يُقال عنه، ـ أنَّه سابق على من تأخر عنه أو ...الخ فإنَّ من كان متقدماً على غيره في هذهِ الاعتبارات كان في العبارة كذلك اتباعاً للمعاني بالألفاظ.

فمن التقدم بالزمان: كقوله تعالى: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾[(١)].

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾[(٢)] فإنَّ الظلمة سابقة على النور؛ لأنَّ الحق أنَّ الظلمة هي عدم النور، وليست أمراً ثبوتياً، ولا شك أنَّ عدم الشيء سابق على وجوده؛ لأنَّ العدم بلا أول والوجود يتلوه، فلهذا كان تقدم الظلم على الأنوار من باب تقدم الأزمنة.

وهكذا القول في الظلمة المعنوية؛ لأنَّها إذا أريد بها الجهل والكفر فإنَّها تكون سابقة على النور المعنوي وهو العلم والإسلام ويؤيده قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ﴾[(٣)]

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٣٨.

(٢) سورة الأنعام: الآية ١.

(٣) سورة النحل: الآية ٧٨.

فانتفاء العلم ظلمة معنوية مجازية فهي متقدمة بالزمان على نور الإدراكات الخمسة كلها، وقوله تعالى ﴿فِي ظُلُمَاتٍ ثَلاثٍ﴾[1] يريد ظلمة البطن والرَحِم والمشيمة[2].

٢ ـ **التقدم بالشرف:** كقوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ﴾[3] وقوله ﴿وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾[4] فإنَّ الوجه أشرف من اليد، والرأس أفضل من الرجل، ومنه قوله ﴿مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ﴾[5] فإنَّ النبي أشرف من الصدّيق، وقوله ﴿وَالشُّهَدَاء وَالصَّالِحِينَ﴾[6] فإنَّ الشهداء على درجة من غيرهم من أهل الصلاح.

ثالثاً: التجريد: في أصل اللغة هو: ـ إزالة الشيء عن غيره في الاتصال فيقال: جرَّدت السيف عن غمده، وجردت الرجل عن ثيابه إذا أزلتهما عنهما، ومنه قوله عليه السلام **«لا مدَّ ولا تجريد»** يعني في حدِّ القذف وحدِّ الشرب، وأراد أنَّ المحدود لا يُمد على الأرض ولا يجرد عن ثيابه.

وأمَّا في اصطلاح البلاغيين: فهو مقولٌ على إخلاص الخطاب إلى غيرك وأنت تريد به نفسك وقدْ يطلق على أخلاص الخطاب على نفسه خاصة دون غيرها.

وهو من محاسن علوم البيان ولطائفه، وقدْ استعمل على ألسنة الفصحاء

---

(١) سورة الزمر: الآية ٦.
(٢) الطراز يحيى العلوي اليماني ص٢٣٠.
(٣) سورة المائدة: الآية ٦.
(٤) سورة المائدة: الآية ٦.
(٥) سورة النساء: الآية ٦٩.
(٦) سورة النساء: الآية ٦٩.

كثيراً فصار مقولاً على هذين الوجهين: ـ

الوجه الأوَّل: التجريد المحض: ـ وهو أنْ تأتي بكلام يكون ظاهره خطاباً لغيرك وأنت تريده خطاباً لنفسك فتكون قدْ جردت الخطاب عن أنفسك وأخلصته لغيرك فلهذا يكون تجريداً محققاً.

إلامَ يَـراكَ المجـدُ في زيٍّ شـاعر   وقـدْ نَحَلَـتْ شـوقاً فـروع المنـابر
كَتَمْتَ بعيب الشعر حِلماً وحكمةً   ببعضـهما ينقـادُ صـعبُ المفـاخِرِ
أمّا وأبيكَ الخير إنَّـكَ فـارسُ الــ   مقال ومُحْبِـي الدراسـات الغـوائرِ
وإنَّـك أَعْيَيْـتَ المسـامِعَ والنُهَـى   بقولـك عـمّا في بطـون الـدفاترِ

فهذا وما شاكله أحسن ما يوجد في التجريد، ألا تراه في جميع هذهِ الخطابات ظاهرها يُشعر بأنَّه يخاطِبُ غيره والغرضُ خطابُ نفسه، وهذا هو السرُّ واللباب في التجريد.

الوجه الثاني: التجريد غير المحض: وهو أنْ تجعل الخطاب لنفسك على جهة الخصوص دون غيرها وفي التفرقة بين هذا والأوَّل ظاهرة فإنك في الأوَّل جردت الخطاب لغيرك وأنت تريده لنفسك، فإطلاق اسم التجريد عليه ظاهرٌ، بخلاف الثاني، فإنَّه خطابٌ لنفسك لا غير.

ومثال الثاني ما قاله بعض الشعراء:

أقـولُ للـنفس تأسـاءً وتعزيـة   إحـدى يـديَّ أصـابتني ولم تـردِ

فهو قدْ خصَّ الخطاب لنفسه، بأنَّ إحدى يديه أصبحت عاطلة.

وما قاله الأعشى:

وَدِّع هُرَيـرَة إنَّ الركـب مُرْتَحِـلُ   وهـل تطيـقُ وداعـاً أيُّهـا الرَّجُـلُ

وأيضاً قصر الأعشى الخطاب في هذا البيت على نفسه دون غيره[١].

إذنْ التجريد: ـ هو أنْ ينتزع من أمرٍ ذي صفة آخر مثله، وفائدته المبالغة في تلك الصفة كقولك: مررتُ بالرجل الكريم والنسمة المباركة، فجردت من الرجل نسمة مباركة فتصفه بالبركة وعطفتها عليه كأنها غيره وهو هو[٢].

أقولُ: ـ من المعلوم أنَّ النفس الإنسانية ذو طبقات، وعنوان التجريد وإنْ كان قدْ ذُكر في علم البلاغة في الفنِ الثالث: علم البديع كمحسِّن بديعي ولكنَّه كما تقدم له أصل عقلي من أنَّ الذات الإنسانية الواحدة ذات طبقات وذات قِوى جوهرية متعددة فهي بمثابة جواهر عديدة لكل منها طابع خاص ومقتضيات ومتطلبات خاصة متميزة، فمن ثمَّت تعددت شخصية الإنسان وكأنها إلى أشخاص وحقائق.

ومثال ذلك ما وَرَدَ في الحديث القدسي المروي عند الفريقين عندما نزل جبرائيل عليه السلام على رسول الله صلى الله عليه وآله لمنع أبي بكر تبليغ سورة البراءة عن النبي صلى الله عليه وآله حيث جاء الخطاب الإلهي لرسول الله صلى الله عليه وآله على لسان جبرائيل: يا محمد لا يُبلِّغ عنك إلّا أنت أو رجلٌ منك.

فَفُرض أنَّ هناك مُبلِّغ وهو الرسول صلى الله عليه وآله ومبلِّغٌ عنه في نفس ذات الرسول صلى الله عليه وآله وكأنَّما يوجد شخصان وهذا إشارةٌ إلى المقام النوري للنبي صلى الله عليه وآله وقلبه المبارك لا يبلِّغ عنه إلّا بدن النبي صلى الله عليه وآله وفمهُ المبارك أو شخص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فصار كُلٌّ من نفس أمير المؤمنين عليه السلام ونفس النبي صلى الله عليه وآله النازلة يتلقون من مِعْدِنٍ واحد، وهو قلب ونور النبي، وهذا نمطٌ

---

(١) الطراز، ص٤٣٤.

(٢) خزانة الأديب للحموي.

من التجريد.

وهكذا قوله تعالى: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[1] فإنَّ فاعل (يخصفان) و (طفقا) و (عليهما) هو آدم وحواء هكذا ينبغي لوحدة السياق، إلّا أنَّ المراد بالإسناد في (طفقا يخصفان) يعني الملكين مع آدم وحوّاء يخصفان على آدم وحواء.

رابعاً: الابتداء والانتهاء: ـ أيضاً من الأمور التي ينبغي على المُفَسِّر معرفتها هو أنَّه لابدَّ أنْ يعرف متى يبتدأ الحديث في القرآن عن موضوع معين ومتى ينتهي وإلّا إذا لمْ يعرف المُفَسِّر ابتداء الموضوع في الآية وأين انتهائه فإنَّه لمْ يكنْ عنده البحث التفسيري القرآني حول موضوع معين منتظماً ومتسلسلاً وإنْ كان في واقعه متسلسلٌ ومنتظم إلّا أنَّ المُفَسِّر لمْ يعرف ذلك النظام والتسلسل وبالطبع إذا لمْ يراجع المُفَسِّر البيانات العلمية الموجودة في روايات أهل البيت عليهم السلام فكيف يمكنه حينئذٍ أنَّ ينفرد بجهده المحدود، وهذا ينتهي إلى ما لا تحمد عقباه وينتج نتائج غير متوازنة وغير صحيحة.

خامساً: السؤال والجواب: من الواضح والبهديهي إنَّ السؤال له جوانب وقرائن إلّا أنَّ السؤال ليسَ مرتبطاً بصياغة السؤال وإنَّما مرتبط بصياغات أُخرى، وأنَّ هذا الكلام جواباً عن ذلك السؤال، وهذا معناه أنَّه هنا يوجد وصال لا انقطاع، وعليه فهذا نوع من الالتفات؛ لأنَّ السائل متكلم غير المجيب، والمجيب متكلم آخر غير السائل، والمُفَسِّر إذا لمْ يميز أنَّ هذا سؤال وذاك جواب أو ظن أنَّ المتكلم واحد، وهو وإنْ كان خطاباً واحداً إلّا أنَّ له خطابان خطاب السؤال وخطاب الجواب.

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٢٢.

وهناك نماذج وموارد تطبيقية لقاعدة الالتفات في القرآن الكريم بيَّنهما الإمام غير ما تقدم مثل المستثنى منه والجار والمجرور والصفة والمؤكد و المُفَسِّر والموصول من الألفاظ والمحمول على ما قبله وعلى ما بعده و ...الخ.

والرواية التي ذكرها أمير المؤمنين عليه السلام وكذا الإمام الصادق عليه السلام «... **ومقدم ومؤخر ومنقطع وموقوف ومنقطع غير موقوف، وحرفٌ مكان حرف ومنه آيات بعضها في سورة وتمامها في سورة أخرى**»[١].

سادساً: «منه آيات بعضها في سورة وتمام الآية في آية أو سورة أُخرى» وذلك بأنْ يحتمل المُفَسِّر أنَّ هذهِ الآية في هذهِ السورة وتمامها في آية أو سورة أُخرى فإنَّ بعض الآيات صدرها في آية أو سورة وتتمتها بآية أو سورة أُخرى، وللأسف هذا الباب لم يفتق بوسع في القرآن ولعلَّ أكثر المفسرين من الفريقين في غفلة عنه إلّا من ندر.

فمثلاً ما جاء في سورة الحشر ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣] فإنَّ مثل قوله تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ هو تتمة لآيات أُخر في سورة الدهر بحسب بيانات أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) البحار، ج٨٩.
(٢) سورة الحشر: الآية ٨.
(٣) سورة الحشر: الآية ٩.

وهكذا ما جاء في سورة الأحزاب في آية التطهير ﴿يَا نِسَاء النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ النِّسَاء إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلاَةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

هاتان الآيتان المباركتان يمكن أنْ يستفاد منها أكثر من مطلب:ـ

المطلب الأوّل: صلوحها شاهد على الالتفات وعلى المورد الذي نحن فيه من أنَّ صدر الآية في مجال وذيلها في مجال آخر ـ وهذا من بركات النقاش العلمي الذي حصلت منه يقظة والتفات إلى ما بينه أهل البيت عليهم السلام وذلك ببيان:ـ

الخطاب في الآية الأُولى موجّهٌ إلى النساء بقرينة نون الإناث في قوله تعالى ـ لستُنَّ، وقَرْن واطعنَ، وتبرجن، وآتين ـ ثم عدل القرآن خطابه إلى ـ ليذهب عنكم ـ فهنا المخاطّب أو المخاطِب تغير، وسواء تغيّرا كلياً أو جزئياً.

وهكذا انتقال الآية المباركة من التعبير [بيوتكن] إلى التعبير ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ فهناك عبّرت (بيوت) وهنا (بيت).

وعليه فمثل هذهِ الآيات المباركة لا مشكلة فيها إذْ وقعت محلاً للبحث العلمي والمجادلة فحصلت يقظة والتفات من قبل المفسرين إلى ما ذكره وبيّنه أهل البيت عليهم السلام.

وإنّما الكلام في الآيات الأُخرى التي لمْ تقع موضوعاً للبحث العلمي

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ٣٢ و ٣٣.

والمجادلة فإنَّ مثل هذهِ الآيات ينبغي الالتفات إليها وإعمال قاعدة ونظام الالتفات فيها بموارده المختلفة من التقديم والتأخير، والسرد والقصصي والابتداء والانتهاء و ... الخ.

المطلب الثاني: مفاد صدر الآية الأُولى عدم عصمة ازواج النبيﷺ عن الوقوع في الخطأ ولذلك حذرهُنَّ ونبهنن من ارتكاب الأخطاء من تبرج أو خروج من البيت أو إتيان الفاحشة وأنَّ من تأتِ الفاحشة منكن يضاعف لها العذاب ضعين.

المطلب الثالث: إنَّ صدر الآية الأُولى فيه تهديد وتفريع وإنذار وإرهاب ومحاسبة واشتُرط فيها الحذر من إمكانية صدور الذنب، ومفادها الالتزامي: ـ أنَّه لا عصمة لأزواج النبيﷺ إلّا بالتقوى، وأنهن: ـ لستن كأحد النساء ولكنْ مشروط: ـ أنَّ اتقيتن وبخلافه أي إنْ لمْ تتقين فانت كأحد وكسائر النساء والباقيات أي لا ميزة للزوجية التي تأخذ شرفُها من النبيﷺ.

المطلب الرابع: ذيل الآية الثانية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ فيه بيان للطهارة والعصمة الذاتية أي إنَّ الرَجس لا يذهبكم.

والفرق في التعبيرين (ليذهب الرجس عنكم) وبين (يُذهبكم) هو أنَّ الإذهاب بمعنى الإبعاد أي إبعاد التعليم القرآني فإنَّ الرجس لا يُبعدكم بمعنى أنتم لستم بمقبلين على الرجس كي يبعدكم الله عن الرجس وإنَّما الرجس يريد أنْ يقبل عليكم إلّا أنَّ الله تعالى يقيكم ويُبعده عنكم؛ لانكم معدن العصمة والطهارة وهذا دفعٌ ورفعٌ مجملٌ.

وأمَّا البيان المفصل فنقول: إنَّ الإبعاد بمعنى أنَّ الرجس يمكن أنْ يأتي إليكم وعليه فلا فرق ما بينكم وهؤلاء فإنكم لا تبعدون عن الرجس، بلْ تبعدون عن الطهارة والآية [ليذهب عنكم] فإنَّها مورد من موارد التقديم والتأخير كذلك (ليُذهب عنكم الرجس] والتقديم هنا يفيد الحصر كما في قوله تعالى في سورة يوسف عليه السلام: [ليصرف عنه السوء] بمعنى أنَّ الله تعالى يصرف السوء عن يوسف عليه السلام ولم يقل ليصرف يوسف عن السوء إذْ لو كان ليصرف يوسف عليه السلام عن السوء لكان معناه ـ والعياذ بالله ـ أنَّ يوسف مقبل على السوء، والحال جاء التعبير القرآني بالعكس، وإنَّما لصرف السوء وهو فعل زليخا عن يوسف عليه السلام لا أنَّه يصرف يوسف عن زليخا فإنَّ يوسف عليه السلام ليسَ بمقبل وإنَّما هي ـ زليخا ـ المقبلة بدليل ما ذكرته الآية المباركة ﴿قَالَتْ مَا جَزَاء مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوَءًا . . . وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الكَاذِبِينَ﴾[1] فالمقبلَ هي زليخا وليسَ يوسف النبي عليه السلام. ولذا عبَّرَ القرآن [لنصرف عنه السوء][2] وهذا إشارة لطهارة يوسف عليه السلام وعصمته الذاتية، بلْ وعصمته كحصانة وسياج وقائي، لم تلبسك الجاهلية من مدلهمات ثيابها باعتبار أنَّ يوسف عليه السلام ليسْت فيه جاهلية ولا مدلهمات ولم تنجسه الجاهلية بأنجاسها؛ لانه من معدن فطرة طاهرة.

فائدة: من باب الكلام يجر الكلام وإنْ لم يكن موضوع بحثنا وخروجاً عِن محل البحث ـ لكنْ ما دام تعرضنا في مبحث الالتفات للآية المباركة ﴿إِنَمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[3] وقع

---

(١) سورة يوسف: الآيتان: ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) سورة يوسف: الآية ٢٤.

(٣) سورة الأحزاب: الآية ٣٣.

الكلام بين المفسرين وأرباب العلم حول أمرين: ـ

الأوَّل: هل تدخل في بيت الرجل زوجاتُه أو لا؟

الثاني: ما المراد من البيت في الآية [... أهل البيت] وأي بيت هو؟

أمَّا جواب الشق الأوَّل: فقد أجاب الإمام الحسن المجتبى عليه السلام عن سؤال وجهه له معاوية أو أصحاب معاوية بمحضر معاوية[١] وهو أنَّه إذا كان أهل البيت أولهم النبي صلى الله عليه وآله فبيت مَن الذي أولهم النبي صلى الله عليه وآله، وإنَّ النبي صلى الله عليه وآله له أهل فبيت مَن هذا الذي النبي صلى الله عليه وآله أوَّل أهله؟

إذنْ هل يصدق على أهل بيت الرجل أنَّهم أهلُ بيته أو لا؟

والجواب: وإنْ كان عبدالله بن عباس رضي الله عنه أجاب بأنَّ زوجة الرجل لا تدخل في أهل بيته بقرينة أنَّ تلك الزوجة الحنون التي يعيش معها الزوج عمراً من الزمن ومع ذلك يطلقها وتعود أجنبية لا صلة لها بالرجل ولا ببيته ـ وإنْ كنّا لا نحتاج لمثل هذا الكلام وإنَّما نريد التعرف على أن لأهل البيت معنى آخر أو لا.

وأمَّا جواب الشق الثاني: ـ أعني ما المراد من البيت في الآية المباركة ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ـ أيضاً أجاب الإمام الحسن المجتبى عليه السلام من أنَّ المراد بالبيت هو المسجد النبوي فيكون التقدير: ـ [أهل بيت المسجد النبوي]، وأوّل أهله هو سيد الأنبياء مع الأربعة الطاهرين ـ عليٌّ عليه السلام وفاطمة عليها السلام والحسن عليه السلام والحسين عليه السلام ـ الخمسة أصحاب الكساء، فسدَّ النبي صلى الله عليه وآله جميع الأبواب التي كانت مفتوحة إلى داخل المسجد من باب

---

(١) راجع الاحتجاج للطبرسي.

العباس بن عبدالمطلب وباب الحمزة من عبدالمطلب وباب ... الخ إلّا باب عليعليه السلام حتّى قال العباس بن عبدالمطلب للنبيصلى الله عليه وآله لِمَ يا رسول الله سَدَدْتَ أبوابنا وأبقيت بابه ـ أي باب بيت عليعليه السلام ؟ فأجابه النبيصلى الله عليه وآله لم أفعله من تلقاء نفسي وإنّما بأمر من الله تعالى ولا يحلُّ ذلك إلّا لي وله ـ أي للنبيصلى الله عليه وآله ولعلي بن أبي طالبعليه السلام وذريتنا.

المراد من البيت هو بيت وعرصة النبيصلى الله عليه وآله وروضته من رياض الجنة أولهم الخاتم محمدصلى الله عليه وآله وبقية أصحاب الكساء والخيبري أي خيبري الملكوت وهم علي وفاطمة والحسن والحسينعليهم السلام.

ومحل الشاهد: لقاعدة الالتفات هو أنَّ الكثير من المفسرين التفت وانساق وحسب صرف التعرف (الـ) عوضاً عن الضمير في (بيته) إذْ لم يعبر القرآن [... أهل بيته] وإنّما عبَّرَ [... أهل البيت] فلو كان عبَّر [... أهل بيته] فإنَّ الضمير يعود على النبيصلى الله عليه وآله، بينما بلحاظ التعبير [... أهل البيت] وملاحظة سياق التعبير السابق [يا نساء النبي ...] قالوا بأنَّ الضمير يعود على النبيصلى الله عليه وآله بدليل ولحاظ وحدة السياق التي ذكرنا سابقاً أنَّ البيانات الواردة عن أئمة الهدىعليهم السلام حذَّرت من خطورة محذور وحدة السياق الذي أحد محاذيرها ما نحن فيه بأنَّ فهم المفسرون بالقرينة وحدة السياق من التعبير القرآني الصادر في صدر الآية وبين ذيلها فعدّوا الضمير لنكتة وحدة السياق على النبيصلى الله عليه وآله، ولكن الأمر ليسَ كذلك.

إذنْ ليسَ المراد من البيت هو أهل بيت النبيصلى الله عليه وآله حتّى تقول الزوجات داخله أو لا، وإنّما المراد من البيت هو روضة المسجد النبوي ذات الرفعة النورية المقدسة.

مثال آخر: لمورد أنَّ الآية بعضها في سورة وبعضها الآخر في نفس السورة أو سورة أُخرى ـ ما ورد في سورة الحشر ﴿مَا أَفَاءَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ . . .﴾(١).

وقوله تعالى في نفس سورة الحشر في آية أُخرى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

وقوله أيضاً في سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾(٣).

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلاَ تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاًّ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾(٤).

هذهِ الآيات الأربع من سورة الحشر كأنما تكلمت عن طوائف ثلاث وهم: ـ المهاجرون والأنصار والتابعون لهم بإحسانٍ نظير ما وَرَدَ في سورة التوبة ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾(٥).

بينما نشاهد في بيانات أهل البيت عليهم السلام: أنَّ المهاجرين والأنصار ليسَ

---

(١) سورة الحشر: الآية ٧.
(٢) سورة الحشر: الآية ٩.
(٣) سورة الحشر: الآية ٨.
(٤) سورة الحشر: الآية ١٠.
(٥) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

عنوانان متباينان بالضرورة، فإنَّه يد يكون شخص واحد مهاجرٌ وأنصاري عكس ما حَسِبَه كثير من المفسرين بأنَّ خطاب القرآن في هذا المقطع من الآية المباركة متعدد ومتنوع والحال أنَّه موحَّد وغير متعدد، وهذا ناشئ عن تخيل وحدة السياق في المقام وليسَ الأمر كذلك.

وتوضيح ذلك: أطلقت كلمة ـ المهاجرين والأنصار ـ في الآية وهي تدلُّ على الجمع والحال قدْ يكون المراد بها شخص واحد، نظير ما تقدم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾[1]. فإنَّ الخطاب الذي هو موجَّه لجمعٍ يُراد به شخصٌ واحد، وهكذا العكس قدْ يأتي لفظ مفرد ولكنْ يُراد به الجمع عكس ما عليه الشاكلة الصورية في الألفاظ، وعليه فلابدَّ أنْ يلتفت المُفَسِّر الكريم إلى عدم الاغترار والسير وراء صورة الخطاب؛ لأنَّ عدم الالتفات إلى تشعبات قاعدة الالتفات في القرآن الكريم فإنك سوف تنساق صورياً مع صورة الخطاب الذي يوقعك بهوّة وحدة السياق الذي حذَّر منه أهل البيت عليهم السلام.

واستعمال القرآن لقاعدة الالتفات في هذهِ الآية المباركة على خلاف الصورة والشاكلة الأولية في خطاب القرآن الذي تقدَّم.

والسِّرُّ في ذلك: إنَّ الخطاب متعدد والمخاطب واحد، و المُفَسِّر ـ إذا لمْ يكنْ ملتفتاً ـ وبحسب المخاطب أيضاً متعدداً والحال ليسَ كذلك وإنَّما المتعدد هو الخطاب دون المخاطب؛ لأنَّ معنى الهجرة والنصرة في القرآن الكريم غير المعنى الذي أسسته المدارس الإسلامية الأُخرى سواء مدرسة السقيفة أو مدرسة بني أمية أو بقية المدارس الإسلامية.

---

(١) سوة المائدة: الآية ٥٥.

الهجرة والنصرة في مدرسة أهل البيت عليهم السلام

معنى الهجرة والنصرة الذي بيّنته مدرسة أهل البيتﷺ مدرسة الوحي يختلف عن باقي المدارس الأُخرى التي تمسكت بظاهر سطح الألفاظ وبالقشور وتركوا اللبَّ كمدرسة السقيفة ومدرسة بني أمية و ... الخ.

فإنَّ معنى الهجرة في بيان القرآن الكريم ومدرسة أهل البيتﷺ بالتبع المتمثلة بأحاديث النبيﷺ والروايات الواردة عن أئمة أهل البيتﷺ هوعبارة عن: ـ العزوف عن البُعد عن أحكام الدين ومعارفه، والهجرة إلى بيئةٍ سلوكية أو بيئة ممارسية أو بيئة أعمال أو بيئة التزام، فإنَّ بيئة غير الملتزم إذا صار ملتزماً فإنهي قال له هاجر أي هجر ما كان عليه من الجاهلية برحاب التسليم والالتزام والتدين، ولذا دائماً القرآن الكريم يؤكِّد على المهاجرة إلى الله ورسوله.

وما جاء في احتجاج فاطمة الزهراءﷺ على أبي بكر وكذا عمر بن الخطاب في مسجد رسول اللهﷺ بعد وفاة رسول الله فيه بيان كاف وافٍ لمعنى الهجرة والنصرة.

فقدْ روي عن المفضّل بن عمر قال: ـ

قال مولاي جعفر الصادقﷺ لما ولي أبو بكر بن أبي قحافة ... ثم سر دﷺ منعه فاطمة وعلي وأهل بيته الخمس والفيء وفدكاً و ... فقالتﷺ: ـ إنَّ المهاجرين برسول الله وأهل بيت رسول الله هاجروا إلى دينه، والأنصار بالإيمان بالله ورسوله ولذي القربى أحسنوا فلا هجرة إلّا إلينا، ولا نصرة إلّا

لنا، ولا إتباع بإحسان إلّا بنا ومن ارتد عنا فإلى الجاهلية[١].

ما ذكرته الزهراء عليها السلام في خطبتها من قوله تعالى: ﴿مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾[٢].

بمعنى أنَّ ما أفاءه الله على رسوله صلى الله عليه وآله من الثروات العامّة فهو لنا وولايته بيد عليّ وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام.

فقال الخليفة الثاني: إذنْ ما المقصود من المهاجرين والأنصار في الآية: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللهِ وَرِضْوَاناً وَيَنصُرُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[٣].

وذكرت الزهراء عليها السلام ما مضمونه أنَّ المهاجر من هاجر إلينا لا من هجرنا، والأنصار من نصرنا ولم يكن عوناً علينا ... الخ.

إذنْ الهجرة التي بينها القرآن الكريم وأئمة أهل البيت عليهم السلام هي الهجرة إلى الله وإلى الرسول ولم يهاجر إلى امرأة جميلة يكتسبها أو مال يُصيبه أو ... فمثل هذهِ الهجرة ليست هجرة إلى الله وإلى رسوله.

ولذا كانت هناك نماذج هاجرت مع رسول الله من مكة إلى المدينة وتحملوا ما تحملوا من مصاعب الطريق وفراق الأهل والبلد و ... الخ

---

(١) الكشكول في ما جرى على آل الرسول ٢٠٣ ـ ٢٠٥؛ وبحار الأنوار ج٢٩ / ١٩٤ ح٤٠، نقلاً عنه.

(٢) سورة الحشر: الآية ٧.

(٣) سورة الحشر: الآية ٨ ـ ٩.

ولكن وللأسف لم تكن هجرتهم مبتنية على نوايا ومقاصد دنيوية بحتة كالحصول على المال أو المنصب الدنيوي أو الجاه أو السُمعة أو جارية يسترقها أو ... الخ فالهجرة التي يريدها الله ورسوله بأنْ يهجر الإنسان ما كان عليه من سلوك جاهلي ويهاجر إلى التقوى والورع وهذا ما نعبر عنه بالالتزام الديني، وإنْ لم يهاجر ببدنه جغرافياً وبقي في بيئته التي كان يعيش فيها إلّا أنَّه انتقل وهاجر بسلوكه وبعقائده ومعارفه من الضلال إلى هدى الهجرة كما هو الحال في الأخوة المستبصرين والذين استبصروا هدى الإيمان وتركوا ما كانوا عليه من ضلالة الانحراف العقائدي والفكري، وهذا بالتالي يصدق عليه أنَّه هاجر من الضلال إلى الهداية ولسنا الآن بصدد بيان أنَّه لا هجرة بعد الفتح اعتمادُ بعضٍ ربما على الحديث النبوي ويريد أنْ يبين أنَّ معنى الهجرة بعد الفتح لا يتحقق و ... إنَّما نريد أنْ نبيِّن أنَّ الهجرة لم تنقطع ولا نحبس الهجرة على ذلك المعنى الضيِّق وهو الهجرة بلحاظ الانتقال الجغرافي فقط، وإنَّما نريد أنْ نوضح معنى الهجرة وأنَّها ليست الهجرة فقط تلك التي هاجرها النبيﷺ من مكة إلى المدينة والانتقال الجغرافي واتساع حدود دولة الرسولﷺ الجغرافية واتساع رقعة حكومة النظام الإسلامي، وإنَّما الهجرة بمعنى أوسع من الانتقال بالبدن من مكان إلى آخر بما لها من معنى مضافاً إلى الانتقال الجغرافي بالبدن كذلك ترك العقائد الفاسدة والأفكار المنحرفة واتباع طريق الهداية وترك الضلالة، فهذا أيضاً نوع من الهجرة.

وهكذا مفهوم النصرة لله ولرسوله وأهل بيته فهي ليست خاصة بالأنصاري الذي كان يعيش ببقعة جغرافية محدودة كـ (يثرب)، ولذا قد يخسر الإنسان ويمزج من صلاحيات وامتيازات كان يتمتع بها بسبب اتباع

أهل الضلال والشرك والكفر فيحرم نفسه من ذلك الخير الوفير وتلك الهداية بسبب اختياره لهؤلاء الضالين.

وعلى أي حال: قال المفسرون أنَّ قوله تعالى: [من قبلهم] في الآية قيد [للذين تبؤوا الدار] وليسَ قيداً للإيمان، ومن الواضح أنَّ هذا خلاف نسق الترتيب للآية المباركة [يحبون من هاجر إليهم]، والحال ربما بعضهم يفسر [والذين تبؤوا الدار] بأنَّ هناك قبائل (تبوءوا الدار) أي حلّوا بها كقبيلة الأوس والخزرج والساعدة و ... الخ ، أو الآية تساعد على العكس بأنَّ الذي تبوَّء هو من انتقل مع النبيﷺ من مكة إلى يثرب لا بالضرورة أنْ يقال لمجموعة من القبائل اليمنية كالأوس والخزرج و ... أنها تبوءات الدار وانتقلت إلى يثرب.

وعليه فهذا تمحل وتكلف في عود الضمير في [من قبلهم] إلى أي فقرة من الفقرات السابقة من الآية أو السورة وهذا بخلاف ما إذا جعلنا هذا التعدد في العنوان المراد به تعدد في المخاطب بلْ المخاطب واحد.

ثم قالت الآية [يحبون من هاجر إليه] فإنَّ المهاجرين الأوائل يحبون ويحتظنون من هاجر إليهم فيما بعد، ولذا ورد في بيانات أهل البيت أنَّ الآية المباركة ﴿وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1]. أنَّها نزلت في علي بن أبي طالبعليه السلام وهوعليه السلام من قربى النبيﷺ، بينما لو تتبعنا سياق الخطاب نجد عود الضمير على المهاجرين والأنصار.

---

(١) سورة الحشر: الآية ٩.

بينما حسب قاعدة الالتفات والذي أحد ضوابطها: [تفريق المتسق والمتحد وتوحيد المختلف] فإنَّه يصبح الخطاب في الآية [للفقراء الذين هاجروا] هو أمير المؤمنينعليه السلام؛ لأنَّه أوَّل من هاجر إلى الرسولصلى الله عليه وآله وتابعه، وكذلك هو أوَّل من ناصرهصلى الله عليه وآله وهكذا الحال في باقي الآيات الأُخرى التي يظن أنها في عموم الصحابة مثل الآية [السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ...][1] فإنَّ السابق الأوَّل من المهاجرين هو علي بن أبي طالبعليه السلام، وسواء قلنا أنَّ حرف الجر في الآية [من] بمعنى أوّل من سبق وتجاوز المهاجرين والأنصار في السبق أو بمعنى (من البيانية) وهو بيان أنَّ علي بن أبي طالبعليه السلام مهاجريٌ وأنصاريٌ، كما كان يقول: عبدالله بن عباسٍ، فإنَّ هذهِ الآية المباركة تُناغم ما جاء في سورة الحشر من قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ﴾[2].

بتقريب: ـ إنَّ عليَّ بن أبي طالبعليه السلام هو السابق للإيمان وأنَّ كُلَّ من سبقه عليٌّعليه السلام بالإيمان فهو مأمور من رب العالمين أنَّ يُحبوا علياًعليه السلام ويوالوه ﴿وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[3].

والخلاصة: إنَّه يجب على كل من هاجر ونصر رسول اللهصلى الله عليه وآله بعد عليعليه السلام أنَّ يُحبِّ علياًعليه السلام ويواليه ويحرُم عليه أنْ يغل قلبه بالضغن والعداء لعلي بن أبي طالبعليه السلام؛ لأنَّ علياً أوَّل السابقين من المهاجرين والأنصار.

ولذا تعتبر هذهِ الآيات المباركة من آيات المودّة في القرآن الكريم

---

(١) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٢) سورة الحشر: الآية ١٠.

(٣) سورة الحشر: الآية ١٠.

لأهل البيت عليهم السلام ولأمير المؤمنين عليه السلام خاصة، وهكذا غيرها كقوله تعالى: ﴿لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾(١).

وعليه فيجب اتباع السابقين بالهجرة والنصرة بإحسان ومقام الإحسان لا يصل إليه إلّا الأئمة الاثنى عشر عليهم السلام للآية ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾(٢). والذين يتّبع النبي صلى الله عليه وآله وعليّ عليه السلام بإحسانٍ هم الأئمة الاثنا عشر فقط لأنّهم الوحيدون الذين يطبقون قواعد الاتباع بإحسان ولذا وَرَدَ في بيانات أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية المباركة [والذين اتبعوهم بإحسان] إنَّ أوَّل التابعين هو عليٌّ بن أبي طالب عليه السلام والذين اتبعوهم بإحسان هم الأئمة لأحد عشر بعد أمير المؤمنين عليه السلام والتابع لابدَّ وأنْ يكون بدرجة متابعة عالية وشيعة ولذا وَرَدَ عن الإمام الرضا عليه السلام: ـ شيعةُ عليّ: هم الحسن والحسين عليهما السلام والتسعة المعصومين من ذرية الحسين عليهم السلام فاتبعوا أمير المؤمنين عليه السلام ليسَ فقط متابعة في كُلّ صغيرة وكبيرة، وإنَّما مضافاً لذلك اتّبعوه بإحسان، ومقام الإحسان مقامٌ متميز إذْ لو استنطقنا القرآن من هم المحسنون لأجاب أنهم في درجة فوق درجة المصطفين وأهل اليقين، كما دلَّ على ذلك ما وَرَدَ في سورة يوسف عليه السلام ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾(٣).

بتقريب: أنَّ المحسِن معناه من وصل إلى درجة يؤتى علم لدُني وحكمة لدّنية.

---

(١) سورة الشورى: الآية ٢٣.

(٢) سورة التوبة: الآية ١٠٠.

(٣) سورة يوسف: الآية ٢٢.

وعليه فالإحسان من الإخلاص والإيثار والزُهد والعفو عن الناس، ودرجة الإحسان أعلى من درجة المتقين وأهل اليقين كما بيّن القرآن الكريم في موارد عديدة ملفّات المحسنين وعليه فالإحسان درجة لا يصل إليها كُلّ الصحابة.

وليسَ المقصود من التابعية في بيانات أهل البيت عليهم السلام في تفسير الآية [والذين اتبعوهم بإحسان] بيان التابعية الزمانية، وأنَّ من جاء من بعد أمير المؤمنين عليه السلام من الأئمة عليهم السلام هم متأخرون زماناً، كلاً، وإنَّما المراد من التابعية هي الرتبة والآن العقلية الإسلامية للمفسر وغيره يفسرون التابعين بـ ـ الجيل الثاني ـ في القضية الزمانية، إلّا أنَّ هذهِ عناوين مقلوبة في العقلية الإسلامية، بينما القرآن الكريم يُريد من هذا المُختلف يريد المؤتلف، وكثيراً ما هو مؤتلف يُراد منه متعدد، وهذا التلوّن والتنوع في الخطاب القرآني الذي قدْ يكون المخاطب متعدد ولعلّه المُفَسِّر يراهم متعددون إلّا أنهم متحدون بينما مُراد القرآن مخاطبون كثيرون أو بالعكس.

والخلاصة من كُلّ هذا هناك موارد تطبيقية أُخرى يأتي الكلام عنها في محلّها كمورد القضاء والقدر، والسرد القصصي القرآني وغيرهما.

والحاصل أنَّ المُفَسِّر إذا لمْ يكنْ ملتفتاً ومتنبهاً لمثل هكذا مطالب وموارد فهذا معناه أنَّه سوف يخفق في اصطياد مراد الآية المباركة ويبتعد عنه كُلّ البعد وهذا ما يؤكِّد عليه أهل البيت عليهم السلام من أنَّ أحد القواعد المهمة الأولية الضرورية لمعرفة القرآن الكريم هو عدم الانخداع بتخدير وحدة السياق الذي يعتبر من المخدرات المحرّمة على المُفَسِّر الذي قلَّما أو يكاد

ينعدم أنْ ينجو مفسر من الاستنشاق من هذهِ المخدرات المزروعة والتي انتشرت وللأسف علماً أنَّ روايات أهل البيت عليهم السلام أكَّدت على خطورة وحدة السياق ومردوده السلبي والخطير في الجانب المعرفي للمُفسِّر وغيره.

السرد القصصي القرآني

لعلَّ سائل يسأل ويقول لماذا سُبكت الآيات القرآنية بهذه الشاكلة؟ بعدما كان أكثرُ المفسرين يغفل عن متابعة مبحث الالتفات في القرآن ويتمسك ويبني على وحدة السياق في الآيات فضلاً عن الآية الواحدة والذي يعتبر هذا موطن الإخفاق في تفسير كلام الله كما بيَّن ذلك أهل البيت عليهم السلام وحذَّروا من مغبة عدم الالتفات إليه وتأثيره سلباً على المعنى.

الجواب: إنَّ سبك القرآن بهذه الشاكلة فيه حكمٌ ومغزى مُعيَّن وقواعد عظيمة منها التي تعتبر أحد الموارد التطبيقية لقاعدة الالتفات وهي:-

- السرد القصصي القرآني - فإنَّ القرآن الكريم وكذا الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام عندما تتعرض لسرد قصص الأنبياء بصورة عامة وأحوال أممهم لا يتعرض فيها عموماً إلى كُلّ صغيرة وكبيرة ودقائق شؤونهم الحياتية، وإنَّما يُتعرض فيها ويتم تركيز الأضواء ويقتصر على ذكر اللقطات المصيرية التي تشكل منعطفاً خطيراً وحساساً في مُسلسل حياة الأنبياء عليهم السلام ولهذا يفترق السرد القصصي في القرآن عن سرد التأريخ القصصي - وبينهما بون شاسع - فالقرآن الكريم حاشاه أنْ يكون كتاب تأريخي قصصي يدغدغ ويعيش مع المخيلة والحس الشاعري أو حبس الثمر والفكر في الإنسان كلا وإنَّما القرآن كتاب ذكر وتبيان لكل شيء كما مَرَّ . وما تعنيه كلمة الذكر والبيان فإنَّ أحد معانيها أنَّه كتاب تنمية وإنماء للإنساء ويتعرض فيه فقط إلى اللقطات الحساسة في التأريخ من تاريخ الأنبياء وأممهم، ولذا يتميز السرد القصصي في القرآن الذي هو من سرد الله

تعالى لا يُتعرض فيه إلى كُلّ حالات الفساد التي كانت تعيشها أمم الأنبياء وإنَّما يتعرض إلى ذكر المخاطر الخطيرة من أهل الفساد.

فمثلاً يذكر القرآن الكريم قصة يوسف وأخوته عليه السلام اللقطات المصيرية التي تشكل منعطفاً تأريخياً مهماً في حياة النبي يعقوب عليه السلام وولده يوسف عليه السلام وباقي أخوته وكذا باقي الأنبياء.

وهكذا عندما يتكلم القرآن الكريم ويقص لنا حياة بعض الفراعنة فإنَّه يقتصر على بيان بنود معينة بارزة لها أثر خطير على المجتمع.

فيتعرض الكاتب للقصة أو المخرج إلى متن القصة ثم هامشها وكذلك يتعرض إلى ما يُكترث به وما لا يكترث بغض النظر في بعض الأحيان إلى أنَّ تلك المعلومات مرتبة ومنظمة أو لا، ويحاول الكاتب أنْ يعيش في تصوير قصته التأريخية مع المخيلة والحس الشاعري و ... الخ ومع ذلك قدْ يصل في بعض الأحيان إلى نقل تقل الوقائع والاحداث بصورة واضحة وقدْ تكون في بعضها الآخر عليها ضبابية وهذا بخلاف ما يسرده إلينا القرآن الكريم من قصص كما بيَّنا ذلك قبل قليل.

الخلاصة: بعد هذهِ المقارنة نجد أنَّ السرد القصصي القرآني يواكب جميع الأزمنة السابقة والحاضرة والمستقبلية، ولاحظنا كيف القرآن ينقلك في آية واحدة إلى عدَّة مشاهد وأحداث، نظير الإخراج الفني لقصة تأريخية فنلاحظ الإخراج القديم يحاول الإسهاب في ذكر المعلومات لأجل أنْ يوصل فكرة القصة بعدّة مشاهد ومقاطع، بخلاف الإخراج الفني الحديث فإنَّه يختصر كُلّ ذلك بخبر فني واحد مُركَّز مضغوط وهذا ما يُسمى بثورة إنفجار المعلومات وحضارة المعلومات وإذا انفجرت المعلومات

عند البشر فإنَّهم لا يأتون بكل صغيرة وكبيرة، بلْ يأتون بعمدة المعلومات وإيصالها بطرق علميّة فنية حديثة معاصرة في التعامل مع الحاسبة الالكترونية والانترنيت والفيس بوك وما علَّم الإنسان ما لمْ يعلم.

ومن الواضح أنَّ هذا الكلام مرتبط بالمنهج المختار عندنا وهو منهج أمومة المحكمات، وهذا يعني وجود معلومات محوريّة مركزية تدور عليها سائر المعلومات الأُخرى، وهي عمدتها فإنَّها لا تكترث بنقل كُلّ ما هبَّ ودبَّ من المعلومات.

فائدة: لو لاحظنا في زماننا الحاضر بلْ حتَّى السابق أنَّ ثورة العلم والمعلومات على مختلف الأصعدة لوجدنا في كُلّ علم ما يسمى بعلم نظم المعلومات؛ لأنَّ كُلّ من العلماء عندهم العلم إلّا أنهم لا يمتلكون قدرة نظم العلم لتلك المعلومات؛ لذا تراهم لا يستطيعون استثمار ذلك العلم وتلك المعلومات التي عندهم ولكن متى بإمكانهم وباستطاعتهم أنْ يستثمروا تلك المعلومات وذلك العلم؟ ذلك عندما يُكفكفوا ويوظفوا تلك المعلومات في سلك نظم المعلومات وهذا بالتالي يقودهم إلى الاقتصار على أمهات الحقائق والمعلومات التي لها دور هيمني ومصيري في أي علم من العلوم سواء في علم الاقتصاد أو الزراعة أو السياسة أو الكيمياء أو الفيزياء أو الاجتماع أو علم النفس أو ... الخ.

وبالتالي لابدَّ من وجود علم آخر ناظم لتلك المعلومات في أي علم من العلوم حتَّى يستثمر بالصورة الصحيحة وتترتب عليه الآثار والنتائج الصحيحة المثمرة.

وبالتالي نلاحظ كيف تتطابق هذهِ القاعدة اللفظية ـ قاعدة الالتفات ـ

مع روح منهج أمومة الولاية على المحكمات في القرآن أمومة مركزية بأنَّ يقتصر على المعلومات المركزية دون المعلومات والأحداث الهامشية انطلاقاً من قصار كلماتهم عليهم السلام [خير الكلام ما قل ودلَّ] أي ما دلَّ من البلاغة في بلوغ الغاية في عبارة أقصر.

الجري والتطبيق

وإنْ كنا ستعرض لضابط الجري والتطبيق مفصَّلاً في النظام الثاني ـ نظام المعاني ـ إنْ شاء الله تعالى إلّا أنَّ هذهِ الضابطة التي نحن بصددها أحد الموارد التطبيقية لقاعدة الالتفات والذي تعامل بها مفسري الخاصة منهم السيد العلامة محمد حسين الطباطبائيﷺ في الميزان فضلاً عن غيره فضلاً عن مفسر العامة كذلك تعاملوا مع النصوص الواردة عن أهل البيتعليهم السلام أي التفسير بالمأثور من باب الجري والتطبيق.

ضابط الجري والتطبيق:

هو تسرية الأحكام التي دلَّت عليها الآيات القرآنية وكذا النصوص النبوية والولوية الصادرة عن أئمة أهل البيتعليهم السلام إلى غير زمن نزول الآية أو صدور الرواية فتطبَّق في غير زمانها ومكانها إذا كان المورد يحمل الخصوصيات المناسبة لذلك . وسواء كانت الأحكام شرعيّة أو لا.

فمثلاً: تحريم القرآن للخمر والسرقة والزنى والكذب و... أو تحذير القرآن من المنافقين فإنَّ هذهِ المحرمات بلْ وحتَّى الواجبات وباقي الأحكام لمْ تكن مختصة بزمان النزول المعاصرة للنبي الأكرمﷺ وهكذا الروايات في زمان الأئمةعليهم السلام؛ لأنَّه من الواضح أنَّ القرآن الكريم وكذا السنة النبوية الشريفة هما مصدران من مصادر هداية البشر، وليسَا مختصين بزمان نزول الآية إذا كان المنزل فيه سواء فرد أو مجتمع أو معالجة لحالة عامة أو خاصة متوفرة فيه خصوصيات معينة بلْ يمكن أنْ يجري تطبيقها

في زمان ومكان آخرَين إذا كانت الخصائص التي نزلت الآية فيها متوفرة، فيتنقح المناط، وإلغاء الخصوصية يمكن التعدي من زمان النص والمعاصرة والمشافهة إلى غيره إذا كان يحمل نفس المواصفات والخصوصيات.

ومن الطبيعي هذا التطبيق لا يتمُّ لمن هبّ ودبَّ وإنَّما لمن كان يتمتع بخصوصيات معينة وقابلية الإحاطة بمعاني مفردات القرآن ومدى إحاطته بالقواعد والموازين والضوابط البلاغية والنحوية والتفسيرية و ... الخ.

إذنْ معالجات القرآن للأحداث وتصويره للوقائع أو توصيفه لبعض الحالات الاجتماعية التي كانت سائدة سواء على مستوى الفرد والأسرة أو على مستوى المجتمع سواء كان المجتمع صغيراً أم كبيرة، لمْ تكن معالجات القرآن مختصة بذلك الزمان بلْ تتعدى إلى كُلّ زمان ومكان بشرط توفر الخصوصيات التي تعالجها الآية الكريمة.

الآيات والروايات لا يقتصر فيها على الجانب التطبيقي فقط

الآيات القرآنية وكذا الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام لم تكن ناظرة إلى الجانب التطبيقي ومعالجته فحسب وإنَّما تعالج كذلك الصعيد النظري في الدرجة الأُولى من قَبْل لا أنَّه تقتصر المعالجة على الجانب التطبيقي العملي فحسب في مورد خاص ومحدود والذي ينتهي بانتهاء زمنه وأمده، وهذا معناه أنَّ التفسير بالمأثور انتهى أمده ؛ لأنَّه تطبيق خاص، وهذا بالتالي إجحافٌ بالفائدة العلمية من التراث التفسيري بالمأثور عن النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام، كيف والقرآن يقول ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾[1].

إذْ لا يعقل أنَّ فائدة القرآن تكون مختصرة على بيان الأحكام ومعالجة بعض الحالات في زمان معين ومكان خاص وما هذا إلّا إماتة للقرآن، ثم أنَّ النبي صلى الله عليه وآله يبين موارد معينة لتطبيقات خاصة؟ فإنَّه لا يعقل ذلك وأنَّ التفسير المأثور ينتهي بانتهاء أمده ومناسبته فإنَّه يتنافى مع ثوابت القرآن التي أكّد عليها بأنَّها كانت ولا تزال وستبقى إلى يوم القيامة لا أنها محدودة بزمن معين.

إذنْ ما ارتكبه وتعاطاه مفسري المسلمين من الفريقين مع الآيات القرآنية وأحاديث النبي صلى الله عليه وآله وروايات أهل البيت عليهم السلام من الضيق العملي وأنه فقط حجية تعبدية تأويلية مقطعيّة وأنَّها تُبيِّن مصداق تأويلي خفي

---

(١) سورة النحل: الآية ٤٤.

وكأنما تقتصر على بيان هذا الفرد فقط فإنَّه ليسَ بصحيح فمثلما أكَّدت الروايات والأحاديث على الجانب العملي كذلك أكَّدت على الجانب النظري، لا التركيز على أحدهما دون الآخر وإنَّما أكَّدت عليهما بصورة متوازنة.

ومن خلال هذا كُلَّهُ يُعلم أنَّ قاعدة التعريض والالتفات تفتح لنا طريقاً لتصحيح الكثير من القواعد التفسيرية، وهذا يدلِّل على أنَّ قاعدة الالتفات قاعدة في أصلها الأصيل لغوية وبلاغية مُعترف بها، إلّا أنَّ التفطن في مراعاتها في موارد عديدة من الموارد الصعبة التي عادة يُغفل منها إنْ لمْ نقل بالمرة، لذا نلاحظ البيانات الواردة في روايات أهل البيت عليهم السلام لا ينطلقون في هذا الأمر من أمور تعبدية بلْ من أمور بينة موجودة في حاق العلم اللغوي وفي أدب اللغة العربية ومراعاة هذهِ الدلائل والقواعد ليسَ في قدرة المفسرين بلْ هو في قدرة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته، ومن ثم يسهل عند غيرهم بالتعليم ببيناتهم وبياناتهم، وبالتالي نخلص إلى هذهِ النتيجة.

أولاً: إنَّ قاعدة الالتفات تعطي لنا منظاراً آخر للتفسير بالمأثور بأنَّه ليسَ جريٌ وتطبيق بالمعنى الذي يذكره المفسرون لنا، وإنَّما هو تفسير بالمأثور في صدد معالجة البيان التنظيري على الصعيد النظري للآيات لا على الصعيد التطبيقي العملي المحدود فحسب.

ثانياً: إنَّ التفسير بالمأثور في صدد إبراز وإظهار بيانات وبراهين موجودة في نفس ألفاظ القرآن الكريم إلّا أنَّها خفيت على الآخرين.

ثالثاً: بحث الجري والتطبيق في قاعدة الالتفات ليسَ تعاطياً ظنياً تعبدياً، وإنَّما تعاطياً علميّاً إيقانياً وإنْ كان هذا اليقين بطن وخفي على

الآخرين إلّا أنَّه ليسَ ظني ولا تعبدي.

وحينئذٍ يكون هذا البحث استثماراً لجواهر علمية عظيمة في ظاهر ألفاظ القرآن الكريم وفي البيانات الروائية المأثورة عن النبيﷺ وأهل بيته المعصومين الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

مدرك مورد الجري . والتطبيق:

هناك جملة من النصوص الواردة في المجاميع الحديثية لا أقل من طرقنا يمكن أنْ تكون هي المدرك لقادة الجري والتطبيق وإليك بعضها: ـ

أولاً: ما رواه العياشي بسنده عن الفضيل بن يسار قال: سألتُ أبا جعفرعليه السلام عن هذهِ الرواية: ـ ما في القرآن آية إلّا ولها ظهرٌ وبطن، وما فيه حرفٌ إلّا وله حدٌّ، ولكل حدٍّ مُطَّلع[1] ما يعني بقوله: لها ظهرٌ وبطنٌ؟

قال: ظهْره وبطنه تأويلُه، منه ما مضى، ومنه ما لمْ يكنْ بَعْدُ يجري كما تجري الشمس والقمر، كلما جاء منه شيء وقع قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ نحن نعلمه[2].

ثانياً: ما رواه العياشي أيضاً بسنده عن عبدالرحيم القصير قال: كنتُ يوماً من الأيام عند أبي جعفرعليه السلام فقال: يا عبدالرحيم قلت: لبّيك، قال: قول الله ﴿إِنَمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَاد﴾ إذْ قال رسولُ اللهﷺ **«أنا المنذر وعلي الهادي»** فمن الهادي اليوم؟ قالَ: فسكت طويلاً، ثم رفعتُ رأسي، فقلت

---

(١) قيل في معناه: أي لكل حدٍّ مَصْعَدٌ يُصْعَدُ إليه من معرفة علمه، والمُطّلَع: مكان الاطلاع من موضع عالٍ.

(٢) تفسير العياشي، ج١ ص٨٦، ٣٦/ ٥.

جعلتُ فداك هي فيكم توارَثونها رَجُلٌ فرجل حتّى انتهت إليك، فأنت جُعْلتُ فداك الهادي، قال: صدقت يا عبدالرحيم، إنَّ القرآن حيٌّ لا يموت، ولاآية حيّة لا تموت، والآية حيّة لا تموت، فلو كانت الآية إذا نزلت في الأقوام ماتوا فمات القرآن ولكن هي جارية في الباقين كما جرت في الماضين[1].

ثالثاً: ... عن أبي بصير قال: قلت لأبي عبدالله عليه السلام: ـ إنّما أنت منذر ولكل قوم هاد، فقال رسول الله صلى الله عليه وآله المنذر، وعلي عليه السلام الهادي يا أبا محمد هل مِن هادٍ اليوم؟ قلتُ بلى جعلت فداك ما زال منكم هادٍ من بعدها حتّى دُفِعت إليك، فقال: رحمك الله يا أبا محمد لو كانت إذا نزلت آية على رجل ثم مات ذلك الرجل ماتت الآية مات الكتاب والسنة، ولكنّه حيٌّ يجري فيمن بقي كما جرى فيمن مضى[2] إلى غير ذلك من الروايات.

---

(١) تفسير العياشي، ج٢، ص٣٧٩.
(٢) بحار الأنوار، ج٢، ص٢٧٩ كتاب العلم ح٤٣.

وحدة السياق وما يترتب عليها من آثار سلبية

اتّباع وحدة السياق في التفسير خاصة وغيره له دواعي سلبية تؤثر على صحة المعنى وتُفسده في أكثر الأحيان وهذا الداعي الخطير أكَّدت الروايات على عدم اتباعه والابتعاد عنه كما تقدم.

وسوف نذكر بعض الأمثلةعلى ذلك:

المثال الأوَّل: ما جاء في سورة عبس ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّى أَن جَاءَهُ الأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى﴾[1] فمن سلبيات التمسُّك بوحدة السياق هو أنَّ كثيراً من المفسرين حتّى من مفسري الخاصة، حَسِبوا أنَّ وحدة السياق في الضمائر والأوصاف واحدة والحال أنها متعددة وليست جملة واحدة، فإنَّ عَبَس أي بَسَرَ من هو فاعلها ومَن هو فاعل تولّى؟

والخطاب موجّه إلى النبيﷺ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ وأنَّ هذهِ التصرفات التي تصرفها هذا الرجل من بني أمية الذي كان جالساً إلى جنب النبيﷺ ليست تصرفات موافقة للخُلُق الإسلامي بلْ مخالفة له.

ثم تعرضت الآيات التالية إلى بيان كيفية تحمل مسؤولية التبليغ ﴿وَمَا عَلَيْكَ أَلاَّ يَزَّكَّى﴾ بأنْ لا تنظر إلى الأغنياء وإنَّما انظر إلى مَن كان صادقاً وجاداً ـ ولو كان فقيراً ـ في الدخول إلى الإسلام وإرشاد وهداية السماء له.

إذنْ هذهِ الآيات المباركة الخطاب فيها موجّه للنبي الأكرمﷺ لبيان

---

(١) سورة عبس: ١ ـ ٣.

كيفيّة التبليغ ورعاية السماء للبشر.

بينما وحدة السياق والأثر السلبي المترتب عليها تقول: بأنَّ الضمير واحِدٌ في الآيات الثلاث وغيرها في سورة عبس، مما أدّى إلى التباس الأمر على الكثير من المفسرين حتّى من مفسري الخاصة، وهذا يؤثر سلباً على معنى الآية.

ثم قوله تعالى: ﴿فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ﴾[1] فالضمير هنا يرجع إلى رجل آخر غير النبيﷺ مما أدّى ذلك إلى وقوع المُفَسِّر في اللَبْس والحيرة بأنّه كيف تارة يَسْند القرآنُ الكريم الضمير إلى النبيﷺ ثم يُعاوِّد ويُسنِد الضمير المذكر المفرد إلى رجل من بني أميّة وعليه فبسبب وحدة السياق وقع هذا التشابك في الإسناد للأفعال التي تارة يسند فيها الضمير إلى النبيﷺ وأُخرى إلى غيره، فيشتبه علينا الحل فما هو الجواب؟

الجواب: لحلٍّ مثل هكذا مشكلة يُرْجَع إلى قاعدة ونظام الالتفات، فإنَّ الأفعال التي هي جملة إنشائية فإنَّ الإسناد للضمائر فيها يكون للنبي الأكرمﷺ وأمّا الأفعال التي فيها إخبار عن فعل ماضي حصل إسناده إلى ضمير فاعل رجلٌ من بني أمية، وببركة قاعدة الالتفات انحلت المشكلة، وهذا هو أسلوب القرآن الكريم.

واتفاقاً الآن حتّى في ثقافة اللغة الحوارية للبشر حتّى في غير اللغة العربية بدأت الآن تستخدم نفس هذا الأسلوب والرشاقة التي استخدمها القرآن الكريم في تفنن الحوار بأنْ يحاور هذا الطرف ثم يحاور الطرف

---

(١) سورة عبس: ١٠.

الآخر ثم الثالث ثم الرابع وهكذا، ومرجع هذا كُلَّهُ إلى التفنن في الحوار.

هذهِ هي طبيعة الحوار القرآني أمَّا أنَّه يسترسل ويجعل سياقات القرآن كلّها في سياق واحد في الآية الواحدة أو في الآيات فهذا هو الإخفاق بعينه الذي نبَّه وحَذَّر منه أئمة أهل البيتعليهم السلام، وإخفاق المفسرين بسبب أنَّهم يحسبون السياقات المختلفة هي بمثابة السياق الواحد، ووحدة السياق هي أكبر آفةٍ وعاهةٍ وتُشكِل مانعاً من الوصول إلى حقائق القرآن الكريم.

المثال الثاني: ما وَرَدَ في سورة النبأ ﴿عَمَّ يَتَسَاءلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ ثُمَّ كَلاَّ سَيَعْلَمُونَ...﴾[1] فإنَّ كثيراً من المفسرين استشهد بهذهِ الآيات المباركة على أنَّ المراد منها هو وصف يوم القيامة بقرينة وحدة السياق مع الآيات الأُخرى من سورة النبأ كقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا، يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ...إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا، لِلطَّاغِينَ مَآبًا، لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَابًا ...﴾[2].

والحال ليسَ كذلك، فما وَرَدَ في روايات أهل البيتعليهم السلام وببركة قاعدة الالتفات ونكتة أنَّ المراد من النبأ العظيم هو يوم القيامة وإرادة الإمام الذي نصَّبه الله تعالى إماماً ليُداري به عباده، ألا وهو أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام، مضافاً إلى وجود التحام وثيق بين مقام الإمامة ومقام الحساب والمعاد؛ لأنَّ أحد تجلي شؤون الإمام في المعاد كما أجاب عن ذلك الإمام الباقرعليه السلام عندما سُئِل عن أدنى درجة لمعرفة الإمام أمير المؤمنين علي ابن أبي طالبعليه السلام هو أنَّ الفرق أنَّ الإمامعليه السلام صاحب أمور

---

(١) سورة النبأ: الآية ١ ـ ٥.

(٢) سورة النبأ: الآية ١٧ ـ ٢٣.

ثلاثة: ـ

١ ـ أنَّه مفروض الطاعة.

٢ ـ صاحب الكرات.

٣ ـ وأنَّه يُزوِّد أهل الجنان[١] ومن خلال هذا الفرق إنَّ أكبر دور للإمام عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله هو أنَّ يزوِّد أهل الجنان يعني الولاية التي يحبيها الله تعالى لأمير المؤمنين عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله.

وعلى أي حال هذهِ بعض الشواهد في الآية المباركة والسورة ولم يستظهرها حتّى السيد الطباطبائي قدس سره في تفسيره الميزان فإنَّه لم يُعمل النظر حقه حينئذٍ، وهناك شواهد وسياقات أُخرى يأتي ذكر بعضها في محله.

ولذا مع الأسف أنَّ المفسرين حتّى من الخاصة تَقُلُّ جهودهم وعنايتهم ببيانات أهل البيت العلميّة في ذيل الآيات، كل ذلك بسبب عدم التفاتهم لقاعدة الالتفات وعدم تنبههم إلى أنَّ وحدة السياق ليست صحيحة، وأنَّ التمسُّك بوحدة السياق يُخطِّئ الروايات معنى ومفهوماً، وهذا ما أكَّده الإمام الباقر عليه السلام عندما سأله جابر عن شيء في تفسير القرآن فأجابه ثم سأله ثانية فأجابه بجواب آخر فقال جابر للإمام: ـ جعلتُ فداك كُنتَ أجبتَ في هذهِ المسألة بجواب آخر غير هذا قبل اليوم؟

فقال عليه السلام لي: يا جابر إنَّ للقرآن بطناً، وللبطن بطن وظهر، وللظهر ظهرٌ يا جابر، وليسَ شيءٌ أبعدُ من عقول الرجال من تفسير القرآن، إنَّ

---

(١) المصدر وصاحب الكرات أي دوره في عالم الدين ودوره في عالم الآخرة ودوره في عالم الرجعة.

الآية ليكون أوّلها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل يتصرف على وجوه[١].

فمثلاً ما وَرَدَ في قضية النبي داود وسليمان في سورة الأنبياء ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[٢].

هذهِ الآية المباركة من الآيات التي فيها أساس معرفي عظيم ألا وهو أنَّ القرآن الكريم بَيَّنَ أنَّ موارد ترك الأولى عند الأنبياء ليسَ يعني إنَّ ما ارتكبوه ليسَ بحق ـ أي باطل ـ كلا وحاشا أنبياء الله تعالى من ذلك وإنَّما الآية في مقام توضيح أنَّ موارد العتاب الإلهي للأنبياء وأنَّه لِمَ ارتكبتَ هذا ولو ارتكبت هذا لكان أفضل وأولى ولا يفهم من هذا أنَّ ما ارتكبه أي نبي من الأنبياء باطل ومعصية كلا ليسَ هذا هو المراد وإنَّما ما أتى به أنبياء الله حق ولكنَّ الله تعالى يعاتبه على ما هو أحق مما أتى به، فمثلاً ما ذكرته الآية المباركة ﴿وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ ليسَ معناه أنَّ حكم النبي داود عليه السلام كان باطلاً، ولكن عتاب لما كان هو أحق، وهذا أساس معرفي عظيم.

---

(١) المحاسن، ص٣٠٠/ح٥؛ بحار الأنوار، ج٩٥:٩٢/ ٤٨؛ تفسير العياشي، ج١، ص٨٧، ٣٩/ ٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٨.

النسبية في القرآن وعند الحداثويين

والنسبية التي يطرحها القرآن الكريم ليست نسبيّة تشكيكية كما هو شأن النسبيّة التي يطرحها الحداثويون، فإنّ النسبية التي تطرحها مدرسة الألسنيات والحداثويون نسبية تشكيكية لكنَّ نسبية تشكيكية بين حقيقة وبين حقية مخلوطة وبالتالي الأمر مخلوط وباطل عندهم.

بخلاف النسبية التي يطرحها القرآن الكريم فإنّها نسبية درجات منها حق ومنها باطل، بلْ حتماً في الحق درجات، وليسَ معنى الحق في درجات أنَّ هناك حقاً باطلٌ، كلا وإنَّما هناك حق وأحق وحقاً وما فوقه حقٌّ وهذهِ نسبية بديعة تجنب الإنسان الإفراط والحدّية وتعطي الإنسان سعة صدر المعرفة، فالآية الكريم ﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ﴾[1] فالآية ليست في صدد بيان أنَّ كلاً من داودعليه السلام وسليمانعليه السلام لم يَبُتا في الحكم، ولا في صدد أنَّ حَكَم أحدهما أو كلاهما ثم خطأه الله، فإنَّ داود لم يحكم كي يُخطّأ فنَزَل نَسخٌ عليه بحكم سليمان.

فمثل هكذا التفاتة موجودة في روايات أهل البيتعليهم السلام .

ثم قالت الآية ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ﴾[2] ولم تقل [وكنا لحكمهما شاهدين] فإنَّ الحكم الذي حُكَم به ليسَ الحاكم نبي الله داوود أو سليمانعليه السلام وإنَّما الذي حَكم هنا هم علماء اليهود الذين كانوا مع النبي

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٧٨.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٧٨.

داوود وسليمان وتسرع علماء اليهود في الحكم فحكموا فقطعوا لا أنَّ النبي داوودعليه السلام أو سليمان حكم فقطع.

ولم أرَ مثل هذهِ الالتفاتة حتّى في كتب المتقدمين من مفسري الخاصة أمثال تفسير مجمع البيان للطبرسي ولا تفسير التبيان للشيخ الطوسي، بلْ حتّى في كتب التفسير عند المتأخرين أمثال السيد محمد حسين الطباطبائيقدس سره في الميزان.

إذنْ الآية المباركة لو قُرأت في سياق واحد فإنك سوف تغفل ولا تلفتت إلى المراد الأصلي منها.

ولو رجعنا إلى بيانات وروايات أهل البيتعليهم السلام فإنا نجدها تقول: ـ إنَّ هذا هو ديدن القرآن كُلّهُ إلّا ما استُثني فإنَّ الخطاب القرآني دائماً في حركة مستمرة وعجيبة مع وجود نقطة مركزية ثابتة فيه.

والخلاصة: إنَّ المُفَسِّر إذا استطاع أنْ يلتفت إلى الخطاب القرآني وإلى هذهِ النكات فإنَّه سيصل باسترشاد وتعليم من البيانات العلمية لأئمة أهل البيتعليهم السلام وإلّا فإنَّ الإنسان دائماً يصبح في حالة إخفاق من دون الرعاية التعليمية من المعصومعليه السلام المستمدَّة من الفيض الإلهي.

المثال الثالث: ما جاء في سورة الشعراء: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنبٌ فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ﴾[1].

لاحِظ لطافة الحوار الوحياني بين الله تعالى ونبيه موسىعليه السلام وكيفية

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٠ ـ ١٤.

تبدل الخطاب القرآني بشكل خفي غير مُلْتَفَتٍ إليه بالمرة، وهنا تكمن الصعوبة أي صعوبة تلوّن وتنوع وتغير الخطاب القرآني بشكل لمْ يكنْ محسوساً، فالمفروض وبحسب وحدة السياق يكون الخطاب موجهاً إلى موسى عليه السلام، إلّا أنَّه بالواقع موجهاً إلى كليهما موسى وهارون عليهما السلام، لما صارحت به الآية المباركة ﴿قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾[1]. فإنَّ الفعل (اذهبا) أسند إلى ضمير التثنية، هذا معناه أنَّ المخاطب موسى وهارون، وهذا الإسناد في (معكم) إلى ضمير الجمع، فانتقل الخطاب من ضمير التثنية إلى ضمير الجمع فدخل مع موسى وهارون المؤمنون التابعون للنبي موسى وهارون من بني إسرائيل، إذنْ إلى هنا توجد ثلاثة خطابات:

١ ـ [كلا) بقوله تعالى: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

٢ ـ [فاذهبا] بقوله تعالى: ﴿فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا . . . ﴾.

٣ـ ﴿إِنَّا مَعَكُم﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ﴾.

ثم أبدل الخطاب بعد أنْ وجّه إلى المجموع إلى التثنية ـ إلى موسى وهارون ـ ﴿فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[2].

ومن هنا عرفنا أنَّ أطراف الخطاب متبدلة دائماً وليست ثابة، فلو بنى المُفَسِّر على أنها ثابتة لأخطأ في التفسير، فنلاحظ كيف تتبدل أطراف الخطاب، فتارة طرف المتكلم هو الله تعالى والمخاطب موسى وهارون وأتباعهما، وأُخرى بالعكس المتكلم هو موسى وهارون عليه السلام والمخاطب هم

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٥.

(٢) سورة الشعراء: الآية ١٦.

القوم، وثالثة المتكلم هو فرعون والمخاطب موسى وهارون، وهكذا يتنوع الخطاب القرآني ويتغير بتعبه المعنى المترتب على ذلك بلحاظ تغير الإسناد.

ثم قالت الآية ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾(١).

فالمتكلم هنا صار فرعون وليسَ الله تعالى والمخاطَب موسى عليه السلام ثم تحوَّل الخطاب إلى أنَّ المتكلم موسى والمخاطب فرعون ﴿قَالَ فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾(٢).

ثم فجأة تبدل الخطاب بين موسى وهارون، فهنا لو تابعنا وحدة السياق فإنَّها قدْ تخادِع المُفَسِّر؛ لأنَّها قالت ﴿قَالَ لِلْمَلَإِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾(٣) وفاعل (قال) هنا فرعون أي قال فرعون للملأ حوله ﴿يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾(٤)، وهنا انتقل الخطاب القرآني إلى جهة رابعة ـ غير الله وغير موسى وهارون، وغير المؤمنين برسالة موسى وهارون ـ وهم السحرة ﴿فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾(٥).

ولعله ينقدح في ذهنك تساؤلٌ وهو: إنَّ السحرة كيف آمنوا برب العالمين ربِّ موسى وهارون، وكيف تَعرَّفَ السحرة على مضمون دعوى موسى وعليه فلابدَّ من وجود مشهد مطوي طواه القرآن.

---

(١) سورة الشعراء: الآية ١٨ ـ ١٩.
(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٠ ـ ٢١.
(٣) سورة الشعراء: الآية ٣٤.
(٤) سورة الشعراء: الآية ٣٥.
(٥) سورة الشعراء: الآية ٣٨.

الجواب: إنَّ السرد القصصي القرآن قطعاً لابدَّ أنْ يكون فيه حذف وطوي لمطالب كثيرة حتَّى لو كانت تلك المطالب المطوية مهمة، ويأتي القرآن ويستعرض المنعطفات الواضحة والمهمة في حياة الأنبياء وأممهم، ومن الواضح أنَّه توجد دلالة التزامية تدل على أنَّ هناك أمور مطوية كثيرة حذفها القرآن واستعرض الأهم منها فالأهم؛ لأنَّه كما ذكرنا قبل قليل إنَّ طبيعة السرد القصصي في القرآن لا يستوعب كُلّ الزوايا لأنَّ هذا يحتاج إلى سعة الآلاف من المجلدات.

لذا ركَّز موسى عليه السلام على بيان مفاصل مهمة فَهِم منها السحرة تلك الدعوة التي جاء بها موسى من قبيل قوله تعالى: ﴿فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾[1] وقوله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾[2].

وهناك أمثلة كثيرة في هذا المجال أعرضنا عن ذكرها خوف الإطالة.

الخلاصة: إنَّ الكلام كان في قاعدة الالتفات في النظام الاستعمالي اللفظي فإنَّه رغم سهولته في النظرة الأولية إلّا أنَّها بالغة الخطورة إلى حدٍّ مترامي جداً والسبب في ذلك واضح:ـ

وهو أننا نريد أنْ نستلهم من أي جملة لفظية نتعاطاها في القرآن الكريم مفادها الأولي من كونها مبتدأ أو خبر، أوجملة فعلية أو أسمية، وما هي أطراف الإسناد وهل هي مفردة أم مركبة، مضافة أو لا، وهل فيها قيدٌ

---

(١) سورة الشعراء: الآية ٢١.

(٢) سورة الشعراء: الآية ٢٣ ـ ٢٦.

أو شرط من المتكلم أو المخاطب وهل الضمير مُصَرَّحٌ به أو مُضمر وما هو مرجعه، فإنّا نريد أنْ نستلهم كُلَّ هذا من عناصرها الأولية الأساسية.

وبالتالي إذا كان المتكلم في الجملة الواحدة مفرد أو مثنى أو جمع، وكذا المخاطب فإنَّه بالتالي يؤثر في مفاد الكلام تماماً.

وعليه فتعتبر قاعدة الالتفات من أساسيات تحصيل المعنى الأوّلي لظاهر ألفاظ وجمل وآيات القرآن الكريم.

وبسبب هذهِ الأمور التي ذكرناها وغيرها أكَّد أهل البيت عليهم السلام بتعابير مختلفة، وبيّنوا عليهم السلام سبب إخفاق المفسرين وإنْ كانوا من العلماء والمحققين، وإخفاق قدرة عقل البشر في الوصول إلى كنه مغزى آيات الذكر الحكيم، وأنه ليسَ شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن كما وَرَدَ ذلك في قول الإمام الصادق عليه السلام وسبب عدم معرفة المفسرين وإخفاقهم في معرفة تغير وتبدل الخطاب القرآني جملة جملةوكلمة كلمة سواء المتكلم يتغير أو المخاطب أو ... الخ وهذا بالتالي سوف يغير المعنى الأوّلي لذا يصعب مراعاته لدى المفسرين وبالتالي الالتفات إلى مثل هذهِ الأمور الدقيقة يحتاج إلى نباهة وقّادة وإلى يقظة وتمسك بمنهج وتعليم ورعاية أئمة أهل البيت عليهم السلام، وإنْ كان بعض المفسرين ينظرون إلى قاعدة الالتفات أنَّها تأويل وباطن إلّا أنَّه لو دققنا النظر لوجدنا روايات أهل البيت عليهم السلام تعالج ظاهر سطح الألفاظ للآيات القرآنية ومع ذلك هذهِ المعالجة لسطح ظاهر الألفاظ خفيت على الآخرين، ومن ثمَّ تلقاه الآخرون أنَّه تأويلٌ وباطنٌ.

الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم

من أحد أبعاد البلاغي في القرآن هي القدرة الفنية في القرآن على ممارسة هذهِ الفنون بدرجة يعجز البشر عن إدراكها فضلاً عن ممارستها ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾[1] و ﴿قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾[2].

ولذا يحسب العلماء والمفسرون من الطرفين الكثير من بيانات أهل البيت عليهم السلام الواردة في تفسير الآيات أنَّها تأويلات خفية باطنية، والحال أنَّها ليست كذلك، وإنَّما هي منهم عليهم السلام معالجة لنفس ظاهر القرآن.

ولذا لابدَّ من الإقرار والاعتراف ـ كما مَرَّ ـ بأنَّ قاعدة الالتفات ذو شعب متشعبة ودائرة واسعة مترامية الأطراف والفروع وفيها سُبُل غريبة بالنسبة لقدرة البشر، وقدرة ممارستها إنَّما تكون لرب العالمين ربَّ الكلام فإنَّه الوحيد تعالى الذي يمارس تلك القاعدة بممارسة سليمة تعجز قدرة البشر عن السيطرة والتركيز والإحاطة بها.

ولذا في جملة من الموارد يستعصي ظاهر القرآن على المفسرين التدقيق فيه في أمثلة متعددة وأبواب مختلفة، فإنَّه يتعصى عليهم معرفة مَن المتكلم ومَن المخاطب وكيفية الالتفات.

فمثلاً: ـ قوله تعالى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ فَهَدَى﴾[3] ذكر المفسرون من الفريقين وجوه عديدة، فذكر القرطبي أكثر من خمسة عشر وجهاً وقال

---

(١) سورة يونس: الآية ٣٨.

(٢) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

(٣) سورة الضحى: الآية ٧.

كلّها حسان والأعجب منها هو القول الذي نسبه القرطبي لبعض المتكلمين من أنَّ المراد من ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًا فَهَدَىٰ﴾ هو أنَّ العرب إذا وجدت شجرةً منفردةً في فلاة من الأرض لا شجر معها سمّوها ضالة فيُهتدى بها إلى الطريق فقال الله تعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وآله ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًا﴾ أي لا أحد على دينك وأنت وحيدٌ وليسَ معك أحد فهديتُ بك الخلق إليَّ[1].

وذكر السيد المرتضى في تفسيره وجوهاً خمسة خامسها أضعفها وهو غير معروف أي قراءة اليتم بالضم، وأوّلها: ـ أنَّه وجدك ضالاً عن النبوة فهداك إليها أو عن شريعة الإسلام التي نزلت عليه وأمر بتبليغها إلى الخلق ...[2].

وكذا ذكر الشيخ الطبرسي في تفسيره مجمع البيان والشيخ الطوسي في التبيان والسيد العلامة محمد حسين الطباطبائي في الميزان وآخرون وجوهاً عديدة في تفسير الآية المباركة إلّا أنَّ الذي نريد ذكره كشاهد لما نحن فيه هو أنَّ الآية المباركة ذكرت قسماً آخر من أقسام الالتفات وهو: ـ

ما هو اسم الفاعل أو الصفة المشبهة لـ (ضلل)؟ لعله ينسبق الذهن لأوّل وهلة إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، والحال لو دققنا النظر في لفظة (ضالاً) فإنَّها كلمة مشتقة والمشتق في اللغة العربية كما هو معلوم بمنزلة الجملة الفعلية فاسم الفاعل (ضالاً) يعني (ضلل) ونلاحظ وجود عدَّة أطراف في الكلمة.

١ ـ المسند، ٢ ـ المسند إليه. ٣ ـ ومن هو الضال. ٤ ـ ومن هو الذي ضلَّ عنه. ٥ ـ ومن هو الذي ضلَّ إليه.

ويوجد في مبحث الصفة في علم النحو والبلاغة أنَّ الصفة تارة بلحاظ نفس الموصوف أي صفة حال نفس الموصوف، وأُخرى بلحاظ

---

(١) تفسير القرطبي، ج٢٠ ص٨٩ الجامع لأحكام القرآن.
(٢) تفسير الشريف المرتضى، ج٣/ ص٤٦٦.

حال المتعلق، ودائماً تنسبق الأذهان إلى الصفة بلحاظ نفس الشيء الموصوف، إلّا أنّه في الآية المباركة أنَّ الصفة بلحاظ حال المتعلق وهذا القسم من الصفة فيه الالتفات، وفي نفس الوقت هي جملة واحدة فيها مفردة واحدة مصرح بها ـ وهي (ضالاً) فيحصل بها التفات، وكلّ هذا يحتاج إلى تأمل وتدبر.

الخلاصة: إنَّ هذا هو أحد الوجوه في تفسير الآية ﴿وَوَجَدَكَ ضَالاًّ﴾ عند قومك وهم ضلوا عنك، وهو صفة بلحاظ حال المتعلق، وإنْ كان كثيرٌ من الصفات التي نُسبت إلى الأنبياء في القرآن الكريم وحَسِبَها الجاهلون أنها وقيعة بهم من قبل القرآن ـ والعياذ بالله ـ أو أغواءٌ من القرآن في الأنبياء والواقع ليسَ كذلك بلْ هي صفات بلحاظ حال المتعلق لا نفس الموصوف.

وهكذا عندما يبين القرآن الكريم لنا كيف نشأت البشرية وتكاثرت عِبر مقاطع خاصة مؤثرة في حياتهم وإلى يومنا الحاضر والمستقبل وأنها كيف تؤثر على البشر، ويريد أنْ يعلّمنا القرآن الكريم: بأنّكم أيُّها البشر لستم لوحدكم وبمفردكم تعيشون على وجه كوكب الأرض، وإنّما هناك كائنات أُخرى تشارككم منها رحمانية وأُخرى شيطانية، كل ذلك يعرضه القرآن الكريم لنا عن طريق البث السمائي لهداية البشر وهذا أشبه ما يكون ـ لأجل تقريب الفكرة ـ بعرض لفلم سينمائي فكلما كان المخرج له ذكياً وفطناً وملتفتاً فإنَّه لا يُركّز على كل جوانب الحدث والقصة المهمة فضلاً عن غير المهمة وكل صغيرة وكبيرة وإنَّما يُركّز ويوجه عدسة كامرته على اللقطات الحساسة المؤثرة في روح تلك القصة أو الفلم الذي يتعرض له، وينظم كل ذلك ضمن نسق دقيق يوصل إلى الغاية من القصة الروائية مثلاً أكثر فأكثر.

ومحل الشاهد لقاعدة الالتفات : ـ نلاحظ القرآن الكريم وهو يقص القصةويركزعلى الجوانب المهمة والخطيرة وإذا فجأة عرض للقطة أُخرى ثم يتعرض فجأة للقطة ثانية وثالثة و... الخ كلّها متسلسلة منتظمة مرتبة وفق قواعد وموازين ومع ذلك لا يعني هذا أنَّ المشهد واحدٌ وإنْ كنت تلاحظ بحسب الظاهر هي آية واحدة إلّا أنَّ القرآن الكريم يعرض في تلك الآية الواحدة مشاهد متعددة فلا يلتفت إلى تلك المقاطع والمشاهد المتعددة في الآية الواحدة، بلْ في الجملة الواحدة فضلاً عن السورة والسور إلّا المُفَسِّر الفطن يلتفت إلى تلك الانتقالات المهمة والمشاهد المتعددة في الآية الواحدة، وبخلاف ذلك فإنَّ المُفَسِّر غير الفطن إذا لم يكن ملتفتاً إلى ذلك فيظن أو يحسب نفسه أنَّه لا زال في عرض المشهد الأوَّل، وأنَّ كل هذهِ التقلبات هي في مشهد واحد كلا ليسَ الأمر كذلك.

ومثاله ماتقدم في الآية المباركة ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، ولا يلتفت إلى مثل ذلك من المفسرين إلّا الفطن والملتفت لدقائق الأمور، ومن كانت له رعاية تعليمية خاصة من المعصوم وعلقة مع المعصوم وإلّا من لمْ تكن له عناية ورعاية تعليمية من المعصوم عليه السلام واعتمد على قدراته العقلية فقط فإنَّه تخبط ووقع في تفسيرات بعيدة عن جو الإجابة. هذا بالنسبة إلى سرد القرآن القصصي.

وأمَّا لو قصَّ لنا التأريخ قصةً معينةً فإنَّه يحاول التريكز على كُلّ صغيرة وكبيرة لأجل إيصال الفكرة للمطالع الكريم وتُجمَّع أكبر عدد من المعلومات حول تلك القصة.

رواية عن الإمام الباقر عليه السلام

هناك رواية رواها العياشي في تفسير في باب تفسير الناسخ والمنسوخ والظاهر والباطن والمحكم والمتشابه بسنده عن الإمام الباقر عليه السلام وهي وإنْ لمْ تُخَصَّص بقاعدة الالتفات إلّا أَنَّه استظهرنا منها ذلك، والرواية وإنَّ تقدمت إلّا أَنَّه نذكرها الآن لبيان بعض ما ستفدنا منها.

وإليك الرواية: ـ عن جابر سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابني ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر، فقلت: جُعِلت فدك كنتَ أجبتَ في هذهِ المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟

فقال عليه السلام: ـ لي يا جابر إنَّ للقرآن بطناً، وللبطن وظهر وللظهر ظهر يا جابر وليسَ شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن، إنَّ الآية ليكون أوَّلها في شيء وآخرُها في شيء، وهو كلام متصل يتصرف على وجوه[1].

ومحل الشاهد لقاعدة الالتفات هو ذيل الرواية قوله **«إنَّ الآية ليكون أوّلها ...»** ويستفاد من هذهِ الرواية أنَّ تفسير كلام الله تعالى هو من أصعب الصعاب ومنشأ الصعوبة يبينه الإمام عليه السلام ذلك بسبب الغفلة وعدم الإحاطة العلمية الدقيقة والعميقة بقاعدة الالتفات وتطبيقاتها بحسب ما استظهرناه من كلام الإمام عليه السلام وعدم الإحاطة بها هو السبب في بُعد تفسير القرآن عن عقول البشر؛ لأنَّ الآية كما قال الإمام عليه السلام **«إنَّ الآية ليكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل يتصرف على وجوه»**. يعني

---

(١) تفسير العياشي، ج١، أبواب مقدمات التفسير، ص٨٧، ٣٩/ ٨.

توحده وحدة سياق وهذا ما يتوهمه الكثير من المفسرين بأنَّه سرسرح استرسالي يَسرَح غفلة البشر بعفوية صريحة بأنَّه شيء متصل إلّا أنَّه ليسَ بشيء واحد وإنَّما هو شيئان، ووحدة السياق ووحدة الاتصال لا تعني وحدة المعنى وغير كاشفة عنها ولا ملازمة بينهما.

وقولهعليه السلام **«ويتصرف على وجوه»** وهذا دليل على أنَّ الآية الواحدة بلْ الجملة الواحدة والمفردة الواحدة فضلاً عن السورة والسور لها عدَّة معاني وتتكثر إلى ما شاء الله وتترامى انطلاقاً من تعدد الخطاب القرآني فإنَّ مثل هذا يوحي غفلةً بوحدة الاتصال ولوحدة السياق وأنه خطاب واحد والواقع خلافه وبعبارة أُخرى أنَّه يمكننا أنْ نستظهر من كلامهعليه السلام: إنَّ قاعدة الالتفات هي مفتاح وباب كبير لباب التأويل ولمعرفة تعدد وتنوع بطون القرآن وتميّزها عن ظهورها.

وأيضاً نستظهر ويتبين من كلامهعليه السلام أنَّ الخطاب القرآني يتنوع ويتعدد فقدْ يكون المتكلم متعدد في آية واحدة، وقدْ يكون المخاطب متعدد، وقدْ يكون أحدهما متعدد دون الآخر أو كليهما لثالث ورابع وخامس و ... الخ.

ومعرفة مثل هذهِ الأمور بالتالي يفتح لنا باباً في معرفة الدلالات المتعددة وكيفية الالتفات إلى معرفة الدلالات الخفيّة التي تقدم ذكرها في القاعدة الأُولى ـ قاعدة التعريض ـ والدلالات الكنائية التي أكَّدت عليها الروايات الواردة عن أئمة أهل البيتعليهم السلام، وباب مثل هذهِ الدلالات كما مَرَّ هي باب للتأويل، والباب إلى التأويل هو التنبيه إلى قاعدة الالتفات التي نحن بصددها التي ذكرت في علم البلاغة في علم البديع، والتنبيه لمثل هذهِ

القاعدة ـ أي قاعدة الالتفات ـ وتعدد الخطاب سوف يفتح لنا الباب على مصراعيه لتعدد مضامين الخطاب القرآني في الآية الواحدة وبالتالي نقف على دلالات متعددة.

وهكذا حتجاج اليهود أو الصابئة مع النبيﷺ عندما احتجوا بأنَّ النبي إبراهيم خليل الله فأقام النبيﷺ الاحتجاج بأنَّ الخِلَّة لها معنيان:

الأوَّل: أنَّ تأتي بمعنى المحبة والصداقة الوطيدة.

الثاني: أنَّ تأتي بمعنى كشف الأسرار باعتبار الخليل ينفذ في أسراره إلى خليله باعتبار الخِلَّة من التخلل والنفوذ والخلال.

وبَيَّن النبيﷺ في جوابه النتيجة على كلا المعنيين.

والشاهد: أنَّ النبيﷺ من خلال كلمة واحدة وهي كلمة [الخليل] تعدد الخطاب القرآني بأنَّ يمكن أنْ يكون هناك إسنادين أو أكثر لكلمة واحدة وفي كُلّ إسناد له معنى يختلف عن معنى الإسناد الثاني والثالث والرابع و ... الخ كما تقدم تقريب ذلك في الكلمات المشتقة ووصف الاشتقاق وتعدد المعنى والإسنادات في كلمة واحدة كما في ضارب وقائم وكاتب و ... الخ.

قاعدة الالتفات ومعرفة تكثر بطون القرآن وظهوره

ما تقدم في كلام الإمام الباقرعليه السلام في الرواية السابقة [... وهو كلامٌ متصلٌ يَتصَرف على وجوه] يمكن استفادة أنَّهعليه السلام يُبين خلال كلامه قاعدة الالتفات والتنوع في الخطاب القرآني ينفتح من هذا باب معرفة تكثر بطون القرآن والمراد بالبَطن ـ بتحريك الباء والطاء بالفتح ـ هو شيءٌ كان مخفياً ثم ظَهَر وتجلى وأنَّ تلك الدلالات الخفيّة على عقول البشر تبرز وتتجلى من خلال تطبيق، قاعدة الالتفات والتفطن والالتفات إليها وإلّا تبقى كما بقيت تلك الدلالات الخفيّة على خفائها وبطونها لمن لمْ يلتفت ويستعمل ويطبق قاعدة الالتفات التي أكَّد عليها المعصومعليه السلام وإنْ لمْ يكنْ التأكيد بلفظ الالتفات.

ومَرَّ سابقاً الكلام حول تأكيد الأحاديث النبوية وروايات أهل البيتعليهم السلام على نكتة مهمة جداً وهي أنَّ الغوص في عالم المعاني والدلالات الخفية ذات الترامي المتعدد الأطراف في الخطابات القرآنيّة، ولهذا الغوص مفتاح ورأس خيط وحبل ممدود من سماء الخفاء والغيب إلى أرض الظاهر وعالم المشاهدة طرف منه عند الناس وطرفٌ منه عند الله.

إلّا أنَّ الكلام في كيفية ضمان المفتاح ورأس الخيط كي تنطلق منها إلى سماء الغيب والخفاء علماً أنَّ أهل البيتعليهم السلام يؤكدون على عدم انقطاع الطرق واتصالها بين عالم الدلالات الخفية المعمقة وبين منصة سطح الظاهر وأنَّه يمكن الاتصال لكنَّ لا يتيسر ذلك لكل البشر وإنَّما للملتفت والمتفطن منهم والذي له علاقة خاصة ومشمول لرعاية المعصومعليه السلام وإلّا فلا.

وإنْ كان كثير من المفسرين يظنون أنَّ الدلالات الخفية وبطون القرآن هي جواهر خزائنها مقفولة ولا طريق إليها إلّا بقدرة معجز وأنَّ هذا صحيح وأنَّه يحتاج إلى قدرة المعصوم، غاية الأمر أنَّ المعصوم كالنبي الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام عندهم القدرة على معرفة واكتشاف الطريق من الظاهر إلى الباطن والانتقال من المعنى الظاهر والجلي إلى تلك المعاني الخفية لا أنهم عليهم السلام يصنعون الطريق وإنَّما الطريق إلى الله تعالى موجود لا يَعْلَمه إلّا مَن كانت عنده القدرة على اكتشاف ومعرفة ذلك.

ومن الواضح أنَّ هكذا قُدُرات لا تتوفر ولا يمتلكها إلّا المعصوم الذي يعلم التأويل أي يعرف الطريق؛ لأنَّ أحد معاني التأويل هو الأوَّل والمآل أي الطريق والسبيل فإنَّ الطريق موجود لا أنَّ المعصوم يوجده، وعليه أحد معاني ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾[١] أي لا يعلم تأويله ولا يعني أنَّهم عليهم السلام يختلقون الطريق وإنَّما الطريق موجود.

والذي نريد أنْ ننتهي إليه من خلال هذا كُلِّهُ هو تخطئة تلك النظرة القديمة القائلة: ـ «**بأنَّ المعاني التأويلية الباطنية في القرآن لا صلة لها بالظاهر ولا صلة لها بقواعد علوم اللغة والأدب**».

وتقدم أنْ الناقد الأدبي اللوذعي والماهر الفطن يتمكن من فك لغز وإبهام العبارات المجملة والغامضة من خلال الرجوع إلى تفعيل قواعد اللغة والتي تكون أشبه بمباريات النقد الأدبي، فإنَّ ذلك الناقد الذكي يكتشف نكاتاً في الكلام لا يستطيع غيرُه أنْ يكتشفها لا أنَّه يختلقها وإنَّما

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

هي موجودة ولكن تحتاج إلى فطنة وقدرة على اكتشافها وهذهِ القدرة موجودة عند البشر إلّا أنها ليست على درجة واحدة من القدرة فتختلف قدرة المعصوم عن غيره.

إذنْ يختلف اكتشاف الدلالة الخفية في القرآن الكريم بين أنْ تقول: ـ الدلالة الخفية عبارة عن دلالات استحسانية ذوقيّة، وبين أنْ نقول أنها موضوعية منهجية وقواعدية ضمن نظام معين، إنَّما الاختلاف في القدرة على الاكتشاف لذلك النظام فإنَّ قدرات البشر مختلفة، ويجب أنْ تكون تحت رعايةوإرشاد وكنف تعليم المعصوم وهو النبي الأكرمﷺ وآله الأطهار عليهم أفضل الصلاة والسلام عليهم أجمعين الذين نصَّبهم الله تعالى وأوَّلهم سيد الأنبياء بدليل الآية ﴿هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1].

المُفَسِّر لأجل أنْ يكتشف هذهِ النكات المهمة فإنَّه يحتاج إلى تعليم نبوي، ويعلمهم الكتاب والحكمة، والمعلم الأوَّل للكتاب ـ كما تقدم ـ بتنصيب من الله تعالى هو سيد الأنبياء. ومن هذا يُعلَم الفرق بين مدرسة الألسنيات أي الحداثويون المبتنية على قراءات متشتتة ومتراكمة إلّا أنَّه ليس خاضع تحت منهجة الميزان والنظام العلمي، فلذا يكون عُرْضَةَ للوقوع في الأخطاء بخلاف منهج مدرسة التأويل للقرآن الكريم في مدرسة أهل البيت عليهم السلام فإنَّ منهاج التأويل فيها منضبط ضمن نظام ومنهج اكتشاف تحت رعايةوتعليم المعصوم ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾[2].

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

(٢) سورة القمر: الآية ١٧.

﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[١].

هاتان الآيتان وغيرهما تشيران إلى أنَّ الطريق مفتوح للذهاب إلى صفوف مدرسة أهل البيتعليهم السلام وما على المتعلم إلّا أنْ يذهب إلى تلك المدرسة ويضع نفسه في الصف المناسب له من مرحلة ابتدائية أو متوسطة أو ثانوية أو جامعية ... الخ لكي يُتلقى ويُلقَّن التعليم والعلم لأجل أنْ يواكب المسيرة العلمية المعاصِرة، هذا مقصودنا من شمول رعاية المعصوم للمُفَسِّر حتَّى يكون عند المُفَسِّر القابلية والسيطرة والإحاطة بتلك النكات العلمية في الآيات والروايات التي تحتاج إلى مزيد من الالتفات والانتباه ولا يفهم من التعبيرات السابقة أنَّ هناك صنف أوجماعة خاصة من البشر ومن المسلمين يُولِهِم المعصوم رعاية خاصة، كلا وإنَّما على الشخص أنْ يذهب وينتمي إلى المدرسة الحقّة مدرسة النبي الأكرمصلى الله عليه وآله وأهل بيته ويغرف من نمير علومهم ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ ولذا وُصِف النبي الأكرمصلى الله عليه وآله بأنَّه أوتي جوامع الكلم ويصف كتاب الله بأنَّه حَبْلٌ ممدود من السماء إلى الأرض طرف منه عند الناس وهو الظاهر وطرف منه عند الله، وأحد معاني ذاك الطرف الذي عند الله تعالى هو تَعَدُّد الخطاب القرآني فإنَّه مفتاح الإنطلاق إلى الباطن وباطن الباطن وهكذا، وكذا الإنطلاق إلى الظاهر وظهر الظاهر وظهر الظهر و ... الخ وهذا يعني عملية التعدد في الدلالات ولكنْ لكل دلالة طريقٌ مختص بها أشبه ما يكون بالألياف البصرية والنورية في الزجاج والأسلاك.

إنْ قلت: أنَّه بحسب بيانات أهل البيتعليهم السلام تدلُّ على أنَّ دلالات

---

(١) سورة النساء: الآية ٨٢.

الباطن والظهور يمكن أنْ تنضبط ويُبرْهن بها وذلك بأنْ تأتي لها بشواهد من الظاهر وحينئذٍ يشكل التمسُّك بأنَّ الدلالات الخفية المبطنة المترامية في الإبطان والخفاء أنْ يكون لها شاهداً من الظاهر فإنَّه يلزم محذور عود الباطن والخفي ظاهراً.

قلت: التحوُّل والبروز من الخفاء إلى الجلاء والظهور أمرٌ نسبي يتوقف على قدرة الشخص وهي مختلفة، وهذا شبيه بالمعادلات العلميّة في علم من العلوم كالمعادلات الرياضية أو الكيماوية أو الفيزياوية أو ... الخ فإنَّ المسألة المجهولة قبل الوقوف على طريق الحل فيها تكون غامضة ولغزٌ مُعقَّد، ولكنْ عندما يستطيع عالمٌ من العلماء أو نابغة اكتشاف حلٍّ لذلك المجهول فإنَّه سوف يبينه ويُجلّيه ويبرزه للآخرين بصورة واضحة فيصبح الطريق جلياً، وربما يكون اكتشافه للحل بطريق قصير ومختصر ويسير ولا يكتشفه إلّا البصير فحينئذٍ لا مانع من ذلك.

الخلاصة: إنَّ الإمام الباقر عليه السلام بيَّن في الرواية نظاماً مهماً في الانطلاق إلى الدلالات الخفية في الخطاب من سطح ومنصة الظاهر لا أنَّ الطريق مقطوع بين الظاهر والباطن وعدم معرفة هذا الاتصال هو سِرُّ انحراف بعض الفرق الإسلامية سواء الصوفية منها أو غيرها، بلْ حتَّى أنَّ بعض العرفاء تمسَّكوا بالشجرة والقشر والظاهر دون الباطن وتركوا الثمرة، ويأتون بشواهد فقط من سطح الظاهر وفي هذا تصريح إلى أنَّ العلقة بين الظاهر والباطن مقطوعة حسب رأيهم ـ وهذا باطلٌ ـ

نعم، إذا أردت أنْ تأتي بشاهد من سطح الظاهر لابدَّ أنْ يكون ضمن قواعد منضبطة وبأسلوب علمي وفني صناعي لا تفسير بالرأي ومخترع،

وهذهِ كلُّها وللأسف تأويلات تُسوَّق على البسطاء والسُّذج تحت عنوان تأويل الشريعة أو تأويل الدين عند غير المعصوم، ونقطع بأنَّ غير المعصوم لا يأتي بشاهدٍ من ظاهر الشريعة وظاهر القرآن وإنَّما خلطٌ عشوائي وتلاعب بالدين، صحيح إنَّه بحسب منهاج مدرسة أهل البيت عليهم السلام باب التفسير التأويلي مفتوح إلّا أنَّه منضبط بشواهد تنطلق من قواعد الظاهر وفي هذا ردٌّ على جماعتين: ـ

الجماعة الأُولى: التي تتلاعب بالتأويل.

الجماعة الثانية: التي تخشى من التأويل حذف التلاعب وانمحاء ثوابت الدين.

إذنْ ما دامت الشواهد تنطلق من الظاهر فحينئذٍ لا خوف في البين على مَن قال بالانقطاع بين الظاهر والباطن.

المعالجات البيانية في روايات أهل البيت عليهم السلام لسطح ظاهر ألفاظ القرآن الكريم

أولاً: من ثمار قاعدتي التعريض والالتفات اللتين بحثنا بعض جوانبهما في النظام الأوّل أي النظام اللفظي الاستعمالي: ـ هو أنَّ المعالجات البيانية لروايات أئمة أهل البيت عليهم السلام تعالج مفاد الآيات من منطقة سطح ظاهر الألفاظ التي خفيت على أكثر المفسرين إلّا النزر منهم فظنوا في بعض الآيات أنّها تأويلية باطنة والواقع ليسَ كذلك، وإنَّما هي آيات تعالج سطح ظاهر ألفاظ القرآن الكريم.

ثانياً: والثمرة الأُخرى من هذهِ المعالجات البيانية مضافاً لما تقدَّم: هي أنَّ بيانات أهل البيت عليهم السلام سوف تكون كلها بيانات مبرهن مُدَلل عليها بالدلائل ولا تحتاج إلى التعبد حتَّى في مقام الحجية التعبدية لأهل البيت عليهم السلام وإنْ كان التعليم اللدني من أهل البيت عليهم السلام هو شأن من شؤون الإمامة وأحد مقامات سيد الرسل صلى الله عليه وآله ولأنَّ شأن سيد الأنبياء له مقامات عدَّة والأئمة المعصومين عليهم السلام من أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله بعده وبعض تلك المقامات أشارت له الآية المباركة ﴿هُوَ الذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾[1] فذكرت عدة مقامات: ـ

مقام التزكية ومقام التعليم تعليهم الكتاب وتعليمهم الحكمة و ... الخ وهذهِ المقامات غير مقام الأمر والنهي.

---

(١) سورة الجمعة: الآية ٢.

الفرق بين مقام المعلم الإلهي ومقام الآمرية والأولوية

مقام التعليم من أعظم مقامات سيد الأنبياء، وهكذا الأئمة وأنهم معلمون إلهيون للبشر، ويجب أنْ نتعامل مع تراث السماء وهو القرآن الكريم وتراث النبيﷺ وأهل بيتهﷺ في علم التفسير كمعلم لا أنّها حجية تعبدية ظنيّة تنجيز وتعذير وتقدير إذنْ يجب أنْ نتعاطى مع مباحث التفسير للقرآن الكريم المرتبطة بالحجية كمعلم إلهي.

والمراد بالمعلم الإلهي: ـ هو ما يُحِدث العلم ويعلّمه فإذا أُحدِث العلم ويعلّمه فإذا أُحدِث العلم أي أوصل للآخرين وبلّغوهم بحجية تكوينية ذاتية ناجزة الأنصياع والانقياد تلقائياً ـ لا بالتعبد الظني ـ ومن المعلوم أنّه إذا أحْدِث العلم للآخر لا يحصل انقياد للطرف الآخر.

وعليه فما ورد في كثير من الروايات التفسيرية للنبيﷺ وأهل بيته للقرآن الكريم هي في الحقيقة بيانات تعليمية أي تُحْدِث وتبرهن بالدليل الذاتي الموجود الذي ينطلق حتّى من سطح ظاهر ألفاظ القرآن، ولذا التعامل مع روايات أهل البيتعليهم السلام في معالجة ظاهر القرآن سوف يكون تعاطياً أعمق مع هذا التراث وأوسع أُفقاً مما لو تعاطينا مع هذهِ الروايات وهذا التراث المأثور في تفسير القرآن الكريم بشكل حجية تعبدية ظنية.

وتقدم أنَّ الحجية التعبدية على قسمين: ـ

١ ـ حجية تعبدية محضة وبلا دليل.

٢ ـ حجية تبعدية مع الدليل.

بلْ وحتّى القسم الثاني من الحجية التعبدية لا ينفعنا في المقام بمقدار ما ينفعنا استنطاق المعادلة البيانية البرهانية التي تعالج سطح ظاهر ألفاظ القرآن، وإنْ كانت هذهِ المعادلة البيانية قد خفيت على الآخرين.

وعليه ببركة استنطاق المعادلة البيانية الواردة في كلام المعصوم عليه السلام سوف نستكشف أمراً مهماً ذو أساس متين وله شُعبٌ وعمود تبتني عليه دعامات تنفعنا في آفاق وسيعة لا بخصوص منطقة مقطعية مكانية أو زمانية محدودة، وهذا بالتالي يؤكِّد لنا سعة المعرفة التفسيرية للعلوم والبيانات الموجودة في القرآن الكريم.

ولذا بيانات أهل البيت عليهم السلام في المعارف والتفسير مُنطلِقة من دلالات مودعة في سطح ظاهر القرآن، وللأسف لم يتفطن أكثر المفسرِين إليها لولا تعليم الراسخين في العلم بدليل الآية المباركة ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾(١) لأنَّهم راسخون في الآمرية والولاية وإنَّما راسخون في العلم.

ولذا تقدم في المباحث السابقة أنَّ أحد مقامات النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته عليهم السلام أنَّه معلم إلهي وليسَ معلم بشري، وأنَّ المعلم الإلهي من قبل الله تعالى هو الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله ثم سيدِ الأوصياء ثم أوصياؤه كما في الآية المباركة ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾(٢) ولم يقل تعالى أوتوا الآمرية أو الولاية وإنْ كان مقام الآَمرية والولاية موجوداً ومحفوظاً لهم إلّا أنَّ الأهم هو مقام العلم والتعليم وأنَّه معلم إلهي وأنهم معلمون إلهيون

---

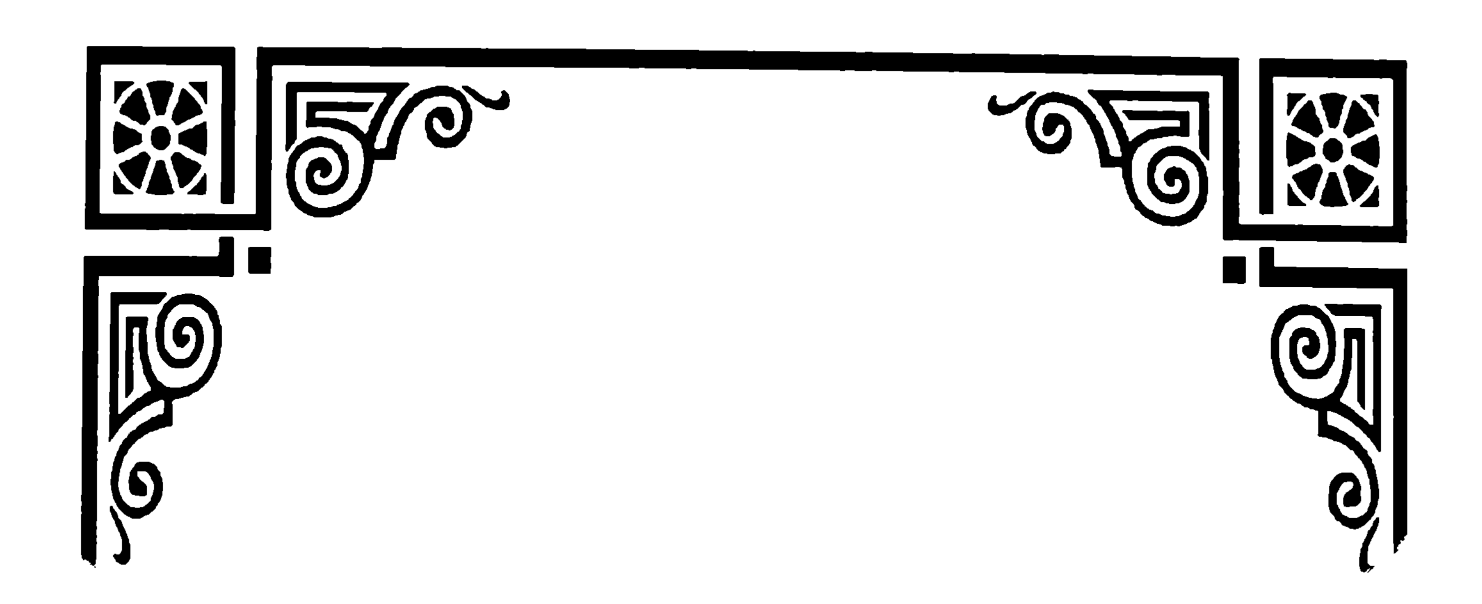
(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

يعلمون الآخرين الآيات ﴿كَفَى بِاللّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾[١]. إذنْ اتضح الفرق بين مقام المَعلم الإلهي وبين مقام الآمرية والولاية بأنَّ مقام الآمرية والولاية ثابتة لهم عليهم السلام تكويناً.

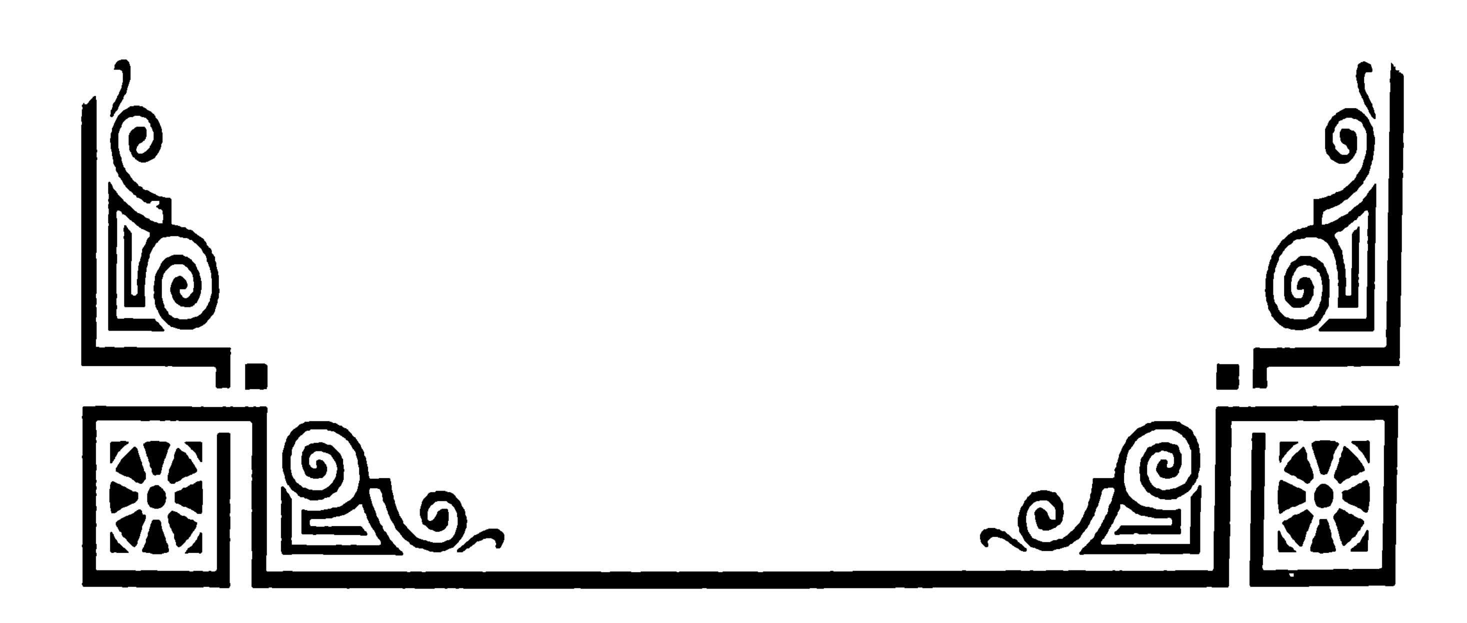
---

(١) سورة الرعد: الآية ٤٣.



الفصل السادس

القاعدة الثالثة: إياك أعني واسمعي يا جارة



القاعدة الثالثة: إياك أعني واسمعي يا جارة

❖ مضمون القاعدة.

❖ المقارنة بين الالتفات وقاعدة إياك أعني واسمعي يا جارة.

❖ الفوائد المترتبة على قاعدة إياك أعني.

❖ أهمية علوم اللغة والبلاغة والنحو في قراءة النص الوحياني.

❖ الضوابط والنماذج التطبيقية لقاعدة إياك أعني وأسمعي يا جارة.

❖ محكمات القرآن تفسر متشابهات السنة.

❖ تأكيد القرآن على عاقبة الأمور.

القاعدة الثالثة من قواعد الاستعمال اللفظي هي قاعدة: إنَّ القرآن نزل بأسلوب: [إياك أعني وسمعي يا جارة] كما جاء ذلك في رواية عبدالله بن بكير عن أبي عبداللهعليه السلام، قال: «**نزل القرآن بـ (إياك أعني وأسمعي يا جارة)**»[1].

وفي سؤال المأمون للإمام الرضاعليه السلام في مجلس يسأل الإمامعليه السلام عن عصمة الأنبياء، فقال المأمون: ... لله دَرّك يا أبا الحسن فأخبرني عن قول الله عَزَّ وَجَلَّ **«عفا الله عنك) التوبة/ ٤٣ لِمَ أذنت لهم؟ قال الرضاعليه السلام هذا مما**

---

(١) تفسير العياشي، ج١ باب فيما أنزل القرآن، ص٨٤، ح٤؛ والكافي ج٢، ص٤٦١؛ وبحار الأنوار، ج٩٢، ص٣٨٢ ح١٧.

نزل بإياك أعني واسمعي يا جارة، خاطب الله عَزَّ وَجَلَّ نبيه وأراد به أمته، وكذلك قوله تعالى ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ الزمر/ ٦٥، وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا﴾ الإسراء/ ٧٤، قال صدقت يا بن رسول الله»[١].

---

(١) عيون أخبار الرضا، ج١، ص١٥٤ ـ ١٥٥، باب/ ١٥، ذكر مجلس آخر للرضا عليه السلام.

مضمون القاعدة

هو أنَّ يُوجَّهَ المتكلم ظاهر خطابه إلى المخاطب ومرادَه الجدي إلى مخاطب آخر. وهو من الأساليب التربوية الرائعة والنافعة التي استعملها العرب وعلى ضوئها استعملها القرآن الكريم في خطاباته، فلكي لا يوجه الباري خطاباته بصورة مباشرة إلى المسلمين أو المؤمنين؛ لأنَّ ذلك فيه نوع من ردَّة الفعل أو التشبيه أو ... الخ ولأجل هذا وغيره ورأفةً من الباري تعالى لا يوجِّه الخطاب مباشرة للمخاطب المقصود.

وما ورد في قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾[2]. من أنَّه مَن هو الموجَّه إليه الخطاب بالظاهر؟.

بتقريب: أنَّ صورة الخطاب القرآني ظاهراً هي موجّه للنبيﷺ إلّا أنَّ المراد الجدي بحسب بيانات أهل البيتعليهم السلام أنَّ الخطاب موجّة إلى أمة النبيﷺ وفي هذا أسلوب تربوي نافع مقتبس من سنن الله في كيفيةٍ تربية الله لخلقه، والله ستّار العيوب، يُحِب السَتْر ولا يكشف السِتار، ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ﴾[3].

بتقريب: إنَّ الكشف والجهر عن السوء فيه ترويج وتجرأة للسوء

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

(٣) سورة النساء: الآية ١٤٨.

وتترتب عليه مخاطر جسيمة، وهذهِ ليست طريقة نافعة في التربية على خلاف استعمال أسلوب التعريض الذي بُعِث به النبي صلى الله عليه وآله.

تنبيه:

قاعدة إيّاك أعني واسمعي يا جارة ـ منحدرة من قاعدة التعريض والأسلوب الكنائي.

المقارنة بين قاعدة الالتفات
وقاعدة إيّاك أعني واسمعي يا جارة

الفرق الأوَّل: في قاعدة الالتفات يكون الخطاب في النظام الاستعمالي والتفهيمي والجدي واحد، ولكنْ المتكلم أو المخاطب يتبدل في قطعة قطعة من الآية المباركة، فإنَّه قدْ يكون المتكلم في صدر الآية شخص وفي وسطها آخروفي ذيلها ثالث، أو يتغير المخاطِب والمخاطَب من كلا الطرفين أو أحدهما أو ... الخ، ولكنْ الخطاب على الصعيد الاستعمالي التفهيمي الجدي واحد.

أمَّا في قاعدة إياك أعني واسمعي يا جارة يوجد مخاطب صوري ومخاطب جدي فإنَّ الخطاب القرآني يتلون ويتنوع وبأطوار مختلفة على صعيد المعنى الاستعمالي وعلى صعيدالمعنى التفهيمي، فتوجّه الخطاب من البداية إلى شخص، بينما على صعيد المراد الجدي يتوجّه الخطاب شخص ثانٍ فحينئذٍ في هذهِ القاعدة صورة الخطاب وصورة المخاطِب لا تعكش صورة المخاطَب الحقيقي ولا الخطاب الحقيقي، وإنَّما الخطاب الصوري والمخاطب الصوري في طرف، والمخاطب والخطاب الحقيقي في طرف آخر.

وهذا بالتالي فيه نوع ما من الصعوبة.

الفرق الثاني: الالتفات إلى تغير أطراف الخطاب في قاعدة إياكِ أعني واسمعي يا جارة، أصعب من قاعدة الالتفات ـ وإنْ كان الالتفات كما

تقدم ـ فيه صعوبة باعتبار أنَّه قدْ تكون الجملة الواحدة ذات الكلمات يتبدل فيها الخطاب القرآني هذا في قاعدة الالتفات.

أمَّا في قاعدة إياك أعني واسمعي يا جارة فإنَّ الخطاب واحد والمتكلم واحد والمخاطب واحد، وفي نفس هذا الخطاب يتضمن لباس مخاطب آخر، وربما أيضاً لباس متكلم آخر.

وهذهِ الانتقالات بالتالي تشكل صعوبة في التفنن والانتقال.

الفرق الثالث: قاعدة إياكِ أعني واسمعي يا جارة، ليست على وتيرة ونوع واحد، وإنَّما فيها أنواع أُخرى، فمثلاً قدْ يكون المعنى الاستعمالي المخاطب فيه شخص والمعنى التفهيمي المخاطب فيه شخص آخر، وقدْ يتطابق المعنى الجدي مع المعنى التفهيمي، وقدْ يتغاير فيصير عدد المخاطبين ثلاثة:

١ ـ مخاط على مستوى المعنى الاستعمالي يعني استعمال حقيقي.

٢ ـ مخاطب على الصعيد التفهيمي.

٣ ـ مخاطب على الصعد الجدي.

الفوائد المترتبة على قاعدة إياك أعني واسمعي يا جارة

ثالثاً: الحِكَم والفوائد المترتبة على قاعدة [إيَّاكَ أعني واسمعي يا جارة].

هناك فوائدٌ جمة لهذهِ القاعدة المهمة، وهذا الأسلوب التربوي القرآني نذكر بعضها:ـ

الفائدة الأُولى: عدم إثارة الطرف الآخر؛ لانه عند الجهر والكشف عن أفعاله وأقواله وتوجيه الخطاب إليه مباشرة مما قدْ يؤدي إلى ردّة فعل سلبيّة.

الفائدة الثانية: التستر الأمني وعدم إرباك الوضع الأمني المستقِر والمستتب، فإنَّ كثيراً من الأمور التي يريد الله أنْ يكشف بها أعمال المنافقين والمبيتين شرّاً للدين ويُخَططون لما بعد فترة رسول الله ﷺ فإنَّ القرآن يخاطب هؤلاء بهواجس ويحذر مِن أفعالهم، ولكنْ لا بتوجه خطاب مباشِر إليهم؛ لأنَّ ذلك سوف يستثيرهم وربما يُربكون الوضع الأمني بأُشد فساد مما هم عليه من برنامج، ولربما يستيقظون على كثير من الحقائق القرآنية.

إذنْ قاعدة إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة هي أسلوب من أساليب التعريض والكناية، بلْ والدلالة الخفية؛ ولذا من الغريب أنْ يُطالب في دلالات القرآن بأنَّه لماذا لا تكون كلّها صريحة وجهاراً، إلّا أنَّ ذلك خلاف الحكمة؛ لأنَّ المُفَسِّر إذا كان يبني في تفسيره لآيات القرآن على الظاهر الجلي فإنَّه حينئذٍ قدْ أخفق في الحصول على الدلالات وآفاق المدلول للآية والمفاد القرآني للتفسير.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام كما تقدَّم سابقاً في مبحث الدلالات الخفيّة، مِن أنَّ عمدة دلالات القرآن في المنطقة الخفيّة لا المنطقة الجليّة وسطح الظاهر، نعم جزء يسير من دلالات القرآن في المنطقة الجليّة وبالجهر والتي ينطلق منها إلى المساحة الأكبر واللامتناهية في الخفاء؛ لأنَّها جواهر مكنونة والمكنون لابدَّ أنْ يكون خفياً محفوظاً عن تناول السارقين؛ لأنَّ السرّاق على أصناف: ـ

١ ـ صنفٌ يسرق مصير الأمَّة.

٢ ـ صنف يسرق عقل الأمَّة.

٣ـ صنف يسرق عفاف الأمَّة.

٤ ـ صنف يسرق طهارة الأُمَّة ويُبدلها برذائل وإنجازات لمصلحته الشخصية ومصلحة حزبه ومكتسبة السياسي واتباعه.

الفائدة الثالثة: تحفظ الأسرار الجوهرية التي أودعها الله تعالى في القرآن الكريم من أيدي السُّراق وتلاعبهم بناءً على ما وَرَدَ في روايات أهل البيت عليهم السلام من أنَّ الجزء الأوفر من دلالات الكريم هي مكنونة ومحفوظة في الباطن وفي الدلالات الخفيّة حفاظاً عليها مِن أنْ يصادرها ويستثمرها ذو النفوس الضعيفة والسُّراق والمنحرفين فكرياً والذين ليسَ لديهم خلوص الانقياد لرب العالمين، وبعبارة أُخرى ابتعاداً عن هؤلاء الذين عندهم تمرُّد على مشروع السماء.

وعليه كلما كان لدى الإنسان إخلاص لله ونقاء فإنَّه يُفتح له بقدر إخلاصه من أبواب تلك الخزائن، وبالتالي هذهِ سياسةٌ عظيمة من رب

العالمين وبرامج خطيرة ومهولة، وفيها علوم ومخططات كبيرة لايمكن أنْ تُعْطى للسُّراق وقُطّاع الطريق ولا يطلع أمثال هكذا نماذج متسافلة ودانية على أسرار مكنونات وحيه، وبالتالي فهذا نوع من السياسة التعليمية الأمنيّة في البرامج والمخططات الإلهية من قِبل ربِّ العالمين يقي أسرار وحيه عن غرباء مسيرة الطهارة والإيمان، وهذا مما أكَّد عليه أهلُ البيت عليهم السلام في المنهج التفسيري من أنَّ هناك قسماً من حقائق القرآن ليست جليّة، وعليه فليس بإمكانك أيُّها المُفَسِّر أنْ تحصر حقائق القرآن الكريم في الدلالة الظاهرة والجليّة ـ كما تقدم ـ .

ومن ضمن تلك الأسرار الجوهرية المكنونة التي أودعها الله تعالى في القرآن الكريم أنَّه في لوح محفوظ ومكنون أي مودع في منطقة الدلالة التعريضية أو الدلالة الخفيّة، وهو نوع من إقامة الحجة وفيها الحجج العظام لخطورتها وأهميتها أودعت في الجانب الخفي؛ لأنَّه دائماً الحفظ والكنن يكنْ للأشياء الخطيرة في الجانب الخفي لا الأشياء اليسيرة؛ فإنَّ الأشياء اليسيرة والواضحة من ظاهر الإسلام تُجْعَل في منطقة الظاهر والجهار والعلن، أمَّا عمق الإسلام وحقيقة الدين تُجْعل في المنطقة الخفية، فمثلاً ظاهر الشهادتين جُعِلَت في منطقة عَلَن وجهار، أمَّا عمق الشهادة للتوحيد وللنبوة والشهادة الثالثة بالإقرار لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام بالولاية الحقّة من بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فتلك تُجْعل في منطقة خفيّة ومكنونة، عكس ما يجعله المفسرون الآن في مناهجهم التفسيرية من جعل سطح الظاهر والدلالة الجليّة هي المدار الأعظم والميزان الأكبر.

وكما أشرنا أكثر من مرَّة إلى أنَّه ينبغي الالتفات إلى أنَّ أهل البيت عليهم السلام

بحسب بياناتهم التفسيرية لا يهمشون الظاهر بالمرَّة؛ وإنَّما يجعلون سطح الظاهر رأس خيط ينطلق منه المُفَسِّر إلى ما وراءه من الباطن الخفي، ولكنْ لا تجعل هذا هو المنتهى، وإنَّما الغاية أهم من البداية؛ لأنَّ البداية هي أنْ يُبتدأ بها وتمهيد موطئ للوصول إلى الغاية، وتعتبر البداية هي العمدة في الوصول إلى الغاية وهي الأعظم، فالبداية نَقِرُّ ونعترف بأهميتها؛ لأنَّها مفتاح الانطلاق والوصول إلى الغاية، ومَن ينطلق من غير هذا المفتاح فقدْ تخبط وضَلَّ الطريق الصحيح.

هذا مضافاً إلى أنَّ الخطاب قدْ يوجَّه إلى مخاطب في أصل الوضع اللغوي مثل كاف الخطاب في نفس تصور الوضع لشخص النظام الاستعمالي، ويمكن لشخص آخر وهو التفهيمي بلْ ولثالثٍ وهو الجدي، بلْ ولرابعٍ وهكذا فإنَّ مثل هذهِ كُلَّها وجوه مستعملة في ألوان توجيه الخطاب في اللغة.

لذا في البيانات الواردة عن أئمة الهُدى عليهم السلام [إنَّ الكلام يُتصْرَف إلى سبعين وجه] وليسَ المراد من السبعين الحصر، وإنَّما كناية عن الكثرة ربَّما تصل الكثرة إلى ما لا تُحْصَى من الوجوه، وفي كُلّ ذلك يقول الإمام عليه السلام **«فيه للإمام فُسْحَة ومجال»** ويستضح هذا أكثر في القاعدة الرابعة اللاحقة إنْ شاء الله تعالى.

أهمية علوم اللغة والبلاغة والنحو
في قراءة النص الوحياني

تنبيه:

في قراءة النص الوحياني ـ الكتاب أو لحديث نبوي أو عن أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام ـ لابدَّ للباحث الكريم لكي يفهم النكات العلميّة والفنيّة وغيرها في علم اللغة والنحو والبلاغة والصرف و... الخ لابدَّ أنْ يُلِمَّ بما يلي:

أولاً: علوم اللغة فإنَّها من العلوم الأساسية في فهم علوم الوحي ولابدَّ من معرفة أنَّ في اللغة نظام وقواعد يُحكَّم فيها أصل الوضع اللغوي الذي يُعَبر عنه بالدلالة التصورية.

ثانياً: قرائن وقواعد الاستعمال فإنَّها تُحكَّم الدلالة الاستعماليّة.

ثالثاً: القرائن التفهيمية فإنَّها تختلف عن القرائن الاستعماليّة ولها نظام مُعيَّن فمثلاً في علم البلاغة ـ قسم علم المعاني ـ يُبحث فيه عن كيفية الاستعمال، وفي علم البيان يُبحث عن التفهيم والجد و ... الخ.

وغالباً الحيِّز الذي يشغله علم البيان يختلف عن ما يشغله علم المعاني لا في كل بحوث علم المعاني، وهكذا علم البديع.

إذنْ علم البلاغة بإقسامه الثلاثة ـ معاني وبيان وبديع ـ لا يمكن التفريط به وإلّا ـ أي لو فُرِّط به لا سامح الله ـ تكون هناك أزمة في قراءة

النص الديني بعلم البيان أو المعاني أو البديع وإلّا لا يستطيع علم البلاغة بقسمه الثالث ـ البديع ـ لوحده أنْ يرقب بالذات العلاقة بين المدلول التصوري والاستعمالي، وعليه إذا لم يُؤكِّد على دراسة وبحث علم البيان والمعاني من علوم البلاغة فإنَّه يحصل تقصير في فهم قراءة النص الديني.

وهكذا تأتي أهمية علوم اللغة ومفرداتها الذي يبحث التصور في الدلالة التصورية وتأثير كل علم من علوم اللغة.

وهكذا علم الصرف وما يبحث فيه بلحاظ المفردة الواحدة وقوالبها وتشكيلاتها وكيف دورها في الدلالة التصورية ثم الدلالة الاستعماليّة.

أيضاً علم النحو على صعيد الاستعمال والتصور فقط، وكذا علم فقه اللغة وعلم الاشتقاق و ... الخ.

إذنْ كل علم له موضع معين يختلف عن سائر العلوم الأُخرى.

وعليه فإنَّ مثل علوم اللغة التي تفرعت وتوسَّعت عما كانت عليه أيام سيبويه وأحمد بن الخليل الفراهيدي والكسائي والفرّاء و... الخ فإنَّه اكتُشِفَت قواعد كثيرة بعدهم ولم يطلعوا عليها وإنْ كانت أسسها تُستَل وتتشعب عن إشارات موجودة في بيانات القرآن وأهل البيت عليهم السلام.

واعترف علماء اللغة بأنَّهم لم يكتشفوا كل قواعد علم اللغة أو علم البلاغة بأقسامها الثلاثة، وعلم الصرف والنحو والاشتقاق و ... الخ وأنَّ هناك قواعد استُجدت مِن قرون، وعلى كُلٍّ فلا يتوهم المتوهم:ـ

إنَّ استعمال هذهِ العلوم في علم التفسير وغيره من العلوم التي تَسْتَعمِل المعادلات العلميّة والقواعد الصحيحة والنظام المُوَحَّد أنَّها مُجَرَّد

من باب الزخرفة والبهرجة، كلا، وإنَّما لأجل أنْ نصل إلى نتائج صحيحة وطيبة وليسَ فيها ثغرات فلابدَّ من تَفَعَّلها.

إذنْ تطبيق قواعد علوم اللغة وما يتفرع عنها وما يتعلّق بها وسيع النطاق والقواعد، ولأجل تفعيله تصبح لدينا إلى ما شاء الله من القواعد وما يتفرع عنها، وهكذا استعمال وتطبيق مستفيض في كلام المعصومعليه السلام، وهذا يصبح بُرهاناً له ويعي عنه الآخرون غير المعصوم، ويكون هذا بالتالي مصداقاً لقاعدة «**إنَّ الكلام والواحد ليتصرف إلى سبعين وجهاً**» ويكن للإمام عليه السلام المَخْلَص من كل وجه، وعليه فإنَّ ما ينتهي إليه الكلام من معادلات تتركب فإنَّها توقفك على أبواب وأنفاق متعددة في الكلام الواحد، ولكن هذا المطلب هو لمجرد التصوير وأنَّه أمرٌ نظري بالنسبة إلى غير المعصوم تقريباً، أمَّا كتطبيق عملي ووعاية علميّة فإنَّه يصعب على غير المعصوم ذلك.

وعليه قدْ يلاحظ المدلول التصوري للمخاطب، قدْ يكون شخص المدلول الاستعمالي أو شخص مخاطب آخر، والمدلول التفهيمي قدْ يكون لمخاطب ثالث، والمدلول الجدي قدْ يكون لمخاطب رابع، وأيضاً يوجد وراء المدلول الجدي الأوّلي جدي ثانٍ وثالثٍ و ... الخ وننتهي إلى أنَّ الجدي على طبقات، والقاعدة التي نحن بصددها [إياكِ أعني واسمعي يا جارة] هي من طبقة المراد الجدي، ولكن هناك ما هو جدي أخطر.

الفائدة الرابعة: إنَّ قاعدة [إياكِ أعني واسمعي يا جارة] توجب اليقظة والالتفات والقيام من السُّبات بشكل أكثر فأكثر للطرف المعني به الخطاب وبأسلوب هادئ سليم صائب يوصله إلى حقيقة الأمر التي كان

هو في غفلة وعماية عنها وما كان ليستيقظ ويُبصر الحقيقة لولا هذا الأسلوب البلاغي الرفيع المستوى؛ لأنَّ التصريح قدْ يوجب غفلة لدى الطرف المخاطب استفزازاً نفسي يعميه أكثر عن الحقيقة، بينما أسلوب قاعدة إياكِ أعني واسمعي يا جارة هو أحد آليات التورية والذي يُعطي إلى الطرف الآخر صحوة انتباه والتفات وقيام من السُّبات أكثر فأكثر، كما في الآية المباركة من سورة الأنبياء في قصة النبي إبراهيم عليه السلام عندما كسَّرَ أصنامهم ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[1].

هذا هو كلامهم فرجعوا إلى وجدانهم وضميرهم والتفتوا إلى حقيقة الأمر مِن أنَّ الذي فَعَل بهم هذا وكسَّرَ أصناهم ليسَ ظالماً، بلْ نحن الظالمون بعبادتنا لمثل هذهِ الأصنام التي لا تستحق ما يُسند إليها من الإلوهيّة وبالتالي هذا ظلمٌ لشأن الألوهية بأنَّ تستند الألوهية إلى أصنام ليست لها حقوق وشأنية عظمة كي نقول: مَن اجترأ عليها ظالم، بلْ بالعكس اسنادنا هذا الشأن والمقام الإلهي للأصنام ظلمٌ.

وبالأخير هم بأنفسهم التفتوا إلى هذهِ الحقيقة.

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥٨ ـ ٦٣.

الضوابط والنماذج التطبيقية لقاعدة
إياك أعني واسمعي يا جارة

نذكر خمسة نماذج تطبيقية لهذه القاعدة المباركة من القرآن الكريم:

النموذج الأوَّل: الآية المباركة: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾[1].

بتقريب: ـ إنَّ الآية المباركة حَرَّمت قتل المؤمن متعمداً، وجزاء القاتل على هذا الفعل المحرَّم والشنيع ذكرت الآية أموراً خمسةً: ـ

١ ـ جزاؤه جهنم.

٢ ـ الخلود في نار جهنم.

٣ ـ غضب الله عليه.

٤ ـ ولعنة الله.

٥ ـ وأُعدَّ لهم عذاباً عظيماً.

وهناك تساؤلان: ـ

الأوَّل: لماذا القاتل للنفس المؤمنة مُخَلَّدٌ في نار جهنم.

الثاني: ما معنى قتل النفس المؤمنة.

أمَّا جواب السؤال الثاني فقدْ أجابت عنه الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام في بيان تأويل الآية المباركة، [تأويلها الأعظم مَن يُضلها] وذلك ببيان:

بيَّنت الروايات أنَّ القتل على قسمين: ـ تارة قتل للبدن، وأُخرى قتل

---

(١) سورة النساء: الآية ٩٣.

للنفس والتأويل الأعظم لقتل أو إحياء النفس ليسَ المراد منه تعلق النفس بالبدن، بلْ تعلّق النفس بالعقائد الحقّة؛ لأنَّ هناك حياة بدنيّة أرضية هابطة، وهناك حياة أبديّة أخروية أعلى بمراتب كثيرة عن حياة الأرض والدنيا، فإنَّ مثل هذا مُراد جدي وراء مراد جدي لا أنّه مرادٌ استعمالي وتفهيمي، وإنَّما المراد أنَّ ذلك المعنى لتفسير القتل هو الإضلال مُرادٌ أكثر جدية؛ لأنّه أعظم صورة من باقي المعاني المرادة الأُخرى، ولكنْ بدرجة أقل، وهذا ما سيأتي تحقيقه في القاعدة الرابعة [استعمال اللفظ وإرادة أكثر من معنى].

وعليه لو قارنا بين تطبيق اللغويين لهذه القاعدة المهمة نجد أنّهم طبّقوها على مستوى الصعيد التصوري، أو الاستعمالي أو التفهيمي أو استعمال جدي في موارد محدودة بما يتناسب وسعة أفقهم.

ولكنْ هذا بخلاف ما نجده من تطبيق لهذه القاعدة ـ إيّاك أعني واسمعي يا جارة ـ في بيانات أهل البيت عليهم السلام، فإنَّنا سوف نجد لها تطبيقات بشكل أوسع وآفاق متعددة أكثر فأكثر، وتحاول بيانات أهل البيت عليهم السلام أنْ تركِّز الأضواء على المراد الجدي الأكثر خطورة وهولاً وعظمة الذي يَعْتني به المتكلم.

ومن الواضح أنَّ تصور مفهوم معين أراده المتكلم جداً خاصة القصود الربانية فإنَّها ذو طبقات، وإيّاكَ أنْ تَظُنَّ أنَّها ليست مُرادَة بالإرادة الجدية، والإرادة الجدية تتصف بوصف الشِّدَّة والضعف، وهذا بابٌ موجودٌ في علم اللغة والأدب و ... إلّا أنَّ أهل الفن ـ العلماء ـ يغفلون ذلك، فإنَّ هناك تعريفات دقيقة للمراد الجدي وأنه ذو طبقات في القرآن الكريم وبيانات أهل البيت عليهم السلام، وأنَّ الإرادة الجدّية ذات شدَّة وضعف،

وعليه فلا يظن علماء اللغة أو الأدب أنَّهم يتوسعون ويحيطون في علومهم مقابل بيانات أهل البيت عليهم السلام من أنَّ الإرادة التصورية والتفهيمية والاستعمالية والجدية ذو طبقات من الاستعمال كما سوف يتضح كُلّ ذلك في القاعدة الرابعة ـ استعمال اللفظ في أكثر من معنى ـ إنْ شاء الله تعالى.

النموذج الثاني: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ، مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيد، إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾(١).

ويستشهد بهذهِ الآيات المباركات على قاعدة [إياكِ أعني واسمعي يا جارة] وذلك ببيان:

إنَّ الآية الأولى فيها خطاب من الله تعالى يشتمل على مساءلة ومحاسبة ومداينة نبي الله عيسى عليه السلام وإنَّما وجهها إلى عيسى عليه السلام بحسب الظاهر والصورة وإلّا فبالواقع هذهِ المسائلة والمداينة موجهة إلى أمّة عيسى عليه السلام أي النصارى الذين حَرَّفوا دين الله وشريعة عيسى عليه السلام بعده ومن الواضح أنَّ عيسى عليه السلام لم يحرِّف الشريفة السماوية التي جاء بها حتّى يقصد بالخطاب القرآني والمعاتبة والمحاسبة، وإنَّما بواسطته وجّه الله الخطاب إلى قومه لما في ذلك تأثير أشد على قوم عيسى عليه السلام، وفي نفس الوقت ذلك التعامل الرباني فيه نوع من الرأفة بعباده والتدبير والستر واللين، فإنَّ الله تعالى حتّى في يوم القيامة لا

---

(١) سورة المائدة: الآيات ١١٦ ـ ١١٨.

يخاطب النصارى الذين حَرَّفوا دين الله وشريعة نبي من أنبياء أولِو العزم مباشرة، وإنَّما يوجه الباري عز اسمه الخطاب إلى عيسى عليه السلام ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ . . . ﴾ واستعماله تعالى لكلمة [ءأنت] في التعبير لا يُقصد منها حقيقة الكلام لما فيه من حالة الاستصغار باعتبار أنَّه ليسَ من شأن، النبي عيسى عليه السلام أنْ يدّعي مثل هذهِ العظمة أي عظمة الألوهيّة، وإنَّما يُقصد صورة الكلام؛ لأنَّ الذات الألوهية مقام جبروت يُصْغُر المخلوق ويُحقَّر عنه الذي يدعيه، وكأنَّما الباري يتكلم مع عيسى ويقول له: ـ

أأنت مِن شأنك أنْ تقول: ـ أتخذوني وأمي إلهين اثنين من دون الله، وصورة هذا الكلام ليست بالسهلة مع أنَّ الله تعالى يعلم بأنَّ النبي عيسى عليه السلام ليسَ له أي واعز وداعي ـ والعياذ بالله ـ لذلك الأمر؛ لأنَّه يؤنبه الآخرون على ذلك، ومع ذلك يسوق الباري الخطاب بهذا النحو وكأن الجملة فيها إسنادٌ [أأقلت للناس ـ] مع أنَّ الله تعالى يعلم بأنَّ هكذا إسناد إلى نبي الله عيسى عليه السلام في هذهِ الجملة غيرُ صحيح، وذي فِعل أُسنِدَ إلى عيسى عليه السلام؟.

إنَّه من أكبر وأعظم الذنوب والكبائر ألا وهو ادّعاء الألوهية له ولأُمّه عليهما السلام فكيف نبي من أنبياء أولي العزم كـ (عيسى عليه السلام) يرتكب هكذا كبيرة ـ والعياذ بالله، وعليه فتكون هذهِ المسألة محل ريبة وهل النبي عيسى عليه السلام مَحَلُّ ريبة ـ ليوجَّه إليه هكذا سؤال، وأنَّه غير متيقن الطاعة؟.

حاشا أنبياء الله فأنَّهم أعزُّ وأجَلُّ، إذنْ كيف يخاطب الله عيسى عليه السلام بهكذا خطاب، وأنَّه بحسب موازين علم البلاغة والبيان فيها تقريع وعتاب وأي عتاب هذا وفيه استصغار واستحقار لمدعي مثل هكذا دعوى

خطيرة، ولا أقل ما في هذا الخطاب صورة لا حقيقة هو الاسترابة التي هي نوع من الهبوط للخط والاعتبار.

وعليه فلو كانت هناك شكوى أو محاكمة تُرْفع ضد شخص له مقام رفيع وله مكانة في المجتمع والقلوب فهذا معناه أنَّ هكذا تصرف معه يوجب الزعزعة لشأنه واقتحامه، فهل يا تُرى يتصور هذا من ربِّ العالمين ـ والعياذ بالله ـ تجاه نبي من أنبياء أولي العزم، وأنَّ الله تعالى يوم الحشر والنشر وفي المحكمة الإلهية وأمام الخلائق يفتح ملف النبي عيسىعليه السلام الذي هو مخلوقٌ عزيز طاهر مُصطفَى، فالله تعالى أعزُّ وأجلُّ وأكرمُ من أنْ يتهم عيسىعليه السلام بأكبر الكبائر وهو ادّعاء الأُلوهية له ولأمّه والشرك بالله تعالى.

إنَّ مثل هذا الأُسلوب القرآني يُعْرَف بقاعدة [إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة] الذي يعني أنَّ التقريع والعقاب أصلاً ليسَ يُسند إلى النبي عيسىعليه السلام بملاحظة ذيل الحوار الذي دارِ بين الباري عزَّ اسمه وبين عيسى ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾[1].

إذنْ محور الكلام حول ـ الجارَة ـ وهي أمّة عيسى لا نفس عيسىعليه السلام أي مراقباً وراعياً ومسؤولاً ما دمت فيهم ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾.

والخلاصة: أنَّ بوصلة الحوار والمحكمة الحقيقية وصلت إلى أُمَّة عيسىعليه السلام لا نفس النبي عيسىعليه السلام، ثُمَّ تحوَّل الذي كان مُتهماً صورة إلى شفيع وركنٍ ركينٍ في المحكمة الإلهية وذوِ نفوذ وشفاعة وصلاحيّة وذو مقام، ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ بلْ تحوَّل

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٧.

النبي عيسى عليه السلام إلى وثيق صُلْحٍ بين هدايات ربِّ العالمين وأمته (عيسى) وهذا يدلل إلى أنَّ أصل المسائلة هي تتجه جداً نحو أُمَّة عيسى عليه السلام، وهذا ما يجزم به كافة المفسرين والمسلمين بأنَّ الخطاب الذي دار بين الباري عزَّ اسمه وبين عيسى عليه السلام في القرآن هو خطاب موجَّه إلى أُمته وهم الذين يُحاكَمَون ويُدانون.

ولعلَّ يتوجه استفسار حاصله: ـ ما هو الغرض من صورة هكذا خطاب وبهكذا نمط؟.

الجواب: لأجل أنْ لا يلتبس الأمر على أمم البشر وأنَّ النبي عيسى عليه السلام متواطئ في الشرك الذي ارتكبه النصارى ـ والعياذ بالله ـ وأنَّهم قالوا إنَّما المسيحُ ابن الله أو أنَّ الإله ثلاثة، إنَّما هو إله واحدٌ.

إذنْ الباري تعالى اتّبع في حواره مع عيسى عليه السلام بيان وخطاب قاعدة [إياكِ أعني واسمعي يا جارة] لأجل تبرئة ساحة عيسى عليه السلام وبيان أنَّ له مقام شفيع وشفاعة ومقام الحمايّة لدين الله من الدَّس والوضع والتحريف وهو النصير في الحقيقة.

وبالتالي لا يكون مثل هكذا حوار تقريعاً للنبي عيسى عليه السلام وإنَّما يكون إعلاءاً وإعظاماً لمقامه عليه السلام وإعطاءه مقام الشفاعة لما ذُكر في ذيل الآية ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

وعليه فإنَّ مثل هكذا ملحمة في القرآن تعتبر منهجاً لتفسير أمومة المحكمات والولاية وشاهداً محورياً ومركزياً للمحكم الأمومي لتفسير سائر الخطابات القرآنية مع الأنبياء فتلاحظ المحاسبة والتقريع صورة وأي سؤال وأي تقريع ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ

وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾[١].

وهل النبي يُذنب حتَّى يُغفر له؟ وإنَّما المراد من الخطاب أمته وليسَ شخصهﷺ ... إلخ وهناك محاسبة بصورة أُخرى ولون وخطاب آخر ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ وتقدم.

وهناك محاسبة بحسب الصورة فقط وبلون ثالث: ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾[٢]. سيّما الموارد التي يكون الفعل فيها مشتركاً بين النبيﷺ وفئات من الأُمَّة، فإنَّ الخطاب وإنْ وُجِّه صورةً إلى نبي من الأنبياء، إلّا أنَّ المراد هو تلك الفئة التي مع ذلك النبي أو الرسولﷺ، فليس المراد نفس النبيﷺ فمثلاً في سورة عبس وتولى فإنَّ الضمير المستتر (الفاعل) في ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّى ﴾ لا يرجع إلى النبيﷺ كما توهمه بعض بالعودة عليهﷺ وإنَّما يعود الضمير على غير رسول اللهﷺ وهو ذلك الرجل وقصته في أسباب النزول معروفة.

إذنْ خطاب سورة عبس وتولى لو لمْ يُدْرج في القاعدة الأُولى ـ أي التعريض ـ ولا القاعدة الثانية ـ الالتفات ـ فإنَّه يدرج هنا أي في القاعدة الثالثة [إيّاكِ أعني واسمِعي يا جارة] وإنْ كانت سورة عبس وتولى أقلّ تقريعاً من ﴿ أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ ﴾ فذاك بحثٌ آخر.

الخلاصة: هذهِ الآيات المباركات وغيرها التي يمكن تطبيق قاعدة إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة فإنَّها آيات محكمات تدور عليها رُحَى المتشابهات الأُخرى؛ لأنَّ هذا لا يُسنِد فيه مُفسِّرٌ هذا الذنب إلى النبيﷺ فإنَّه مُبرَّء من ذلك الذنب، وإنَّما فسّروه بذنب الأمَّة ببركة شفاعة النبيﷺ.

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢.

(٢) سورة الزمر: الآية ٦٥.

محكمات القرآن تفسر متشابهات السنة

لعلَّه يتبادر إلى الذهن أو ينصرف لأوّل وهلة عند سماع المحكمات إلى أنَّها مختصّة بتفسير القرآن وآياته المتشابهة، إلّا أنَّه من خلال البحث يمكن أنْ تكون المحكمات مُفَسِّرَة لمتشابهات السُّنة كذلك أي سنة النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته المعصومين عليهم السلام سواء كانت السُّنة للنبي الأكرم صلى الله عليه وآله قوليةً أو فعلية له صلى الله عليه وآله أو للأئمة المعصومين عليهم السلام من حيث الفعل أي سيرتهم العمليّة من حيث الإمضاء.

إذنْ متشابهات السُّنّة أيضاً تُعْرَض على محكمات القرآن.

فمثلاً لو لاحظنا مورداً من الموارد كما في كتاب الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله لأحد أهل بيته من العترة الطاهرة، وفي ذلك الخطاب اشتراك بين الأمَّة وبينه ونفرض ذلك الفرد هو من أحد الأئمة المعصومين عليهم السلام.

فحينئذٍ نسأل هل أنَّ خطاب وعتاب النبي صلى الله عليه وآله مختص بأحد عترته الطاهرين من أصحاب آية التطهير، أو هو في الحقيقة في باب القاعدة التي نحن بصددها ـ إيّاكَ أعني واسمعي يا جارة ـ وهكذا الخطاب الذي خوطبت به فاطمة الزهراء عليها السلام بمثل هكذا خطاب هل هو مختص بها عليها السلام أم لعموم الأمَّة.

علماً أنَّ النبي صلى الله عليه وآله لا يريد أنْ يقول لفاطمة أنتِ غير مشمولة وخارجة عن أهل آية التطهير وهي الركن الركين من أهل الكساء، ولا يريد كذلك أنْ يَرُدَّ صلى الله عليه وآله قولَ الله تعالى في اصطفائها ولا ... الخ وإنَّما هكذا

خطاب هو من باب إياكِ أعني واسمعي يا جارة، والخطاب صورة مُوجَّه إليها وإلّا حقيقة ولُبّاً لغيرها وإنَّما أُريد أنْ يوصَل الخطاب عن طريقها.

وهكذا خطاب فاطمة الزهراءعليها السلام لعلي بن أبي طالبعليه السلام: **«يا بن أبي طالب اشتملت شملة الجنين وقعدت حجرة الظنين، نقضت قادمة الاجدل فخانك ريش الأعزل»**[1].

وهذا الخطاب صدر من الزهراءعليها السلام عند رجوعها إلى دارها من ذلك المؤتمر الإسلامي العظيم الذي عقدته الزهراءعليها السلام في المسجد في جمع من المهاجرين والأنصار، وكان غرض الزهراءعليها السلام من هذا الخطاب هو لأجل أنْ تبرئ ساحة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من عدم التواطئ في الاعتداء على حرمة رسول اللهصلى الله عليه وآله، وأنه غير راضٍ وغير مُدَاهن في ذلك ـ والعياذ بالله ـ وتعامله‌عليه السلام مع الموقف بحكمة؛ لأنَّ ملابسات الموقف كثيرة.

هذا مضافاً إلى أنَّ أمير المؤمنين‌عليه السلام لو أبدى أي موقف لالتبس الأمر على الأمَّة في تبرئة ساحة علي‌عليه السلام؛ ولأنه كان في البيت جمهرة من المسلمين أمثال: سلمان المحمدي والمقداد والزبير وفضة وأسماء و .. الخ، وهنا أرادت الزهراءعليها السلام أنْ تبين أنَّ علياًعليه السلام لمْ يُبدِ موقفاً لا لهوان الموقف عنده

---

(١) فاطمة من المهد إلى اللحد، السيد محمد كاظم القزويني، ص٢٤٥ اشتمل الثوب: إذا أداره على الجسد، والشملة بكسر الشين، هيئة الاشتمال، والشملة بفتح الشين ما يشتمل به والمقصود هنا: مشيمة الجنين وهي محل الولد من الرحم، الحُجرة، بضم الحاء: البيت: وبضم الحاء وسكون الجيم ثم الراء: هو المكان الذي يُحتجز فيه، والظنين: المتهم، نقضت: ضد أبرمت، والقادمة: واحدة القوادم، وهي مقاديم ريش الطائر، والأجدل: ـ الصقر، خانك: من الخيانة.

كلاً، وإنَّما الموقف عظيم عند عليعليه السلام لأنَّ فيه:

هتك لحرمة رسول اللهصلى الله عليه وآله في فاطمةعليها السلام وأنَّ الاعتداء على فاطمةعليها السلام هو اعتداءٌ على رسول اللهصلى الله عليه وآله، ولفاطمة موقف عظيم تتزلزل له السماوات، وإنَّما أراد أمير المؤمنينعليه السلام بموقفه هذا أنْ يُنبه على أمر عظيم، ألا وهو قضية محاسبة الأمَّة وتعليم الأمة مَدى فضاعة الخطب الذي حدث وألمَّ بفاطمةعليها السلام من قبل ما يدعون أنهم صحابة وأنهم يريدون حفظ بيضة الإسلام ظاهراً.

وهذا الموقف ليسَ فقط جرى بين فاطمة وعليعليهما السلام وإنَّما حدث نظيره فيما جرى بين أمير المؤمنين والحسنعليهما السلام، وعليٌّ يُعاتب الإمام الحسنعليه السلام.

وهكذا كيف تشهدون بعصمة الحسينعليه السلام وأمير المؤمنينعليه السلام يحاسب الحسينعليه السلام وكيف تشهدون بعصمة الإمام علي بن الحسين زين العابدينعليه السلام، والإمام الحسينعليه السلام يُعاتب الإمام زينب العابدينعليه السلام وهكذا.

والخلاصة: إنَّ هذا كُلَّهُ من باب [إيّاك أعني واسمعي يا جارة].

وعليه فمنظومة الدين لا يُقامُ لها وَهَجٌ وُهدَى إلّا بمحورية ومركزية المحكمات وإلّا فسوف تلتبس علينا الأمور سواء في القرآن أو في السُّنَّة.

ولذا مَنِ اتّبع المتشابهات فإنَّه يقول بمنهجية أمومة المحكمات ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ﴾ وأيُّ فتنة هذهِ؟ سواء كانت فتنة عقائدَية أو سياسيّة أو فكرية أو ... الخ.

وأمَّا إذا جعلنا من المحكمات أمومة يعني مركزية ومحورية فإننا سوف نَصِل إلى الغاية المنشودة ونهتدي ونُهدي الآخرين إلى طريق الصواب.

فيا أيُّها المسلمون اتبعوا المحكمات وذروا المتشابهات وحوموا حول المحكمات واجعلوها محوراً ومركزاً وقطباً لأعمالكم، وإيّاكم والانزلاق في المتشابهات، ولذا حَذَّرَ أهلُ البيت عليهم السلام من خطورة اتباع المتشابهات وأهمية اتباع منهج أمومة الولاية للمحكمات فضلاً عن المتشابهات، ولا تجعل من المتشابهات محوراً تَضِلُّ وتُضِّل به الآخرين، بلْ اجعل المحكمات محوراً وقطباً فإنَّك تهتدي وتُهْدي الآخرين.

النموذج الثالث: قوله تعالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ﴾[1].

بتقريب: إنَّ إبراهيم عليه السلام أخفى ما هو مقصودٌ أصلي وغطّاه بغطاء صوري، وذلك باستعمال جملة خبرية مطابقية على خلاف المعروف عند أهل البيان واللغة والنحو فالمعروف عند أهل الفن هو تعليق الخبر على قيد يمكن تحققه وتصوره في المستقبل ـ بأنْ استعمل النبي إبراهيم عليه السلام الجملة الخبرية ـ قال بلْ فعله كبيرهم، معلقة على شرط قدْ حدث وتحقق في الزمن الماضي، وهذا ما يُعرَف بالتورية التي هي تغطية المقصود بغطاء صوري ـ كما تقدم.

وأسند إبراهيم عليه السلام فعل كسر الأصنام في الجملة المطابقية الخبرية إلى كبير الأصنام، وهذا الإسناد بحسب صورة المطلب غير مطابق للواقع، وهذا الإسناد للجملة الخبرية معلق على شرط مستحيل، وهو تعليق

---

(١) سورة الأنبياء: الآيات ٥٨ ـ ٦٣.

الجملة الخبرية على شرط قدْ مضى في الزمان السابق.

ولذا فَهِم قوم إبراهيمعليه السلام بأنَّ المعنى بهذا الخطاب ـ أي خطاب إيّاك أعني واسمعي يا جارة ـ هم أنفسهم ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1] فإنَّ هذا الكلام قدْ صدر من وجدانهم وضميرهم فهو يتكلم (فرجعوا إلى أنفسهم فقالوا ...) فخاطبهم ضميرهم وأكَّد لهم على أنَّهم ظلموا أنفسهم وليسَ أحدٌ ظلمهم، وأنَّ هذهِ الأصنام لا تستحق العبادة، وإسناد الأُلوهية والتأليه إليها ظلم بحق مَن يَعبد حقيقة لا غير وهو الله تعالى، وأنَّ مثل هذهِ الأصنام والأوثان ليست لها حقوق وشانية وعظمة حتّى تستحق أنْ تقول: مَن اجترى على هذهِ الأصنام وكسّرها فهو ظالمٌ كلّا أنها لا تستحق ذلك.

والمهم من كل هذا أنَّهم تيقظوا وانتبهوا من غفلتهم ببركة خطاب إبراهيم بهذهِ الطريقة البلاغية، وهشَّم أصنامهم ليثبت لهم أنها لا تملك لنفسها ولا لغيرها ضرّاً ولا نفعاً، فلما جاؤها ورؤها مكبوبة مهينة تساؤلوا: ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ، فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[2].

وإلى هذا الموقف كان يجب على الضّلال أنْ يهتدوا، وأنْ يصحوا من غفلتهم على ضوء الحقيقة الرائعة، لكن النفوس الملتوية تتقلب فيها مقدمات الحق، فإذا بها تتمخض عن نتيجة أُخرى.

لقد عادوا يقولون لإبراهيمعليه السلام إنَّ آلهتنا ـ كما علمت ـ لا تنطق

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٤.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٤.

فكيف جرؤت على قداستها؟.

﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُون، قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُم، أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ. . . أَفَلَا تَعْقِلُون؟ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَاعِلِين﴾.

وجماهير الدهماء من هذا القبيل المتعب، فهم إمَّا أناس لا عقول لهم يعجزون عن إدراك الحق لقصور أذهانهم على نحو ما قال الشاعر:

أقول له عمراً فيسمع خالداً ... ويقرؤها زيداً ويكتبها بكراً

وإما أناسٌ لهم عقول مدركة ذكيّة، ولكن ليسَ لهم ضمائر حيّة، فهواهم هو الذي يوجه علاقاتهم بالخصوم والأصدقاء، ويُفسِد أحكامهم على الأشخاص والأشياء ..

إذنْ قاعدة [إياكِ أعني واسمعي يا جارة] ذو فوائد متعددة، وهذهِ الآيات المباركة أحد بركاتها وتطبيقاتها، ولذا قالوا:ـ

[الكناية أبلغ من التصريح ـ كما تقدم ذلك في القاعدة الأولى أعني التعريض ـ لأنَّها توقِظ المعني بالخطاب بشكل هادئ وسليم وصائب يوصله إلى حقيقة الأمر التي كان هو في غفلة وعماية عنها، وما كان ليستيقظ ويُبصر الحقيقة لولا هذا الأسلوب أعني قاعدة [إياكِ أعني واسمعي يا جارة] ولذا كان هذا الأسلوب أبلغ من التصريح؛ لأنَّ التصريح قدْ يوجب لدى الطرف المخاطب استفزاز نفسي يعميه ويُبْعِدَه عن الحقيقة أكثر، بينما أسلوب قاعدة يا جارة، هو أحد آليات التورية الذي يُعطي إلى الطرف الآخر صحة وانتباه والتفات وقيام من سُبات أكثر فأكثر.

ولذا كان ببركة استعمال إبراهيم عليه السلام مع قومه هذا الأسلوب البلاغي المؤثر أي أسلوب التورية الذي كان يعني فيه نوع التفات كأنما صوَّر لهم إبراهيم عليه السلام صورةً حقيقية عمّا كانوا يعيشون فيه وما في ضمائرهم وبالتالي أدّى إلى هذهِ الحقيقة العظيمة وببركتها حصلت لهم وَمْضَة هداية بأنْ التفتوا إلى خطأ أنفسهم بأنفسهم ببركة هذا الأسلوب الخطابي البلاغي الواضح.

ومثل هذا الأسلوب لا يقتصر عليه في مثل هذا المورد فحسب، بلْ في جملة من الموارد بلْ في كُلّ ناموس عظيم؛ لأنَّ تعاطي ومزاولة الحقيقة واستعمال التصريح بشكل مُعْلَن وظاهر قدْ يقطع الطريق عن الوصول إلى الحقيقة، وأسلوب قاعدة [إياكِ أعني واسمعي يا جارة] التي استعملها القرآن الكريم يشبه التقية وفلسفتها ليسَت فرار وانحصار وإنَّما تَحَرٍّ لمعالجة الموقف بشكل أبلغ وليسَ انهزام عن الميدان.

وكذلك استعمل النبيون هذهِ القاعدة في صورة خطاباتهم مع أقوامهم وليسَ مرادهم ومقصودهم صورة الخطاب، فمثلاً لو لاحظنا المراد الاستعمالي الذي قصده النبي إبراهيم عليه السلام في الآية المباركة في توجيه صورة الخطاب إلى قومه عَبَدة الأصنام وكأنَّما موجَّه إلى الأصنام، وإبراهيم عليه السلام يقول لأصحابه وعبيدهم هذهِ الأصنام أسألوهم إنْ كانوا ينطقون، فأراد إبراهيم عليه السلام أنْ يُسنِد المراد الاستعمالي والتفهيمي إلى الأصنام كي يُحدِث عليه السلام زوبعةً وبلبلة في التفكر، وأمَّا المراد الجدي لإبراهيم عليه السلام فلا يرتبط بجملة المبتدأ والخبر ولا الموضوع والمحمول، وإنَّما المراد الجدي هو جملة أُخرى مُقَدَّرة في كلام آخر وغير مُصرَّح بها لا على مستوى المدلول

الاستعمالي ولا التفهيمي.

وعليه فالمراد الجدي للنبي إبراهيم عليه السلام هو في الحقيقة قولهم ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنتُمُ الظَّالِمُونَ﴾[1].

والمراد الجدي هو ما توصلنا إليه قاعدة إياك أعني واسمعي يا جارة - من أنَّها أيقظتهم ونبهتهم إلى خطأ ما كانوا يعتقدون به في عبادتهم للأصنام وإعطائهم منصب الألوهية والتأليه والعبودية الذي لا يستحقه إلّا الله.

والخلاصة: إنَّ هذهِ الآية المباركة ليسَ موضوعها مسألة كسر الأصنام ومن اجترى على كسرها و... وإنَّما موضوعها مَن هو الإله، ومَن الذي تجب عبادتُه ويستحق العبادة وأهلاً لها، هذا هو المراد الجدي لإبراهيم عليه السلام في الآيات المباركة مع قومه، وهذا المعنى غير المراد التصوري والاستعمالي والتفهيمي، وهذا هو بالتالي موضوع قاعدة [إياك أعني واسمعي يا جارة].

ثم قالت الآية المباركة ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاء يَنطِقُونَ﴾.

المراد الجدي لإبراهيم عليه السلام؛ أراد أنْ يُبيِّن لهم من خلال أستدراجهم بهذا الأسلوب البياني البلاغي الرائع هو أنَّ من صفات الإله الذي يستحق العبادة والعبودية هو الذي له القدرة على النطق أو خلق النطق وإيداع قوَّة النطق بأصل فطرة الإنسان، ولذا رُسُل الله يوصفون بأنهم الناطقون عن الله تعالى، بينما الذي ليسَ له ناطق أو لايمتلك القدرة على خلق وإيداع

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٤.

النُطق فليس هو بإله.

ولذا كانت أحد البيانات التي بينها الرسول الأكرمﷺ وكذلك أمير المؤمنينﷺ على ألوهية الإله هو بعثه لرسله أي رسل الله ـ فلو كان هناك إله لأتتك رسله.

وعليه يريد أنْ يقول إبراهيمعليه السلام لقومه لابدَّ أنْ تكون هذهِ الأصنام التي تعبدونها يا قوم ـ أنْ يكون لها آلة النطق أو قوّة النطق هذا أولاً.

وثانياً: وأنْ يكون عنهم رسول أو رُسُل ناطقين؟

وعليه، كان جواب قومه إلّا أنَّهم ﴿ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلاَءِ يَنطِقُونَ﴾ وبتوجيه إبراهيمعليه السلام سؤاله إليهم بأنَّ النطق أَحد الصفات التي يجب توفرها في الإله الذي يُعبد أو يكون عنه رسل ناطقين، فهم أعادوا بالهبوط وإبراهيمعليه السلام أعاد الصعود لهم أي أنَّ إبراهيمعليه السلام ارتقى بمطلبه إلى الأفق الفوقي أي أعرضَ عن بحث مَن كسَّرَ الأصنام، وأخذ بأيدي قومه ووضعها على موضع البحث الأصليِ والمراد الجدي له، وبوصله الحوار والفكر، وقال لهم ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلاَ يَضُرُّكُم، أُفٍ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾[1].

وهنا نلاحظ النبي إبراهيمعليه السلام وهو من أنبياء أولي العزم تنزَّل وتهبط إلى العقلية الهابطة لقومه ولأجل أنْ يتتشلهم ويرقى بهم إلى مركز الفكر والبحث والتدبر الأصلي وهو مَن يستحق الألوهية والعبادة.

نعم، صحيح هم أرادوا أنْ يُداينوا إبراهيمعليه السلام في كسر الأصنام ومَن

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٦٦.

كسَّرها إلّا أنَّ إبراهيم أثارَ لهم بحث العبودية لمن؟ والمدانية لمن؟ ولماذا عبدتم هذهِ الأصنام؟ وكيف تعبدونها؟

هم يعاودون إلى ملف هابط، وإبراهيم عليه السلام يأخذ بهم إلى ملف آخر.

القضية الأصلية شيء وتمركُز العقول في شيء آخر وقضية أُخرى، والانحباس في مستوى ذلك الجو بعيدٌ عن حقيقة مراد القرآن الكريم.

النموذج الرابع: قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ، فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِي رَبِّي لأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ، فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّي هَـٰذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(١).

نقل لنا القرآن الكريم ذلك الحوار الذي دار بين النبي إبراهيم عليه السلام وعَبَدة الكواكب والأوثان وصدور هذا الكلام والتساؤل من النبي إبراهيم عليه السلام أثار القيل والقال من قبل المفسرين وأنَّه كيف يصدر هكذا كلام من نبي من أنبياء أولي العزم، وهو ليسَ من عادي أفراد البشر، وإنَّما فردٌ يُحتذى به وإنْ كان الكلام صدر منه بحسب الظاهر والصورة.

وكأنما يُذعِن عليه السلام أو يُسنِد الألوهيّة والربوبية إلى غير الله تعالى فكيف يمكننا أنْ نتصوره، وبِمَ تُفَسَّرُ هذهِ الأمور؟

الجواب: هذا البحث من المباحث المتشعبة والطويلة ولا نريد الخوض بكل تفاصيله وإنَّما نقتصر على الاستشهاد بالجهة التي ترتبط ببحثنا

---

(١) سورة الأنعام: الآيات من ٧٦ ـ ٧٩.

وهي ـ قاعدة إياكِ أعني واسمعي يا جارة ـ وأنَّ الخطاب صورة لا يطابق المراد الجدي، وإلّا فهنا من الواضح أنَّ المراد الجدي للنبي إبراهيمعليه السلام ليسَ الإقرار بربوبيّة الكواكب كالقمر والشمس والنجوم و ... الخ. والانتقال من عبادة إلى أُخرى ليسَ شيئاً جدياً.

فمثلاً عندما رأى النبي إبراهيمعليه السلام كوكباً ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لا أُحِبُّ الآفِلِينَ﴾. وبالأخير، قالعليه السلام ﴿بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ، إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[1] وكأنّما إبراهيمعليه السلام من خلال هذهِ الكلمات التي أطلقها ضمن سلسلة يُراد منها مَن هو فاطر السماوات والأرض؟ وهو حَرِّيٌ أنْ يُعْبَدَ، وأنَّ معبودنا الأصلي من الأوّل هو معبودٌ فطري تنزل وتتجه إليه الفطرة لا الشمس ولا القمر ولا سائر الكواكب الأُخرى هي الرَّب فإنَّه محاطٌ وأصغر من السماوات والأرض.

وعليه فإنَّ كلام النبي إبراهيم في النهاية هو نفسه بيان بأنْ معبوده الأولي الأصلي الذي فطر السموات والأرض، وَصِفَةُ أنَّه تعالى فاطر السموات والأرض هي صفة الإله الذي يعبده إبراهيمعليه السلام وهو الأكبر من كل شيء، وأسلوب إبراهيمعليه السلام في البداية كان خطابه صوري ـ أي هذا ربي صورة لا حقيقة ـ وأمّا الإله الذي في مكنون فطرتي فغير هذا الخطاب الصوري، وعليه فهذا الخطاب هو صورة إسناد أخبار على نحو المسائلة إلّا أنَّ المراد الجدي لإبراهيم هو إسناد إيقاظ لا إسناد مسائلة علماً أنَّ إبراهيمعليه السلام لم يُفصِح إبراهيمعليه السلام لم يُفصِح من البداية عن إسناد المسائلة وإسناد الإيقاظ

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧٦ ـ ٧٩.

مع أَنَّه مُرادٌ ومقدر له.

ولكن لأجل أنْ يستدرج الطرف الآخرعلى مراحل ليأخذ إبراهيمعليه السلام بيد الطرف الآخر ويوصله إلى الحقيقة.

وهذا في الحقيقة فيه درسٌ تربوي عظيم أردنا أنْ نسميه حينئذٍ نوع من إياكَ أعني واسمعي يا جارة.

ويُعتبر هذا أحد الطرق والأنحاء المختلفة لتفسير هذا الخطاب الصادر من إبراهيمعليه السلام، والأمر المحقق: ـ بوضوح أنَّ النبي إبراهيمعليه السلام من أوَّل الأمر ليسَ مراده من عبارة (هذا ربي) إخبار ولو لفترة من الفترات بنحو المراد الجدي ولو صورةً بأنَّ إبراهيم النبيصلى الله عليه وآله عَبَدَ غير الله ـ والعياذ بالله ـ فإنَّه نبي من أنبياء أولي العزم وحاشاه أنْ يكون كذلك.

وإنَّما كان مراد إبراهيمعليه السلام من هذا الإسناد في الجملة الخبرية (هذا ربي) هو من باب إياكَ أعني واسمعي يا جارة، أي أنَّ هناك ربٌّ مكنون لي تتجه وتتنزل إليه فطرتي وإني وراءه، ولذلك هذا التنقل والتبدل في خطاب إبراهيمعليه السلام يعني ـ أنَّ هناك أوصافٌ في الأصل أنا وراءها وأنتم تظنون لأوَّل وهلة أنها تنطبق على هذا الفرد فأكون معكم من باب المجارات ثُمَّ ينكشف أنَّه ليسَ منطبقة تلك الأوصاف الأصلية الموجودة عند إبراهيمعليه السلام عليه، ثُمَّ ينتقل ويُطبقه على مصداق آخر وهذا التبدل لشعارهم معناه أنَّ هناك ميزان ومقياس وتعريف للربّ الذي يجب أنْ يُعْبَد هو ذاك الذي يَفْحَص ويتحرى عنه الإنسان في الأصل.

ومن خلال هذا كُلِّهُ يمكننا أنْ نقول: ـ أنَّه يمكن أنْ نعمم قاعدة [إياكِ أعني واسمعي يا جارة] من الخطابات القرآنيّة إلى قول المعصوم

وفعله وتقريره؛ ولذا يُعتبر من الخطأ الاستدلال بالسيرة النبوية من دون أنْ يُعْلَم مغازي السيرة النبوية، وعليه إذا بُني على الاستدلال بظاهر السيرة النبوية قولاً أو سيرةً وفعلاً وتقريراً فهو غير صحيح؛ لأنَّه إذا كانت أقوال الأنبياء يمكن أنْ تُخَرَّجَ من باب إيّاكِ أعني واسمعي يا جارة، فكيف بسيرتهم وأفعالهم، سيّما الفعل كما هو المقرر في علوم متعددة فأنَّ الفعل حمّال لوجوه متعددة ومجملة فإنَّ أقوال وأفعال وتقريرات النبيصلى الله عليه وآله والأئمة المعصومينعليهم السلام إذا أردنا أنْ نعرف مغزاها الجدي الحقيقي تحتاج إلى تدبر وتأني والتفات كبير فكيف بسيرتهم أو بأفعالهم فإنَّها تحمل الكثير من وجوه التفسير فقد يأتي المعصوم بفعل ولكن مراده الجدي وغاية حكمته ليسَ هو صورة الفعل وإنَّما مغزاه شيء آخر، إلّا أنَّ القرآن يحذرنا من اتّباع المتشابه وكذا النبي الأكرمصلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين يحذروننا من ذلك ويؤكِّدون علينا اتباع المُحكم، ولذا المنهج المختار أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات تعني أنَّه يجب أنْ تحَّكم المحكمات القرآنية، والمحكمات في ألسنة المعصومين نُحَّكمها على متشابه صور الأفعال والأقوال والتقارير، وهذهِ ليست فقط في سيرة الأنبياء والمعصومينعليهم السلام.

تأكيد القرآن الكريم على عاقبة الأمور

قال تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾[1].

لربَّما يتبادر من ظاهر الآية ولأوَّل وهلة إنَّ الله تعالى يريد بهؤلاء المؤمنين الذين استضعفوا في الأرض بأنَّه تعالى قدَّر لهم أنْ يُستضعفوا إلّا انه ليسَ الأمر كذلك فإنَّ المراد من هذهِ الصورة للقضاء والقدر التي صورها لنا القرآن ليست هي المراد الجدي وإنَّما المراد الجدي شيء آخر.

هل المقصود من تقرير هذا الاستضعاف هو زرع حالة الانهزام والضعف في قلوب المؤمنين وأنْ يُديروا الظهر وينهزموا عند المواجهة أم شيء آخر؟

كلا ليسَ ذلك مُراداً، فإنَّ المراد الجدي شيء آخر غير هذا كُلِّهُ ألا وهو ﴿وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

إذنْ يجب علينا أنْ لا ننساق ولا ننتبه إلى صور الأشياء ونضعف أمامها ونسلم بها كلا، فإنَّ القرآن يؤكِّد دائماً على العاقبة؛ لأنَّ الحقيقة والنطق بالعاقبة وليسَ في الظاهر والصورة.

ولذا عندما خاطب الشقي عبيدالله بن زياد العقيلة زينب عليها السلام كيف رأيت صنع الله بأخيك؟ فلو أراد الإنسان غير المتأمَّل أمام صورة القدر

---

(١) سورة القصص: الآية ٥.

والقضاء الذي رُسِمَ للإمام الحسين عليه السلام وأنْ يُقتل بهذهِ الكيفية، وكذا أخيه أبو الفضل العباس عليه السلام وما جرى على العقيلة زينب عليها السلام والوقوف في مجلس عبيدالله بن زياد والطاغية يزيد ... الخ فإنَّ غير المتأمل يقول: ـ هذا غضب الله على أوليائه والحال أنَّه ليسَ بغضب، بلْ لأفعال الله وسننه إرادة جدية فوق عالم القضاء والقدر ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ .

وكان جواب العقيلة زينب عليها السلام بنت علي عن بصيرة تعتمد على عدم اتباع المتشابه والزيغ، بلْ اعتمدت على اتباع أمومة الولاية للمحكمات فضلاً عن المتشابهات بقولها عليها السلام: **«أظننت يا يزيد، حين أخذت علينا أقطار الأرض وآفاق السماء وأصبحنا نُساق كما تُساق الأسارى، أنَّ بنا على الله هواناً، وبك عليه كرامة، وأنَّ ذلك لعظم خطرك عنده ... الخ»**.

فانظر إلى عاقبة الأمور، ولا تلحظ صورة القضاء والقدر، ولاحظ لباب الأمر والمراد الجدي فإنَّ رضاه وسخطه لا يكمن في صورة القضاء والقدر، وإنَّما يكمن رضا الله وسخطه في عاقبة الأمور.

فمثلاً دعاء الإمام الحسين عليه السلام في دعاء عرفة: **«وأسألك اللَّهُمَّ حاجتي التي إنْ أعطيتنيها لم يَضُرَّني ما منعتني وإنْ منعتنيها لم ينفعني ما أعطيتني أسألك فكاك رقبتي من النار لا إله إلّا أنت وحدك لا شريك لك، لك المُلك ولك الحمد وأنت على كل شيء قدير، يا رَبِّ يا رَبِّ»**.

وفي دعاء له عليه السلام في مورد آخر: **«... فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز»** والضابطة هي الفوز والنصرة في النهاية والعاقبة؛ ولذا قالوا الأمور بعواقبها وبخواتيمها.

إذنْ ليسَ المقصود فقط سنن الله تعالى، بلْ وسيرة النبيﷺ والأئمة المعصومينعليهم السلام، وهكذا يُبتلى المؤمن بابتلاءات ـ والعياذ بالله ـ إذا ظنَّ السوء بربه إذا لم تكن له بصيرة والتي تعني البصيرة هي أنْ تُبصر عاقبة الأمور وهي المراد الجدي وليسَ هذا المراد الجدي هو المراد صورياً وإنَّما حقيقة؛ لذا أكَّد القرآن الكريم على مثل هذهِ الحقيقة ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾[1].

بتقريب: أنَّ الإمهال وإنزال العذاب ليسَ هو المراد الجدي، وإنَّما عاقبة الأمور هي المراد الجدي، هذا في سُنَّة الله تعالى، وهكذا في سُنَّة وسيرة الرسول الأكرمﷺ والأئمة المعصومينعليهم السلام من قول وفعل وتقرير ونلاحظ الملابسات كيف هي هي التي تدلُّ على المراد الجدي، وأمَّا الأمر الصوري فإنَّه لا يَدُلُّ على المراد الحقيقي كذلك في قول الله تعالى وفعله وقضائه وقدره.

إذنْ إذا أراد الإنسان الوصول إلى الحقيقة فعليه أنْ لا يحبس التفتيش عن الحقيقة في صورة وظاهر الخطاب، بلْ لابدَّ من التفتيش عن المراد الجدي.

ومن خلال هذا كُلَّهُ نعرف موقف إبراهيمعليه السلام من خلال قوله وأنْ لا نحكم على مرادهعليه السلام بقوله (هذا ربي) يُشير إلى الزُهرة أو كوكب معين.

وعلى أي حال فهذهِ سُنَّة عظيمة أقرَّها الله في فعل إبراهيم وهو نبي من أنبياء الله العظام، والقرآن الكريم وكذا السُّنَّة الشريفة حَذَّراً من اتِّباع المتشابه، فلا تقول: مثلاً لماذا كان أميرُ المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام موقفه مع معاوية كان كذا ومع المرأة كان كذا ومع فلان كان كذا ... الخ، وليكن هذا ما اتخذه أمير المؤمنين من الموقف، إلّا أنَّ حقيقة الأمر وعاقبته لا تُعْرَف

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١٦.

فقط من خلال لفظة صورية أو نقول لو كان موقف النبي الفلاني من فلان كذا لكان كذا فهذهِ نظرة إلى اللفظة والمستوى التصوري، وهذا من الأخطاء الفادحة، وإنَّما لابدَّ من النظر إلى عاقبة هذا الأمر فإنَّه يمثل إرادة الحقيقة، ولا يدلُّ هذا على الازدواجية في العمل كلا فإنَّ طبيعة الأمور هي هكذا؛ لذا قالت الآية ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾[(١)].

إذنْ التبديل موجود ومستمر من الله تعالى إلّا أنَّ المراد الجدي والحقيقة شيء آخر وعليه فالقرآن يَذُم أهل البصيرة القاصِرَة ﴿فَأَمَّا الْإِنسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ، وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾[(٢)].

وهاتان الآيتان المباركتان من سورة الفجر تدلان بوضوح على أنَّ الأمور بعواقبها وخواتيمها لا أنَّه لا عاقبة للأمر، وإنْ كان بعض المفسرين يذهب إلى تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾ بأنَّ الله تعالى إذا ما ابتلى الإنسان وقدَّر عليه رزقه فقد أهانه وفيه هوانه، وأنَّه لا عاقبة للأمر، وهذا إشارة إلى قصر البصيرة.

لذا وَرَدَ في عدَّة روايات تدلُّ على أنَّ الفقراء الصالحين يعلمون في يوم القيامة مدى حنان الله عليهم، وحب الله لهؤلاء الفقراء الصالحين يوم القيامة لا أنَّه تعالى قدر عليهم رزقهم في الدنيا، لأجل إذلالهم كلا، وإنَّما حتّى يكونوا مشمولين لحنان ورعاية الله تعالى يوم الدين، إذنْ ليسَ المنظور ظاهر معنى الآية، وإنَّما المنظور العاقبة وما يختتم للمخلوق.

---

(١) سورة الأنفال: الآية ٣٠.

(٢) سورة الفجر: الآية ١٥ ـ ١٦.

وعليه إذا قرأنا الآيات المتعددة في خطاب إبراهيم عليه السلام فتكون العاقبة من مجموع الصدر والذيل كمجموعة منظومة فهذا هو معنى الأمومة بمعنى أنَّه يجب أنْ ننظر إلى الأمور كمنظومة مجموعية لا أنَّه ننظر إليها مبعثرة ومشتتة، بلْ لابدَّ من أنْ تكون هناك نقطة مركزية ومحورية في المعرفة الدينية وفي معرفة تفسير القرآن الكريم، وتلك النقطة المركزية هي محورية ومركزية الولاية للمحكمات فضلاً عن المتشابهات، وعلى تلك المحكمات تنتظم المعرفة وصحة حقائق التفسير حتّى في قضاء الله وقدره.

النموذج الخامس: قوله تعالى: ﴿قَالَ يَا ابْنَ أُمَّ لاَ تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلاَ بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾[1].

في هذهِ الآية المباركة بَيَّنَ موسى عليه السلام عِظَمَ ما اقترفوه بنو إسرائيل بعد النبي موسى عليه السلام من طاعتهم للسامري ومتاركتهم لوصي النبي موسى وهو هارون عندما قال موسى عليه السلام لأخيه هارون: ﴿اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلاَ تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾[2].

وهنا موسى عليه السلام لم يرقب القول ولا الفعل وهو الآخذ باللحيّة والرأس والجر فإنَّ المراد الجدي من هذا الفعل فيه نوع من التأنيب من نبي الله موسى عليه السلام إلى النبي هارون عندما عَبَدَ بنو إسرائيل العجل.

وعليه فإنَّ هذا الفعل من موسى عليه السلام لهارون عليه السلام ليسَ مغزاه ما هو صورةٌ ظاهِراً فموسى عليه السلام يعلم أنَّ النبي هارون كان مُبَرَّءاً عمّا ابتُليت به الأمَّة بعد موسى عليه السلام وإنّما أراد موسى أنْ يُبين مدى فداحة الأمر الذي

---

(١) سورة طه: الآية ٩٤.

(٢) سورة الأعراف: الآية ١٤٢.

ارتكبوه بنو إسرائيل بعبادتهم للعجل، ومُرادُ موسىعليه السلام من هذا الكلام نظير ما مَرَّ في قوله تعالى في توجيه الله تعالى ظاهِر الخطاب إلى عيسى بن مريم، وكان المراد شيئاً آخر ﴿أَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللهِ﴾[1].

وهكذا مراد موسىعليه السلام نظير ما تقدم أيضاً من الخطاب الذي وجهته فاطمة الزهراءعليها السلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام ظاهره التأنيب في الدفاع عنها في مقام الهجوم على بيتها من قبل أصحاب السقيفة، هذا ما أرادت الزهراءعليها السلام أنْ تبينه من خلال توجيه خطاب لأمير المؤمنينعليه السلام ظاهره التأنيب وهذا لا يَخِلُّ بعدالة وشجاعة وشخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام.

وعليه فما جرى من هارون للنبي موسىعليه السلام لا ينفي طهارة وعصمة موسى ولا هارون، وإنَّما هو لأجل تبرئة ساحة النبي هارون، ولكي يُبين فداحة الخطب أمام الملأ، ولكي يُبين براءة النبي هارون عن الانحراف الذي اتركبه بنو إسرائيل، وأنَّ المراد الجدي لموسىعليه السلام ليسَ على ظاهر خطابه.

إنْ قلتُ: إنَّ صدور هكذا فعل من نبي يُنافي العصمة ويدلّ على عدمها؟

قلت: مَن قال أنَّ المراد الجدي من هذا الفعل هو صورة الفعل كي تقول أنَّه يدلُّ على عدم العصمة ويُنافيها، كلا، مما تقدم يُعْلَم أنَّ المراد

---

(١) سورة المائدة: الآية ١١٦.

الجدي مِن ظاهر هذا الفعل شيء آخر وليسَ هو كما علي صورة لأمر.

نظير ما مَرَّ في قوله تعالى في توجيه الله تعالى ظاهر الخطاب إلى عيسى بن مريم وكان المرادُ شيئاً آخر ﴿ءَأَنتَ قُلتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[1].

وهكذا مُرادُ موسىعليه السلام نظير ما تقدم أيضاً من الخطاب الذي وجهته فاطمة الزهراءعليها السلام لأمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام ظاهره التأنيب في الدفاع عنها في مقام الهجوم على بيتها من قبل أصحاب السقيفة، هذا ما أرادت الزهراءعليها السلام أنَّ تبينه من خلال توجيه خطاب لأمير المؤمنينعليه السلام ظاهر التأنيب وهذا لا يَخِلُّ بعدالة ولا شجاعة وشخصية أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام.

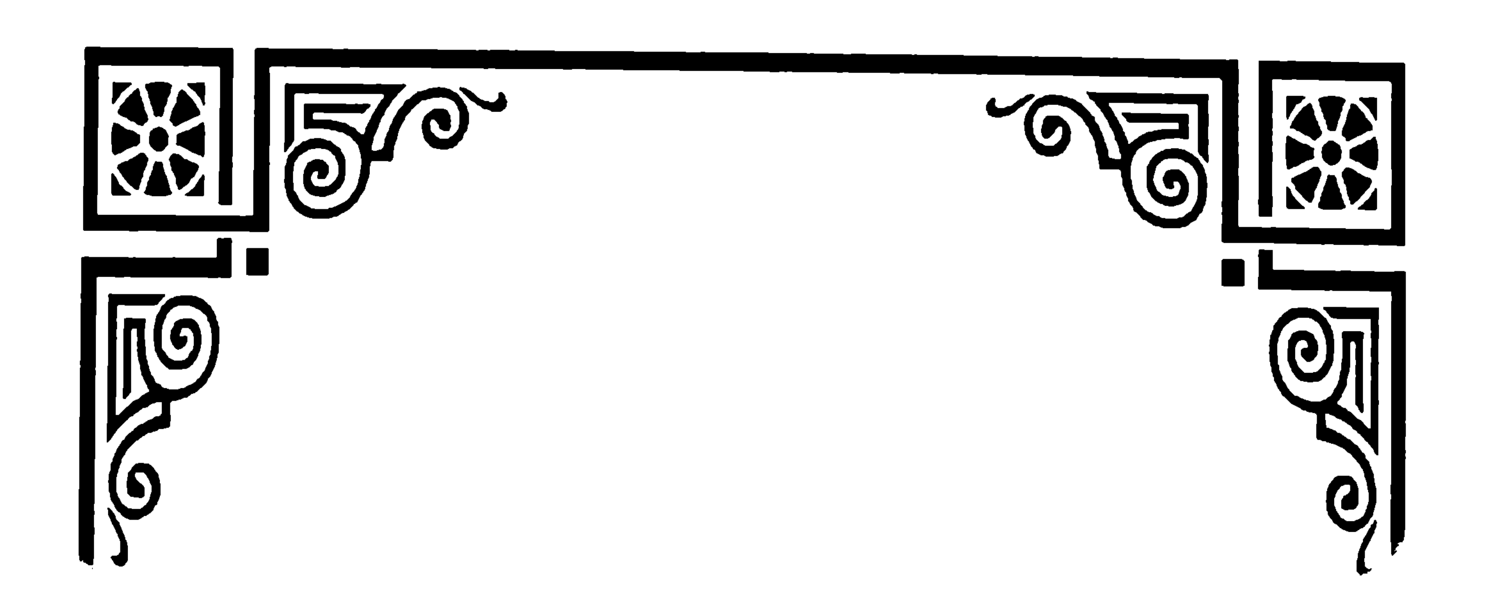
وعليه فما جرى من هارون للنبي موسىعليه السلام لا ينفي طهارة وعصمة موسى ولا هارون وإنَّما هو لأجل تبرئة ساحة النبي هارون، ولكي يُبين فداحة الخطب أمام الملأ ولكي يبين براءة النبي هارون عن الانحراف الذي ارتكبه بنو إسرائيل، وأنَّ المراد الجدي لموسىعليه السلام ليسَ على ظاهر خطابه.

إنْ قلت: إنَّ صدور هكذا فعل من بني يُنافي العصمة ويَدُلُّ على عدمها؟

قلتُ: مَن قال أنَّ المراد من هذا الفعل هو صورة الفعل كي تقول أنَّه يدلُّ على عدم الصحة ويُنافيها، كلا، مما تقدم يُعلم المرد الجدي من ظاهر هذا الفعل شيءٌ آخر وليسَ هو كما عليه صورة الأمر.

---

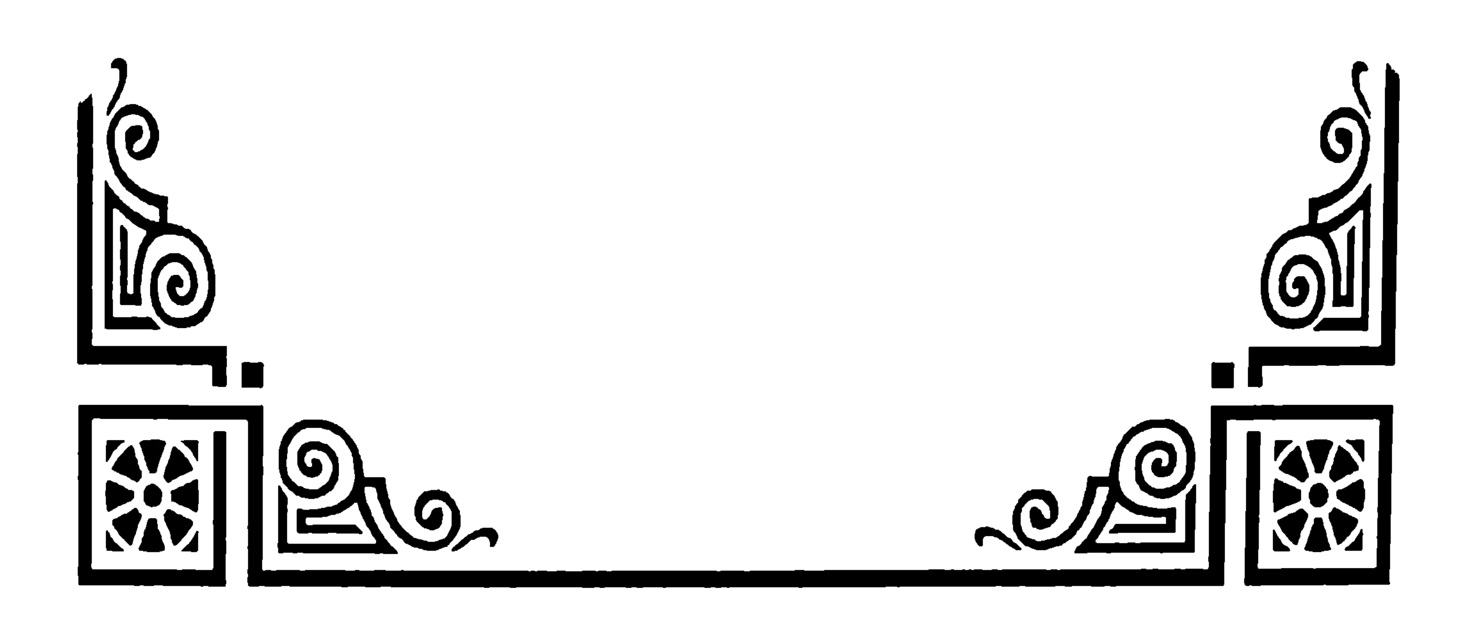
(١) سورة المائدة: الآية ١١٦.



الفصل السابع

القاعدة الرابعة

استعمال اللفظ في أكثر من معنى



قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى

- ❖ مقدمة:
- ❖ القسم الأوّل: استعمال اللفظ في المعنى الواحد.
- ❖ أصل بحث قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى في علم الأصول.
- ❖ اقوال ومباني علماء الأصول في القاعدة المبحوثة.
- ❖ اللفظ بحسب الوضع اللغوي يمكن أنْ يكون لفظا واحداً يرتبط بعدة معاني أو لا ..
- ❖ أقسام الدلالة.
- ❖ بحث حول القرائن.
- ❖ الأدلة على إثبات قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى.
- ❖ الشرائط المعتبرة في القاعدة المبحوثة.
- ❖ شرائط حجية التفرعات والنتائج المترتبة على القاعدة المبحوثة.
- ❖ العلاقة بين منهج أمومة المحكمات والولاية وبين التوحيد.
- ❖ ادّعاء المنهج السلفي اتباع الروايات الصحيحة.
- ❖ علم النقد الأدبي من أهم علوم اللغة.
- ❖ ولاية أهل البيت عليهم السلام هي مدار القرآن وباقي الكتب السماوية.
- ❖ الضوابط التطبيقية لقاعدة استعمال اللفظ في أكثر من منعى.
- ❖ بحث آخر حول القرائن.
- ❖ القسم الثاني: استعمال اللفظ في أكثر من معنى.
- ❖ الموارد التطبيقية لقاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى.
- ❖ علاقة قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى بالأسماء الإلهية اللفظية:
- ❖ الطعون الموجّهة إلى قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى.
- ❖ المراتب المعلومة والبحث العلمي.
- ❖ النتيجة النهائية.

استعمال اللفظ في أكثر من معنى

مقدمة:

لا زال الكلام في النظام الأوَّل من الأنظمة الثلاثة التي اخترناها في منهجة تفسير أمومة الولاية للمحكمات وأمومتها وولاية أهل البيت عليهم السلام وهي نظام الاستعمار اللفظي، ونظام المعاني، ونظام الحقائق ـ وتقدم الكلام في القواعد الثلاث من النظام الأوَّل ـ نظام استعمال الألفاظ ـ وهي: ـ

١ ـ القاعدة الأولى: نظام التعريض.

٢ ـ القاعدة الثانية: نظام الالتفات.

٣ ـ القاعدة الثالثة: إياكِ أعني واسمعي يا جارة.

٤ ـ القاعة الرابعة: استعمال اللفظ في أكثر من منعى، وهي محل البحث الآن فعلاً.

وقبل الدخول والخوض في تفاصيل هذهِ القاعدة المهمة والخطيرة ذات الذيل العريض الطويل والتي تطرد في أصل البيان الوحياني في أسماء الله وتوحيده، فكيف ما دونه من الاستعمالات الوحيانية؟

ينبغي الالتفات إلى عِدَّة أمور:

الأمر الأوَّل: نتعرض في شرح وبيان هذهِ القاعدة إلى أنَّ الكلام فيها على قسمين:

القسم الأوَّل: استعمال اللفظ في المعنى الواحد. وهو القدر المتيقن في

مقام الخطاب.

القسم الثاني: استعمال اللفظ في أكثر من معنى، بملاحظة القرائن وتلاوينها وهو محل البحث الفعلي والمهم.

الأمر الثاني: الإشارة إلى جملة أمور ترتبط بالبحث عن هذهِ القاعدة المهمة من قبيل:ـ

أولاً: البحث عن هذهِ القاعدة لا يختص بالبحث عن المفردات واللفظة الواحدة، وإنَّما يتعدى إلى الهيئات التركيبية للجمل التامة والناقصة، وهكذا التركيب التام لا يقتصر فيه على التركيب التام بلْ قدْ تتشكل تركيبات تامة تتركب وتترابط فيما بين بعضها البعض: من جملة الشرط وجوابها، والإداة الرابطة وعليه فلابدَّ من الالتفات والتنبه على أنَّ استعمال اللفظ في أكثر من معنى ليسَ ما يوهمه ظاهر عبارة هذهِ القاعدة من انحصار المعنى باللفظ، بلْ يعني كل دال لفظي سواء كان حركة إعراب أو هيئة بناءً مادّة لفظية بلْ ومن نفس المادّة اللفظية تتكوَّن هيئة جملة كاملة أو ناقصة أو هيئات أُخرى، أو بعبارة أُخرى الكلام في دلالة اللفظ على المعنى على قسمين:

القسم الأوَّل: استعمال اللفظ في معنى واحد، وهو ما نحن فيه الآن فعلاً.

القسم الثاني: استعمال اللفظ في أكثر من معنى، وسيأتي إنْ شاء الله تعالى.

القسم الأوَّل: استعمال اللفظ في معنى واحد:

إنَّ قاعدة استعمال اللفظ في معنى واحد لا تقتصر ولا تُحْبس في معاني قوالب الألفاظ فقط بخصوص علم معين مثلاً كالنحو أو الصرف أو ...

الخ بلْ تشمل كافة أنواع قواعدعلوم اللغة كعلم البلاغة بما فيه من علم البيان وعلم المعاني وعلم البديع وعلم الاشتقاق وعلم نحت اللغة وعلم أصل اللغة و ... الخ إلى أنْ تكثرت العلوم وتوسَّعت ونمت إلى الآن فقط علوم اللغة رَبَتْ أقسامها على العشر علوم وكل هذهِ العلوم لها قواعد تنطلق من دوال لفظية، ثم إنَّ كل دال لفظي دلّ لفظي قدْ يكون محسوس وغير مرئي مثل الهيئة وعلى اختلاف الهيئات سواء انفرادية أو تركيبية، تامة أو ناقصة أو ... الخ.

فإنَّ كل هذهِ الدوال اللفظية يمكن أنْ تستعمل في أكثر من معنى على ما سيأتي تفصيله وتوضيحه بالأمثلة، فمثلاً الضم قدْ يستخدم علامة على الفاعل أو علامة للخبر أو المبتدأ أو الصفة التابعة أو قدْ يستخدم الضم للبناء على الضم وقد ... الخ كل ذلك في آن واحد، وكل واحد من هذهِ الهيئات المختلفة لها معناها الخاص المختلف عن الهيئةالأُخرى.

وعليه إذا بنينا على علم التفسير للقرآن الكريم على هذا الأساس المتين والمتشعب والمتوسع بهذا الوسع، وسُنبين صحة هذا الالتزام والبرهنة على ذلك ببيانات مختلفة، ومثل هذا الالتزام يفترق بهذا الوسع اللامحدود عمن لا يلتزم به، فمثلاً مسار معظم المفسرين كما سيأتي مبني على أساس أنَّ الآية الواحدة ليسَ لها إلّا ظهور واحد فيجب حينئذٍ أنْ يُقيم المُفَسِّر عملية الترجيح بين صياغات الظهور المختلفة المتعددة من ناحية الإعراب بنحو الجملية الأسمية يختلف عن الإعراب بنحو الجملة الفعلية والإعراب بنحو المفرد من كون هذا فاعل، أو مبتدأ، أو صفة، أو خبر أو ... الخ فكل واحد من هذهِ الهيئات المختلفة له معناه المختلف عن الآخر كما تقدم قبل

قليل باختلاف الهيئات الإعرابية عن هيئات البناء المختلفة، فإنَّ مثل البناء على الضم له هيئة ومعنى تغاير البناء على الكسر، وهي تغاير هيئة البناء على السكون بالهيئة والمعنى.

والبناء على حركة معنية بدوره يغاير الإعراب، الذي معناه ـ أي الإعراب ـ بيان معنى زائد على أصل وضع الألفاظ المفردة اللغوية الذي هو معنى التركيب الزائد.

وهذا المعنى الإعرابي له دوره المهم في معرفة المعنى العام ومِن ثَمَّ معرفة معنى التفاصيل، إلّا أنَّه وللأسف هناك نظرة سلبيّة أُحادية البُعْد والأفق وهي: أنَّ المفسرين الذين يعتنون ويبينون إعراب الآيات القرآنية دائماً ينظرون إلى أنَّ هذهِ الآية فيها إعراب واحدٌ صحيح وباقي الوجوه الإعرابية الحمّالة لمعنى آخر هي خطأ، وهذا مما يؤسف له لضيق النظرة السطحيّة وعدم الغور في الأعماق.

بخلاف مثلاً قاعدة [استعمال اللفظ في أكثر من معنى] فإنَّها تقول إذا كانت كل الأعاريب للجملة الواحدة سواء كان التركيب تاماً ام ناقصاً، صحيحة على ضبط قواعد وموازين فلا مانع من أنْ تكون كُلَّها صحيحة ومُرادة سَوِّية وسديدة.

نعم، يبقى أنْ الإعراب للمفردة أو الجملة له أولوية معينة ويُقدَّم على غيره لأرجحيته، أو أنَّ هذا الوجه الإعرابي ذو وجود مؤثر على المعنى، فذاك بحث آخر إلّا أنَّه بالتالي هذهِ الوجوه الإعرابية في الآية القرآنية، أو الجملة التركيبيّة صحيحةٌ ويُحْتَجّ بها، وهذا مسار آخر يُعَزِّز استعمال قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى، عليه فمثل هذهِ القاعدة يمكن استعمالها

في علوم شتى متباينة ما دام المجال لهذه الاستعمالات مفتوح، وبالتالي يكون لهذه القاعدة المهمة والخطيرة تنوِّع بالتطبيق فيمكن استعمال الدالة اللفظية الواحدة في المعاني والدوال اللفظية المتعددة بتعدد علوم اللغة، بلْ بتعدد قواعد علوم اللغة، فضلاً عن مصاديق قواعد كل قاعدة في علم اللغة فحينئذٍ ينفتح لنا أفق وسيع جداً، ويكون لكل مقطوعة لفظية من الآيات الكريمة هذهِ الجملة أو هذهِ المقطوعة اللفظية على صعيد الدلالة التصورية عِدَّة مفاهيم، وعلى صعيد الدلالة الاستعمالية عِدَّة معاني وتركيبات ومفادات، وعلى صعيد الدلالة التفهيمية عِدَّة معاني وعِدَّة دلالات، وعلى صعيد الدلالات الجديّة فتكون عِدَّة طبقات على مستوى الصعيد الجدي نكتشفها بحدود القدرة البشرية.

وعليه فينبغي للمُفَسِّر أنْ يلتفت حتّى لا يقع في الخطأ والتخبط والسير العشوائي، إلى أنَّ الإعراب للآية الواحدة ليسَ هو فقط وجه واحد هو الصحيح، وأمَّا الوجوه الأُخرى فهي خطأ، أو فيهامقدار من الصحة إلّا أنَّه قريب،فهذا لا نوافقه.

وبالتالي من الأمور المهمة جداً للمفسر معرفة هذهِ التلاوين ومعرفة نسبتها وعلاقتها مع العلوم الأُخرى فهي شبيهة بنسبة الملح في الماء والطعام.

ثانياً: إنَّ المراد بقاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى ليسَ هو خصوص الاستعمال في مرحلة الاستعمال والمدلول الاستعمالي، بلْ المراد في الحقيقة مراتب متعددة من المداليل والدلالات بدءاً من الصعيد التصوري إلى الصعيد الاستعمالي والى صعيد المعنى التفهيمي والمعنى الجدي، والمعنى الجدي وطبقاته، وبعبارة أوضح.

مضمون قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى هو أنَّ أية دالة لفظية يمكن استعمالها في أكثر من معنى ـ واستعمالها في المعنى الواحد هو القدر المتيقن ، فإنَّ الدالة اللفظية تدل على معنى تصوري، ثم المعنى التصوري يدلُّ على معنى استعمالي، أي أستعمال معنى في معنى غاية الأمر المعنى التصوري يُقصد به استعماله في المعنى الاستعمالي، ثم المعنى الاستعمالي يُقصد به ويُسلك به كسبيل ونافذة إلى المعنى التفهيمي، ثم المعنى التفهيمي يُقصد به ما وراءه أعني به المعنى الجدي.

وهناك بعض الأمثلة التطبيقية لهذه القاعدة ستأتي مُفَصَّلة نشير بإجمال لبعضها:ـ

من قبيل: ما هو المستعمل في الشعر الشعبي الدارج المعروف بالأبوذية، فإنَّ لفظة واحدة تنتهي بها الأبيات الثلاثة الأولى بمعاني مختلفة، ونفس الصوت يكون بنبرات مختلفة في الألفاظ الثلاثة المُوحَّدة المادة والمختلفة الهيأة في بعضها أيضاً يؤدي إلى الاختلاف في المعنى[(١)].

ومن قبيل: الاختلاف الذي يطرأ على بنية الكلمة أيضاً يكون استعمال الصوت في أكثر من معنى وفي أكثر من لفظ. إلى غير ذلك من الأمثلة التي ستأتي في محلها إنْ شاء الله تعالى.

وهكذا يمكن تطبيق هذهِ القاعدة في مجال عالم الأمن إلى ما شاء الله

---

(١) نظير قول الشاعر في حق أمير المؤمنين عليه السلام:

بعد جرح الوصي هيهات ينشال   وچن الصَوَّبة يا ريت ينشال (ينشل)

وَيَ نعشه العدل للگبر ينشال   ويتامَه نظل عگب حامي الحميّة

وأنَّ كل لفظة تدل على معنى معين خاصة في القطعات العسكرية والأمنية والاستخباراتية و ...الخ.

ثالثاً: البحث عن القرينة الواحدة والقرائن المتعددة والتناسب بين القرائن لا يختص بالبحث عن لفظة واحِدة أو لفظتين أو ثلاثة أو ... الخ بلْ كُلُّ علم من العلوم اللغوية والأدبية فهناك قواعد وآليات لكل علم من العلوم المختلفة كعلم الصرف وعلم النحو وعلم البلاغة وعلم الاشتقاق، والمراد من استعمال تلك الآليات ليست في معنى واحد، فمثلاً في علم النحو:ـ

إعراب الضم يستعمل في آليات متعددة يستعمل: ـ في الفاعل والمبتدأ والخبر، واسم كان، وخبر إنَّ والصفة التابعة و... الخ فهذهِ هيئات مختلفة، وهكذا قاعدة تقديم ما من حقه التأخير فإنَّها أحد آليات علم النحو والذي يُفيد معنى الاختصاص مثل [إيّاك نعبد وإيّاك نستعين][1] وله معنى أو معاني أُخرى، ويمكن استعمال نفس هذهِ القاعدة ـ تقديم ما من حقه التأخير ـ في علم المعاني ولها معنى آخر، وهكذا يمكن استعمال هذهِ القاعدة في علوم أُخرى ولها معانى شتى.

والخلاصة: في علوم مختلفة توجد قاعدة لها عِدَّة استعمالات فكيف تؤدي الغرض المطلوب، فمثلاً في علم النحو قدْ تكون قاعدة واحدة لها عِدَّة أعاريب وتتفرع عنها عِدَّة قواعد فكيف تستخدم وتعطي الغرض المطلوب، إذنْ هذهِ آليات في علوم اللغة استعملت في أكثر من معنى،

---

(١) سورة الفاتحة: الآية ٥.

واستعملت في الهيئات التامَّة والناقصة و ... الخ.

وحينئذٍ سوف نقف على أفق لا محدود، وأنَّ مثل هذا كُلَّهُ يدخل تحت قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى.

أصل بحث قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى في علم الأصول

أهمية علم الأصول:

أصل هذهِ القاعدة المهمة بُحِثَ في علم الأصول وانبرى علماء الأصول في تحقيقها في قسم مباحث الألفاظ ولا يَخْفَى الصلة الوطيدة بين بحوث علم أصول الفقه وقواعد تفسير القرآن الكريم؛ وذلك باعتبار أنَّ أصول الفقه كما هو الصحيح ليسَ أصول وقواعد لفقه الفروع فقط، بلْ الصحيح أنَّ علم الأصول هو علم بقواعد مطلق المعرفة ومنها المعارف والعلوم الدينية أي فقه الدين بأسره من علم آداب الدين وأخلاق الدين وعلم عقائد الدين، وعلم التفسير وعلم السيرة وعلم الرجال وعلم الحديث وعلم السُنَّن وعلم فقه اللغة والعرفان، وعلم الكلام و ... الخ.

فإنَّ الفهم المتصل والمرتبط بالدين يمنهجه ويمنطقه منهجياً هو قواعد أصول الفقه؛ ولذا من الخطأ الفظيع أنْ نقع في غفلة أنَّ قواعد أصول الفقه فقط هي ذات شأن وصلة بالفروع، فإنَّ مثل هكذا تصور خطأ وظلم لعلم الأصول وحَبْس الانتفاع من قواعده وآلياته فقط في فقه الفروع.

ولذلك نلاحظ أي علم يرتبط بالدين سواء ارتباطاً قوياً وقريباً أو بعيداً وضعيفاً فنلاحظ أنَّ القواعد العامة التي تُذكر في مقدمته أو لنهايته تضبط وتمنهج لقواعد أصول الفقه، والسبب في ذلك هو: ـ

إنَّ أصول الفقه عبارة عن أصول وضوابط لفهم وقراءة نص الوحي الإلهي باعتبار أنَّ العلوم الدينية لا تعتمد على نتاج المصنع والفكر البشري ولا تنحبس في أفق النتاج البشري، بلْ تُحلِّق في سماء النص الوحياني الإلهي، ولذلك في تعبيراتهم يعبرون عن علم أصول الفقه بأنَّه علم نقلي في حين هو عقلي أيضاً وذلك باعتبار أنَّ المعرفة الدينية تعتمد على النقل والنص وهما بدورهما يوصلان بالتبع إلى النص الوحياني، ويعتبر النقل أيضاً قناة وطريق للوصول إلى النص الديني والنص الوحياني، وميزان آليات التعاطي مع النص الديني يحكمه علم أصول الفقه.

الخلاصة: إنَّ علم أصول الفقه ضروري لمن أراد أنْ يخوض في علوم شتى كعلم الكلام وعلم الخلاف أي العلم بالمذاهب الإسلامية، وعلم الأديان وعلم السيرة وتاريخ الإسلام، وعلم الرجال وعلم الدراية وعلم الحديث، فإنَّ علم الأصول يوزِن ويَضْبِط حجية الحديث من عدمها.

وعلم الأخلاق وعلم العرفان العملي فمن سائر على قواعد وآليات علم الأصول لا يتيه به المسير حتّى يقع في الانحراف ـ لا سامح الله ـ وعلم التفسير لمن أراد أنْ يقرأ النص الرباني بصورة منضبطة و ... الخ وعليه بالتالي فإنَّ علم الأصول علم مفيد جداً للمعرفة الدينية وإيانا أنْ نظن أنَّ أصول الفقه مقصور على استنباط القواعد الفقهية والعناصر المشتركة بخصوص الفقه فلرب فقيه ليست عنده الرغبة أنْ ينال درجة الاجتهاد واستنباط الأحكام الشرعية ليسَ معناه يُحْرَم ويُمنع من ممارسة قواعد الأصول في علم آخر كعلم الكلام أو التفسير أو العقائد أو علم النفس والأخلاق والآداب، فإنَّ هذا نرفضه أشد الرفض وعلينا أنْ نهتم

بأصول الفقه؛ لأنَّها تمنهج وتوزن القواعِد، وهذا أمر مهم باعتبار أنَّ المعرفة الدينية تعتمد على الحجية وعلى دلالة الدليل، ودلالة الدليل والحجية لا تتمنهج ولا تنضبط إلّا بقواعد أصول الفقه.

هذا مضافاً إلى أنَّ أصول الفقه ليسَ فقط يَعطي الحجية للدليل كما هو المعروف، بلْ حتّى على مبادئ أُسس منظومة التقنين والقانون الديني الذي هو علم أصول القانون فإنَّ لعلم أصول الفقه الدور الأساسي والفاعل في كيفية تصنيف وتشعب القواعد عن بعضها البعض في الواقع الثبوتي.

علم الأصول بمثابة المقنن للقواعد الفوقية والأسس التي تنطلق من قواعد انشعابية فضلاً عن البحث في حجية الدليل، وهذا نظير ما نحن فيه من منهج أمومة المحكمات وأمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام لتفسير القرآن فهو بمثابة النقطة المركزية التي تتمحور وتنتظم حولها محكمات الكتاب الكريم وما وراء القرآن من سائر سور وآيات القرآن ترتبط بها برباط منتظم لا شتات ولا تبعثر فيه.

أقوال ومباني علماء الأصول في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى

استعمال اللفظ في أكثر من معنى على سبيل الانفراد والاستقلال بأنْ يُراد من اللفظ كل واحد من المعاني، كما لو استُعْمِل في أحدها مستقلاً فقد اختلف علماء الأصول في جوازه على أقوال:ـ

القول الأوَّل: المنع من استعمال اللفظ في أكثر من معنى، بمعنى ملاحظته فانياً فيه، ولعلَّ البعض جعل هذهِ هي علة سريان الحُسْن والقبح من المعنى إلى اللفظ فانياً فيه، وليسَ الاستعمال هو مجرد جعل اللفظ علامة على المعنى ووجهاً وعنواناً له.

إذنْ لا يجوز أنْ نجعل اللفظ عنواناً لمعنيين بلْ لمعنى واحد؛ وذلك لأنَّ جعله عنواناً لمعنى يستتبع ملاحظته فانياً فيه، فلا يمكن ملاحظته فانياً في معنى آخر بإرادة أُخرى في استعمال واحد، نعم، يجوز ذلك في الاستعمالين، فالمستعمل لا يمكن أنْ يلاحظ اللفظ فانياً في معنيين على نحو الاستعمال في استعمال واحد إلّا مع فرض كون اللاحِظ ـ كما عَبَّرَ صاحب الكفاية ﵀ ـ أحول العينين يرى الواحد اثنين[1] وهذا القول ذهب إليه جملة من الأصوليين.

ثم أنَّه هل يختلف الحكم بين اللفظ المفرد والمثنى والجمع؟ فإذا ثبت

---

(١) المفيد في شرح أصول الفقه، للشيخ المفيد/ إسماعيل إبراهيم الشهركاني، ج١، ص٩٢، بتصرف.

المنع عن استعمال اللفظ المفرد في أكثر من معنى، كذلك يثبت المنع في المثنى والجمع؛ لأنَّ علامة التثنية والجمع لا تدلُّ إلّا على مجرد تكرار ما أريد من المفرد، وعليه فلا يمكن إرادة معنيين أو أكثر في التثنية والجمع.

وكذا الكلام في الحكم بين المجاز والحقيقة فإذا ثبت المنع من استعمال اللفظ حقيقة في أكثر من معنى للعلة السابقة ثبت أيضاً لنفس العلة المنع عن الاستعمال المجازي مع إرادة معنيين على نحو الاستقلال.

وممن ذهب إلى المنع في استعمال اللفظ في أكثر من معنى صاحب المعالم[١] وذكر في وجه المنع أنَّ اللفظ وضع للمعنى بقيد الوحدة، واستعماله في أكثر من معنى يكون استعمالاً مجازياً بسبب إلغاء قيد وقيد الوحدة، وقد نوقش في ذلك ومَن أراد فليرجع إلى المطولات، وهكذا صاحب القوانين، وما ذكر في وجه المنع: ـ إنَّ الوضع حصل في حال وحدة المعنى ولما كانت اللغات توقيفية لزم الحفاظ عند الاستعمال على جميع ما اعتُبر في الوضع حتّى الظرف والحال التي حصل فيها الوضع، فحينئذٍ يثبت منع وعدم جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى[٢].

أيضاً أورد على صاحب القوانين ومَن أراد ذلك فليراجع المطولات، وإنَّما أعرضنا عن ذكر المناقشات طلباً للاختصار مضافاً إلى أننا لسنا في مقام مناقشة تلك الأقوال إنَّما موكولة إلى محلها، وممن ذهب إلى هذا القول صاحب الكفاية محمد كاظم الخراساني والشيخ النائيني في مقالات الأصول والاصفهاني في نهاية الدراية والمحقق أغا ضياء الدين العراقي و ...

---

(١) معالم الدين، الشيخ حسن بن الشهيد الثاني.
(٢) القوانين

القول الثاني: ذهب جملة من الأصوليين إلى جواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى وقد ذهب إليه جملة من المتأخرين أمثال السيد الخوئي ﷺ في محاضرات أصول الفقه ج١/ ٢٠٨ والشيخ الفياض في المباحث الأصولية، ج١، ص٣٢٤ و ... الخ.

منهم مَن بنى على أنَّه لا مانع من جعل لحاظ اللفظ في الذهن آلياً أداةً ووسيلة لتفهيم معنيين مستقلين إذا كان له علاقة بهما، وهو بهذا اللحاظ فيه يصلح أنْ يكون سبباً لانتقال الذهن إلى كل من المعنيين مستقلاً في آن واحد.

ومنهم مَنْ بَنى على أنَّ حقيقة الاستعمال هي جعل اللفظ علامة على المعنى، فإذا كان شأن اللفظ شأن العلامة فالنظر إليه استقلالي كالنظر إلى العلامة.

ثم على القول بجواز استعمال اللفظ في أكثر من معنى هل يكون هذا الاستعمال على نحو الحقيقة أو المجاز، فمنهم مَن ذهب إلى الحقيقة وبنى على أنَّ الألفاظ موضوعة بإزاء المعاني من دون أخذ قيد الوحدة الذي ذكره صاحب المعالم ﷺ فحينئذٍ يكون في الاستعمال حقيقياً لا مجازاً[١].

ومنهم من ذهب إلى المجازية لمخالفة الوضع بقيد الوحدة.

القول الثالث: ذهب بعض الأصوليين أنَّه إذا لم يجز استعمال اللفظ في أكثر من معنى في المفرد فإنَّه يجوز الاستعمال في حالة التثنية والجمع بأنْ يراد من كلمة عينين ـ مثلاً ـ فرد من العين الباصرة وفرد من العين النابعة، فلفظ

---

(١) المباحث الأصولية، للشيخ الفياض، ج١، ص٣١١.

عين وهو مشترك قدْ استُعمِل في حالة التثنية في معنيين في الباصرة والنابعة، وهذا شأنه في الإمكان والصحة شأن ما لو أُريد معنى واحد من كلمة عينين، بأنْ يَراد بها فردان من العين الباصرة مثلاً فإذا صحَّ هذا صحَّ ذاك بلا فرق، والدليل عليه/ أنَّ التثنية والجمع في قوة تكرار الواحد بالعطف فإذا قيل: عينان فكأنما قيل: عين وعين، وإذْ يجوز في قولك (عين وعين) أنْ تستعمل أحدهما في الباصرة والثانية في النابعة فكذلك ينبغي أنْ يجوز فيما هو بقوتها أعني (عينين) وكذا الحال في الجمع[1].

إذنْ اختلف الأصوليون فيما بينهم حول استعمال اللفظ في أكثر من معنى بانه هل يجوز استعمال المشترك اللفظي وضعاً في عِدَّة معاني أوْ لا؟ أو هو ليسَ بمشترك لفظي، بأنْ وضع اللفظ لمعنى واحد لكنَّه يستعملها في المعنى الحقيقي والمجازي وبين معاني متكثرة من المجازي هل يمكن ذلك أو لا؟

على أقوال في المسألة:ـ

منهم مَن قال بالنفي، ومنهم مَن قال بالإثبات، وثالث بالتفصيل، وأنه ممكن فقط على مستوى الإمكان دون الوقوع، أو يقع ولكنْ بقلة، بينما رابع قال يقع وبكثرة، وخامس قال بالإمكان الذاتي دون الوقوعي ثم الوقوعي ثم لا وقوع في الجملة لكنَّ وقوع غالبي و ... الخ.

---

(١) أصول الفقه، للشيخ المظفر، ج١، ص٩٨.

اللفظ بحسب الوضع اللغوي يمكن أن يكون لفظا واحدا يرتبط بعدّة معاني أو لا؟

ذكر علماء اللغة والبيان أنَّ الألفاظ في دلالتها على المعاني لا يخلو حالها في الدلالة إمَّا حقيقة بلحاظ جهة الوضع، وإمّا مجازاً، وهي على مراتب مختلفة:

منها: مرتبة الألفاظ المتواطئة.

منها: مرتبة الألفاظ المتباينة.

منها: مرتبة الألفاظ المترادفة.

ومنها: مرتبة الألفاظ المشتركة والألفاظ المستغرِقة و ... الخ[1].

وأمَّا بالنسبة إلى استعمال اللفظ الواحد وله ارتباط ودلالة على معاني عِدَّة فقسم من علماء اللغة والأدب العربي قالوا باستحالة المشترك اللفظي، وكذا المشترك اللغوي الذي هو معنى واحد.

فالمشترك اللفظي واللغوي: ـ هو إطلاق كلمة وحدة على عِدَّة معانٍ حقيقية متعددة غير مجازية، أو هو اللفظ الذي وُضِعَ عِدَّة مَرَّات لعِدَّة معاني، مثل العين التي هي إداة النظر، عين الماء، والليث ومن معانيها الأسد، واللسِن البليغ ضَرْبٌ من العنكبوت، والشدة و ... الخ.

إذنْ المشترك اللفظي: ـ هو اللفظ الواحد الدال على معنيين مختلفين

---

(١) الطراز ، للعلوي اليمني، ص٢٧٤.

فأكثر على السواء عند أهل اللغة ومن أمثلته لفظ (الحوب) الذي يُطْلَق على أكثر من ثلاثين معنى منها: ـ

الأثم، الأخت، البنت، الحاجة، المسكنة، الهلاك، الحُزْن، الضرب، الضخم من الجِمال، رقّة فؤاد الأم، زجر الجمل، و... الخ.

وهكذا لفظ (الخال) الذي يُطلق على أخي الأم، وعلى الشامة في الوجه، والسحاب، والبعير الضخم، والأكَمَة الصغيرة ... الخ.

موقف الباحثين من المشترك اللفظي:

اختلف الباحثون في مسألة ورود المشترك اللفظي في اللغة العربية، إذْ أنكره فريق منهم مؤوِّلاً أمثلته تأويلاً يُخرجها من بابه، كأنَّ يجعل إطلاق اللفظ في أحد معانيه حقيقة وفي المعاني الأُخرى مجازاً، وفي طليعة هذا الفريق ابن دُرُستويه في كتابه (شرح الفصيح).

ومقابل هذا الفريق فريق ذهب إلى كثرة وروده فأورد له شواهد كثيرة لا سبيل إلى الشك فيها، منهم الأصمعي، أبو عبيدة و...الخ.

والحق أنَّ الاشتراك اللفظي ظاهرة لغوية موجودة في معظم لغات العالم ومن التعسف إنكار وجودها في اللغة العربية، وتأويل جميع أمثلتها تأويلاً يخرجها من هذا الباب.

أسبابه: أعاد الباحثون سبب الاشتراك اللفظي في اللغة العربية إلى عوامل عِدَّة منها:

١ ـ اختلاف اللهجات العربية القديمة فمعظم ألفاظ المشترك جاء نتيجة اختلاف القبائل في استعمالها، وعندما وضعت المعاجم ضمَّ أصحابها

المعاني المختلفة للفظ الواحد دون أنْ يعنوا نسبة كُلّ معنى إلى القبيلة التي كانت تستعمله.

٢ ـ التطور الصوتي الذي يطرأ على بعض أصوات اللفظ الأصلية من حذف أو زيادة أو إبدال فيصبح هذا اللفظ متحداً مع لفظ آخر يختلف عنه في المدلول، فقدْ طرأ مثلاص على لفظة (النغمة) واحدة (النغم) تطوِّر صوتي بإبدال الغين همزة التقارب المخرج فقيل (النَّأْمُةُ) بمعنى النغمة، وكذلك بالنسبة إلى (جذوة) و (جثوة) و)الغَشْمُ) و (الغَشْبُ) :ـ التعدي والظلم.

٣ ـ انتقال بعض الألفاظ من معناها الأصلي إلى معاني مجازية أُخرى لعلاقة ما، ثم الإكثار من استعمالها، حتَّى يصبح إطلاق اللفظ مجازاً في قوة استخدامه حقيقة مثل (العين) تطلق على الباصرة والجارية وعلى أفضل الأشياء.

٤ ـ العوارض التصريفية التي تطرأ على لفظين متقاربين في صيغة واحدة، فينشأ عنها تعدد في معنى هذهِ الصيغة مثل (وَجَدَ) فيقال:ـ وُجَدَ الشيء وجوداً أو وجداناً إذا عثر عليه، ووجد عليه موجدةً إذا غضب، ووجد به وجداً إذا تفانى في حبه[١].

المشترك المعنوي:

اللفظان اللذان لهما معنيان ويشتركان في معنى ثالث.

أو هو اللفظ الذي وضع مَرَّة واحدة ولكنَّه يدلُّ على جهة مشتركة

---

(١) المعجم المفصل في اللغة والأدب، ج١، ص١١٨.

بين أمور متعددة.

ومن هنا نستطيع أنْ نقول أنَّ دلالة الألفاظ على معانيها على عِدَّة أصعِدَة: ـ

الصعيد الأوَّل: انسباق المعنى الوضعي من اللفظة.

الصعيد الثاني: اللفظ مستعمل في معاني عديدة يقصد منه ذلك فهل ممكن ذلك أو لا؟ فحتى لو قلنا بعدم وجود مشترك لفظي إلّا أنَّ هناك نسق علاقة وضعية حقيقية مع معنى واحد، ولكنْ له علائق كثيرة مع المعنى المجازي.

الصعيد الثالث: قصد المعنى التفهيمي من استعمال اللفظ في أكثر من معنى وهذا غير المدلول الاستعمالي، فإنَّ المعنى التفهيمي من اللفظ أو الجملة يختلف عن المعنى الاستعمالي، وعليه فهل يمكن للمتكلم أنْ يستعمل المعنى الاستعمالي في أكثر من معنى تفهيمي أو لا؟

نعم، يمكن وهذا يدلُّ على أنَّ اللفظ الواحدة أو الجملة الواحدة يمكن أنْ تتشعب أكثر فأكثر؛ لأنَّه في البداية يوجد معنى تصوري أولي، ثم إنَّ كُلّ معنى تصوري يرتبط مع معنى استعمالي متصل، ثم كُلّ معنى استعمالي يتصل بمعاني ترتبط بأغصان ثم إنَّ كُلّ غصن يرتبط بأغصان أكثر فرعيّة وهكذا.

فمثلاً نقول: ـ زيدٌ كثير الرماد فلفظة الرماد استعملت بالرماد وبالكثير، ولكنْ المعنى الذي يُريد أنْ يُفهْمه المتكلم للسامعين هو أنَّ زيداً كريمٌ.

وعليه: لو تمت هذهِ القاعدة تكون مصداقاً لما قال الإمام الصادق عليه السلام قبل أكثر من ثلاثة عشر قَرْناً ولم تقله المعلقات السبع ولا سوق عكاظ الأدبي ما مضمونه: ـ [إنَّ الكلام يتصرف إلى سبعين وجهاً] والمراد بالسبعين كناية عن الكثرة والكاثرة لا الحصر.

إذنْ الكلام ليتصرف إلى سبعين وجهاً ليسَ فقط في هذهِ القاعدة وإنَّما حتَّى في القواعد الأُخرى التي تقدمت كقاعدة: ـ التعريض، والالتفات، وإيّاكِ أعني واسمعي يا جارة ـ كُلُّها تبيان وبرهان لهذه الحقيقة التي بيَّنها الأئمة عليهم السلام وإلى يومنا هذا فإنَّ العلماء والفقهاء وكبّار المفسرين و... الخ لا يقدرون على اكتشاف هذهِ الشبكة العنكبوتية المنظومية التي أسّسها وأرسى دعائمها الأئمة عليهم السلام وليسَ باستطاعتهم الالتفات إلى تلك التشعبات الدقيقة التي تحتوي عليها تلك الشبكة العظيمة، صحيحٌ إنَّ قُدُرات الفقهاء والمفسرين محدودة إلّا أنَّ واقع البيان اللفظي أوسع أفقاً من قُدرات البشر المحدودة والمحسوسة بقدرة وجود وهبوط قدرةِ البُشر، بخلاف القدرةِ التي أودعها الله تعالى في البيان في ﴿الرَّحْمَن، عَلَمَ القُرْآن، خَلَقَ الإنسَان، عَلَمَهُ البَيَان﴾[1] والتي لا يستطيع أنْ يغور فيها غير المعصوم من البَشر إلّا على حساب قواعد منضبطة ومنهجيّة مُحكَّمة ولها أمومة مركزية ورعاية مِن قبل أئمة أهل البيت عليهم السلام، فسابقاً كانت المذاهب الإسلامية توجِّه الطعن إلى مدرسة أهل البيت عليهم السلام بأنَّها مدرسة تأويلية باطنية تلاعبية في النص الديني، هكذا كانوا يزعمون إلى قبل خمسين سنة، والكتب التي صدرت من رجال الأزهر الشريف فضلاً عن طعن الوهابيّة

---

(١) سورة الرحمن: الآيات من ١ ـ ٤.

والسلفية في هذا المجال.

أمَّا الآن وقدْ أصبحت البشريّة في عصر حضارة ثورة المعلومات فوصلت إلى هذهِ الحقيقة التي نادى بها أئمة أهل البيتعليهم السلام قبل أكثر من (١٣) ثلاثةعشر قَرْناً وأكَّدوا عليها من أنَّ اللسان البشري يتفجر منه قراءات تعددية والقراءات عصارة متبدهة في ذهن البشر إلّا أنَّه لمْ يفهمها في وقتها ولا زال بعضهم لمْ يَفْهم ولم يحاول أنْ يفهم، إلّا أئمة أهل البيتعليهم السلام ومَن شُمِلَ لرعايتهم التعليمية، ومن تلك الأمور التي أسسوها هي هذهِ القاعدة الضخمة [إنَّ الكلام ليتصرف إلى سبعين وجهاً] وباستطاعة المتكلم أنْ يخرج من كُلّ هذهِ الوجوه والمخارج ليست أحادية الطريق.

ولذا الإمام الصادقعليه السلام في هذهِ القاعدة بَيَّن حقيقة خفيّة على البشر طوال أربعة عشر قَرْناً والآن اكتشفوها ألا وهي التعددية في قراءة النص والألسنيات والتي كان يستهزأ بها مِن قِبَل المذاهب الإسلاميّة الأُخرى خاصة أصحاب الفكر السلفي الوهابي ويُعَبِّرون عنها أنَّها تلاعب في الألفاظ، كيف يكون ذلك.

علماً أنَّ واقع الكلام وطبيعته متفجرة الأبعاد مترامية الأطراف والأركان.

فإنَّ الكلام له مخارج في أبواب مختلفة، أمَّا أنَّ قدرة البشر لا يستطيعون أنْ يُتقنوا إلّا دائرة محدودة ضيّقة فذاك بحث آخر، ولا تَحْبِس طبيعة الكلام ومخارجه بهذا الفهم الضيّق والقدرة الضيقة، فإنَّ هذا تجني على طبيعة الكلام وما ينطوي عليه من حقيقة لا يُدركها إلّا خالق البيان

وهو الله تعالى المحيط بكنه الأشياء ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي العِلْمِ﴾[(١)] وهم النبي وقربى النبي الأكرمﷺ ومَن شَمِلته رعايتهم يُدْرِك مخارج الكلام بحسب استعداده وصفاء سريرته وتقواه و ... الخ.

فإنَّ ذلك كُلَّهُ له الأثر البالغ في فهم معاني الكلمات، فانظر إلى ما قاله القرآن الكريم وما استعمله من أسلوبٍ رائع وجميل وعالي البيان ﴿ ... بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُون﴾[(٢)] فلو رجعنا إلى تفسير الآية نجد عِدَّةَ مخارج أمام النبي إبراهيمعليه السلام إذْ لمْ يواجههم مباشرةً ويقول لهم هذهِ أصنامٌ عبادتها باطلة ولا تنفع وإنَّما استدرجهم بالكلام شيئاً فشيئاً إلى أنْ فعل فِعلاً وَوَجَّه إليهم سؤالاً استشعروا بخطأهم بأنفسهم إذنْ هكذا تلاوين الكلام وأنَّ الكلام ينصرف إلى سبعين وجهاً.

وهكذا الكلام في قصة النبي يوسفعليه السلام ﴿أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُون﴾[(٣)] أي يا أصحاب الإبل إنَّكم لسارقون، وهذا توكيد لكونهم سارقين فأكَّد يوسفعليه السلام بأداة التشبيه والتي تفيد التوكيد [أنَّ] وباللام وعلله الإمام الصادقعليه السلام بقوله **«ما سرقوا وما كذب يوسف»** وإنَّما عني سرقة يوسف من أبيه، ولذا قالت الآية بعد ذلك ﴿قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُون، قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ المَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ ...﴾[(٤)] ولم يقولوا: ـ سُرِقَ صُوَاع الملك وإنَّما قالوا **«نفقِدُ صُوَاع الملك»** أُنظر إلى هذهِ التلاوين والقدرة على القوَّة البيانية والبلاغية العالية وامتلاك القدرة على صروف البيان للطرف الآخر.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٣.

(٣) سورة يوسف: الآية ٧٠.

(٤) سورة يوسف: الآية ٧١.

فقصة يوسف عليه السلام وفعل أخوته به وسرقته من أبيه حصلت قبل عشرات السنين، فهذهِ التداعيات في الكلام وتمسكهم بالإطلاق الزماني والاعتراف بالزمن الحالي وتمسك يوسف عليه السلام واعتمد على قرينه تنبهوا لها وعرفوها وهي ﴿قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ، قَالُواْ نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاء بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَاْ بِهِ زَعِيمٌ، قَالُواْ تَاللّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ، قَالُواْ فَمَا جَزَآؤُهُ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ﴾(١) ثم أخذ يوسف عليه السلام يستدرجهم في الكلام شيئاً فشيئاً ﴿قَالُواْ جَزَآؤُهُ مَن وُجِدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾(٢).

فقال يوسف عليه السلام جزاؤه حسب ما جاء في شريعة النبي يعقوب عليه السلام ولم يقل يوسف عليه السلام أنا أحكم بهذه القضية ولا بأي قضية أُخرى وقعت، وهذا الأسلوب جعل الطرف الآخر المقابل يستفيد أنّه هو يحكم على نفسه، ومثل هذا ليسَ كيد شيطان وإنّما تدبير إلهي فعادت المسألة إلى صروف الكلام ﴿قَالُواْ إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ . . . ﴾(٣).

إلفات نظر:

تُجرى الآن بحوث دولية وعالمية قائمة على قَدَم وساق في المعاهد التخصصية حول نصوص القرآن، فالقرآن الكريم فيه أساليب مختلفة: ـ

منها: أساليب التحقيق الجنائي.

---

(١) سورة يوسف: الآية ٧١ ـ ٧٤.
(٢) سورة يوسف: الآية ٧٥.
(٣) سورة يوسف: الآية ٧٧.

منها: أساليب الاختراق السياسي.

منها: أساليب الاختراق الأمني . و... الخ.

والسبب في عكوفهم على مثل هذهِ الدراسات هي امتلاك القرآن الكريم تصاريف البيان وكيفية توسعها وتسايرها للتطور العصري في جميع جوانب الحياة المهمة الخطيرة سواء العلميّة منها أو الصناعيّة أو الثقافية أو السياسية أو الأمنيّة أو الاقتصادية أو ... الخ.

أقسام الدلالة

ذكرنا سابقاً أنَّ دلالة الألافظ على معانيها على أصعدة ثلاثة:

١ ـ على مستوى الوضع.

٢ ـ على مستوى استعمال اللفظ في معانٍ عديدة.

قصد المعنى التفهيمي من استعمال اللفظ في أكثر من معنى.

ومن الواضع أنَّ اللفظة الواحدة لها عِدَّة دلالات كالدلالة الوضعية والدلالة التصورية والدلالة التصديقية والدلالة الجدية والدلالة التفهيمية والدلالة الاستعمالية و ... الخ وكل هذهِ الأقسام وغيرها لها التأثير في فهم المعنى المراد للمتكلم، ولابدَّ من معرفة ضابطة كل دلالة حتّى لا يصبح تشويش وخلط بين معاني الألفاظ ومراد المتكلم، وهي:ـ

الدلالة التصورية: وهي انخطار معنى اللفظ في الذهن بمجرد إطلاق اللفظ، وعُبر عنها بالدلالة التصورية باعتبار أنَّ اللفظ في موردها لا يوجب أكثر من تصور معناه في الذهن عند أطلاقه.

الدلالة التصديقية: ويُعبَر عنها بالدلالة الجدية وبالدلالة التصديقية الثانية، والمقصود من الدلالة التقصديقية هي ظهور حال المتكلم بأنَّ ما أراد تفهيمه بكلامه مريدٌ له جداً وواقعاً.

وبعبارة أُخرى: إنَّ الدلالة التصديقية الثانية تعني الظهور في التطابق بين الإرادة التفهيمية الاستعمالية وبين الإرادة الجديّة وأنَّ المتكلم قاصد

الحكاية عن الواقع.

ثم إنَّ الدلالة التصديقية منوطة بأربعة أمور:

الأوَّل: علم السامع بالوضع وهي الجهة المشتركة بين الدلالات الثلاث.

الثاني: إحراز أنَّ المتكلم عاقل وملتفت وهذهِ هي الجهة المشتركة بين الدالة التصديقية الثانية والدلالة التفهيمية.

الثالث: أنْ يكون الكلام من سنخ المركبات التامَّة.

الرابع: أنْ لا ينصب المتكلم قرينة مفصلة على عدم الإرادة الجدية للحكاية عن الواقع، ومع توفر هذهِ الأمور الأربعة ينعقد للكلام ظهور في الإرادة الجدية للحكاية عن الواقع.

الدلالة التصديقية الأولى: وهي المعبر عنها بالدلالة التفهيمية وعُبِّرَ عنها بالتصديقية؛ لأنَّها توجب إذعان السامع بإرادة المتكلم المعنى من لفظة، وعُبِّرَ عنها بالأولى تمييزاً لها عن الدلالة التصديقية الثانية.

الدلالة التفهيمية: والمقصود منها دلالة اللفظ على إرادة المتكلم تفهيم معناه من إطلاقه فالدلالة التفهيمية إذنْ تضيف معنى زائداً إلى الدلالة التصورية وهو الدلالة على إرادة المتكلم للمعنى من اللفظ في حين أنَّ الدلالة التصورية لا تدل على إرادة المتكلم لتفهيم المعنى، ولذا فالدلالة التصورية تحصل حتّى مع العلم بعدم إرادة المتكلم كما لو كان نائماً أو كان من غير العقلاء.

الدلالة الجديّة: وهي الدلالة التصديقية الثانية، وهي لا تنعقد إلّا في الجمل التركيبية التامّة، وأمَّا الناقصة فلا تكون الدلالة معها دلالة جدية،

بلْ تتمحض دلالتها بالدلالة التصورية والاستعمالية، فحتى لو كان المتكلم جاداً في إخطار المعنى وتفهيمه للسامع فإنَّه لا يُقال عن ذلك دلالة جدية.

الدلالة الاستعمالية: وهي الدلالة التفهيمية والتي تعني ظهور حال المتكلم في إرادة تفهيم المعنى من لفظه، وعُبِّرَ عنها بالاستعمالية باعتبار أنها تدلُّ على أنَّ المتكلم استعمل اللفظ لغرض إخطار معناه وتفهيمه[1].

وبعد هذهِ المقدمة التي ذكرنا فيها أقسام الدلالة تبين الفرق بين دلالة المعنى التفهيمي ودلالة المعنى الجدي، فالمتكلم لو أراد في مراده الجدي أنْ يَصِف زيد بالبخل يقول: زيدٌ كثير المراد يعني يستعمل الرماد في الرماد وأراد من كلمة الرماد أنْ يُفهِم كرم زيد ولكن مراده من تفهيم كرم زيد الطعن فيه (زيد) لا المديح، ومراده الجدي هو التعريض والوقيعة بزيد.

فهنا اختلف المعنى الاستعمالي عن المعنى التفهيمي وهما اختلفا عن المعنى الجدي فينبغي ملاحظة هذهِ التلاوين من سطح اليسطح ومِن أُفقٍ إلى أُفق.

سؤال: هل يمكن أنْ يُراد بالمعنى التفهيمي الواحد معانٍ جديّة متعددة، وهنا أصبحت قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى في مرحلة أُخرى غير مرحلة العلاقة بين المعنى التفهيمي والمعنى الجدي فإنَّ هذا شيءٌ آخر.

الجواب: المعنى الجدي على طبقات، فالمثال المتقدم في وصف زيد بالبخل وأنَّ المتكلم أراد الطعن بزيد لأجل بخله، إلّا أنَّه ليسَ المراد من

---

(١) المُعجم الشامل، ج١، ص٣٧١ ، ٣٧٢.

طعن المتكلم في زيد ببخله هو طعن ببخل زيد المراد يمكن أنْ يكون المتكلم أراد تكذيب زيد في دعواه وهذا مراد جدي آخر، فليس المراد هو الطعن بالبخل وإنَّما شيء آخر، أو يمكن أنْ يكون المراد من وصف زيد بالبخل لأجله وقايته من الضرر الذي يريد أنْ يوقعه به شخص آخر أراد أنْ ينتهك زيد مثلاً، فحينئذٍ نلاحظ أنَّ المراد الجدي قدْ تغيَّر فيقول لك الطرف لماذا ترمي زيداً بالبخل وعليك أنْ ترضيه وهكذا.

إذنْ نلاحظ الانتقالات من معنى جدي إلى آخر واختلف التصوري عن الاستعمالي عن التفهيمي.

وعليه فاستعمال اللفظ في أكثر من معنى له أكثر من معنى واحد، يعني لها معنى لمدلول التصوري الذي يتكثر في الاستعمالي، أو الاستعمالي يتكثر في التفهيمي فحينئذٍ تكون عندنا عِدَّة مداليل استعمالية، ثم إنَّ لكلِ مدلول استعمالي إذا كان متكثر أو كان أُحادي المدلول الاستعمالي المعنى فإنَّ الاستعمالي يكون له عِدَّة مداليل أو معاني تفهيمية ثم المعاني أو المداليل التفهيمية يكون له عِدَّة معاني أو مداليل جدية سواء كان مدلول تفهيمي واحد أو متكثر.

ثم المعنى الجدي له معانٍ متكثرة، فالمعنى الجدي الأوَّل له عِدَّة مداليل جديَّة، وهكذا المعنى الجدي الثاني أيضاً له عِدَّة مداليل جدية متكثرة في الطبقة الثانية بلْ وفي الطبقات الأُخرى التالية، وهكذا.

وحينئذٍ ينبغي الالتفات إلى أنَّ هذا كُلَّهُ على مستوى التصور فيجب علينا أنْ نَلُمَّ بكامل تصوره، وبعد ذلك ندخل إنْ شاء الله في تفاصيله وأدلته وآثاره.

وعليه ينغبي الإلمام بآليات الصعيد الأوَّل وهي: ـ

أولاً: وضع الألفاظ للدلالة التصورية الذي هو مشترك لفظي.

ثانياً: ما هي آليات الدلالة على الكثرة في المعنى التصوري؟ فلابدَّ من تعيينها.

الجواب: أنَّه في اللفظ الواحد مع وجود إوضاع منصوص عليها من قبل اللغويين فهذهِ هي آليات المعنى للمدلول التصوري.

بحث حول القرائن

إنَّ نفس القرائن لو دققنا النظر فيها لها معنى تصوري أيضاً، فإنَّ نفس القرينة لو خُلِّيت تظهر ولها ظهور معين ولها معنى تصوري بغض النظر عن ذي القرينة أو انضمامها إلى ذي القرينة أو انضمامها إلى قرائن أُخرى.

إذنْ نفس القرينة لها مدلول وضعي في نفسها بغض النظر عن انضمامها لذي القرينة أو انضمامها إلى قرائن أُخرى.

وبعبارة أوضح: إنَّ القرينة إذا انضمت إلى ذي القرينة أعطت معنى من المعاني سواء كان معنى مجازياً أو غيره، وهذا معنى صحيح نسلمه، إلّا أنَّ الذي نُريد أنْ نُبينه ومحل الشاهد من [استعمال اللفظ في أكثر من معنى] هو أنَّه لو أخذنا القرينة منفردة بغض النظر عن انضمامها إلى اللفظ الآخر وهو ذي القرينة مثلاً أو انضمامها إلى القرائن الأُخرى فربما تكون المحصلة لها شاكلة أُخرى مع العلم أنَّ نفس القرينة هي هي نفسها لها وضع لغوي وضعي ومدلول تصوري، والقرينة بما هي سواء كانت استعمالية أو تفهيميّة أو جدية أو ... الخ لها مدلولها الوضعي والتصوري.

تنبيه:

في بحث القرينة سواء كانت القرينة واحدة أو مجموعة قرائن فإنَّ التناسب فيما بينها لا ينحصر بخصوص لفظة واحدة أو لفظتين أو ثلاث، بلْ يشمل كل علمٍ من علوم اللغة والعلوم الأدبيّة العربية كعلم النحو

والصرف والبيان والاشتقاق و ... الخ فإنَّ كل علم من هذهِ العلوم وغيرها له آليات خاصة به مَن طبّقها حصل على النتائج المطلوبة وعثر على الدقائق والنكات العلمية لذلك الفن.

إذنْ هذهِ وغيرها كُلَّها أمثلة لتلون وتكثر الكلام، فالمراد من استعمال تلك الآلية ليست في معنى واحد، فمثلاً: إعراب الضم في علم النحو، أو تقديم ما من حقه التأخير سواء في النحو أو البلاغة والبيان أو التغير الحاصل في بنية الكلمة في علم الصرف أو ... الخ فإنَّ هذهِ آليات في علوم اللغة يمكن استعمالها في أكثر من معنى فيمكن استعمالها في الهيئات التامة والناقصة والمركبات و ... الخ وحينئذٍ سوف نلتفت إلى أننا وقفنا وانفتحنا على أُفِق لا محدود وفيها آليات وقواعد ودوال لا تُحْصَى فمثلاً في علم النحو قدْ تكون في الجملة الواحدة عِدَّة أعاريب وعِدَّة قواعد واشتقاقات وهيئات مختلفة فكيف تُسْتَخدَم؟

هذا وغيره كُلَّهُ دليل على جواز استعمال اللفظة الواحدة في أكثر من معنى فإنَّه يجوز أنْ نستعمل كل لفظة أو هيئة أو دالة أو حركة في أكثر من معنى.

وعليه لو أردنا استقصاء المناسبات بين هذهِ الدوال مع تعدد محتملات المعاني فيها فحينئذٍ سوف نقف على كنز كبير من الدوال اللفظية.

ولرب سائل يسأل: كيف نجعل معنى تصوري لقرائن المدلول الجدي والتفهيمي؟

الجواب: إنَّما صار المعنى التصوري حتّى للمدلول الجدي والتفهيمي وذلك لو أخذناالمثال الذي تقدم وهو: ـ زيدٌ كثير الرماد، فإنَّ المدلول

الاستعمالي لكثرة الرماد المراد منه بيان وإثبات صفة أو حالة الكرم لزيد ـ والتعبير بالصفة كناية عن ثبوت هذهِ الصفة، والحالة كناية عن عدم ثوبتها ـ وربما يكون المراد الجدي من تفهيم كرم زيد هو بخل زيد أي الطعن والوقيعة به، فإنَّك تصف زيداً بصفة الكرم من باب وصف الأشياء بأضدادها، نعم أنت قلت زيد كثير الرماد ولازمه إثبات الكرم لزيد إلّا أنَّ المتكلم يريد أنْ يثبت صفة البخل لزيد. وهنا قدْ تغاير المدلول الجدي عن التفهيمي عن الاستعمالي.

وعليه كيف يكون لقرينة المراد الجدي يعني ـ بخل زيد ـ معنى تصوري، ؟

من الواضح أنَّ نفس القرينة لها مدلول تصوري وبسبب هذا المدلول التصوري إذا انضمنت إلى مدلول استعمالي بلفظة أُخرى أو مدلول تفهيمي بلفظة اخرى نستنتج من المجموع معنى جدي معين أو معنى تفهيمي معين، يعني إنَّ القرينة التي هي تكون قرينة قرينيتها بمدلولها التصوري الذي ينضم إلى مدول تصوري بلفظة أُخرى سوف يعطينا معنى استعمالي معين، أو انضمام المعنى التصوري لهذه القرينة أي هذهِ اللفظة الثانية تنضم إلى المعنى التفهيمي بلفظة فيعطينا معنى استعمالي، معنى تفهيمي آخر يعطينا معنى جدي آخر وهكذا.

لأجل أنْ يتمُّ نصاب كيان القرينة لابدَّ في القرينة من الضميمة اللفظية وهي اللفظ الثاني لابدَّ وأنْ يُحرِرَ ويُنقِح مدلوله التصوري الوضعي وإلّا لا يتمُّ نصاب كيان القرينة.

وهل انتهت المراحل والطبقات بهذا البيان؟ كلا ليست مرحلة

المدلول التصوري والاستعمالي والتفهيمي والجدي ليسَ فقط في ذي القرينة بلْ هي أيضاً بنفس المنوال تبحث حتّى في القرينة يعني ربما قرينة من القرائن لا يكون مدلولها التصوري قرينة ومدلولها الاستعمالي قرينة في اللفظة الثانية، وأيضاً هذهِ القرينة التي في اللفظة الثانية ربما يكون مدلولها الاستعمالي قرينة وربما يكون مدلولها التفهيمي قرينة، وربما يكون مدلولها الجدي قرينة.

هذا إذا كان الحال يقف عند قرينة واحدة ولفظة ثانية فما بالك إذا تعددت القرائن والألفاظ أي أنَّ هذهِ اللفظة الأولى يرتبط معها الفاظ متعددة فتعال واحسب حينئذٍ نسب المعادلات والمداليل التصورية والاستعمالية والتفهيمية والجدية و ... الخ وكل قرينة بأي درجة من معناها تدخل وتشارك في إيصال المعنى وتوضيحه.

وعليه فعالم القرائن نسيج متشعب إلى ما شاء الله تعالى، وما ذكره علماء النحو والصرف والبلاغة كنموذج وليسَ حصراً استقصائياً وإلّا إذا أراد الباحث والمُفَسِّر الملتفت أنْ يتشعب ويبحث ويُدقق يرى أنْ واقع حال الكلام ذو شبكة آفاقية وسيعة المدى، يبقى الاستنتاج الصحيح راجع إلى أعمال مهارة المُفَسِّر والباحث في هذا الجانب.

هذا كُلَّهُ ولا زال الكلام في القسم الأوَّل من أقسام دلالة اللفظ على المعنى وهو: ـ استعمال اللفظ في المعنى الواحد ـ لأنَّه هناك شبكة مترامية الأطراف ومتعاقبة ومتمددة إلى آفاق وسيعة بسحب التقيد الحركي لقواعد البلاغة والنحو والصرف واللغة، حتّى لو أردنا أنْ نتحرك تحركاً جمودياً نرى أنْ لها تطبيقات مترامية متلاحقة ومتناسجة ومتناسبة إلى آفاق وسيعة

جداً ولها نوافذ عديدة، وهذا المقدار في توسع وأنَّ الكلام ليتصرف على وجوه للمتكلم من كل منها المتكلم الماهر والملتفت يستطيع الخروج وكل هذهِ التخاريج ينفذ على بعضها البعض.

لو أردنا أنْ نرتب برنامجاً لموسوعة في الأدب العربي بعد استخراج قواعد عديدة:ـ

منها: النحو والصرف والبلاغة واللغة والعروض والاشتقاق وفقه اللغة وهناك قواعد عديدة إلى ما شاء الله يعجز الحاسوب الآلي عن عدَّها وإحصائها هذا كُلَّهُ في استعمال اللفظ في معنى واحد وهذهِ الاحتمالات غير المتوقّفة عند حدٍّ معين فما بالك في استعمال اللفظ في أكثر من معنى. فإنَّ القاعدة سوف تتسع وتتعدد وتتكثر،وهذا كُلَّهُ قبل الدخول في بيان وذكر أدلة القاعدة وتلمس شواهدها.

الخلاصة: إنَّ الكلام ليسَ فقط في استعمال لفظة واحدة أو آحاد الألفاظ، فتارة عندنا استعمال لفظة القرينة وهو غير ذيلها فإذا وجدت عِدَّة قرائن منضم بعهضا إلى الآخر استعمال وليسَ كلامنا في هذا فقط بلْ الكلام في استعمال هيئة الجمل والهيئات التامة للجمل بلْ الهيئات الناقصة للجمل مثل جملة المضاف والمضاف إليه، وإنْ كانت هيئة هيئة ناقصة مع ذلك يدخل في محل الكلام وغيره من الهيئات الناقصة، وكذا الكلام يقع ويشمل الجملة الخبرية وإنْ كانت تستعمل هذهِ الجملة في الإخبار والإنشاء معاً في استعمال واحد.

والكلام في استعمال اللفظ في أكثر من معنى لا يقتصر على اللفظ أيضاً وإنَّما يندرج فيه استعمال الهيئة التي هي ليست شيئاً ملفوظاً بذاتها

بالتبع.

الخلاصة: كما مَرَّ أَنَّه لا يقتصر في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى على فقط الجملة التامة والجملة الناقصة ولا يختص بلفظة أو لفظتين أو ألفاظ مُعينة كلا بلْ المراد حتّى الهيئات والتركيب ولا يقتصر في التركيب على التركيب الناقص فحسب بلْ التركيب التام والناقص بلْ يتعدى إلى عِدَّة تركيبات تامة تتراكب وتترابط فيما بين بعضها والبعض الآخر كترابط جواب الشرط مع جملة الشرط والأداة التي تربط بينهما. وكذا هيئة المشتق المراد بها صفة مشبهة أو المراد بها صفة المبالغة أو المراد بها مصدر مشترك في الهيئة مثل (مَفْعَل) فإنَّها صالحة لأنْ تكون هيئة مصدر، ممكن هيئة صفة مشبهة، صيغة مبالغة، تصريف المكان وتصريف الزمان علماً أنَّها لفظة واحدة وهيئة اشتقاقية واحدة صالحة للاستعمال في أكثر من معنى فلو جمعنا الاحتمالات المتصورة في المقام لا يستطيع أحد أنْ يقول أنَّها تقف عند عدد مُعيّن؛ ولذا عندما قال المعصوم لا يعرف القرآن ومخارج كلماته الحمّالة لوجوه إلّا مَن خُوطب به فهذا يشير إلى أنَّ هناك برنامج إلهي فيه دفأ صوري مبهج وفيه أسرار إلهية لا يستطيع عادي الناس أنْ يكتشفها وإنْ استطاع أنْ يكتشف الشيء البسيط منها.

فتعال وانظر الفرق بين حركة الإعراب وبين المعنى الوضعي للفظه وبين التركيب الناقص وتركيب التام وبين القرائن كم احتمال فيها؟ فإنَّ نسبة الاحتمال في الرياضيات تستخرج من جملة واحدة مئات الآلاف من الاحتمالات إنْ لم نكن مبالغين، فإنَّ الكلام ليتصرف على وجوه إلى سبعين وجه كناية عن الكثرة الكاثرة وعليه فألفاظ أدلة أي مسألة علمية سواء في

علم التفسير أو أي علم آخر الفائدة من هذهِ الأدلة ليسَ إثبات للمسألة فقط وتطبيق لها في فائدة معينة فقط وإنَّما تفيد تصور عن المسألة بشكل أوسع أفقاً فنتخيل أنَّ التصور أثمن من التصديق وإنْ كان التصديق نعم الثمرة ولكن أي تصديق أفضل من التصور فالتصديق الذي يوصلنا إلى التصوِّر البيِّن هو أحكم إحكاماً وثباتاً من التصديق المبهم.

إذنْ الأدلَّة التي ينظر إليها في دور تبياني ستكون أكثر كفاءة من تلك الأدلة التي ينظر إليها إلى أنَّها لها دور إسفافي إذعاني مجملٌ مبهمٌ.

الأدلة على إثبات قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى

الدليل الأوَّل: أحد الأدلة على صعيد الإمكان العقلي هو: قُدرة المتكلم والسامع إذا افترضنا في أصل فرض محل البحث: ـ باعتبار أنَّ الكلام له دوال عديدة وهذهِ الدوال يمكن أنْ يكون لها رباط مع دلالات عديدة كثيرة فحينئذٍ تقول: ـ لا مانع من أنْ تستعمل هذهِ الدلالات للدلالة على معاني عديدة واستثمار طاقات الدوال سواء دوال لفظية أو دالة إعراب أو دالة اشتقاق أو ... الخ.

اعتُرِض عليه: حاول البعض إثارة مانع عن طريق تصوير رأي ثبوتي، وحاصله: ـ

إنَّ اللفظ مرآةٌ والمرآة لا يمكن أنْ تستوعب عِدَّة صور، حتّى أنَّ بعض الذين قالوا بالامتناع ـ أي امتناع دلالة اللفظة الواحدة على أكثر من معنى ـ يجب أنْ يكون المدعي لذلك سليم العقل وإلّا لا يمكن أنْ يُبصر باللفظ عِدَّة معاني فكيف يمكن ذلك؟.

الجواب: إنَّ مراحل دلالة اللفظ على أكثر من معنى ابتداءاً من الدلالة التصورية كما الدلالة التفهيمية إلى التصديقية إلى الجدية... الخ أشبه ما تكون بشاشة عرض تلفزيوني التي تُقَطعُ الشاشة الواحدة إلى صورتين أو أربعة أو ستة أو ثمان أو ... الخ عن مناطق مستقلة مختلفة عن بعض البعض تماماً، وهذهِ الصور مُقطعة ومندمجة ومُدمجة وممزوجة لا مانع من

ذلك، هذا مضافاً إلى أنَّه مَن قال: ـ إلى أنَّه لابدَّ أنْ تكون شاشة تلفزيونية مرآةً تستوعب المعنى بكله فإنَّ ذلك ليسَ بالضرورة فإنَّ ذلك ممكن وليسَ فيه أي استحالة، وهناك أمثلة أُخرى.

وهكذا بالنسبة للانتقال من تصور إلى تصور ثانٍ وثالثٍ ورابعٍ وخامس و... الخ ونفس هذا التصور ليسَ اعتباطاً وإنَّما فيه مسؤوليةً لأنك في انتقالك من تصور إلى آخر لابدَّ أنْ تكونه ملتفتاً إلى الاختلاف في الاستعمال وخطابك لجهات عديدة، وهذا يتطلب منك أنْ تُحشِّد عِدَّة معاني استعمالية هي تفترق في نفسها عن بعضها البعض الآخر، ولا مانع في أنْ تلتقي في زمان واحد، أو انتقالات الذهن في المعاني التفهيمية المتكثرة بعضها مع البعض الآخر في زمن قصير جداً يكون التعامل مع أجزاء الثانية أو الثالثة أو الرابعة و... الخ وهكذا بعض الصور الفوتوغرفية هي صورٌ مُدمجة في صورة واحدة بلا فاصل أو لون أو ... الخ وتزاحم صور مستقلة عن بعضها البعض بحيث تستطيع أنْ ترتبها على ذي الصورة، فتستطيع أنْ تُفرِز الصورة الأصلية ومِن ثَمَّ تُفَرِّع عنها صور متعددة إلى ما لا نهاية مع اختلاف الألوان.

إذنْ اختلاف الترتيب متصور في عالم المادة.

وعليه فتصور ألوان عديدة في مسألة تصور معاني مستقلة عديدة متغيرة عن بعضها البعض ليسَ على وتيرة واحدة.

ملخص الدليل الأوَّل: إنَّ الإمكانية موجودة في أنْ تكون هناك دوال متفرعة عن دالة واحدة، وهذهِ الدوال لها ارتباط مع تلك كل ذلك ممكن بالإمكان العقلي، وما أثير من إشكالات لعلَّ بعضها لفظي كُلَّها مدفوعة

بالحس التصوري.

إذنْ المسألة بحسب عالم الإمكان ممكنة ولا مشكلة فيها.

الدليل الثاني: عالم الوقوع دليل على استعمال اللفظ في أكثر من معنى، بدءاً بالمحاورات البيانية بين الطرفين وتلاوين الكلام، إلى باب ما يُضرب به المثل، وباب الألغاز والأحجية فلو أراد المتكلم أنْ يختبر السامعين والمخاطبين فيأتي متعمداً بألفاظ متشابهة ويوهم معانيها لدى السامعين بصورة مشتبهة ويريد المتكلم من السامعين التسابق والتبادر إلى إدراك النتيجة كي يصل السامع إلى الحقيقة ويكون المخاطب على صعيد المعنى الاستعمالي والتصوري والتفهيمي حاصلاً ـ المخاطب ـ على أكبر عدد معين من المعاني، فمثلاً على صعيد المراد الجدي المتوحِّد مراد ومطلوب في باب الألغاز، بخلافه على صعيد المراد التصوري والاستعمالي والتفهيمي فهي متكثرة ويحاول المتكلم أنْ يوجد ويوقع في ذهن السامع عدّة مفاهيم تفهيمية وعدّة معاني تفهيمية وعدّة معاني استعمالية وعدّة معاني تصورية كي يرتبك على السامع الواقع في المعنى الجدي، ومن الخطأ والاشتباه إبراز المتكلم تفهيم السامع بلحاظ ومن صلب إرادة يوجب ويُفهم السامع عدّة مفاهيم.

المراد الجدي واحد وأمّا المعنى الاستعمالي فهو كثير فهذا واقع بعد إمكانه.

وتعالوا بنا إلى ما هو أكثر وقوعاً. وذلك في مثل باب التورية وباب الكنايات ومع الأسف أنَّ الذي يستخدم هذين البابين البلاغيين البيانيين لم يُراع العطايا السريّة سواء على كل طبقات البشر من شرائح مختلفة وكل

شريحة أو كل فرد له أسلوبه الخاص في إخفاء الدلالة فتكون إخفاء الدلالة بأشكال وأساليب مختلفة وهو ما يُعبر عنه بالعلم الأمني في فن التحاور والحوار الكلامي وهو ـ العلم الأمني ـ علم قائم برأسه يُدرس في الأكاديميات في مثل علم الإعلام وعلم السياسية وعلوم متعددة استراتيجية فإنَّ العلم الأمني يُبحث فيه كيفية التوصل إلى حزام أمني من خلال نفس الحوار الكلامي بحيث لو اطلع أحدٌ على هذهِ الرسالة أو الكتاب التي كتبها صاحبُ الفكرة الأمنية المعينة والذي يريد بها أمر معين لا يطلع عليه غيره أو يَطلَّع عليه شخص أو مخاطب به فئة دون فئة ... ولو اطلَّع الغير لا يلتفت إلى المراد الأصلي لصاحب الكتاب وكأنَّ فيه من الكنايات والألغاز والأحجيات ما شاء الله فحينئذٍ إذا كان أي ذلك الغير طرفاً في قضية وجاءه كتاب بهكذا مواصفات فإنَّه حتّى لو يُمهره أو يوقعه أي يُمضيه فإنَّه سوف ينطلي عليه ذلك الحزام الأمني الذي استعمله صاحب الكتاب وغلَّف كتابته بنكت علمية وفنية وصناعية ربما لا يلتفت إليها حتّى لو كان المخاطَب متنبهاً ويقظاً إلّا مَن عصمه الله مثلاً كما في الآية المباركة في كلام إبراهيم ﴿قَالُوا مَن فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾[1] ثم قالت الآية ﴿قَالُوا أَأَنتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيم، قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ إِن كَانُوا يَنطِقُون﴾[2].

بتقريب: تقدم أنَّهم قالوا مَن الذي صنع هذا الصنيع بأربابنا فإنَّه ظالم لنفسه لأنَّه سيُقتل وظالم لنا ولأصنامنا ـ ومَن استفهامية، وقيل (موصولة) والترجيح للاستفهام، وعندما سئل إبراهيم عليه السلام هل أنت كسرت أصنامنا

---

(١) سورة الأنبياء: الآية ٥٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٦٣.

يا إبراهيمعليه السلام فعلّق إبراهيمعليه السلام فعله بالأصنام على نطق عظيمها في نظرهم، والذي كان قد أبقى عليه وبذلك أعجزهم وبكّتهم لأنَّ الجمادات لا تنطق ولا تجيب، وأراد إبراهيمعليه السلام أنْ يوصلهم إلى هذا الجواب ويشعرهم بخطأهم مع احتراز أمني في كلامهم وأنْ لا يكتشفوا أنَّهعليه السلام هو الذي كسر الاصنام وأراد أنْ يُفهمهم أنَّه مَن كان هذا شأنه بحيث لا يسمع خطاباً ولا يعقل ولا يجيب جواباً بلْ لا يقدر على شيء، فكيف يجوز أنْ يكون ربّاً ويحتل هذهِ المرتبة من الألوهية؟ وكيف يجوز للإنسان الذي هو أشرف المخلوقات أنْ يخضع له ويتذلل، وأمَّا في حالة ادعائهم أنَّ الأصنام تنطق وتُجيب فسوف يفضحهم واقعاً ويكذبهم حالها حين يسألونها فلا ترد، ولذا لم يجدوا بُداً من الاعتراف بالحقيقة إضافة إلى ضلالهم وقلّة عقلهم(١).

ولذا دور أغلب الكنايات في المعنى التصوري والمعنى الاستعمالي دور فاعل ومهم جداً ومن هنا ينشأ سؤال:ـ

ما هو الفرق بين الكناية والمجاز في علم البيان من علم البلاغة؟

الجواب: إنَّ الفرق الفاصل بينهما ـ بعد وضوح أنَّ باب الكناية أوسع من باب المجاز ـ أنَّه في باب الكناية يمكن أنْ يتأتى المعنى الحقيقي والمعنى غير الحقيقي في استعمال لفظ واحد. وإنْ كان البلاغيون احتملوا ذلك إلّا أنَّ المسألة ليست احتمالية فقط بلْ هي واقعة بأنْ يستعمل اللفظ في المعنى الحقيقي ويستعمل كذلك في معنى آخر بخلاف المجاز: ـ استعمال الشيء في غير ما وضع له.

---

(١) تفسير إرشاد الأذهان إلى تفسير القرآن، الشيخ محمد رضا السبزواري النجفي.

ثم أنَّ الكناية على أقسام: ـ كناية على صعيد استعمالي، وعلى صعيد تفهيمي، و ... فضلاً عن ترامي الكنايات معناه تعدد أصل باب الكناية، لأنَّ الكناية معناها : [تغطية شيء بشيء وكنّاه معناه أخفاه] : ـ التعددية لابدَّ أنْ تكون مطلوبة ولكن المتكلم قدْ يقع في جمهرة تراكم عدّة احتمالات ومعاني، فكلما كشف المتكلم استاراً وجدوراً واللباس المتعدد يقي كتاب آخر ذو جدر حصينة هذا في باب الكناية.

الشرائط المعتبرة في قاعدة
استعمال اللفظ في أكثر من معنى

لأجل الاستفادة من هذهِ القاعدة هناك جملة من الشروط المعتبرة فيها: ـ

الشرط الأوَّل: جريان قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى في أغلب العلوم إذا بُلوِّرت هذهِ القاعدة سواء في علم النحو أو الصرف أو الاشتقاق أو البلاغة أو الأصول أو التفسير أو الفقه أو الحديث أو الرجال أو الكلام أو المعارف والفنون بصورة عامّة.

إذنْ شرط هذهِ القاعدة الأساس والمهم هو أنْ تكون هذهِ القاعدة على الموازين والقواعد الصحيحة في كل علم بحسب أبوابه التي يمكن الدخول إليها والخوض بها مهما أمكن.

والمهم أنْ تطبق هذهِ القاعدة على وفق قواعد وضوابط معترف بها في العلوم اللغوية ولا كلام لنا في تطبيق وجريان القواعد الاتفاقية بين العلوم كعلوم اللغة وعلوم الأدب وإنَّما الكلام كل الكلام في تطبيق هذهِ القاعدة في القواعد الخلافية التي تصبح وفاقية ببركة هذا التطبيق الواسع لهذه القاعدة.

فمثلاً بحسب قواعد علم العَرُوض أو علم الصوت أو علم الاشتقاق إنَّ هذا الصوت مثلاً يمكن حَمْلُه أو انطباقه على عِدَّة ألفاظ وكُلُّ قواعد تلك الألفاظ منضبطة فهنا يؤخذ بتلك القواعد في تطبيق القاعدة

التي هي محل كلامنا، أو هذهِ اللفظة المعينة وضعت لعدة معاني يؤخذ بها وليست هناك قرينة صارفة عن أحد هذهِ المعاني، فإنَّ كل من تلك المعاني متأتية ويؤخذ بها سواء في قواعد علم النحو وكيفية الإعراب وتركيب الجملة، أو في قواعد علم الصرف أو علم البلاغة أو باقي العلوم الأُخرى، رُغم أنَّ قواعدها مختلفة ومتعددة ومع ذلك يؤخذ بها ولها موارد وضوابط تطبيقية ما ذاك إلّا لأجل أنَّ البحث في هذهِ القاعدة ـ أعني استعمال اللفظ في أكثر من معنى ـ مبتنٍ على أساسٍ عدم امتناع إرادة المتعدد في عرض واحد بدءاً من المعنى والمدلول التصوري إلى الاستعمالي إلى التفهيمي في لسان واحد، والبناء على هذهِ القاعدة يُحدِث فجوةً ليسَ فقط بين المسار الموجود عليه المفسرين وبين منهج أمومة المحكمات فحسب، بلْ يوجد فجوة بين البناء والمسار الذي عليه منهج كافة العلوم الإسلامية، لأنَّ تلك المناهج قائمة على لغة أُحادية المعنى ووحدانية المراد في لسان واحد ما عكس ما هو المختار من المنهج التفسيري لأمومة الولاية للمحكمات فضلاً عن المتشابهات.

ولا يخفى أهمية علم التفسير واعتباره هو المصدر لعلوم إسلامية عديدة في المعرفة الدينية فالبحث في هذا المنهج التفسيري للقرآن وهو منهج أمومة الولاية للمحكمات فضلاً عن المتشابهات قائمٌ في علم الكلام والفقه وآيات الأحكام، وعلم الأخلاق في الآداب والسُنن الإلهية وفي علوم إسلامية متعددة تستقي من القرآن منبعاً تفسيرياً، ويأتي ما تقدم ذكره من أنَّ هذا التفسير الذي يُستقى من الآيات والسور على رأي باقي المناهج التفسيرية لابدَّ أنْ يكون المعنى أُحادياً خلاف منهج أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات من أنْ يُستقى علوم عديدة كالنحو

والصرف والبلاغة والاشتقاق واللغة والعَروض و ...الخ من تفسير الآيات المباركة إلّا أنَّه ضمن الضوابط التي تقدمت، وكما تقدّم، من أنَّ المراد من الوحدة في منهج أمومة المحكمات ليست وحدة المعنى أو الموضوع وإنَّما وحدة نظام وتفاعل وانسجام بين المعاني.

نتائج القاعدة على ضوء الشرط الأوَّل:

النتيجة الأولى: [تنبيه هام]

من خلال دراسة وبحث قاعدة ـ استعمال اللفظ في أكثر من معنى ـ اتضح أنَّ بعض العلوم مثلاً كعلم النحو فإنَّ علماء النحو وللأسف تبيَّن أنَّهم لم يخوضوا في هذا الباب بالشكل الذي يُعطي للقاعدة حقّها، عكس ما نشاهده من دلائل في منهج تفسير أمومة الولاية للمحكمات فضلاً عن المتشابهات فإنَّها مُشيَّدة وقائمة على قدم وساق في تفصيل واستعمال هذهِ القاعدة بأوسع وأعمق معانيها، فمثلاً يستعمل منهج أمومة الولاية على المحكمات مشتقةً ما في لفظة معينة يستخدمها كمصدر ميمي أو مصدر صناعي أو اسم مكان أو اسم زمان أو اسم آلة أو صفة مشبهة أو ... الخ ويحاول منهج أمومة الولاية للمحكمات فضلاً عن المتشابهات تفعيل أكبر عدد من الاحتمالات التي تسع تحملها هذهِ اللفظة وهذهِ الصيغة.

وهكذا ينجر الكلام إلى علم الفقه وتفعيل هذهِ القاعدة في مباحث الألفاظ خاصة وكذا مبحث الأوامر والنواهي و ...الخ فمثلاً لفظة واحدة مثل [تطوف] جملة فعلية تدل على الإخبار، ونفس الجملة يمكن تضمينها معنى الأمر فتصبح دالة على الأمر والإلزام ما عدا الشيخ أحمد النراقي ﷺ

صاحب مستند الشيعة الذي لا يذهب إلى استفادة اللزوم من الجملة الخبرية خلافاً لأكثر الفقهاء فحينئذٍ قدْ تكون جملة معينة سبكها جملة فعلية تعطي الخبريه معنى، وسبكها جملة أسمية تعطي معنى آخر.

النتيجة الثانية:

وهكذا في مباحث علم النحو في مبحث تقديم ما من حقّه التأخير يفيد الاختصاص مثلاً فله معنى ونفس اللفظة إذا أخرتها فأدت معنى آخر كما في [نعبدك] فالكاف مفعول به، وإذا قدمتها انفصلت وصارت [إياك نعبد] فصار معناه شيء آخر وهو الحصر أي حصر وقصر العبودية لله تعالى.

وهكذا علم البيان يمكن أنْ تكون من جملة واحدة صورة كنائية أو صورة مجازية أو مجاز تمثيلي أو مجاز استعاري ... الخ.

وهكذا يمكن أنْ تكون هذهِ الجملة يستفاد منها استعارة تفهيمية أو تخيلية أو تمثيلية أو ... الخ فيمكن أنْ يستفاد منها استعارات متعددة ذات وجوه مع ضم قرائن مختلفة تتلائم والمعنى المراد في مختلف هذهِ التلاوين، وهكذا الآيات القرآنية فأنّها حمّالة لوجوه، وهذا التوسّع في هذهِ القاعدة أي استعمال اللفظة الواحدة في أكثر من معنى بعد البناء على تشييدها وبناءها فحينئذٍ تكون لكل مقطوعة لفظية من الآيات الكريمة أو هذهِ المقطوعة اللفظية على صعيد الدلالة التصورية عدّة مفاهيم وعلى صعيد الدلالة الاستعمالية عدّة معاني وتركيبات ومفادات، وعلى صعيد الدلالة التفهيمية عدّة معاني وعدّة دلالات، وكذا على صعيد الدلالة الجدية أيضاً عدّة معاني وطبقات نكتشفها بحدود القدرة البشرية، ويمكن اعتبار هذا كنتيجة ثانية

مستفادة من هذهِ القاعدة.

والخلاصة من كل هذا فإنَّ النتائج المترتبة على هذهِ القاعدة على ضوء الشرط الأوَّل:

النتيجة الأولى: إنَّ قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى منفتحة على أفق وسيع جداً فيه درجات وتفرعات إلى ما شاء الله.

النتيجة الثانية: إنَّ كل هذهِ التفرعات والطبقات والنتائج للدلالة تكون حجة ولكن حجة بالشرائط الثلاثة الآتية.

إذنْ هذهِ نتيجة الشرط الأوَّل لهذه القاعدة المباركة ولأجل الاستفادة منها ولا ندعي أنَّه لا يرد عليها أيُّ سهم من سهام الاعتراضات، وإنَّما مهما أمكن أنْ نقلل ذلك بالبيان المتقدم وتطبيق هذهِ القاعدة على ضوء منهج تفسير أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات فإنَّه يُقلِّل من المخاطر التي تهدد الحقيقة وهذا المنهج يستطيع أنْ ينفتح على الحقيقة بأوسع ما يمكن خلافاً للمناهج التفسيرية الأُخرى التي هي نافذة ضيقة تفتح الأواب بقدر الوسع البشري.

شرائط حجية التفرعات والنتائج
المترتبة على قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى

بعدما تقدم الشرط الأوَّل والنتائج المترتبة عليه، أيضاً هناك شرائط ثلاثة لأجل حجية كل تلك الطبقات والتفرعات والنتائج المترتبة على هذهِ القاعدة وهي:

الشرط الأوَّل: تقدم أنَّ هذا البناء للظهور مبني على ميزان صحيح في قواعد العلوم العربية ـ يعني موازين وأدلة ولو مأثورة عن العرب على خلاف القياس كما يقولون ـ في أي علم من العلوم، وكذا تقدم أنَّ باب استعمال اللفظ في أكثر من معنى في منهج تفسير أمومة الولاية على المحكمات مفتوحٌ على مصراعية ولكن بشروط: بأنْ يكون حسب القواعد والموازين العلميّة الصحيحة وليسَ منهجبنا في تفسير أمومة الولاية لمحكمات الكتاب فضلاً عن متشابهاته كباقي التفاسير الأُخرى بأنْ يأخذ تفسير الآية من بُعد أحادي النقل كالبعد الأدبي أو اللغوي أو النحوي، وينقل فيه المُفَسِّر بلا قيدٍ أو ضابطة إلّا الضابطة التي أشرنا إليها وهي أنَّ هذا من قواعد الأدب اللغوي أو النحوي أو البلاغي أو الصرفي أو الاشتقاقي أو ... الخ.

الشرط الثاني: أنْ لا يُفند هذا الاحتمال الذي يُحتمله في الآية المباركة دال لفظي آخر، بأنْ يقطع الطريق أمام نفوذ هذا الاحتمال، وإنْ كان هو على الموازين إلّا أنَّه لا ينسجم مع مجموعة الدوال في الجملة الواحدة أو في

الآية الواحدة بأنْ ينسجم في أبعاض الآية أو أبعاض السورة، فإذا حدَثَ هكذا تنافي أو تهافت عند احتمال هكذا محتمل في استعمال اللفظة الواحدة فآنذاك نرفع اليد عن هكذا احتمال، مع بقاء الهيمنة والحاكمية للولاية على محكمات القرآن فضلاً عن متشابهاته باعتبار المحكمات كما تقدم لها طبقات وبالتالي فإنَّ استعمال اللفظ في أكثر من معنى صحيحٌ وأنَّه باب مفتوح إلّا أنَّه يجب أنْ يصح هذا الاستعمال ـ كما مَرَّ ـ وفق موازين علوم اللغة مع لابدِّية الانسجام مع الآية.

وخلاصة الشرط الثاني تبتني على التركيز على أنْ لا يكون هناك تضارب في المعنى المستفاد من تطبيق الآية القرآنية عند تطبيق قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى، وإذا وُجِدَ تضارب نتيجة التطبيق لهذه القاعدة فهذا دليل واضح على عدم إرادة كل المعاني، وإنَّما بعضها الذي ينسجم ويتوافق مع دلالة اللفظة الواحدة؛ لأنَّ القرآن الكريم ليسَ بين آياته تضارب لأنَّه وحي منزل من الواحد الأحد.

نعم، هناك وحدة لآيات وسور القرآن الكريم في منهج أمومة الولاية على المحكمات إلّا أنَّ معنى الوحدة ليست الواحدية والأحدية، بلْ المراد من الوحدة في منهج أمومة الولاية للمحكمات فضلاً عن المتشابهات هي الانسجام والتناسق المنظومي في نظام هيكلة الأمومة المركزية.

أمَّا أنَّ بعض المناهج التفسيرية الأُخرى عندها معنى آخر للوحدة التي يريدها الله تعالى في القرآن الكريم فذاك بحث آخر، بأنْ يُراد من الوحدة وحدة المعنى ووحدة الموضوع في التفسير الموضوعي بخلاف معنى الوحدة في منهج أمومة المحكمات فإنَّه ليسَ المراد من الوحدة وحدة

معنى فحسب أو وحدة نسق أو وحدة هدف أو وحدة مسار أو وحدة أعلى وأوسع وأخطر أُفُقاً فهي أعقد من وحدة المعنى ووحدة الموضوع في التفسير الموضوعي، وهذا نظير ما يُعبر عنه في علم الفلك عن وجود وحدة في المنظومة الشمسية فليس المقصود بها وحدة معنى أو وحدة موضوع أو وحدة وجود أو ... الخ وإنَّما المراد من الوحدة هي تناسق وانسجام وتفاعل أي تأثر وارتباط بين المنظومات الشمسية ووحدة مجرّات.

وعليه فالفرق شاسع بين المنهجين منهج أمومة المحكمات المدار عنده على وحدة المحِور ووحدة المركز وليسَ فقط عبارة عن منظومة وسلسلة مترابطة فإنَّ هذا لوحده لا يكفل وحدة المنظومة والنظام، وبالتالي فإنَّ وحدة المركز أيضاً لابدَّ منها؛ لأنَّها هي التي توجِد تماسك في الأطراف وعليه فإنَّ وحدة المنظومة هي بوحدة المركز والمحور.

إذنْ وحدة النظام أيضاً تحتاج إلى نظام يُوِّحدها ويُنظمها، وإنْ كانت وحدة النظام تختلف عن وحدة المعنى ووحدة الموضوع، والنظام الذي يوجد وحدة النظام هو المركز ومِن ثم الولاية أي ولاية الله وولاية الرسولﷺ فإنَّ ولاية الرسولﷺ الناظم لها هو ولاية الله تعالى، والناظم لولاية الأئمة الأثنى عشر عليهم السلام هو ولاية الله تعالى وولاية الرسولﷺ، والناظم للمحكمات ومحورها الموحِّد لها هي ولاية الله والرسول والعترة الطاهرة، ثم إنَّ المحكمات كما تقدم على شكل طبقات وكل طبقة أعلى ناظمة للطبقة التي تحتها وهكذا.

الشرط الثالث: أنْ لا يُخالِف هذا الاحتمال في قاعدة استعمال اللفظ

في أكثر من معنى محور مركزية أمومة الولاية للمحكات في القرآن، فضلاً عن المتشابهات، وعليه فلابدَّ من الوفاق مع المحكمات وولاية التوحيد ـ التي سيأتي التعرض إليها قريباً إنْ شاء الله تعالى، التي ترسم وحدة نسق مظومة الدين وهي ولاية الله وولاية الرسول وأهل بيته عليهم السلام أو قل بعبارة أُخرى.

مع ملاحظة تلوّن الخطاب القرآني هذا أيضاً لابدَّ من الالتفات إليه وعدم الغفلة عنه وإلّا فوحدة السياق التي حَذَّرنا منها سابقاً ولا نُحكَّمها؛ لأنَّها قدْ تكون هي عائق عن فَهْم التفسير القرآني وغالب السياقات في القرآن مختلفة حتماً في الآية الواحدة، بلْ في الجملة الواحدة، ومقصودنا من وحدة النتيجة، يعني هناك مفردة محكمة في الآية أو في الجملة أو في السورة يجب أنْ تُراعى.

ومعنى مراعات محكمات القرآن يعني لا يمكن أنْ نسبك ونستفيد ظهور معين ولو كان على وفق قواعد اللغة العربية، إلّا أنَّه يُنافي ويُصادِم محكم آخر، أو يُنافي مخصص، وهذا معناه إننا لا يمكننا أنْ نستفيد العام كمراد جدّي مع وجود دليل مخصص لأنَّ العام لا يقوى في الحُجية أمام الخاص، وكذا الدليل اللفظي المفسِّر الحاكم مُقدَّم المُفَسَّر المحكوم، والمقيد مقدَّم على المطلق، والناسخ مقدم على المنسوخ و... الخ.

إذنْ لابدَّ من مراعات محكمات القرآن الكريم الذي يعني مُراعاة محورية المحكمات، فإنَّ منهج أمومة الولاية على المحكمات يُضفي بتلاوينه على قواعد وأصول التفسير اللفظية، وهذا ما نستكشفه من خلال عرض الآيات والروايات، كما تقدم رواية الإمام الصادق عليه السلام **«إنَّ الله جعل ولايتنا**

أهل البيت قطب القرآن، وقطب جميع الكتب عليها يستديرُ محكمُ القرآن، وبها نوَّهت الكتب ويستبين الإيمان»[1].

الشرط الرابع: إنَّ الضوابط في علوم اللغة والعلوم الأُخرى التي يُستعان بها كلما كانت مُبدَّهة ومبرهنة ومبينة كان الاستنتاج الاستظهاري المتعدد والمتكثر أكثر بياناً وأكثر بداهة وصواباً، ولا يخفى أنَّ في العلوم سواء اللغوية المختلفة من الأوضاع من علم النحو والصرف وعلم البلاغة والبيان والمعاني والبديع والاشتقاق وعلم فقه اللغة ونحت اللغة، والعروض و ... الخ فقسم من قواعد هذهِ العلوم متسالم عليه بحيث استنزف جُهداً علمياً كبيراً بحيث أوصل هذهِ المسائل والقواعد إلى درجة الضرورات العلمية بمعنى أنَّها بُيِّنت وبُدهت بشكل برهاني، وليسَ من الضروري أنْ يكون برهانياً أ، بديهياً، فإنَّه قدْ يكون نظري بأنْ استُدِلَّ عليه ولكن الاستدلال عليه لا زال في منطقة النظري، وبالدقة إذا ركّزنا بشكل أكبر وأدق نلاحظ أنَّ البديهيات تبدا من نقطة مركزية في أي علم من العلوم، وأنَّ هذهِ البديهيات هي أيضاً على طبقات ودرجات متفاوتة فيما بينها وليست على مرتبة واحدة.

فلو أخذنا قاعدة من بين قواعد علم النحو فنلاحظها أبيَن من غيرها بلحاظ طبقتها، وربما توجد قاعدة أبين منها في مصاف الرعيل الأوَّل من القواعد الضرورية المبدهة والمبينة في علم النحو، وربما تأتي طبقة ثانية وثالثة و ... الخ من القواعد بحيث نفس علماء النحو إذا تضارب تطبيق القواعد عندهم فإنَّهم يرجحون القواعد المبدهة على غيرها لانها أكثر

---

(١) تفسير العياشي، ج١، ص٧٨، ح٨.

وتدية وبنيوية.

إذنْ نفس هذهِ البديهيات لها درجات إلى أنْ تصل إلى آخر محيط البديهيات، ثم تبدأ منطقة النظريات، والنظريات أيضاً على طبقات، فهناك طبقة من النظرية ملاصقة بالبديهيات أي تعيش في ضواحي مدينة البديهيات وهي بحكم البديهيات ولكن كلما ابتعدت أكثر شيئاً فشيئاً عن منطقة البديهيات فسوف تتوغل في صحراء وبرِّ النظريات أكثر فأكثر وتدخل مفاوز قدْ يتيه فيها الإنسان ﴿كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى﴾[1].

لأنَّ الخوض في عالم النظرية خوضٌ في ظلمات وبحر لُجي لأنَّها توجد وتولِد عند مَن يخوض بها بلا سلاح علمي فإنَّ الخوض فيها يولد له شبهات فكرية لا سامح الله قدْ يُسبب عنده اضطراب وتيه، وقد يَضِل الطريق بالأخير ويصبح سجين وحبيس في الصحارى والمفاوز.

وعليه فالولوج في العلوم النظرية يزيد الإنسان ظلمة، هذا في سائر البشر اعتماداً على معلوماتهم من دون أنْ ينيروا عقولَهم بنور هدي المعصوم وهم النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة المعصومين عليهم السلام.

ومن الواضح أنَّ الوصول إلى النتيجة والهدف عن طريق مساحة البديهيات استثمارٌ للباين وللقواعد أكثر فأكثر من سلوك طريق النظريات ومفاوزها وصحاريها المخفية المظلمة، وإنْ كُنَّا لا ننكر مسألة الوصول إلى النتيجة عن طريق البحث فيها بعد أنْ يُطوى بك بحوث فكرية ومتاهات

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٧١.

وسلسلة من الإشكالات والمحاذير من الدور والتسلسل وما شاكلهما إلّا أنك تبقى مُهددٌ ـ من الوصول إلى النتيجة والغاية والهدف فإنَّه قدْ تصِل وقد لا تصل، هذا بلحاظ سلوك طريق النظريات، فإنَّ الفيلسوف أو العارف أو المُفَسِّر أو ... الخ ليسَ عنده القدرة على أنْ يوصلك إلى الطريق النيّر المختصر الواضح البديهي وإنَّما غاية ما يوسعه وبذله لأقصى طاقة جُهده هو أنْ يوصلك إلى طيق ضيِّق ويسلك بك الطريق الطويل لا المختصر المستقيم، وهذا فيه تكلُّف وعناء، وقد تحصل للباحث أثناء هكذا بحث في النظريات تقلبات ومشاكل وتغييرات قدْ تؤدي به إلى ما لا تُحمَد عُقباه.

وإذا أردتَ أنْ لا تقَع بكل هذا فعليك أنْ تسلك وتتبع طريق المعصومعليه السلام فإنَّه يأخذ بيدك إلى الطريق المختصر الواضح البديهي فإنَّهمعليهم السلام كالنجوم الزاهرة لأهل الأرض يقتدون بهم «**إنَّ مثل أهل بيتي كسفينة نوح مَن ركب بها نجى ومَن تخلف عنها هلك**»(١) فإنَّ الاقتداء بهم والاهتداء بنور علمهم يأخذ بأيدنا إلى مرفأ وبرّ النجاة من الأمور النظرية والمتاهات التي ما أنْ زلَّ قليلاً فكر الإنسان فإنَّه سوف يقع في وادٍ سحيق وفي صحراء لا علامة فيها ليهتدي بها لأجل الوصول إلى طريق يخلصه من تلك المتاهات نظير المعادلات الرياضية فإنَّ فيها مجهول فيختلف الباحثون في علم الرياضيات في الوصول إلى معرفة تلك المجهولات فباحِثٌ يعطي الحل والوصول إلى النتيجة بعشر أو تسع أو ثمان خطوات مثلاً، وإذا أخطأ في مرحلة من تلك المراحل أو الخطوات هوى من أعلى قمة لاجبل إلى

---

(١) الفوائد الطوسية، الحر العاملي، ص٢٦٥.

أسفل وادي سحيق وتختلط عليه النتيجة تماماً، بخلاف عالمٍ آخر في علم الرياضيات يعطيك حلّ تلك المعادلة الرياضية بخطوة أو خطوتين بديهيتين سهلتين.

لكن بعد مرور أجيال من البشر يُعطي هذا الباحث النابغة في اختصاصه الحلّ بكل سهولةٍ واختصار وبداهة.

والخلاصة: إنَّ المعلومات لها مراتب مبدهة ولها مراتب نظرية وعليه فالخوض في الأمر النظري فيه مخاطر، فإذا توغل في النظرية يبتعد عن الحقيقة ويقع في متاهات بخلاف ما إذا استند في الحل إلى البديهيات أو ما يقرب منها، فإنَّ نتيجته يكون فيها إحكام واتقان وباين وتبيان ونور، هذا هو الفرق بين الأمر النظري والبديهي.

كذلك الأمر بلحاظ الشرط الرابع في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى فإنَّه إذا اعتمدنا على قواعد مبدهة في علوم اللغة صار الاستظهار مُبَّدَه ومبين وأنَّ تعدد وتكثر، وكذلك المعنى الجدي، لأنَّه تقدم أنَّ المعنى الجدي على مراتب تعتمد على العلوم الأُخرى، فمثلاً في العلوم سواء التجريبية أو القانونية أو الفلكية أو الطبيعية أو الروحيّة أو علوم ما وراء الأثير ... الخ إذا اعتمد في تلك العلوم على قواعد مبدهة صار البيان فيها بديهي استظهاري، وكذا الاستنباط بديهي.

وهكذا يصير البيان بديهي واسترسالي إذا اعتُمدَ في هذهِ العلوم وغيرها على معاني نظرية قريبة من البديهيات أيضاً يكون هناك استرسال وسلاسة ونورية، بخلاف ما إذا اعتُمد على معاني وقواعد نظرية متوغلة في النظرية والإبهام، ودائماً هكذا قواعد متوغلة في النظرية مختلفٌ فيها

وعادة يكون فيها لغطٌ بين النقض والإبراهم والاستنتاج وحينئذٍ تكون النتيجة نظرية والنظري يصبح ظني، ومن الواضح أنَّ المعلومة النظرية وإنْ كانت تستند إلى دلائل في الصورة البرهانية، لكن هي في الحقيقة تبقى نظرية.

وحتّى في التحقيقات الأخيرة سواء في علم الفلسفة أو الأصول وصلت إلى نتيجة وهي:ـ

إنَّ البراهين النظرية صورتها براهين ويقين نظري، ولكن واقعه يبقى كلما توغلت في النظرية فإنَّ واقعه ظنٌ بصورة اليقين.

إذنْ استظهار التفسيرات المتعددة للآية الواحدة إنْ اعتمد فيها المُفَسِّر على قواعد مُبدَّهة في العلوم سواء اللغوية أو غيرها صار ذلك التفسير برهاني يقيني بيِّن بالمعنى الأخص أو بالمعنى الأعم، أمَّا إذا توغل الباحث في الاعتماد على القواعد النظرية أصبح مريد ذلك التفسير.

العلاقة بين منهج أمومة المحكمات
وولاية أهل البيت عليهم السلام وبين التوحيد

من المطالب اللطيفة والمهمة التي تتفرع عن معنى الوحدة المرادة في منهج أمومة المحكمات ـ تقدم ـ أنَّ المراد منها هي: ـ وحدَةٌ منظومية وانسجام وتفاعل وربط منظومي بين معاني دوال الألفاظ، وليسَ المراد من معنى الوحدة هو وحدة المعنى فحسب أو وحدة الموضوع فحسب، بلْ المراد وحدة منظومة التي هي أعلى وأوسع وأخطر أفقاً.

فالتوحيد لله تعالى مثلاً لا يسعه اسمٌ من الأسماء الإلهية، وليسَ اسم واحد ووحدة اسم ومعنى، وإنَّما أجاب القرآن الكريم عن ذلك، وأنَّ المراد بالوحدة هو ﴿قُلِ ادْعُواْ اللهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾[1]. هي وحدة أسماء متعددة ووحدة نظام إلهي ربوبي فكيف بالمعاني؟ وأي معنى يحتوي ويسع ربُّ العالمين الخالق للمعاني، فالله تعالى يخلق المعاني وهو حاوٍ للمعاني لا أنَّ المعاني تحويه، انظر أيُّها الباحث الكريم إلى هذا التجلي الترحيمي في منهج أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات في القرآن الكريم قيِّمُ نهج الترحيم ووحدته وحدة نظام.

وهذا يعتبر أحد البراهين على هيمنة هذا المنهج التفسيري المختار من بين باقي المناهج التفسيرية الأُخرى، كما يقول أمير المؤمنين عليه السلام وكذا باقي الأئمة عليهم السلام ما معناه [إنَّ سبب خطأ فَهْم البشر للقرآن هو أنَّهم يقايسون

---

(١) سورة الإسراء: الآية ١١٠.

كلام الله بكلامهم]. وردَ عن الصادقعليه السلام وهذا دليل واضح على أنَّ كلام الباري سبحانه لا يشبه كلام الخلق كما لا تشبه أفعاله أفعالهم، ولهذه العلة وأشباهها لا يبلغ أحدٌ كنه معنى حقيقة تفسير كتاب الله تعالى إلّا بنبيّه وأوصياؤه[١].

فإنَّ وحدة المعنى ووحدة الفعل عند الله تعالى ليست كمعنى وحدة الفعل عند البشر، فالبشر مخلوق ضيق محدود عنده وحدة موضوعية، لذلك لمْ تكن في البيان وحدة موضوعيّة بمعنى الانسجام والتفاعل والارتباط لذا يتشكك ويتهدد عنده المسار ويتبعثر ويصيِّر الأمر فوضى عكس ما عند الباري تعالى إذْ لا يتصور في حقه هذا القصور ـ والعياذ بالله تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ـ بلْ عنده تعالى وحدة نظام، والاستعمال لابدَّ له من نظام، ولا يفهم من ذلك أنَّ المراد بالميزان هو وحدة المعنى ووحدة الموضوع، فإنَّ الأمر ليسَ كذلك كما بيَّنا.

وهكذا في تعبيرات المعصوم **«جعل الله ولايتنا نظاماً للملة»** و **«نظاماً للدين»** .. الخ أي نظاماً لوحدة الدين الإسلامي الحنيف.

وهل مُراد المعصومعليه السلام من معنى الوحدة التي أكَّد عليها هي وحدة معنى أم وحدة موضوع أو وحدة وجود وموجود؟

الجواب: ليسَ مراده ما ذُكر وإنَّما إلى ما شاء الله من المعاني والأبواب، فهناك باب التوحيد وما يتفرع عنها، وباب النبوّة وما يتفرع عنها وباب الإمامة والولاية، وباب الفروع من باب الصوم والصلاة والحج والزكاة و

---

(١) الوسائل، الحر العاملي، ج٢٧، ص١٨٣؛ كتاب القضاء، أبواب صفات القاضي، ب١٣، ح٢٢.

... الخ وباب الجهاد وباب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر و ... الخ.

وعليه فوحدة الدين وحدة نظام ولذلك تفسير القواعد اللفظية في القرآن الكريم على ضوء منهج أمومة الولاية على محكمات القرآن إذا أعطيناها لوناً على وفق منهج الأمومة، كيف تعطي معاني عميقة وهذهِ القاعدة يشيدها نفس صاحب التفسير الموضوعي أو صاحب تفسير القرآن بالقرآن أو تفسير أسباب النزول أو المنهج التنزيلي إلّا أنَّ هؤلاء يفسرونها ويستعملونها بشكل متوسط وهابط.

بخلاف منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات الذي يعني المحور المركزي الذي تدور حوله رحى أبواب الدين وفصوله، فإنَّ هذا المنهج يعطي لهذه القواعد اللفظية معاني وألوان أُخرى أوسع أفقاً وشاسعة المدى.

وعليه فلابدَّ من وجود نظام استعمال لفظي رغم تشعب فقراته وموضوعاته ومعانيه إلّا أنَّه ليسَ هناك خلطاً وهو جائية، وإنَّما هناكَ وحدة بالمعنى الذي ذكرناه آنفاً ووحدة نظام وعدم وجود تعارض وتدافع يضرب القرآن بعضه ببعض.

إذنْ هناك فرقٌ كبير بين وحدة النظام ووحدة المعنى ووحدة الموضوع والخلاف بين منهج أمومة الولاية على المحكمات وباقي المناهج الأُخرى في معنى الوحدة في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى، فإنَّ مقصود منهج أمومة الولاية من الوحدة في الاستعمال هو وحدة النظام والمنظومة لا بوحدة المعنى ووحدة الموضوع، ووحدة النظام تتكفلها قواعد صحيحة في العلوم ويتكفلها عدم التضارب والتناقض بين القواعد،

بخلاف المناهج التفسيرية الأُخرى فإنَّها تقصد من الوحدة أحادية المعنى وأحادية الموضوع وهذا معنى ضيِّق تترتب عليه آثار سلبية نتيجتها تضارب القواعد مع بعضها البعض.

وعلى أي حال فإنَّ حجر أساس افتراق منهجنا ـ أمومة الولاية ـ على باقي المناهج الأُخرى بأنَّ منهجنا يَرَى أنَّ الشتات والتدافع ليسَ في تكثر المعاني وتعددها في جملة واحدة وآية واحدة مفردة واحدة و ... الخ، وإنَّما يرى الشتات وفرقة الأُمَّة والبشرية بلْ فرقة الخلائق هي بسبب عدم التمسُّك بالولاية فإنَّها تتشتت إذا لم تتمسك بالولاية والمحكمات، فإنَّ الرجوع إلى المتشابهات والتمسك بها يوقع بالهلكة، فالعلامّة الطباطبائي﷾ مثلاً في منهجه التفسيري أي تفسير القرآن بالقرآن يذكر سبب المتشابهات بسبب النزعة المادّية إذْ لو يتجرد الإنسان عن الأمور المادّية لذهبت عنه المتشابهات.

إلّا أنَّ سبب التشابه بالآيات على المسلك المختار حسب منهج أمومة ولاية أهل البيت﵈ على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات، ليسَ فقط هو التشابه في استحصال المعنى وإنَّما التشابه في الآيات سببه كما بينه القرآن الكريم من عدم رجوع المتشابهات إلى محورية المحكمات، وإنْ كان بعض المفسرين لن يستلهم معناها والمتشابهات.

وذكر أنَّ سبب التشابه في الآيات هو بسبب تغير الظروف التأريخية التي تمرُّ على اللغة باعتبار أنَّ اللغة لها عمر وتاريخ ولها أجيال، وبالواقع ليسَ هذا هو سبب التشابه.

فالقرآن الكريم يستلهم التشابه حتّى عند أبناء الصدر الأوَّل وهم

أبناء اللغة وعندهم سبب للتشابه يأتي بحثه في محله.

ونتعرض للتشابه في المقام وسببه بمقدار ماله صلة ببحث استعمال اللفظ في أكثر من معنى.

إذنْ القرآن الكريم عندما يصف الآيات المحكمة بأنَّها أمٌّ لا يعني أنَّ نعت المحكمات بالأحكام وأنها أمٌّ فقط كلا، وإنَّما لها دور وشأن وهو كونها أمٌّ يعني محور ومركزية ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ﴾[1]. ومن البديهي اتباع المتشابه من دون محورية المركز زيغٌ ولو كان المتبع آية متشابهة من كتاب الله مع ذلك القرآن يصِف هذهِ الآية بأنَّها ليست هُدَى بلْ زيغٌ وضلال ويُحذِّر القرآن الكريم المسلمين والمؤمنين من اتّباع الآيات المتشابهة بالانفكاك عن اتّباع المحكم فإنَّ مثل هذا زيغٌ ومنكم إذا كان اتّباع ما يرتسم لدى الإنسان أنَّه حُجّة من الحجج من دون مركزية الحجة الأكبر وهي ولاية العترة الطاهرة فإنَّه دون اتّباع ذلك زيغ، نعم، الآية حُجَّة ولكن الآية المحكمة أكبر حجية.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٧.

ادّعاء المنهج السلفي اتباعه الروايات الصحيحة

يدّعي المنهج السلفي أنَّه يسير وراء الروايات الصحيحة، إلّا أنَّه لا يَعْرِض ذلك السير على مركزية وميزان المحكمات ونظرهُ للدين نظرةً منظوميّة واحدة، ولأجل ذلك يكون سَيْرُه باطلاً، وإنْ كان يُفرَض أنَّ الذي رسمه له اتباع الآية شكل ونحو من أنحاء الحُجية، وعليه فاتباع المنهج السلفي لها من دون أنْ يكون على وفق مركزية الحجة الأكبر وإنَّما على وفق الحجة الأصغر يكون ذلك الاتِّباع موجباً للبطلان.

ومن هذا يُعْلَم أنَّ منظومة الحجج على وفق منهج أمومة المحكمات ـ عبارة عن مترابطة في عمود محوري وفي ظل هذا العموم المحوري نجد هويّة بقيّة الطبقات من الحجية، وإلّا تضيع هويتها من دون هذا المحور ومن دون هذهِ الحقيقة المركزية.

والخلاصة: إنَّ التشابه في تفسير القرآن سببه عدم جعل المحكمات والولاية محوراً، وعليه فتكثر المعاني لا يوجب تشتت وتدافع ووقوع في الأخطاء على وفق منهج أمومة ولاية أهل البيت على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات، وإنَّما الذي يوجب الوقوع في الأخطاء في تفسير الآيات واستحصال معانيها هو عدم جعل المحكمات ميزاناً ومحوراً لمراقبة كل آية آية وجملة وجملة وعدم ربط كل آية بأصول العقائد.

رأي الشيخ الكبير جعفر كاشف الغطاء ﴿رحمه الله﴾:

لَنِعم ما ذكره الشيخ الكبير جعفر كاشف الغطاء ﴿رحمه الله﴾ في بداية كتابه

منهاج الرشاد في الرد على الوهابيّة، بأنْ قال: ـ

إنَّه باستطاعة الفقيه إذا لم يُعْمِل القواعدِ والموازين الصحيحة من مركزية ولاية أهل البيتﷺ على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات، أنْ يُشكل ـ لا سامح الله ـ فقهاً منسوخاً عن جادة الشرع؛ لأنَّ بعض الوهابية جمع فتوى بعض المذاهب الإسلامية وعندما تنظر وتأمل بها تأسف على تفكيرهم وأنهم كيف جعلوا وصوّروا الفقه بصورة هابطة ونظر إلى الدين من زاوية ضيّقة وحبسوا أفق الدين الواسع ضمن نظرتهم الحبوسيّة الضيّقة، وهكذا القانوني إذا أراد التلاعب بالقانون الإسلامي، إلّا أنَّ نظرة هؤلاء قصيرة الأمد؛ لأنهم يتخيلون أنَّهم إذا فعلوا هكذا فإنَّ بناءهم هذا سوف يؤثر ويُزعزع استقرار قانون الدين الوحياني القوي، ولا يعلمون أنَّ الحافظ لذلك هو الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾[1]. حافظون له من يد أو عقل يريد إيقاع النقيصة والتحريف فيه، وكذا الحافظ بعد الله تعالى هو النبي الأكرمﷺ فإنّهﷺ الوحدة الناظمة للأخلاق فضلاً عن الفقه وغيره، وربما البعض يبتز هذهِ المكارم والأخلاق الفاضلة لمآرب خفيّة، وهكذا عترة النبي الأكرمﷺ الأئمة الطاهرونﷺ هم الحفظة للقرآن.

ومن الواضح أنَّ الحافظ لمكارم الأخلاق هو نظامٌ أعلى منها وهو العقائد الصحيحة الحقّة والتوحيد الصحيح؛ لأنَّه ربما إنسان أو نظام سياسي مُعيَّن أو منظمة دوليّة تُظهر أخلاق معسولة لكنَّ وللأسف وراءها تدبيرات كيدية سفّاكة لدماء البشر، فيثبت فشل ذلك النظام أو المجتمع أو الدولة؛ لأنَّ

---

(١) سورة الحجرات: الآية ٩.

هذهِ الفضائل التي حملتها لمْ تمارسها كشعارات أو كبنود تطبيقية لأجل الإيمان بعقيدة معيّنة والتخلص من براثن النفس والذات والأنانية إلى ساحة صفاء التوحيد.

ومن هنا يظره دور وأهمية التركيز على رفع شعار حقيقة المعتقد لا حريّة وجهالات المعتقد؛ لأنَّ رفع شعار دجل حرية المعتقد يؤدي به إلى الوقوع في جهالات وظلامات، وباستطاعته آنذاك أنْ يؤمن بجهالات ويعبد الشيطان وبالتالي يُسوِّغ له شُرْب دم البشر وممارسة أنواع الرذائل بلا محذور، وعليه فإنَّ مثل هكذا أمور ليست حريّة وإنَّما تصبح لا حرية، وبالتالي تدع إلى الفرعونية وربكم الأعلى والأنانية والانفلات وأنّ للإنسان أنْ يفعل ما يفعل ويدعي ما يدعي ويرسم لنفسه ما يشاء من منهاج، وهذا بالتالي يُنهي المجتمعات البشرية التي انتهجت بنهجه، كُلّ ذلك تحت غطاء حريّة المعتقد والاعتقاد والانعزال عن قانون الشريعة وما تركه للبشر في تنظيم حياتهم.

وإنَّما الذي ينفع ويُنقِذ ويُقدِّم خدمة للإنسان ويتشله من الإيمان بالجهالات وعبادة الشيطان هو إنقاذ الإنسانية بالعقائد الحقَّة التي تعني الحقيقة لا الزيف وهي وحدة منظوميّة ناظمة، فمثلاً ناظم الفقه بمكارم الأخلاق، وناظم وحدة مكارم الأخلاق بالعقائد الحقَّة التي هي حقيقة العقائد.

ولذا نلاحظ كثير من الشعوب وإلى يومنا هذا تعيش تحت وطأة وظلمانيّة وجهالة رفع شعارات خالية عن المحتوى الحق من حرمة المعتقد أو التقدميّة أو ... الخ كُلّ ذلك بسبب ابتعادهم عن نور وهُدَى معرفة العقائد الحقّة إلى يومنا هذا فبعضهم تعبد الكواكب والآخر الأنهار وثالث الأشجار ورابع الحيوانات وخامس و ... الخ وعليه فالظلمانية والسوداوية التي يعيشها

هؤلاء بسبب الابتعاد عن المعتقد الحق الصحيح.

النتيجة: أنَّ كُلّ تشابه يمكن دفعه بالمحكمات التي تمنع من التشتت، والتناقض والتدافع، والواقي من كُلّ ذلك الانحراف هو التمسُّك بالمحكمات وتقدم الضابط في المحكمات هو وحدة النظام والهدف والمحور إمامتنا نظاماً للمّلة وولايتنا أماناً من الفرقة والتشتت، وليسَ ضابط المحكمات هو وحدة الموضوع أو وحدة المعنى.

وبهذا يتميز منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام بأنْ له طابعاً عقائدياً عظيماً في تفسير القرآن، وله الدور الأكبر في تطبيق حقيقة الدين وبوحدة الفكر والمعتقد، بخلاف البعض الذي يرفع شعار الوحدة والتقريب السياسي أو الأخلاقي والتعايش المدني وهذا لا مانع منه إلّا أَنّه يقف على أرضية هشة بخلاف ما إذا آمن بمنهج وحدة الفكر والمعتقد فإنَّها بُنية رصينة فحينئذٍ لا تضارب سياسي ولا تضارب وقتي تعايُشي.

وما دام وحدة المعتقد هي التي تجمع فحينئذٍ بقيّة الفروقات سوف تُمسح وتذاب بخلاف ما إذا كان البناء على عقائد مختلفة فحينئذٍ يصير البناء على أرضية رخوة وتصدعها بأي وقت ممكن، عكس ما إذا كان البناء على وحدة حقة وأصلية في المعتقد، وأنَّ إمامتنا وولايتنا أمان من الفرقة ونظاماً للملّة ومن كُلّ هذا يتضح:ـ

أنَّ منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على محكمات القرآن فضلاً عن متشابهاته ليسَ فقط منهج تفسيري للقرآن، وإنَّما بيانٌ لمسار منهج الفكر الديني بشكل رائع على مستوى الفكر السياسي للأمة وفي إقامة العلاقات الدولية حتّى بين أبناء البشر في المجتمعات البشرية، لا أنَّ منهج أمومة المحكمات منهج تفسيري فني فقط نمارسه في علم تخصصي يسمى القرآن،

وإنَّما الأمر أعظم وأكبر وأنه كلما استطعت أنْ تجد وحدة عالية ونظام مركزي أكثر أصالة كلما آمنت ورسّخت العقائد والمعتقد الحق أكثر وتجلّت أكثر.

مضافاً إلى أنَّ منهج أمومة الولاية على المحكمات هو منهج للأمان من التناقض والتعارض في الفقه والعقائد والتفسير، و... وأنه يعطي فكراً جديداً للأمة، وعليه فيكون ساحل الأم والولاية على المحكمات ساحلاً للأمان بمحور آخر وهو مودتنا أمانٌ من الفرقة؛ لأنَّ هذهِ المودة تذوب فيها الذاتيات الفرعونية النفسية وبالتالي يحصل أمانٌ.

ونتيجة استتباع أمومة الولايةِ على المحكماتِ يُذهب طغيان البشر وعدوانيته الغاشمة ﴿ . . إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَى، أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى ﴾[1] وتذوب فيمن ذاب في الله تعالى.

تنبيه:

أيُّها المُفَسِّر في غير منهج أمومة الولاية على المحكمات لا تخف مِن تكثر المعنى للآية الواحدة وتقول أنَّه تلاعب في القرآن، كلا ثم كلا، إنَّما يحصل التلاعب في القرآن إذا تركت نظام الوحدة والمركزية والمحورية للولاية والمحكمات فإنَّه آنذاك يحصل تلاعب وذهبت الفروع وتشتت، وعليه يكون منهجنا المختار منهج عظيم ليسَ على صعيد فكري ولا على صعيد استنطاق واستظهار نظم آيات الكتاب في التفسير فحسب؛ إنَّما هو بامومة الولاية على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات وليسَ بوحدة المعنى والوحدة والموضوع.

---

(١) سورة العلق: الآية ٦ ـ ٧.

الثمرة المترتبة على استعمال الوحدة بمعنى وحدة النظام والمنظومة

إنَّ التزام المنهج التفسيري لأمومة الولاية على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات، في تفسير معنى الوحدة بأنْ يفترض أنَّ القرآن مبنى عظيم له أبواب ونوافذ متعددة وهي بدورها تدلُّ على أبواب ونوافذ متعددة، وهكذا بنحو شبكي منظومي مترابط ومتداخل ينفتح بعضها على البعض الآخر، فإنَّ منهج أمومة الولاية على المحكمات يلتزم ويُؤَّمِن عدم الافتراق والتبعثر ببركة قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى، وتفسيره لمعنى الوحدة بوحدة النظام والمنظومة وافتراقه عن باقي المناهج التفسرية الأُخر التي فَسَّرت معنى الوحدة بمعنى وحدة المعنى ووحدة الموضوع، وهذا موجب للافتراق والتباين والتباعد بين المسارين بشكل كبير جداً، وله ثمرات تطبيقية محسوسة لمثل هذا الفارق المهم، وأحد أهم تلك الثمار هي:-

إنَّ الدالة اللفظية الواحدة في الآية الواحدة يمكن أنْ تنطبق على معاني متعددة ووجوه محتملة متعددة حسب قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى بعد إمكانها ووقوعها، فحينئذٍ يقع هذا التساؤل:

لماذا تُرجَّح أحد المعاني ويُفنَّد الباقي، وقدْ حصل هذا من علماء كبار ومتضلعين في علوم شتى كالبلاغة والنحو والصرف واللغة و ... الخ، أمثال العلامة الزمخشري لأجل أنَّ هذا الوجه المُرجَّح يوافق القواعد، وأمَّا

المعاني والاحتمالات الأُخرى فتُفنَّد لأجل مخالفتها القواعد.

وهذا لا اعتراض عليه من قبل منهج أمومة الولاية على محكمات القرآن فضلاً عن متشابهاته.

وأُخرى يكون التفنيد لباقي المعاني الأُخرى لا لأجل أنَّها مخالفة لقواعد وموازين الفن، بلْ هي على ضوابط وموازين الفن ومع ذلك تفند فما هو السبب؟ وهذهِ هي نقطة افتراق منهج أمومة الولاية على المحكمات عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى.

الجواب: كأنَّما هناك فرضية استباقية مأخوذة بشكل مطوي وهي مادة النزاع بين المنهج المختار أمومة الولاية وبين المناهج الأُخرى وهذهِ الفرضية هي:ـ

في المناهج التفسيرية الأُخرى غير منهج أمومة المحكمات هناك أمرٌ كأنّما مُسَلَّمٌ ومُبده ومفروغ عنه وهو:

لا يمكن أنْ يكون كُلّ من المعنى التصوري والاستعمالي التفهيمي والجدي النهائي معنى متعدداً في عرض واحد، وهكذا لا يمكن أنْ تكون الألفاظ والأصوات ذات معاني متعددة، أو لا يمكن أنْ يُراد بالصوت ألفاظ متعددة.

ولربَّما ادّعت باقي المناهج التفسيرية الأُخرى غير منهج أمومة الولاية على المحكمات أنَّ السبب في ترجيحهم معنى واحد دون باقي المعاني الأُخرى هو لأجل التعارض بين معاني اللفظة الواحدة.

إلّا أنَّه في مقام جوابهم:ـ إنَّ دعواكم أنَّ السبب في ذلك هو أنَّ اللفظ

لا يمكن أنْ يُستعمل في أكثر منمعنى فهذا غير صحيح؛ لأنَّه ممكن وواقع ووقوعاً كثيراً، نعم البشر ليسَ بقدرته أنْ يحيط بتلك المعاني المتعددة في اللفظة الواحدة بسبب عجزه ومحدوديته؛ لأنَّه بشرٌ فذاك بحث آخر، ولا يسري هذا المعنى والعجز إلى الباري تنزه عن ذلك وتعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، وهل يُعقل أنَّ الموجِد والخالق للكلام لا يعلم بدروب الكلام ومساراته وتصاريفه ويُلقي الكلام على عواهنه، أو يُلقيه بطبيعته المنفتحة المرسلة لأفق وسيع من الأصعدة والمجالات على مادته الخامة المتبعة لهذه الآفاق، فهل يُعقل ذلك؟ ومع ذلك لا يَنصِب قرينة على إرادة أحدها أو تعيين أحدها وهو في مقام البيان، ما لكم كيف تحكمون.

وعليه: ـ فالباري تعالى إذا كان مقصوده من المفردات اللفظية للآية القرآنية المباركة أو السورة معنى معين دون غيره فلماذا لمْ يُنصِّب قرينة على إرادته وهو في مقام البين وأنَّ المراد مثلاً المعنى الفلاني أو خصوص هذا الوجه الإعرابي دون ذاك أو مُراده أكثر من معنى من هذهِ الدالة اللفظية الواحدة وكانت تلك الدالة اللفظية لها القابليّة والسِعة على استيعاب معاني متعددة والدلالة عليها وحينئذٍ لا مانع منه إذْ ليسَ بين هذهِ المحتملات والمعاني تضاربٌ؛ لأنَّها على وفق القواعد والموازين، والقرآن لا يضربُ بعضه بعضاً.

وبعد هذا البحث الموسَّع في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى تبيَّن: ـ أنَّه إذا لمْ يكنْ هناك تنافٍ وتناقض بين المعاني المتعددة المرادة من اللفظة الواحدة في هذهِ القاعدة فحينئذٍ لا نرفع اليد عنها، ولا داعي لترجيح بعض المعاني على الآخر ونحصر المراد في أحدها دون المعاني الباقية

المحتملة في هذهِ الدالة اللفظية ما دام لا تضارب ولا تناقض بين هذهِ المعاني.

فهذه هي جهة افتراق منهج التفسير القرآني أمومة الولاية على المحكمات عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى.

طرز آخر من الاستدلال على قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى:

من الواضح إنَّ قدرة أغلب متكلمي البشر هي محدودة في الالتفات إلى تصاريف وتلاوين وتغيرات الكلام؛ لأنَّ الكلام كما وَرَدَ عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ليتصرف إلى سبعين وجهاً ـ كما مَرَّ ـ والسبعين هنا مأخوذة كناية عن الكثرة والمثاليّة والطريقية لا الحصر والموضوعيّة، لا أنَّ الدالة اللفظية الواحدة لها معنى واحد، وإنَّما يمكن بلْ وقع في استعمالات القرآن الكريم والعرب إطلاق اللفظة الواحدة وإرادة معاني متعددة.

ومن المعلوم قديماً أنَّ الكلام آلةٌ إعلاميّة وحواريّة تفاهميّة جبّارة أنعمها الله تعالى على البشر وتباهى بها الرحمن ﴿الرَّحْمَن، عَلَّمَ الْقُرْآن، خَلَقَ الإِنسَان، عَلَّمَهُ الْبَيَان﴾[1] .

واستفادة أفراد البشر من البيان كُلٌّ بحسب قدرته، ولذلك كلما يصير الإنسانُ بليغاً في النطق وذرب اللسان تصبح عنده قدرة على استثمار الكلام أكثر فأكثر، إلّا أنّه وللأسف غالب سائر أفراد البشر عندهم قدرات محدودة لاستثمار هذهِ الآلة الإعلاميّة التفاهميّة التحاورية.

وهذا نظير الأجهزة الالكترونية الفنية الحديثة المُعقَّدة والمزودة بأحدث القطع الألكترونية الحديثة ومهيئة لإجراء عمليات حسابية وهندسية و ... كبيرة جداً، إلّا أنَّ بعض مقتني هكذا أجهزة يستعملها

---

(١) سورة الرحمن: الآيات من ١ ـ ٤.

بمقدار قضاء حاجته المحدودة منها، ولا يعني هذا بالتالي أنَّ الجهاز فقط يستعمل في هذهِ الأمور المعينة المحدودة التي احتاجها بعض الأفراد، بلْ الجهاز مُعدٌّ لأكبر من ذلك وكُلٌّ يستفيد منه قدر معلوماته التي تتناسب والجهاز.

كذلك الكلام والبيان فيه من القُدرات والآليات لاستثمار وإيصال المعاني والدلالة إلى ما شاء الله من المعاني والاستعمالات، وكُلَّما كان الإنسانُ بليغاً كُلَّما كانت فرصة استثمار الكلام أكثر فأكثر، فكيف بخالق الكلام ويعي أنَّ هذهِ المقطوعة والمادّة الكلاميّة كم تتحمل من إجراء قواعد ومسائل وتصاريف وتغيير فإنَّه يمكن أنْ يجري عليها كل ذلك، ومع ذلك وضع هذهِ المادة الخام التي من الممكن أنْ تتشكل بإشكال عديدة وكثيرة ولم يجعلها مُحْدَثة هذهِ المادة الكلامية في شاكلة خاصة دون أُخرى، بلْ جعلها منفتحة على أشكال عديدة ومتكثرة.

ولرب سائل يسأل: أَوَليس هذا إغراءٌ بالجهل منه تعالى؟

الجواب: نعم يكون إغراءً بالجهل لو خُلِّينا نحن وقدرة البشر المحدودة والمولى قدْ تركهم ولم يُبين لهم ذلك ـ وحاشاه تعالى من ذلك ـ إلّا أنَّه تعالى جعل ضوابطاً مُتعددة منها: ـ

الضابط الأوّل: إنَّ المولى جلَّ وعلا ـ جعل تلك الضوابط والقواعد بلسانٍ عربي مبين، أي حكماً عربياً يحكم هذا الحوار وهذا الخطاب الإلهي.

الضابط الثاني: تقول: بلسان عربي مبين لعلكم تعقلون وتفهمون فهو اللسان العربي الذي فيه القواعد في العلوم اللغوية المنتشرة والمتعددة، وأنَّ هذهِ المقطوعة الكلاميّة الوحيانية من القرآن الكريم فيها القابلية لأنْ

تنطبق عليها وتتصادق وتتناسب مع قواعد عديدة في علوم عديدة لغوية عَلِمَ الله بلها قطعاً وأرادها.

لقائل أنْ يقول: إذا كانت هذهِ المتكثرة والمتعددة من اللفظة الواحدة مُرادة للباري، فلماذا لم يُنصِب قرينة على خلافها، هل إنَّه ممتنع استعمال اللفظ في أكثر من معنى؟ علماً أنَّه تقدم بأنَّه ممكن وواقع بكثرة، وعليه إذا كان البشر ذو قدرة محدودة وقد استعمال إرادة المعنى المتعدد من لفظة واحدة فكيف يرتكب البشر هذهِ المخالفة لموجد البيان تعالى؟

الجواب: ورد في بعض روايات أهل البيت عليهم السلام بيان سبب عجز البشر عن تفسير كلام الله تعالى مبني على خطأ قدْ تبنّاه البشر وأساس هذا الخطأ هو: ـ أنْ يَقيس ويُقارن البشرُ كلامه مع كلام الله تعالى، صحيح هناك نقطة اشتراك بين كلام الله تعالى وبين كلام البشر، ألا وهي اللغة العربي، واللغة البشرية، إلّا أنَّه هناك جانب افتراق وهو: ـ

إنَّ هذهِ اللغة العربية إنْ كان المستخدم لها هو البشر فقدرة استثماره محدودة وإنْ كان الخالق للبشر فقدرته للاستثمار غير محدودة، ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[1].

إذنْ هذا هو السبب تقريباً في عدم قدرة البشر على تفسير كلام الله، ولذا وَرَدَ في بعض الروايات عن جابر قال: ـ أبو عبدالله عليه السلام ... وليس شيءٌ أبعد من عقول الرجال منه، إنَّ الآية لينزل أوّلها في شيء وأوسطها في شيء، وآخرها في شيء وهو كلام مُتصرِّف على وجوه[2] والشاهد: ـ أنَّ المراد بالأبعدية والبُعْدية في قوله عليه السلام هو في كيفية ومقدار استخدام اللغة

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٢) تفسير العياشي، ج١، ص٨٦، باب تفسير الناسخ والمنسوخ ح٢.

العربية عند الله تعالى ليسَ كبقية البشر فإنَّه في البشر محدود وعند الله تعالى غير محدود.

هذا مضافاً إلى ما وَرَدَ عن النبي الأكرمﷺ **«... وبعضكم ألحن بحجته من بعض ...»**[١].

بتقريب: إنَّ هُنا متخاصمين بينهما نزاع، أحدهما قوي البيان ولقوة بيانه ـ وإنْ كان هو مُنْكِراً إلّا أنَّه بسبب ذرابة لسانه يظهر وكأنَّه هو المدّعي والطرف الآخر الذي هو المدعي حقيقة وواقعاً ولكنْ بسبب عدم امتلاكه للبيان القوي والظاهر ولضعفه ومماشاته لصاحب البيان القوي يظهر وكأنّه هو المنكِر أي لا يتهِم الآخر صاحب التهمة ويحتاج إلى دليل، لذا أكَّد النبيﷺ ـ بعضكم ألحن في حجته من بعض.

ولذلك نلاحظ بعض البشر نتيجة امتلاكه القدرة العالية في البيان يكون بمقدوره تجميل القبيح الجميل ـ والعياذ بالله ـ بأنْ يُسلِّط كلامه وبيانه على جهة ويغفلك عن الزوايا الأُخرى، وعليه فمثل هذا له القدرة على البيان ويستخدم أكبرْ حصة ممكنة من دروب الكلام بخلاف الطرف الآخر الذي ليسَ بمقدوره استثمار ذلك.

ومن خلال هذا يُعلَم أنَّ قُدُرات البشر وقابليّاتهم لاستثمار البيان فيما بينهم مختلفة.

---

(١) التهذيب ج٦ ص٢٢٩؛ الوسائل ج٢٧ ص٢٣٢ ب٢ من أبواب كيفية الحكم ح١.

علم النقد الأدبي من أهم علوم اللغة

إنَّ أحد أهم علوم اللغة هو علم النقد الأدبي الذي يمارس ويُجرى في الجاهلية أيام سوق عكاظ الذي كان يُعْقَد في مِنى أيام موسم الحج فيجتمع أيام الموسم الشعراء والأدباء وأصحاب المقطوعات النثرية إلى أصحاب المعلقات السبعة وأشعارهم، ويتبارون في ذلك باستعراض قصائدهم ومقطوعاتهم النثرية و ... الخ.

ويفترق الناقد الأدبي عن الشاعر والأديب الموهوب: ـ

بأنَّ الناقد الأدبي يمتلك القدرة العالية على التحليل والتأمل في المقطوعات النثرية والشعرية ويُعيِّن مواطن الضعف وينقدها.

أمَّا الأديب: ـ فليس عنده القدرة الكافية على التحليل والتأمل، وإنَّما عنده علم ارتكازي إجمالي في اللاشعور واللاوعي ويمتلك قدرة قويّة للاستشار شبيه: ـ سيبويه فإنَّه من أبناء غير اللغة العربية ـ أي مِن أبناء الأعاجم ـ فهو ليسَ بأديب وإنَّما يمتلك القدرة العالية على التحليل العالي يفوق بها الكثير، فمثلاً نلاحظ كثير من النحاة وأكثر علماء الصرف عندهم قدرة تحليل وهم ليسوا بأدباء وقليل منهم أدباء، وإنْ كان من العصوبة بمكان أنْ يجمع الشخص بين الموهبتين، فمثلاً الزمخشري ليسَ له ذلك الباع في العروض الأدبية وغيرها إلّا أنَّه يمتلك قوّة تحليل عالية بأنَّ يحلل الكلام ويعمل منهجاً تحليلياً في الكلام بحيث لمْ يلتفت إليه المتكلم تفصيلاً، فلو عُرض هذا التحليل من قبل الناقد الأدبي إلى المتكلم لتفاجئ

بذلك ويقول المتكلم أنا لمْ أقصد ذلك وإنْ كان ليسَ من نيّاته قصد ذلك تفصيلاً إلّا أنَّه استثمر اللاشعور واستثمر الطاقة اللغوية الأدبية في هذهِ المعاني.

وهذا نظير ما يُعْرَف اليوم بعلم النفس اللساني أي من اللسان يكتشف خبايا مطويات وأسرار نفس المتكلم من دون أنْ يشعر المتكلم به والمتكلم لا يريد أنْ يبوح بإسراره ومعلوماته، ولكنْ هذا المحلل النفساني عبر تحليل مؤديات الكلام يستطيع الوصول إلى ذلك ﴿وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾[١] فكان المنافقون يأتون إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ويقولونَ له كلاماً عنَ كُلّ مخططاتهم المطويّة والسريّة، والنبي صلى الله عليه وآله من خلال كلامهم يعلمهم أنفسهم من حيث لا يشعرون وإنْ لمْ يكونوا قاصدين لذلك، ويمكن الكلام أنْ يُجذر مداليل ومداليل إلى ما شاء الله.

وهذا ما أشار إليه أمير المؤمنين عليه السلام **«المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه»**[٢].

والمتكلم من خلال كلامه وبيانه فتح خطاً إلى أعماق الإنسان، وهذهِ اكتُشفت مؤخراً عِلماً أنْ سيد الأوصياء علي بن أبي طالب عليه السلام قالها قبل أربعة عشر قرناً، وكشف عليه السلام أسرار علوم النفس بمقولته هذهِ، وكشف أسرار البحث الأمني، وكشف عن علوم الأمن الإستراتيجية، وعلم الإعلام المخابراتي والاستخباراتي و ... الخ كلها اعتمدت على: ـ المرء مخبوء تحت طي لسانه لا طيلسانه.

---

(١) سورة محمد: الآية ٣٠.

(٢) الأمالي للشيخ الصدوق ص٥٣١؛ وعيون أخبار الرضا عليه السلام للصدوق ج٢، ص٧٨.

وهكذاما ذكره الفقهاء من أنَّ إقرار العقلاء على أنفسهم حجة وجائز وإنْ كانت عملية المداليل قدْ تجاوزت الإرادات التفصيلية، فهذا المُقِر قدْ اعترف على نفسه إلّا أنَّه توجد لوازم لهذا القرار كإقامة الحدِّ مع أنَّه يريد أنْ يخفيها أو لا يلتزم بها، وعليه فاللسان مفتاح خزائن، والبحوث العلمية الحديثة تعتبر العلوم الألسنيّة اعتباراً، مهماً.

كل هذا يستعرضه منهج أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهة، وهذا منهجٌ عريقٌ أسس له أهل البيت عليهم السلام وكان يُطعن عليه، بأنَّ هذا تخليط وتخليق وتأويل وبطون وخبط و ... الخ ونراه اليوم وبعد أنْ تعمَّقت البحوث العلمية وتطورت واكتُشفت تلك الحقيقة التي أشار لها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وأمير المؤمنين عليه السلام قبل أربعة عشر قَرْناً من خلال علوم الألسنيات وهو ما يعبرون عنه بالمصطلح العلمي بالانتربولوجي.

ولاية أهل البيت عليهم السلام

هي مدار القرآن وباقي الكتب السماوية

الشرط الثاني[1]:

إنَّ أهل البيت عليهم السلام هم مدار القرآن وباقي الكتب السماوية النازلة أجمع، وبولايتهم عليهم السلام تُدار محكمات الكتاب العزيز وبها نزلت جميع الكتب.

وهذا يعني أنَّه ليسَ باستطاعة البشر أنْ يحصل على منهاج قويمٌ وسديد صائب في تفسير القرآن الكريم ما لمْ تُجعل ولاية الله وولاية الرسول صلى الله عليه وآله وولاية أهل البيت عليهم السلام المحور المركزي في منظومة معارف وأحكام وبيانات القرآن الكريم، وبعد هذا المحور المركزي تأتي محكمات القرآن ولها طبقات، ثم بعد ذلك تأتي وحدة نسق الآية والسورة، وتقدم مراراً أنْ منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات في منهج التفسير المختار دأب وحافظ على أنْ لا يقصي ولا يُفنِّد المناهج التفسيرية الأُخرى، وإنَّما يضع لكل منهج من المناهج التفسيرية الأُخرى موقعاً محدوداً بحسب شأن وقُدرة ذلك المنهج.

ومنهج أمومة الولاية على المحكمات هو المنظم والمهيمن والحاكم على باقي المناهج التفسيرية سواء المنهج التفسيري الموضوعي أو التجزيئي أو أسباب النزول أو التفسير بحسب علوم اللغة أو بحسب البعد العقلي أو

---

(١) تقدم الشرط الأوَّل من الشرائط المعتبرة في استعمال اللفظ في أكثر من معنى، ص٢٨.

... الخ فإنَّ منهج أمومة الولاية لا يُشطب أي منهج تفسيري من هذهِ المناهج التفسيرية فهو المصحح والمرشد لها.

ومن هذا يُعْرَف: ـ إنَّ الغرض من تأكيد القرآن على اتّباع المحكمات والنهي عن اتّباع المتشابهات لأنَّ اتّباع المتشابه يؤدي إلى الشتات والتشتت والانحراف والتمسك ببعض والإيمان به دون البعض الآخر ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ﴾[1] فإنَّ الإيمان بالبعض والمغفل عن الإيمان بالبقيَة هذا ضلال وليسَ هداية، ولذلك لابدَّ من منظومة، ولذا نلاحظ التفاسير الخاطئة والمنحرفة أو المذاهب الاعتقادية الخاطئة التي نشأت في فرق المسلمين سببها كان هو عدم مراعاة منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام ولو روعيت لما وقع هذا الاشتباه والتشابه وتعدد الفِرَق، وهذا يعتبر شرط أساسي من شرائط استعمال اللفظ في أكثر من معنى، ولكن بشرط وهو عدم التصادم مع احتمالات أُخرى في آيات وسور أُخرى وبالتالي لابدَّ من ملاحظة ومُراعاة وتفعيل الشروط المتقدمة في حجية قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى، فإنَّ منهج أمومة الولاية لأجل استثمار هذهِ القاعدة المهمة يُفَعِّلها بخلاف المناهج الأُخرى فإنَّها تُفعل وتُراعى بعض الشروط التي ذكرناها سابقاً في حجية قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى فمثلاً القائل بالتفسير الموضوعي غاية ما يلاحظه ويرعاه تكرر هذا العنوان كموضوعة واحدة في سائر الآيات والسور، والأمر أعظم عند صاحب التفسير التجزيئي فإنَّه يلاحظ فقط المقطع الذي هو فيه، وهكذا صاحب تفسير أسباب النزول يلاحظ سبب النزول فقط

---

(١) سورة البقرة: الآية ٨٥.

كي يعطي ويعكس سبب النزول. وهكذا صاحب التفسير الأدبي يلاحظ الأمور الأدبية التي تخصّه، وهكذا كل مفسر يلاحظ ويراعي ما يخصّ موضوع تفسيره وحدوده إلّا تفسير منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات فضلاً عن المتشابهات.

وللأسف حتّى مناهج التفسير العقلي والعرفاني والإشاري واللطائفي و ... الخ لاتقيم وزناً ولا أهمية ولا خطورة للآيات المحكمات فإنَّها لم تُراع التناسب العلمي للمحكمات وأنَّ المحكمات هي ذات طبقات.

وتمثل المحكمات بمثابة قواعد دستورية هي التي تهيمن على القواعد التي دونها، ولا يشترط في المحكمات أنْ تكون ذا موضوع مشترك أو نفس العنوان الموضوعي فيما بينها في نفس اللحظة، ومع ذلك يجب على المُفَسِّر أنْ يُراعي كيفية اتصال وارتباط المحكمات بهذا الموضوع الذي هو بحسب العنوان اللفظي أجنبي عن المحكمات.

الخلاصة: إنَّ الأمر المهم الذي نريد أنْ نلفت أنظار الباحثين إليه هو أنَّه لا نطالب بوحدة الموضوع في المحكمات التي يتذرع بها الباحثون دائماً ويقولون بعدم وجودها بين المحكمات، بلْ نُطالب بشيء أعمق من وحدة الموضوع وهو الوحدة والهيمنة المركزية التي هي أعظم من وحدة الموضوع.

فإذا لاحظنا الشرائط المتقدمة وبالأخص الشرط الثالث وهو عدم مخالفة قاعدة استعمال اللفظ لأكثر من معنى لمنهج أمومة ولاية أهل البيت على المحكمات.

وهذا الشرط يصب اهتمامه على إعطاء الدور الرئيسي والهيمنة والحاكمية والأمومة للمحكمات على غيرها في قواعد التفسير بخلاف باقي

المناهج التفسيرية الأُخرى فإنَّ أصحابها كصاحب التفسير النحوي أو الصرفي أو البلاغي أو صاحب منهج تفسير القرآن في القرآن أو صاحب التفسير الموضوعي، فليس عندهم بالضرورة مراعاة جانب الهيمنة المركزية كما في أمومة المحكمات.

ما هو الأثر المترتب على تمامية الشرط الثالث:

إنَّ الأثر المهم الذي ينتج ويترتب على تمامية الشرط الثالث ـ عدم منافاة قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى لمنهج أمومة الولاية على المحكمات ـ هو حجية كُلّ هذهِ الدلالات تصوراً أو استعمالاً أو تفهيماً أو جداً وهذهِ نقطة افتراق منهج أمومة الولاية على المحكمات عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى جميعاً عدا بعض المناهج التفسيرية كالتفسير التأويلي أو الإشاري أو اللطائفي، وهذا ما ستتعرض له في النظام الثاني أي بحث النظام المعنوي لتفسير القرآن الكريم ضمن منهج أمومة الولاية على المحكمات التي لا تقول بحجية كُلّ الدلالات إلّا الدلالة الجدية مثلاً أو التفهيمية كما سيأتي تفصيل كُلّ ذلك في محله إنْ شاء الله تعالى.

الضوابط التطبيقية لقاعدة
استعمال اللفظ في أكثر من معنى

لأجل أنْ تكون الأمثلة التي نسوقها لتوضيح هذهِ القاعدة المهمة وهي استعمال اللفظ في أكثر من معنى محسوسة لنا بشكل أكثر، لابدَّ من ملاحظة وتتبع سير الانتقال في الدالة اللفظية من خطوة إلى أُخرى لاحقة حتَّى يصل الخطاب إلى السامع بالشكل الذي يريده المتكلم وهي:ـ

المرحلة الأُولى: ذكرنا سابقاً أنَّ كُلّ مرحلة من مراحل الدلالة لها آلياتها، فالدالة اللفظية على صعيد التصور لها آلياتها الخاصة بها غير آليات الدلالة الاستعمالية غير آليات الدلالة الجدية ... الخ.

فمثلاً ألفاظ معينة لها أصوات ربما تستعمل في ألفاظ متعددة تتشابه وتتشاكل وتتجانس صوتياً ـ كما في اللفظة الأخيرة في الشعر الشعبي الدارج الأبوذية ـ أو مثل قيل يا أسما أين صبري.

آليات الأصوات سواء أصوات الألفاظ الأصلية أو غير الأصليةأي الحركات الإعرابية المعبر عنها بانها نصف لفظ مثل الضمة التي هي نصف صوت الواو والفتحة نصف صوت الألف وهكذا يرسمون المد مثلاً بأَنَّه كم يعادل من الألف، والكسرة نصف صوت ياء مُصغَّرة كما في علم التجويد وعلم الصرف.

المرحلة الثانية: تصور العلاقة بين اللفظ والمعنى يعني الأوضاع اللغوية آلياً، والانتقال في هذهِ المرحلة من الصوت إلى اللفظ، ومن اللفظ

إلى المعنى بعد أنْ تجاوزنا في المرحلة الأُولى عالم اللفظ والصوت إلى عالم ما بين اللفظ والمعنى أي المعنى التصوري والأوضاع اللغوية وآليات الألفاظ.

المرحلة الثالثة: العلاقة بين المعنى التصوري والمعنى الاستعمالي، وآليات هذهِ المرحلة عبارة عن مجموع الألفاظ والقرائن الاستعماليّة.

المرحلة الرابعة: مرحلة القرائن التفهيمية، سواء أكانت لفظيةً أو حاليةً أو لُبيّةً أو ... الخ وقدْ خاض علماء البلاغة والأصول تفاصيل أصناف القرائن الاستعمالية التي ترتبط باستعمال اللفظ كقرينة المجاز وغيرها مما يرتبط بالقرائن الاستعمالية، وهكذا قرائن الكناية فإنَّها قرائنٌ مرتبطة بطبقة القرائن التفهيمية والتي تعني تحديد بالمعنى التفهيمي، وكذا الدلالات الالتزاميّة هي قرائن ترتبط بطبيعة القرائن التفهيمية وليست بالقرائن الاستعمالية.

المرحلة الخامسة: مرحلة طبقة القرائن الجديّة والتي ترتبط بمحصلة الحكم، ففي كُلّ مفادٍ لفظي هناك حكم سواء قضية إنشائية أو إخبارية فإنَّه هناك حكم أي محمول وهناك موضوع وما شابه ذلك ما يرتبط بشؤون وميول الحكم يُقال له قرائن ترتبط بمقدمات الحكمة أي مرتبطة بقرائن الجد.

وهناك مرحلة سادسة وسابعة وثامنة و ... إلى أنْ يعلم الله حدودها هي في الحقيقة تعدد مراحل المعنى الحدي وللمعنى الجدي آليات.

والخلاصة: إنَّ لكلِّ طبقة أومرحلة من آليات الدلالة قواعد أو قرائن منضبطة بالعلوم المختلفة لكي لا يتشوش نسق الدلالة ونسق المدلول لدينا، ولابدَّ من ضبط أنَّ كُلّ علم يختص باي مرحلة وبأي طبقة من قرائن

الدلالة حتَّى في علوم اللغة، فإنَّه علوم اللغة ـ كما تقدم ـ متعددة من علوم الأدب العربي، أو علوم الأدب اللغوي، وأصل المعاجم اللغوية الذي هو علم المفردات فإنَّه يختص بمرحلة الدلالة الوضعية التصورية، وعلم العروض يختص بما قبل ذلك الذي هو علم الأصوات وكيفية انسجام علم الأصوات مع موادّ الألفاظ.

بحث آخر حول القرآن

إنَّ فرض وبحث عملية القرائن أمرٌ بالغُ الأهمية، وقدْ ذكر علماء البلاغة إنَّ الدلالة التصورية وعالم الارتباط بالألفاظ التصورية مما يُبحث في علم البديع بالذات، وهكذا يأخذ علم البديع شيئاً من مرحلة الاستعمال.

وأمَّا الدلالة الاستعمالية وشيء من الدلالة التفهيمية فيُبحث في علم المعاني.

وأمَّا الدلالة الجدية وشيء من التفهيمية فتُبحث ويُعتنى بشأنها في علم البيان.

والخلاصة: إنَّ علوم البلاغة الأساسيّة هي:

١ ـ علم البيان: يرتبط بالتفهيمي والجدي.

علم المعاني: ـ يرتبط بالمعنى الاستعمالي وشيء من حافة التفهيم.

٣ ـ علم البديع: ـ ما يرتبط بالألفاظ والمحسنات اللفظية، أي مرحلة الدلالة الاستعمالية والأوضاع اللفظية بالمعنى التصوري.

وأمَّا ما يرتبط بقرائن الحكمة والعلوم الأُخرى التي تبحث عن مسائل وأمور مُتعددة في علم النفس وعلم الاقتصاد وعلم الفقه وعلم المصرف والمال، وعلم الفلك وعلم العقائد ... الخ والقرائن التي تأتي من العلوم الأُخرى فالغالبيّة العظمى منها ترتبط بمرحلة المراد الجدي على طبقات.

ومن الخطأ أنْ يُقال:

إنَّ تفسير الشريعة وتفسير النص الديني يكفي فيه علوم اللغة فقط يكفي فيه فقط علوم اللغة، علماً أنَّ علوم اللغة فقط توصلك إلى المعنى التفهيمي دون المعنى الجدي، وطبقات المراد الجدي يجب أنْ تتكفلها علوم أُخرى.

ولذا ينبغي للفقيه المُفَسِّر إذا أراد أنْ يتناول موضوع اقتصادي ومعالجة أمر اقتصادي كتحريم الربا في القرآن الكريم والسنة أو تحريم استقضاء الأجرة من الفواحش أو القمار أو أكل المال بالباطل أو ... الخ فعلى المُفَسِّر أو الفقيه أو الباحث أنْ لا يقتصر ولا يكتفي فقط بالعلوم اللغوية، بلْ يستعين بمفردات تلك العلوم والاطّلاع على المناهج المقرَّرة في تلك العلوم والتعامل بمصطلحات بما يتلائم وعلوم الدين.

ونودُّ **الفات النظر** إلى أنَّ الأزمات السرطانية في الاقتصاد البشري جيلاً بعد جيل تدور وتلف وترجع إلى الغدد السرطانية التي وضع القرآن يده عليها وحرّمتها ونهى عنها أمثال: ـ

١ ـ الربا.

٢ ـ القمار.

٣ ـ أكل المال بالباطل.

٤ ـ غسيل الأموال وتمويهات بالباطل ليسَ لها أي حقيقة.

٥ ـ حرمة أكل الميتة ... الخ.

إذنْ القرآن الكريم وضع يده على غدد سرطانية في باب الاقتصاد أو

باب الأطعمة والأشربة أو النظام الغذائي البشري، مهما حاول البشر أنْ يُقنِّعها بمختلف الأقنعة ويبدل ألفاظها جيلاً بعد جيل ترجع إلى الماهية والحقيقة، فالربا مهما قُنِّع أو بُدل لفظه أو صورته أو ... فهو يجر إلى مفسدة وكذا الفواحش بطريقة أُخرى الخداع المعاملي بطريقة أُخرى وبأسماء جديدة فإنَّ المسمى واحد يعتمد على قرائن ترتبط بعالم المال والنقد أو عالم الصرف والمصرف ولا نريد من الفقيه أنْ يتخصص بعالم المال والمصرف وإنَّما لا أقل يستعين بقواعده؟ لِمَ ذلك؟

لأنَّ تلك القواعد ترتبط بالمعنى الجدي، كذلك الفقيه إذا أراد أنْ يُحرر وينظر بشكل عميق ومتين في بحوث علم الاقتصاد فلا تكفيه المعالجة بعلوم اللغة وإنَّما علوم اللغة توصلك إلى المعنى التفهيمي وأقصى ما توصلك إليه هو المعنى الجدي الإجمالي أمَّا طبقات المعنى الجدي التفصيلية لا يمكن معالجتها بالفقه أو علوم اللغة فقط وإنَّما لابدَّ من الرجوع إلى القواعد والقرائن المرتبطة بتلك العلوم الأُخرى مثل علم الاقتصاد وعلم الفلك وعلم الفيزياء والكيمياء و ... الخ.

الخلاصة: أنَّ العلوم الأُخرى قواعدها وبراهينها ودوافعها ترتبط بالمعنى الجدي وليسَ للمفسر أو الفقيه أو المتكلم أو أي أحد أنْ يقرأ النص الديني بمعزل ومنأى عن القواعد المسلمة والبديهية في العلوم الأُخرى لا القواعد النظرية لأنَّ القواعد النظرية لمْ تصبح لحد الآن حقائق وإذا لمْ تصبح حقائق فلا يمكن الاعتماد عليها أو هناك آراء فرضية وليست نظرية، ومن المعلوم أنَّ الفرضية أسبق من النظرية في العلوم ثم بعد النظرية حقيقة.

القواعد البديهية والمسلمة في العلوم هي فقط التي يعتمد عليها وأمَّا الفرضية أو النظرية فلا يمكن الاعتماد عليها.

وعليه فالقواعد المبدهة في العلوم الأُخرى هي قرائن الجد وحينئذٍ تكون هذهِ توسعة لأقسام القرائن.

القسم الثاني
استعمال اللفظ في أكثر من معنى

تقدم الكلام في استعمال اللفظ معنى واحد، والآن نحاول الخوض في القسم الثاني وهو استعمال اللفظ بأكثر من معنى بعرضه العريض، وإنْ كان الأنسُ بهذه القاعدة الخطيرة والمهمة والوسيعة أمرٌ غريبٌ عند علماء البشر أجمع، نعم ممارستها بشكل محمود موجودٌ في كُلّ أفق البشر، كما مَرَّ التنبيه عليه من بعض أدلَّة القسم الأوَّل في الحواريات الإنسانية أو الحواريات في اللغة العربية فإنَّه موجود فيها استعمال اللفظ في أكثر من معنى.

والكلام في هذا القسم الثاني بلحاظ علم التفسير للقرآن الكريم، نريد أنْ نلفت نظر الأخوة الباحثين ونتنبَّه إلى أنَّ هذهِ القاعدة بأفقها الوسيع جداً لمْ تدشن وتطبق بهذه الموسوعية الكبيرة في أي منهج تفسيري ولا في أي علم من العلوم إلّا في منهج تفسير أمومةولاية المحكمات وأهل البيت عليهم السلام والذي لمْ يفتأ الآخرون يُسجلون طعناً على هذا المنهج منذ القرن الأوَّل للإسلام إلى فترة متأخِّرة جداً إلّا أنَّه هناك الآن في العصر الحديث صحوة علمية اعترفت بأنَّ هذا المنهج هو منهج جدير وحقيقي وكفوء لاسيما بعد انفتاح مبحث ومنهج تعدد القراءات للنص الديني وفلسفة الألسنيات عند الشرق والغرب وتعددية وهرمونطيقيا وبرمجة مهولة لانه يُبَرْمج فيها لعوالِمِ من البرمجة التي تباهى بها القرآن الكريم وجعلها من عظائم إحسانه على عباده وهي لغة البيان ﴿الرَّحْمَن، عَلَّمَ الْقُرْآن، خَلَقَ الإِنسَان،

عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾(١).

الألسنيات الحديثة وفلسفتها فبها جوانب إيجابيّة جديرة وفيها جدارات أنجزت وكانت في السابق علوم اللغة في لغات البشر وعلوم الأدب العربي في غفلة عنها ويعدونها طعن على مدرسة، ومنهاج أهل البيت عليهم السلام، والآن أصبحت وإنْ لم يُصرِّحوا ـ الطرف الآخر ـ ولم يعترفوا بذلك إلّا أنّها حقيقة والحقيقة لا تحتاج إلى اعتراف فتلك الطعون التي كانوا يطعنون بها على منهج مدرسة أهل البيت عليهم السلام أصبحت الآن تعتبر معاجز علميّة لأهل البيت عليهم السلام لذلك يعبرون عنها البرمجة اللغوية ومن الواضح أنَّ اللغة فيها برامج مهولة.

وعليه فالبرمجة اللغوية ليسَ أمرها باليسير، والذي نريد الوصول إليه من خلال هذا كُلَّهُ هو:ـ

إنَّ قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى لها طبقات ولها زوايا وجهات متعددة، وعليه فكيف تُطبَّق فكرة هذهِ القاعدة بمنهاجها الوسيع في منهاج أهلِ البيت عليهم السلام، والبيان المذكور في القرآن الكريم مثل قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾(٢) الذي هو كناية عن اللامحدودية واللاتناهي، بلْ فوق ذلك، وكذا البرهان المذكور في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي صلى الله عليه وآله وعترته عليهم السلام أنّه ما دامت قواعد اللغة والبيان كُلّها متأتيّة ومنطبقة وقابلة للانطباق على مواردها فتكون كُلَّها مُرّادة في مختلف العلوم من النحو والصرف والعَروض وعلم القراءات والصوت، وأنَّ قواعد هذا الصوت يمكن أنْ تُضبط على قراءتين

---

(١) سورة الرحمن: الآيات ١ ـ ٤.

(٢) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

أو ثلاثة أو أربعة أو ... الخ.

وأحد تفسيرت تبيان تعدد القراءات بهذا المعنى في روايات أهل البيت عليهم السلام هو:ـ

أنَّ وجوه القرآن لا بمعنى اختلاف لهجات العرب وإنْ كان هذا هو المعروف من علم القراءات، إلّا أنَّ منهج أهل البيت عليهم السلام لا يُشيد به بذات الحد، وإنَّما يُشيد منهاج أهل البيت عليهم السلام إلى منهج تعدد القراءات العصري يعني وجوه القرآن بأنَّ اللفظة الواحدة لها صوتاً ولها استعمالاً ولها تفهيماً ولها جدّاً و ... الخ.

نعم وَرَدَ في روايات أئمة أهل البيت عليهم السلام إنَّ تعدد القراءات بهذا المعنى هي تعدد وجوه للقرآن.

والنقطة الجوهرية التي يتميز بها منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات فضلاً عن المتشابهات عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى هو أنَّ منهج أمومة الولاية يبني على عدم وحدانية المعنى من اللفظة الوحدة، وهذهِ هي بداية افتراق مسار الطريق مع باقي المناهج التفسيرية الأُخرى سواءً منهج المتكلمين أو الفقهاء التي تبني على وحدانية المعنى بالجملة.

إذنْ السُبل عند أهل البيت عليهم السلام متعددة وإنْ كان الصراط واحداً ومستقيماً لكنَّ السُبل إلى الله وإلى ذلك الصراط متعددةٌ ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾[1].

إلّا أنَّه ومن المؤسِف جداً بعضهم ينظر إلى كلام الله تعالى نظرةً

---

(١) سورة المائدة: الآية ٤٨.

حبوسيّةً ضيقةً ويعتبر هذا من الأخطاء الفاحشة؛ لأنَّ الكلام صادرٌ من ربِّ العالمين وأُفُقُه يختلف عن أفق البشر، وعليه تكون جميع هذهِ الجهات المختلفة المتعددة كُلُّها مُرادة، ولو لمْ يُرد الله تعالى جميع هذهِ المعاني المختلفة لَحَجب باباً عن باب، وعليه فما دام الكلام الإلهي في القرآن منفتح على جهات عديدة كلها تكون مرادة ولا مانع منه في بيانات أهل البيت عليهم السلام كمنهاج شرايع تبتدأ بهذا الطريق، فإنَّ للكلام طُرقاً متعددة فما دام لمْ تخرج عن قاعد وموازين المنهاج المقرر في مدرسة أهل البيت عليهم السلام فإنَّه لا مانع منه وحاله حال القواعد النحويّة إذْ يمكن أنْ تعرب بوجوه متعددة لا تخرج عن الضوابط والقواعد النحوية وكلها صحيحة بالشروط الثلاثة التي تقدَّمت.

والنتيجة: إنَّ انضباط القواعد ليست عشوائية وإنَّما منضبطة ورصينة وموزونة بموازين إلّا أنَّه لماذا تُترك هذهِ الموازين، ولذا يختلف منهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات فضلاً عن المتشابهات في القرآن الكريم عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى كمنهج الحداثويات والألسنيات ومنهج القراءات المتعددة في أنَّه في منهج امومة الولاية إذا تعدد الموازين لا يوجب هذا التعدد تضارب بينها، بخلاف المناهج الأُخرى لاتي يحصل عندها تضارب بين الموازين بسبب اشتراطها المُسبق أنَّ المعنى واحد وأُحادي الأفق وضيّق، بخلاف منهج أمومة الولاية التي تستند إلى قوله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[1].

وحينئذٍ لا مانع من تعدد القواعد الصرفية والنحوية والبلاغية و ... الخ إذا لم تتعارض موادّها مع محكمات القرآن ولا بأس بها لأنَّها قواعد وحقائق علميّة.

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

المواد التطبيقية لقاعدة
استعمال اللفظ في أكثر من معنى

إنَّ قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى ذات معنى وسيع جدّاً، ويُمكننا أنْ نطبقها على منهاج أُمومة الولاية على المحكمات في القرآن فضلاً عن المتشابهات، ونذكر لها عِدَّة أمثلة وموارد تطبيقية.

المورد الأوَّل: حديث النبيﷺ **«أوتيت جوامع الكَلم»**[1].

بتقريب: - إنَّ الكلمة التي يُبديها رسول اللهﷺ تشتمل على منظومات بيانية إلى ما شاء الله، إلّا أنها تحتاج إلى مُفَسِّر إلهي منتخب من قبل الله تعالى حتّى يُفسِّر هذهِ الكلمة التي أطلقها رسول اللهﷺ؛ لأنَّ الرسولﷺ لم يُأتَ جامع أو مجموعة من الكلم وإنَّما أوتي جوامع الكلم، والجوامع جنس الكلم، ولذا نلاحظ أيَّ حديث نبوي يصدر عنهﷺ له ما شاء الله من التفاسير، وتنبثق منه قواعد عديدة بمثابة أسس تنطلق منها تلك القواعد والضوابط.

المورد الثاني: قولهﷺ **«إنَّما الأعمالُ بالنيات»**[2] هذا الحديث الشريف رغم وجازة كلماته إلّا أنَّه بعض المحققين استقصى معاني هذا الحديث الشريف الذي قدْ بُيِّن في كلمات أهل البيتعليهم السلام، ثم علماء المسلمين إلى ما يقرب من أربعين

---

(١) الخصال للصدوق، وكذا الآمالي للصدوق.

(٢) دعائم الإسلام للقاضي النعمان المغربي، ج١، ص٣، وتهذيب الأحكام للشيخ الطوسي، ج٤، ح١٨٦ ص٥١٩.

معنى متباين، وكل هذهِ المعاني قواعد أساسيّة في العلوم المهمة.

ويتشمل هذا الحديث الشريف على بيان معاني علوم عديدة وأسس وقواعد علوم فتقت من هذهِ القاعدة النبوية الشريفة تتضمن مفاتيح لأبواب علوم أساسية مختلفة يحتاج إليها الباحث، وهذا معناه أنَّ عالم المعاني أعظم عالم مجرد وأعظم من عالم الأبدان.

هذا بلحاظ حديث النبي صلى الله عليه وآله فكيف بكلام الله تعالى الذي هو خالق وجاعل ومُعْطي جوامع الكلم للنبي صلى الله عليه وآله التي هي أسماء إلهية أعظم من جوامع الكلم لذا كان وصف القرآن لنفسه عظيماً ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾[1]؛ ولذلك ورد عن الإمام الصادق عليه السلام في رواية أبي بصير قلت للصادق عليه السلام قوله ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾، قال عليه السلام: أخبرك أنَّ كلام الله ليسَ له آخر ولا غاية ولا ينقطع أبداً][2].

المورد الثالث: هناك جمل كثيرة من كلمات النبي صلى الله عليه وآله الموجزة النافعة نذكر بعضها من دون تعليق طلباً للاختصار.

١ ـ قوله صلى الله عليه وآله: **«من تفاقر افتقر»**[3].

٢ ـ قوله صلى الله عليه وآله: **«أفضلكم إيماناً أحسنكم أخلاقاً»**[4].

٣ ـ قوله صلى الله عليه وآله: **«حُسن البشر يُذهِب بالسخيمة»**[5].

---

(١) سورة الكهف: الآية ١٠٩.

(٢) تفسير البرهان، ج٣، ص٦٨٩.

(٣) تحف العقول، ص٤١.

(٤) المصدر السابق، ص٤٥.

(٥) المصدر السابق، ص٤٥.

٤ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «صِلوا أرحامكم ولو بالسلام»[1].

٥ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «ما آمن بالقرآن مَن استحَلَّ حرامه»[2].

٦ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «خيرٌ من الخير مُعطيه، وشرٌّ من الشر فاعله»[3].

٧ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «خير من العمل أدومه وإنْ قلَّ»[4].

٨ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «حُبُّ الدنيا أصل كل معصيّة»[5].

٩ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «لا يرد القدر إلّا الدعاء»[6].

١٠ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «خير الزاد التقوى»[7].

١١ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «رأس الحكمة مخافة الله»[8].

١٢ـ قوله صلى الله عليه وآله: «السفر قطعة من العذاب»[9].

١٣ ـ قوله صلى الله عليه وآله: «ادفعوا البلاء بالدعاء»[10].

المورد الرابع: ما ورد في كلمات أمير المؤمنين عليه السلام المختصرة والنافعة.

---

(١) المصدر السابق، ص٥٧.
(٢) المصدر السابق، ص٥٥.
(٣) المصدر السابق، ص٥٧.
(٤) مجموعة ورّام ج٢، ص١٢٢.
(٥) المصدر السابق.
(٦) عيون أخبار الرضا ج٢، ص٧٤.
(٧) كنز الفوائد ج١، ص٢١٦.
(٨) المصدر السابق.
(٩) عيون أخبار الرضا، ج٢، ص٧٤.
(١٠) الفقيه، ج٤، ص٣٨٠.

١ ـ قوله عليه السلام: «لا غنى مثل العقل، ولا فقر أشد من الجهل»[١].

٢ ـ قوله عليه السلام: «قيمة كلُ امريء ما يُحسِن»[٢].

٣ ـ قوله عليه السلام: «إذا تمَّ العقل نقص الكلام»[٣].

٤ ـ قوله عليه السلام: «آلة الرئاسة سعة الصدر»[٤].

٥ ـ قوله عليه السلام: «الإعجاب يمنع الازدياد»[٥].

٦ ـ قوله عليه السلام: «الطمع رقٌّ مُؤبد»[٦].

٧ ـ قوله عليه السلام: «كم أكلة منعت أكلات»[٧].

٨ ـ قوله عليه السلام: «القناعة مالٌ لا ينفذ»[٨].

٩ ـ قوله عليه السلام: «الناس أعداء ما جهلوا»[٩].

١٠ ـ قوله عليه السلام: «الشكر زيادة»[١٠].

١١ ـ قوله عليه السلام: «الصمتُ وقارٌ»[١١].

---

(١) تحف العقول، ص٢٠١.
(٢) تحف العقول، ص٢٠١.
(٣) نهج البلاغ، ٥٢٦.
(٤) تحف العقول، ص٢٢٤.
(٥) نهج البلاغة، ص٤٩٤.
(٦) المصدر السابق.
(٧) المصدر السابق، ص٥٤٨.
(٨) المصدر السابق، ص٥٠٧.
(٩) المصدر السابق، ص٥٢٥.
(١٠) غرر الحكم، ص٣٧٨.
(١١) المصدر السابق، ص٢١٦.

١٢ ـ قوله عليه السلام: «العاقل مَن وعظته التجارب»[١].

١٣ ـ قوله عليه السلام: «الفقر يُخرس الفطن عن حجته»[٢].

١٤ ـ قوله عليه السلام: «كل داء يداوى إلّا سوء الخُلُق»[٣].

١٥ ـ قوله عليه السلام: «كل شيء يُمَلُّ ما خلا طرائف الحِكَم»[٤].

١٦ ـ قوله عليه السلام: «كثرة المعارِف محنة، وخلطه الناس فتنة»[٥].

١٧ ـ قوله عليه السلام: «ما تكبَّر إلّا وضيع»[٦].

١٨ ـ قوله عليه السلام: «ما تواضع إلّا رفيع»[٧].

المورد الخامس: ينقل الكشي ما ورد عن الإمام الباقر عليه السلام: إنَّ الإمام الباقر عليه السلام كتب رسالة فيها نون أو جيم ونُقلت هذهِ الرسالة إلى جابر بن يزيد الجعفي وغيره، وبعد ما عرضت عليه وعلى باقي أصحاب الإمام فكل واحد منهم فهم منها معنى من هذا الحرف أو الكلمة، فمثلاً جابر بن يزيد الجعفي فهم من هذهِ الكلمة أنَّه يمثل بالجنون حتّى تبتعد عنك عين الأعداء كي لا تغتالك يد بني العباس، وآخر فهم منهم معنى آخر وهكذا و ... الخ].

المورد السادس: ما في الشعر الشعبي الدارج المعروف بـ (الأبوذية)

---

(١) المصدر السابق، ص٤٤٤.

(٢) المصدر السابق، ص٣٦٥.

(٣) السابق، ص٢٦٤.

(٤) المصدر السابق، ص٥٨.

(٥) السابق، ص٣١٩.

(٦) غرر الحكم، ص٣١٠.

(٧) غرر الحكم، ص٢٤٩.

فإنَّ لفظة واحدة تنتهي بها الأبيات الثلاثة الأولى بمعاني مختلفة، ونفس الصوت يكون بنبرات مختلفة في الألفاظ الثلاثة الموحدة المادة والمختلفة الهيأة في بعضها أيضاً هذا يؤدي إلى اختلاف المعنى[١].

المورد السابع: وهكذا في علم التصريف، فمثلاً: الفعل: ـ وقى ـ يوقي يقي ـ قِ، فهنا استعمل الصوت في أكثر من لفظ فضلاً عن اختلاف المعنى.

إلى غير ذلك من الموارد التطبيقية الأُخرى للقاعدة تدلُّ على إمكانها فضلاً عن وقوعها إذنْ استعمال اللفظة الواحدة في عِدَّة معاني وهيئات ممكنة وواقعة وهي تأتي بحسب تخصيص أهل اللغة، وعليه فيكون باب هذهِ القاعدة وسيع جداً في مختلف المجالات والعلوم والفنون سواء اللغوية أو النحوية أو الصرفية أو على مستوى علوم الفقه والأصول والعقائد والتفسير أو العلوم الأمنية والاستخباراتية أو ... الخ وهكذا أشرنا سابقاً إلى أنَّ: ـ كثرة سعة أفق الاستعمال الصوتي، يفتح بابها على علم الاشتقاق المعهود من صيغة اسم الفاعل واسم المفعول والمصدر وصيغة الفعل واسمه والاسم ... الخ، وأقسام الاشتقاق الثلاثة الكبير والمتوسط والصغير[٢] ومن الواضح أنَّ علم الاشتقاق من العلوم المهمة جداً وليسَ

---

(١) كما في قول شاعرهم:

بعد جرح الوصي هيهات ينشال	وچن الصوَّبه يا ريت ينشال (ينشل)
وَيَ نعش العدل للگبر ينشال	ويتامه نظل عگب حامي الحميّة

(٢) الاشتقاق: هو نزع لفظ من آخر بشرط مناسبتها معنىً وتركيباً، ومغايرتهما في الصيغة، نحو اشتقاق كلمة (كاتب) من (كَتَبَ)، و (مطبعة) من (طبع) و ... الخ وأمَّا أصل الاشتقاق : ـ فقد اختلف البصريون والكوفيون حول أصل

في لغة العرب فحسب، بلْ حتَّى عند البشرية في لغات أُخرى لسانية.

إذنْ استعمال اللفظ في أكثر من معنى له عدَّة زوايا حتَّى زاوية استعمال الأصوات في أكثر من لفظةٍ.

المورد الثامن: هناك رواية نقلها الشيخ الطوسي في الاحتجاج : في احتجاج النبي الأكرمﷺ مع اليهود والنصارى وهيك قولهﷺ مع اليهود: **«إنْ كان إبراهيم خليله فأنا حبيبه محمد ...»**[(١)].

بتقريب: أنَّ النبيﷺ قَبِلَ للخصم أنْ يستدلوا بقولهم [لأنَّ الله اتخذه خليلا][(٢)].

وإنَّ إبراهيم خليل الله وأنَّ نعت (خليل) استعمل في أكثر من معنى.

الاشتقاق، فقال البصريون: إنَّ الأصل هو المصدر، وذهب الكوفيون إلى أنَّ الفعل هو الأصل ولكل حُجية ـ مَن أراد فليراجع المطولات ـ

وينقسم الاشتقاق إلى: ـ

أولاً: الاشتقاق الأصغر: هو تقليب تصاريف الكلمة، حتّى يرجع منها إلى صيغة هي أصل الصيغ كلها دلالة اطراداً أو حروفاً غالباً كـ (ضَرَبَ) فإنَّه دال على مطلق الضرب فقط، أمَّا ضارب، ومضروب، ويضرب، وإضرب، فكلها أكثر دلالة وأكثر حروفاً، و (ضَرَبَ) الماضي مساوٍ حروفاً وأكثر دلالة وكلها مشتركة في المادة (ض ـ ر ـ ب) وفي هيئة تركيبها.

ثانياً: الاشتقاق الأكبر: هو أنْ تجد بين كلمتين فأكثر تماثلاً في الحروف واختلافاً في ترتيبها يتقدم بعضها على البعض الآخر من دون زيادة أو نقص فيها مع الاتحاد في المعنى نحو: مَدَّ ومَطَّ ، وأنفق وأنقذ، وقصَّ وقَصَمَ، أو أنْ تعمد إلى كلمة فتشتق منها كلمة فأكثر بتقديم بعض الحروف على بعض من دون زيادة أو نقص مع الاتحاد في المعنى كالضبِّ (الشيلان) والبض، كالجَبِّ والجبب وهو على أي حال تكلف كبير[المعجم الشامل، ص٤٣، ج٢.

(١) الاحتجاج، ص٥٨.

(٢) المصدر السابق.

وهكذا احتجاجه صلى الله عليه وآله مع النصارى واليهود من جانب آخر، بأنّه : لماذا تقولون عزيرٌ بن الله، وعيسى بن الله.

بتقريب: أنَّ البنوّة تحمل معاني باطلة في الاعتقاد بالتوحيد، وأنَّ معنى يلد ويولد أي أنَّ الله تعالى يتبعض ويتجزأ ويتآكل وهذا شأن الفقير وليسَ من شأن الغني التركب والتبعض والتآكل فكيف تقولون أنَّ الله غنى و ... الخ.

أجابهم النبي صلى الله عليه وآله: عن ذلك كما هو مفصل في الاحتجاج مَن أراد فليراجع احتاج النبي صلى الله عليه وآله مع اليهود والنصارى.

ثم قالوا للنبي صلى الله عليه وآله: تقرُّ بأنَّ إبراهيم خليل الله كما جاء في القرآن وأنَّ إبراهيم عليه السلام هو خليل الله، وأنَّ مفردة (خليل) وحيانية بمعنى التكريم، لا أنَّ الله تعالى له كفواً أحد ونديم، فقالوا للنبي الأكرمة فكما أنَّ إبراهيم خليل الله إذنْ عزير بن الله وما المانع في ذلك؟

أجابهم النبي صلى الله عليه وآله: إنَّ موسى عليه السلام عند اليهود أعظم من عزير، فلماذا أصبح عزير بن الله، ولم يصبح موسى بن الله، فاجعلوه عم الله، أو جَدُّ الله فأجابهم النبي صلى الله عليه وآله كما في الاحتجاج بمزيد من النقوض، وأنَّ المراد من كلمة الخليل والخُلّة ـ مضمومة الخاء ومكسورها تأتي بمعنيين في اللغة: ـ وهنا محل الشاهد من قول الرسول صلى الله عليه وآله في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى فإنَّ الخليل تأتي إمَّا: ـ

١ ـ بمعنى الفقر والفاقة.

٢ ـ أو بمعنى الصديق والوفي باعتبار أنَّ الصديق الوفي هو الذي يطلّع على أسرار خليله، والله تعالى أعْلَمَ إبراهيم عليه السلام بأسرار التوحيد

والمعارف والدين فهو خليل بهذا المعنى.

إذنْ إبراهيم صدِّيق وصديق بأنَّ يعلم من أسرار الله شيئاً فسُمي بالخليل، والخليل بمعنى الخُلّة بضم الخاء.

وعليه فـ (خُلّة) بضم الخاء و (خِلّة) بكسرها هما هيئتان ولفظتان وليسا لفظةً واحدة، إلّا أنَّ الواقع الصوتي للفظة (خليل) يمكن أنْ يؤخذ من هذهِ المادة أو تلك، وعليه يكون استعمال الصوت في لفظتين، وليسَ فقط استعمال اللفظ الواحد في معنيين، ومع ذلك جارى النبيﷺ اليهود والنصارى بأنَّ هذا الصوت للفظتين وللمعنيين كلاهما صحيح سواء كان بمعنى الفقر أو الخُلّة وكلا المعنيين مراد للنبيﷺ وهو معنى مستقيم، وهذا إقرار من النبيﷺ للطرف الآخر بأنَّ من حقهم أنْ يحتجوا إمَّا بهذا المعنى أو ذاك أو بكليهما كُلّ ذلك صحيحٌ ويتحاجون به عند ربهم.

ومن هذا يتفرع مطلبٌ عقائدي يُرسِخ عبودية إبراهيمعليه السلام لله تعالى والنبيﷺ عندما قبل بهذين المعنيين للخِلة ـ أي تعدد المعنى للفظة الواحدة، وكانت منضبطة تحت قواعد وموازين البيان فإنَّه يصح إرادة كُلّ المعاني ما لمْ يَذُدك عنه ساطع البرهان، وإنْ لمْ تكن قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى واردة في بيان الوحي، ولم يعترض النبيﷺ عليها ولم يقل أنَّه يلزم من استعمالها كما في معنيي (الخُلة) المضادة لتوحيد الله، إنَّما هو بهذه القاعدة لا يُجانب ولا يبتعد معنى الخليل عن عبودية إبراهيمعليه السلام لله تعالى.

إذنْ هذا احتجاج بالقاعدة واستعمالها من قبل النبيﷺ بحق وجادلهم بالتي هي أحسن وليست هي جدال بالأمور التمويهية والباطلة لا سامح الله.

مضافاً إلى أنَّ وصف النبي إبراهيمعليه السلام بالخليل والصدِّيق من ان

الخِلة وهي الفقر والانقطاع والاحتياج إلى الله تعالى فإنَّ هذا الوصف فيه تكريس ودعم لعبودية إبراهيمعليه السلام في توحيده لله تعالى.

وهكذا وصف الصدِّيق والصديق بضم خاء الخُلة، من أنَّ معنى الصديق هو مَن وقف على خصوصيات صديقه لدرجة لا يَطَّلع عليها غيرهن وهذا أيضاً لا يُنافي العبودية لله وتوحيده.

إذنْ إذا سامح ذلك الاستعمال عند النبي الأكرمصلى الله عليه وآله فهذا معناه أنَّه هناك تسمية شرعيّة ووحيانية يُرادُ منها معنيين، علماً أنَّ التسميات الإلهية المشتقة من الأسماء الإلهية، وأنَّ نفس الأسماء الإلهيّة أعظم من القرآن لأنَّها مصدر نزول القرآن.

وعليه إذا كان الحال في التسميات للأنبياء المشتقة من أسماء الله الحال فيها بحسب البُعد التكويني أنَّهصلى الله عليه وآله يُبين هذا الاستعمال البياني المتعدد والمنفتح على طرق متعددة حاكية عن أنَّ التكوين على أنماط متعددة، وهذا ممّا يدعم ويُدَلِّل على استعمال قاعدة اللفظ في أكثر من معنى.

المورد التاسع: لفظ الجلالة [الله] تعالى اسم باري الوجود وأصله [إلاه] فدخلته أل فحذفت الهمزة تخفيفاً، والأُلاهة والألهيّة والأُلُوهه والألوهيّة والألهانية بمعنى واحد(١).

وليسَ (الله) من الأسماء التي يجوز منها اشتقاق فعل، كما يجوز في الرحمن الرحيم(٢) ثم أنَّه هناك بحث هل أنَّ لفظ الجلالة مشتق من الوله أو التأله أو ... الخ وعليه فهناك عدَّة معاني لمادة لفظة (الله) كلَّها تناسب

(١) أقرب الموارد مادة [أله] ص٦٦ ج١.
(٢) كتاب العين للفراهيدي، ص٣٤.

وتناغم الكمال الاحدي وهذا معناه أنَّه يراد من لفظ الله معاني متعددة والجامع لهذه المعاني هو لفظ (الله) تعالى وهو مراد على صعيد الواقع.

المورد العاشر: أسماء الله الحُسنى، لو سبرنا بيانات النبي صلى الله عليه وآله وبيانات أهل البيت عليهم السلام في معاني أسماء الله الحسنى سنجد أنَّ تلك البيانات مُقامة معتمدة على استعمال اللفظ في أكثر من معنى، وأنه كاشف عن أنَّ تلك الأسماء جامع لمعاني كماليّة متعددة وليسَ معنى واحد، وهذا جانب مهم جداً فإنَّ الأسماء الإلهية متعقدات ومع ذلك نلاحظ أنَّها مبنيّة على هذهِ القاعدة المهمة أي قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى.

أهمية القاعدة:

تتميز هذهِ القاعدة المهمة والخطيرة من بين القواعد الغوية والبلاغية واللفظية و ... الخ بأنَّها مستعملة في أصل البيان الوحياني في أسماء الله وتوحيده وتستعمل في ذلك باطّراد، فكيف فيما دونه من الاستعمالات الوحيانية؟

علاقة القاعدة

استعمال اللفظ في أكثر من معنى بالأسماء الإلهية اللفظية

لا يخفى على أهل البصيرة والاختصاص أنَّ أصل هذهِ القاعدة المباركة ـ استعمال اللفظ في أكثر من معنى ـ لها أصل في البيان الوحياني في أسماء الله وتوحيده وهي مطرده هناك فكيف ما دون الاستعمالات الوحيانية؟ كما مَرَّ.

وكما لا يخفى أنَّ هذهِ الأسماء اللفظية والبيان اللفظي هي ليست أسماء إلهية؛ لأنَّ لفظة صوت الله، أو صوت الرحمن، أو هذهِ الأمواج الصوتية للرحمن أو للرحيم أو ... الخ فإنَّ هذه أسماء الله الحسنى، والموج الصوتي دالٌّ وكاشف عن معنى، والمعنى كاشف عن حقائق تكوينية، وتلك الحقائق التكوينية هي الأسماء وهي السِمَة والعلامة، وعندما يُقال: الاسم الأعظم: ـ ليسَ صوتاً، وإنْ كان هناك صوتاً دالاً عليه.

إذنْ ليسَ الصوت لوحده هو الذي تنشق به الأرض ويُعرَج به إلى السماء وتنفتح به مفالق أبواب الأرض وتفتح به أبواب السماء، وإنَّما الصوت: ـ دال ونداء لتلك الحقيقة التكوينية المهولة والعظيمة.

علماً أنَّه في بحث الأسماء توجد لنفس الأسماء مراتب وطبقات فهناك اسم عظيم واسم أعظم واسم أعظم أعظم أعظم، واسم اعظم عظيم و ... الخ وهذهِ المراتب من الأسماء تعني الحقائق التكوينية، أيضاً نفس الحقائق هي على طبقات تتلو بعضها البعض.

وعليه فهذه الأصوات ليست هي أسماء إلهية، وإنَّما الأسماء الإلهية التي ليسَ لها اسم قبل اللغة العربية أي قبل خلق البشر والدنيا والسموات والأرض فإنَّه ما كانت لها أسماء صوتية أصلاً قبل خلق الدنيا، وعليه فهل يُعقل أنَّه ليسَ لله الأسماء قبل عالم الخلقة؟ يعني لمْ يكنْ هو الله؟ كلا فإنَّ الأسماء الإلهية قبل خلق الخلائق هي حقائق تكوينية وآيات كبرى إلهية مملوكة له تعالى غاية الأمر عندما تقول:ـ

هنا أسماء لفظية فإنَّها تستعمل كاشفة عن تلك الأسماء التكوينية والحقائق الكبرى، وهنا يكمن محل الشاهد من استعمال اللفظ في أكثر من معنى بأنْ هذا اللفظ وضع للإشارة إلى أكثر من معنى، ويشير إلى أكثر من حقيقة وكثرة المعاني تشير إلى كمالات مجتمعة في حقيقة واحدة.

وعليه لو كانت اللغة اللفظية غير وافية بالإيصال إلى المعاني والمعاني موصلة إلى الحقائق لما استعملها الوحي، ومن المعلوم أنَّ الوحي الإلهي لا يستعمل إلّا الألفاظ التي توصل إلى الطريق لا التي تغويه الطريق، وببيان بيِّن ونورٍ يوصل إلى المعنى المراد.

إذنْ هذهِ اللغة بما لها من طبيعة متنوعة متشكلة فهي موصلة، وإلّا لو كان تنوعها وتشكلها وتعددها وتكثرها في الدلالة وفي الأداء إلى المعاني غير سليم لما استعملها الشارع وهو القائل ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾[1] و ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾[2] فهو بالتالي مُبيِّن للطريق وليسَ بمجمل ومبهم، وإذا كان مبين للطريق ـ لا متشابه ومجمل ـ هو

---

(١) سورة الرعد: الآية ٣٧.

(٢) سورة الحج: الآية ١٦.

طبيعة لهذا اللسان العربي المُبِّين لقواعد اللغة المُبينة وقواعد اللغة الإنسانية وأنَّها منفتحة على تعدد الاستعمال وتعدد المعاني، وسمّاه الباري حكماً عربياً؛ لأنَّ فيه إحكام واتقان لا انفلات فيه.

إذنْ اللغة العربيةِ هيِ اللغة التي يتعامل بِها الوحي بين الخالق والمخلوق ﴿الرَّحْمَن، عَلَّمَ الْقُرْآن، خَلَقَ الإِنسَان، عَلَّمَهُ الْبَيَان﴾ فالبيان لغة التخاطب بين الباري والبشر وإذا لم تكن هذهِ اللغة وهذا البيان فيه اتقان وإحكام فلِمَ سُميت اللغة العربية عربية؟ سُميت لأنَّ فيها إظهار وإعراب وبيان وإفصاح عمّا تقتضيه الفطرة وهي ولاية الله ورسوله وأهل بيت الرسول صلوات الله عليهم أجمعين.

والخلاصة: العربي في الفطرة هو المؤمن أي بفطرته يُعرب عما هو إيمان بالله ورسوله وأهل بيت الرسولﷺ فيكون مُعرباً عن مقتضيات الفطرة، أي فطرة الله التي فطر الله الناسَ عليها جميعاً لا تبديل لخلق الله، بخلاف الأعجمي في الفطرة هو الضال ببلاغته.

ومن الواضح اللغة العربية بطبيعتها لغةٌ منفتحة على معاني متعددة وهذهِ المعاني المتعددة توصل إلى حقائق متعددة ولذلك استخدمها الباري تعالى لأجل أنَّ فيها بيانٌ وإحكام للقرآن.

ومن خلال هذا كُلَّهُ اتضح أنَّ هذهِ الأسماء الإلهية هي بنفسها عقائد ومعتقدات وحيانية، وهي أصول الوحي الإلهي وأصول القرآن، كذلك الحال في محكمات القرآن وهي أصول القرآن وهي أسماء الله تعالى وتعتبر طبقة من الطبقات العاليّة لمحكمات القرآن.

إذنْ إذا كانت محكمات القرآن مبنية على استعمال اللفظ في أكثر من

معنى فكيف بما دونها من استعمالات القرآن وهي بنفسها معتقدات.

والذي نريد أنْ ننتهي إليه هو: ـ

إنَّه إذا حاوَرَكَ محاورٌ أو باحث أو منقب عن اسم إلهي من أسماء الله أو اسم نبوي من الأسماء بأنَّه يدلُّ على عِدَّة معاني، وكل هذهِ المعاني محتملة ومُرادة، فحينئذٍ عليك أنْ لا تعترض عليه وتقول المراد هو معنى أحادي فقط، بلْ المراد معنى متكثر على الضوابط ولا يتدافع هذا المعنى مع القواعد الأُخرى.

نعم، يبقى من حقك أنْ تقول لأجل دفع ورفع الالتباس والاشتباه لابدَّ من إبراز قرينة أنَّ المراد في هذا المقام هذا المعنى، وفي ذاك المقام المعنى الآخر وفي الثالث ثالث وهكذا، ومثل هذا بحث صغروي، وأنَّ المهم هو البحث الكبروي، وهو: ـ أنَّه لا مانع من استعمال اللفظ في أكثر من معنى وأنَّه ممكن وواقع بكثرة في كلام العرب والقرآن الذي نزل بلغة العرب، وكل تلك المعاني على القواعد والموازين الصحيحة ولا يلزم من إرادة أكثر من معنى تهافت أو تدافع بين معاني الألفاظ.

الطعون الموجهة إلى قاعدة
استعمال اللفظ في أكثر من معنى

هناك بعض من طعن بقاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى من جهات:

الطعن الأوَّل أو الجهة الأُولى: بعض الباحثين يخلط في الطعن على هذهِ القاعدة المهمة والخطيرة ويطعن على استعمال هذهِ القاعدة: ـ بأنَّه يلزم من ذلك إبهام المعاني وتكون المعاني ظُلامية والأمر مجملاً عند استعمال اللفظ في أكثر من معنى.

ويردّه:

أولاً: إنَّ هذا الإشكال إنَّما يرد لو اعتمد المُفَسِّر في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى على القرائن والضوابط والقواعد النظرية.

أمَّا إذا اعتمد على القواعد المبدهة والمدلل عليها في العلوم اللغويةأو العلوم الأُخرى فسوف تكون تفاسيره المتعددة طبق قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى وتكون كل تلك النتائج التفسيرية مبدهة ومُبينة.

ثانياً: تقدم في الشرط الرابع من شرائط الاستفادة من قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى أنَّ استعمال القواعد المبدهة يكون أكثر استثماراً للبيان ولهذه القاعدة فيما لواستعملت القواعد النظرية، وهذا ليسَ بمقدور الجميع وإنَّما يحتاج إلى قدرة عالية كقدرة المعصوم من النبيﷺ والأئمةعليهم السلام؛ لأنَّه من يعلم بهذه القواعد المبدهة يستطيع أنْ يزيل المتشابه

ويجعلوه في إحكام أي فيه بداهة وإتقان ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾[١] فكله عند المعصومعليه السلام بيّن لأنَّه يمتلك وعنده القدرة في نطاق البديهيات يفتح لك أسرار القرآن الكريم، وهي: ـ من الواضح قدرة أُخرى: ـ الأنبياء والأئمةعليهم السلام والوحي والأوصياء يوصلك إلى المطلوب بأقصر طريق وبطريق آمن وأمان ونيّر وبيّن وسهل يسير.

ثالثاً: بعض الباحثين لعله عنده علم بالأسرار ولكن لا يستطيع فتحها في البديهيات فهو مضطر إلى أنْ يفتحها بعلة ومعلول وصادر أول وبسيط الحقيقة ويستعمل هذهِ الاصطلاحات العقلية التي كلها هي عبارة عن ركام من المشاغبات العلمية.

وعليه ما تقدم في الشرط الرابع في قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى توجد توصية أكيدة من المعصومعليه السلام للمفسر بخصوص هذهِ القاعدة الخطيرة والمهمة لأجل أنْ لا يتيه الباحث الكريم ويدخل في المتاهات المظلمة للأمور النظرية ويقع في شباك وشراك التفسير بالرأي والتلاعب في تفسير القرآن فإنَّه حسب وصية المعصومعليه السلام إنَّه يجب على المُفَسِّر أنْ يعتمد على القواعد المُبدهة أو القريبة من البديهية في العلوم فحينئذٍ يأمن المُفَسِّر من الزلل والخطأ، ومن الواضح أنَّ المفسرين يختلفون في قدراتهم فيما بينهم فضلاً عن افتراق قدراتهم مع النبي الأكرمصلى الله عليه وآله والعترة الطاهرة.

---

(١) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

المراتب المعلومة والبحث العلمي

إنَّ الفرق بين التخيل العلمي والفرضية، والنظرية العلميّة، والحقيقة العلميّة، يكمل في تعريف كُلّ واحدة منها:ـ

الفرضية العلمية (التخيل العلمي):.

إنَّ التخيل العلمي عبارة عن مجرد مقولة ذات احتمال ضئيل جداً لا يُعتنى به في الوهلة الأُولى قدْ يُحكم عليه بأنَّه خُرافة، ومنشأه منفتح على كُلّ قالٍ وقيل سواء كان حكاية قصصية، أو أسطورة زمانية، أو تصور تخيلي شعري أو غير ذلك.

فإنَّ كُلّ تصور مهما تضاءلت نسبة مطابقته للواقع قدْ يصل البشر يوماً ما في البحث العلمي إلى كونه حقيقة تنبع منها حقائق أُخرى مذهلة، فمن ثم أخذ البحث العلمي العصري الحديث على عاتقه الاعتناء بكل شاردة وورادة مهما شُخِّصت واستُهزأ بها، فإنَّ متابعة البحث العلمي للتصورات الخيالية رُبما قادت إلى فتح أصعب العُقد في المباحث العلميّة، فمثلاً إطلاق المركبة الفضائية إلى الفضاء قدْ كتب طريقتها الهندسية كاتبٌ قصصي مسرحي فتصورها أنَّها من قبيل دوائر حلزونية تتسع شيئاً فشيء إلى أنْ تتجه إلى الجهة المُرادة، وهذهِ المخيَّلة لدى هذا الكاتب القصصي تلقّفها الباحثون فيما بعد كفرضية ثم بالمتابعة العلميّة تطورت النظرية العلميّة، ثم اكتشف البحث العلمي أنَّها حقيقة.

وعلى ضوءها تُطلق المركبات الفضائية حالياً، فمن ثَمَّ أخذ العقل

البشري الحديث يُثمِّن كُلّ مقولة ومقالة لربما يستخرج منها يوماً كنوزاً من الحقيقة وهذا ما يشير إليه القرآن الكريم ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[1] أي يستمعون جنس القول وكلّ القول، فإنَّ (الـ) في القول جنسيةٌ.

إلّا أنَّه من الضروري حين التقييم والاعتناء بكل احتمال ومقال ومتابعة وتحري مدى صحته لابدَّ بالضرورة من التمييز بين الحقائق العلمية والنظرية التي لمْ تبلغ الحقيقة.

وكذلك التمييز بين النظرية العلمية والفرضية، وبين الفرضية والخيال العلمي، فكم من نظريةعلمية تتلقاها الأذهان أنَّها بمثابة حقيقة علميّة، بلْ ينطوي ذلك حتَّى على أهل الاختصاص والمعنيين بذلك التخصص فضلاً عن غيرهم من أهل النخب.

كما قدْ يقع الالتباس كثيراً بين النظرية العلمية والفرضية.

فإنَّ النظرية العلميّة هي المقالة والمعلومة التي توفرت لها بعض الشواهد ولم تبلغ بها درجة البرهان.

بخلاف الفرضية: ـ فإنَّها مجرد ذات معطيات ضئيلة لمْ تبلغ بها درجة المؤشرات والدلائل، كما أنَّه يقع اللبس والالتباس بين الخيال والمخيلة العلميّة والفرضية أو النظرية العلمية والحقيقة.

وهذهِ هي العماية في البحث العلمي أو التفكير البشري، ولكنْ هذا المحذور الإفراطي لا يقودنا إلى التفريط ببقية الأقسام الثلاثة الأخيرة أعني

---

(١) سورة الزمر: الآية ١٨.

الفرضية والنظرية والحقيقة، كما أنَّه لا إفراط ولا تفريط.

فمثلاً في علم الفيزياء بحثوا: أنَّ الذرَّة تشتمل على على نيترون والكترون وبروتون، وهناك ضجّة إعلاميّ ﷺ وصخب علمي في علم الفيزياء استنزف الكثير من الجهود إلّا أنَّه لا يخرج ذلك عن أنَّه مجرد فرضية واحتمال، وإلى اليوم ما استطاع الباحثون إثبات هذا البحث نظرياً، وأنَّه مجرد افتراض، وليسَ له حقيقة علمية، وإنْ كانت محاولات بُذِلت من لَدُن الباحثين على جعل هذهِ الفرضيّة نظريّة، وفي نفس الوقت البعض منهم لا زال يعتبرها مجرد فرضية واحتمال لا واقع ولا حقيقة علميّة لها، بلْ هناك نظريات معاكسة تماماً، لما كان عليه الباحثون من أنَّ الذرَّة تشتمل على النيترون والبروتون والالكترون، وإنه ليسَ فيها هذهِ وإنَّما تحتوي على شيء آخر.

انظُر أيُّها الباحث الكريم: إنَّ علم الفيزياء من العلوم التجريبية ومع ذلك يحصل خلط عند نفس الباحثين وأهل الاختصاص في علم الفيزياء بين الفرضية والنظرية والحقيقة.

وإلى اليوم لا زال هناك خلط عند بعض الأخوة المثقفين أو الحداثويين بين الفرضيات ويجعلون الفرضية ويتخذون منها منصّة إشكال على الشريعة ويحاول توجيه الطعن إليها، علماً أنَّ المقنن للشريعة هو الوحي والسماء، ومع ذلك يحاول أمثال هؤلاء الذين لمْ تتضح لديهم الصورة أنْ يشكلوا على الشريعة بأمور فرضية، واحتمالية فضلاً عن عدم كونها حقيقة أو نظرية، وإنَّما مجرد احتمال وفرض.

تنبيه: علينا أنْ نلتفت إلى وجود اللغط والخداع العلمي الذي ينطلي

على كثير من الباحثين وأهل الاختصاص فضلاً عن غيرهم، فرُبما يُسَوَّق خدُاع علمي أو أكذوبة إلى المجتمع ويحاولون تأطيرها بإطار نظرية أو حقيقة، كما في مسألة الصعود إلى القمر الذي حصل حوله لغطٌ كثير بين المراكز العلميّة في الدول الكبرى، وهو لمْ يتجاوز الغلاف الجوي، وهكذا في مسألة الذرّة وانقسامها و ... الخ.

والمهم الذي نريد الوصول إليه هو: ـ لا يمكن الاعتماد على فرضية في تفسير كتاب الله إذا كانت النتائج العلمية هي لا زالت على مستوى الفرضية أي صرف احتمال، فإنَّ الاعتماد عليها في تفسير القرآن الكريم يصبح اعتماداً على أمور غير متينة ووثيقة.

نعم، لا بأس بأداء الفكرة كاحتمال، أمَّا اعتمادها كظهور متين بنيوي ويُرتب عليها أمور متلاحقة وبشكل متسلسل وحقائق وهي لا زالت فرضية وحينئذٍ يكون مثل هكذا اعتماد غير رصين وقويم.

إذنْ استعمال قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من من معنى يعتمد على القرائن والضوابط والقواعد المبدهة والموضَّحة والمتعددة في علوم اللغة أو علوم أُخرى على صعيد المراد الجدي أو التفهيمي لاسيما في مقام تفسير الكتاب العزيز وهو مقام خطيرعلى جميع أنواع التفاسير سواء التفسير الموضوعي، أو تفسير القرآن بالقرآن أو التفهيمي أو التجزيئي أو ... الخ وخاصة تفسير منهج أمومة المحكمات وولاية أهل البيت عليهم السلام الذي يتوخى الدقة والتحليل العميق استناداً واعتماداً على ما وَرَدَ عن أئمة الهُدى عليهم السلام.

أمَّا الاعتماد على القرائن التي هي الآن متزلزلة ومتردد الأمر فيها

فمن الصعوبة الاعتماد عليها؛ لأنَّها تؤدي إلى نتائج سلبية غير طيبة وغير مُرضية، بلْ حتَّى لو كانت لتلك القرائن المتزلزلة درجة النظرية لا الفرضية.

النظرية العلمية: وهو الاستدلال على الفرضية ببعض الأدلَّة التي هي الآن ليسَ محكمة ومتقنة ومن الممكن أنْ يقع فيها نقضٌ وإبرامٌ.

وعليه فالاعتماد على مثل هكذا أمرٌ ليسَ محكمٌ ومُتقن وهكذا نتيجة بشكل جزمي وحاسم أيضاً غير صحيح، وإنَّما يمكن الاعتماد عليها في مستوى إبداء الاحتمال فإنَّ الفرع لا يزيد على الأصل.

فإذا كانت المقدمة التي يُستند إليها هي نظرية فكيف تنتج منها نتيجة تفسيرية متولدة منها جزميّة؟ فإنَّه بالتالي حقيقة الأمر النظري وإنْ كان صورة مُبرهن عليه أو يقين أو ... الخ كما حُقِق في البحوث الأخيرة سواء من العلوم المختلفة والفلسفات القديمة أو المناهج العلمية المختلفة، فإنَّ الأمور النظرية مهما استند فيها إلى براهين فتبقى نظريةُ، وإذا كانت نظرية هذا معناه إنَّ احتمال الخطا والصواب فيها متأتٍ.

وأمَّا الحقيقة العلمية وهو تبده الأمور النظرية بشكل حقيقي لا تبده مُزوَّر أو بداهة بشكل مُزوّق فأنَّ مثل هذا خداع فكري؛ لأنَّه قدْ يكرر ويكرس الكلام أوا لفكرعلى أمر هو ليسَ ببديهي ولا يعتمد على أدلَّة بديهية فهذا لا يكون حقيقة، نعم الذي يعتمد على أدلَّة بديهية قريبة فلربما في بادئ الأمر هذا النظر برهن عليه بأدلة نظرية ولكنْ شيئاً فشيئاً اكتشفت له أدلَّة بديهية فحينئذٍ يصبح مُبدّه وله حقيقة.

المبدّه ليسَ فقط بمعنى الوضوح المبده وإنَّما المقصود منه (المبده) أي

ما يستند إلى مقدمات بديهية ومن الواضح أنَّه في كُلّ علم من العلوم سواء العلوم التجريبية البشرية أو العلوم الدينية أو العلوم اللغوية أو ... الخ فهناك مساحة من المسائل والقواعد أصبحت واضحة بيِّنة مبدهة ومتسالم عليها بلْ ضرورية فحينئذٍ لا بأس بالاعتماد عليها؛ لأنَّها أصبحت متينة بحدود ما هي ضرورية وبديهية.

وعليه فإنَّ الشرط الرابع لقاعدة استعمال في أكثر من معنى يغلق الباب عن التلاعب في التفسير.

الطعن الثاني: يلزم من استعمال اللفظ في أكثر من معنى محذور انفتاح التفسير للآية الواحد والسورة الواحدة على عدَّة تفسيرات متضاربة ومتناقضة ومتواضعة وتخيّليّة.

الجواب: هذا الإشكال نابع من عدم التفطن إلى شرائط إجراء هذهِ القاعدة فإنَّه إذا اتقنا شرائط هذهِ القاعدة بشكل متين ورصين فإنَّ مثل هذا الإشكال وغيره من المحاذير التي يتخوف منها الكثير مندفعة.

فإذا ادعي أنَّه يلزم من تطبيق قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى يلزم محذور الهلوسة والتلاعب و ... فإنَّ مثل هذا مندفعٌ؛ لأنَّه الدلالات في الاستعمالات المختلفة تستند إلى ضوابط وقرائن وقواعد صحيحة ولو من علوم مختلفة، مضافاً إلى ما ذكرناه في شرائط تطبيق القاعدة المذكورة أنْ لا يكون هناك تناقض داخلي في الآية أو السورة ولا تضارب بين الآية أو السورة والمحكمات.

وأمَّا أنَّ تطبيق القاعدة: يلزم منه محذور إيجاد فقه جديد أو عقائد جديدة و ... الخ.

فإنَّ مثل هكذا محاذير تندفع باعتبار أنَّه لابدَّ من عرضها على المحكمات وعلى الولاية وعلى الأصول الثابتة في العقيدة، وعليه بعد هذا كُلَّهُ كيف يلزم منه فقه جديد أو شريعة جديدة أو عقائد جديدة وهذا ليسَ بصحيح.

الطعن الثالث: إذا طبقتم قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى ربما في المستقبل يأتي العلم ويُثبت لنا خطأ هذهِ التفسيرات.

الجواب: يتمُّ هذا الطعن فيما إذا اعتُمد على أمور فرضية أو نظرية فإنَّ مثل هذهِ الامور قابلة للخطأ والصواب ويأتي زمان فيكشف العلم عن خطأها إلّا أنَّ دفع هذا الإشكال بالاعتماد على الأمور المبدّهة ولا يمكن ربط مصير القرآن بظنون البشر.

الطعن الرابع:

باستعمال هذهِ القاعدة/ استعمال اللفظ في أكثر من معنى يلزم منها محذور تجميل الدين وتبديعه بالشكل الذي يتناسب ومواكبة العصر فنشاهد أتباع الديانة هم يُجمِّلون ويُحسنون وجه الدين جيلاً بعد جيل وإلّا فدينهم ليسَ فيه قدرة مواكبة عصرية، وهذا معناه أنَّ علماء الدين هم الذين يشكلون طينة القرآن والدين حسب أشكال مرغوبة في كُلّ حقبة ويسوّقونه ويُروّجونه وإلّا فهو بنفسه ليسَ بهذا الجمال البديع.

الجواب: هذا الطعن أو الإشكال مبني على الغفلة والتسامح عن أمر حساس وخطر للغاية مهم جداً في حقائق الدين وفي حقائق القرآن وهو أنَّ الأمور الضرورية في الدين أو القرآن وهي المحكمات ونسبتها من القرآن بشكل محكم وقطعي ولا كلام لنا في ذلك، وإنَّما الكلام في الأمور النظرية

التي نسبتها إلى القرآن نسبة نظرية استظهارية ... الخ.

استظهارية واستظهارنا لها من القرآن بشكل نظري لا بشكل يقيني وعليه فكيف نُحمِّل القرآن مسؤولية هكذا أمور نظرية، هذا إذا كان فيها عامل تغير وتبدل فهمنا للقرآن تغير لا أنَّ القرآن في نفسه تبدل وعليه إذا حمَّلنا القرآن مسؤولية هكذا أمور نظرية التي لا تنتج النتيجة البديهية القطعية ولا يُزاد الفرع على الأصل، فإنَّه ياتي المستشكل ويقول أنتم تجملون القرآن وتحسنونه بواسطة استعمال قواعد فنية وتطبيقها عليه وإلّا لو خلينا نحن ونفس القرآن فإنَّه ليسَ فيه القابلية على أنْ يواكب العلوم العصرية الحديثة العلمية والفنية و ... الخ.

لأجل أنْ نقطع دابر هكذا إشكال وطعن نقول:ـ

إنَّ التفسير الرصين لسور وآيات القرآن الكريم والذي لا تأتي عليه هكذا طعون وإشكالات مهما أمكن هو أنْ يكون المُفَسِّر في تفسيره يعتمد على البديهيات والحقائق المبدهة، وأمَّا تفسير المُفَسِّر المفرد إذا اعتمد على النظريات ووصل إلى نتيجة نظرية وكشف العلم فيما بعد خطأها فيبنغي الالتفات إلى أنَّ هذا الخطأ ليسَ في القرآن وإنَّما خطأ المُفَسِّر للقرآن أو للدين بأنْ اعتمد على مقدمات غير بديهية كالاعتماد على الامور الفرضية أو النظرية واعتبرها المُفَسِّر حقيقة ورتب عليها آثاراً وأراد أنْ يستخرج من القرآن أو من الدين رؤىً ومواقف وأطروحات عبر هذهِ الآلية الخاطئة.

وعليه فالخطأ صار ليسَ في حقائق الدين ومتنه وحقائق القرآن ومتنه، وإنَّما حصل الخطأ في نفس الآليّة فإذا كانت الآلة والآليّة مشوشة وعاطلة ومعطوبة فالعطب في الآلة في المرآة التي تعكس لك الصور الفرضية

والاحتمالية والنظرية تعكسها أنّها صور حقائق القرآن وحقائق الدين.

يجب أنْ نميز ما هو من القرآن والدين بنحو الضرورة والحقائق المبدهة وبين ما ينسب إلى القرآن والدين ولكنْ ليسَ بنسبة قطعية ضرورية أي بنسبة نظرية.

وعليه يكون ما ينسب إلى القرآن والدين بنحو النظرية أو الفرضية قابل للخطأ والصواب فحينئذٍ النسبة إلى القرآن قدْ تكون صائبة وقدْ تكون خاطئة وعليه إذا كان هناك خطأ فلا يُنسب الخطأ إلى القرآن والدين وإنَّما كُلَّهُ صواب وحقائق ومطابقة للواقع كيف وهو من رب الأرباب رب العالمين وكيف يحتمل الخطأ والخطأ يحتمل نسبة الجهل لرب العالمين والله منزه عن الخطأ وتعالى الله من ذلك علواً كبيراً ولا يمكن ذلك عقلاً ولا برهاناً ولا وجداناً.

الخطأ في النسبة، وهذا نظير الخطأ الذي يجيء من قبل الرواة لا من المعصوم عليه السلام وعليه لا ينُحمِّل الوحي سلبيات قنوات النقل والعلم النقلي فالآفة في النقل لا في الوحي، وعليه الخطأ في النقل لا علاقة له بالوحي.

إذنْ إذا كان النقل ضرورياً وقطعياً ومُبدَّهاً فإنّه نستكشف منه الوحي، وأمَّا إذا كان النقل ظنياً أو نظرياً ظنياً قدْ يُخْطيء وقدْ يُصيب في نسبته إلى الوحي، وهذا أمر آخر، فإنَّ الخطأ في النسبة والنقل لا الوحي.

النتيجة النهائية:

إنَّ قاعدة استعمال اللفظ في أكثر من معنى إذا طُبِّقت مع مراعاة الشرائط الأربعة المتقدمة لاسيما الشرط الرابع وهو تبديه القرائن والضوابط

التي يعتمد عليها المُفَسِّر في تفسير القرآن، فإنَّها ستكون متينة ورصينة ثابتة وغير متزلزلة ولا يطرأ عليها التغير والتبدل مع تطور ونضوج العلوم ومواكبة العصر كُلّ هذا لا يؤثرعليها، بلْ تتوسع وتتعمق.

بخلاف ما اعتمد المُفَسِّر في تفسير القرآن أو الدين على أمر نظرية أو فرضية، فإنَّ الفرع لا يزيد على الأصل إذا اعتمد الفرع على أمور فرضية، وأنَّ النتيجة ستكون أكثر إبهاماً في النظرية وستكون النتيجة أضعف في فرض الاحتمال من النتيجة النظرية.

الفصل الثامن

ويشتمل على بيان ضوابط منهجية في أمور:ـ

- **الأمر الأوّل: ارتباط القواعد المبحوثة في الأنظمة الثلاثة بمنهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات فضلاً عن المتشابهات.**
- **الأمر الثاني: امتياز وحدة النظام في منهج أمومة الولاية على المحكمات.**
- **الأمر الثالث: الدليل على إمكان تكرار استعمال القاعدة الواحدة في الأنظمة الثلاثة.**
- **الأمر الرابع: الدليل على العموم. وفيه ذكر لأدلة ثلاثة.**
- **الأمر الخامس: التسلسل الهرمي لقواعد الأنظمة الثلاث، والحاكم هو النظام الثالث. نظام الحقائق.**
- **الأمر السادس: علم النبرة الصوتية. النظام الصوتي الإعجازي في الكلام.**
- **الامر السابع: إنّه هو إلا ذكرٌ وقرآن مبين.**
- **الأمر الثامن: خروج الوزن الصوتي للقرآن عن أوزان الشعر.**

الأمر التاسع: خطاب القرآن عامٌ.

الأمر الأول

ارتباط القواعد المبحوثة في الأنظمة الثلاثة بمنهج أمومة ولاية أهل البيت عليهم السلام على المحكمات

هناك سؤالٌ ما فتأنا نطرحه على أنفسنا في كُلّ قاعدة من القواعد التي بحثناها في النظام الأوّل: النظام الاستعمالي اللفظي، ما هي علاقة قواعد هذا النظام الأوّل بالقواعد التي ستأتي في النظامين اللاحقين ـ إنْ شاء الله تعالى ـ أي نظام المعاني، ونظام الحقائق في منهج أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات؟

<u>الجواب:</u> لعلَّ من أبرز خصائص منهج أمومة الولاية والمحكمات التي تميزه عن باقي المناهج التفسيرية الأُخرى هو: ـ أنَّ القاعدة التفسيرية الواحدة أو الأصل التفسيري الواحد له القدرة على بيان وجه ارتباط القاعدة الواحدة بأكثر من نظام، فقدْ تكون القاعدة لها معنى وقالب على مستوى النظام الاستعمالي اللفظي، ومعنى آخر في نظام عالَم المعاني، وثالث في نظام الحقائق.

وعليه فيكون للقاعدة الواحدة طبقة صاعدة أُخرى غير تلك النازلة هي طبقة النظام الاستعمالي اللفظي للقرآن، وتلك الطبقة الصاعِدة هي طبقة تركيب منظومة المعاني، ونفس هذهِ القاعدة لها بُعد ثالث في نظام حقائق القرآن.

ثُمَّ إنَّ كُلّ قاعدة اعتمدنا عليها في قواعد التفسير للقرآن الكريم ـ

التي هي أصل منهجة وقولبة تلك القواعد ـ كانت تختلف من منهج تفسيري إلى آخر باختلاف المناهج التفسرية.

فمثلاً لو سُئِل صاحب التفسير الموضوعي: ـ هل يوجد ارتباط بين قواعد منهج التفسير الموضوعي أو لا؟

أجاب: نعم يوجد ارتباط بمقدار وحدة الموضوع لا أكثر، فإنْ كانت هناك وحدة في الموضوع بين قاعدتين أو أكثر فيوجد ارتباط بهذا المقدار لا أكثر؛ لأنَّ طبيعة المنهج التفسيري الذي يختار مُفَسِّر القرآن للتفسير الموضوعي هي هكذا.

وهكذا صاحب تفسير القرآن بالقرآن لو طُرِح عليه السؤال السابق.

أيضاً لأجاب: بأنَّ هذهِ القاعِدة لو بُيِّنَتْ بمورد قرآني آخر بنفس عناوينها أو ما يرتبط بها فإنَّه يوجد ارتباط وإلّا فلا، وهكذا في أصحاب المناهج التفسيرية الأُخرى.

الجواب: إنَّ قوالب وأُطُر قواعد التفسير تُؤَطِّر وتُسْبَك تلقائياً وتُضْفي بظلالها على قواعد المنهج التفسيري الذي يختاره المُفَسِّر.

وعليه فمنهج أمومة الولاية يلحظ فيه وحدة النظام بين موضوعات مختلفة، أي وحدة منظومة فيها أعمدة ومحاور بحيث ترسم لنا شكلاً بهذا النمط من منهج الأمومة للولاية على المحكمات، ومثل هكذا تفسير يكون له تلقائياً طبقات فالطبقة العُليا هي الحقائق، والطبقات المتوسطة هي المعاني، والطبقات السفليّة هي التنزيل والألفاظ.

مضافاً إلى أنَّ منهج أمومة الولاية على المحكمات لتفسير القرآن الذي

يتميز بوجود وحدة نظام فقط أي وحدة وترادف وجودي تكويني، سواء وجد الترادف اللفظي أو العقلي أو لا.

ويكفينا في منهج أمومة الولاية على المحكمات وحدة الترادف الوجودي التكويني الذي يعني وحدة ونسبة وجودية ونظام وجودي موحَّد، وإنْ كانت هذهِ الحلقات لها قواعد متباينة في سطح الظاهر إلّا أنَّ بينها أبواباً ونوافذاً وجسوراً رابطة فيما بينها، فإنَّ اكتشفناها فبها ونعمت، وإلّا فلا زلنا في أوّل الطريق، ولذلك دائماً يتكرر علينا تلقائياً.

إنَّ كُلّ قاعدة تنقح للقاعدة الأُخرى وتوطيء لها وتفسرها، فمثلاً قاعدة: «**إنَّ القرآن فيه [تبيان لكل شيء]**» ترتبط بقاعدة إعجاز القرآن، وارتباط هاتين القاعدتين بقاعدة أُخرى وهي قاعِدَة: ـ أنَّ القرآن له سطح وظاهر.

وبالدقة يمكننا أنْ نقول: ـ إنَّ كُلّ قاعدة مستعملة في تفسير منهج امومة الولاية على المحكمات هي مرتبطة بجميع القواعد بحسب منهج الأمومة والمحكمات فإنَّ محكات القرآن هي المحور والقطب الذي تؤُم الولايه، فتكون الولاية أمٌّ لمحكمات القرآن، كما أنَّ محكمات القرآن أمٌّ لمتشابهات القرآن.

أيضاً الذي يميِّز هذا المنهج المختار وهو منهج أمومة الولاية على المحكمات هو أنَّه لا يُفنِد المناهج التفسيرية الأُخرى بلْ يُقرِّها ويُبين ضرورتها، إلّا أنَّه في نفس الوقت يُبين محدوديتها وأنَّها ليست هي المهيمنة، وإنَّما المنهج التفسيري المُهيمن والناظم هو منهج أمومة الولاية على المحكمات ـ كما مَرَّ ـ ولعلَّ السرَّ في عدم تقبل واستعياب باقي المناهج

التفسيرية الأُخر لمنهج أمومة المحكمات وأنه يسبب لها الفوضى والتشويش لأنَّ تلك المناهج التفسيرية الأُخرى غير منهج الأمومة لمْ تلتفت إلى وحدة النظام، ومغايرة منهج الأمومة والولاية لبناء منهج وحدة الموضوع.

ووحدة النظام ومركزيّته في منهج الأمومة أصعب من وحدة الموضوع، ومن وحدة المعنى في باقي المناهج التفسيرية الأُخرى.

الأمر الثاني

امتياز وحدة النظام في منهج أمومة الولاية على المحكمات

أحد أهم العلامات المميزة لوحدة النظام في الوجود هو التأثير والتأثر، فكلّ طرفٍ يؤثر ويتأثر وتتفاعل الاطراف مع بعضها، وهذا يدلّل على صعوبة منهج أمومة الولاية والمحكمات وانه ليسَ بالسهل الغور فيه بمعنى الإحاطة ـ فضلاً عن العمق والتعمُّق الذي هو الدخول في التفاصيل وتفاصيل التفاصيل دون الإتكاء على الأركان والمحاور والمفاصل الأساسية وهو (التعمُّق) منهي عنه ـ فإنَّه من الصعوبة بمكان انفتاح قاعدة واحدة على الأنظمة الثلاثة وتتبعها القواعد الأُخرى، فالصعوبة تكمن في اكتشاف هذهِ الوحدة بين القواعد في الانظمة الثلاثة وحينئذٍ يُلْقى بكاهل ثقلها وجهدها على عاتق المُفَسِّر فإنَّ انتهج المُفَسِّر نظام امومة الولاية والمحكمات فسوف لا يواجه تلك الصعوبة الكبيرة إنْ اتبع الضوابط والموازين الصحيحة المتبعة لكل قاعدة ونظام ـ بعون الله تعالى ـ.

وعليه منهج أمومة الولاية والمحكمات هو المنهج الوحيد الذي يؤمِّن أنَّ للقرآن وحدة هوية دون باقي المناهج التفسيرية فإنَّ القرآن الكريم له هوية واحدة وهو أنَّه قرآن وإنْ كان له سور وآيات، وهذا يدلُّ على أنَّ هناك ارتباطاً بين القواعد وأصول التفسير بين بعضها مع البعض الآخر، وأنَّ لكل أصل وقاعدة تفسيرية وجود على صعيد اللفظ وعلى صعيد المعنى وعلى صعيد الحقائق.

إنْ قلت: حتَّى أسباب النزول لها مستوى على صعيد الأنظمة الثلاثة:

قلت: نعم فإنَّ قاعدة أسباب النزول ـ كما سيتم بحثها في موضعها ـ لها منهج تفسيري خاص بها على صعيد نظام الاستعمال اللفظي في القرآن وأنه ما هو سبب نزول هذهِ الآية وما هو موضوعها الذي نزلت فيه في الصلاة أو الخمس أو الزكاة أو الصوم أو المعاملات ... الخ وعليه يكون سبب النزول قرينة مؤثرة في استظهار الآية.

وهكذا يمكن تفسير قاعدة أسباب النزول على مستوى نظام المعنى وأنَّ هناك روايات بيَّنت أنَّ القرآن يجري مجرى الشمس والقمر، والليل والنهار، كما وَرَدَ ذلك في رواية الفُضيل بن يسار، قال: ـ سألتُ أبا جعفرعليه السلام عن هذهِ الرواية: ما في القرآن آية إلّا ولها ظَهْرٌ وبطن وما فيه حرف إلّا وله حَدٌّ، ولكلِّ حَدٍّ مُطلَّع، ما يعني بقوله: لها ظهرٌ وبَطنٌ؟

قال ظَهرُه، وبطنه تأويلُه منه ما مضى، ومنه ما لمْ يكنْ بَعْدُ يجرِي كما تجرِي الشمسِ والقمرِ، كلما جاء منه شيءٌ وقع قال الله تعالى ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللهُ وَالرَّاسِخونَ فِي العِلمِ﴾ نحن نَعْلَمُه[1] وغيرها.

وعليه فالقالب العام الكلي لمعاني القرآن له تطبيقات نزولية على كل أُمَّةٍ من الأُمم، وأشارت إلى ذلك بيانات أهل البيتعليهم السلام، وأنَّ كل واحد من البشر بهذا المعنى مُسمَّى في القرآن، فإنَّ القرآن فيه قانون كل زمان، وفيه بيان أحوال وأوضاع الطغاة والمتمردين وغيرهم من فرعون ونمرود كل زمان.

---

(١) بصائر الدرجات، ج٢، ص٢٢٣؛ بحار الأنوار، ج٩٢، ص٩٤، ح٤٧؛ تفسير العياشي، ج١، ص٨٦، ح٥.

فإنَّ المسح لظواهر البشر وهويّاتهم في القرآن الكريم ينطبق في كل زمان على كل فرد فرد، وهذا أحد معاني أنَّ القرآن يجري مجرى الشمس والقمر والليل والنهار. ونفس هذا المعنى يمكن تطبيقه على قاعدة أسباب النزول على مستوى نظام الحقائق وأنَّ القرآن لا زال ينزل كل عام، وتحصيل مثل هكذا مطلب ليسَ بالسهل على باقي المناهج التفسيرية الأُخرى غير منهج أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات.

فمثلاً قوله تعالى ﴿تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ﴾[1] أي لا زال القرآن فيه تنزل كقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾[2] ومعنى يُفرق أي فيها استمرار، أو قوله تعالى ﴿يُنَزِّلُ الْمَلآئِكَةَ بِالْرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ﴾[3] أو قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاَوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾[4] وليسَ المراد من التلاوة، التلاوة الصوتية وإنَّما المراد أنَّ بقدرة المعصوم عليه السلام أنْ يُنزل كل آيةٍ في موردها في كل زمان بتنزيل وحياني إلهي، فتكون الآية الآن تنزل، والقرآن في كل سنة ينزل، وسيأتي مفصلاً في بحث أسباب النزول إلى أنَّ الآية الواحدة قدْ تنزل عِدَّة مرات في زمن رسول الله مُحَمَّد صلى الله عليه وآله، ويبقى التساؤل في معنى النزول هو أنَّه كيف تنزل نفس الآية عِدَّة مرات علماً أنَّ ألفاظ الآية الواحدة تنزلت على رسول الله صلى الله عليه وآله، فكيف تنزل نفس الآية بواسطة جبرائيل من الله على رسول الله صلى الله عليه وآله في مورد آخر بنفس الآية، فهذا هو معنى النزول.

---

(١) سورة القدر: الآية ٤.

(٢) سورة الدخان: الآية ٤.

(٣) سورة النحل: الآية ١٦.

(٤) سورة البقرة: الآية ١٢١.

ومعنى النزول هو أنْ يأتي بأمر إلهي بهذهِ الآية بأنْ تُطَبَّق في هذا المورد هذا في التنزل الأوَّل، وعليه فما معنى التنزل الثاني؟.

الجواب: نفس معنى التنزّل الأوَّل، والتزم به جملة من الأعلام كالمجلسي ﴿ من علمائنا وغيره، وبعض علماء العامة، فمثلاً أحد أسباب تسمية سورة الحمد بسورة المثاني ـ وليسَ المراد من المثاني مثنى مثنى أي مرتين ـ هو أنَّ المراد من المثاني أي ما ليسَ بواحد أي أنها تنزّلت عِدَّة مرّات بنفس ألفاظها ومعانيها.

وعليه فما هو وجه الحكمة من ذلك؟

تقدَّم أنَّ القرآن فيه تشريعات وفيه سلطة قضائية، وأنَّ الحاكم الأوَّل هو الله تعالى والذي يُطبِّق هذا التشريع الإلهي بعد الله تعالى هو رسول الله ﷺ فيكون التطبيق تارة إلهي وأُخرى بشري.

ومن خلال الآيات القرآنية المتقدمة فإنَّها دَلَّت على الاستمرار بالنزول الذي هو أحد معاني النظام الثالث وهو معاني الحقائق لقاعدة أسباب النزول.

وعليه فإنَّ أسباب النزول معناها وجود حاكمية أولى وهي لله تعالى في دولة الرسول الأكرم ﷺ وأمير المؤمنين عليه السلام والأئمة عليهم السلام فإنَّ حاكمية الله تعالى هي في كل زمان ومكان ﴿إِنِ الحُكْمُ إِلا لِلهِ﴾[1] وحكم رسول الله ﷺ كحكم الله تعالى ولكنه ﷺ يحكمَ بعنوان خَليفة الله تعالى في أرضه، وهذا هو معنى التنزيل.

---

(١) سورة الأنعام: الآية ٥٧.

إذنْ الله تعالى يُطبِّق الآيات أي يُنزلها، والحاكم الثاني بعد الله تعالى هو رسول الله صلى الله عليه وآله، ثمَّ أمير المؤمنين عليه السلام ثم باقي الأئمة عليهم السلام - وحينئذٍ يكون التنزيل له جانب في نظام المعاني وكذلك في نظام الحقائق وسيأتي الكلام حوله مفصلاً في محله إنْ شاء الله تعالى.

الخلاصة: إنَّ انفتاح القاعدة الواحدة على الأنظمة الثلاث والقواعد الأُخرى تتبعه صعب وليسَ بالسهل؛ لأنَّه يصبح موضوعاً شائكاً متداخلاً يحتاج إلى بذل مزيد الوقت والجهد في بيان خيوط الارتباط وكيفيتها.

الأمر الثالث

الدليل على إمكان تكرار استعمال القاعدة الواحدة في الانظمة الثلاثة

تقدَّم أنَّ مِن أهم مميزات وخصائص وتداعيات تأثير منهج أمومة الولاية والمحكمات على باقي المناهج التفسيرية الأُخرى هو أنَّ منهج الأمومة والولاية فيه ثلاثة أنظمة؛ النظام الاستعمالي اللفظي، والنظام المعنوي، والنظام الحقائقي، وبيان ارتباط القواعد فيما بينها، أمَّا أنَّ المُفَسِّر استطاع أنْ يكتشف أو لا فذاك بحث آخر ترجع إلى رصيد معلومات وتراكم خبراته العلمية.

وعليه فما دام توجد هناك وحدة مشتركة بين الأنظمة في كل قاعدة قاعدة فإنَّ الكل سوف يَؤُم وإلى مركز واحد وإنْ لم تكن تلك الوحدة وحدة موضوع ولا وحدة معنى، ولا يلزم من تطبيق القاعدة الواحدة في الأنظمة الثلاثة أي تهافت وتنافي في المعنى.

الأمر الرابع

الدليل على العموم

الدليل الأوَّل: أمَّا بالنسبة إلى النظام الأوَّل: ـ وهو الاستعمال اللفظي فهو عربي مبينٌ فغير مختص بتطبيق قاعدة.

الدليل الثاني: نظام المعاني فإنَّه ليسَ له اختصاص بالعربي وإنَّما يشمل

غير العربي، بلْ له نظام إنساني مشترك بلْ ليسَ منحصراً بلون إنساني ولغة إنسانية خاصة، ونظام عالم المعاني ليسَ مقتصراً على عالم الإنسان وإنَّما يشمل عوالم أُخرى كعالم الجن وعالم الملائكة وعوالم الحيوان كما في الهدهد والنملة ... الخ، فإنَّها تدرك بعض المعاني من مخلوقات عالم الأرواح.

وهكذا النظام الثالث حقائق القرآن فهو كعالم المعاني عام لكل المخلوقات.

الدليل الثالث: عموم الخطاب القرآني لغير الثقلين، وإنْ كان هناك بعض المفسرين لعله اشتبه عليه الأمر وتوهم أنَّ الخطابُ القرآني مختص ببعض الخلائق، والحال أنَّ الخطابات القرآنية تعمُّ جميع الخلائق.

نعم، الخطاب باللغة العربية يختصّ بالإنس والجن والملائكة، أمَّا الخطاب بالمعاني أو الحقائق فهذهِ درجة من درجات الخطاب القرآني فهي ليست مختصة بالثقلين، وأنَّ الدين يعم كافة أنحاء المخلوقات.

هذا مضافاً إلى أنَّ الدين ليسَ خاصاً بنشأة دار الدنيا أو خاصٌّ بنشأة البرزخ أو نشأة الآخرة، وإنَّما الدين يعم كل النشآت ويمثِّل العلاقة الخالدة بين الخالق والمخلوق سوءا كانت العلاقة تكوينية أم لا.

لا كما توهّمه العلمانيون مِن أنَّ الدين الذي بَرزَ به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله مُختَصٌّ بقرون معينة في الأرض.

وعليه فالدين غير الشريعة فإنَّ الدين كأركان وعقائد عامٌّ لكل النشآت ولا يختص بنشاة دون أُخرى، كما وأنَّه ليسَ مختصاً بالثقلين وإنَّما يشمل كل عوالم الخِلْقة ﴿وَلَهُ أَسْلَمَ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾[1] و ﴿إِنَّ

---

(١) سورة آل عمران: الآية ٨٣.

الدِّينَ عِندَ اللّهِ الإِسْلاَمُ ﴾[١] و ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ ﴾[٢] و ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴾[٣].

والله تعالى مالِك يوم الدين وعليه مداينة كل الخلائق كما أشار إلى ذلك أمير المؤمنين عليه السلام في بعض خطبه **«إنَّ حكم الله لأهل الأرض والسماء لواحدٌ»**.

وعليه فحكم الله تعالى واحدٌ في الدنيا والبرزخ والآخرة هي بلحاظ الدين واحد، وحيث إنَّ الغالب في القرآن الكريم هو الدين والقليل فيه بالقياس إلى الشريعة فإنَّ الشريعة خاصة بالثقلين ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾[٤].

والخلاصة إنَّ القرآن فيه ثلاثة أنواع من الخطابات:

١ ـ خطاب لفظي استعمالي.

٢ ـ خطاب معاني.

٣ ـ خطاب حقائق.

---

(١) سورة آل عمران: الآية ١٩.
(٢) سورة مريم: الآية ٩٣.
(٣) سورة المائدة: الآية ٤٨.
(٤) سورة المائدة الآية ٤٨.

الأمر الخامس

التسلسل الهرمي لقواعد الأنظمة الثلاث ـ والحاكم هو النظام الثالث ـ نظام الحقائق

بعد بحث قدْ طال به المقام في القواعد التفسيرية ـ وصلنا بحمد الله تعالى إلى هذهِ النتيجة المهمة والخطيرة وبشكل برهاني وهي:

إنَّ قواعد نظام حقائق القرآن الكريم ـ وهي النظام الثالث حسب تسلسله بعد أخويه ـ هو أعلى مرتبة في الإحكام، ومن الواضح أنَّ المحكم في رتبةقواعد معاني القرآن، وقواعد معاني القرآن الكريم أشد إحكاماً من المحكم رتبة في قواعد ألفاظ القرآن أي قواعد الاستعمال اللفظي للقرآن لوجوهٍ عِدَّة:

الوجه الأوَّل: قاعدة تحكيم المحكم على المتشابه.

الوجه الثاني: قاعدة تحكيم الأشد إحكاماً على المحكم.

الوجه الثالث: قاعدة تقديم ذو القرينة الأقوى على الأضعف، وغيرها.

وقد تميّزت مدرسة أهل البيتعليهم السلام عن بقية المدارس الأُخرى باختصاصها بقواعد نظام وجود الحقائق في القرآن الكريم وهذهِ القواعد فتح أهل البيتعليهم السلام بابها وأنها محاور وأصول القواعد، ولكن بقيّة المدارس الاخرى مُغيَّبٌ عنها مجموعة قواعد النظام الثالث ـ حقائق القرآن ـ

وتقتصر تلك المناهج التفسيرية الأُخرى [غير مدرسة أهل البيت ومنهجنا التفسيري المختار أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات] على مجموعة قواعد التفسير في النظام الأوّل وهو الاستعمالي اللفظي، أو نضم إلى النظام الأوّل في أحسن الأحوال وأقصاها النظام الثاني مجموعة قواعد التفسير المعاني وأمّا بلحاظ مجموعة قواعد بالنسبة للنظام الثالث ـ أي نظام الحقائق في القرآن ـ فقد غيّبته المناهج التفسيرية الأُخرى لدى مفسري العامة وغيرهم وحرموا أنفسهم من النهل من ذلك المعين الوحياني الإلهي الذي لا يأتيه الباطل وهو نظام حقائق القرآن الذي هو من مختصات مدرسة أهل البيت عليهم السلام، ومنهجنا التفسيري أمومة الولاية على المحكمات فضلاً عن المتشابهات، وهذهِ الميزة تؤشر إلى ملحمة تفسيرية مهمة جداً واختلاف منهجي عميق في منهج التفسير الذي يوصي به أهل البيت عليهم السلام مع المدارس والمناهج التفسيرية الأُخرى.

ومنهجنا المختار كما بيّنا سابقاً ـ أمومة الولاية في تفسير المحكمات ـ هو الذي بيَّنه الإمام الصادق عليه السلام «**إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن**»[1] والمراد من الولاية ليست فقط بيان قواعد معنوية ولغوية فقط، وإنّما الولاية يراد بها بالأصل هي الحقيقة والكيان التكويني.

وهذا الحديث المبارك نداء صارخ بأنَّ المركزية في تفسير المحكمات فضلاً عن المتشابهات لا يتمُّ إلّا بالولاية أي بحقائق تكوينية ويرسم لنا العلاقة والنسبة بين المجموعات الثلاث من قواعد تفسير القرآن كالتالي:

المجموعة الأولى: قواعد النظام الاستعمالي اللفظي وهي بمثابة

---

(١) تفسير العياشي ج١، ص٧٨ ح٨.

المراتب النازلة من النزول الثاني للقرآن.

المجموعة الثانية: قواعد نظام المعاني ـ وهي بمثابة الدَرَجة الصاعدة من النزول الثاني.

المجموعة الثالثة: قواعد حقائق القرآن وهي بمثابة النزول الأوّل، وهو ذو درجات، وعليه فرسم هكذا خريطة في تفسير القرآن مهمة جداً.

تنبيه مهم: المدار في التفسير على نظام المجموعة الثالثة ثم المجموعة الثانية ثم الأولى لا العكس. وهذهِ قواعد بنيوية في صناعة منهج التفسير ـ لا ترف فكري، والسبب في اختيار المجموعة الثالثة هي المهيمنة هو: ـ

أوليس المفسرون يُحكِّمون المحكم على المتشابه؟ الجواب: بالإيجاب.

أوليس المفسرون يُذعنون بأنَّ الأشد إحكاماً يُحكَّم على المحكم؟ الجواب: نعم.

وهذهِ قواعد في الاستظهار والتفسير هي قطب ومركز القرآن الذي تدور حوله بقيّة المحكمات فضلاً عن المتشابهات.

وعليه فإنَّ قواعد المجموعة الثالثة والنظام الثالث ـ نظام الحقائق ـ أشدُّ قرينيّةً وهيمنيّة على قواعد النظام الثاني ـ نظام المعاني، ونظام المعاني بدوره أشد هيمنة على قواعد النظام الأوَّل الاستعمال اللفظي.

وهذهِ نتيجة صناعية معادلية مهمة جداً في المنهجة التفسيرية.

قدْ يقول قائل: إنَّ النظام الأوَّل ـ الاستعمال اللفظي ـ هو المُحكَّم أولاً وآخراً وهو الجسر الموصل لنظام الحقائق ـ النظام الثالث ـ وهذا طريق الوصول إلى الحقائق لغير المعصوم عليه السلام، وعليه فكيف عكستم وقلتم

الحقائق هي المدار والمُحَكَّم؟

وهذا الاعتراض نظير ما بُحِث في علم البلاغة وعلم الأصول من أنَّه هل الدلالة التفهيمية هي المحكّمة على الدلالة الاستعمالية أو العكس أو التفهيمية هي المحكمة على الدلالة الجدية أو العكس و ... الخ.

والصحيح كما بَيَّنا في محَلِّه: ـ إنَّ الطريق إلى الدلالة الجديّة يكون عبر الدلالة التفهيمية والاستعمالية، أي: ـ استعمالية ثم تفهيمية ثم جدية لا العكس هذا في مرحلة الإثبات وهو طريق إني، وفي كل واحد منها طبقات، كذلك هنا يقال: ـ

إنَّ قواعد الاستعمال اللفظي بمثابة الدلالة الاستعمالية، وقواعد نظام المعاني للقرآن بمثابة الدلالة التفهيمية أو الجديّة النازلة، وقواعد نظام حقائق القرآن بمزلة الدلالة الجديّة النهائية.

خلاصة الاعتراض: قدْ يُقرَّر أنَّ العكس هو الصحيح أي أنَّ قواعد النظام الاستعمالي هي التي تُحكَّم على المعاني، والمعاني تُحكَّم على قواعد نظام الحقائق.

أُجيب عن هذا الاعتراض: في علمي البلاغة وأصول الفقه بأجوبة عِدَّة مفادها هناك فرقٌ بين جهتي المتكلم في مقام الثبوت ومقام الإثبات، فإنَّه في مقام الإثبات، فإنَّ المتكلم يبتدأ بالدلالة الاستعمالية، ثم الدلالة التفهيمية، ثم الجدّيّة أي الألفاظ ثم المعاني ثم الحقائق.

وأمَّا في مقام الثبوت: فإنَّ المتكلم لأجل أنْ يوصل ما في ذهنه وما لديه من واقعية إلى الطرف الآخر فتتشكل عنده معاني عن تلك الواقعية،

فإنَّ المعاني في مثل هذهِ الحالة تدفع نحو الألفاظ، وعليه يكون الابتداء في مقام الثبوت بالحقائق ثم الواقعيات ثم معاني صور منعكسة للمعاني ثم الألفاظ.

وفيه: إنَّ هذا الجواب صحيح وسديد إلّا أنَّه ليسَ هو كل الحقيقة، فإنَّه في الجهة الإثباتية قطعاً لا طريق لنا إلى المعاني إلّا بالألفاظ أي ببركة قواعد النظام الاستعمالي اللفظي نصل إلى نظام المعاني، كما أنَّه لا وصول لقواعد حقائق القرآن إلّا بالمعاني، فإنَّ مثل هذا في عالم الإثبات فقط، وليسَ الأمر كذلك في عالم الثبوت وإنَّما بالعكس.

وعليه فالثمرة في اختلاف قوس الثبوت عن قوس الإثبات في حدود سيطرة وهيمنة الدليل الإثباتي فقط لا الثبوتي، ويظهر الفرق فيما لو كانت لدينا ثوابت في المراد الجدي.

وذكرنا سابقاً أنَّ هناك قرائن لفظية ثم استعمالية ثم تفهيمية ثم جدّيّة، والقرائن الاستعمالية إنَّما يُعَوَّل عليها فيما إذا لم يكن في البين قرائن خاصّة ـ أي قرينة تفهيمية ـ لأنَّ القرينة التفهيمية مقدمة على الاستعمالية في تحديد المراد التفهيمي؛ لأنَّ المعنى التفهيمي مستخلَص من الدلالة الاستعمالية فيما إذا لم يكن في البين قرينة تفهيمية وانحصر الطريق بالاستعمال، فالقرينة التفهيمية مقدمة على الاستعمالية كالأصل العملي لإحراز التفهيمية، حيث لا دليل خاص ولا أصل.

أمَّا إذا كانت هناك قرينة تفهيمية خاصة فإنَّها مُقدَّمة.

كذلك الكلام في القرائن الجديّة إنَّما يُعَوَّل في استكشاف المراد الجدي على الدلالة والقرائن التفهيمية إذا لم يكن هناك قرينة على الجد، وإلّا لو

كانت هناك قرينة خاصة على الجد فهي مُقدَّمة.

ومن هذا يتضح أنَّ الدلالة التفهيمية مقدمةٌ وهي بمثابة الدلالة العامة على العموم وكذا التفهيم يوصل إلى الجد، والأصل في التفهيم أنَّه كاشف عن الجد.

وكذلك الكلام إذا وجدت قرينة على الدلالة الجديّة فإنَّها مقدمة على التفهيمية، وقدْ ميَّزوا علم البلاغة وعلم الأصول: ـ بين طبقات القرائن:ـ

فإنَّ هناك طبقة من القرائن استعمالية، وطبقة تفهيمية، وطبقة جديّة؛ لأنَّ القرينة الاستعمالية قدْ تكون قرينة على استعمال اللفظ في غير ما وضع له، وعليه فتكون قرينة المجاز ـ أي الدلالة الاستعمالية ـ مقدمة على الوضع اللغوي أي الدلالة التصورية مع أنَّ الوضع اللغوي في الأصل يُعتمد عليه في استكشاف الدلالة الاستعمالية لتقدم الدلالة الوضعية التصورية لكن فيما انتفت القرينة الاستعمالية.

إذنْ ـ إلى هنا صار عندنا أربع دلالات: ـ

١ ـ دلالة تصورية وضعية.

٢ ـ دلالة استعمالية.

٣ ـ دلالة تفهيمية.

٤ ـ دلالة جديّة.

فيكون إثبات الدلالة القويّة ينحصر عن طريق الدلالة الضعيفة حيث لا شاهد على القوي.

أمَّا إذا عُلِمَ قرينة القوي كقرينة الجد أو قرينة التفهيم أو الاستعمال عُلِمَ القوي ثبوتاً بقرينة خاصة فإنَّه حينئذٍ لا يعوَّل على قواعد الاستعمال حتّى في الإثبات.

وعودة إلى صلب الموضوع الذي كنَّا فيه: ـ المفروض أنَّه حتّى في نظام الحقائق الذي هو المهيمن على أخويه من النظام اللفظي والمعاني، هناك جملة من المسلمات معلومة إلّا أننا نستعلمها من آيتين أو ثلاث، أو من لفظٍ أو أكثر كما في مثل حقيقة ليلة القدر عُلِمت وأنها حقيقة متجليّة في القرآن.

وعليه أصل ليلة القدر بهذا التظافر ليسَ استعلامها بالدلالة الاستعماليّة ولا الدلالة المعنوية، وإنَّما ليلة القدر باتت حقيقةً عند المسلمين بأنَّه لو رُفِعت ليلةُ القدر لَرُفِع القرآن فهذا مثالٌ من أمثلة النظام الثالث ـ قواعد نظام الحقائق ـ والمفروض أنَّ القواعد في نظام الحقائق مُبَدَّهةٌ ومُحكَّمة وكلامنا في الحقائق التي هي مُحْكَمٌ.

خلاصة الجواب المتقدم: ـ إنَّ نظام الحقائق هو المقدم على أخويه ـ اللفظي والمعنوي ـ ثبوتاً وإثباتاً في القرائن التي هي في رتبته.

الأمر السادس

علم النبرة الصوتي

«النظام الصوتي الإعجازي في الكلام»

وهذا النظام يختلف عن النظام اللغوي، وأنَّ نفس الأصوات لها نظام خاص وهو أيضاً على أقسام:ـ

منه ما يرتبط بعلم الهندسة الصوتية.

منه ما يرتبط بعلم الهندسة الموسيقية.

منه ما يرتبط بعلم الهندسة والنغمات.

ومن الواضح أنَّ علم النظام الصوتي هو علمٌ مستقلٌّ برأسه؛ ولذا كان رسول الله ﷺ عندما يقرأ القرآن ينجذب إليه كل مخلوق حواليه يصل الصوت إليه، أو يضطر المشركون إلى سماعه وكانوا يتواعدون بالعَلَن على عدم الإصغاء لتلاوة النبي الأكرم ﷺ في مكّة أيّام الإسلام الأولى، إلّا أنَّهم سرعان ما ينكثون عهدهم على بعضهم البعض بمجرد أنَّ يسمعوا تلاوة النبي ﷺ للقرآن فيذهبون كلُّهم ويتسمعون إلى قراءة القرآن بالنظم الصوتي الخاص الذي يُلقيه النبي ﷺ بغض النظر عن عظمة القرآن.

والقرآن له أبعاد عديدة أحدها: أنَّه للقرآن نبرة صوتية خاصّة ولحن خاص بآيات الذكر الحكيم، ولها أوزان خاصّة اكتشفها المتخصصون بهذا المجال وأنَّ فيها أسراراً خاصّة وفوائد جمّةً.

ويذكر المتخصصون في علم الصوت والأوتار أنَّ للنبرة الصوتية واللحن الخاص بآيات الذكر الحكيم معالجة ومداواة لكثير من الأمراض الروحيّة للمصابين بها، بلْ حتّى الأمراض البدنية يتمُّ معالجتها بذلك بجدارة.

في حين أنَّ الشارع الأقدس حَرَّم أموراً منها: ـ الاستماع للموسيقى لِما في التحريم من أسرار عجيبة.

وعليه فمن يستطيع أنْ يدعي أنَّه يحيط بالظاهر للقرآن الكريم الذي هو بين الدفتين، فضلاً عن بطون القرآن، ولا يتخيل أنَّ التعبير بالدفتين كناية عن الحصر، وإنَّما هذهِ البينية مخزن لم يفتح إلى الآن، وكلما يُغترف منه لا زال فيه دررٌ وجواهر لا تنتهي، هذا هو التنزيل.

وهكذا روي أنَّ الإمام الحسنعليه السلام كان عندما يقرأ القرآن ينقطع الطريق نتيجة جلوس كل مَن يَمُرُّ بباب الإمام الحسنعليه السلام للاستماع إلى ذلك الصوت وتلك القراءة الحزينة لما لها تأثيرها على الروح والنفس.

وهكذا الإمام زين العابدين علي بن الحسينعليهما السلام وعمتُه العقيلة زينب بنت عليعليهما السلام عندما قرات تلك الآيات القرآنيّة الشريفة في خطابها التأريخي وبيانها ذو النبرة الصوتية الخاصّة في مسجد الكوفة والشام إذْ هَدَأت الأصوات لتصغي للاستماع إليها كأنّما تَفْرُغ عن لسان أبيها أمير المؤمنينعليه السلام ذو النظم الصوتي الخاص.

الأمر السابع

﴿ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ ﴾[1]

التعريف الأوَّل للقرآن إنَّه ذكر وقرآنٌ مبينٌ، لم يبحث وللأسف إلى الآن الفرق بين الذكر وبين نظام الذكر في الألفاظ لا من قبل علماء البلاغة ولا الأدباء ولا المنطق ولا الفلسفة ولا التجويد، فإنَّ علماء التجويد مثلاً لم يبحثوا عن قواعد علم التجويد في ألفاظ القرآن الكريم من التركيز على مهارة التلاوة والترتيل الذي يُفيد الذكر وإنَّما يصبون اهتمامهم على تنميق وتنويق ألفاظ القرآن الكريم وإنْ كان هذا هو نعم التحريض إلّا أنَّه ليسَ هو الغاية العليا المتوخاة في المقام، وإنَّما الغاية العُليا المنشودة هو أنْ يكون تجويد القرآن أو ترتيله يُحْدِث ذكراً في قلب المستمع فمثلاً كانت تلاوة النبي الأكرمﷺ تمغنط عُتات قريش الذين كانوا يتواعدون ويتحالفون على أنْ لا يصغوا إلى قراءة النبيﷺ إلّا أنَّهم ـ كما مَرَّ ـ سرعان ما ينكثون وعودهم وعهودهم فيأتون خُفية وفُرادى ويصغون إلى قراءته؛ لأنَّ فيها جاذبية خاصة ولم يحدثنا تاريخ الإسلام أنَّ أبا سفيان أو أبا جهل أو الوليد بن المغيرة أو عتبة أو شيبة أو غيرهم من عتات قريش أنَّهم أتوا وأصغوا لمسلم من المسلمين يقرأ القرآن في مكة ما عدا سيد الأنبياءﷺ كانوا يأتون ويصغون إليه في مكة.

وهكذا الخوارج كانوا يأتون ويصغون إلى قراءة علي بن أبي طالبعليه السلام للقرآن في الصلاة رغم عداوتهم اللدودة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالبعليه السلام.

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

وهكذا هناك قصص كثيرة مذكورة في محلها تدلُّ على كيفية جذب قراءة المعصوم لأعتى أعداء المعصوم عليه السلام في تلك القراءة في التجويد الذكري للنبرة الصوتية بهندسة خاصة للصوت تجذب وتوجد ذكر لا أنها توجد رنين عابر، وهذا الذكر حتّى على صعيد الهندسة الصوتية الذي هو التجويد له قواعد خاصة أيضاً إلّا أنَّه لم يتنبه إليها البشر.

والنتيجة التي ننشدها: ـ أنَّه بناءً على ما وَرَدَ في كلمات أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وباقي الأئمة عليهم السلام من التأكيد على مبحث التعريض وله قواعد وموازين من علوم شتى وما أُبدي من بحوث بالنسبة لمبحث التعريض من قبل علماء البلاغة والنحو والصرف والأدب والمنطق والأصول والتفسير و ... الخ فهو قليلٌ جداً، وعلينا أنْ نولي اهتماماً خاصّاً بمبحث عالم التعريض وترامي الدلالات ويجب أنْ نشيِّد أركانه، ومن الخطأ أنْ يدعي مُفَسِّر أو أي باحث في أي علم من العلوم الدينية في الفقه وغيره بأنْ يحبس نفسه على قدر ما قُرِّرَ من قواعد في ذلك العلم أو ما توصِل إليه؛ لأنَّ استكشاف دلالات القرآن لابدَّ أنْ يكون منضبط طبق موازين وقواعد، وهو متواصل ومتلاحق إلى يومنا هذا فإنَّ العلماء يكتشفون شيئاً فشيئاً بشكل متعاقب ومتسلسل ومنتظم ولا يعني هذا أنَّ ذلك هو كل عالم الدلالة الخفيّة كلا وإنَّما هو جزء من تلك الحقيقة ولا زال طريق البحث والتأمل والاكتشاف مفتوح أمامنا ونواصل المسيرة في هذا الجانب وفق قواعد الانضباط وتفعيل القواعد إلّا أنَّه ينبغي الالتفات إلى أنَّه يجب أنْ نفرِّق بين أمرين: ـ بين أنْ نكون حبيسين دائرة محدودة من تلك القواعد وبين أنْ نفتح الباب لتحري قواعد أكثر وأوسع.

الأمر الثامن

خروج الوزن الصوتي للقرآن عن أوزان الشعر

نشير إجمالاً لما يرتبط بهذا المقام ـ وسيأتي تحقيقه في محله إنْ شاءِ الله تعالى ـ وهو أنَّ القرآن ليس بشعر المستفاد من قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾[1] فإنَّ القرآن ليسَ بشعر ولا خيَال ولا خطابة ولا مغَالطة ولا استعارة ولا باقي الأقسام اللغوية، وإنَّما القرآن ذكرٌ وسيأتي تحقيق معنى الذكر وإلى الآن هناك قواعد في أسلوب القرآن لم تكتشف من قبل علماء النحو والبلاغة والصرف والأدب و ... الخ علماً أنَّ تلك القواعد موجودة بالفعل ولكنَّها غير مكتشفة وهذا هو سر الإعجاز في القرآن، وسيأتي كل ذلك مفصلاً إنْ شاء الله تعالى في مبحث الإعجاز اللغوي في القرآن، ومعنى الإعجاز هو أنَّ القرآن فيه قواعد قاهرة مُعْجزة ومَعَجّزة للبشر عن أنْ يتفطنوا إليها، يعجزوا عن نيل هداه وقواعده الوقوف والإحاطة عن الوصول لمثل هذهِ القواعد، وعلى هذا التفسير للإعجاز يأتي تساؤل أو إشكال أو ليسَ المعجزة التكوينية خارجة عن قوانين تكوين خلقة الله وإنَّما هي على وفق قاعدة العلة والمعلوم والأسباب والمسببات إلّا أنَّ البشر يعجز عن التفطن لسبيل وقناة المعجزة، فمثلاً كيف يَحْمِل الجَبل بناقة وتخرج الناقة من الجبل التي هي معجزة قوم صالح، وهكذا معجزة موسى عليه السلام انقلاب العصا حيَّة تسعى

---

(١) سورة يس: الآية ٦٩.

فكيف تنقلب العصا التي هي حطب إلى حيوان فهي لا زالت مُعْجزة عجز البشر عنها وإنْ كانت هي قوانين تكوينية موجودة ولكن لم يقف ولم يلتفت البشر إلى هذهِ الحقيقة وهذهِ المعاجز الحقيقية وعلى هذا صار معنى الإعجاز اللغوي في القرآن هو عبارة عن قواعد فيها أداءٌ لغوي جبّار ولكن لا يلتفت ولا يفطن إليها البشر بشكل وآخر إذْ لو اكتشفوها واستخدموها لأتوا بمثله آية أو سورة، ومن الواضح أنَّ القرآن فيه إعجازات كثيرة وغفيرة على مستوى عالم النظام الاستعمالي اللفظي واللغوي والبلاغي ونظام المعاني ونظام عالم الحقائق.

إذنْ المعجزة اللغوية في القرآن إلى الآن غير مكتشفة معانيها وأسرارها وغير منكشف القواعد التي تتحكم في النظام الصوتي وأي قواعد تتحكم في نظام الدلالة الاستعمالية وأي قواعد تتحكم في نظام الدلالة التفهيمية، وقواعد الدلالة الجدية و ... الخ.

وكذا غير مكتشف لحد الآن أي لم تضبط ضمن ضابطة معينة القواعد التي استعملها القرآن الكريم في بيانه وأي قواعد بديعية جماليّة مرصعة في ألفاظ القرآن، وأي أوزان تفعيلات القرآن الكريم؟ فلاحظ سورة القرآن الكريم وآياته لها نغمات صوتية خاصة وجوٌّ بياني خاص.

ولا يفهم من كلامنا حول المعجز اللغوي في القرآن أنَّه بلا قواعد وبلا موازين كلا، وإنَّما هي لغة موجودة لكن يعجز البشر عن اكتشافها وهناك مراكز دراسات ضخمة تحاول اكتشاف الأنظمة التي تتحكم في بيان القرآن إلّا أنها ما وفقت لذلك؛ لانها شفرة من شفرات معينة في النظام الصوتي لألفاظ القرآن وبياناته وكيفية أداء تلك الألفاظ، وهذهِ ملحمة

بيانية يختص بها القرآن لم يعطها الله تعالى إلّا لمن هم عِدْل القرآن أي النبي صلى الله عليه وآله وعترته أهل بيته عليهم السلام فهم يعلمون ذلك وقد علّمهم الله بتلك المعجزات اللغوية وغيرها في القرآن وكيفية انقلاب العصا من الشجرة إلى حيَّة تسعى أو كيف خرجت الناقة من الجبل.

أمّا بالنسبة إلى غير المعصومين وأنبياء الله تعالى ورسله فكما يميزون المعجزة التكوينية عن غيرها بالجملة وإجمالاً كذلك يمكن تميزآثار الآيات التي فيها إعجاز قرآني وأنّها حتماً موجودة ولها معادلات وقواعد كذلك ما نحن فيه نلمس إجمالاً أنَّ القرآن الكريم فيه دلالات وبيانات يفهمها الكل حتّى الطبقات النازلة تتأثر بها وتحس أنها تتأثر بها بلْ حتّى المدارس والمعاهد الغربيّة ـ التي تفطن وتَلُمَّ بجملة قواعد اللغة العربية ـ من العربية شيء ـ أثبتوا كيفية تأثير صوت القرآن على الجنين في بطن أمه وبسبب نوع من التأثيرات في عالم الروح وعالم خَلْق الإنسان كل ذلك ضمن قواعد موجودة غير مكتشفة وعليه فلا يمكن لمُفَسِّر أنْ يدعي أني محيط بكل دلالات القرآن إذْ لو استطاع لأتى بمثلها، وإنّما القرآن كله بيان فقط للذين أوتوا العلم ولأصحاب آية التطهير والذين يمسون القرآن الذي وصفهم ﴿لا يَمَسُّهُ إلا المُطَهَّرُونَ﴾[1] و ﴿بَل هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الذِينَ أُوتوا العِلمَ﴾[2] و ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأويلَهُ إلا اللهُ وَالرَّاسِخونَ فِي العِلمِ﴾[3] الذينَ هم مُحمَّد وآل مُحَمَّد صلى الله عليه وآله وما عداهم من بقيّة الناس فإنَّهم يلمسون درجات نازلة من القرآن الكريم فيعلمون ويتفطنون إلى تنزيل الكتاب بالطرف المنخفض منه لا نفس الكتاب.

---

(١) سورةالواقعة: الآية ٧٩.

(٢) سورة العنكبوت: الآية ٤٩.

(٣) سورة آل عمران: الآية ٧.

الأمر التاسع

خطاب القرآن عامٌ

بعض العرفاء والمتكلمين والفلاسفة والمدارس الإسلامية الأُخرى التبس عليها الأمر وتوهم أنَّ أفق دعوة القرآن محدودة بحد ونشأة الأرض ودار الدنيا فقط ولا يشمل عالم السماء ولا الجن ولا الملائكة ولا البرزخ ولا الآخرة ولا ... الخ فيكون القرآن على حساب بعض المفسرين كتاباً لنظام عالم الدنيا فقط، وإنْ توسَّع قليلاً بعضُهم بشمول خطاب القرآن للجن والملائكة بحدود عالم الدنيا فقط.

إلّا أنَّ هذا توهمٌ: وعارٍ عن الصحة فإنَّ القرآن الكريم بسحب تعليم بيانات أهل البيتعليهم السلام أنّه كتاب، خالد بخلود عوالم الوجود، ولا أحد يستطيع أنْ يستغني عن أسرار القرآن حتّى الملك في السماء فإنَّه يرتقي علماً بالقرآن وأسراره ومن هنا تظهر عظمة صاحب القرآن ألا وهو الرسول الأكرمصلى الله عليه وآله الذي بُعث لكافة المخلوقات، وعليه فيوجد بونٌ واسع بين طرح أهل البيتعليهم السلام لهذا المطلب وبين طرح العرفاء والمتكلمين والفلاسفة وبعض المدارس الإسلامية الأُخرى، بلْ حتّى النصارى أتباع عيسىعليه السلام وليسَ المقصود نفس عيسىعليه السلام ولا الحواريين أتباع عيسى وإنَّما المقصود من اتّبع عيسىعليه السلام وقال بأنَّ أفق دعوة الإنجيل بحدود الأرض وعالم الدنيا فقط، وهكذا اتباع النبي موسىعليه السلام في التوراة وباقي الكتب السماوية الأُخرى بينما في بيانات أهل البيتعليهم السلام: أنَّ جميع الكتب السماوية الإلهية من

التوراة والإنجيل والزبور والصحف والقرآن و... الخ هي مخاطب بها كل الخلائق، ولذا وَرَدَ في بياناتهم لا سيما رواية الإمام الصادق عليه السلام: **«إنَّ الله جعل ولايتنا أهل البيت قطب القرآن ...»**(١) من أنَّ أُفق التوراة أعظم مما فهمه أو يفهم اليهود وكذا الإنجيل أعظم مما فهم أو يفهم النصارى، وهكذا الزبور وباقي الكتب والصحف السماوية.

---

(١) تفسير العياشي، ج١، ص٧٨، ح٨، والكافي ج٢، ص٤٣٩.

فهرس الموضوعات